حضارات الهند

تأليف

الدكتور غوستاف لوبون

كتاب مصور
يشتمل على ١٨٦ صورة وخريطتين
وفق وثائق المؤلف وتصويره الشمسي ورسمه وتخطيطه

نقله إلى العربية

عادل زعيتر



دار العالم العربي
DAR AL-AALAM AL-ARABI

بيانات الفهرسة أثناء النشر

(إعداد: إدارة الشئون الفنية بدار الكتب المصرية)

لوبون، غوستاف

حضارات الهند /

غوستاف لوبون؛ نقله إلى العربية عادل زعيتر

.- ط 1 .- القاهرة: دار العالم العربي، 2009.

732 ص؛ 24 سم.

1. الهند، تاريخ

أ. زعيتر، عادل (مترجم)

ب. العنوان

ديوي 954

إهـــداء الكتاب

إلى

النائب ووزير الأشغال العامة السابق ووزير المالية الحالى

مسيو سادى كارنو

اعترافًا بما شَمِل به بِعثة المؤلف العلمية

إلى بلاد الهند من العناية



بسم الله الرحمن الرحيم

« الهندُ زُبْدَة جميع العوالم وخلاصةٌ ناطقة لجميع أدوار التاريخ وصورةٌ صادقة للأطوار المترجحة بين الهمجية الأولى والحضارة الحديثة » ، « ولا يتجلّى الماضى للسائح كتجليه فى بلاد الهند ، ولا يُحِسُّ السائح ما اعتور أجيال البشر من تطور وما بين هذه الأجيال من فروق ومن روابط بأحسنَ مما فى الهند ، فالسائح يعلم هنالك، فقط ، أن الحاضر منحدر من الماضى وأنه يحمل فى أثنائه بذور المستقبل » .

والهندُ تَمَثَّلت لخيال الأمم أرضاً لكل عجيب ، فكانت عُرْضة للغازى الأجنبية منذ القديم ، وكان الأجنبىُّ إذا ما دخلها استقرَّ بها واستغلها استغلالاً محلياً ، فلم يُفكّر فى إخراج خيراتها منها .

ويفتح الإنكليز بلاد الهند الواسعة الزاخرة بالسكان فى القرن الثامن عشر بمال الهند وجند الهند فيسلكون فى استعمارها طريق نفع إنكلترة دون الهند ، فيمتصُّون بركات الهند ليرسلوها إلى بريطانية ، وفى سبيل الهند يحتلُّ البريطان مصر فلا يجْلون عنها ، وفى سبيل الهند يفصل البريطان السودانَ عن مصر ، وفى سبيل الهند يقتطع البريطانُ فى القرن العشرين جنوب الشام المعروف بفلسطين فيمعنون فى تهويده مُمَثِّلين فى أهله العرب مأساةً أندلسية ثانية ، والهندُ قطرٌ عظيم يسكنه مئات الملايين من الآدميين ، والهندُ قطرٌ عظيم يملكه الإنكليز بألف موظف بريطانىّ وبجيش بريطانىّ لا يزيد عدد جنوده على مئة ألف !

وأبحث عما وُضع في اللغـة العربية عن الهند ، فلم أجد سوى مقالات قليلة هزيلة مبثوثة في بعض المجلات العربية ، ولم أجد سوى بضعة كتب صغيرة خاطفة لا تُسمن ولا تغني من جوع ، فيروعني ذلك ، فأرى أن أُتِمَّ هذا النقص بأن أنقل إلى العربية إحدى غُرَر الكتب المهمة التي أُلِّفت عن الهند .

وينشر العلامة الفيلسوف غوستاف لوبون سنة ١٨٨٤ كتاب « حضارة العرب » الجليل الخالد، ويتخذ في وضعه مِنْهاجاً لم يسبقه إليه أحد، ويَعْرِض فيه صورة واضحة لتلك الحضـارة العظيمة التي رَغِب في بعثها ، فيبدو فريداً في بابه ، فتسير بذكره الرُّكبان ، وننقل هذا السِّفْر العظيم إلى العربية وننشره في سنة ١٩٤٥ ، ويَتَقَبَّلُه العرب بقبول حسن .

وترسل الحكومة الفرنسية العلامةَ لوبون على رأس بعثة آثار إلى بلاد الهند ، ويَجُوب لوبون الهندَ طولاً وعرضاً فتسفر بعثته إليها عن وضعه سِفْراً جليلاً خالداً آخر ، فيسميه « حضارات الهند » وينشره سـنة ١٨٨٧ فيَعْدِل هذا الكتابُ « حضارةَ العرب » ضخامة ورَوْعَة وطرافة ويُعَدُّ تَوْءماً له .

ويستعين العلامة لوبون في وضع كتاب « حضارات الهنـد » بالأصول التي اهتدى إليها في كتاب « حضارة العرب » على الخصوص ، فيُعَوِّل ، كما ذكر ، على مُحْكَم الأسانيد ، ويَعْرِض تطورات النظُم الدينية والاجتماعية وعوامل هـذه التطورات ، ويبحث في الحوادث التاريخية كما يُبْحَث في الحادثات الطبيعية ، ويبعث الأجيال الغابرة بما انتهى إليه من الكتابات والنقوش والرسوم ويَعْرِض صورَ لبعض آثار تلك البلاد الهائلة التي هي مَنْبِت كثير من المدنيات والمعتقدات .

و يسير العلامة لو بون فى كتاب « حضارات الهند » على طريقة التحليل العلمى ، شأنه فى كتاب « حضارة العرب » ، فيوضح فيه الصلة بين الحاضر والماضى و يظل مخلصاً فيه لسُنَن النفس والتطور فينتهى إلى نتائج لم يَصِل إليها عالم قبله ، فيظهر هذا الكتاب للعالم بِدْعاً فى درس حضارات الهند درساً شاملاً ، و يظهر هذا الكتاب خيرَ كتاب عن الهند ، إن لم يكن من أحسن الكتب عنها ، وذلك فى بابه وروحه ومناحيه وقوة التحليل فيه ووصول لو بون فيه إلى ما نَشَدَه من الأهداف الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية الخ .

و يقع نظرى على كتاب « حضارات الهند » هذا ، وأقرأه بالفرنسية غير مرة وأسأل : هل أُوَفَّقُ لنقله إلى العربية مُوَطِّئاً موضوعاته الطريفة ومباحثه القاسية الكثيرة الأصول والفروع التى لا عهد لنا بها ووضعها فى قالب عربىّ خالص ، و يهون الأمر لدىّ ، بعد تردد ، خدمةً للعرب فى السياسة والعلم والأدب ، فأعزم على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية .

وترجمتنا لهذا الكتاب التاريخى الاجتماعى السياسى العظيم حرفية ، وراعينا مبدأ حرفية الترجمة من أول الكتاب إلى آخره مع الانسجام وعدم الإبهام وسهولة المنال .

والكتابُ خاصٌ بالهند ، و يشتمل على نحو ألف من أسماء الأعلام ، وتعوّدنا كتابة هذه الأعلام منقولةً عن مؤلفات الغرب ، فنكتب فى صحفنا وكتبنا ، مثلاً ، الكلماتِ : بوذا ، وهيالايا ، و بومباى ، ودلهى الخ . مع أنها تُكتب بالحروف العربية فى الهند هكذا : بُدّهَة ، وهِمَالْية ، وبَمْبِى ، ودهلى الخ . وأردنا أن نكتب أسماء الأعلام التى تشتمل عليها ترجمة هذا السفر كما فى الهند ، فبذلنا جهوداً

غير قليلة للحصول على جداول خاصة من الهند وغيرها فكان ما يجده القارئ في هذه الترجمة من رسم تلك الأسماء مثل ما في الهند .

وقضينا في سبيل ذلك كله أوقاتاً شديدة ولاقينا مصاعب كثيرة يقدرها القارئ ، ولم نر أن نضع لهذه الترجمة مقدمة مطولة ما نشرنا في آخر الكتاب فهرساً مفصلاً الموضوعات وما رأينا قيام هذا الفهرس المفصل مقام المقدمة المطولة ، وحافظنا على مظهر الكتاب كما في الأصل على قدر الطاقة ، فلم نستثن من صوره ورسومه سوى بعض ما نشره المؤلف بقصد تزيين الكتاب ، فيقوم ما اخترناه منها ، وهو معظمها ، مقامه ، ويؤدى إلى الغاية التي وضعها المؤلف أمامه ، وفي الكتاب خريطتان من تخطيط المؤلف رأينا إبقاءهما على حالهما لاكتسابهما قيمة أثرية مع الزمن .

وإننا نطمع أن تمتاز هذه الترجمة ، التي لم نتجوز فيها قط ، بالصحة والوضوح والدقة فلا يضيع فيها معنى ولا يضطرب فيها لفظ ، والله الموفق .

(نابلس فلسطين) عادل زعيتر

مُقدّمةُ المؤلّف

الهندُ من الأقطار التى شَمِلَت نظر العلماء والسيّاح والمتفننين والشعراء، وأثارت فيهم حبّ الاطلاع فى كل حين ، والهندُ عالَمٌ يختلف عن عالَمنا بجوّه وهوائه وأرضه وسكانه ، ولا شَبَهَ بين ما تعرفه الهند وما يعرفه الغرب من الأصول الدينية والمبادئ الفلسفية والفنون والآداب والنُّظُم والمعتقدات .

ذلك العالَمُ العجيب هو زُبْدة جميع العوالم وخلاصةٌ ناطقة لجميع أدوار التاريخ وصورةٌ صادقة للأطوار المترجحة بين الهمجية الأولى والحضارة الحديثة .

ظلّت تلك الأطوار التى جاوزها البشر دفينة تحت أعفار العصور زمناً طويلاً ، وحديثاً بدأنا نرفع الكفن الكثيف الذى يرقُد تحته أجدادنا ، وأخذنا نبعث أُسُس معتقداتنا ومشاعرنا وخيالاتنا .

والعلمُ لم يستطع ، بالحقيقة ، أن يُثْبِت الأطوار التى قطعها الغرب ليبلغ ما وصل إليه من المزاج النفسى والنظام الاجتماعىّ إلّا بعد أن ارتاد حَمَلَتُه أقطاراً كثيرةً ذات أمم متفاوتة فى نشوئها وارتقائها .

وفى الأرض بُقْعةٌ واحدة تكتنف مختلف العروق الممثّلة لجميع تطورات الماضى تقريباً ، وتلك البُقعة هى ذلك القطر الواسع العجيب الذى وَقَفْنا هذا السفر لدرسه ، ففى ذلك القطر إجمالٌ لتاريخ البشر ما اشتمل على جميع الأجيال ، وفيه تبدو جميع

الحضارات حَيّةً أو ماثلة فى عظيم الآثار ، وفيه نُبْصِر ما اعتور نظمَنا وعاداتِنا من متعاقب الصور والأحوال منذ البَداءة إلى الزمن الحاضر .

ويكاد يكون مفقوداً ما اصْطُلِح على تسميته بحوادث التاريخ التى يُظَنّ أنها ضرورية لبعث ماضى الهند ، ولا نأسف على ذلك كثيراً ، ما أدّت أخبار الملاحم والفتوح وأنباء الأُسَر المالكة التى تملأ كتب التاريخ إلى حَجْب سَيْر حياة الأمم الحقيقية وإخفائها ، وما وَدّ المفكرون أن يعرفوا مجرى الأَخْيِلة والمعتقدات والمشاعر السائدة لأحد الأجيال وتأثيرَ مختلف العوامل التى أوجبتها .

وفى كتابنا الذى جعلناه مقدمةً لتاريخ الحضارات[1] بَيّنّا كثرة تلك العوامل وأن الأمم جاوزت مراحلَ تطورٍ متماثلةً مع تباين تاريخ هذه الأمم الظاهر ، وأنه إذا ما رُئى أحياناً تباينٌ واضح بين أُمّتين فلمصاقبتهما أوجهَ تطور مختلفة على الخصوص .

ونحن ، وإن لم يكن لدينا تاريخٌ للهند بالمعنى الصحيح ، نجد فى الهند من الآثار الدينية والفنية والأدبية ما يَبْلُغ قِدَم بعضه نحو ثلاثة آلاف سنة ، ولهذه الآثار من الأهمية ماليس لقِصَص المؤرخين ، فبمثل هذه الآثار تَنْفُذ حياة الأمم ، فنقوشُ معبد هندوسىّ خَرِب خيرٌ من تواريخ الملوك فى إخبارنا عن سرائر قدماء الهندوس ، وقلْ مثلَ هذا عن كتب الأدباء والقصائد والأقاصيص والأساطير فى الدلالة على تلك السرائر .

وفى الآثار الأدبية يجب أن يُبْحَثَ عن روح الأمم ، فالشعراء والقاصّون إذ كانوا سريعى الانفعال شديدى التأثُّر فإنهم يعانون تأثير بيئتهم ، أى تأثيرَ عِرْقهم

(١) كتاب (الإنسان والمجتمعات ومصدرها وتاريخها) ويقع فى مجلدين ، سنة ١٨٨١ .

وعصرهم ، أكثر مما يعانيه العلماء والمفكرون ، ويبْدُون مرآةً صادقة بليغة لهما .

أَجَلْ ، إن الشعراء والقاصّين يُشَوِّهون ما يَصِفونه ويبالغون فيما يُعَبِّرون عنه ، ولكنه ينطوى تحت ذلك التشويه وتلك المبالغة معانٍ كثيرةٌ ، فالشعراء والقاصّون يَتَقَمَّصون روح زمنهم فيألمون ويترنمون بآلام أبناء قومهم ومَسَارّهم وأمانيّهم ويترجمون عن عواطف أممهم وعن عقائد عصرهم ومشاعره ، فلا يكون أمر أية حضارة مجهولًا ما استوعبت ذاكرة الناس قصائدَ الشعراء وأقاصيص القاصّين .

بَيْدَ أن فهم معنى آثار الشعب الأدبية والفنية ، ولا سيما آثار الهندوس ، يتطلب دراسة هذه الآثار في أماكنها ، فبدراسة الحضارات في الأماكن التي ظهرت فيها وكَمُلَت نَتَمَكَّن من الاطلاع على روحها ونَتَحَرَّر من الحكم فيها بأفكارنا العصرية ، فلن يقدر علماء أوربة على اكتناه عبقرية أمة آسيوية ووصفها بتصفح ما في المكتبات من الكتب .

حقاً أن الهُوّة التي تفصل بين أفكار رجل غربيّ عصريّ وأفكار رجل شرقيّ عظيمةٌ جداً ، فما في أفكار الغربيّ من الدقة والإحكام يختلف كثيراً عما في أفكار الشرقيّ من الإبهام والتَّمَوُّج ، ومن العبث أن يطمع الغربيّ في استنباط ثبات أفكار الشرقيين من عدم تحول عاداتهم ، وبلغت أفكار الهندوسيّ ومعتقداته من الغموض والتذبذب ما تُقَصِّر معه لغاتُنا اللاتينية (الفقيرة في النعوت مع ما فيها من ضبط) عن الإفصاح عنها في الغالب .

* * *

اقتصر علماء أوربة في مباحثهم التاريخية عن الهند على ترجمة الأسانيد

السَّنْسكِرتية مع أن السَّنسكِرت ، لدى الهندوس ، لغةٌ ماتت منذ عدة قرون ويكاد شأنها عندهم يكون مماثلاً لشأن اللغة اللاتينية فى أوربة ، فتكون معرفتنا لتطور الهند من دراسة كتب الآداب القديمة وحدها متعذرة تعذُّرَ معرفتنا لأحوال الناس فى القرون الوسطى وفى عصر لويس الرابع عشر من دراسة كتب سيسرون وفيرجيل فقط .

ومن العسير أن نستعين بالكتب وحدها فنطلع على ما فى الويدا من الشعر الأغرّ وما أُثِر عن قدماء الحكماء من التأملات الفلسفية ومالا يحصى من الآلهة وما يخالف الذوق من الطقوس الصارمة ، فى الهند نفسها يجب البحث عن حضارتها الكبيرة الرفيعة وآثار عظمتها المحيرة للعقول ، فلا يتجلى مِفتاح الأسرار الملوءة بها آداب الهندوس إلاّ فى أطلال مدنها القديمة وفيما هو ماثل بين صُرُود[1] همالَية المتجمدة وسهول الدكن المحرقة من أطلال المدن القديمة ونقوش الزُّون[2] والقصور الزاهية الهائلة التى لم يَرِدْها الرُّوّاد إلّا حديثاً ، فى هذه الكتب الحجرية التى لا تعرف الكذب تُحفَظُ أفكار الأمم .

ومنذ عهد قريب فقط فُطِن إلى أهمية ذلك الطراز فى البحث ، فبينما يقضى كثير من العلماء أوقاتهم فى درس كتب الأدب البَرَهْمِيّ فيُسفر ذلك عن وضع ضخم المؤلفات ، وبينما يملأ أولئك العلماء فى العواصم الأوربية الكبيرة مالا يُعَدُّ من الدفاتر ، تجد اتجاهاً حديثاً إلى دراسة آثار الهند ومبانيها فى أماكنها .

---

(١) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع فى الجبال — (٢) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام وتزين .

ولا مِراء في أن الحكومة الإنكليزية عَيَّنَت لجنةً خاصة لبلوغ ذلك الغرض، غير أن هذه اللجنة لم تصنع غير حلّ الكتابات وفكّ رموزها على الخصوص ، ولم تنشر سوى رسوم هندسية لقليل من الآثار بدلاً من عرض صور هذه الآثار عرضاً يَعْلَم الغربيّ منه وجودَ فنون تختلف عن فنونه اختلافاً تامًّا .

وتزيد ضرورة معرفة تلك الآثار معرفة تامةً ما أغضى الأوربيون الفاتحون عن دُثُورها بفعل الزمن إن لم يُقوِّضُوها بمعاولهم ، فإذا ما أريد الحكم على ما يصِلُ إليه الأمر في المستقبل بما يقع في هذه الأيام قلنا إنه لا يبقى شيء من تلك العجائب التي أقيمت في قرون كثيرة قبل انقضاء خمسين سنة ، وإنني أذكر ما حدث في مدينة كَنْجُورَا القديمة مثالاً من بين ألوف الأمثلة المماثلة على ذلك الاستخفاف بالآثار ، فقد زال في الأربعين سنة الأخيرة نحوُ ثلث المعابد الستين التي كانت تُزَيِّن جيد هذه المدينة .

قال الجنرال الإنكليزي كَنِنْغْهَم منذ بضع سنين : « يستحيل على الباحث أن يجوب الهند من غير أن يأسف على ما أصيبت به بقايا مبانيها الأثَرِيَّة ، ولم تصنع الحكومة في قرن بعد الفتح الإنكليزي شيئاً تقريباً لحفظها وصيانتها ، مع أنها المصدرُ الوحيد لمعرفة أحوال الهند الغابرة التي لم يُدَوَّن لها تاريخ ، ولا ريب في زوال الكثير منها إلى الأبد ما لم تُخَلَّد بتصويرها ووصفها وصفاً مبيناً » .

فإذا حدث ما تَوَقَّعه الجنرال كَنِنْغْهَم ، وذلك ما نكاد نُبْصره ، أصيبت البشرية بخُسْر لا يُعَوَّض منه ، فالبشرية إذ سلكت سبيلاً جديداً بفعل مبتكرات العلوم وأضحت بذلك قادرة على التعبير عن أفكارها بسرعة عادت لا تحتمل صَوْغَ هذه الأفكار في قوالبَ حجرية يتطلب صنعها عدة قرون ، فلن نقيم من المباني

العجيبة كالتي أقيمت في عصور الجاهلية والايمان ، وليس لدينا مايحفز إلى إقامة أهرام وكنائسَ غوطيةٍ في زمن البخار والكهرباء .

والحكومة الفرنسية إذ أدركت مالآثار الهندمن القيمة الفنية والتاريخية عَهِدَت إلينا في دراسة هذه الآثار حيث هي ، فأسفرت بعثتنا عن وضع خمسة مجلدات مشتملة على أربعمئة صورة مُوَضِّحة ، فاقتبسنا بعضها في هذا السِّفْر .

وقد اعتمدنا على دراسة آثار الهند ، فنقيم كتاب «تاريخ حضارات الهند» هذا على أساس متين ، فقد زُرْنا جميع مباني الهند المهمة ومنها ما هو قائم في البِقاع التي لم يَرُدها الباحثون إلّا قليلاً ، كمِنطقة نيبال التي لم يدخلها فرنسيٌّ قبلنا ، فاستطعنا أن نَجْلو أموراً كثيرة في تاريخ الهندوس الديني وحضارتهم ، فمن ذلك أننا أثبتنا بما قمنا به من دراسة المباني أن البُدَّهية ، التي أراد علماء أوربة أن يجعلوا منها ديانة بلا إله مستندين في ذلك إلى كتب المذاهب الفلسفية التي وُضِعَت بعد ظهور بُدَّهَة بستمئة سنة ، هي أكثر الأديان قولًا بتعدد الآلهة ، وأوضحنا كيف غابت هذه الديانة عن البلد الذي نشأت فيه غياباً لم يَجِد العلماء له حلًا قبلنا .

واستعنا في هذا الكتاب بالأصول التي اهتدينا إليها في كتبنا السابقة ، ولا سيما كتاب « حضارة العرب » ، فعوّلنا على مُحْكَم الأسانيد وعرضنا تطورات النظم الدينية والاجتماعية وعواملَ هذه التطورات ، وبحثنا في الحوادث التاريخية كما يُبْحث في الحادثات الطبيعية ، ودرسنا المذاهب بحَذَر فكان لنا بذلك كلِّه نَهْجٌ خاص .

وبتلك الأصول تَمَكَّنا من الوصول إلى ما في مبادئ الهند الفلسفية والدينية

والاجتماعية المُعَقَّدة من المعانى البعيدة الغَوْر وإلى إظهار ما للآلهة القديمة الآفلة من الجَبَرُوت والتقديس .

* * *

وللفرنسيين فائدةٌ عمليــة واضحة من الاطلاع على أحوال الهند الحاضرة فضلاً عن الفوائد التاريخية والفلسفية والفنية التى تُجْتَنَى من دراسة ماضيها ، فمن المهمِّ أن يُعْرَف فى هذا الزمن ، الذى يتحدث الناس فيه عن الاستعمار ، كيف استطاعت أمة أوربية أن تسيطر بألف موظف وستين ألف جندىّ على إمبراطورية مؤلفة من ٢٥٠ مليون شخص ، وقد أتيح لى بما اتفق لى من الصلات بأكابر موظفى الإنكليز فى أثناء إقامتى بالهند ، أن أطلع على دقائق إدارة الهند العجيبة التى لا تعرف أوربة عنها إلاّ قليلا .

وهنالك أسباب ، أهمُّ من تلك على ما يحتمل ، تدعو إلى البحث فى شؤون الهند الحديثة ، فقد اقتربت الساعة التى يتقابل فيها الشرق والغرب بفعل الكهرباء والبخار ، والشرق والغرب ما تَمَلَّم من وجود هُوًى عميقةٍ بينهما فى الحياة والتفكير حتى الزمن الحالى ، ودنا الغرب وحضارته من دور الخطر فى الصراع الهائل الذى سيقع فى عالم الصناعة المُهْلِك ، لا فى ميادين القتــال ، بين أمم متساوية فى كفاءاتها المتوسطة متفاوتة فى احتياجاتها تفاوتاً عظيماً ، فيَحِيق الخطر فيه بالغرب ، وإن شئتَ فقل بالحضارة ، فما هى نتائج هــذا الصراع ؟ ، وإلى أىِّ مَدًى نداوم على منح أمم الشرق من الأسلحة المادية والثقافيــة ما ستصوبه إلينا ؟ لمثــل هذه المسائل من الأهمية ما لا يجوز أن نسكت عنه فى هذا الكتاب .

فتاريخ حضــارات الهند ، إذَنْ ، ليس قَصَصاً لماضٍ أدبر إلى الأبد ، بل هو تاريخ ينطوى ، أيضاً ، على مجهولات هائلة .

ولم يَخْلُ من نقص هذا الكتابُ الذى هو بدْعٌ فى درس حضارات الهند درساً شاملاً ، وسنبلغ به ، مع ذلك ، الهدف ما رَسَمْنا صورةً ناطقةً للأطوار المتتابعة والأجيال المتعاقبة التى اعتورت المجتمع الهندوسىّ الذى لا تزال حضاراته القديمة قائمةً منذ ثلاثة آلاف سنة وما بيَّنا ما يكون لمقادير هذا المجتمع من أثر كبير فى مستقبل العالم .

أجَلْ ، لقد بعثنا تلك الأجيال الغابرة بما انتهى إلينا من الكتابات والنقوش والرسوم و بعرض صورٍ لبعض آثار تلك البلاد الهائلة التى هى مَنْبِت كثير من المدنيات والمعتقدات مستعينين بالقلم والريشة ، ولكن أيّة ريشة أو أىّ قلم رَصاصىّ يستطيع أن يُخْبِرنا بجمال تلك البلاد القاصية التى يَشْعُرُ السائح الأوربىّ عند دخولها بأنه انتقل إلى عالم جديد عجيب فى أرضه وسمائه ونباته وحيوانه ؟ وكيف يمكن وصفُ تلك الديار الساحرة التى أقامت الجبالُ الشاهقة الجبارة حولَها نطاقاً أبدياً من الثلوج، أو وصفُ تلك المدن الخامدة الواسعة سعَةَ عواصم أوربة والتى توحى معابدها الرائعة وقصورها المهجورة البادية من خلال الخمائل إلى السائح أنه أصبح فى مدن الغيلان التى لعنها من فى السماء ؟ وما هو السبيل إلى عَرْض ما تؤَثِّر به فى النفس تلك المعابد الحافلة بالأسرار والداخلة أعماقَ الجبال والمشتملةُ على ألوف الأصنام الحجرية التى تظهر للأعين على نور المشاعل فيُخَيَّل إلى الناظرين أنها عبيدٌ خُرْسٌ لربِّ الأموات ؟ يكاد قلم الرسام الماهر يَنْقُل إلينا جلال تلك القصور الرُّخامية الهائلة المرصعة بالحجارة الكريمة والمُشْرِفة على أسوار من الغرانيت الأحمر كالدم القانى فتبدو صاعدةً فى سماء لا يحجب زُرْقَها سحاب .

ألاَ إن الماضى لا يتجلى للسائح كتجليه فى بلاد الهنـد ، وإن السائح لا يُحِسُّ ما اعتور أجيال البشر من تطور وما بين هذه الأجيال من فروق ومن روابطَ بأحسن مما فى الهند ، فالسائح يعلم هنالك ، فقط ، أن الحاضر مُنْحَدِر من الماضى وأنه يحمل فى أثنائه بذور المستقبل وأن خيالاتنا وطبائعنا ومبادئنا انتقلت إلينا بالإرث من غابر الأجيال التى لا نقدر أن نُقَلِّلَ من سلطانها وإن أمكن جهلُها ، فمن خلال الأجيال القديمة نكتشف ، بالحقيقة ، أصول نُظُمنا ومعتقداتنا ونُبصر ما لهـا من السلطان المظيم وأنها تقود كلَّ شىء إلى مصيره الحقِّ بسلسلة من التطورات البطيئة[1] .

---

(١) لا أرى أن أختم هذه المقدمة قبل أن أشكر للأشخاص الكثيرين ما حبونى به من المساعدة التى لاتقدر بثمن فى أثناء سياحتى فى الهند أو فى إخراج هذا الكتاب ، وإن أنس لا أنس العون الذى لقيته من حكومة الهند الإنكليزية والقرى الذى نلته من موظفيها ومن أمراء الهند الأصليين ، وإنى إذ لا أستطيع أن أعدهنـا جميع من انتفعت بخدمهم أقتصر على ذكر من علق بذهنى منهم اتفاقاً ، فأذكر حكومة نائب الملك بكلكتة ، ولا سيما وزارة الداخلية التى أعدتنى مدبناً لها بمجموعة ثمينة من الكتب عن الهند ، وأذكر الجنرال أنيسلى الذى عنى بأمرى عناية فائقة فى أيام إقامتى بالهنـد ، وأذكر حاكم الهند الوسطى سير ليبيل غريفين ، وحاكم منطقة بمبى سير فرغوسن ، ومفوض راجبوتانا الكولونيل براد فورت ، ومفوض الحكومة الإنكليزية بأجمير مستر ساوندرس ، والميجر كولينغوود بجبل آبو ، والجنرال مارتر بأغرا ، ومدير متحف لاهور مستر كيلينغ ، والوزير المقيم بأودى بور الكولونيل والتر ، والبندت براناب جوتيشى بأودى بور ، والوزير المقيم بغواليار الكولونيل بركيلى ، والميجر روبرت أنيسلى ببنارس ، وجراحى السفارة الإنكليزية بنيبال الدكتور جيمليت ، والقنصل الفرنسى العام بكلكتة مسيو كرتزلر ، ومسجل القنصليات الفرنسية مسيو مونت ومسيو فواكس ، والقاضى بكلكتة مستر كارى ، والقاضى بمحكمة نانهة مستر بورش ، ومستر هندز المهندس ببيجابور ، ومستر هيث المهندس بأغرا ، ومستر بلاك المهندس ببيجانقر ، وحاكم بوندى چيرى مسيو ريشو ، وجياة كنبه كونم وترى چنابلى ومدورا الخ ، والكولونيل كوكبرن بحيدر آباد ، ووصى مملكة جترپور (بنديل كهند) وصاحبة العظمة ملكة بهوبال ، الخ ، الخ .

وإذا عدوت بضعة رسوم أعدتنى مدبناً بها لمرمم تاج محل والمهندس الفضال مستر هيث فلم أنشرها وجدت معظم صور هذا الكتاب قد صنعت على طريقة التهويف الفوتوغرافى (الهليوغرافور) بحسب الصور الشمسية التى التقطتها ، أى من غير استعانة بنقاش أو رسام ، وقام مسيو ديتى بهذا العمل الشاق خير قيام فلا يسعنى سوى الإعراب عن رضاى التام بما بذل من همة عظيمة ذاكراً أن محفوراته الفوتوغرافية (فوتوغرافور) على النحاس هى أعلى من جميع ما انتهيت إليه حتى الآن من الطرق المماثلة .

وقد رأى السادة فيرمان ديدو أن يكون هذا السفر محلا لعنايتهم كما اعتنوا بكتاب « حضارة العرب » ، فشملوه برعايتهم يوماً فلم يقصروا فى الإنفاق بسخاء على طبعه فأعلن شكرى العظيم لهم .



البَابُ الأوَّلُ

البيئات



الفصل الأول

الأرض والأجواء

(١) وصف بلاد الهند العام — طبيعتها الخاصة — يتألف منها عالم مستقل — عزلتها — أسباب اختلاف أجوائها ونتائجها — (٢) بلاد الهند — حدودها وجبالها وأنهارها — بقاع الغزو — (٣) الدكن — المنطقة الوسطى والمنطقة الساحلية — (٤) وصف أنهار الهند الكبيرة — عدم انتظام مجاريها — منحدراتها — أنهارها العظيمة : الغنج والسند وزبدا — أنهار الدكن — السواحل — فقدان الموانئ الطبيعية — (٥) أجواء بلاد الهند — اختلاف هذه الأجواء — يجتمع فى بلاد الهند مختلف أجواء العالم — فصولها — رياحها الموسمية — تقلب الأمطار — المجاعات — الأعاصير — الأوبئة — أثر جوها فى سكانها .

١ — وصف بلاد الهند العام

يتألف من الهند عالَم مستقل فى الكون من الناحية الطبيعية ، فالطبيعة، كما يظهر ، قضَت على الهند بعزلة أبدية لِما أحاطتها به من جبال هائلة ، ومن بحار ذات أمواج مُزْبِدة تَلْطِم سواحلها غيرَ المِقْراة[1] ، ويكفى المرء أن ينظر إلى حدودها ليشعُر بنشوء حضارة ثابتة فيها تقريباً ،وبهضمها للعناصر الأجنبية التى أغارت عليها ، ولا تزال بلاد الهند الأرضَ المقدسةَ الحافلة بالأسرار التى حكى عنها شعراؤها الأقدمون ، وظلّت بلاد الهند الحصنَ المنيع مع إغراء كنوزها للفاتحين واقتحام

(١) المقراة : الكثيرة الضيافة .

الكثيرين منهم لها فى غضون القرون ومع ما يبدو من سهولة مواصلاتها الحديثة التى زالت بها جميع العوائق وقرَّبت بهـا كلَّ المسافات ، فلا تجد طريقاً مُهمّاً يمُرُّ من جبال هِمالَيَة ، ولا تجد ميناء سهلًا على شواطئها ، فبلادُ الهند هى ، بالحقيقة ، أكثرُ البلاد انغلاقاً وأصعبها انفتاحاً ، ولم يَخْطُر ببال شعب قديم غمَرها أن يخرج منها بعد أن استوطنها .

وتلوحُ بلاد الهنـد المنعزلة أنها خلاصةُ العالَم بتنوع مناظرها ، فالهند كلُّ الأجواء بسبب اتساعها وتفاوت ارتفاع بقاعها الكثيرة ، فبينما يكون الحرُّ شديداً إلى الغاية فى سواحل ملبار وكُورُومَنْدَل وسهول البنجاب ترى ربيعاً ساحراً فى رِداف الجبال وبرداً صَرْصَراً تلطِم صُرُود[1] الشمال العالية وأَغْطِيَةً من الثلوج مشابهةً لما فى القطبين تستُرُ شواهق هِمالَيَة ، وبينا تجرى السيول مسرعةً فى أوائل يونيه إلى السواحل الجنوبية الغربية فتغمُرها وتملأ جداولها ينظر فلَّاحو أوريسة ووادى السِّنْد الذين أعيام الجفاف إلى سمائهم الصافيـة الحاقدة ضارعين باحثين فى الرمال المحرقة عن أثر الأنهر الكبيرة النافدة .

وتشتمل بلاد الهنـد ذاتُ المناظر الرائعة والعوارض المختلفة على سهول الغَنْج الخصيبة القريبة من صَحَارى تِهار الغُبْر الدَّكَن ، وعلى الأودية المنبتة الواقعة بين هِضاب الدَّكَن الجُرْد الجديبـة ، وعلى مالا نظير له فى الدنيا من الشِّعاف الهائلة المتصدعة المهيمنة على واحة كشمير الجميلة المعدودة دُرَّة العالَم .

ويمكن تفسيرُ تلك الظواهر الطبيعية التى رُئى تسميتُها بنَزَوات الطبيعة فى الهند بتنوع اليَبَس وعِظَم نَوْفه وبتفاوت توزيع المياه ، فقد نجم عن ذينك السببين

(١) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع من الجبال .

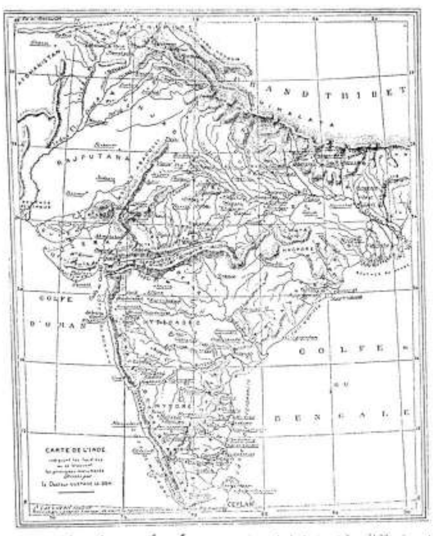
أن نشأ ألف بلد فى بلد واحـد وأن جُمِعت الأماكن والأجواء فى مساوفَ غيرِ متباعدة بما يزيد عن بضعة كيلومترات مع انفصال بعض أمثالهـا عن بعض بألوف الفراسخ فى خريطة العالم .

فلذلك نرى أن نَعْرِف ، قبـل كل شىء ، ارتفاعاتِ بلاد الهند واتجاهَ مجاريها وعددَ هذه المجارى وقيمتَها ، وسنُضيف إلى ما نعلمه من مسايل بلاد الهنـد وأنهارها بحثاً فى توزيع أمطارها ورياحها الموسمية ، فلِسَماء الهند المِدْرار تقويم خاصٌ ذو نتائجَ لا تَقِلُّ أهميةً عما يجرى فوق برِّها .

و بلادُ الهند مربعـة الأضلاع مقسومةٌ إلى مُثَلَّثَيْن متقاربين ذَوَىْ قاعدة مشتركة ، فقِمَّةُ المثلث الشمالى هى ذُرْوَة جبل نَنْغا الذى هو من أعظم جبال هِمَالْيَة وقِمَّةُ المثلث الجنوبى هى ذُرْوَة جبـل كُمَارى ، والخطُّ الذى يُمَدُّ قاعدةً مشتركةً لذينك المثلثين هو الوَهْدة الضيقة العميقة الممتدة من خليج كَنْبى إلى نهر الغَنْج فيجرى فيهـا نهر نَرْبَدا ونهر سُون اللذان يتَّجه أحدهما إلى الغرب والآخر إلى الشمال الشرقى .

وليس مجريا ذَيْنِك النهرين وحدَهما ما يُحَدُّ به ذانك القسمان الطبيعيان لبلاد الهند ، بل يفصل بينهما ، أيضاً ، سلسلةُ جبال وِنْدهيا فى شمال تلك الوَهْدَة وسلسلةُ جبال سات پورا فى جنوبها ، فمن ثَمَّ تَحُول ثلاثة حواجز دون غزو الأجنبى للقسم الجنوبى من بلاد الهند برّاً على الأقل ، وسترى أن شواطئَ هـذا القسم الجنوبى ليست أقلَّ صلاحاً للدفاع من تلك الحواجز الثلاثة .

و يتألف من المثلث الشمالى « الهندوستانُ الحقيقية » ،وورد ذكر هذه الكلمة ، التى تعنى « بلاد الهندوس » ، فى أقدم أقاصيص الإغريق .



١ ــ خريطة الهند (تشتمل على اتساع يعدل ٧٥٠ فرسخاً تقريباً ، وفيها ذكر للأمكنة المحتوية على أهم المباني ، وتعدل كل درجة عرض نحو ١١٢ كيلو متراً)
(من تخطيط المؤلف)

أجَلْ ، يرى الغربيون أن نهر السِّنْد أعار من اسمه البلادَ الحافلة بالأسرار الواقعــة فيا وراءه فما فَتِئُوا يطمعون فيها ، غير أنه لا يُسَلَّم بهذا على عِلّاته ما احتمل اشتقاق اسم « الهند » من اسم الإله « إندرا » .

والأمرُ مهما يكن فإن اسم الهند قد أُطلق على كثير من البلدان ، فمن ذلك أن تَمَثَّلَت بلاد الهند لخيــال الأوربيين أرضاً لــكلّ عجيب ومنبعاً لــكلّ ثروة ، فبحثوا عن طريقها فبَدَوْا ضحية الأوهام فى الغالب ، فظنّ كريستوف كولونب أنه بلغها بسُفُنه حينما وصَل إلى الدنيا الجديدة ، فــكان ما نعلمه من تسمية الدنيا الجديدة ببلاد الهند الغربية ، ومن ذلك تسميةُ كثير من جُزُر آسية والاوقيانوس بالاسم الذى أطلقه الإغريق على وادى السِّنْد .

وأما نحن فنقصِد بكلمة الهند فى هــذا الـكتاب شبهَ الجزيرة التى تحيط بها جبال آسام وهِمَالَيَة وكارا كورَم وهِنْدُوكُش وسليمان والبحر ، ونقصِــد بكلمة « الهندوستان » المثلثَ الشمالىّ من بلاد الهند ، ونقصِد بكلمة « الدَّكن » المثلثَ الجنوبىّ منها .

٢ — الهندوستان

يتألف أكبر حدّ للهندوستان من جبال هِمَالَيَة التى هى أعلى سلسلةٍ فى الكرة الأرضية ، والتى ينظر الهندوس إلى شِعافها المقدسة باحترام فيسمونها « سَقْف الدنيا » ، وتبدو هــذه الجبال العظيمة فى مجموعها كمُدَوَّرٍ ضَخْم مائل يزيد ارتفاعُ طرفه الأعلى عن ستة آلاف متر ويبلغ مُعَدَّل علوّه المتوسط أربعة آلاف متر ، وتجد

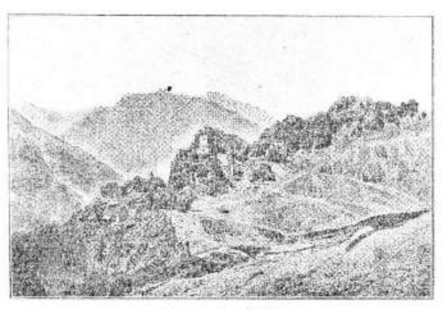
بين ذلك السـد المنيع الهـائل من الشواهق ما يصل ارتفاعه إلى ثمانية آلاف متر أو تسعة آلاف متر .

وأظهرُ ما يبدو ذلك فى القسم الغربى من جبال هِمَالْيَة ، ويتسع عرض هـذه الجبال فوق منابع الأنهر الكبرى : السِّنْد والغَنْج وجَمْنَة وسَتْلِج ، ثم تختلط هذه الجبـال بهضاب التِّبَت العالية ثم تَفْقِد منظرها الملتوى فتمتدُّ من هنالك هِضاب واسعة كئيبة تزيد ارتفاعاً عن أعلى ذُرَى جبال أوربة ، فما هى بالتابعة جغرافياً للهند ولا للتركستان ولا للتِّبَت ، وما هى بالتى ينمو فيها نبـات ، وما هى بالتى يجد الماء الذى يتجمّع فيها أحيـاناً منفذاً أو مُنْحَدَراً ليسيل منه ، وما هى بالتى يَصْلُح هواؤها لتنفس السـائح المِقْدام ، فهى « بلاد الموت الكريهة » كما يدعوها به أهالى تلك الأصقاع .

لم تُمْسَح ذُرَى كارا كورَم المرهوبة المُشْرِفة على جبال هِمَالْيَة فى أىّ زمن ، فقد يأتى زمن تَخْلَع فيـه إحداها مَلِكَ الجبال غُورى شَنْكَر الرائعَ الخالع لبركان أند : جِمْبُورازُو الذى عُدَّ أعلى جبل فى العالَم زمناً طويلاً .

يقوم طَوْد غُورى شَنْكر متوجهاً إلى القسم الشرقى من جبال هِمَالْيَة ، ويتألف من اتجاه شوامخ دِيوَلْغِرِى وغُورى شَنْكَر وكَنْجِنْجَنْغها خطٌّ مستند إلى ماوراء هِمَالْيَة يُعَدّ فى مجموعه سلسلة تلك الجبال الحقيقية من غـير أن يشتمل على الذُّرَى المهمة ، على حين تمتـد إلى الشمال وإلى الجنوب سلستان أخريان متآزيتان تسمى إحداهما غَنْغ دِيسرى المُشْرِفة على التِّبَت ، وتسمى الأخرى هِمَالْيَة الدنيا التى هى أقلُّ ضخامة من تلك فتهبط بالتدريج بين روافد نهر الغَنْج الشمالية .

وتَشْغَل جبال هِمَالَيَة أرضاً تزيد مساحتها على مساحة فرنسة ، وهى أمنع متراس أقامته الطبيعة بين بلدين أو أمتين ، ومن الصعوبة أن تجد رابطةً بين أراضى شمال الهند العالية وأودية الجنوب الواسعة العميقة سواء فى أمر السكان أو فى أمر الطبائع والأخلاق .



٢ — قرية دنكور فى جبال همالية الغربية

ولا يربط الهندَ بالصين غير طريقين ناقصين ، وهما : طريق سِمْلَا وطريق دارجِيلِنغ الواقعتان على طرفى جبال هِمَالَيَة ، وهذا إلى أنك تصادف بين حين وآخر سائحاً أو تاجراً مخاطراً يمرُّ من التِّبَت إلى وادى الغَنْج واضعاً متاعه الخفيف، أحياناً ، على ظهر مَعْزٍ أو مَتْن ضائنٍ لعجز أىِّ حيوان آخر عن مجاوزة مساربَ وَعْرَةٍ معوَّجَة مخيفة كالتى تُبْصَر فى منحدرات تلك الجبال .

وتكون تلك المسارب على حافَةِ نهر فى الغالب ، بيد أنه ليس لمجارى المياه التى

تَفَيُّع فى جبال هِمَالَية جوانب يسهل اجتيابها خطوة بعـد خطوة ما هَوَتْ هذه المجارى ، على العموم ، فى مضايق مظلمـة ومسايلَ مُمَزَّقة للصخور خارقة لهـا خَرْقاً بليغاً ممتدة بين الصخور القائمة ، وما أكثر ما يُسْمَع خريرها من أعماق الهُوِىّ والوِهاد فتُجاب إذ ذاك على جُذُول[1] الشجر أو بواسطة جبل، ثم يُصْعَد فى طُنُف[2] صخرة يصاب بها المرء من تخيله بالتَّوَل[3] والدُّوار .

لم تَسْلَم بلاد الهند من غزو الفاتحين لها من الشمال مع ذلك ، فقد حَلَم أمراء الغرب المقاحيم ، منذ أقدم القرون،بالاستيلاء على هذا القطر الغنىّ الذى جاء فى الأساطير أنه يَدُرُّ الحجارة الكريمة ويُخرج النبات العجيب .

وفى الشمال الغربى من النِّطاق المحيف المنيع الذى ضربته الطبيعة حول بلاد الهند ثُغْرة نهر كابُل ، فمن ضِفاف هذا النهر وَلَجَ الإسكندرُ والمغول والأفغان وغيرهم فى شبه جزيرة الهنـد .

ولا مِراء فى أن أولئك الفاتحين ساروا على الدَّرْب الذى سَلَكه قدماء الآريين، ولا تَجِد طريقاً أخرى غير هذا الدرب يسهل على أىّ جيش أن يَمُرَّ منها إلى أرض الإله إنْدَرا ، ويقوم وراء تلك الثُّغْرة حاجزٌ آخر من جبال سليمان المتصلة بجبال خَيْبَر فتكفى لوَقْف غزو الأجنبى مع أنها دون تلك الجبال أهميةً بمراحل .

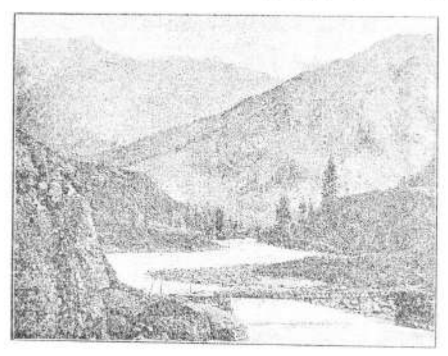
وإذا ما استثنيت ذلك المَنْفَذ ، الذى يدافع عنه بموقع بِشَاوَر وقلعة أتُك فى الوقت الحاضر ، وَجَدْتَ جميع حدود بلاد الهند البرية منيعةً يتعذر اقتحامها تقريباً .

ويظهر فى طرف المُنْحَنَى الشرقىّ الكبير ، الذى أكسبته جبال هِمَالَية شكل

---

(١) الجذول : جمع جِذل وهو من الشجرة أصلها الباقى بعد ذهاب فروعها — (٢) طنف الصخرة : ما نتأ منها — (٣) تول الرجل يتول تولا : حمق .

سَيْف ، ثُلْمَةٌ كبيرة جوّفها نهر برهما پوترا ، فمن هـذه الثُّلمة استطاع أناسٌ من الجنس الأصفر أن يدخلوا بلاد الهند فى دور قديم ، وذلك بعد جهود عظيمة ، لما تراه فى كل سنة من انغــلاق وادى برهما پوترا الأعلى الذى لم يقع ارتيادُه حتى الآن ، وذلك بفعل ما ينجم عن رياح الجنوب الموسمية من الطوفان ، فما ينزل على هذه المِنطقة من الأمطار الهائلة يؤدى إلى طَمْس مَعالم كل طريق مسلوكة ويُحَوِّل الأنهـار إلى سيول والسهول إلى مستنقعات وغُدْران ويوجب نموَّ نبـات يعوق السير وانتشارَ أبخرة وخيمـة قاتلة مفسدة للهواء فى كل حين ، فلا نصـادف فى الأرض بلاداً مجهولة كتلك المِنطقة مع قُرْبها من الأمكنة العامرة .



٣ ــ منظر فى وادى السند (مملكة كشمير)

وتسكتنف جبال آسام ضِفَّةَ نهر برهما پوترا اليسرى وينحنى مجرى هذا النهر

عند سفوح جبال كَمَاءِن وجبال غارو التى هى أخرى الحلقات المحيطة بشمال الهند .

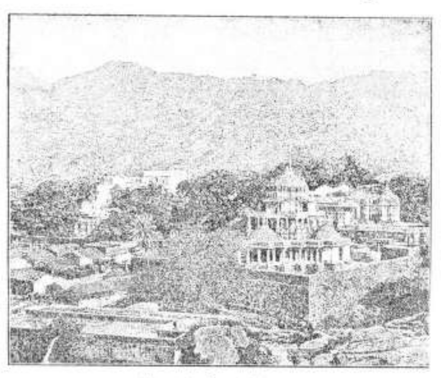
ويحيط ذلك النِّطاق بالسهل الهندىّ الغَنْجِىّ الذى تتألف الهندوستان الحقيقية منه ، وينخفض هذا السهل رُوَيْداً نحو خليج البنغال من جهة ونحو بحر العرب من جهة أخرى ، ويَقْسِم وادى السِّنْد ووادى الغَنْج ذلك السهلَ إلى مِنطقتين مختلفتين أشدَّ الاختلاف متباينتين منظراً ، ويبدو هذا الانقسام بارزاً فى الجنوب بجبال أَراوَلى التى يرتبط فيها أعالى جبل آبو ، ويكاد هذا الانقسام يكون غيرَ بادٍ فى الشمال .

ووادى الغَنْج هو من أكثر بِقاع الأرض سكاناً وخِصْباً وغِنًى ، ولا يقال مثل هذا عن وادى السِّنْد الذى يشتمل على الصحراء الهندية الكبرى الوحيدة ، ويُفَسَّر تباين ذينك الواديَيْن باتجاه ذينك النهرين اللذين يجرى أحدهما موازياً لسلسلة الجبال التى يخرجان منها ويجرى الآخر عَمُودِيّاً بالنسبة إلى هذه السلسلة ، فكلما سار نهر الغَنْج نال من جبال هِمَالْيَة التى يحاذيها روافدَ لا يَنْضُب لهـا مَعِينٌ بما يسيل إليها من مياه أحواض الثلج فيَرْوِى الحقول والمزارع التى يمرّ منها بوَفْرَة ، وكلما ابتعد نهر السِّنْد عن الجبال خَفَّت مياهه وقَلَّت روافده لضياع كثير منها فى الرمال وعجزها عن شَقّ مسايلَ لها ، فإذا كانت مقاطعة البنجاب ذاتُ الأنهر الخمسة خَصِيبَةً لم تلبث هذه الأنهر الخمسة أن تُؤَلِّف نهراً واحداً متوجهاً وحدَه إلى الجنوب الغربىّ تاركاً عن يَساره أراضىَ واسعةً خالية جدبية كئيبة .

ومن المحتمل أن كان جميع وادى السِّنْد فى غابر الأزمان مغموراً بالبحر فجعل منه البحر خليجاً واسعاً ، ونرى أن سهول شمال الهنـد وطبقات الجنوب من أسفل هِمَالْيَة قد تكَوَّنَت حديثاً ما كانت الصخور البِلَّوْرِية والألواح الحجرية فى أواسط

هِمَالْيَة وما وراءها وما كانت أقسام هِمَالْيَة المركزية وحدها مؤلفة من الصَّوَّان والجلاميد المتحولة .

ويدلُّ ما حَوْل قِمَم هِمَالْيَة من بقايا نبات البحر ومن رواسب الملح على مُكْث مياه البحر بهضاب تلك الجبال زمناً طويلاً .



٤ ــ منظر في جبل آبو (راجبوتانا)

وتَشْمَل سلاسل الجبال الصغيرة الكثيرة ، الممتدة من جبال هِمَالْيَة إلى مِنطقة البَنْجَاب العليا ، النظرَ بتركيبها ومنظرها ، ونذكر منها « سلسلة الملح » التي يُشَاهَد فيها ، عدا رواسبَ الملح ومختلف المناجم ، نماذجُ لجميع الصخور المُتَرَجِّح تكوينُها بين الدور الجيولوجي الأول والدور الجيولوجي الثالث ، فنشأ عن لَطْم أمواج البحر

لسفوحها وشقَّ الأمطار لشعافها منذ القِدَم تَصَدُّعُها على شكل عجيب نالت به منظر الأبراج والقلاع التى أتقن الإنسان صنعها ، وذلك إلى أنها كانت مستورة بالحصون التى لا تزال أطلالها الرائعة ماثلة على ذُرَا صخورها الناهضة فيتمثل بها المتأمل بقايا آطام القرون الوسطى المملوءة بها بلاد الغرب ، وذلك إلى أن هذا الشبه واقعياً أكثرُ منه عاطفياً ما أدى إليه قيام تلك المعاقل الدفاعية فى البنجاب و بُنْدِيل كهَند من استعباد البلاد وزيادة طغيان الأمراء الإقطاعيين كما حدث فى فرنسة بعد الغزو النورمانى .

والأرضُ فى جنوب وادى الغَنْج ترتفع بهضاب مالْوَا و بُنْدِيل كهَنْد ثم تبدو سلسلة جبال وِنْدهْيا .

وتُعدُّ سلسلة جبال وِنْدهيا « حجابَ الهند الحاجز » ، فلهذه السلسلة أهميةٌ كبيرة لفصلها بين حضارتين وجَوَّيْن وأرضَيْن وعرقَيْن ، فبينما يسود العنصر الغازىُّ ، أى العرق الآرىُّ ، السهلَ الهندىَّ الغَنْجِىَّ يَقْطُن بهضبة الدكن الكبرى ، التى لها الوقايةُ بخندق نَرْبَدَا العميق و بسلسلتين من الجبال ، العرقُ الدراويدىُّ الفطرىُّ الخالص المحافظ على أخلاقه وأوصافه الجثمانية ومعتقداته القديمة الثابتة مع مرِّ القرون .

٣ — الدَّكَن

تألفت من الدَّكَن جزيرة حين كانت مياه المحيط تَغْمُرُ ، فى سالف العصور ، مُعْظَمَ السهل الهندىِّ الغَنْجِىِّ فتلاطم الأمواج سفوح الجبال المحيطة به ، ثم ارتدَّت هذه الأمواج عن شواطئه الضيقة التى تهيمن عليها الهَضْبَة القديمة من ارتفاع يترجَّح بين أربعمئة متر وستمئة متر .

وفى الدَّكَن ، لذلك ، قسمان مختلفان بمنظريهما وإنتاجيهما وبالعروق التى تقيم بها ، فيتألف القسم الأول من الشواطئ الدنيا الواقعة على بحر العرب والمشتملة على : كُونْكَن الشمالى وكُونْكَن الجنوبى وملبار ومن الشواطئ : كورومَنْدِل وسَكْهَر وأوريسة الواقعة على خليج البنغال ، ويتألف القسم الثانى من الهَضْبَة الواسعة المائلة من الغرب إلى الشرق فتحيط بها جبال سات بورا وتوابعها وسلسلة كَهَات الفاصلة لها عن المنطقة الساحلية تقريباً .

وتُسَمَّى سلسلتا الجبال اللتان تفصلان الدَّكَن عن البحر بكَهَات الغربية وكَهَات الشرقية ، وتَقِلُّ سلسلة كَهَات الشرقية عن سلسلة كَهَات الغربية ارتفاعاً ، وإليها يستند أسفل الهَضْبَة ويتخلل هاتين السلسلتين عِدَّة أنهر تَصُبُّ مياهها فى خليج البنغال تبعاً لميل تلك الجهة العام .

وسلسلة كهات الغربية أكثر انتظاماً من تلك ، وتتألف من حَلَقَات متصلة متوجهة عُمُودِيًّا إلى الساحل .

وبينما تَبْرز كَهَات الغربية الوَعْرَة من ناحية البحر شامخة بذُرَاها التى صَدَّعَتها أمطار الرياح الموسمية العاصفة تبدو أقلّ رَوْعة من الهَضْبَةِ المُشْرِفة عليها ، وسلسلةُ كَهَات الغربية هذه لا ترتفع عن الشاطئ بأكثر من ١٢٠٠ متر ، وهى ليست غير جلاميدَ قديمة محافظة على وضعها العام ، وتَغْمُرُ الأمواج هذه الجلاميدَ حيث يضيق الشاطئ فى بعض الأمكنة ، ويقطعها بين مسافة وأخرى فِجاجٌ[١] تَصِل بين السهول العليا والمنطقة الساحلية ، ويُعَدُّ بُهُور كَهَات أهمَّها ، وهو الذى سُمِّى قديماً بمفتاح الدَّكَن .

---

(١) الفج : الطريق الواسع الواضح بين جبلين .

وتتسع سلسلة كهات الغربية فى الجنوب ، فكان لها بهذا الاتساع منظر أقل وحشة من ذلك ، وكان لقسمها المعروف بنِلْ غيرى (الجبـال الزُّرْق) من سحر المنظر وحسن الجوّ ما دُعِيَت معه بسويسرة الدرَاوِيدِيَّة .

وتنفرج وراء نِلْ غيرى (الجبال الزُّرْق) فَجْوَة[١] بال كهات التى هى أهمّ انخفاض فيها وتنتهى السلسلة برأس كارى .

وفَجْوة بال كهات أكبر طريق يَصِل بين الشاطئين، ويمرّ من هذه الفَجْوَة فى الوقت الحاضر خطٌّ حديدىٌّ يربط مدينة مدراس بمدينة كالى كت .

وإذا ما عصفت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية على خليج البنغال وقَفَتْ جبالُ كهات تلك الرياحَ وأمكن السفنَ أن تَمْخُر فى بحر العرب بسلام ، ولكن السفن إذا ما أصبحت أمام فَجْوَة بال كهات كانت فى بحر مائج ، وذلك لأن الإعصار يَتَغَوَّر فى هـذه الفَجْوة فيمرُّ منهـا ليُثِير أمواج الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهنـد .

وعُدَّ جميع شواطئ الدكن الدنيا انتصاراً على البحر فى وقت قريب من دورنا ، ثم وُقِف ارتفاع هذه الشواطئ ، ودلَّتْ المشاهدات الحديثة على حدوث عكس ذلك فى بعض جهات الهند ، واكتُشِفَت بقايا غابة غاطسة بالقرب من بمبى ، ويلوح أن منطقةَ الجزُر المُستَغْدِرة[٢] الناشئةَ حديثاً فى مصب نهر الغَنج والمسماةَ سُنْدُرْبَن والبقعةَ القائمة عليها مدينةُ كلكتة ستَخْسِفان ، ذات يوم ، فى هُوَّة هائلة تجوّفها

---

(١) الفجوة : الفرجة بين الشيئين — (٢) استغدر المكان : صارت فيـه غدران ، وهى جمع غدير ، والغدير : قطعة من الماء يتركها السيل .

الأمواج وينساب التراب نحوها ويَتِيهُ فيها المِرْجَاس[1] مع صعوبة تعيين حافّاتها .

ولا يكون للنبات أثرٌ فى هَضْبَة الدَّكَن التى سترتها حجارة البراكين فى غابر الأزمان ، لو لم ينشأ عن الأمطار الغزيرة التى تَغْمُرها فى كلّ سنة حلٌّ لهذه الحجارة البركانية فى كثير من الأمكنة وسَحْقٌ لهـــا ثم كَسْحُها وظهورُ أوديةٍ تؤدى كثرة مياهها وحرارة جوِّها إلى نموِّ نبات وافر عجيب فيها .

واستطاعت أصقاع الدَّكَن العليا أن تقاوم حَمَلات الغزو المتتابعة وأن تظلَّ ذاتَ صِبْغَة خاصّة بفضل سلسلتى الجبال القائمتين فى شمالها وبفضل الخندق العميق الذى حَفَره نهر سون ونهر نَرْبَدَا ، فالحقُّ أن فى جنوب جبال وِنْدِهيا بقايا قدماء سكان الهند والعنصرَ الدراويدى ومراكزَ الدفاع ضِدَّ غزو الأجنبى .

ورأسُ كُمَارِى هو أقصى نقطة فى بلاد الهند ، وتقع جزيرة سيلان بجانبه .

ومع أنه ليس من برنامجنا أن نَصِف سكان جزيرة ســيلان ولا أن ندرس تاريخها نرى أن نقول بضع كلمات عن جِغْرافِيّتها وجِغْرافيَّة الجُزُر القريبة من الهند فنختمَ بذلك بحثنا الإجمالى فى أرض الهنــد الذائعة التى يمكن تسميتها بهيكل الهنــد العظمى .

تكاد جزيرة ســيلان ، التى تَعْدِل مساحتها اثنتى عشرة مديرية فرنسية ، تتصل بشبه جزيرة الهند ، وإلى جزيرة سيلان تمتدُّ متوجهةً سلسلةٌ من الجُزَيْرات التى تَعُدُّ رَامِيشوَرَم ومنار أهمَّها ، فيتركب منتصف سلسلة الجُزَيْرات هــذه من صخور وأكثبة يغمرها الماء بضع أقدام فتُعْرَف بجسر راما وتَنفُذ ثلاثة معابر فقط

---

[1] المرجاس : حجر أو ما يشابهه يشد فى حبل فيدلى فى الماء ليعلم عمقه .

هذا السّدّ الطبيعىّ ، وجُعِل أحد هذه المعابر فى الزمن الأخير صالحاً لسير السفن الصغيرة .

وفى شمال جسر راما يَنْقُر خليجان شواطئ الهند ، و يبدو أحد ذينك الخليجين مأْمَناً للسفن الفارّة من الرياح الموسمية .

وتقسم جزيرة سيلان إلى قسمين : يقع أحدهما فى الشمال حيث السهول التى ينمو فيها نبات البلاد الحارة ، ويقع الآخر فى الجنوب حيث الجبال ، وذُرْوَةُ آدم التى يبلغ ارتفاعها ٢٢٠٠ متر هى أشهر ذُرَا سيلان و إن لم تكن أعلاها ، ففيها يَتَبَصَّر الهندوسىُّ الساذج أثر قدم بُدْهَة المقدسة .

وفى الجنوب الغربىّ من الهند تُوَشِّى البحرَ المحيط مئاتُ الجُزُر المعروفة بجُزُر لَكّ ديب وجزر مال ديب ، وجُزُرُ مال ديب هذه هى التى استوقفت النظر فأوحت إلى العلماء كثيراً من الفرضيات ، فرأى العالم الشهير داروين أنها شماريخ[1] جبالٍ غابت عن الأنظار ، ونشأت هذه الجُزُر عن تجَمُّع الحيوانات ذات الشكل النباتى ، وتبدو كلٌّ واحدة منها على شكل دائرة من الجلاميد محيطةٍ ببحيرة داخلية ، وتكتسب تلك الجزائر المختلفة شكل دائرة أيضاً ، وتبدو فى مجموعها ذاتَ وضع عام مُنْسَجِم .

٤ — وصف أنهار الهند الكبيرة

لا تكفى المياه التى تجرى فوق الهند لإخصاب جميع أراضيها مع أنها أكثرُ بلاد الأرض ريًّا ، ولا تُمَدُّ مجارى الهند بالماء إمداداً متماثلًا فى كل سنة وفصل فضلًا

(١) الشماريخ : جمع شمراخ ؛ وهو رأس الجبل .

عن تفاوت توزيعها ، فلا يلبث نهرها الذى يَتّسع ويَعْمُق فى الفصل الماطر أن يَضْمُر ويصبح ضَحْضاحاً فى دور الجفاف ، وإذا كانت سُحُب الرياح الموسمية دون العادة زاد تقلصه وقلّ خِصْب الحقول التى تستقى منه ، وليس بقليلٍ أن تُغَيِّر أنهار الهند مجاريها فتنتقل بذلك أسباب الرخاء والخير من مكان إلى آخر وتؤدى بذلك إلى جَدْب المكان الذى هجرته وإقفار مُدُنه وعُمران المكان الذى هاجرت إليه وزُخُور سكانه .

والهندوس ، لكى يتلافَوْا ما قد يطرأ على الأنهار من نقص عظيم ويتداركوا ما قد يصيبهم من خُسْرٍ كبير ، اتخذوا فى كل زمن طُرُقاً للرّىّ مصنوعةً ، فأقاموا الأسداد التى تَقِف المِياهَ وتَمْلِكها فى القَنَوات أو فى الأهْوار[1] التى احتفرتها يد الإنسان وأنشأوا الحِياض الواسعة التى تَسْطُم[2] وادياً بأسره فى بعض الأحيان ، ونذكر مما صنعته شعوب الهند فى هذا المضمار سدّ كاويرى الذى لا يزال قائماً مع أنه شِيدَ منذ خمسةَ عشر قرناً ، وأحواضَ حيدر آباد التى يبلغ وجه أكبرها أربعة آلاف هتكار ، وبحيراتِ مَهُوبا الكبرى فى بُنْديل كَهَنْد .

ولا مَعْدِل لمياه الهند عن أحد الاتجاهين : خليج البنغال الذى يَتَقَبَّلُ مُعْظَمها ، وبحر العرب، وإليك أهم أنهر الهند :

وادى الغَنْج . — يرى الهندوس لكل نهر صفةً إلهية لما يحمله من البركات وما ينشره من الخيرات فى الأمكنة التى يمرّ منها ، ولكنك لا تجد نهراً قُدِّس مثل نهر الغَنْج ، وإن شئت فقل الغَنْغا كما يسميه الأهالى ، ما عبدوه كالإلاهة .

---

(١) الأهوار : جمع هور ، وهو البحيرة تجرى إليها مياه غياض وآجام فتتسع — (٢) من سطم الباب يسطمه سطماً : أغلقه ورده

وينبع نهر الغَنْج ، كأكثر روافده ، فيما وراء هِمالْيَة ، ثم يجاوز هِمالْيَه قبل أن يوغل في السهل ، ويتألف نهر الغَنْج من السَّيْلَيْن : أَلَكْنَنْدَا وبَهَاكِى رَتِى المتدفقَيْن من كُتَل الجليد التي يزيد ارتفاع محالّها على أربعة آلاف متر ، ويَعُدُّ الهندوس من الأماكن المقدسة ذينك المصدرين والجبال التي تعلوهما ويَرَوْن فيهما الخطوة الأولى لتاج شِيوا ، فطوبى للهندوسيّ الذي يستطيع أن يتسلق دَرَجها مهما أصابه من نَصَب .

والأوربيون ، على الخصوص ، هم أول من ارتقى ذلك المِعْراج فوجدوا أن بَهَاكِى رَتِى يتدفق من طاقه الجليديّ ، فلما رأى حجيج الهندوس ، الذي كانوا يَقِفُون دون مدخل المَرَاتِج[1] حتى أوائل هذا القرن ، ذلك الاقدام تَشَجَّعوا على الارتقاء إلى ما هو أعلى فهلكوا حين ذهبوا لإتمام مناسكهم عند منابع ذلك النهر المقدس .

ويُدْعى المكان الذي يختلط فيه السيلان : أَلَكْنَنْدَا وَبَهَاكِى رَتِى بـ « المَلْقَى الإلهى » ، ويقوم هنالك معبد يزوره الهندوس كثيراً ، وتَجْذِب معابد هَرْدَوَار الواقعة دون ذلك ، وذلك في شهر مارس وشهر أبريل من كل سنة ، مئاتِ الألوف من الحُجّاج فيُخَيِّم حولها هؤلاء الذين قد يبلغ عددهم مليونين أحياناً ، ولا يقصدها هؤلاء جميعُهم عن تقوى مع ذلك ، بل تجد بينهم من يَؤُمُّونها سعياً وراء الربح والغُنْم .

وتَنْبُع جَمْنَة ، التي هي من أكبر روافد نهر الغَنْج ، من جبال هِمالْيَة غيرَ

(١) المراتج : جمع مرتج وهو الطريق الضيقة .

بعيدة من منبعه ، وتُقَدَّس جَمْنَة كالغَنْج نفسه تقريباً ، وفي مجمعهما قامت الله آباد « مدينةُ الله » .

وأُنشئت مدينة بنارس الشهيرة على شكل مُدَرَّج في الضِّفة اليسرى من النهر غيرَ بعيدة من الله آباد ، و بنارسُ هـذه هي المدينة المقدسة بالمعنى الصحيح ، وهي مركز الهند الدينيُّ وعاصمة البرهمية .

وكان من احترام الهندوس لنهر الغَنْج ، أو « لأُمِّهِم الغَنْغا » ، أن ثاروا على الإنكليز حينما حفروا قناة دوآب الصالحةَ للريّ وسير السفن فحولوا المياه المقدسة إليها ، وهذه القناة التي تسير من هَرْدْوَار وتنتهي إلى كانْ پور هي أعظم قنوات العالم التي من نوعها لِما تَطَلَّبه حفرها من كَسْح ترابٍ كالذي تَطَلَّبه حفر قناة السويس .

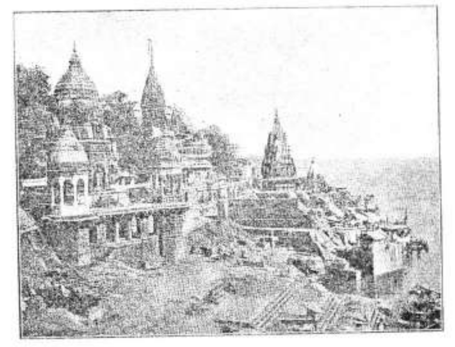
ولم يكن الإنكليز أقلَّ خَطَلاً من الهندوس حينما حاولوا منعهم من إلقاء جُثَث موتاهم في نهر الغَنْج ، فما فَتِئَ الهندوس يمارسون هذه العادة ما تَفَلَّتُوا من مراقبة قاهريهم ، ويقوم ذلك على ربط الميت برَمْث[1] صغير ذي مصباح ثم تَرْكه للأمواج المتقاذفة ، فإذا ما أرخى الليل سدوله رُئِي من بعيد تَسَكُّع[2] تلك الأرْماث السابحات على وجه المياه الأسحم[3] .

وتَنْظِم جَمْنَة قبل أن تَنْضَم إلى الغَنْج بما تتلقاه في أثناء سيرها من الروافد المهمة التي نذكر منها چَمْبَل وسِنْدها .

ويتجه نهر الغَنْج إلى الجنوب الشرقي قبل أن يجتمع بجَمْنَة ، ثم يسير إلى

(١) الرمث : خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب في البحر ، ويجمع على أرماث — (٢) تسكع في سيره : لم يهتد لوجهته — (٣) الأسحم : المسود

الشرق فإلى الجنوب ، فتتلقى ضِفته اليمنى نهر سون وتتلقى ضِفّته اليسرى روافدَ كثيرة جارية من وراء همالْيَة ، كغوغرا وغَنْدَاك وبَهَاك متى وكوسى .



٥ ــ ضفاف الغنج ببنارس

وتجاوز تلك الروافد منطقة تِرَائى المشؤومة قبل أن توغل فى السهول التى ترويها بمياهها فتهب لها خِصْباً لا مثيل له ، ويُطلق اسم تِرَائى على الأراضى المستنقعة الواقعة فى سفوح الجبال ، ولا يمكن الإنسانَ أن يقيم بمنطقة تِرَائى ، ويخاطر الإنسان بنفسه إذا ما جابها .

وتبدو جبال هِمَالْيَة سَدًّا شامخاً عظيماً فتقِف سُحُبَ الرياح الموسمية الماطرة فتوجب انصباب وابلها[1] فى المُنْحَدَرات الجنوبية فينجم عن ذلك رطوبة شديدة

(١) الوابل : المطر الشديد

فى البُقعة الدنيا التى تلى تلك المنحدرات فتُستَر بنباتٍ متقصِّفٍ وتَصْرَى[١] فيهـا غُدُرٌ[٢] حَمِئَة[٣] فيغدو هواؤها وبيئاً قاتلاً ، فإذا عَدَوْت هذا الجزء الضيق المستطيل الماقر الغامر[٤] وَجَدْتَ وادى الغَنْج أكثر بلاد الدنيا ثمراً ودَرًّا .

ويَتَغَيَّر نهر الغَنْج هيئته بحسب الفصول فتطمو[٥] مياهه فى فصـل الفيض وتَطْغَى فتغمر مالا حدَّ له من الأراضى فيرتدُّ الزُّرَّاع أمامها ليحرثوا الحقول البعيدة التى اسْتَنْبَتَت بين الفصلين ثم ليعودوا حين يعود ذلك النهر إلى مجراه تاركاً لهم أطياناً خصيبة .

وتَحوَّل أضواج[٦] الغَنج العظيم أوضاعها بسرعة ، فيصعب تعيـين مجراه وملاقيه بدقة ، وتتحوَّل بعد كلِّ فيضان شِعابه الكثيرة التى ينصبُّ بها فى البحر وما تحيط به هذه الشِّعاب من الجُزُر المُسْتَغْدِرَة[٧] ، وبذلك تعود المرافئ ، التى ترسو فيها السفن الكبيرة ، غير صالحة لإيواء زوارق الصيد ، ومدينةُ كلكتة وحدَها هى التى أنفق الإنكليز عليها كثيراً من المال وقاموا فى سبيلها بعظيم الأعمـال ، التى لا بد من تجديدها ، ليجعلوا منها ميناء صالحاً لاستيعاب السفن فى كل وقت .

وكانت مدينة غُور رأسَ دلتا الغَنْج فيما مضى ، ولم يلبث سكان هـذه المدينة التى كانت عاصمة لدولة عظيمة أن هجروها عندما هجرها ذلك النهر فعادت لا تكون اليوم سوى خرائب وأطلال ذات أدغال[٨] .

---

(١) صرى الماء يصرى صرياً : طال مكثه وتغير ـ (٢) الغـدر والغدران : جمع الغدير وهو قطعة من الماء يتركها السيل ـ (٣) الحمِء : الماء خالطته الحمأة أى الطين الأسود ـ (٤) الغامر : الأرض الخراب ـ (٥) طما الماء يطمو طمواً : ارتفع وملأ النهر ـ (٦) الأضواج : جمع الضوج وهو منعطف الوادى ـ (٧) استغدر المكان : صارت فيه غدران ـ (٨) الأدغال : جمع الدغل وهو الشجر الكثيف الملتف .

وينقسم نهر الغَنْج إلى عِدَّة شُعَب عندما يقترب من مصبه ، و پَدْما التى هى من أهم هذه الشُّعَب تسير لتتصل بجَمُونا التى هى بَرَهْما پُتْرا الحقيقية ، وبهاغى رَتِى ، التى هى أكثر تلك الشُّعَب قُدُساً ، جزءٌ من بهاغى رَتِى التى تمرُّ من كلكتة باسم هوغلى فتَصِلها بالبحر .

وليست مياه الغَنْج أغزر ما يصبُّ فى خليج البنغال ، بل يَدْفق أغزر المياه فى مِيغْهنا التى هى مصبُّ بَرَهْما پُتْرا ، وفى مِيغْهنا تتعذر الملاحة ، تقريباً ، لشدَّة جَرْى الماء ولما تسفر عنه الأكثبة من العوائق والمراتيج(١) التى يرتفع عُبابها(٢) عِدَّة أمتار ثم ينهال فتسمع له جَلْجَلَة كقصف المدافع .

ويتجمَّع حول جزائر سُنْدُرْبَن بعض الرمال التى يأتى بهما نهر الغَنْج فتقَدَّر بعِدَّة مئات الألوف من الأمتار المكعبة فتزيد هذه الجزائر اتساعاً .

ويظهر أن الدلتا تَهْبِط بالتدريج بدلاً من أن تَتَّسِع على حساب البحر ، وأن الهُوَّة التى تَفْغَر فاها أمام مصابِّ الغَنْج ستبتلع هذه الدلتا .

وتَفْغَر هُوَّة ، كتلك ، أمام مصابِّ أخى الغَنْغا : نهرِ السِّنْد العظيم الذى يجرى إلى الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهند حاملاً مقادير وافرة من الرمال ، ولكن هـــذه الرمال لا تُعَتِّم أن تذهب مع الجريانات الناشئة فى البحر فوق تلك الهُوَّة .

ويبلغ طول مجرى نهر الغَنْج ٢٤٢٠ كيلو متراً .

وادى السِّنْد — يقلُّ وادى السِّنْد عن وادى الغَنْج رِيّاً وَخِصْباً وانتظاماً وتغمر

(١) المراتيج : جمع المرتاج وهو ما يغلق به الباب — (٢) العباب : معظم السيل وارتفاعه .

صحراء تهار التى تفصله عن بقية الهند أكثرَ من نصفه ، ويكون معزولاً عن شبه جزيرة الهند لو لم تَصِله بسهل الغَنج أراضٍ زراعيةٌ محاذية المنطقة الجبلية .

تلك الأراضى هى البنجاب ، أو « البلد ذو الأنهر الخمسة » الذى مرّ منه جميع الفاتحين ، بعد أن ساروا ونهرَ كابُل فأوغلوا فى الهند ، وفى البنْجاب وحدَها تجد المدن الكثيرة الأهلِ والحقولَ الغنيةَ غِنَى الحقول التى يسقيها نهر الغَنج .

ويكون وادى السِّنْد فى الصيف جافًّا لافِحاً ، ولا تكون مياه روافده كافية لجلب الرَّخاء أو لبقاء ما هو موجود ، وظاهرةُ هذه الروافد أن تَضْعُف كلما ابتعدت عن منطقة الجبال وأن يَبْطُؤ جَرْيها ويقلّ فيضها كلما اقتربت من البحر ، وليس بقليل أن يَغُور بعضها فى رمال الصحراء قبل أن يبلغ اليمّ[1] كسَرسُوَتِى ، ولا يَتِمُّ ما بقى منها سيره إلا بعد أن يجتمع بعضه إلى بعض ويصبّ فى السند .

وأسماء الأنهر الخمسة التى تنبع من جبال هِمَالَية الغربية فتشتهر البنجاب بها هى : سَتْلَج وجِنَاب وَبِيَاس وجِهلَم وَراوِى .

ويتبع نهر السند ورافده المهم سَتْلَج من السلسلة المركزية العظمى التى يخرج منها نهر الغَنج ونهر جَمْنَا أيضاً ، ولكن السِّنْد وسَتْلَج تابعان لمنحدَر ما وراء هِمَالَية الجنوبىّ فيطوفان بجميع سلسلة هِمَالَية فيُجَوِّفان فيها فِجاجاً عميقة قبل الوثوب على السهل ، ومما يحدث أن يَقِف سيرَهما انقضاض الجلاميد فتتجمع مياههما على سُطُحٍ كبيرة إلى أن تتغلب على الجلاميد فتَدَفَّق من فوقها بشدةٍ فتغمر ما تحتها وتقضى على مدن بأسرها فى بعض الأحيان .

---

(١) اليم : البحر .

ويجرى نهر السِّنْد من الشرق إلى الغرب مسافةً غير قصيرة فيتغشّى نَنْغَابَرْبَت، ثم يخرج من المِنطقة الجبلية بالقرب من هَرِى پُور متوجهاً إلى الجنوب، ثم يتلقى عن اليمين الرافدَ كَابُلَ المهمَّ الذى هو باب للتجارة والمغازى.

ويقوم الحصنان أُتك وپشَاوَر على السِّنْد ورافده كابُل لحراسة الإمبراطورية الإنكليزية الهندية ويقطع السِّنْدَ خطٌّ حديدىٌّ ممتدٌّ إلى الحدود.

وسهل وادى السِّنْد مستوٍ، فليس فيه من الانحدار ما تتوجه به الأنهار التى ترويه، فتتسكع هذه الأنهار مُبَدِّلةً مجاريَها أمام أىِّ عائق، وتعدل الأنهرُ الجافة، التى تُحَوِّل الأراضى الواسعة إلى صحارٍ بعد خِصْب، الأنهرَ الجارية كثرةً، وتُبْصِر عِدَّةَ قنواتٍ فارغة لا تلبث أن تمتلئ بسرعة وقت الفيضان فتصل بين روافد نهر السند، وتؤلّف بينها شبكةً معقدة متقلبة على الدوام.

وليست مصابُّ نهر السِّنْد أقلَّ تقلباً مما تقدم، فهى تَنْسَدُّ بما تحمله من الرمال الكثيرة فتَحْدُث منافذ أخرى، فيؤدى ذلك إلى تعذر المِلاحة فيه تقريباً كما يؤدى إلى استحالة ازدهار أىِّ ميناء فى مخارجه، وأما روافده فتكون تارةً مجارىَ واسعة صالحة لسير السفن الكبيرة وتكون تارةً مجارىَ مبسوطة فيستطيع السياح أن يَعْبُروها خَوْضاً.

وينحرف نهر السِّنْد بالتدريج نحوَ الغرب فضلاً عن تقلب أضواجه[1]، ويُفترَض أن مياهه كانت توزَّع توزيعاً متساوياً وأنه كان يتلقّى روافدَ أكثر مما يتلقى الآن وأن الصحراء كانت أضيق مما هى عليه اليوم، ودليلُنا على ذلك تسمية كتب الهندوس القديمة لتلك المِنطقة ببلاد « الأنهر السبعة »، لا بلاد « الأنهر الخمسة » كما تُسَمَّى فى الوقت

(١) الأضواج: جمع الضوج وهو منعطف الوادى.

الحاضر ، ومما جاء فى تلك الكتب القديمة وصفٌ لأنهرٍ بأنها مجارٍ واسعةٌ مع أنها غير موجودة فى زماننا ، ومما نصّت عليه تلك الكتب أن سَرَسْوَتى كان نهراً جليلاً متدفقاً إلى أن يَصُبَّ فى نهر السِّنْد غضبان أسِفاً على فِرار الإلاهـة ، مع أنه يمّحى اليوم فى رمال الصحراء ، وإلى مثـل هـذا المصير ينتهى كثيرٌ من المجارى وإن لم تَغُر تماماً مالادّخات فى مسيل واقع تحت الأرض وما ثبت ذلك من الآبار التى تُحْفَر فى اتجاهها بعيدةً بعض البعد من المكان الذى توارت فيه .

ونهرُ السِّنْد أطول أنهار الهند ، ويبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ كيلو متر .

وادى نَرْبَدا ووادى تاپتى . — نَرْبَدا وتاپتى نهران يفصلان هما والجبالُ التى يَمُرّان بينها المِنطقتيْن الكبيرتيْن : الهندوستان والدَّكن ، وطول مجرى نَرْبَدا ١٢٨٠ كيلو متراً ، وطول مجرى تاپتى ٧٠٠ كيلو متر .

وينبع نهر نَرْبَدا فى جبال أمر كَنْتَك التى هى عُقْدَةٌ جبال الهنـد الوسطى ، ويجرى من الشرق إلى الغرب بسرعة نحو البحر ، وذلك فى مجرى ضيقٍ عميقٍ واقع بين سلسلة جبال سات پورا وسلسلة جبال وِنْدهيا ، ولا يصلُح للملاحة لما فيـه من الشَّلالات الكثيرة، ويبدو ذا مناظر ساحرة عند مضيق « صخور الرُّخام الأبيض » غير البعيد من منبعه فتجرى المياه منه صافيـةً هنالك فيكتسب معها صباحَ مساء ألواناً عجيبة بفعل أشعة الشمس .

ويُقَدِّس الهندوس نهر نَرْبَدا بعـد نهر الغَنْج ، ويأتون إليه من الأماكن البعيدة ليغتسلوا فى مياهه وليأخـذوا من ضِفافه حصياً يتخذونها تمائم وتعاويذَ غاليةً قادرةً ، وكان من تزاحم الحجيج على ضِفافه فى كل زمن أن فُتِح الدَّكَنُ للمؤثرات الأجنبية بمالا يتمُّ بقوة السلاح .

ويصبُّ نهر نَرْبَدا فى خليج كَمْبِى غيرَ بعيدٍ من مصب نهر تابتى الأقلّ أهمية والأكثر فيضاً ، وتقوم مدينة سُورت على مصبَّ نهر تابتى ، فتدفع عنها المياه بالأسداد المحكمة .

وتقع ثلاثة أنهر صغيرة فى شمال نهر نَرْبَدا فتجرى من الجبال المحيطة بسهل كجرات فتصبُّ فى خليج كَمْبِى ، وأهمُّ هذه الأنهر الثلاثة نهرُ ماهِى الذى يبلغ مجراه ٥٣٠ كيلو متراً ، ونهر سابَرْمَتِى الذى يمر من مدينة الله آباد الشهيرة فلا يزيد طول مجراه على ٣٠٠ كيلو متر .

أودية الدكن . — لا يصبُّ نهر مهمٌّ بين مصب نهر تابتى ورأس كُمارى من شواطئ بحر العرب ، فقد بلغت جبال كَهات الغربية من القرب إلى الساحل ما لا تكون به المياه المنحدرة منها غيرَ جداولَ فتتحول هذه الجداول إلى سيول بفعل رياح الجنوب الغربىّ الموسمية .

ويتكون من ثَغْرَة بال كَهات ممرٌّ لنهر يونانى الصغير الذى يَنْبُع فى شرق الجبال ويختلط هنالك مُنْحَدَرَا الدَّكَنِ الكبيران ، وينبُع بعض روافد كاوِيرى من غرب جبال كَهات .

والساحلُ الذى يقع فى جنوب يونانى ذو غُدْران كثيرة محاذية لشاطئ البحر متصلٍ بعضُها ببعض ، ويتألف من هذه الغُدْران قناةٌ صالحة للملاحة ، ويُفضّل رَبَابِنَةُ السفن السيرَ فى مياهها الهادئة على السير فى البحر المحيط ، وتكاد تجارة كوچين وترانكور تتمُّ بها .

أودية الدَّكَن الشرقى : — لا أنهار كبيرة فى الدَّكَن غير التى تجرى شرقاً إلى

خليج البنغال ، ومن هـذه الأنهار نهرُ سباريكا الذى يُرى بعد مصب نهر الغَنْج والذى ينحدر من عاليات جوتا ناغپور فيصبُّ فى البحر بعد أن يسير ٥٠٠ كيلو متر.

ونهرُ مَهَانَدِى البالغ طوله ٨٣٠ كيلو متراً هوأهمُّ الأنهر بعد ذلك ، فإذا ما اجتمع هذا النهر بنهر بَيْتَرَنِى البالغ طوله ٥٥٠ كيلو متراً و برهمنى البالغ طوله ٦٥٠ كيلو متراً تألفت بلا انقطاع فى ساحل أوريسة دلتا واسعة تمتدُّ تحت البحر إلى مسافة بعيدة مع زيادة غِرْيَنِها .

و يتفتت تراب الدَّكَن البركانىُّ بفعل الأمطار ومياه الفيضان ، وتحمِل الأنهارُ الرمالَ والنُّثارَ لتُودع الساحلَ إياها فتزيدها تلك الدلتا سَمْكاً .

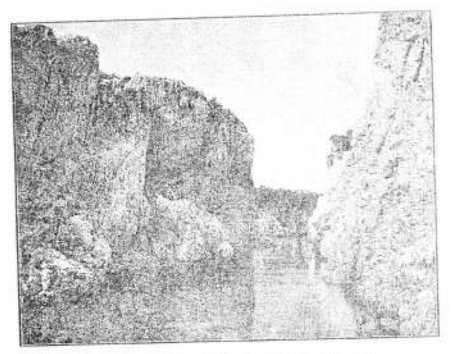
وتَجَمَّعَت بالقرب من مصب مَهَانَدِى لِفَافَةُ رمال فاشتملت على بحيرة شِلْكا التى تصلها قناة بالبحر .

والجفافُ أظهر ما يُصاب به ساحل أوريسة الذى تجْوُبُه شِعَاب مَهَانَدِى الكثيرة ، فكان ما تراه من بؤس سكانه وتوحشهم ، فإذا تفَلَّت ساحل أوريسة من هذا الجفاف ، أحياناً ، فلكى يُخرَّبه الفيضان ، وساحلُ أوريسة هذا بلغ من الانخفاض والاستواء ما يغمُره به البحر فى الغالب فينشأ عنه ما لا يتصوره إنسان من التَّلَف والضَّرَر ، وساحل أوريسة هذا أصيب فى سنة ١٨٦٦ بإعْصار خرَّب قراه وأهلك ١٢٠٠٠٠٠ شخص من سكانه ، وذلك بعد قحطٍ نجم عن الجفاف فأمات ربعهم .

والجفافُ آفةُ الدَّكَن ، والهنودُ ، لكى يدفعوه ، يُقيمون الأسداد ويُنْشِئُون الحِياض الصالحة لوَقف طِفَاح أمطار الرياح الموسمية المؤدية إلى ضِخَم الأنهر فى بعض

أوقات السنة ، وذلك كالحواجز التي صُنِعَت في مصاب مَهَانَدِي وغوداوَرِي وكِرِشنا لِتُحَوِّل المياه ، عند الفيضان ، إلى قنَوات الرَّيّ أو إلى البِرَك المصنوعة ، ويُقدِّس الهندوس تلك الأنهر ويقيمون الشعائر على ضِفاف كلٍّ واحد منها .

ويقع نهر غوداوَرِي ، الذي هو أعظم أنهر الدّكَن والذي يبلغ طوله ١٤٤٠ كيلو متراً ، تحت نهر مَهَانَدِي ثم يليه نهر كِرِشنا الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلو متر ، ثم نهر بنار الذي يبلغ طوله ٥٧٠ كيلو متراً ، ثم نهر كاويرى الذي يبلغ طوله ٧٥٥ كيلو متراً .



٦ — مضيق صخور الرخام على ضفاف نربدا بالقرب من جبل بور

ويجرى نهر كِرِشنا في مجرى ضيق فلا يصلُح للمِلاحة ، ويفقِد مياهه بما يَرْويه من ضِفافه ، ولكن أهميته تبدو ما قطَع شبه جزيرة الهند من الشرق إلى الغرب ،

وما فصل منطقتين وَفَرَّق بين حضارتين ، فَلْيَذْهَب إلى المنطقة الجنوبيــة منه مَنْ يرغب فى درس طبائع الشعب الدراويدى ولغتيه ليُبْصِر أنهـا أقلُّ فساداً بالعناصر الغريبة مما فى أىّ مكان آخر .

وبلغ كثير من الفاتحين نهر كرِشنا مجاوزين جبال وِنْدِهيا وجبال تَرْبَدَا وجبال سات بُورَا وتوابعها الممتدة إلى مصب نهر القَنْج ، ولم يَعْبُر الفـاتحون كرِشنا أو لم يستطيعوا أن يَعْبُروه بكثرة فيختلطوا بالمغلوبين اختلاطاً تختلف به سَحَنات الشعوب الدراويدية القديمة .

وأول ما عَلِمه الغرب عن تلك المنطقة المنقطعة هو ما أتى به التجار الذين قَصَدُوا سواحلها فملأوا الأخْيِلَة بالأقاصيص العجيبة عنها ، ولا غَرْوَ ، فتلك هى بلاد الهند الحقيقية ، تلك هى البــلاد التى تجمع الشمس حرارة أشعتها فى أبازيرها وتوابلها وتجمع أنوارها الوَهَّاجة فى حجارتها الـكريمة .

شواطئ الهند ومرافئها : — ظلَّ الوصول إلى جنوب الهند مقصوراً على البحر زمناً طويلاً مع صعوبة ذلك ، وليس فى شواطئ شبه جزيرة الهند الممتدة من مصابِّ نهر السِّنْد إلى مصابِّ نهر القَنْج مكانٌ يسهل بلوغه بحراً أو بقعةٌ صالحة لإنشاء ميناء عليها ، ولا نذكر مرافئ بَمْبِى ومدراس وكلـكتة البحرية العظيمة ما قامت هذه المرافئ بعزم الإنسان وعمله .

ومع اشتقاق كلمة بَمْبِى من كلمة « Bonne Baie : الفُرْضة الصالحة » ، كما قيل ، فإن نزول السُّيّاح والسِّلَع إليها لا يتمّ بغير صعوبة ، فإذا كانت هــذه الفُرْضة رائعةً فإنها عاطلةٌ من أرصفة ، ولا تُعَدُّ مدراسُ ملجأً للسفن ، فترسو هذه السفن فى

عُرْض البحر وترسل ما فيهما من العُرُوض والأمتعة والركاب إلى البرّ فى قوارب أو أطواف[١] لا تسير فى اللُّجَج من غير خطر ، واليوم تشتمل مدراسُ على رصيف يبلغ ٣٣٥ متراً مع خرابه غيرَ مرة فيما مضى ، ويفكِّر القوم فى حفر خليج لهــا ، ولم يسهُل الاقتراب من كلكتة فى أىّ زمن ، وتقوم سلامة مينائهـا المفتوح وسلامةُ فرع الغَنْج الغربى هوغلى الصالح المِلاحة على مُتَّصِل الأعمال .

و إذا عَدَوْتَ ساحل ملبار الذى يشتمل على بضعة مرافئَ صغيرة صالحة لإيواء المراكب وجدت جميع شواطئ الهند خَطِرة ، ولم تَرَ مكاناً مناسباً فى خليج البنغال ، و ِكلنغاپَتَمُ ، الواقعةُ بين دلتا مَهانَدِى ودلتا غودافرى ، وحــدَها هى الملائمة لبعض الرُّسُو على مسافة ستمئة كيلو متر .

٥ — الأجواء

بلادُ الهند من أشدّ بلاد الدنيا حراً ، واختلاف بلاد الهند فى الارتفاع يجعــل لكلٍّ منها جوًّا خاصًّا ، فيستطيع السائح أن يقطع فيها درجاتٍ متباينةً من الحرارة فى بضعة أيام .

ومثلُ هذه الانتقالاتُ يُلاحَظ فى جبال هِمالَية على الخصوص ، فبينما يُتوِّج الثلج والجليد ذُرَا تلك الجبال الرائعة تتمتع منحدراتها بجوٍّ معتدل كجوّ فرنسة و إيطالية ، وتكاد سفوحها تُلفَح بحرارة دائرة الانقلاب الصيف .

والحدُّ الذى تَثْبُتُ الثلوج فوقه من جبال هِمالَية عالٍ ، ويترجح ارتفاعه بين

---

(١) الأطواف : جمع الطوف وهو قطع خشب تشد فتصير كهيئة سطح ويركب عليها فى الماء أو تحمل عليها الأثقال .

٤٠٠٠و٥٠٠٠ متر، ولا يسقط الثلج تحت هـذا الارتفاع إلاّ قليلاً ، وإذا ما سقط ذاب سريعاً ، وفى القسم الغربى من جبـال هِمَالْيَة يُمْسِك واسع الهِضاب كُتَلَ الجليد ، وفى ذلك القسم الغربى يكون لديها من الوقت ما تَسكوّن فيه ، على حين تنهال كُوَم الثلج فى مُنْحَدَرات جبال هِمالْيَـة الشرقية الواقعة .

ولا تجِد لحقول الجليد التى تشاهَد فى هِمالْيَـة الغربية وفى كارا كورَم مثيلاً فى غير البقاع القطبية ، وتترجّح تلك الحقول بين ٢٥ و٣٠ و ٥٠ كيلومتراً طولاً ،وهى مشهورة بما تَقُدّه من الثّمار فى أثناء انهيالها ، ومما يحدث أحياناً أن يتجمع التراب بين الجلاميد فَيَنْبُتُ فيه العشب فيحجب كُتَلَ الجليد الـكثيبةَ غِطاء أخضر .

وتمتدُّ فى جبال هِمَالْيَـة الأمامية بقاعٌ يترجح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠ متر فيذ كِّرنا جوُّها وإنتاجها بأفضل بقاع أوربة ، فإليها يجىء الإنكليز فى كلِّ سـنة باحثين عن ملاجئ فِراراً من قَيْظِ الصيف ببلاد الهند ، فيستردون فيها قُوَّتَهُم التى أوهنها حَرُّ السهل ، ففيهـا أقاموا « مُدُن الصحة » التى تَعُدُّ سِمْلا ومسورى ودارجِى لِنغ أهمَّها .

وإلى سِمْلا ينتقل أ كابر الموظفين فى بدء فصل الحرّ ، فتصبح مقرّ الحكومة لبضعة أشهر ، فيعتقد المرء أنه أضحى بانكلترة عنـد تأمُّلها وتأمُّل ما فيها من غَاب البلوط والزّيْن والأشجار المثمرة المألوفة فى الغرب .

وفى الهند نواحٍ كثيرةٌ لها ما لتلك المِنطقة من الروعة ، وأهمُّها جبالُ نِل غيرى التى تبدو فى الجنوب ممتدةً من جبال كَهات الغربية ، فى تلك الجبال أُنشِئت، أيضاً ، مدن للصحة ، وتُعَدُّ أوتا كَمَنْد أعظمها شأناً ، ولتلك المدن جوٌّ أ كثر اعتدالاً من جوّ منحدَرات هِمالْيَة ما اتفق لها ربيع دائم وثَمَرَاتُ الصيف ، وما غَرّدَت الطيور

الأوربية والصيقان الشُّقْر والعنادل والبلابل فى أدغالها ، و إليها جلب الإنكليز عصافيرَ دُورِيَّة فَفَرَّخَت وكَثُرت حول بيوتها .

و إذا استثنيت تلك المناطق وجدتَ حرَّ بلاد الهند يترجَّح بين درجة الصفر والدرجة ٥٢ بمقياس سَنْتِغْراد .

وظاهرةُ مقاطعة البَنْجاب أن تجمع أقصى درجة البرد وأقصى درجة القَيْظ فى الهند ، وأن تتقلب الأجواء فيها أكثر مما فى غيرها .

وكلما سار الإنسان إلى جنوب الهند بدا له تناقص الفروق بين الصيف والشتاء ، فإذا بلغ أقصى الهند رأى استواء الجوّ فى مختلف الفصول .

أجَلْ ، إنه يجد هنالك ارتفاعاً فى الحرارة بسبب درجة العَرْض ، ولكن نِسَام[1] البحر تُلَطِّفها ، وهى تترجَّح بين ٢٦ و ٢٨ درجة بمقياس سَنْتِغْراد فى جميع أيام السنة .

ويُمَيَّز فى الهند ثلاثة فصول وهى : فصل المطر ويدوم من مايو إلى أكتوبر ، وفصل البرد ويدوم من نوفمبر إلى آخر فبراير ، وفصل الحرّ ويدوم من أول مارس إلى أول يونيه ، ويختلف زمن كلّ فصل بين منطقة وأخرى اختلافاً جزئياً ، وأصلح فصول الهند على العموم هو الذى يستطيع الأوربيون أن يسيحوا أو يستقروا فيه من غير سوء ، أى الذى يبدأ فى أكتوبر وينتهى فى أبريل .

ويصبح الحرُّ مضنياً فى الشهرين أبريل ومايو ، فيقاسى الأهلون فى أثنائهما كبيرَ عناء ، فيبلغ الحرُّ فى وادى السند وفى سواحل الدَّكَن شِدَّةً لا تجد مثلها فى بُقعة من الدنيا ، فيُغيض الحرُّ مياهَ الأنهر ويُذْوى النبات ، فتَشْخَص الأبصار إلى

(١) النسام : جمع النسيم .

السماء الصافية فيحجب هذه السماء فى نهاية الأمر، كغية الطبيعة، ضبابٌ من الغبار الدقيق الخانق فتبدو الشمسُ من خلالها قُرْصاً نحِساً عاطلاً من الشعاع.

هنالك ينفَدُ صبر الناس فينتظرون الفَرَج فيرتقبون ما فى أفق الجنوب من الرياح الموسمية الماطرة التى تجىء صائلةً هائلةً للخير حاملةً.

الرياح الموسمية ـ لا تجد حادثةً، كالرياح الموسمية، متجبرةً فى ظاهرها نافعةً فى نتائجها.

يرى الإنسان سُحُباً كثيفةً تتلبّد فى السماء فى يوم أو يومين، ثم تهتزُّ وتُقبِل وئيدةً[1] غاشية نصف الأفق بغطاء مأتَمِىّ على حين يضىء نصفَ الأفق الآخر بيوتُ القرى البيضُ وضِفافُ الأنهر، ثم لم يلبث الجميع أن يُعتِم، فهنالك ترتعج[2] البروق وتقصف الرعود وتنزل الصواعق بما يمزّق القلب ويخلع الفؤاد، ثم تتشقّق الأضوار[3] الطاخية[4] كالظروف والقِرَب المملوءة فينهمر طوفانها على الأرض ويملأ مجارى الأنهار الجافّة ويحوّلها إلى سيول، فتجرع الأراضى المتاخلية من مياهه المباركة فتبدو للناظر حياةٌ جديدة آتية من السماء لتسرى فى عروق العالم فيعود إليه شبابه.

ولم تُعتِم تلك الزوبعة الأولى أن تهدأ فتنقشع تلك الغيوم المكفهرّة عن سماء ضاحكة وعن نبات رطيب نضير يخرُج فوراً فيعود إلى الأحياء نشاطهم ويتحول كلُّ شىء فى بضعة أيام، ولكنّ رياح الجنوب الغربى الموسمية لا تنفكُّ تجىء من فوق البحر فى خمسة أشهر أو ستة أشهر حاملةً الرطوبة والنّدَى خافقةً ماطرة بين حين وحين.

(١) وئيدة: على تؤدة ـ (٢) ارتعج البرق: تتابع ـ (٣) الأضوار: جمع الضور وهو السحابة السوداء ـ (٤) الطاخية: المظلمة.

ذلك هو فصل المطر ، وذلك ما يحدث فى السواحل الجنوبية الغربية ، ولا يحدث مثله فى بقاع الهند الأخرى من كلّ وجه ومن حيث الزمن والأحوال ، و إليك ما قيل فى مصدر ذلك الحادث وسيره من النظريات الجديدة :

يَهُبُّ ببلاد الهند ريحان مختلفتان مقتسمتان لأيام السنة ، تَخْفق إحداهما من الشمال الشرقى فتدوم من نوفمبر إلى مايو ، وتخفق الأخرى من الجنوب الغربى فتدوم فى الأشهر الستة الأخرى ، فأما الريح الأولى فتأتى من آسية الوسطى غيرَ مارّة بغير البُرور فلا تحمل قابَةً (١) ، فتُدْعى بالريح الموسمية الجافّة ، فتختلط بالرياح التى تَهُبُّ بين دائرتى الانقلاب من الشرق إلى الغرب ، فلا تكون حادثةً ذاتَ طابع خاص ، وأما الريح الثانيـة فتجوب البحر الهندىّ فتحمِل أبخرة يُسْفِر تـكاثفها عن وابل هاطل ، فتدعى بالريح الموسميـة الماطرة ، فهى وليدة تفاوت توزيع البُرُور والبحار وقَيْظ الصيف فى أشهره الثلاثة .

تمتد طبقات هواء الهنـد فى آخر الفصل الحارّ وتنبسط شيئاً فشيئاً بفعل ارتفاع الحرارة فتتصاعد فى الجوّ فتتحول الهند إلى أتون مستغيث فتهتزّ حينئذ السحبُ التى تَغْشى البحرالهندىّ وتسير لتملأ ذلك الفراغ الحادث ، وتدوم على هذه الحال إلى أن يعود التوازن الذى اختـلّ فى الجو ، و إذا أصبحت سُحُب رياح الجنوب الغربى الموسميةُ فوق شواطئ الهنـد وَقَفَتها جبال كَهات وحملتها على الانْصِباب فى جانبها الغربى ، فيؤدى هذا الوابلُ الهاطل إلى تَصَدُّع تلك الجبال وتقطيعها بروجاً ومِسَلّات واكتسابها منظراً ساحراً عجيباً خاصاً بها .

---

(١) القابة : القطرة من المطر .

و إذا استطاعت تلك السُّحُب أن تنفُذ سلسلة كَهات كان ذلك وهى أقلُّ قطراً فَصَبَّت فى جانب هذه السلسلة الشرقى وفى هِضاب الدَّكن مياهاً دون تلك مرتين أو ثلاث مرات ، وهى إذ تعجز عن قطع جبال كَهات الشرقيــة تجرى إلى الشمال الشرق غيرَ حاملة قَطْرَةً إلى شاطئ كورومندل .

والرياحُ الموسمية الشمالية الشرقية هى التى تَرْوى ، بما لا يكفى ، مِنطقةَ كورومندل بعد أن تحمل بعض السُّحُب من خليج البنغال .

والجفاف بَلِيَّةُ مِنطقة كورومندل فى الحقيقة ، وليس فى الهند مكانٌ يحتاج إلى الحياض المصنوعة كهذه المِنطقة ، فأُنشىء فيها من الحياض الكثيرة ما تبلغ مِساحته أحياناً مِساحةَ الأراضى الزراعية التى يُرْويها .

وحينما تـكون الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية فوق البنغال تقطع البحرَ ثانيةً فتنحرف بفعل جبال بِن مانى وآسام فتهبُّ عموديةً على شواطئ سُنْدَرَ بن كأنها آتية من الجنوب تَوّاً ، وهى إذ تـكون حاملة سُحُباً كثيفة فى هــذه المرة تَغُوَرُ[1] فى وادى برهما بوترا العليا ، فهنالك ، حيث جبال آسام وطرف سلسلة هِمَالْيَة الشرقى ، تُنْزِل من الأمطار الهائلة ما لا مثيل له فى الدنيا ، فقُدِّر ارتفاع ما سقط منه فى سنة ١٨٦١ على چيراپونجى، الذى هو من شوامخ كهاسى ، بعشرين متراً ، فنجم عن ذلك أن تَصَدَّعَت شِعاف تلك المِنطقة كما فى جبال كَهات .

وتغيِّر الرياح الموسمية سيرها بعد ذلك تغييراً تاماً ، فهى إذ تعجز عن مجاوزة جبال هِمَالْيَة تجرى محاذيةً لهذه الجبال متوجهة إلى الشمال الغربىّ فتنشر الرطوبة فى طريقها

---

(١) غور الماء : ذهب فى الأرض .

ثم تَصِل إلى البَنْجاب الذى ينتظرها لِيَسُحَّ[١] فيه وِقْرُها[٢] .

ولا يَكفهِرُّ جوُّ البنجاب إلا فى أواخر يونيه ، وتجوب الرياح الموسمية تلك السبلَ بِصَوْلَة متناقصة فى عِدَّة شهور ، وينال وادى السِّند وساحلُ أوريسة أسوأَ حِصَّة من مياهها ، فإذا ماساء الحظُّ فقَلَّ مقدار مايأخذانه من الماء عادةً ، مع عدم كفايته، أسفر ذلك عن مجاعة أشدَّ من الغزو والوباء ، فهلك مئات الألوف من الناس ، فليس من العبث ، إذَنْ ، أن عَبَد الهندوسُ الأنهارَ والآلهة التى تُوَزِّعُ على الأرض مياه الخير والبركة ، جاء فى المهابهارتا : « يأتينا المطر من الآلهة فيَهَب لنا النبات الذى هو قِوَام نعمة الإنسان » .

ويرى الإنسان فى الدَّكَن الجنوبىِّ المناظرَ المختلفةالتى هى وليدة الرىِّ المتفاوت، فالمطر ينزل عليه ، بالحقيقة ، نزولًا غير متساوٍ بسبب الموانع الجبلية وما إليها ، فهنا يهطل مِدْراراً فيخرج نباتُ برى جامح فتقوم غابة استوائية ، وهنالك تجد حقولاً حقيرة تنبت فيها الخيازر[٣] نباتاً متفرقاً ، وهنالك ، حيث التراب البركانى ، تُبْصِر الجدْب والجَفاف .

أجل ، إن المجاعات التى تنشأ عن تفاوت نزول الأمطار هى أشدُّ ما تُبْتَلى به بلاد الهند ، ولكنها ليست كلَّ ما تصاب به ، فلْتُضَف إليها الأعاصير والهَيْضَة[٤] والحُمَّيَات .

ترتفع الأعاصير فتُخَرِّب كلَّ شىء يعترض لها ، وتثير أمواجَ البحر أحياناً فتقذفها إلى مسافات بعيدة ، ومنشأ الأعاصير هو ما بين رُكام الجوِّ من تفاوت ،

---

(١) سح : سال وانصب غزيراً — (٢) الوقر : السحاب المثقل بالماء . — (٣) الخيازر : جمع الخيزران — ٤ الهيضة : الـكوليرا .

وفى أواخر فصل الحرّ ، على الخصوص ، تهبّ الأعاصير فوق شواطىء كورومندل وسكهر وأوريسة ، وما تحدثه الأعاصير من الضرر يذهب بلبّ الرشيد ، ومن ذلك أن غَرِقت فى سنة ١٧٨٩ منطقة مدابُولم القريبةُ من مصابّ غوداورى فهلك ألوف من الناس لحملت السفينة ليفيڤرية مسافة فرسخ فى البر، ومن ذلك أن دُمِّرت فى سنة ١٨٦٤ مدينة مجيلى بُتَّم المتوسطةُ الأهمية الواقعةُ على ذلك الساحل ، ومن ذلك الخراب الذى تُعَرِّض له جُزُر سُنْدَرَبن الرملية التى يتألف منها مصابُّ نهر الغَنْج فيتعذّر دفعه .

وفى غُدران جُزُر سُنْدَرَبن تلك و بين أبخرتها المنبعثة من التراب الرطيب وفى غياضها المُتَعَضِّيَة الوبيئة بُؤْرةُ الهيْضَة الآسيوية الدائمة مع تقطُّع تفشّيها فى بقية بلاد الهند ، وفى منطقة تَرائى ذاتِ المستنقعات الواقعة فى سفوح جبال هِمالَيَة مصدرُ حُمّيات الآجام التى لا تقِلّ فتكاً عن الهيْضَة ، فَليُقِم بتلك المنطقة أو ليُوغل فيها من يرغب فى الموت ، فالموت ، وإن لم يلاقه فيها على الدوام ، يُنْشِب أظفاره فيه إذا ما غَفَل عنه فيندر أن يتفلّت منه .

ولا يقال ، مع ذلك ، إن بلاد الهند الرائعة ، التى لا ينضُب لها مَعِين ، وبيئة فى مجموعها ، فيمكن الأوربيين أن يستقرّوا بها من غير أن يخاطروا بأنفسهم ما سلكوا سبيل الرشاد فبدّلوا منازلهم فيها وغيّروا ما هم فيه من هوائها وأجوائها بحسب الفصول ، وهذا لا يكون لزمن طويل مع ذلك ، فقد هدتهم التجارب إلى استحالة اختيارهم لها وطناً ثابتاً فتراهم يرسلون أولادهم إلى إنكلترة لينشأوا فيها ، ما تألف ممن يبقى منهم فى الهند عرق منحط سخيف ضعيف محكوم عليه بالأفول قريباً ، وما أحسن قولَ بعضهم : «يتصف جيل البيض الأول فى بلاد الهند بالضَّعف

والشَّخَف ، ويتصف جيلهم الثانى فيها بالعجز والكَسَح ، ولا تسمع عن جيلهم الثالث فيها خبراً » .

والهندُ إذا أريد وصفُها وصفاً أساسياً قيل إنها بلادٌ حارة يَقِلُّ فيها الاحتياج إلى المساكن والملابس والمآكل وتكثر فيها الأراضى الخصيبة التى تُخْرِج ، بغير عمل، ما يُضْطَرُّ إليه الأهلون من المحاصيل القليلة ، فنى أحوال كتلك لا يتطلب الصراعُ من أجل الحياة كبيرَ جهودٍ ، فلا ينمو فيها خلق المبادرة والنشاط والحزم ، فكأنه كُتِبَ على العروق الخاضعة لمثل تلك الأحوال أن تكون مستعبدة ، فهى تظلُّ فريسةً للفاتحين ، مستعدةً للعمل بأوامر الغالبين .

الفَصلُ الثانِى
وَصفُ مَناطِقِ الهِندِ العَام

الحدود الطبيعية لمناطق الهند ـ الخط الفاصل بين الهندوستان والدكن ـ (١) هِمالية الشرقية (نيبال وسكم وبهوتان) ـ عزلة نيبال ـ وصفها الخاص ـ اختلاط المؤثرات الهندية والتبتية ـ الممالك الصغيرة فى منطقة جبال همالية الشرقية ـ (٢) البنغال ـ خصبه ـ طبيعة سكانه ـ (٣) أودهـ ـ اختلاف سكانه عن البنغال ـ (٤) همالية الغربية ـ جو كشمير ـ وادى كشمير ـ (٥) الهند الإسلامية (البنجاب وراجبوتانا والسند الخ .) ـ أوصافها ـ البنجاب وكاتهياوار والسكجرات الخ ـ (٦) ولايات الهند الوسطى وساحل أوريسة ـ المنطقة الوسطى المعروفة بغوندوانا ـ منطقة أوريسة ـ (٧) الدكن ـ الظاهرة البركانية أقدم من الدكن ـ مملكة حيدر آباد ومملكة ميسور الخ .

لمناطق الهند حدودٌ طبيعية على العموم ، كأنْ يفصِل نهر أو سلسلة جبال بين منطقتين منهما مختلفتين عرقاً وحكومةً وحضارةً ، والضرورات السياسية تؤدى ، فى الغالب ، إلى تذليل تلك الحواجز وتبديل غيرها بها ، ولم ينجم عن الفتح أو الحِلف، مع ذلك ، تقريبٌ مستمرٌ لنصفى شبه جزيرة الهند (الهندوستان والدَّكن) اللذين تفصِل بينهما جبال وندهيا ما بقيت هـذه الجبال حجاباً حاجزاً ، فـكان ما تراه من اختلافهما فى الأجواء والحاصلات والشعوب والطبائع والعادات .

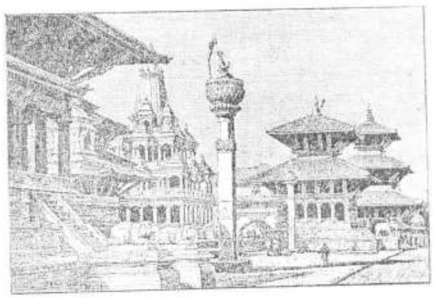
وأهل الشمال الذين تعوّدُوا الانتقال بين القَيْظِ والقرّ أعظمُ بِنْيَـةً وأكثرُ نشاطاً وأشدُّ بأساً من أهل الجنوب ، والمَرَاتها الذين يسكنون المناطق الجنوبيـة

يقاسون وحدَهم بأولئك ، وسكانُ الدكن الذين يقطنون بقطرٍ شديد الحرارة غير متقلب فلا ينمون جسماً وأخلاقاً يبـدون قِصاراً أخلياء كُسالى ، وتختلف جلودهم عن جلود أهل الشمال لوناً ، ويتدرّج لون البشر من الجنوب إلى الشمال على العموم فتراه أسودَ فى الجنوب ، نحاسياً فأبيضَ فى الشمال كما عند الراجبوت .

وسنبدأ بالشمال فنصِف سَحَنات سكان كلِّ منطقة وخواصّها ومحصولاتها المحلية وصفاً إجمالياً .

١ — هِمَالْيَة الشرقية (نيبال وسِكِم وبهُوتان)

تشتمل هِمَالْيَة الشرقية على دولتين مستقلتين على الرغم من الإنكليز ، وهما : نيبال وبهُوتان .



٧ — منظر فى بتن (نيبال) (التقط المؤلف هذا المنظر من طرف الشارع المهم بتن ، وتجد تصويراً العمود الكبير ، الذى تحجب الفيلة قاعدته ، فى هذه الصورة ، وتصويراً لمختلف مبانى هذه المدينة فى مكان آخر من هذا السفر)

ونيبال هي وادٍ طويلٌ واقع بين سلسلتي الجبال المتوازيتين : هِمَالْيَة وما تحت هِمَالْيَة .

وليست سلسلة ما تحت هِمَالْيَة هي الحاجز الوحيد الذي يفصل نيبال من الهند ، فاليها نُضيف منطقة تَرَائِي المرهوبة التي تحاذيها جنوباً فينشأ عن أوْبِئتها القاتلة حدٌّ طبيعيٌّ ثانٍ .

ولنيبالَ المنعزلة على ذلك الوجه طابع خاص ، وبلغ أهل نيبال من الغَيْرَة على استقلالهم ما رَضُوا به وجود سفير إنكليزيّ لدى بَلاطهم بعد حربين طاحنتين ، على أن يكون هذا السفيرُ الأوربيّ الوحيدَ الذي يُسمَح له بدخول نيبال ، ولم يُؤْذَن لي في زيارة هذا الصُّقْع العجيب ، الذي لم يَسْتطِع الرحالة جاكمون أن يدخله مع ما أتاه من جهود عظيمة ، إلّا بعد مفاوضات رسمية طويلة ، فكنتُ أولَ فرنسيّ طاف فيه[1] .

ويبدو في نيبال جلال جبال هِمَالْيَة وَوَحْشَتُها ، وتُناطح شِعافها السماء ، فيهيمن على وادي نيبال الطويل جبلُ ديول غِيرى من الغرب وجبلُ كَنْجِنْجَنْكها أو « جبل الكتل الجليدية اللامعة الخمس » من الشرق ، وجبلُ غوري شَنْكر أو « مَلِك الجبال » في الوسط ، فتكتسب نيبال بذلك مناظر رائعة لا تُرى مثلها في منطقة أخرى ، وتشاهد من السهل ذُرَا تلك الجبال المنيعة ذواتُ الثلوج ، فإذا خاطر المرء بنفسه فتَسَلّق مسارِبها ارتعد من التباين بين الهُوَى السود النافذة في بطن الأرض وجُدُرِ الصَّوّان الشاهقة وقِمَم الثلج التي تتدرج إلى السماوات .

وأشهرُ الشِّعاب ذوات المهالك التي تَصِل الهندَ بالتبت هو شِعْب نِيَالو الذي

---

(١) بسطت رحلتي إلى نيبال في الصحيفة : « سياحة حول العالم » (أبريل سنة ١٨٨٦)

يؤدى إلى بحيرة مانْسَرُوور الواقعة فى أسفل جبل كَيْلَاس ، فى مجاهل هـذا الجبل تَسكُن ، كما يعتقد الهندوس ، حيواناتٌ خَفِيَّةٌ قاذفة من أفواهها المُزْبدة أنهرَ الهند الأربعة : سـانغ بو (مجرى برهما پوترا الأعلى على ما يحتمـل) والسند وسَتْلَجَ والغَنْغا .

وروافدُ نهر الغَنْج الآتية من نيبال كثيرة ، وتقطع هـذه الروافد حدود نيبال الطبيعية قطعاً عمودياً ، وينبع بعضها من سفح هِمَالْيَة الشمالى فيجوب نيبـال ، ولا تصلُحُ لِلملاحة ما صَدَّعَت الجبالَ فجرتْ بسرعة من نيبال نفسها فأضحت بذلك غير نافعة لسوى نقل الحطب وأعمال الريّ .

وتقسم تلك الأنهرُ منطقة نيبال إلى عِدَّة أصقاع يختلف سكان بعضها عن سكان بعض ، ويؤدى تفاوت ارتفاع هذه الأصقاع إلى اختلاف سكانها أيضاً .

ويتجلى أثر التبت فى قسم نيبال الجبليّ على الخصوص ، وتَغَيَّرَ هـذا الأثر ، مع ذلك ، تغيراً محسوساً بما تمَّ من الاختلاط بالعناصر الآرية التى نتكلم عنها فى فصل العروق ، فنيبال هى منطقة الانتقال بين الهند ومملكة ابن السماء عروقاً وعمارةً وطبائعَ وعاداتٍ .

وتقع بين نيبـالَ وبهُوتان دولةُ سِكِم الصغيرةُ التى يملكها أحد الراجوات ، ولا تَعدُو عاصمتُه تَمْلُنغ قريةً ، ولا يزيد سكان هـذه الدولة على ستين ألفاً ، وهى ذات طابع تبتيّ خالص .

وسِكِم جبليةٌ رطيبة جـداً ، وتصعب الإقامة بها فى أكثر أيام السنة ، ومن دولة سِكِم القديمة سلخ الإنـكليز أخصب بُقْعة ، فجعلوا منها مديرية وجعلوا من

مقرّها دارجى لنغ مَصَحًّا ومَصِيفاً مهماً فى فصل القيظ ، فعُدّ نِدًّا لسِمْلا الواقعة فى هِمَالْية الغربية وإن كان دونها لرطوبة جَوّه ، وتبدو مدينة دارجى لنغ سوقاً عظيمة يقصِدها الهندوس وأهل التبت المقايضة والمعاوضة .

وتشابه مِنطقة بهُوتان مِنطقةَ سِكِم الفاصلة لها عن نِيبال ، وتقع على منحدرات الجنوب من مِنْطقة هِمَالْية الشرقيـة ، وتقسم إلى ثلاث مناطق زراعية : المِنطقة السهلية التى يَنْبُت فيها نبات البلاد الحارة ، ومِنطقة المنحـدرات التى يَنْبُت فيهـا نبات البلاد المعتدلة ومِنطقةُ غابات الصنوبر المرتفعة الجليـدية ، وتُرْوِى الرياح الموسمية سفوحها الجنوبية إرواء تامًّا ، ولا يَقْطُن بها غير الجبليين ، وتقوم مدينتاها المهمتان على أماكنَ مرتفعة ، وتحاذيها مِنطقة تَرَائى .

٣ — البنغال

يَلِى سهلُ البنغال الواسعُ شواهقَ سِكِم وبهُوتان من الجنوب ، ويرى الناظر إلى هذا السهل من جبال هِمَالية بساطًا أخضرَ من النبات الرَّيَّان[١] الزاخر حيث تجرى أنهار رائعة وروافدُ وجداول مُتَشَبِّكة ، ويَرَى فى أثناء الفيضان من المياه ما يَعْدِل اليَبَس ، ويرى فى أثناء الطوفان الذى تُسْفِر عنه الرياح الموسمية الجنوبية رطوبةً شديدة .

ومن يمعن النظر فى البنغال يقطع بأنها تابعة للبحر أكثر من اتباعها لليابسة ، ما كانت مجارى المياه التى على سطحها لا تزيد عن البُحَيْرات والأنهار الواقعة تحتها ،

---

(١) الريان : ضد العطشان .

وليس بقليل أن تجد فلاحها الذى يقلب الأرض بمعزقه[١] سماطاً سائلاً على عمق قدم أو قدمين .

وما هو آهل معمور من البنغال يتنازعه الماء الغامر وشعاع الشمس الحار ، ولولا هذا الشعاع ما سلمت فى البنغال أرض من الغرق ، وينجم عن تناوب الحر والبلل للبنغال قوة إنبات لا تنعت وأبخرة وخيمة لا تحد وجوائح[٢] لا يحصيها عد ، فمن البنغال تثب الهيضة[٣] على العالم ، وعلى البنغال تسيطر الهيضة والحمى فى كل زمن .

والبنغال ، مع ما فيها من الآفات والضوارى وأنمر الآجام وتماسيح الأنهار ، تعد من أكثر البلدان سكاناً وأصلحها أطياناً ، فأراضيها تؤتى أكلها مرتين أو ثلاث مرات فى السنة من غير عناء كبير ، وهى ، لأنها ذات شواطئ ، تجد إلى البحر من المنافذ ما تصدر منه حاصلاتها ، ويغشى الأرز سهولها الرطبة المطمئنة ، ويغشى الشعير والبر[٤] والدخن[٥] الخ ، حقولها المرتفعة ، وينبت فيها القطن وقصب السكر والتبغ والقنب والخشخاش[٦] والعظلم[٧] وما إلى ذلك من النبات الغذائى الصناعى بسهولة عجيبة .

وتقوم مدن كثيرة عامرة زاهرة على ضفاف الأنهر التى تشق البنغال ، ويظل زهو هذه المدن ما ظلت على هذه الضفاف ، فإذا حول النهر مجراه خربت كما حدث

(١) العزق : المذراة ، الآلة من حديد ونحوه مما يحفر به — (٢) الجوائح : جمع الجائحة وهى البلية والتهلكة والداهية العظيمة — (٣) الهيضة : الكوليرا — (٤) البر : القمح (٥) الدخن : نبات حبه صغير أملس — (٦) الخشخاش : نبات يحمل كوازاً بيضاً وهو منوم مخدر — (٧) العظلم : نبات يصبغ به .

لمدينـة غور ، وأهمُّ مدن البنغـال مدينة كلكتة التى هى عاصمة الإمبراطورية الإنكليزية الهندية والتى هى أعظم مرافئ شبه جزيرة الهند .

وأهلُ البنغال مزيجُ أناسِيّ مختلفين، والمثالُ الهندوسيُّ فى هذا القطر كريهٌ خَلْقاً وخُلُقاً ، ويراه الأوربيون خلاصة جميع العروق التى تسكن شبه جزيرة الهند، ويرجع ذلك إلى أن أكثر سـياح الغرب لم يُبْصِروا غـيره ، ويتصف البنغالىُّ بالقِصَر والهُزال والاسمرار والتكرُّش ، ويهضم البنغالىُّ ما يُلَقّمُه ، ويبدو البنغالى من الناحية الخلقية خَبيثاً جباناً نَذْلاً مُرائياً .

٣ — أوَدْهَة

تقع ولاية أوَدْهَة ، التى هى من أرغد بقاع الأرض ، فى شمال البنغال الغربى ، بين وادى الغَنْج وجبـال هِمَالْيَة ، وتتمتع بجو أطيب من جو البنغال ، ويختلف سكانها عن سكان البنغال اختلافاً كثيراً ، ويَقْرُب عرقهم الجميل البهىُّ القوىُّ من العروق الأوربية قُرْباً كبيراً ، ويتصف بالطول وانتظام الوجه وانسجام اللون ، ولا إفراط فى رطوبة أوَدْهَة ، وتكفى لإنبـات أراضيها نباتاً عجيباً ، ولا مِراء فى قَيْظ صيفها ، ولـكنّ قُرَّ شتائها يُطَرِّى الجوّ فيتَقَوَّى أهلوها ويتجدد نشاطهم .

وفى أوَدْهَة غاباتٌ ساترة لِما يَلِى الجبال من الأراضى غنيةٌ بالقنائص ، كَثّةٌ بالأشجار الصالحة لاستخراج العطور الفاخرة ، وفى أوَدْهَة سهولٌ هابطة بالتدريج إلى نهر الغَنْج ذاتُ غَلّات سنوية تورث وفرتُها العجب ، وليس بضائرٍ أن يشتمل ثَرَاها على قطعة مهمة من أوَدْهَة ما تغلّب الإنسان بقوة إرادته ومضاء عزيمته على الطبيعة فاستطاع أن يُحْيِي أجزاء كثيرة من تلك القطعة الخطِرة ويجعلها طيبة صحية .

وفى أساطير الهندوس ذِكْرٌ لجمال أَوَدْهَة وخِصْبِها ، وفى قصائد الشعراء تَرَنُّمٌ بهذه المملكة التى كانت تسمى كُوسَلَة و بعاصمتها القديمة أَجُودْهيا الخربة فى الوقت الحاضر ، جاء فى ديوان الرمايَنا .

« هنالك قطرٌ واسع اسمه كُوسَلَة واقعٌ على شاطئ سَرَاجو زاهرٌ عظيمُ الخيرات كثيرُ القِطاع وافرُ الغَلاَّت ، وهنالك مدينةٌ شهيرة فى العالم بأسره أنشأها سيد البشر منو فدُعيت بأَجُودْهيا » .

وأضحت تلك المدينة الآهلة أَوَدْهَة الحديثة مؤخراً ، و بهذا الاسم يسمى البلد الذى كانت تلك المدينة عاصمةً له فكانت واقعة على شواطئ غوغرا .

وغَيَّر بلدأَوَدْهَة ، كبقية بلادالهند ، عاصمته غير مرة ، فأضحت مدينة لَكْهْنُو عاصمة له بعد أن كانت فيض آباد ، ومدينةُ لَكْهْنُو تلك نالت أهمية كبيرة منذ صارت منطقة أَوَدْهَة التى هى «فردوس الهند» مُلْكَ إنكلترة ، وهى تجتذب فريقاً كبيراً من الأوربيين بسبب موقعها الساحر ، وهى مركز الأناقة ، وهى ذات مبانٍ مؤثرة من بعيد وإن عددناها نَمُوذَجاً لانحطاط الفنّ الهندوسىّ فى العهد الأوربى .

٤ — هِمَالْيَة الغربية (كشمير)

وادى كشمير أفضلُ من قطر أَوَدْهَة وأشهرُ منه فى أقاصيص الهندوأساطير العالم، ولا يعدِله سوى منطقة نيبال حسنَ جَوٍّ وروعةَ منظرٍ ، ويقع بين فروع جبال هِمَالْيَة الغربية الأخيرة وشواهق كارا كورَم الأولى ، وتهيمن عليه الذرّا ذات الثلوج وتحيط به أسوار من جلاميدَ تتحدّى أقدامَ الناس بمنحدراتها الوَعْرَة الصعبة الكامدة ،

وتحتوى سهوله النَّضِرَة الأَرِجَة[1] على بحيرات وأهْوَار[2] بلَّوْرية هادئة وقرى ذاتِ مساكن رائعةٍ ومعابدَ وقصورٍ ذوات حِياطٍ[3] بيض .

والمرء حين يسير وَضَفَّةَ نهر ذلك الوادى الوحيد جهيلَم (الذى يدعوه الآريون بڤيتاستا ويسميه الإغريق بهيداسپس) فيرفع ناظريْه يرى ذُرًا تَنْغَا پَرْبَت الهائلة التى يتألف منها حدُّ إمبراطورية الهند القُرَّن ويرى ذُرًا دَيْسَنْغ الذى هو جبـل الدنيا الثانى البالغُ ارتفاعه ٨٦٦٠ متراً ، والمرء حين يخفض ناظريْه يرى منظراً دون ذلك جلالاً وأكثر من ذلك سحراً وسناء ، أى يرى مبانىَ رائعةً تُبَلِّلُ أسـفلها الرُّخامىَّ بحيرات زُرْق هادئة بهيجة محاطةٌ بنبات فاتن ذى اخضرار وأزهار .

وتقع مدينة شِرى نَغَر ، التى هى أكبر مدينة فى ذلك القسم من هِمَالَيَة ، فى وسط وادى كشمير وعلى ضِفَّتَىْ نهر جهيلَم ، ودعيت هذه المدينة بـ « بندقية الهند » لما يَشُقُّها من القنَوات .

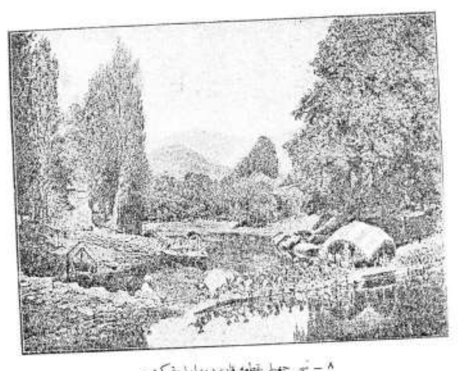
وتُغَطِّى سُقُفَ بيوت مدينة شِرى نَغَر طبقةٌ ترابٍ رقيقةٌ ، حيث يَنْبُتُ الخُضَر والزهر فتبـدو هذه المدينة حديقةً واسـعةً مُعَلَّقَة ، وتُشاهَد حدائق فوق أطواف[4] عائمة فى البحيرات فيزرع أهالى شِرى نَغَر الماهرون فيها القِثَّاء والبطِّيخ فلا نقلْ غرابةٌ عن تلك .

ويلائم جمالُ الإنسان فى ذلك « الوادى المبارك » جمالَ الطبيعة فيبدو رجال

---

(١) الأرج : ذو الرائحة الطيبة ـ (٢) الأهوار : جمع الهور وهو البحيرة تجرى اليها مياه غياض وآجام فتتسع ـ (٣) الحياط : جمع الحائط ـ (٤) الأطواف : جمع الطوف وهو قطع خشب يشد بعضها الى بعض فتصير كهيئـة سطح ويركب عليها فى المـاء أو تحمل عليها الأثقـال .

كشمير أكثر رجال الهند تناسباً وبياضاً ، وتبدو تقاطيع نسائها الجميلة مشهورة فى أسواق نخاسة الشرق .



٨ — نهر جهيلم يقطعه قارب مهاراجة كشمير

وظلت صِناعة الشالات الكشميرية منبعَ ثروةٍ لذلك البلد زمناً طويلاً ، ثم نقصت أهميتها لتقلب الأزياء فى أوربة ، ولكن أهالى ذلك البلد وجدوا فى صِناعة عطور الورد وصِناعة الأدوات المعدنية المرصعة وما إليها ما يَشْغلهم .

ويتألف من وادى كشمير بقعةٌ ذاتُ طابع خاصٍ فى مجموعة الولايات الكشميرية ، وتشتمل هذه الولايات ، التى اتخذت جَمُّو الواقعةَ على نهر جِناب عاصمةً لها ، على أودية نهر السِّنْد العليا وعلى روافده وعلى جميع الهِضاب المجاورة للتبت ، وتُعَدُّ لَدّاخ وبالْتِي من أجزائها سياسياً .

ويستوقف تكوينُ وادى كشمير النظرَ كثيراً ، فيدلُّ البحث العلمىُّ على أن هذا الوادى كان بحيرة فى سالف العصور وأن انقلاباً حدث فأسفر عن انفتاق سلاسل جبال الدنيا وجريان مياه تلك البحيرة ، وأساطيرُ الهند مملوءة بأخبار ذلك الأمر العُجاب الذى حدث قبل ظهور الإنسان فى الدنيا .

٥ — الهند الإسلامية (البنجاب وراجبوتانا والسند : الخ)

يشتمل وادى السند على البنجاب وراجبوتانا والكجرات والسِّنْد ، ويسمى هذا الوادى بالهند الإسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ولما احتواه من المبانى التى أسفرت عنها الحضارة الإسلامية .

وتضاف إلى ذلك القطر منطقة وادى الغَنْج الأعلى التى يسميها الإنكليز بالولايات الشمالية الغربية ، واتُّخِذ نهر جَمْنَة الذى هو رافد ضِفَّة نهر الغَنْج اليمنى حدًّا رسمياً بين البنجاب وتلك الولايات الشمالية الغربية .

وتبدو منطقة البنجاب الآهلة العامرة المستطيلة فى أسفل هِمَالْيَة أنها تَمُطُّ سهلَ الغَنْج الخصب إلى ماوراء نهر السند فتكون أداة وصل بين وادِيَى الشمال العظيمَيْن اللذين يظلان منفصلَيْن بغيرها .

وفى منطقة البنجاب حقولٌ حسنةُ الرَّىِّ جيدةُ الخصب ، وسكانٌ كثيرون ، ومدنٌ زاهرة شهيرةٌ كالمدن : لاهور وأمرت سِر ودهلى الخ .

ولكن الإنسان إذا سار إلى الجنوب شاهد انبساط الصَّحارى الواسعة الكئيبة واتجاهَها إلى بحر العرب وشاهد بيوتاً تتباعد أو تغيب ، وتتعذر الزراعة فى تلك الصَّحارى فلا تحتوى على غير مراعٍ ضعيفة هزيلة .

ويتصف جوُّ ذلك القطر باختلاف حرارته بين فصل وآخر ، وتزيد تقلبات هذه الحرارة على خمسين درجة ، ولا يشاهَد هذا فى صحراء تِهار وحدَها ، بل يشاهَد فى مدن الشمال أيضاً ، فمن هذه المدن أغرا التى تكون من أشدِّ البلاد قيظاً فلا يندُر أن تصبح ذات قُرٍّ فى الصباح والمساء من أيام الشتاء .

وفى فصل الجفاف تَهُبُّ فى الصحراء رياحٌ لوافحُ كأنها خارجة من الجحيم ، فلا تضع الحيوانات أرجلَها على رمالها المحرقة من غير أن تألم ، فيستفيد من ذلك أناس راكبون خيلًا أو جمالًا فيتصيدون ذئاباً لعجزها عن الهرَب فى ذلك السعير .

وتمتدُّ بقعة غريبةٌ مستوية من جنوب صحراء تِهار وتُسمّى رَن كَجَّة ، ويترجح عرضها بين ٦٠ و ١٠٠ كيلو متر فتكون فى الصيف قاسيةً متماسكةً كالمرآة ، فإذا حلَّ الشتاء غمرتها طبقةُ ماء عمقها متر واحد ، فلا يفصلها عن البحر تقريباً سوى جزيرة كَجَّة البارزةِ قليلًا والحاويةِ بضعَ قُرًى ونباتاً ضعيفاً ، فيتموّج فوق رَن كَجَّة تلك سرابٌ تِلْوَ سراب بفعل أشعة الشمس فيَمَسُّ السائحَ لُغُوبٌ[1] ، فيَهيم فيتعذر، لهذا الهَيْم وانعكاس النور على الرمل أو على البِرَك ، اجتيابُ رَن كَجَّة تلك نهاراً لا بعد غياب الشمس .

ويقع فى جنوب كَجَّة الشرقيِّ وغديرِها[2] شبهُ جزيرة كاتهياوار التى هى جزء من ولاية الكجرات سياسياً .

والكجرات من أمدن بلاد الهنـد ، ومدينةُ أحمد آباد ، التى هى قاعدتها ، زاهرةٌ ذات جِدٍّ وعمل وتجارة رابحة ، وليست مرافىء كاتهياوار بمجهولة لدى سفن

(١) لغب يلغب لغوبا : تعب وأعيا أشد الإعياء — (٢) الغدير : قطعة من الماء يتركها السيل

العالم ، ويصبُّ في خليج كَمْبي الذي يُبَلِّل شواطئها نهرُ نَرْبَدا ونهر تابتي .

وترتفع جبال أراولي وطَوْد آبو المنفصلُ منها في شمال الكجرات وشرق صحراء تهار، والطَوْد آبو هذا صيتٌ بعيد في جميع بلاد الهند حيث يُقدِّسه الناس ، فأنشئت في جوانبه معابدُ جَيْنِيَّة أظهر متفننو الهندوس فيهـا ما لديهم من الحِذْق في النحت العظيم الرائع الساحر .

ويسكن الراجپوت الذين هم من أقدم عروق الهند جبالَ أراولي والبُقْعَة الوعرة التي تهيمن عليها هذه الجبال ، وظلَّ الراجپوت مستقلين تقريباً مع غَزَوات الأجنبيِّ بفضل طبيعة بلادهم ذي الآطام[1] والمعاقل الطبيعية ، أي بفضـل بلادهم ذي الصخور التي يُخَيَّل إلى الناظر من بعيد أنها حصون وأبراج ، فإذا أقيمت فوقها قلعةٌ صَعُب تمييز ما صنعه الإنسان فيها مما شادته يد الطبيعة .

وتقع ولاية بَنْدِيل كَهَند وولاية بها كِيل كَهَند في شرق راجپوتانا ، وتحتوى تانك الولايتان الجبليتان على مناجم حديد وفحم حجريّ ، وكانت مدينة كَهَجُورا قاعدة بُنْدِيل كَهَند فأصبحت مهجورة مع اشتمالهـا على معابدَ معدودة أعجبَ ما في الهنـد .

وتَصِل هضْبة مَالَوا وجبال وِنْدِهيا ذلك القسم الهندوستاني بولايات الهنـد الوسطى العالية .

٦ — ولايات الهند الوسطى وساحل أوريسة

يُعْرَف بغوندوانا قسمُ الهنـد الذي يسميه الإنكليز بالولايات الوسـطى ،

---

(١) الآطام : جمع الأطم وهو الحصن .

ويتوسط هذا القسمُ الهندوستانَ والدَّكَن بحيوانه ونباته وموقعه الجغرافى ، وبدا هذا القسم مستوراً بآجام موبوءة مهلكة لا تُنفَذ ، وظلَّ إلى القرن الثامن عشر حاجزاً لم يقدر الغزاة على مجاوزته إلّا بالدَّوْر حوله ، وبقى إلى ماقبل ثلاثين سنة مجهولاً كإفريقية الوسطى .

وتتألف غوندوانا من سلسلة هضاب يترجّح ارتفاعها بين ٣٠٠ و ١١٠٠ متر ، وتتخللها أودية وفِجاجٌ عميقة ، وتظهر هَضْبَة أَمَرْكَنْتَك ، التى هى أعلى تلك الهضاب ، عُقْدَةً جبلية مهمة ينبع منها ستةُ أنهار كبيرة نذكر منها سون ومَهانَدى وَنَرْبَدَا .

ويقطن فى قسم من غوندوانا وحوشُ الغوند الذين سندرس أمرهم فى فصل آخر .

ويقع ساحل أوريسة فى شرق غوندوانا ، وهو بُقْعَة فقيرة قَفْرٌ مُعَرَّضة للجَدْب والفيضان والجوع فى الوقت الحاضر ، بعد أن كانت مقراً لدولة قوية سَنيَّة فى غابر الأزمان ، كما يشهد بذلك ما تركته تلك الدولة من المعابد البهيَّة ، وتُعَدُّ معابد بهوُ ونيشوَر وجَكَن نَاتْها من أشهر معابد الهند ، لألوف الحجيج الذين يقصِدون هذه الأخيرة من جميع أنحاء الهند .

ويمتدُّ ساحل أوريسة إلى الجنوب من شاطئ سَكهَر ، ويُرى تحت بحيرة جلكا ممرٌّ ضيق يعرف بترموبيل سَكهَر ، فيمرُّ بين الجبال والبحر بعد أن يقطع مدينة برهامپوترا المهمة ، فمن هذا الممرّ اضْطُرَّ الفاتحون أن يسيروا ليدخلوا الدَّكَن من هذه الناحية ، فهذا هو الحدُّ بين اللغات الآرية والدراويدية ، فيتكلم الناس بالأوريَّة فى الشمال ويتكلمون بالتيلغو فى الجنوب .

٧ — الدَّكَن

كان اسم الدَّكَن يطلق على قسم الهند الجنوبى المقابل للقسم الشمالى المعروف بالهندوستان ، واليوم يُطْلَق على منطقة الهضاب عدا الولايات الوسطى والسواحل .

وتلك الهضاب ذاتُ التراب البركانىّ غيرُ خَصِبة وقليلة السكان على العموم ، ويستثنى من ذلك ضِفافُ الأنهار والأودية ذوات الأطيان السُّودِ والجزء الغربى الذى تحمل الرياح الموسمية الجنوبية إليه سيولًا مباركة فى كل سنة .

ويقطن فى الشمال الغربى من ذلك القطر المَرَاتها الذين كانت لهم دولة قوية محاربة مرهوبة فى الهند بأسرها فيما مضى .

قهر المَرَاتها سكانَ تلك الجهات الأصليين البهيل واستقروا بِعُرْضَى جبال كَهات وبالهضاب العالية وبسهول كُونْكَن الغنية ، وثار المَرَاتها على الإنكليز غير مرة ، ولاقى هؤلاء الأمَرَّيْن فى رَدِّ جماحهم ، وإذا عَدَوْت المَرَاتها وجدتَ أهالى الدَّكَن من الدراويد ، أو من الذين تغلّب عليهم العنصر الدراويدى على الرغم من كل توالد .

ولم يبق سوى دولة ميسور ودولة حيدر آباد من الدول الكبيرة التى استولت على جنوب الهند فاتخذت غولكندا وبيجاپور وبيجانَغَر عواصمَ لها فكان لها فى أخيلة الأوربيين أعجبُ الذكريات .

وتقع مملكة ميسور على الجانب الشرقىّ من جبال كَهات الغربية ، ويستند جنوبها إلى جبال نِل غيرى ، وتفيض سُحُب الرياح الموسمية عليها بعد أن تصبَّ بصولة فى ساحل ملبار ، ويستر بعض مملكة ميسور ، لذلك ، نبات قوىٌّ ، وتشتمل

على غابٍ عجيبةٍ يكثر فيها شجر الصندل الطيّبُ الشَّذَا الذى يُتْقِن الهنود نقره وترصيعه ، وتُصْدِر القطنَ والحبوب والأبازير إلى الخارج ، وتظهر عاصمتُها التى تسمى ميسور أيضاً مدينةً صحية هيفاء ، وإن كان الأوربيون يفضلون عليها أوتاكامند الواقعة فى جبال نِل غيرى والمعدودةَ مدينةَ الصحة فى جنوب الهند .

وفى ميسور ، فى جنوب نهر كِرِشْنَا ، على الجانب الغربى من جبال گهات ، ينبع نهر كاويرى الذى هو أهمّ أنهار جنوب الهند ، فيترك منطقة الهضاب فوراً من شلّال يزيد ارتفاعه على مئة متر ، فيبدو فى زمن الفيضان من أروع شلّالات الدنيا ، فيتألف فى آخره دلتا واسعة تسمى ضلعها العريضة كولَرُون . فيُقَدَّس كما يُقَدَّس أكثر أنهار الهند ، فأقيمت فى الأماكن التى يجرى منها (أى فى تانْجُور وترى چنابلى وكُنْبَه كُونَم ومَدُورا) معابدُ مشهورة تختلف عن معابد الهند الأخرى بأبوابها الهرمية الكبرى المغطاة بألوف التماثيل ذات الأثر الرائع فى مجموعها .

ويتكوّن من أقصى الهند الواقع فى جنوب نهر كاويرى منطقة جبلية وحشية ذاتُ غاباتٍ كثيرة مملوءة بالضوارى والأفاعى وذاتُ أودية غير صِحِّيَّة ، وتُبْذَل جهودٌ طيّبة فى الانتفاع بترابها ، وتُقام مدنُ لَهْوٍ فى منحدرات جبالها حيث تَلْطُف الحرارة وتجىء نِسامٌ[1] لَيِّنَةٌ ملائمةٌ للصحة .

وتشتمل دولة نظام الكبيرة ، التى هى أوسع دول الهند شبهِ المستقلة ، على جميع القسم الأعلى من الدَّكَن ، وعاصمتُها حيدر آباد الإسلامية من أكثر مدن الهند وَفْقاً للنظر ، فهى تصلح مثالاً لما كانت عليه عواصم الشرق ، كبغداد ، أيام سلطان العرب .

---

(١) النسام : جمع نسيم .

وتقع مدينة غول كوندا ، التي غَدَتْ قريةً حقيرة ، بالقرب من حيدر آباد ، ويُثير اسمها في الخيال صورَ القصور الرائعة الخرافية ذاتِ الشُّفُوف والوشاء الزاهية والحجارة الكريمة المتألقة ، وتسودها القلعة ذات الألغاز التي هي مِفتاح تلك المِنطقة ، فلم يُوَفَّق لزيارتها قبلنا غيرُ فئة قليلة من الأوربيين .

ولم تكن عاصمة الدَّكَن السابقة غول كوندا وحدَها هي التي آلت إلى الخراب ، فليس قليلًا خَرِب العواصم السابقة في الهند ، فأ كثرُ هذه العواصم الخرِبة وَقفاً للنظر هو بيجابور و بيجانَغَر اللتان تجد صوراً لكثير من مبانيهما في هذا الكتاب ، و بيجانَغَر هذه أصبحت رُكاماً من المعابد والقصور على مِساحة تَعدِل باريس فصار لا يطأها إنسان وعاد لا يأوي إليها سوى الضواري ، فعلى المرء أن يطوف على نور القمر في تلك المعابد المهجورة وفي مسالك تلك المدينة الميتة المصفوف على جوانبها مُتَشَبِّكُ العِماد والأروقة ليدرك ما في الأشياء الصامتة من بيان بليغ في بعض الأحيان، فبمثل هذه المناظر الماثلة استطعنا أن نُخْرِج من أعفار القرون طَيْفَ حضارة بائدة .

الفصل الثالث

النباتات والحيوانات والمعادن

---

(١) النباتات ـ تنوعها في الهند ـ ثروة الهند الزراعية ـ حاصلاتها : الحبوب والقطن والشاى ، الخ . (٢) الحيوانات ـ تنوعها في الهند ـ قلة المواشي (٣) المعادن ـ ضعف الإنتاج المعدني ـ مناجم الفحم الحجري ـ الافتقار إلى الفحم الحجري ـ الخلاصة .

---

١ ـ النباتات

تشتمل الهند على أنواع النبات والحيوان اشتمالها على مختلف الأجواء ، ولا تمتاز الهند بنوع خاص من الحيوان والنبات .

فبينما ترى منحدرات جبال الهند مكسوة أزهاراً وأثماراً كالتي تشاهد في أوربة ، تذكرك سهولها بسهول فارس والصين ، وتذكرك بقاعها الجافة المحرقة بإفريقية الوسطى ، ويذكرك نبات تراني وسندربن القوى الأشمث بنبات جزائر الملايو .

وبلاد الهند في مجموعها غنية خصبة كافية لتموين سكانها وإطعامهم عن سعة ، وتنشأ مجاعاتها الهائلة التي تخرب بعض بقاعها أحياناً عن افتقارها ، في الغالب ، إلى طرق منتظمة صالحة لنقل ما يزيد على احتياج بعض مناطقها إلى مناطقها التي تنقص حاصلاتها .

ونشأ تلك الجماعات ، كذلك ، عن فَقْر طبقاتها الدنيا المُدْقِع الذى لا يجد أفرادها معه ما يشترون به قليلاً من الأرز أو البُرّ فيهلكون جماعاتٍ على حين تُوسَق فى السفن مقاديرُ عظيمة من حبوب الهند لتُباع فى الأسواق الأجنبية .

وتَعُدُّ الحبوب فى الهند أهمّ ما تُنْبِته الأرض ، فيُزْرَع فيها القمح والأرز والذُّرَة والدُّخْن بكثرة ، فيكون للأهالى الذين حُرِّم عليهم أكل اللحم طعامٌ بذلك ، فما فى الهند من حرارة جوّ وقلةِ مواشٍ وحَظْرِ نَحْرٍ يحمِل الهندوسىّ على العيش بما تُخْرج الأرض من قوت .

ومارس سكان الهند الزراعة بحِذْق ونشاط فى كلّ حين ، فلما حاول الأوربيون أن يُحسِّنوها بما أدخلوه إليها من الأساليب الحديثة اعتُرِف ، فى غيرحالة ، بأن المناهج القديمة خيرٌ من جديدها و بأن من أصالة الرأى أن يُرْجَع إليها ، وذلك إلى ضرورة توسيع رِقاع الأراضى الزراعية ما كانت هذه الرِّقاع لا تَعْدِل غيرَ ثُلُث مساحة الهند فى الوقت الحاضر .

ووادى الغَنْج أخصبُ بقاع العالم ، لا الهند وحدَها على ما يحتمل ، فتستره حقولٌ عجيبة لا حدّ لها ، فكَلَّتْ عينا الفاتح المغولىّ بَابَر وارتدّت عن تأمل امتدادها إلى ما وراء الأفق امتداداً مُطَّرِدًا ، وليس بنادرٍ أن يُنْتِج هذا الوادى ثلاثَ مرات فى السنة الواحدة ، والأرز ، على الخصوص ، هو ما يُزْرَع فى ضِفاف الغَنْج بعد الفيضان ، وتكثُر أيضاً زراعة البُرّ والقطن والتبغ والقِنَّب والخَشْخَاش فى واديه المنقطع النظير بخِصْبه الذى لا يَنْفَد .

وفى الهند حيث تُرْوَى الأراضى جيداً تبدو هذه الأراضى خَصِبةً سَخِيّةً ، وفى الهند حيث تَقْطع الولايات شبكةٌ من مجارى المياه أو تَفِيضُ عليها رياح الجنوب

الموسمية تُنْتِج هــذه الولايات إنتاجَ البنغال ، وفى الحقول المطمئنة حيث تزيد الرطوبة تُزْرَع بكثرةٍ أنواعُ الأرز ، وفى الحقول المرتفعة حيث تقلُّ الرطوبة يُزْرَع البُرُّ .

والأفيونُ أهمُّ ما تُصْدِره الهند بعد الحبوب التى تمتلىء بها السفن كلَّ يوم فتنقلها إلى بلاد الغرب ، ويُزْرَع الأفيــون ، على الخصوص ، فى سهل الغَنْج والبَنْجاب وراجبوتانا ، وتستأثر الحكومة الإنكليزية باحتكاره ، وما تستنفده بلاد الصين من مقادير الأفيون العظيمة هو ما تستورده من الإنكليز بعد أن يزرعوه فى أتربة الهند ، وليست بمجهولةٍ أنباء حَنَق الإنــكليز وغيظهم من وُلاة الأمور فى مملــكة ابن السماء حينما أرادوا وقايةَ رعاياهم من هذا السُّمّ القاتل ، فأسفر ذلك عن شهر الإنكليز لتلك الحرب المعروفة « بحرب الأفيون » فأكره الإنــكليز الغالبون فيها بلادَ الصين على إدخال أفيون الهنــد إليها كما فى الماضى فيموت فى كل سنة عدة ألوف من الآدميين بسبب استعماله .

وزراعةُ القطن فى الهند تَلِى زراعة الأفيون أهميةً ، ويصلح بعض الأصقاع من أراضى الدَّكَن العليا لزراعة القطن كثيراً ، والقطن الهندىُّ دون القطن الأمريكىّ حظْوَةً وإن أدت حرب الانفصال إلى إقبال الناس عليه لبضع سنين فزادت زراعته وتجارته زيادةً غير منتظرة ، ولا يزال القطن الهندىُّ عاملَ إصدار مهمّ بعــد غَزْله أو تحويله إلى نُسُج ، وكان لنسائج الهند القطنية شهرةٌ فنازعها الغرب إياها بآلاته ، فصار الغرب يرسل إلى الهند مثل ما ترسله الهند إليه .

وفى الهند يُزْرَع القِنَّب ثم تُصْدره بوفرة ، والحبوب الزيتية مما تُنْتِجه الهنــد فتبيعه من الخارج .

ولا يبتاع الأوربيون التّبغ الهندىّ لسوء تعبئته فيستنفده أهل الهند ، وتشتهر مدينة تِرِى جِنَاپْلِى الواقعة فى الجنوب بسيغاراتها مع ذلك .

وتجىء الهند بعد الصين فى زراعة الشاى ، وأسفرت زراعة الشاى فى منطقة آسام عن أطيب النتائج ، وتتقدم زراعة القهوة منذ أواسط هذا القرن فى رُبَى الجنوب ولا سيا فى مملكة وِيناد الصغيرة الواقعة فى جنوب مملكة ميسور .

والعِظْلِم[1] والتَّنْبُل[2] والكينا وتوت القزّ مما تكثر زراعته فى بلاد الهند .

وكانت الهند تشتمل على غابات عجيبة ، ومن المؤسف أن تَقَصَّت هذه الغابات بما قطعه الأهلون وغُزَاة الإنكليز من شجرها قبل أن تُدَبِّرَ الحكومة أمرها ، والهندوسُ ، فى الولايات الوسطى ، لا يزالون يتخذون أسلوب إحياء للأراضى محزناً حقاً ، فهم يُبيدون قديمَ الشجر فى قِطَعٍ من الغاب فيحرُقونه ويَبْذُرون الحبَّ بين رماده ، فيَحْصِدون زرع سنتين أو ثلاث سنوات ، فإذا ما استُنْفِد خِصْبُ الأرض الموقت الذى نشأ عن الرماد أبادوا شجر قِطَعٍ أخرى ، وهكذا .

ونجم عن جَشَع الإنكليز وغفلتهم استمرارهم على ما بدأ به الأهلون من إبادة شجر الغاب ، ولم يَرَوْا فائدة الإبقاء على الغاب ووَقْفِ تلك الإبادة إلا فى الأيام الأخيرة .

ويُمِدّ السال والتّيك مَلِكَىْ غاب الهند ، والسّالُ يُخْرِج القطران والرّاتِينَج[3] ، والتّيك يُتَّخَذ خشباً للبناء وتُحَوَّل أغصانه إلى فحم جيد ، ويتطلب

---

(١) العظلم : نبات يصبغ به — (٢) التنبل : نبات من الهند يمضغ ورقه — (٣) الراتينج : صمغ .

شجر السال والتَّيك واسع الأراضى ولا يَنْبُت بعضه بجانب بعض ، ويستر شجر السال منحدَرات هِمَالْية السفلى الجنوبية ، ويوجد فى الولايات الوسطى ، ويَقِف عند حدّ هِضَاب الدّكَن ذوات الحجارة البركانية حيث يَنْبُت شجر التَّيك .

وتَدَّثِر أعالى جبال الهند ، كما فى كل مكان ، برداء داجن من شجر الصَّنَوْبر والشُّوح[١] ، وتَجِد تحت هذا النطاق البارد الذى يصلُح لتلك الأشجار منحدَرات ذاتَ جَوٍّ معتدل اعتدال جوِّ أوربة فيَنْبُت فيها ما تَعْرِفه غابات الغرب من شجر البلوط والزَّين[٢] والحوَر ، ويَنْبُت بجانب هذا الشجر مايعرفه الغرب أيضاً من الأشجار المثمرة ، فترى بين أدغال السِكِشْمِش[٣] شجر التفاح والكُمَّثْرَى والخوخ والإجَّاص ، وترى بينها السكَرْمَة فى بعض الأحيان .

وإذا تَرَلْت من تلك الارتفاعات إلى السهول شاهدتَ أشجاراً ذوات أثمار يانعة وخُشُبَانٍ نافعة وأوراق رائعة ، ومن هـــذه الأشجار نذكر شجر البانيان والمَهُوَا ذا الزهر النافع فى زمن المجاعات والخَيْزُرَان والصَّنْدَل ذا الرائحة الذكية ، ونذكر ، على الخصوص ، النخل التى يَمُدُّ أهل الهند ألف وجهٍ ووجهٍ للانتفاع بجُـذوعها وليفها وسَعَفها وعصيرها وثمرها ، والولاياتُ الجنوبية أكثرُ ولايات الهنـد غرساً للنخيـــل .

وتنمو نباتات البلاد الحارّة نُمُوّاً عظيماً فى مناطق الهند الجيدة الرّيّ والشديدة القَيْظ ، وتُنْجِم هذه النباتات فى منطقة آسام ، على الخصوص ، بمـا يُزْرِى بجهود

---

(١) الشوحة : شجرة تكون أغصانها على هيئة مخروطة وهى واحدة (الشوح) .
(٢) الزين : شجر كانوا يعملون منه الرماح ــ (٣) السكشمش : نبات ثمره يشبه العنب لاعجم له.

الإنسان ، فتبلغ نباتات غابها من الكثافة ما لا بدّ معه من حرقها فى فصل الجَفاف لتنظيف ترابها ، وقد يَصِل عُلُوُّ شجرها ستين متراً فتصِل المُعرِّشات بين هذا الشجر فيتعذر نفوذها ، فيَتفتَّح أسفلها عن غريب الأزهار ، وفى جبال كَهَاسى وحدَها عُدَّ ٢٥٠ نباتاً من الفصيلة السحلبية ، ولن تجد فى الأرض بقعة ذات نبات فخم أشعث كما تراه هنالك .

٢ — الحيوانات

لا تَجِد فى الهند نوعَ حيوان خاصّ بها ، وتختلف حيواناتها اختلافَ نباتاتها وجِوائها ، وتذكرنا حيوانات الهند ، على حسب البِقاع ، بحيوانات الصين و إفريقية والملايو وأوربة .

وتَكْثُر فى أجزاء جبال هِمالْية التى تَلِى الذُّرا المَكْسُوَّةَ ثلجاً ما يُرَى فى التبت من الوعول والتُّيُوس والدِّبَبة والضِّرَاء[1] والذِّئاب ، وتكثُر فى بقاع تَرَائى وآسام الحارَّة ذواتِ الآجام الغامرة ما يأوى إليها من الضوارى التى يتعقبها الناس فى بقاع الهند الأخرى فيتوالد فيها أميناً ، وفى تلك البِقاع تَجِد ، أيضاً ، الفُيُول تعيش جماعاتٍ وتسير حرةً ، والفُيُول فى الهند تكاد تَبيد ما لم يعلن الإنكليز حمايتَهم لها و يُحَرِّموا صيدَها و يفرضوا امتلاكهم لجميع ما فى الهند منها ، وفى الهند يصطادون فى كلّ سنة نحوَ مئة فيل بالكُمُون والفِخاخ ، ثم يضيفونها إلى الفِيَلَة المُدَجَّنة فتقتبس منها خلق الطاعة والعبودية ، وفى الهند يستخدمون الأفيال فى أعمال

(١) الضراء : جمع الضرو وهو الضارى من الكلاب .



٩ — فيلان يستخدمان فى عمل الأثقال

كثيرة وفى تصيّد النمُر وفى مواكب الملوك ، ففى كلّ موكب سَنِيّ تُبْصِرُ فيُولاً تتقدم مُسْرَجَةً بسروج أرجوانية ذهبية حاملة راجوات أو من يُرَادُ تكريمهم من مشاهير الضيوف .

وتكاد الآسادُ تزول من بلاد الهند ، فلا تجد منها فى غير جزيرة كاتهياوار بالغرب تقريباً حيث تبدو قصيرة عاطلة من اللِّبَد .

والنَّمِر هو الحيوان المفترس الذى تجدُه فى جميع أجزاء الهند ، ولا سيما بين أدغال الغاب حيث يأوى مطمئناً ، والنَّمِر إذا وُجِدَ بكثرة فى الهند فلأن النـــاس لا يطاردونه فيهـــا على الدوام ، ولأن الناس يحترمونه فى بعض البقاع التى تخربها الرَّتَتَة[1] فتفترسها النمور ، وهذا إلى أن النَّمِر يتَصَيَّدُ عادةً ما فى الغاب من الحيوانات البرية كالظباء والتُّيُوس والخنازير ، وهـذا إلى أن النَّمِر لا يهجم على بيوت الناس ليتصيد بعضَ نَعَمِهم إلّا إذا عَضَّه الجوع ، ومن النادر أن يفترس النَّمِرُ إنساناً ، فإذا ما حـدث ذلك وتَذَوَّق طعم لحمه لم يَعْدِل عنه إلى فرائسَ أخرى فيغدو خَطِراً إلى الغاية ، فيعلن الحرب على الإنسان فَيُظْهِر من الخَتال[2] والمِحَال[3] ما يكفـ

(١) الرتتة : جمع الرت وهو الخنزير البرى — (٢) ختل الصياد : مشى قليلا قليلا لئلا يحس الصيد به — (٣) ماحله : كايده وما كره .

الإنسان معه عن الكفاح أحياناً فيهجر المكان الذى يأوى إليه النَّمِر بعد أن يكون قد أكل بضع مئات من التعساء المساكين ، فيُعَدُّ النَّمِر ، إذ ذاك ، حيواناً جديداً ، يُسَمَّى « أكَّال الرجال » ، ومما ذكره هَنْتِر أن أكَّال رجالٍ افترس ١٠٨ من الناس فى ثلاث سنوات وأن أكَّال رجال ثانياً افترس ٨٠ شخصاً فى سنة واحدة ، وأن أكَّال رجال ثالثاً أوجب هجر الناس لثلاث عشرة قرية فحوَّل ٦٥٠ كيلو متراً مربعاً من الأراضى إلى صحراء ، وأن أكَّال رجال رابعاً قتل ١٢٧ شخصاً فى سنة ١٨٦٩ فقطع طريقاً عظيمةً لمدَّة أسابيع .

وتمنح الحكومة الإنكليزية جوائزَ سنية لمن يبيدون تلك الضوارى ، ولكن الأهالى لا يجرؤون على ذلك ، تقريباً ، لما تُلْقِيه هذه الضوارى من الرعب فى قلوبهم ، ولما يَعُدُّ به الهندوسُ أكَّال الرجال ضَرْباً من الآلهة إذا ما افترس بعض الناس .

والهندوس يحترمون الصِّلَّ[1] ، المعروف بالقبرا والذى هو أشدُّ فتكاً من النَّمِر ، أكثرَ من احترامهم للنَّمِر ، ولا بلد فى الدنيا ذا حَيَّاتٍ سامَّة متنوعة كالهند ، ومن الحيات ما يَخْرُج من الأرض ومنها ما يَخْرُج من الماء ، وما فى ساحل مليبار من الحيات التى تعيش فى الماء الملح فذو سمٍّ وما يعيش منها فى الماء العَذْب فغير سامٍّ ، ويُعَدّ الصِّلُّ من أشد الأفاعى التى تخرج من الأرض خطراً لما تسفر عنه جروحه من الموت الزؤام على الدوام ، ومن المتعذر دفاع الإنسان عن نفسه تجاه الأفاعى ما دَبّت بين الكلأ وخرجت من شقوق الأرض وتسلّقت المساكن وتكاثرت بسرعة ، مع أن من الممكن تَصَيُّدَ النَّمِر وإنقاذ الهند منه ذات يوم .

---

(١) الصل : الحية الخبيثة جداً .

والصِلّ حيوان مقدس لدى الهندوس لِما يورثهم إياه من الخوف ، وهو من صفات وشنو الذاتية فَتُقْش في مختلف المعابد ، وهو يَأْلَفُ مطاوِيَهُ ويتفش متوعداً حديدَ البصر.

ويُقدِّر العارفون ضحايا النِّمار والأفاعي من الهنود بعشرين ألفاً في كل سنة ، والنِّمار والأفاعي ليست كلَّ ما في الهند من الحيوانات المرهوبة ، فني الهند الفئران وأرْجال[1] الجراد وأنواع الحشرات والهوامّ العظيمة الأضرار.

وتكثر أنواع الذئاب في الهند ، والفُهود وبنات آوى والضِّباع والكَرْكَدَّن والتماسيح تتم جدول ضوارى الهند ، ويُرَى الكَرْكَدَّن في منطقة سُنْدَرَبن على الخصوص ، وتكثر التماسيح في الغُدْران والأنهر وتخرب مجارى المياه.

والهند بلادٌ فقيرة في المراعي ومن ثَمَّ في المواشي ، وتكون جمالها وخيلها وبقرها وجواميسها أهلية ، وتتصف أفراسها بالقِصَر ولا تُرَبَّى الضأن فيها إلا من أجل لحومها وألبانها ، ويكره الهندوس الخنزير ، وفي الهند مافي أوربة من الدواجن، وفي أنهارها أسماكٌ صالحة للأكل ، وفي أحواض نلغيري أنواعُ سمكٍ جديدةٌ أُدْخِلَت إليها لتَتَكَاثَر فيها.

وتتكاثر القِرَدَة في الهند فتُعَدُّ نكبة على الفلاحين لإتلافها مزروعاتهم ولدخولها بيوتهم بوقاحة وسلبها ما يطيب لها من أموالهم ، وما يُكِنُّه الهندوس من الاحترام للقرد هنومان يَحُول دون دفاعهم ضدَّ القِرَدَة الثقيلة ، والقِرَدَة جعلت بعض مدن الهند ، كمثرا مثلًا ، غيرَ صالحة لسُكْنَى الأوربيين ، وبلغت القِرَدَة في بنارس

---

(١) الأرجال : جمع الرجل وهو القطعة العظيمة من الجراد خاصة .

من مضايقة السكان وقلة الحياء فى السنوات الأخيرة ما نُفِيَت معه إلى الضفة الأخرى من نهر الغَنْج .

وتشتهر طيور الهند بجمال ريشها ، وتقلُّ المغردة منها ، ويحترمها زراع الهند لإبادتها الحشرات ، ويراعى سكان المدن الهندية النسورَ والعِقْبان لإزالتها الموادَّ الحيوانية العَفِنة وإصلاحها الطرقَ والشوارع بذلك ، وتتصف بَبْغَاوات الهند بالحسن والكثرة .

٣ — المعادن

صُوِّرَت الهند فى أقاصيص السياح المبالغ فيها ، وتمثلت لخيالات الغربيين الملتهبة معدناً لا يَنْفَد من الحجارة الثمينة فلاحت الهند الواسعة مشتملةً على مثل ما يتدحرج فى مجارى جزيرة سيلان وما يُرَصِّع قِدَرَها[١] البلورية من الياقوت واللازَوَرد والزُمُرُّد والعقيق ، فيجب حذف كثير من هذه المبالغات بوضع الأمور فى نصابها .

أَجَلْ ، احتوت الهند على مناجم غنية بالألماس ، ولكن هذه المناجم نَفِدَت منذ زمن طويل تقريباً ، وكانت مناجم سَنْبل پور الواقعة فى وادى مَهَانَدى ووادى كَرْنول بالجنوب تُستَغَلُّ إلى أوائل هذا القرن ، وتُخرِج مناجم غولكوندا مالا قيمة له من الحجارة مع إثارة اسمها فى الذهن صورَ ما يُغشى الأبصار من أنوار الحجارة الكريمة ومع ما كان يَزْهَى الأمراء به .

---

(١) القدر : جمع القدرة وهى القطعة من الجبل .

وفى جبـال أراوَلى الجَمَسْت[١] ، وفى ميوار المَهْو[٢] ، وفى وادى نَرْبَدَا البِلّوْرُ ، وفى ساحل الـكجرات اليَصْب[٣] والعقيق ، وفى بعض الأماكن اليَشْم[٤] وما إليه .

وظلّ استخراج اللؤلؤ مصدر ثروة للهند ، فاللؤلؤ يستخرج من مغاوص كَنْيِى ومَدُورا وتراوَنـكور وسيلان .

ويؤخذ الرُّخام من مقالع راجپوتانا ، ويؤخذ حجر السّنّ من بُنْدِيل كهند ووادى جميل فتَزيّن به المبانى الفخمة .

وفى الهند مناجم فحم حجرىّ واسعةٌ واقعة بين الغَنج وغوداوَرى مُقَسّمَةٌ إلى أربع شُعَب ، ولا يستحقّ بعضها أن يُستغلّ ، والفحم الذى يُستخرج من بعضها الآخر هو دون ما تخرجه مناجم أوربة جَوْدَة ، فما يتركه من الثُّفْل بعد حَرْقه أكثرُ ممـا يتركه الفحم الأوربى ، وما يقوم به من العمل هو نصف ما يقوم به الفحم الإنـكليزى .

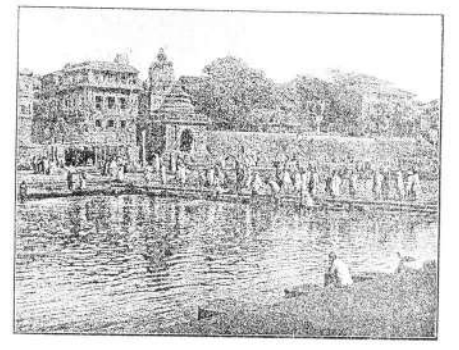
وتـكون الهند ، لافتقارها إلى الفحم الحجرى ، زراعيةً أكثر من أن تـكون صناعية ، فـكأن الطبيعة قد أرادت أن تظلّ الهنـد بلاداً تُمِدُّ الأمم الأخرى بالأقْوَات ، ولم تلبث صِناعات الهند أن أخذت تتوارى عندما أصبحت مصانع الغرب تنافسها بعد فتح قناة السويس .

والحديدُ كثير فى الهنــد ، وأهمُّ مناجمه فى سِيلَمَ من أعمال ولاية مَدْرَاس ،

---

(١) الجمست : نوع من الحجارة الـكريمة ـ (٢) المهو : نوع من البلور ـ (٣) اليصب : حجر قريب من الزبرجد لـكنه أصفى منه ـ (٤) اليشم : نوع من اليصب .

والأهالى قد استخرجوه وصنعوا الأدوات منه منذ القديم، وتُشابِه الآلات الحديدية التى اكتشفت فى آثار الهند الناقصة الشكل آثارَ السِّلْت الحجرية ، وتُعَدُّ أقدم بقايا ما صنعه الإنسان فى الهند .



١٠ ـ منظر فى ناسك على ضفاف البحيرة المقدسة

والهنودُ كانوا يستخرجون الحديد ، إلى وقت قريب ، بأكيارٍ[1] وقُودُها الحطب ، ثم تُرِكت هـذه الصناعة ، ولا يمكن أن يُرْجَع إليها بأن يستعمل الفحم الحجريّ فى نَقْى[2] الحديد ما كان فحم الهنـد الحجرى ناقصاً وما دَحَر الحديدُ الإنكليزى حديدَ الهند من الأسواق .

(١) الأكيار : جمع الكير وهو زق ينفخ فيه الحداد ـ (٢) نقى الحديد : من نقى الصيرفى الدراهم : أثارها ونثرها للانتقاد .

وفى الهند مقادير قليلة من النحاس والذهب ، فلا طائل فى استخراجهما ، والملح هو أكثر ما تحتويه ، فظلّت تُصْدِره إلى العالَم بأسره عِدّةَ قرون ، ففيها تِلالٌ مُكَوَّنَة من أكداس الملح ، كسلسلة الملح الواقعة فى البنجاب على ضِفاف نهر السِّنْد الأعلى .

واليوم تحتكر الحكومة الإنكليزية ملحَ الهند .

تَمَّ وصفنا الإجمالىُّ للهند ، ولا مَعْدِل لنا عن ذلك ما أردنا البحث فى معايش سكانها ونظمهم ومعتقداتهم وطبائعهم وعاداتهم ، ولم نأت فيا تقدم بغير بيان مُوجَز عن طبيعة تلك البِقاع السَّخِيَّة الصائلة معاً ، فلا تجِد فى الأرض ، كالهند بلاداً تجلَّت فيها تلك القُوَى القاهرة النافعة أو الضارّة التى هى أمُّ الضرورات المُكَوِّنة للرجال والمسيِّرة إياهم والموجبة الأولى لِما يُدَوِّن التاريخ سيرَه من الحضارات .

البَابُ الثَّانِي

العُرُوق



الفَصْلُ الأوّل
مَنشأ عُرُوق الهِندِ وتقسيمها

(١) كيف تنشأ العروق وكيف تتحول — الفرق بين العروق والأمم — صفات العروق الفارقة — الصفات الموروثة والصفات المكتسبة — كيف يمكن أمة أن تؤلف عرقا — تأثير التوالد والوراثة — تأثير نسبة اختلاط الأمم — تأثير البيئات البطيء — ثبات الصفات الموروثة — ما أدى إليه توالد الهندوس والأوربيين من النتائج السيئة — (٢) مبادئ تقسيم العروق — قيمة المقايسة بين الصفات التشريحية والخلقية والعقلية فى ذلك التقسيم — عدم كفاية الصفات التشريحية فى تقسيم العروق البشرية — أهمية الصفات الخلقية والعقلية — هذه الصفات هى تراث العروق وهى تعين تطور الأمم والدور الذى تمثله فى التاريخ — كيف يرجع الأشخاص الذين أسفر عنهم الانتخاب إلى المثال المتوسط — الصفات الخلقية والعقلية المشتركة فى المثال المتوسط — (٣) تكوين عروق الهند — تقسيماتها الأساسية — الفروق العظيمة بين أهالى الهند — تقسيمهم إلى أربعة عروق كبيرة : الأبيض والأصفر والتورانى والآرى — لا قيمة لكلمة هندوسى من الناحية الإثنولوجية — لون أهالى الهند الأقدمين الأسود — الشعوب التى استولت على الهند — الغزو التورانى والغزو الآرى — نتائج اختلاط الشعوب المختلفة .

١ — كيف تنشأ العروق وكيف تتحول

أرى قبل أن أصف عروق الهند أن أخَصِّص بضعَ صفحات لتعريف العروق وبيان ظهورها وتحوُّلها وذكرِ الصفات التى تُقسَّم بها .

لم أنْفَكَّ أشرح فى مؤلفاتى الأخيرة ما يقوله العلم وما أراه فى تلك الأمور المهمة ، فيكفى أن ألخص هنا ما فصلته فى تلك المؤلفات .

تُقسَّم الجماعات البشرية المنتشرة في مختلف أقطار الأرض إلى عروق ، ويجب أن نَعُدَّ كلمة « العرق » بالنسبة إلى الإنسان معادلةً لـكلمة « الجنس » بالنسبة إلى الحيوان ، وتفترق العروق البشرية في أخلاقها افتراقَ أنواع الحيوان المتقاربة ، ومن خواصِّ هذه الأخلاق الأساسية أنها تنتقل بالوراثة انتقالًا منتظمًا ثابتًا .

وإذا كانت كلمة « العرق » مرادفة لـكلمة « الجنس » فإنها لا تَعدِل كلمة « الأمة » أبداً ، فالأمة ، في الغالب ، عروقٌ كثيرة جمعت بينها السياسة أو الجغرافيةُ أو غيرُها من الأسباب في حكومة واحدة ، فالـكلمةُ : الهندوسُ أو الفرنسيون أو النمسيون الخ. تدلُّ على جماعات منتسبة إلى عروق مختلفة أشدَّ الاختلاف مع أنها تقطن في قطر واحد وذاتُ أنظمة سياسية واحدة وذاتُ مصالح مشتركة .

ويشاهَد في جميع العروق البشرية ، كما يشاهد في مختلف أنواع الحيوان ، نوعان من الأخلاق ذوا أهمية متفاوتة ، أحدُهما هو الأخلاق التي انتقلت عن الأجداد بالوراثة ، والنوعُ الثاني هو الأخلاق التي يكتسبها الإنسان في أثناء حياته القصيرة بفعل البيئة والتربية وما إليهما من مختلف العوامل ، فنوعُ الأخلاق الأول هو تُراث العرق الواحد بأسْره ، أي خلاصةُ ماض طويل ، فالإنسان يأتي به حين ولادته ، ولا يستطيع أن يُضيف إليه غير القليل في حياته ، ولن تَقدِر الصفات الجديدة التي تنال في كلِّ جيل أن تقاوِم عِبْءَ الماضي الثقيلَ الهائل إلا إذا تراكمت مع القرون في اتّجاه واحد ، وبهذا التراكم المتعاقب الذي هو وليد الانتخاب الطبيعي تتطور الأنواع تطوراً بطيئاً بعيدَ الغَوْر .

وبيَّنْتُ في مؤلفاتي التي أشرت إليها آنفاً أنه يمكن العروقَ التي تتألف أمةٌ منها بفعل الأحوال السياسية أن تُصْهَرَ في عرق واحد مع الزمن ، وذكرتُ أن تلك

العروق تنتهى إلى عرق واحد عندما تؤدى البيئة والتوالد والوراثة فى غُضُون القرون إلى اكتسابها صفات جُثْمانِيَّةً وأخلاقية وعقلية واحدة .

وفى تلك المؤلفات أثبتُّ أن ذلك الثبات لا يتمّ إلا بشرطين أساسيين : الأول أن يكون التحول بطيئاً وراثياً ، والثانى ألا يكون تفاوتٌ فى نِسَب العروق المتوالدة .

والشرط الثانى على جانب عظيم من الأهمية ، فلا تلبث جماعاتٌ صغيرة من البيض أن تزول إذا توالدت هى وفريقٌ كبير من الزنوج ، فعلى هـذا الوجه غاب الفاتحون من غير استثناء عندما اختلطوا بأمم أكثرَ منهم عدداً ، كالعرب فى مصر ، فالمصريُّ المعاصر ، وإن كان عربياً بلغته ودينه ونُظُمه ، هو ، بالحقيقة ، من ذُرِّية مصرى العصر الفرعونى كما تدلُّ على ذلك مشابهتُه لما فى المعابد والمقابر المصرية القديمة من الصور المنقوشة .

وما عُزِى إلى البيئات من التأثير فى تحول العروق هو ، بالحقيقية ، ضعيفٌ إلى الغاية ، ولم يَبْدُ إلّا بتراكم القرون ، وإن شئت فقل قبل التاريخ ، واليومَ بلغ تأثير البيئات من الضَّعْف فى تبديل الأخلاق التى ثبت أمرها بالوراثة ما تراه ، مَثَلًا ، فى بنى إسرائيل الذين حافظوا على مثالهم الثابت مع وجود أناس منهم فى كلِّ بلد .

والأخلاقُ التى ثبَت أمرها بالوراثة هى من الرسوخ ما يَهْلِك به العرق القديم إذا ما انتقل إلى بيئة تَفرِض عليه أن يتحول تحوّلًا أساسياً ، فالتَّبَوُّءُ وَهْمٌ باطل ، ومن هذا أن الإنكليزى لم يقدِر على تبوُّءِ الهند مع مراعاته جميع قواعد الصحة ، فتراه يربى أولاده فى أوربة ، فلولا ذلك ما رأيتَ فى الهند أوربياً بعد الجيل الثالث ، فلا يَغُلُّ الوراثة إلا الوراثة ، ولن تجِد للبيئات مثل هذا السلطان .

وأثرُ البيئات فى العرق ، مهما يكن ضعيفاً ، موجودٌ على كل حال ، والوراثة هى التى تمُنّ عليه بالقوة ، فإذا كانت العناصر المتقابلة غيرَ متفاوتة ، على حسب الشرط الثانى المذكور آنفاً ، تفاوتاً مانعاً من امتزاج عرقين انحلّت مُؤثِّرات الماضى الثقيلة بفعل المؤثرات الوراثية المعاكسة المساوية لتلك فلم تجِد البيئات ، إذ ذاك ، ما تكافحه فسارت طليقة وأتت بعملها حُرّة .

انتهينا إلى النتيجة الأولى القائلة إن جديد العروق يتكوّن بتوالد مختلف العروق ، لا بفعل البيئة وحدَها ، والآن نرانا أمام مسألة ذات أهمية عملية لِما يتوقّف على حلّها من تعيين مصير إحدى الأمم وهى : ماذا تكون قيمة عرق جديد تكوّن على هذا الوجه ؟ لا ريب فى خيره إذا كان مساوياً لأرقى العرقين المتوالدين أو أعلى منه ، ولا ريب فى ضَيْره لأرقى ذينك العرقين على الأقلّ عند العكس .

درسنا هذه المسألة الأساسية فى مباحثنا السابقة ، ولا نذكر هنا غير النتائج ، ونحن حين استندنا إلى درس ما نشأ عن التوالد من النتائج فى مختلف أقطار الأرض أثبتنا أنه يكون نافعاً أو ضارًّا بحسب الأحوال ، فهو يكون نافعاً عندما يكون بعض العناصر المتقابلة مُتِمّاً لبعض بدلًا من أن تتعاكس ، وذلك كما اتفق للعناصر التى تألّف الإنكليز من توالدها ، وهو يكون ضارًّا عندما تكون العناصر المتوالدة مختلفةً حضارةً وماضياً وأخلاقاً ، وذلك كما أسفر عنه توالد الأسود والأبيض وتوالد الهندوسىّ والأوربى .

وسنعود إلى مسألة توالد الهندوس والأوربيين فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى طوائف الهند وفيما نجَم عن ذلك التوالد من النتائج السيئة ، فنرى أن مثل هذه النتائج السيئة ، التى نشأت عن توالد متباين الشعوب ، مما عرَفه فاتحو الهند القدماء ،

فرضموا ، على الأرجح ، نظام الطوائف الذى هو أساس نُظُم الهند الاجتماعية .

وفى كتاب آخر درسنا أمور التوالد وبحثنا فيما تؤدى إليه من النتائج السياسية والاجتماعيـة بحسب الأحوال فأثبتنا أنها أهمّ العوامل فى انحطاط العروق والدول ، وذكرناما تُسفر عنه مصاقبة عِرْقَيْن عَبَدَ أحدُهما الآخر ، وألمعنا إلى السبب فى سهولة احتمال السيطرة الأجنبية عند قليل من التباين بين شعبين كما اتّفق للمسلمين فى الهند حيث اعتنق خمسون مليونَ هندوسيٍّ دينَ النبيّ ، وأشرنا إلى السبب فى صعوبة احتمال تلك السيطرة عنـد شدة التباين بين شعبين كما يحدث للإنـكليز الذين مَضى على فتحهم لبلاد الهند قرن فلم يستطيعوا حمل رعاياهم على انتحال ديانتهم ولغتهم، والديانةُ واللغة هما العاملان اللذان يبدأ بهما ادّغام احدى الأمم .

ولا أُسْهِب هنا فى بيان القواعد العامة التى تُطَبَّق على جميع الأمم، فقد فَصَّلْتُها، بدرجة الـكفاية ، فى كتابى[1] الذى وضعته ليـكون مقدمة لتاريخ الحضارات ، فلندعْ ، إذَنْ ، ما هو خاص بتـكوين العروق ، ولنقتصرْ على بيان الأخلاق التى تَتَمَيَّزُ بها العروق بإيجاز .

٢ — مبادئ تقسيم العروق ـ قيمة المقايسة بين الصفات التشريحية والخلقية والعقلية فى ذلك التقسيم

يظهر ، أولَ وَهْـلَة ، أن أهمّ الصفات التى تَتَمَيَّزُ بهـا العروق البشرية هى الصفات التشريحية ، كلون الجلد ، ولون الشعر ، وشكل الجمجمة مثلًا ، وذلك لأن

(١) كتاب « الإنسان والمجتمعات ومصدرها وتاريخهما » وهو يقع فى مجلدين .

الصفات التشريحية هي التي تُرى حالاً ، ولكن الباحث إذا ما أنعم النظر في قيمتها اعترف بأنها لا تَصلُح لغير التقسيمات الثقيلة ، فبلون الجلد والشعر يمكن تقسيم سكان الأرض إلى أربع جماعات أو خمس جماعات على الأكثر ، وبشكل الجمجمة يمكن تقسيم كلٍّ واحدة من هذه الجماعات إلى زمرتين أو ثلاث زُمَر ، ثم نقف عند هذا الحدّ ، فإذا قسَّمْنا البيضَ ، أي جميعَ شعوب أوربة ، مثلاً ، إلى شعوب عريضة الجماجم وشعوب مستطيلة الجماجم ، وشعوب شُقْر وشعوب سُمْر فإننا لا نَصِل إلى نتائجَ تُذْكر مااشتملت هذه التقسيمات على أمم مختلفة كالفرنسيين والإنكليز والروس والألمان ، الخ .

فالصفاتُ التشريحية ، إذَنْ ، غير كافية لتمييز العروق البشرية ، وما قلناه عن اختلاف العروق التي تتألف منها أمة ، في الغالب ، يُثْبِت أن اللغة والديانة والجماعات السياسية ليست أصلح من تلك في تقسيم العروق .

وما عَجَزَت عنه اللغات والأديان والجموع السياسية والصفات التشريحية تستطيعه الصفات الخُلقية والعقلية ، وهذه الصفات التي هي عُنوان مزاج الأمة النفسيّ ذي العلاقة بتركيب الدماغ الخاصّ هي من الدقة ما لا نقدر على تقديرها بما لدينا من الوسائل والأدوات .

وليس من المهمّ ، مع ذلك ، أن نَنفُذ ، فيما نَنْشُده من التقسيم ، إلى سرّ ذلك التركيب ما استطعنا أن نُقَدِّر ما هو عنوانه من الكفاءات الخلقية والعقلية .

وتُعَيِّن الصفات الخلقية والعقلية تطورَ الأمة والدورَ الذي تُمَثِّله في التاريخ ، فهي ، لذلك ، على جانب عظيم من الأهمية ، فلْيُعَوِّلْ على دراستها مَنْ يرغب في معرفة إحدى الأمم أكثرَ من أن يُعَوِّل على صفاتها التشريحية .

ولن نستطيع أن نُمَيِّزَ الراجبوتيَّ الشجاع من البنغاليِّ الجبان بشكل جمجمتَيْهما ، بل نَقْدِر على ذلك بالبحث فى مشاعرهما ، فنرى ، إذ ذاك ، عمقَ الهُوَّة التى تفصِل بينهما ، ويمكننا أن نقايس بين جماجم الإنكليز وجماجم الهندوس من غير أن نكتشف بذلك سبب استخذاء ٢٥٠ مليوناً من هؤلاء لبضعة آلاف من أولئك مع أن دراسة صفات تينك الأمتين الخلقية والعقلية يكشف لنا ذلك السبب ، وذلك باطلاعنا على شِدَّة نموِّ خلق الثبات والعزم فى إحداهما وضعفه فى الأخرى .

والكَفَاءاتُ العقلية والخلقية هى تُراث العرق ، وهى بواعث السَّيْر الأساسية ، وهى ما سَمَّيْتُها فى كتاب آخرَ بصوت الأموات ، فالنُّظُم هى وليدة تلك البواعث ، ولا عكس ، وتلك الكفاءات ، وإن كانت مختلفة فى أفراد العرق الواحد اختلافَ صُوَرِهم ، يتّصف أكثر هؤلاء الأفراد بما يشتركون فيه منها اشتراكاً ثابتاً ثباتَ الصفات التشريحية الخاصَّة بالجنس .

ويدلُّ علم التشريح الحديث على أن أجسام ذوات الحياة مركبةٌ من ملايين الخليَّات التى يتصف كلٌّ واحدة منها بحياة مستقلة متجددة بلا انقطاع وأن مدة هذه الحياة أقلُّ من مدة حياة الجسم الذى يتركب منها ، ويمكن أن يُعَدَّ أمر العرق مثل ذلك فيقال إنه مؤلف من ألوف أفراده الذين يتجدَّدُون ، فلكلٍّ من هؤلاء الأفراد حياةٌ خاصة كحياة خَلِيَّة الجسم الواحد ، وللعرق المشتمل عليهم حياةٌ جامعة وأخلاق عامة ، فإلى تلك الحياة والأخلاق يجب أن ينظُرَ الباحث فى التاريخ .

وحينما يتمُّ وضع علم نفس الأمم المقارن غيرِ الموجود الآن ، يمكن الناقدَ البصير أن يستخلص من الأخلاق الخاصة الأخلاقَ العامة الصالحة لتصوير المثال الخيالىِّ

المتوسط الذى هو عِنْوان الأمة فيقترب جميع أفرادها منه أو يبتعدون عنه إلى حدّ ما[١]، فالإنسان ليس ابنَ أبويه وحدهما ، بل هو وارثُ عرقه أيضاً .

ويتألف مثال الأمة المتوسط من اجتماع الأخلاق المشتركة بين أكبر عدد من أفرادها ، وتكون الأخلاق المشتركة بين أفراد الأمة كثيرة بنسبة تجانس العناصر التى تتألف منها هـذه الأمة ، فإذا كانت هذه العناصر متباينة أو قليلةَ التمازج بَدَت تلك الأخلاق المشتركة أقلّ عدداً ، وإذْ كنا نستعير مقاييسنا من التاريخ الطبيعيّ فإننا نقول إن الجماعات التى تتألف منها الأمة المتجانسةُ تُقاسُ بأنواع الجنس الواحد المتماثلة وإن الجماعات التى تتألف منهـا الأمة القليلة التمازج تُقاسُ بأنواع الجنس الواحد المختلفة .

---

(١) يفترض نشوء هذا المثال المتوسط سريعاً بفعل الانتخاب الطبيعى الذى ينتقى به خيار الناس فى كل جيل فتنتقل صفات هؤلاء الخيار الى ذراريهم ، ولـكن ميل الأفراد الى التفاوت فيما بينهم بالتدريج ، نتيجة لتقدم الحضارة ، كما بينا ذلك فى مكان آخر ، يقضى بمكافحة سنن الوراثة المؤدية إلى أفول جميع من يجاوزون مستوى الطبقة الدنيا الـكثيرة العدد المتوسط ، أو برجوعهم الى المثال المتوسط على الأقل ، ومن أكثر الأمور التى أسفرت عنها المباحث الحديثة شمولا للنظر وإيلاما هو أن أرقى طبقات المجتمع فى الذكاء والعقل تنحل وتفنى بسرعة لعطلها من الذرارى أو لرجوعهـا القهقرى وتحولها إلى بله وأغبياء كما يشاهد فى كثير من كبير الأسر ، وقد يفسر هذا بأن ما ينال من الأفضلية فى ناحية يكون فى مقابل ما يقع من نقص فى ناحية أخرى ، فاختلال توازن كهذا لم يلبث أن يشتد فى الذرارى فيوجب توار يها لا محالة .

ويدلنا التاريخ على أن المجتمعات تعانى حـكم هذه السنة القائلة بألا تجاوز المجتمعات مستوى معينا فى مدة طويلة وبأن تخضع هذه المجتمعات لمـا تخضع له جميع الموجودات : ولادة فنمو فانحطاط فموت .

حقا أن اختـلال التوازن يرفع الأفراد ، ولـكنه يؤدى عند اشتداده إلى خفض المجتمعات وانهيارها بسرعة ، وحقا أن انحلال تلك الأسر يقضى بظهور غيرها ، ولـكن اختلال التوازن متى عم لأسباب خلقيـة أو لتوالد أناس كثيرى التماثل أو كثيرى التباين أو لأسباب أخرى حانت سـاعة الانحطاط كما ترى ذلو بعض الأمم الأوربية منها .

ومن ذلك أنك تجد ، مثلاً ، اختلافاً كبيراً بين ألف فرنسيّ وألف إنكليزي في آن واحد ، مع أنهم ذوو أخلاق مشتركة يتألف منها مثالٌ فرنسيٌّ إنكليزيٌّ مشابه للمثال الذي يجده العالِم الطبيعيُّ عند وصفه لجنس الكلب أو الفرس، فوصفُ العالِم الطبيعي إذ كان ينطبق على جميع الكلاب والأفراس من حيث أوجه الشبه بينها فإنه لا يشتمل على أوجه الخلاف بينها ألبتّة .

ونحن حين نضع تلك المبادئ الأساسية نصف مختلف عروق الهند ، فنتبع في هذا الوصف الوضعَ الجغرافيَّ لكلٍّ واحد من هذه العروق ، ونحن بعد أن نصف سكان أقطار الهند نخصّص فصلاً خاصًّا للبحث فيما أسفر عنه التوالُد وتشابُه البيئات والنُّظُم والمعتقدات من الأخلاق المشتركة بين شعوب الهند المختلفة .

٣ — تكوين عروق الهند ـ تقسيماتها الأساسية

لم يمض سوى وقت قصير على الزمن الذي كانت الهند تُعَدُّ فيه بلداً واحداً ذا صفات عامة واحدة وعرق واحد وديانة واحدة وحضارة واحدة وفنون واحدة ثابتة غير متقلبة منذ قرون .

رأيٌ فاسدٌ مثلُ هذا لا يُقبَل في هذه الأيام ، فقد أوضحنا في فصل « البيئات » أن الهند ذاتُ مناظرَ متنوعة وأجْواء متباينة ومعايشَ مختلفة ، فالناسُ في الهند متغايرون أجناساً ومبادئَ وطبائعَ وأخلاقاً وتمدناً تغايرَ البيئات التي تكتنفهم فإذا قلنا إن الهند ، بتخالفها ، خلاصةُ الدنيا ، فإننا نقول ، أيضاً ، إن سكان الهند خلاصةُ آدميي أدوار التاريخ المتعاقبة لِما نرى فيهم من تفاوت .

يبدو البشر في الهند ذوي أمثلة متباينة ، ففي الهند تجد شعوباً بيضاً بياضَ

الأوربيين بجانب المتوحشين السُّود ، وفى الهند تستطيع أن تدرس صفحات تطور العالم سائراً من طور الهمجية الأولى البادية فى بعض مناطق الهند الوسطى الجبلية إلى طور الحضارة الزاهرة البادية فى المدن الزاهيــة الراقية القائمة على ضِفاف الغَنْج فإلى دقائق الزمن الحديث التى أدخلها إليها آخرُ الفاتحين .

يمكن تقسيم الـ ٢٥٠ مليون الشخص الذين ندعوهم فى أوربة بالهنــدوس إلى أربعة عروق مختلفة وهى : العرقُ الأسود والعرقُ الأصفر والعرقُ التورانىُّ والعرقُ الآرىُّ ، ونجَم عن توالد هذه العروقِ الأربعة الكبرى على نِسَبٍ متفاوتة مع تفاوت البيئاتِ ظهورُ عروق ثانوية فى الهنــد أكثرَ عدداً وأشدَّ اختلافاً من العروق التى تسكن أوربة جميعَها مثلًا .

إذَنْ ، ليس لكلمة « هندوسىّ » أىُّ معنى من الناحية الإثنولوجية ، وهذه الكلمةُ تُطْلَق ، فى الهند نفسها ، على كلِّ شخص ليس مسلماً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا مجوسياً ، أى أنها تُطْلَق على أتباع إحدى الطوائف التى أوجدتها الدِّيانة البرهمية فاعترف بها البُدَّهيون فعلًا إن لم يكن مبدأ ، وكانت هذه الطوائف ، التى لا يُحْصى عددُها الآن ، أربعاً وهى : طائفة البراهمة (الكهنة) وطائفة الأكشترية (المُقاتِلة) وطائفة الويشْيَة (التجار) ، وطائفة الشُّودرا (الزُّرَّاع) ، ولاتدلُّ هذه الطوائف على أقسام عرق ، بل تشير إلى أصلها إشارةً مفيدة كما نُبيِّن ذلك ، فنرى أن طبقة البراهمة آريةٌ ، وأن طبقة الأكشترية راجپوتِيَّةٌ ، وأن طبقة الويشية تورانية ، وأن طبقة الشُّودرا ممزوجةٌ من التورانيين وسكان البلاد الأصليين .

والسُّودُ هم أقدم سكان الهنــد ، ويلوح أنهم مقسومون إلى فرعيْن منذ أقدم

المصور وهما : النيغريتو ذوو القامات القصيرة والشعور الصُّوفَة[١] والتقاطيع المعصورة القاطنون فى المناطق الشرقيـة والمناطق الوسطى ، والزنوج ذوو المثـال الأوسترالى القاطنون فى المناطق الجنوبية والمناطق الغربيـة والذين هم أطول من أولئك وأذكى منهم وأملسُ شعراً من شَعْرهم ، وترى من أولئك أناساً فى بعض أصقاع غوندوانا البائرة الجبليـة ، وترى من هؤلاء أناساً فى أودية نِلْ غيرى ، وكان ذانك الفرعان الفِطْرِيَّان المتوحشان ، اللذان لا تجد فيهما بصيصَ رقيٍّ ، يسكنون غابات الهند وشواطئها قبل التاريخ فدُحِروا يوماً بعد يوم مع تقدم الحضارة فطفِقوا ينقرضون بالتدريج .

والهندُ ، كما ذكرنا فى فصل سابق ، بلدٌ مُغْلَق عسيرٌ دخوله ، فتفصلها جبال همَالية والبحار عن بقية العالم ، ويتعذر الاقتراب من شواطىء خليج البنغال بسبب ارتداد أمواجه إلى الوراء ، ومن المحتمل أن دفعت الرياح الموسمية زوارق أناسٍ من آفاق إفريقية إلى سواحل بحر العرب فوقفت راكبيها جبالُ گهات الغربيـة التى كان يحتمى بها أهالى الهضاب العُزْل ، فـكان يمكنهم أن يقاوموهم من غير خطر .

والهندُ ، إذ لم يُفـكَّر فى غزوها من البحر لذلك السبب ، لم يدخلها الفاتحون إلّا من جبال همَالية العظيمة الواقيـة للهند على طول واسع والتى تومِئُ فى طرفيها فيتّسع وادى برهماپوترا فى شرقها ووادى كابُل فى غربها طائفَيْن بها .

من ذينك الواديين انقضّ غُزاة آسـية على سهول الهندوستان الخصيبة فى غضون القرون ، وأكثر هؤلاء الغزاة وأرهبهم جاءوا من الغرب لسهولة سلوك وادى

(١) الصوف : الـكثير الصوف .

كأبل أكثرَ من وادى برهما بوترا الذى يمرُّ من بقاع مجهولة الأمر قاسية مانعة من سير الإنسان بنباتها الأشعث وجوها المُوهن .

ومع ما تراه من اختلاف ذَينِك الواديين سَمّاهما الإنكليز باسمين غير صحيحين دالّين على أهميتهما الجغرافية والأهليـة فدَعَوا الغربيَّ منهما بالباب الآريّ ودَعَوا الآخر بالباب التورانيّ .

لم يكن البـاب التورانيُّ (وادى برهمابوترا) مَمَرًّا للتورانيين بالمعنى الحرفى ، بل بالمعنى العام ، فاسمُ « التورانيين » ، الذى يدل على شعوب التركستان أو توران ومن إليهم ، أُطلق على العرق الأصفر بأسره فى بعض الأحيان ، فـكان أولَ من دخلوا باب الهند التورانىّ قبل التاريخ ، فبَدَوْا أولَ عنصرٍ أجنبىّ فى الهند ، أناسٌ صُفْرٌ جُرْدٌ زُورٌ[1] ، ولم يَغمُر طوفان التورانيين الحقيقيين ذوى الشعر الأملس واللحَى الـكثّة والعيونِ الأفقية سهولَ الهند إلاّ بعد ذلك بزمن طويل ، وذلك من الباب الآرى .

وقبل أن نتـكلم عن أولئك التورانيين ، نرى أن نبحث فيما آل إليه العرق الأصفر فى الهند وما تركه فيها من أثر .

ابتعد غُزَاة الهند الأوّلون عن وادى برهمابوترا ، متوجهين إلى الجنوب فوجدوا أنفسهم أمام منطقة الجبال الوسطى الشاهقة المعروفة اليوم بجبال غوندوانا ، فـكانت هذه المنطقة ملجأً للأهالى السُّود الذين لم يستطيعوا لأولئك الغُزَاة رَدًّا ، والذين هم مدينون فيما نالوه من الوقاية للجوّ الخطر القاتل للأجنبىّ أكثرَ ممـا لطبيعة الأرض القفْر الـكثيرة المصاعب .

---

(١) الزور : جمع أزور وهو الناظر بمؤخرة عينيه .

وانقلب الغزوُ الأصفرُ إلى اتجاهين بعد أن وُقِف على ذلك الوجه : أحدهما نحو وادى القَنْج والآخر نحو الجنوب سائراً مع شواطئ خليج البنغال .

وأولُ ما أسفر عنه توالدُ غُزَاة آسية وسُودِ الهند ظهورُ قدماء الدراويد الذين يُعَدُّون سكان الهند الأصليين لتغلُّب العنصر الفطرى ، ثم جاء غُزَاةٌ آخرون فدَحَروا هؤلاء إلى الجبال فانتشروا فى جنوب شبه جزيرة الهند ثم توالدوا هم وقدماء الدراويد، لا هم والزنوج رأساً ، فأسفر هذا التوالد عن ظهور الدراويد أو التَّمُول الذين يبتعدون عن المثال الأصليّ أكثرَ مما تقدم .

وإذا نظرت إلى أثر الغزو الأصفر فى عروق الهند رأيته يتجَلَّى فى الشمال حيث وادى برهماپوترا الذى ازْدَحَم عليه فى قرون كثيرة ما خرج من آسية الشرقية من الجوع لا ريب ، وينتسب إلى العرق الأصفر الخالص مليونا النفس اللذان يسكنان ولاية آسام ، ومنطقةُ البنغال ، وإن كان يسكنها مزيجٌ من الآدميين تجد فيها أثر الغزوات الأولى التى اجتاحت بغير عائق سهولَها الخصيبة ، وكلما تدرجتَ إلى الجنوب سائراً على سواحل البنغال وجدتَ العرق الأصفر يَغْرَق فى طبقات السُّود القديمة ، ويمكن تَبَيُّن العرق الأصفر فى الشمال ، حيث يسكن السانتهال مثلاً ، أحسنَ من تَبَيُّنه فى المناطق الجبلية الوسطى حيث ظلّ السكوند والملير والغوند قريبين من المثال الأول وحيث تجد ، على ما يحتمل ، حَفَدَة قدماء النيغريتو الأصليين .

ثم تَبْلُغ جنوبَ الهند الممتد من غوداوَرى إلى رأس كُمارى فترى الشعوب الدراويدية التى يُعَدُّ التَّمُول والتيلقو أهمَّها والتى هى نتيجة توالد الأمم الصُّفْر والأمم السُّود وما امتزج بها بعد زمن طويل من شتى العناصر ، ولا سيما العنصر التورانىّ .

ونحن قبل أن نتكلم عن المغازى التورانية التى جاءت من غرب الهند ، ولِنَنْتَهى إلى العروق الصُّفْر ، نذكر أن سكان هضاب هِمَالْية العليا والأودية الواقعة بين هذه الجبال وكارا كورَم ، حلا وادى كشمير ، هم من أهل التبت القريبين من جيرانهم سكانِ الصين الغربية ، ولكننا لا نُعْنَى هنا كثيراً بما أسفر عنه غزوٌ عنيف مفاجئ من النتائج ، وإنما نقول إن هذه الأودية والهضاب جزء من التبت أكثرَ من أن تكون جزءاً من الهند من الناحية الجغرافية ، وإن الشعوب التى تقطن فيها هى من أرُومَة التبت وتعتنق الدين الذى يعتنقه أهل التبت وتتصف بما يتصف به أهل التبت من الطبائع والأخلاق وإنه يسكن لَدَّاخ ودارستان وبالتى وبُهوتان وجزءاً من نيبال تبتيُّون ذوو وَجَنات نائئة وأجفان مزمومة .

ومع أنه يتعذر تعيين الزمن الذى نَفَذَت فيه المغازى من الباب التورانىّ إلى الهند ، ومع أننا لم نَرَ غزوةً تَمَّتْ من هذه الطريق منذ بدء الأزمنة التاريخية نَعْرِف مفصلًا تاريخَ كثير من الغَزَوات التى جاءت من آسية الغربية مجاوِزَةً الباب الآرىّ ، وهذا إلى أن أقدم هذه الغزوات ظل مجهولًا فى مجاهل الزمن ولم يُعْرَف إلا من نتائجه الإثنولوجية كما عُرِفَت نتائج مغازى الشعوب الصُّفْر .

والتورانيون أشدُّ الغُزَاة تحويلًا لعروق الهند من الناحية الجُثْمانية ، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر فى عروق الهند من الناحية المدنية ، فمن التورانيين أخذ سكان الهند نِسَب أجسامهم وتقاطيعَ وجوههم ، وعن الآريين أخذ سكان الهند لغتهم ودينهم وسَجِيَّتهم وطبائعهم ، وفى الهند تُبْصِر ١٧٠٠٠٠٠٠٠ هندوسىٍّ يتكلمون باللغات الآرية مع أنك لا تجد من هذه الملايين غيرَ فريق قليل يتّصل بالعرق الأبيض الخالص اتصال دم .

والتورانيون أولُ من قصدوا الهنـد ، فأقاموا فى البداءة بجميع وادى السِّنْد وبقسم من وادى الغَنْج ، وكانوا كلما زاد عددهم بمن ينضمُّ إليهم من العُصَب الجديدة أوغلوا فى داخل الهند فدخلوا الدَّكَن فى آخر الأمر ، فاندحر أمامهم الأهلون ، كما اندحروا أمام الشعوب الصُّفْر فيما مضى ، فاضطُرَّ هؤلاء الأهلون الذين عجَزوا عن الدفاع إلى الاعتصام بمناطق الدَّكَن الوسطى الجبلية ذواتِ الغاب والآجام .

ففى تلك الجبال الوسطى يجب ، كما قلنا ، البحث عن حَفَدة قدماء السكان ، أى قدماء الدراويد أو الزنوج الخُلّص ، وأَكثرُ هؤلاء الشعوب القديمة عدداً وأعظمُهم أهميةً هم الذين يُعْرفون بالكول ، ويقطن الكول فى جُهُوتاناغپور الواقعة فى وادى مَهَانَدِى الأعلى ويُقَسَّمون إلى عِدّة أقوام تَهَنَّدوا ، مع بقـاء نحو مليون شخص منهم غير مقتبسين شيئاً من عادات الدراويد ، الذين يسكنون الأودية والسهول ، ومعتقداتهم .

ومن لفظ « الكول » الدالّ على أهمّ الشعوب الأصلية اشتُقّ التعبيران « الجماعة الكولية واللغة الكولية » الدالّان على أكثر سكان المنطقة الجبلية القاطعةِ شبهَ جزيرة الهند من خليج كَمْبى إلى نهر الغَنْج وعلى لهجاتهم ، وفى اتجاه الشرق من هـذه المنطقة ، على الخصوص ، تبدو بكثرةٍ الشعوبُ الفطرية التى لم تتوالد هى والشعوب الأخرى ، ويعيش فى اتجاه منابع بَرَهْمنى الواقعة فى شمال وادى مَهَانَدِى « أصحابُ الأَجَمة » الذين يُعْرفون بالدُّوَانْغ فيقولون إنهم أقدم البشر فيبدون وحوشاً من كلّ وجه .

ونحن ، إذ نُشير إلى اللغة الكولية ، نقول إن اللغات فى الهند لا تُعيِّن العروق ، فالشعب الذى يتكلم باللغة الكولية الخالصة فيُسمّى بسانتهال لم يكن من سكان الهند

الأصليين ما أُشبع من العنصر الأصفر ، ولا يُبْحث في الجنوب ، حيث تسود اللغات الدراويدية ، عن حَفَدة العرق الآسيوىّ الشرقىّ الذى أدخل هذه اللغات إلى الهند ، ولا يخرج عن هذا المعنى قولُنا إن الشعوب الهندية التى يمكنها أن تَعْتزّ بانتسابها إلى أجداد آريين هى أقلّ الهنود عدداً مع شيوع اللغـات الآرية أكثر من سواها فى الهند .

وحينما دخل العرق الأبيض ، الذى نسميه بالعرق الآرى ، الهنـدَ اضْطُرّ إلى مقاتلة الدول المنظمة القوية التى أقامها التورانيون ، لا الشعوب المتوحشة العُزْل الهيّابة ، فقهر ما هو قائمٌ منها فى وادى السِّنْد فاستقرّ بهـذا الوادى زمناً طويلا قبل أن يُوغِل فى غرب الهند وجنوبها .

وما كان الآريون ليجاوزوا المِنطقة التى تحميها جبال وِنْدهيا قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً ، وكان استعباد تُورانيِّى الشمال أولَ ما صنعوه فجعلوا منهم طبقة الويشية (التجار) التى تجىء بعد طبقة البراهمة (الكهنة) وطبقة الأكشترية (المُقاتلة) ، ولم يجعلوا بعدهم سوى طبقة الشودرا (الزُّرّاع) المؤلفة من سكان الهند الأصليين .

حلّ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فقام الآريون بغزوهم الأكبر الذى اتُّخذ موضوعاً للرامايانا (إليـاذة الهندوس) ، فأوغلوا فى الدكّن بقيادة زعيمهم راما فوصَلوا ، بعد ألف مَفْخَرةٍ ، إلى نهاية شبه جزيرة الهند فحملوا الناس ، ومنهم أهلُ سيلان ، على انتحال شرائعهم .

ومما جاء فى أساطير الرامايانا أن الآريين حاربوا الفيلان فاستعانوا بالقِرَدَة فقلبوا عروش عَبَدَة الأفاعى ملوكِ النَّاغا الأقوياء الأشداء رأساً على عَقِب ، فترى أن أولئك

الناغا هم الفاتحون التورانيون الأوّلون الذين شادوا فى جنوب الهند دُوَلاً زاهرة فعبّدوا، هم ورعاياهم قدماء الدراويد ، الأفاعىَ ، وأن أولئك القِرَدَة الذين أعانوا راما هم أهل البلاد السُّود .

وكان ذلك الغزو الآرىُّ لجنوب الهند حملةً عسكرية أكثرَ من أن يكون استيلاء ما خلّفَ عاطلًا من أثر فى البلاد المُحتلة .

ثم حلّ القرن الرابع قبل الميلاد ، فكانت الهند عُرْضَة لغزوٍ جديد قام به الراجبوت الذين هم آريون على الأرجح ، فهؤلاء الراجبوت ، (أو أبناء الملوك كما يدل عليه اسمهم) ، الذين هم قوم جُسُرٌ محاربون أكفاء متماثلون ، عُرِفوا بالأكثرية (المُقاتِلة) فأقاموا بالمنطقة الممتدة من شرق نهر السند إلى ما وراء آراوَلِى الذى لا يزال يُسمّى براجبوتانا .

رأينا آنفاً أن الغَزَوات التى جاءت من الباب التورانىّ الواقع فى شمال الهند الشرقىّ أسفرت عن سيطرة العرق الأصفر الذى توالدهو والزنوج فأكره هذا العرق بعد زمن طويل على الاحتكاك بالتورانيين فى وادى الغَنْج وجنوب الدَّكَن ، فبمثل هذا نُلَخّص نتائج المغازى التى أتت من الباب الآرى فنقول : إنها أدّت إلى استيلاء العروق التورانيــة على غرب الهند وعلى شمال الهند الغربىّ ، وإن هذه العروق التورانيــة لم تلبث أن خضعت لصَفْوَة من الآريين فنجَمت عن ذلك نتائجُ خُلقية تختلف عن النتائج الجُثمانية والمادية اختلافاً تامّاً كما بيّنا ذلك .

وإذا سِرْنا من الشمال إلى المنطقة الغربية ، كماصنعناذلك بشأن المنطقة الشرقية، فكنا فى البَنْجاب وجَدْنا الجاتَ والغوجَر والسِّك ، الذين هم من الشعوب التورانية على مايظهر ، يؤلّفون ثلاثة أخماس الأهالىوأن بقية هؤلاء يقتربون بلون جلودهم من

الآريين ، وإذا نزلنا إلى ما تحت ذلك رأينا الراجپوت الذين ينتسبون إلى الفصيلة الآرية ، وإن لم يكونوا من خُلّصها ، ورأينا أن أهل الكجرات مزيجٌ من مختلف العروق وإن كان العرق التورانيّ هو الغالب في هذا المزيج ، ثم رأينا أن العنصر الآريّ يقف عند الهضاب التى يشتمل عليها وادى الگنج فى الجنوب وعند جبال وندهيا التى تصل إليها ، ثم لا نجد للعنصر الآرى أثراً تحت هذه المنطقة مع هيمنة نظم الآريين ومعتقداتهم فى الغالب، ونجد فيما وراء بمبى ، وعلى جانبىْ جبال كهات، بضعة ملايين من الشجعان المقاتلين الذين هم من أصل تورانيّ فيبلغون عدة ملايين فيُسَمَّوْن بالمراتها ، وكلما أقبلنا إلى الوسط أو نزلنا إلى الجنوب وجدْنا الحضارة الآرية والسَّحْنة التورانية تذوب فى الشعب الدراويدى ، ونشأ عن امتزاج تلك العناصر على نِسَب مختلفة ظهورُ البهيل الذين دحرهم الراجپوت إلى الجبال فعدّوا عِنْوان قدماء الدراويد الذين أثّر التورانيون فيهم قليلاً ، فكانت منهم قبائل محافظة على تقاطيعها الأولى، وأقاموا بوندهيا الغربية فبلغ عددهم نحو ثلاثة ملايين - وظهورُ المهار المتصلين بالجات التورانيين فسكنوا سلسلة جبال آراولى الشمالية فبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ شخص - وظهورُ المينا المقيمين بمملكة جيپور فى وادى الگنج الأعلى فبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠٠٠ شخص - وظهورُ الراموسى والدهانغ المقيمين بسفوح جبالى كهات الغربية فتُبْصر فيهم أثر العنصر الدراويدى كما تشهد بذلك جلودهم الدُّكْن وأُنوفهم القُطْس ووَجَناتهم الناتئة .

وبدأت غزوات الشعوب الإسلامية للهند فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، فهذه الشعوب إذ كانت منتسبة إلى أصول شديدة الاختلاف من عرب وفرس وأفغان ومغول زاد اختلاطُ العروق السائدة لشمال الهند تعقيداً ، ونجم عن سلطان المسلمين

تغيير عظيم فى الطبائع والعادات والمعتقدات والحضارة بوادى السِّنْد ووادى الغنج ، وإن لم يؤدّ ذلك إلى ظهور عرق جديد من الناحية الإثنوغرافية لعدم تمازج المسلمين وقدماء السكان تمازجاً وافراً كافياً .

ونحن ، بعد أن أتينا بتلك الخلاصة الخاطفة فقسمنا سكان الهند إلى أربع جماعات كبيرة : « الكولية والدراويدية والتورانية الآرية والتبتية » ، نبحث فى العروق الثانوية ذوات السَّحنات المختلفة ثم نفصّل مظاهرها وأصولها وعاداتها ودياناتها والأدوارَ التى مثّلتها فى مختلف القرون ، فإذا ما أتممنا ذلك أمكننا أن ندرس ما يشمل أكثرية الشعب الهندوسىّ من العادات والطبائع والأخلاق والنُّظُم والحضارات .

الفَصلُ الثاني

عُرُوقُ الهِندِ الشمالية

أو الهندوستان

---

(١) سكان هِمالية ـ أصل سكان أودية هِمالية ودردستان وكشمير ونيبال الخ (٢) سكان آسام ـ قبائلها المتوحشة : الناغا والـكهاسيا الخ . ـ (٣) سكان وادى الغنج ـ تدرجهم إلى التجانس ـ تفوق العنصر الأصفر فى البنغال وتفوق العنصر الآرى فى وادى الغنج ـ قبائل وادى الغنج الأدنى المتوحشة : السانتهال والملير ، الخ ـ (٤) سكان البنجاب ـ تفريق العناصر الآرية والتورانية والإسلامية ـ وصف العناصر الأجنبية ـ الأصل التورانى ـ أهمية الجات ـ (٥) سكان السند وراجبوتانا ـ قدم الراجبوث ـ الراجبوت أقل العناصر الهندية تأثراً بالمغازى الأجنبية ـ أشباه الوحوش من سكان راجبوتانا : البهيل ، الخ . ـ (٦) سكان الـكجرات وشبه جزيرة كاتهياوار ـ اختلاط العروق فى هذه المنطقة .

---

١ — سكان هِمالية

تُعَدُّ هضاب هِمالِيَة الغربية العليا وأكثرُ الأودية التى تهيمن عليها من التبت ، لا من الهند من الناحية الجغرافية ، وتُعَدُّ من أجزاء الهند من الناحية الإثنولوجية .

وتجمَّعت الشعوب الصغيرة التى تسكن تلك المناطق المنيعة ، و بعضُها قديمٌ جداً ، على شكل جماعات ، وجاءت تلك الشعوب من التبت فى الغالب ومن الهند فى بعض الأحيان ، ولـكن لا كفاتحين ما كان من طبيعة تلك البلاد الجبلية أن تجعل كلَّ

غزو مسلح أمراً مستحيلاً ، فنفلت أهل تلك البلاد من نير الأجانب حتى الآن وحافظوا على استقلالهم على العموم

ويتوارى المثال التبتى شيئاً فشيئاً فى أودية هِمالَيَة الجنوبية حيث يتصل سكان الجبال بسكان السهول فتتهنّد الديانة والطبائع ويمارس السيادة طبقة أريستوقراطية راجبوتية يصدر عنها الراجوات .

هِمالَيَة الغربية (لَدّاخ ، بالتى ، دردستان) — يسكن البقاعَ الجبلية التى يجرى فيها سَتْلج والسِّنْدُ وشَيُوك من الشرق إلى الغرب ، وذلك قبل الانتهاء إلى مَنْفَذ فى سلسلة هِمالَيَة الغربية ، شعوبٌ تبتية صغيرة ذواتُ وجوه واسعة وعيون مُزْوَرَّة[١] وشعور سُود سَنْدرية[٢] ولُحًى زَعِرَة[٣] وأخـلاق لينة حسنة نشيطة مَرِحَة ، ولا تَدين هذه الشعوب بديانة واحدة ، فبينما ترى سكان لَدّاخ أو التبت الأوسط بُدَّهيين مطيعين لكهنتهم ترى سكان بالتى أو التبت الأصغر مسلمين مطيعين لأئمتهم .

ويقول أهل لَدّاخ بتَعَدُّد الأزواج من الذكور ، وينشأ انتحالهم لهذه العادة عن فقرهم ، ففى لَدّاخ يجتمع خمسة إخوة أو ستة إخوة ، فى الغالب ، ليَعُولوا امرأة ويُؤلِّفوا أسرة ، وأما البالتيون ، وإن لم يكونوا أغنياء ، فلم يتخذوا هذه العادة لتحريم الإسلام إياها ، ويَنْزَح أناس كثيرون منهم ، عن بؤس ، إلى سهل الفَنْج فيكونون عُمّالاً مأجورين لدى الإنكليز ، فإذا ما جمعوا مالاً قليلاً عادوا إلى جبالهم ومساقط رؤوسهم ليَقْضوا فيها بقية أعمارهم ، وإذا ما أثْرَوْا تزوج الواحد منهم غيرَ زوجة .

والمنطقة التى يبدأ نهر السند بالجرى من شمالها إلى جنوبها مُجَوَّلاً حول شوامخ

(١) مزورة : منحرفة — (٢) سندرية : ممدودة — (٣) الزعر : القليل الشعر والمتفرقه .

نَفَعًا بَرِيت تُعْرَف بدردستان ، ويسكن هذه المِنطقة أناس يختلفون عن أولئك ، فما يتصفون به من القامات العاليـة والوجوه البيضية الناضرة يدلُّ على أصلهم الآرى ، وهم ، مع إسـلامهم يقولون بنظام الطوائف ، ومن أكثر الطوائف احتراماً عندهم طائفةُ الصين التى ورد ذكرها فى شرائع منو وفى المهابهارتا فظن بعض علماء أوربة ، على غير حقٍّ ، أنها تدل على نَسَب بين أهل دردستان وأهل الصين ، ومن الدرديين يتألف أشراف دردستان الذين يستعبدون سكان البلاد القطريين أو الدوم القاطنين فى الأصقاع الممتدة إلى البنجاب والقسم الشمالى من راجبوتانا والمتصفين باسوداد جلودهم كجلود هَمَج الهند الوسطى والمعدودين أنجاساً عند البراهمة والمسلمين ، وما عند الدرديين من عادات وثنيـة شاهدٌ على قِدَمِهم ، وفى بلادهم أنصابٌ كثيرة تُشابه أنصاب بريتانى ، ويتصف الدرديون وسادتُهم بأخلاق الحرّ وحبّ الفخر ، ولم يتمّ قطّ إخضاعُ ياغستان التى تقيم بها إحدى قبائلهم فيسميها الإنـكليز « البلدَ المتمرِّد » .

ونرى بين لَهَجات دردستان ولغات الأفغان وجهَ قرابة ..

وادى كشمير — جميع البلاد التى ذكرناها من أعمال راجة كشمير ، فإذا نزلنا إلى مِنطقة كشمير الأصلية ، أى إلى الوادى البالغ طوله ثلاثين فرسخاً والبالغ عرضه عشرةَ فراسخ والمشهورِ فى العالم كلّه بجمال مناظره ووَفْرَة نباته وَجَدْنا عرقاً يختلف عن عروق المناطق المحيطة به ، فيجب أن يُطْلَق اسم الـكشامرة على سكان هـذا الوادى ، لا على مختلف القبائل المجاورة له .

ويشتهر الـكشامرة من الناحية الجُثمانية بين أهمّ سكان الهنـد وأكثرِ الناس بياضاً ، وتشتهر نسوتهم بالجمال .

فللكشامرة جلودٌ ناعمة مُلوَّنة قليلاً وأنوفٌ قُنْوٌ ولُحًى وشعورٌ كَثّةٌ وقاماتٌ مربوعة وأجسام ضليعة .

وتدلُّ سيماهم على الاعتداء أكثر من أن تدلَّ على الشجاعة ، وهم على جانب عظيم من الاستعداد الفنيّ ، فهم الذين يصنعون الشالات المشهورة فى العالم بأسره والآنيةَ النحاسية المُزَيَّنة بالميناء فلم توَفَّق أوربة لتقليدها حتى الآن .



١١ — زعيم ناغى (من جبال آسام)

ويمكن عدُّ سكان وادى كشمير ، أو طوائفهم العليا على الأقل ، وذلك من الناحية الإثنوغرافية ، حَفَدةً لآريين كانت تجرى فى عروقهم دماء تبتية قليلة .

ويدين الكشامرة بالإسلام منذ الفتح الإسلامى مع محافظتهم على نظام الطبقات ، ويتكلمون بلغة ممزوجة من الفارسية والسّنسكريتية .

قبائل أقطار هِمالْية الدنيا — لِندَعْ مناطق هِمالْية العليا المُغْلَقة جانباً ولنَمُرَّ من الفُلُوج[١] الضيقة المؤدية إلى سهول البَنْجاب الواسعة لنرى زُمَراً صغيرة كثيرة تتدرَّج بها من التبتى القاطن فى الهِضاب البائرة إلى الهندوسى المقيم بالبنجاب الخصيبة ، أى من البُدّهيّ إلى المسلم أو عابد وِشنو .

---

(١) الفلوج : جمع فلج وهو الشق .

وليس من المفيد ذكرُ قبائل تلك المنطقة مفصلًا ما اختلطت جميع العروق والعبادات في الشيباليين والبهاريين والغاديين والكولو والغوجر ، وبينا يتوارى العنصر الأصفر من هؤلاء نكتشف فيهم أثرَ العنصر الأسود أحياناً ، وتتألف طبقتهم الأرستوقراطية من الراجبوت على العموم .

وأكثر تلك الشعوب الصغيرة من الرُّعاة ، وبعض تلك الشعوب من البدويين، ويقول بعضها بتعدد الأزواج من الذكور ، ودينُ الكثير منها مزيجٌ من الإسلام والبرهمية ، ولا يزال بعضها يَعْبُد الأصنام القديمة ويعبُد الأفاعي .

ويتصف جوُّ هذه المنطقة وعروقُها ولَهَجاتها بطابع التحول ، وفيها تمتدُّ سلسلة شِيوالك ، وهي تقع بين مُنْحَدَرات هِمَالْية المهيمنة الجليدية في الغالب وسهولِ وادى السِّنْد المحرقة .

نيبال . — تشابه المنطقة المسماة « نيبال » منطقةَ كشمير باشتقاق اسمها من وادٍ ضيق صغير ، وبأنها مركزٌ للقوة والحضارة في البلاد ، ويحيط الوادى بعاصمتها كَهات ماندو القائمة في القسم الشرقي منها ، ويبلغ طول مملكة نيبال ٧٠٠ كيلو متر ويبلغ عرضها ١٢٥ كيلو متراً ، وتقع مملكة نيبال بين سلسلة هِمَالْية الأساسية وطلائع الجبال المسيطرة على سهل الغَنْج والتى تبدو منطقة تَرائى على حَرْفها .

ويسكن منطقة نيبال قبائلُ مختلفةٌ في أصولها ولَهَجاتها ، فبعضُ هذه القبائل من أصل تبتيّ وبعضُها نتيجةُ توالدِ أناسٍ من التبت أو من السكان الأصليين وأناسٍ أتَوْا من جميع أجزاء الهندوستان ، ومن هؤلاء المهاجرين أناسٌ من الراجبوت، أى من أشرف شعوب الهند ، وأناسٌ متوحشون مشابهون لكول جهوتاناغبور وولاية

أوريسة ، والأهالى الذين يُعْرَفون بالغوركها هم وليدو الامتزاجات الأولى ، والأهالى الذين هم وليدو الامتزاجات الأخرى هم من قبائل نيبال المجاورة لِسِكِم .

وتنتسب أكثرية الأهالى الذين يقيمون بوادى نيبال ، أى بالمنطقة الضيقة التى تحيط بها الجبال وتشتمل على كُبْرَيات مدن مملكة نيبال ، إلى فرعين مختلفين : فرع النيوار الذى هو وليد العرق الأقدم ، والذى ظلّ سيد نيبال إلى نهاية القرن الأخير ، وفرع الغوركها الذى استولى على نيبال فى نهاية القرن الأخير .

وبقى الغوركها من قبائل نيبال المحاربة قبل أن يصبحوا سادة وادى نيبال ، ويزعمون أنهم من حَفَدة الراجبوت الذين هاجروا إلى نيبال فِراراً من الفتح الإسلامى ، وهم ، مع كونهم من أصل هندوسى ، لم أر إلّا الأقلين منهم لم يحملوا أثراً ظاهراً من الدم التبتى ، على أن اسم « غوركها » لا يدلّ على عرق معين ، بل يدلّ فى نيبال على أناس من كل طبقة وأصل غادروا ولاية غوركها النيبالية ليفتحوا بقية نيبال .

ويُقَسَّم الغوركها إلى عِدّة طوائف ، وأسمى هذه الطوائف هى طائفة الأكشترية التى هى وليدة تزوج الراجبوت بنساء القبيلة القطرية المعروفة بكهوس .

ويُعَدُّ الغوركها نواة أهالى نيبال المحاربين ، ثم انضمّ إلى هذه النواة قبائلُ محاربةٌ أخرى نذكر منها المَغَر والغُورَنْغ ، الخ . الذين يتجلى المثال المغولىّ فيهم أكثر مما يتجلى فى الغوركها .

ويهاجر الكثيرون من قبائل نيبال المحاربة ليُسْتَخْدَموا فى الجيوش الإنكليزية فيُسَمَّوْن فيها باسم الغوركها العام مع عدم صواب هذه التسمية .

وإلى غُزَاة الغوركها يعود الفضل فى خضوع نيبال لسيد واحد كما ذكرنا آنفاً، والغوركها قوم عسكريّون ، وليس الغوركها أهلاً لغير ما يَمُتُّ إلى الأمور العسكرية بصلة ، فتراهم يزدرون الصّناعة والزّراعة والتّجارة ، ولا تجد فيهم أثراً للذوق الفنىّ، وهم نقيضُ النيوار فى القابليات .

والبرهميـــة هى ديانة الغوركها ، ولغةُ الغوركها المعروفة بالبربتية هى لهجـةٌ سَنْسكرتية ممزوجة بكلمات تبتية ، وتُـكْتَب لغة الغوركها بالحروف السَّنْسكرتية .

ويتألف من النيوار الذين خضعوا للغوركها جمهورُ الوادى ، والراجوات الذين هم من عرقهم هم الذين ملـكوهم عِدّةَ قرون فامتلأت مدن نيبال فى عهـدهم بالمبانى العجيبة .

والنيوار ، وإن كانوا كالغوركها نتيجةَ توالد الهندوس والتبتيين ، بدا أثر أهـل التبت أظهرَ من أثر الهندوس فيهم ، فلما أُتيح لى أن أدخـل وادى نيبال كان بين حاشيتى خادمٌ رافقنى فى زيارتى لمختلف أقطار الهند من غير أن يعـلم شيئاً عنها ، فسألنى ، حينما وَطِئَتْ أقدامنا أولَ قرية نيبالية واقعة على الحدود ، عن وصولنا إلى بلاد الصين ظانّاً أن نيبال من الصين لِما رآه من مشابهة سكانها للصينيين الذين شاهدهم معى فى بَمْبى .

ويتـكلم النيوار باللغة النيوارية المختلفة عن البربتية التى هى لغـة الغوركها ، وإن كانت ممزوجة مثلها من السَّنْسكرتية والتبتية ، واللغـةُ النيوارية وحدَها هى لغة نيبال التى لها آداب .

والنيوار عاطلون مما اتّصف به الغوركها من الروح العسكرية ، وتَجِد عندهم ، مع ذلك ، ما ليس عند هؤلاء من الأهليات الزراعية والصناعيـة والفنية العظيمة ،

وبفضلهم أُقيم ما يملأ الوادى من المعابد الطريفة المُزيَّنة بالنقوش العجيبة فنشرنا لطائفة صور فى هذا الكتاب ، وبلغوا من إتقان حفر الخشب درجة لم تَفُقْهم معها أوربة كما أرى ، ومن دواعى الأسف أنهم لم يلاقوا من الغوركها ، الذين هم سادتهم فى الوقت الحاضر ، ما يُشجّعهم ، فترى متفننيهم يزولون بالتدريج فلا تجد منهم اليوم أكثر من اثنى عشر رجلا قادرا على حفر الخشب أو الحجر بمهارة ، فالحقُّ أن فنَّ البناء فى نبيال دخلَ دور الانحطاط ، وما تشاهده فيها من الآثار المهمة صُنِع قبل الفتح الغوركهانى .

وتجد ثلث النيوار من أتباع شِيوا وتجد ثُلثَيْهم من البُدّهِيّين ، وتجد هؤلاء وأولئك من القائلين بنظام الطوائف .

بهوتان وسِكِم . — تقع دُوَيلتا بهوتان وسِكِم المستقلتان فى شرق نبيال ، أى فى منطقة جِهالية ، ويُعَدُّ سكانهما من فصيلة الآدميين الذين يقطنون فى الهِضاب العليا ، ويُعَدُّون ، كذلك ، من التبتيين فيشتق اسم « بهوتان » من كلمة « بود » التى تَعدِل كلمة « التبتى » .

ويرى الإنكليز أن أهل سِكِم أرقى من سكان بهوتان بمَرَح أخلاقهم ، ولا تُبصِر فى الهند شعباً أنيساً مثل أهل سِكِم ، ويمارس هؤلاء الذين هم من شِباه البرابرة بعضَ فنون اللهو والتسلية ويُزَمْزِمُون بما يأخذ بمجامع القلوب ، ومن محاسن لغتهم عَطَلُها من تعابير القَذْع والشتم فدلَّ ذلك على لطفهم ودَماثتهم .

وأهلُ سِكِم من القائلين بتعدد الأزواج من الذكور على العموم ، ويدينون بالبُدّهية وتكثر فى سفوح جبالهم أديار الكهنة ، وتبنى هذه الأديار فى مواقعَ رائعةٍ وتسيطر على مناظرَ ساحرةٍ .

وسكان بهوتان أقلُّ مرحاً من جيرانهم أهل سِكِم ، ونجم ذلك عن البؤس الشديد الذى ألقتهم فيه حكومتهم المستبدة المرهقة ، فالذى يودُّ منهم أن يملِك نتيجة عمله يترك بلده ليخدم الإنكليز ، ويشابه دينهم ولَهَجاتهم دينَ أهل سِكِم ولَهَجاتهم ، ويقولون مثل هؤلاء بتعدد الأزواج من الذكور ، ويملكهم الكاهن الأكبر وقائمٌ مقامٍ دون الكاهن سلطاناً وإن كان يدعى بالملك .

ولا تتجلى فى أهل سِكِم وأهل بهوتان سَحَناتُ أهل التبت الخالصة إلّا فى الأودية العليا ، فإذا ما نَزَلْتَ إلى السهل أبصرتَ اختلاطهم بأهل البنغال اختلاطاً وتزل معه الملامح والعادات الأولى .

٢ — سكان آسام

آسام ، كما نعلم ، جزء من وادى برهماپوترا تابعٌ لإمبراطورية الهند الإنكليزية خلا شبكةَ مصبِّه المعقدة التابعة للبنغال والتى تختلط فيها مياه هذا النهر بمياه الغَنْج .

ويتوارى مجرى برهماپوترا الأعلى فى البِقاع غيرِ المَرُودَه[1] التى يحجُزها عن الحضارة جوٌّ هائل فظلت الملجأ الأخير للهمجية فى ذلك القسم من العالم ، ومما ذكرناه ، فى الفصل الذى وصفنا فيه أقطار الهند ، أنه لا ينزِل فى أى قسم من العالم القديم مطر ثَجّاجٌ[2] كالذى تُنْزِله رياح الجنوب الموسمية إلى آسام ، فما ينشأ عن هذا المطر من الرطوبة المرهوبة الموجبة للنبات الأشعث والعفونة القاتلة يَحْمِى استقلال سكان آسام العليا المتوحشين ، بيد أن صَوْلات الطبيعة هذه مشؤومةٌ على هؤلاء ،

---

(١) راد الأرض يرودها رودا وريادا : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للنزول فيها

(٢) مطر ثجاج : مطر سيال شديد الانصباب .

فهم إذْ كانوا يتقهقرون يوماً فيوماً إلى أشـدِّ أراضيهم وباء وأقلّها صلاحاً للزراعة يَنْقُص عددهم بلا انقطاع فيزولون أمام حضارة تمنعهم جِبِلّتُهم الدنيا من ملاءمتها على الدوام .



١٢ ـ جماعة من السكول (عمالية) (وادى ياس الأعلى)

وجميعُ تلك القبـائل (الآبور والمِشْمِي والسنغپور) المقيمة بضِفاف برهما پوترا والقبائلِ (الناغا والغارو والـكهاسيا) المقيمة بالجبال الواقعـة على الضّفة اليسرى من ذلك النهر ذاتُ مثال واحد تقريباً وهى فروع لعرق واحد .

ويصعب تعيين هذا العرق ، ويلوح لنا ، مع ذلك ، أنه أقرب إلى الفصيلة المغولية منه إلى الفصيلة الملايوية ، فما تراه فيه من ملامح الوجوه وانخفاض الأنوف وغِلَظ

الشِّفاه وازورار[١] العيون واسوداد الشعور السندرية[٢] واللِّحَى المُعْر[٣] يدل على قرباه من العرق الأصفر ، وما تراه فيه من الجلود السُّود يذكرنا بالعرق الملايوى .

والحقُّ أن العنصر التبتى المغولى هو الغالب فيه ، ومن الطبيعى أن تَجِده بادياً فى جوار الثَّغْرة الشمالية الشرقيـة التى فاضت منها طوفانات العرق الأصفر إلى تلك البِقاع فى عدة قرون ، وهذا إلى أنك تَجِد فى الأقسام الجبلية أناساً يشابهون مثال الشان فى بِرْ مانى ، أى مثالَ الآسيويين الشرقيين الخُلَّص كالذين يسكنون سيام والهند الصينية فاحتمل أن يكون أولئك قد أَتَوْا منهما .

وللجماعة الكهاسيا الصغيرة المقيمة بجوانب جبال كَهاسى ظاهرةٌ عجيبة تَجِد مثلَها فى الباسك السـاكنين جبال البيرنة الأوربية ، وذلك أنهم يتكلمون بلغة لايمكن ربطها بأية فصيلة من اللغات المعروفة ، فهذه اللغة ذات المقطع الواحد تبدو مُطَوَّقَةً غريبة بين مختلف اللغات الهندية التى يسهل تصنيفها .

وأشـدُّ الشعوب التى ذكرناها توحشاً هم الآبور والغارو ، فأما الآبور فإنهم يعيشون عُرَاةً ، ولا يمنعهم هذا من أن يُحِبُّوا الحُلِيّ ويُزَيِّنوا نساءهم بنُطُق وأطواق تَصِل[٤] لأقلِّ حركةٍ ، ولا يعرف الآبور الزراعة ويأكلون الفواكه واللحم ، وليس عندهم من السلاح غيرُ النِّبال والرِّماح والسيوف ، ويدينون بأغلظ ضروب الوثنية ، ويُعَدُّون عنوان الأجيال الفطرية الأولى ، وأما الغارو ، وهم قومٌ جبليون ، فلايزالون يُضَحُّون بالقرابين البشرية ، وتَجِد لهؤلاء الوحوش ، مع ذلك ، بعض المزايا كالصدق مع الأصدقاء والأعداء والوفاء بالوعود وازدراء ما يرَوْنَه فى البنغاليين ، المقيمين بالسهول

(١) ازورار : انحراف — (٢) السندرية : المشدودة — (٣) المعر : جمع أمعر وهو القليل الشعر — (٤) صل الشيء : صوت .

الواقعة تحتهم ، من القَذَر والخَتْر[١] والخَنَث[٢] والخَبْث ، وليس بعيداً الزمنُ الذى كانوا ينزلون فيــه إلى تلك السهول ليقبضوا على بعض البنغاليين فيذبحوهم حول ما يُكْرِمونه من جُثث الموتى ، واحترام الغارو للموتى يستوقف النظر كثيراً ، فالغارو ، إذ يَرَوْن أن حرق الجُثَث هو ما يُكَرَّم به الموتى وأن هذا الحرق يتعذر فى فصــل الأمطار ، يحفظون جُثَث موتاهم فى العسل فى أثناء ذلك الفصل إلى أن يَحِلَّ فصلُ الجفاف فيَحْرُقوها فيه .

والناغا ، الذين يدلّ اسمهم على « الأفاعى » ، يذكروننا بسادة الهند الجنوبية الأقدمين الواردِ ذِكْرُهم فى الرّامايانا بأنهم عُبَّاد الأفاعى ، ومن المحتمل أن كان بينهم و بين قدماء الدراويد قُرْبَى ما بَدَوْا سُوداً ، و يبدون قوماً محاربين متمتعين بالاستقلال الــكامل .

والــكهاسيا هم الشعب المتوحش الوحيد الذى يتَّصِل بصلة التجارة بالبلاد المجاورة ويزرع أراضيَه الجبليــة ويبلغ درجةً ضعيفة من الحضارة ، ويقيم الــكهاسيا بقُرًى كبيرةٍ ويبدون مِلاحاً صُلّاحاً ذوى أفراح وأنغام مُحْكَمة عنــد الشرقيين ، ويَعْلِك الــكهاسيا عُشْبَةً تُحَمِّر أسنانهم ويعتذرون عن ذلك بـ « أن البنغاليين والــكلاب ذوو أسنان بيض » ، ومن أغرب عاداتهم أن يرموا بَيْضاتٍ ليــكون لهم من انتشار صُفَارها الفــأل أو الطِّيَرَة[٣] ، وترى طرق قُراهم مملوءة بقشور البَيْض ، ولا يأكل الــكهاسيا ما ينتجه دجاجهم من البَيْض لِما فى البَيْض من مصــادرَ ثمينةٍ لمعرفة الغَيْب .

---

(١) الختر : أقبح الغدر ـ (٢) خنث الرجل يخنث خنثا : كان فيه لين وتكسر وتثن فــكان على صورة الرجال وأحوال النساء ـ (٣) الطيرة : ما يتشاءم به .

وتدين بالوثنية جميع القبائل الوحشية التي ذكرنا طبائعها وعاداتها ذكراً خاطفاً ، والنكاح عند هذه القبائل من أقل النظم حرمة ، ولنسائها حق السيطرة على الأسر وحق نقل الأموال وتحويلها وحق الاعتراف ببنوة الأبناء ولهن شأن كبير في الحكومة أحياناً .

ولا يزال الغارو محافظين على بعض العادات القديمة التي سنفصلها حين البحث في بعض شعوب الهند ، وينقسم الغارو إلى قبائل صغيرة تدعى بالمهار أو الأمومات ، وكانت تمارس السلطة في كل واحدة من الأمومات امرأة فيما مضى فيمارسها اليوم رئيس (اللشكر) منتخب من بين أكثر من يملكون عبيداً ، على أن توافق النساء على نصبه ويستشيرهن في غير مسألة ، والفتاة هي التي تخطب الفتى في المهار تبعاً للعادات القديمة ، وفي الغالب يغضب رجال المهار الخطيب غصباً مصنوعاً ما كانت الزوجة القادمة ملك المهار ، ولا يرث الابن في المهار إلا بعد عمته وأبناء عمته ، ويكثر الطلاق في المهار فيظل الأولاد فيها ملصقين بأمهم ، ولا يعرف الأولاد أباهم في الغالب ، أو يعيشون قريبين منه مع عدهم إياه أجنبياً .



١٣ - تيمور لنك (كما جاء في مخطوط هندي قديم)
(مكتبة فيرمان ديدو)

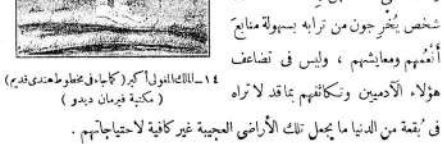
وتلك العادات المنحطة ، التي ستزول بزوال العروق الطريدة الضعيفة التي تمارسها

والتى لا تزال بادية فى جبال آسام ، تتوارى وتمّحى عند النزول إلى السهل حيث يكون القوم هندوسيين مختلفين ، مثالاً ولساناً وديناً وأخلاقاً ، عن البنغاليين الذين يمتزجون بهم شيئاً فشيئاً .

ونحن حين نربط أهالى بقاع آسام الدنيا بأهالى وادى الغَنْج نصِف هؤلاء الأهالى فندخل الهند الحقيقية بهم .

٣ – سكان وادى الغَنْج

لا نجد فى الخلاصة التى ذكرنا فيها مختلف عروق هِمالَية وآسام العليا ذكراً خاطفاً ما يمكن تسميته بالهندوسىّ ولو بوجهٍ عام أو مبهم .



١٤ ـ الملك المغولى أكبر (كما جاء فى مخطوط هندى قديم)
(مكتبة فيرمان ديدو)

ونحن حين ندخل وادى الغَنْج نجد أنفسنا فى صميم بلاد الهندوس أى بلاد الشعوب البرهمية التى يجرى فى عروقها دماء قدماء الدراويد ودماء تورانية ودماء آرية على نِسَب متفاوتة غير منتظمة .

والسهل الواسع الذى يَشُقُّه نهر الغَنْج وروافده هو من أكثر بقاع العالم خِصْباً وسكاناً، فى هذا السهل نجد ١٤٠٠٠٠٠٠٠ شخص يُخرِجون من ترابه بسهولة منابعَ أُنْعُمهم ومعايشهم ، وليس فى تضاعف هؤلاء الآدميين وتكاثفهم بما قد لا نراه فى بُقعة من الدنيا ما يجعل تلك الأراضى العجيبة غير كافية لاحتياجاتهم .

والفاتحون الذين تزاحموا على الهنـد من شمال غربها ومن شمال شرقها انتشروا فى تلك المنطقة المدهشة ، فتُبْصِر فى وادى الغَنْج مختلف العناصر التى تجِدها فى تركيب عروق شبه جزيرة الهند الكثيرة ، فتشاهد اختلاط هذه العناصر فى وادى الغَنْج أشدَّ مما فى أية بُقْعَة أخرى ، وهذه العناصر إذا كان من شأنها أن تُسْفِر عن مثال واحد أو قومية واحدة فإنك قد تجد هـذا المثال فى أرياف ضِفاف الغَنْج ، ويتجلى هذا المثال فى فَلّاح (شودرى) بهار أو أَوَدَهة الذى انتقل إليه من أجداده قدماء الدراويد اسمرار جلده والذى انتقل إليه من غُزاة توران الأولين جَرَدُ[١] وجهه العريض وأ كثرُ ملامحه ودقةُ أعضائه ، والذى انتقل إليه من الآريين زَهْوُه وفخره وتَوَقُّد ذهنه وخيالُه الدينىّ والاجتماعىّ .

والحقُّ أن العرق القـاطن فى وادى الغَنْج مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية ، والذى يمنع هذا العرق من أن يكون خالصاً هو اختلاط هـذه العناصر فيه اختلاطاً غير مُتَّسِق[٢] ، فإذا كان العنصر الآرىُّ سائداً للغرب فى أَوَدَهة فإن العنصر الأصفر هو السائد للشرق فى البنغال ، وتقع بين هاتين الولايتين ولاية بهار التى تختلف عنهما وضعاً ومنظراً وسكاناً ، وكلما صَعِدت من مصبِّ الغَنْج إلى منبعه وجـدتَ المثال الهندوسىَّ يَشْرُف خَلْقاً وخُلُقاً .

وأسوأ ما تتجلى تلك الاختلاطات فى البنغالىّ ، فيبدو البنغالى صغيراً هزيلاً أسمرَ الجلد قصير الأنف واسع الفم أسود الشعر أَمْعَر[٣] اللحية ، ويتصف بذكاء كافٍ لهضم ما يُعَلَّمُه ، ويشتهر بالمداهنة والمداجاة والفتور والنذالة .

---

(١) الجرد : قصر الشعر ـ (٢) غير متسق : غير منتظم ـ (٣) الأمعر : القليل الشعر .

وجلودُ أهل بهار سُمْرٌ ، ويقتربون من المثال الأوربيّ بملامحهم ، ولا أثر فيهم مما في البنغاليين من الخداع والدناءة .

ويظهر أهل أَوَدْهَة شعباً راقياً ويجد المرء فيهم المثالَ الآريّ شائعاً ، لما يراه فيهم من استدارة الوجه المنير وانسجام الملامح وارتفاع القوام والاعتزاز بالنسب .

ويتألف ثُمْن سكان أَوَدْهَة من البراهمة، أي من حَفَدَة قدماء الآريين، ويكثر الأكشترية (المقاتلة) أو الراجبوت في أَوَدْهَة ، ويملك هؤلاء أراضيَ واسعةً فيها ، ويفتخر زراعها بانتسابهم إلى عرق الإله كرشنا .

١٥ ـ الملك المغول شاهجهان يستقبل (كما جاء في مخطوط هندي قديم) (مكتبة فيرمان ديدو)

وتَعْرِف الولايات الثلاث التى ذكرناها آنفاً نظام الطوائف كما فى بقية الهند ، ولكن أحقر طائفة فى أَوَدْهَة تحتقر أعلى طائفة فى البنغال ، فترى الصعلوك السائل فى أرباض[1] بنارس يترفع عن الأكل من مائدة البرهميّ فى كلكتة ، وترى هذا البرهميّ يَعُدُّ من الأحلام أن يتزوج ابنته فلاحٌ غليظ من ضِفاف غوغرا .

ويتجلى تأثير الإسلام فى وادى الغَنْج على عكس التأثير الآريّ ، فهو يزيد

(١) الأرباض : جمع ربض وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

من الغرب إلى الشرق ومن منبع هذا النهر إلى مصبه ، ويتألف من المسلمين عُشر أهل أُوَدْهَة وسُبْع أهل بهار وثُلُث أهل البنغال ، بَيْدَ أن الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام لم ينفصلوا عن إخوانهم من البراهمة بسبب إسلامهم ، فهم يفترقون مثل هؤلاء إلى طوائف ، وتَجْمَع أهمُّ الشعائر الدينية بين أتباع تينك الديانتين فى الغالب .

ونُبْصر ، مما تقدم، عناصرَ متقاربةً فى وادى الغَنْج يُرْجَى صهر كلٍّ منها فى شعب متجانس يوماً ما ، لِما بين أقصى مُثُلها من حلقات متصل بعضها ببعض اتصالًا يكاد يكون غير محسوس ، فبينما تَجِد فى أقسام الهند الأخرى شعوباً مختلفة أشدَّ الاختلاف مع تجاورها تَرَى فى وادى الغَنْج عناصرَ كثيرةً منسبكة تقريباً ، فترى البنغاليين يَعُدُّون أنفسهم فيه من جنس واحد ، وترى مثال طبقاته العليا واحداً مشابهاً لمثال الطبقات العليا فى الهند الصينية ، وترى طبقاته الدنيا تبتعد عن العرق الأصفر وترتبط فى العروق الفطرية الأولى وفى قدماء الدراويد والكول .

قبائلُ وادى الغَنْج الأدنى المتوحشة : السانتهال والملير الخ . — يوجد بين الشعب المتجانس الذى وصفناه آنفاً جماعاتٌ متفرقة من شِباه الوحوش ، ولا يُعَدُّ أكثرهؤلاء من سكان وادى الغَنْج تماماً من الناحية الإثنوغرافية والناحية الجغرافية، وسندرس أمرهم حينما نبحث فى شؤون إخوانهم من سكان الولايات الوسطى ، وما نقوله هنا هو فى أمر بعض تلك الجماعات التى لا يجوز الإغضاء عنها الآن ما ظَلَّت من سكان وادى الغَنْج وما تكلمنا فى هذا المطلب عن هؤلاء السكان .

والملجأُ الأخير للهمج الذين أقاموا بشبه جزيرة الهند فيما مضى هو ، كما ذكرنا ، جبالُ الهند الوسطى الواقعة فى جنوب نهر نَرْبدَا ونهر سون والفاصلةُ بين الهند الشمالية

والدَّ كَن ، فأمام تَقْر هـذه المِنطقة وقسوة منظرها وخَطَر جَوّها تقهقر الفـاتحون ، وتهبط مُنْحَدراتها الأولى العاصيـة غيرُ المَرُودة[١] إلى ضِفاف القَنج حيث ينحنى هذا النهر العظيم ليتَوَجَّه إلى الجنوب ، وتُمَيِّن الضِّلْعُ التى تُحَدِّد مجرى هـذا النهر شواهقُ راج محل المشرفة على الجبال الوسطى ، فهنالك ، فى وسط الهند المتمدنة بين بهار والبنغال ، تَجِد فى حالِ شِبْه وحشية وشِبْه طليقة المَليرَ والسانتهال، وهنالك،نحو الجنوب ،فى جوانب جهوتاناغپور ، تَجِد فى حالِ شِبْهِ وحشية وشبه طليقة الأُورَاوُنَ والمُنْدَا والـكول ، أى أكثرَ شعوب آسية فطرةً على ما يحتمل .

فلْنَدَع الآن جانباً أمر هذه القبائل الفطرية الثلاث الأخيرة التى سنتكلم عنها بعد قليل ولنذكر شيئاً عن السانتهال والملير كما يأتى :

يقطن الملير أقسام جبال راج محل العليا ، ويُعْرَفون بالبهاريين أو الجبليين ، ويمكن عَدُّهم مزيجاً من سُود الدراويد ومن الأهالى الصُّفْر ، ولم يتـأثروا بالآريين قط ، ويجهلون معنى الطائفة ، ويشابهون دراويد جنوب الهنـد كثيراً ويتصفون بأنسهم ودماثتهم وصدقهم الذى هو مضرب الأمثال، فمن أقوالهم المُفَضَّلة : «البَيْن[٢] ولا المَيْن[٣] » .

ويسكن الملير أكواخاً كبيرةً مصنوعة من سيقان الخيْزُران المزينة بإتقان ومُؤَثَّثة بمتاع ذى أفنان ، ويعبد الملير النجومَ وقُوَى الطبيعة والملائكةَ الذين يقطنون ، على زعمهم ، فى الأجواء ، ويَبْنِى الملير بيتاً كبيراً عامًّا لشـباب كلِّ قرية حيث يمارسون ضروب الرياضة والبأس ويقيمون فى بعض الأحيـان ، فلجأ الإنـكليز إلى

---

(١) راد الأرض يرودها روداً ورياداً : تفقد ما فيها من المراعى والمياه لِيرى هل تصلح للنزول فيها
(٢) البين : الفرقة والعداوة والبفضاء ، وهو هنا بمعنى الموت — (٣) المين : الـكذب .

الحيلة لقهر الملير أكثرَ مما إلى القوة فوجدوا أن النقود والوعود خيرٌ من السلاح فى إخضاع الملير.

والسانتهال أكثر من الملير عدداً وأعظم أهمية، ويسكن السانتهال مُنْحَدَرات الجبال والسفوح التى يقطن الملير فى أعالى جبالها، وللغة السانتهال طابعٌ خاصٌ ما بَدَت أمّ جميع اللغات الكولية، والسانتهال أشدّ القطريين تأثّراً بالعنصر الأصفر، والسانتهال نتيجة اختلاط الصُّفْرِ بالسُّود.

والسانتهالُ خِفَافٌ لِطَافٌ مُكْرِمون للأضياف، فترى أمام أكواخهم الجِيف «صُفَّةَ الغريب» حيث يجد المسافر حُسْن القِرَى.

والأسرة السانتهالية متينةُ التركيب، ويختار الأزواج عند السانتهال بعضُهم بعضاً طَوْعاً على أن يكون الزوجان من عشيرتين مختلفتين، ويقول السانتهال بمبدأ تعدد الزوجات فى حالة عُقْم المرأة فقط، ويندر الطلاق بينهم.

والسانتهالُ يُكِنُّون احتراماً كبيراً لنسائهم فيُحَلُّونهنّ(١) ويُظهرون ما يروقهنّ ويتملقونهنّ بالعناية بأنفسهم وتزيين أشخاصهم، وديانة السانتهال وشعائرهم بسيطة إلى الغاية، فهم يعبدون الشمس والأجداد، وربُّ الأسْرة السانتهالية كاهنُها، وربُّ الأسرة هذا إذا ما احْتُضِر عَلَّم ابنه البكر، وهو على فراش الموت، الأدعيةَ التى تَلِين بها الآلهةُ والطقوسَ التى تَجلُب البركات من السماء.

والسانتهالُ يَحْرُقون موتاهم، والسانتهالُ يحفظون، مع ذلك، عظاماً من موتاهم ليرموها فى مياه نهر دَامُودَر المقدسة، والسانتهالُ يحافظون على شرفهم

---

(١) حلى المرأة: ألبسها أو اتخذ لها الحلى.

وأعراضهم كثيراً ، فيُعَدُّ ارتكاب المنكر أعظمَ جرم عنـدهم ، فمن يقترفه يعاقب هو وعشيرته بالطرد من حظيرة القوم .

والسانتهالُ زراعٌ ماهرون ، وللسانتهـال أذواق البدويين ، فإذا ما استنفدوا خِصْبَ أرضٍ تركوها وأحْيَوْا غيرها ، ولـكن المَدَى الذى يقدرون على التِّيهان فيه يقلُّ شيئاً فشيئاً بسبب تـكاثرهم السريع وتطاول الإنكليز ، وما أصاب السانتهالَ من زيادة بُؤْسٍ حملهم ، منـذ بضع سنين ، على المثول بين يدَىْ حكومة كلـكتة ظانِّين أنها تتدبر أمرهم ، فلما وصلوا إلى مكان مناسب أُطْلِق الرَّصاص عليهم إطلاقاً مُنَظَّماً ، واليومَ يهجر سانتهالُ كثيرون جبالهم ليبحثوا عن عمل لهم فى السهل ، واليومَ يَنْزَح بعضهم من وطنهم إلى ما هو أبعد من السهل .

ومن الفطر بين ترى السانتهال والملير وحدَهم يعيشون أمةً فى وادى الغَنْج ، وفى وادى الغَنْج تَجِد أهاليَ منثورين هنا وهنالك يعْرَفون بالـ (قُلِي) فيُسْتخدمون أجراء وعمالًا وموظفين صغاراً فى دواوين الحـكومة .

ونذكر ، قبل أن نترك وادى الغَنْج ، أن جميع مدنه المهمة ، خلا كلـكتة ، قائمةٌ فى النصف الغربىّ منه ، وأن قسمه الشرقى المشتمل على البنغال هو أرض حرث وزرع وأن سكان هـذا القسم مبعثرون فى أكواخ ظريفة مُحَجَّبة بالأشجار غيرِ متجمعة فى مراكزَ كبيرةٍ كالتى تُرى على ضِفاف الغَنْج العليا .

٤ — سكان البنجاب

يحتوى وادى السِّنْد ، الذى سندرس أمر سكانه ، على ثلاثة أقسام : البنجاب

فى الشمال والسِّنْد فى الجنوب وراجپوتانا فى الشرق ، ويقطن فى هذه الأقسام الثلاثة أمم مختلفة .

والپنجاب الذى كان الطريقَ الكبرى لجميع ما عُرِّضَت له الهند من المغازى ذو سكان مختلطين غير مصهورين بدرجة انصهار سكان وادى الغَنْج ، فتبدو فيه العناصر الآرية والتورانية والمسلمة متخالفة ، ولا تجد فيه أثراً للعنصر الدراويدى أو العنصر الأصلى ، والإسلام هو الدين الذى يسود الپنجاب ، وللإسلام أثرٌ بليغٌ فى براهمة هندوس الپنجاب الذين يظهرون بإيمانهم الفاتر سُبَّةً لدى إخوانهم فى بقية الهند .

وأصل سكان الپنجاب تورانىٌّ ، وهو مؤلف من الجات على الخصوص ، فعلى هذا الأصل الواسع تَنَضَّدت طبقةٌ آرية تَعْدِل نصفَه وأقليةٌ مسلمة ضعيفة .

ومن المحتمل أن كان الجات سادة البلاد حين الغزو الآرىّ مع أن الجنرال كننغهم يرى ، فى كتابه « تخطيط آثار الهند » الذى يعد حُجَّة فى الموضوع ، أن الجات من العنصر الهندى الشيثى وأنهم أتَوْا الهند بعد الفتح الإسكندرى ، فالذى لا ريب فيه أن هؤلاء التورانيين القطريين أو الهنود الشيثيين امتزجوا قليلاً بمن دحروهم إلى الجبال من الدراويد وبمن خضعوا لهم مؤخراً من الآريين ، فنجم عن المصاهرات القليلة التى تمَّت بين تلك العروق أمثلةٌ مختلفة بين الجات فترى فيهم أناساً شديدى الاسمرار وترى بينهم أناساً منيرين كالراجپوت .

ولْنَقُل ، قبل البحث فى أمر الجات ذوى الشأن المهمّ فى الهند ، بضعَ كلمات عن آريى الپنجاب الذين كان لهم نفوذٌ بالغ وفوز لغوىّ واضح مع قلة عددهم .

من الطبيعي أن يكون المثال الآري الخالص في شمال البنجاب الغربي حيث المنفذ المُسمى بالباب الهندي الآري ، ويتجلى هذا المثال في الأفغان الإيرانيين الذين يُعرفون باسم البَتْهان ، فيشابهون كثيراً أهل دردستان وأهل كافرستان ، ويظهرون ذوي صلة بسكان وادي كشمير ، فهم ذوو لون صافٍ وأنوفٍ قُنْوٍ ووجوهٍ بَيْضِيَّة وشعورٍ شُقْرٍ أو خَمْرِيَّة[١] وعيونٍ بُلْجٍ[٢] وما إلى ذلك من الأوصاف النادر وجودها مجتمعةً في أناس من أهل الهند حيث الشعورُ السُّود والعيونُ الدُّكْن[٣] .

ويستقرّ بجانب جبال هِمَالِيَة الأوان والكَكَر الذين أريد نَسَبُهم إلى الإغريق، فعلى ما في هذا من شكّ فإن الذي لا مِراء فيه هو أن أولئك من العرق الآري الخالص ، وينتسب الدُّغرا وبعضُ القبائل الأخرى إلى العرق الفاتح أيضاً ، فإذا ما نَزَلْتَ إلى الجنوب وجدتَ أناساً كثيرين من الراجپوت ، ويقيم معظم الراجپوت بالمنطقة المستطيلة المسماة بمنطقة الراجپوت ، وسنصف أمر الراجپوت في مطلب آخر ، فلْنَدَعهم الآن جانباً .

ويقطن في قسم هِمَالِيَة المُشْرِف على البنجاب وفي الأودية المنحدرة إلى البنجاب جماعاتٌ من التبت وصفناها فيما تقدم فنكتفي بالإلماع إليها هنا ، والآن نَصِل إلى الجات الذين هم أهم شعوب البنجاب ووادي السِّنْد .

فعلى ما في الجات من بعض المُثُل المتباعدة التي هي وليدة امتزاجات نادرة نرى الجات يتصفون بالطول وتناسب الأعضاء وذكاء المنظر والاحمرار واتساع الأنوف

---

(١) الخمري : الأسود الضارب إلى الحمرة — (٢) بلج : جمع أبلج وهو المشرق الوضيء — (٣) الدكن : جمع أدكن وهو المائل إلى السواد .

وارتفاع طرفها وَقَنَاها[١] أحياناً وصِغَرِ العيون وأُفقيّتها ونتوء الوَجَنات واسودادِ الشعور وكثافتها ودقة اللِّحَى وشُمُوتَتها ، ونرى نِسْوَة الجات يتصفْنَ بطول القدود مع حسن المنظر وبالبَخْتَرَة مع الاتّزان الناشيء عن ثِقَل الخلاخل ، ويَلْبَس هؤلاء النسوة سراويلَ ذوات ثَنْي ويَدَّثِرْن بِدُثُرٍ أنيقة تشتمل على رؤوسهن وأكتافهن وتحجب أحياناً وجوههن .

ويُقَسَّم الجات إلى ثلاث جماعات دينية : المسلمين المسيطرين على القسم الأدنى من وادى السِّنْد والسِّكِ أو أتباع نَانَك المقيمين بالپنجاب وأتباعِ البرهمية المستقرين بمنطقة راجپوتانا والمنتسبين إلى طائفة الويشية .

وبينما كان الجات يملكون جميع الهند الغربية أغارت عليهم قبائل الآريين المحاربة فبادر الجات إلى الخضوع ، على ما يحتمل ، فعاملهم الآريون الغالبون بالحسْنَى فأحدثوا لهم طائفة جديدة عُرِفَت بطائفة الويشية التى لا تزال مشتملة ، بوجه عام ، على أبناء الطبقة الوسطى ولا سيما التجار مع حصر قدماء الأهالى فى طائفة الشودرا المحتقرة .

ولا ريب فى أن ذلك كان نتيجةَ اتفاقٍ أو تراضٍ قاضٍ بجعل سلطان الآريين فوق تورانيى غرب الهند ، ولا نزال نجد لهذا الاتفاق أثراً فى بعض حَفَلات التتويج حيث يتسلّمُ الأمير الراجپوتى الصَّوْلَجان من رعاياه الجات .

وحدث فى أواخر القرن الخامس عشر نوعٌ من الإصلاح الدينى فظهر مذهب السِّك الذين غَدَوْا شعباً بعد أن كانوا جماعةً من الأشياع والمريدين ، وبيان الأمر :

(١) قنى الأنف يقنى قنا : ارتفع وسط قصبته .

أن نَبيَّهم نانَك حاول أن يجمع الإسلام والدّيانات الهندوسية فى دين واحد وأن يَصْهَر العروق بإزالة ما بين الطوائف من الفروق و بإعلانه المساواة بين الناس ، فصار جميع الذين اعتنقوا تعاليمه من السِّك أو من «المريدين» ، وهؤلاء كلُّهم كانوا من الجات تقريباً ، فانضمّ الآريون إليهم فرفعوا بذلك مستوى الجات ، ثم أضحى السِّك شعباً حربياً فنَمَت أجسامهم بفضل تمارينهم العسكرية فلم يلبثوا أن تألف منهم عِرْقٌ باهرٌ يتّصف مثاله بالبأس والكَيْس ونُبل الملامح وقوة البيان وانسجام القامة ، فالمحارب السِّكى هو من أمثلة جمال النوع الإنسانى حقاً .

وزعيمهم الثانى غوونِدسِنغ هو الذى حَبَّب إليهم النظام العسكرىّ ، فإذا كان نانَك قد هداهم إلى معتقد رُوحىّ عال قائل بالله واحد فإن غووِندسِنغ مَنَّ عليهم بالفولاذ رمزاً مادياً ، ما صُنِع من هذا المَعْدِن دروعٌ مُسَرَّدَة وسيوفٌ مُهَنَّدَة ، فعلى السِّكِىّ المحارب أن يحمل تميمةً من فولاذ ولو نُزِع منه سلاحه .

وكان السِّك يطيعون زعيماً منتخباً منهم ، وكانوا يجتمعون فى مجالس شعبية للتشاور فى الشؤون المهمة ، ولم يلبث السِّك أن بَدَوْا قوماً أولى بأس شديد فاضْطُرَّ ملوك المغول والإنكليز من بعدهم إلى مراعاة جوانبهم ، فلما كانت أوائل هذا القرن أقام السِّك فى البنجاب دولة مرهوبة فعامل الإنكليز زعيمَهم مَلِكَ لاهورَ المُسَمَّى رَنجيت سِنغ معاملة الندّ للندّ ، وأجلس زعيمُهم هذا على عرش الأفغان ملكاً اختاره بنفسه ، واليوم عاد السِّك يكونون ، كما فى الماضى ، طائفة دينية عاصمتها الروحية مدينة أمْرِتسر المهمة .

وحبُّ التعليم نامٍ عند السِّك ، فلهم جمعيات علمية مهمة نذكر منها جمعية لاهور

المشتملة على علماء فطاحل ، وما فى السِّك من الروح العسكرية التى لم يَخْبُ[١] أُوَارها[٢] جعل منهم ومن الغوركها أحسن الجنود فى الجيش الإنكليزى ، ومن وَقَفُوا أنفسهم منهم على أمور الزراعة فأكثر الجنود صبراً وعملاً ، وتقع جميع أراضى وادى السند الصالحة للزراعة بأيديهم ، وفيهم يتجلى أرقى زُمَر الهند الزراعية .

ومن الجات أناسٌ كثيرون حَبَسوا أنفسهم على التجارة فيمارسونها ببراعة ، ويُعْرَف هؤلاء التجار بالمُلتانيين ، نسبةً إلى مدينة مُلتان التجارية الواقعة بين البنجاب والسند ، وليس هؤلاء بمعروفين فى الهند وحدها ، بل اشتهروا فى جميع مدن آسية الوسطى حيث يَسِيحون للتجارة على مقياس واسع ولإذاعة أهمّ الأخبار وإشاعة أنباء الحرب .

وفى الهنـد ، فى البنجاب كما فى ضِفاف الغَنْج وفى الدَّكَن ، ترى الصَّيارِفة والمرابين والماليين من الماروارين ، أى من جات مارواز الواقعة فى جنوب البنجاب والتى هى جزء من راجبوتانا ، وكلمةُ « الماروارى » فى الهنـد مترادفةٌ هى وكلمةُ « اليهودىّ » فى البلدان الأخرى ، فهؤلاء المرابون الذين يُدينون لآجالٍ مختلفة يفتنون على حساب فقراء الهندوس المرهَقين بضروب الضرائب ، فترى الناس يَخْشَوْن أولئك ويحقدون عليهم فى كل مكان ، ولا أجِد ، لوصفهم ، أحسنَ من أن اقتطف بضع جُمَل من كتاب طريف دَبَّجَه حديثاً يَرَاعُ أحد هندوسى بَرُودَة السيد ملبارى عن أهالى كجرات ، ففى كجرات كما فى جميع أقسام الهنـد يظهر الماروارىُّ بمظهر صاحب الأمر والنهى ، فإذا ما أثْرَى تَزَوَّج وعاد إلى مسقط رأسه ليقضى فيه بقية حياته ، قال السيد ملبارى :

---

(١) خبا يخبو خبوا : خمد وسكن وطفىء — (٢) الأوار : الحر .

« لا يقوم الماروارىُّ بعمل لا يُدِرُّ عليه ربحاً مئة فى المئة ، ويُحِبُّ الماروارىّ الإدانة لآجال بعيدة ، والماروارىُّ يُدِين ويُدِين إلى أن يصبح المدينُ قبضتَه ، فإذا ما أفلس هذا المَدِين حَمَلَه على السَّرِقة ، فبذلك يَحُطُّ الماروارىُّ ضحاياه كما يُخَرِّب بيوتهم ، وليس نصف عواهر بَمْبى إلّا من أَخَوَات هؤلاء الضحايا وأزواجهم اللائى عَرَفْن الماروارىّ فاشترين منه بضعة أرطال من السكر لآجال فأسفر ذلك عن سقوطهنّ خَلقاً وخُلُقاً ، والماروارىُّ ، مع كونه من أتباع وِشنو ، لا يحترم آلهته ، ويُفَضِّل ديناراً حاملًا صورة المِلكة على أكثر هذه الآلهة حرمةً » .

ولا يتعاطى جميع الجات الزراعة والتجارة والمراباة ، فبعضُ الجات ظلّ من شِباه البرابرة والبدويين ، ومن الممكن أن يُلْصَق بالجات زُرّاع البَنْجاب وتجارهم المعروفون بتجار الهند الذين هم إخوان النَّوَر بأوربة كما يظهر ، ويزاول أولئك ما يزاول نَوَرُ أوربة من المِهَن ، ويتصفون مثلهم بالجمال الفطرىّ ، ويتجولون من بلد إلى بلد ومن كوخ إلى كوخ وينزلون ، إذا ما حَلُّوا بمكان ، فى عرباتهم ، ويَعرِضون للبيع صغيرَ المتاع ويُغَنُّون ويرقصون ويقصون الأقاصيص .

٥ — سكان الهند وراجپوتانا

إذا ما نَزَل المرء من البنجاب إلى مجرى السِّند بَلَغ السِّنْد حيث يكثُر الجات والمسلمون والسِّك والجِيْنِيُّون ، ويتألف عنصر السكان الآخر الأساسى من البلوجيين الذين هم شعب جبلىّ مشابه للشعب المقيم ببلوجستان المجاورة للسِّند ، فالبلوجيون هؤلاء من المسلمين السنيين ويُقَسَّمُون إلى عِدَّة قبائلَ ، فإحدى هذه القبائل تَدَّعى بأنها من العرب ويتجلى فيها المثال السامى ، وقبيلةٌ أخرى منها لا يَنْدُر وجودُ ذوى

شعور شُقْر فيها ، وقبيلةٌ ثالثة منها تُعَدُّ نتيجةَ توالد أناس من البلوجيين والجات .

وتتكلم الشعوب التي تسكن وادي السند ، على العموم ، بلغات من أصل سَنْسكرتي ، وأهمُّ هذه اللغات هي : البنجابية والسِّندية والماروارية ، فلا تَجِد فروقاً كبيرة بينها .

وراجپوتانا هي القطر الواسع الممتد من السند إلى مداخل أغرا ومن جنوب البنجاب إلى ممالك مراتها الممتدة من بَرُودة إلى غواليار ، وتشتمل صحراء تهار الكبرى على النصف الغربي من راجپوتانا حيث تغدو وتروح قبائلُ من شِباه الوحوش ، ويشقُّ النصفَ الشرقيَّ من راجپوتانا عِدَّةُ مجار تنبسط بين أوديتها هِضاب وتقوم عليها جبال ، وسلسلةُ آراولي هي أهمُّ هذه الجبالِ ، ومن جنوب سلسلة آراولي هذه ينفصل إلى الجنوب الغربي شاهقُ آبو الجليل .

وما في راجپوتانا من شذوذ أرض ، كالذي ذكرنا ، حال دون امتزاج عروقها مثلما وقع في وادي الغَنْج ووادي السند المبسوطيْن ، فقد ظلت هذه العروق مختلفةً اختلاف الأودية والهِضاب والجبال ، ففي ضِفاف الأنهر تتجمَّع أكواخ الجات التورانيين والزُّرّاع ، وعلى الهِضاب تقوم صَيَاصِي[1] الراجپوت الآريين المحاربين ، وعلى المنحدَرات العالية وفي الغابات الوَعِرة يدافع البهيل عن العادات القديمة والحريات الوحشية .

وأُطلق اسم الراجپوت على القطر الذي كانوا سادته ، والراجپوت لا يزالون يَبْدُون فيه شعباً مهماً من الناحية العرقية ، والراجپوت منتشرون ، مع ذلك ، في شمال الهند خُلَّصاً أو متوالدين هم وسواهم .

---

(١) الصياصي : جمع صيصة وهي الحصن وكل ما امتنع به .

والراجبوت وإن كان التاريخ غيرَ مُصَدِّق لِما جاء فى أساطيرهم حول قِدَم أصلهم، هم عِنوانُ أجمل عروق الهند وأصفاها، فالراجبوت ذوو قدود هيفٍ عالية وجلود سُمْر نَيِّرَة وعيون نُجْل[1] شُهْل[2] وأنوفٍ قُنْوٍ ومناشقَ لطيفةٍ ذاتِ زَجٍّ وشعورٍ سُود كَثَّة متجعدة ولِحًى طويلة جثيلة[3]، والراجبوت يُطلقون فى الغالب شعورَ الوجنتين والعارضَين بإفراط ثم يجمعونها فى أعلى الرأس ليعقدوها هى وبقية الشعور، وتتصف نِسْوَة الراجبوت بالحسن الرائع على العموم .

وبين الراجبوت تَجِد أقدم طبقة للأشراف فى العالم، فراجه أودى پوروحدَه هو الأمير الذى يمكنه أن يفتخر بأنه سليلُ أجدادٍ يملكون منذ أكثر من ألف سنة .

ونجهل تاريخ قدماء الراجبوت جهلَنا لتاريخ ممالك الهند القديمة الأخرى، بيد أن ما ورد فى أساطير الهندوس من مفاخر أبطالهم وقتالهم المرهوب المسلمين وما عانَوْه من حصارٍ مخيف ولا سيما حصار جتور الذى حرق النساء فى أثنائه أنفسهن بالألوف حَذَرَ الأَسْر والذى فَضَّل الحماة فى أثنائه أن يُقتَلوا جميعهم على التسليم، يثبت قيمتهم التالدة[4]، وللراجبوت أن يزْهُوا بشجاعتهم إزاء جموع الهندوس ذوى الجُبْن على العموم .

والمسلمون حينما استولَوْا على الهند وجدوا الراجبوت مقيمين بجميع مدن الشمال وبسهل الغَنج إلى منطقة البنغال الحاضرة، فكان الراجبوت يملكون لاهور ودهلى وقنُّوج وأجودهيا الخ . وكانت المنطقة التى يملكونها ممتدةً فى الشمال من نهر السِّنْد

(١) النجل : جمع أنجل وهو الواسع — (٢) شهل : جمع أشهل وهو من يشوب سواد عينه زرقة — (٣) جثل الشعر يجثل جثالة فهو جثيل : كثر والتف واسود — (٤) التالد : القديم وعكسه الطارف

ونهر ستلج إلى نهر جمنة بالقرب من أغرا وفي الجنوب إلى جبال وِندهيا ، أى كانت شاملةً لجميع شمال الهند الغربي .



فلما دُحِر الراجپوت من البقاع الخصيبة التجأوا إلى منطقة راجپوتانا الحاضرة التى هى أمنع من تلك وأسهل منها دفاعاً .

وتقسم أملاكهم إلى تسع عشرة دويلةً يملك الراجپوت منها ستَّ عشرةَ ، ويقوم بشؤونها رؤساؤهم ، ودُوَيْلةُ أودى پور هى أهمُّها .

١٦ — مسلم من دهلى يصنع وشاحا

والراجپوت حاربوا المسلمين بنجاح إلى القرن الرابع عشر ، وهم لم يصبحوا مهدَّدين بجِدّ إلا بعد أن خسِروا عاصمتهم چتوره وهم لم يندمجوا ، مع ذلك ، فى الدولة المغولية إلا فى عهد الملك أكبر ، ولم يكن هـذا الاندماج ، مع ذلك ، إلا صورةً ، لا حقيقـةً ، ما حافظوا على استقلالهم الناقص ، فالملك أكبر ترك لهم ، بالحقيقة ، نُظُمَهم منعماً على زعمائهم بمراتبَ عاليةٍ فى جيوشه متزوجاً ببنات منهم ، ثم سار خلفاؤه على سُنّته فى ذلك .

ودستور دويلات الراجپوت القديم وحدَه هو الذى كُتِب له البقاء مع تقلبات السياسة فى غضون القرون ، وعاداتُ الراجپوت وحدَها هى التى لم تتحول بالمؤثرات الأجنبية ، فنحن ، إذ نبحث فى هذا الدستور وهذه العادات فى فصل آخر ، نرْسُم

حضارة قسم كبير من الهند حوالىْ القرن العاشر من الميلاد ، فمن العبث ، إذَنْ ، أن نُفَصِّل هنا أمور ذلك الشعب الشامل للنظر .

وتشتمل منطقة راجپوتانا ، خلا أولئك الراجپوت والجات الذين تكلمنا عنهم آنفاً ، على شعوب من شِباه الوحوش جديرةٍ بالدرس كما يأتى :

شِباه الوحوش من سكان راجپوتانا : البهيل والمينا ، الخ . - يُعَدُّ البهيل الذين يقيمون براجپوتانا وبالبقاع المجاورة لها من أقدم عروق الهند ، ومن البهيل نزع التورانيون شمال غرب الهند فاقتسم هذان الشعبان وادى السِّند زمناً طويلاً ، ولم يكن دحر البهيل إلى الجبال إلا نتيجة الغزو الراجپوتى الآرى الذى وقع فى القرون الأولى من الميلاد ، كما يرى بعض المؤرخين ، ولم يُقْهر البهيل الغِلَاظ المتوحشون من غير مقاومة مع ذلك ، والبهيلُ أَلْقَوا الرعبَ ، عِدَّةَ قرون ، فى قلوب الراجپوت بانقضاضهم عليهم من ملاجئهم العالية ، ولا يزال ملوك الراجپوت يحافظون منذ القديم على مظهر التولية من بهيلىّ كرمز احترام للبهيل الذين كانوا سادة البلاد الأقدمين ، وذلك بأن يَجْرَح البهيلىُّ الهمجىّ إبهامَه وأن يُلَطِّخ بما يسيل من دمه جبينَ الأمير الجديد .

وعلى ما يدلّ عليه هذا الرمز من اتفاق ذينك الشعبين يمقت البهيل الهندوس ، والبهيلُ يغتنمون ، على الدوام ، فرصة محاربة الإنكليز للراجپوت فيُوَجِّهون إلى هؤلاء سلاحهم ، والبهيلُ عَرَضوا فى سنة ١٨٥٧ ، حين اشتعلت ثورة السباهى ، خِدَمَهم على الحكومة البريطانية .

وليس البهيل عرقاً خالصاً ، فمن البهيل الذين يَتَرَجَّح عددهم بين مليونين وثلاثة ملايين لا تجد سوى مليون واحد ظلّ صافياً تقريباً ، وترى البهيل يفتخرون

بصفاء عرقهم مع أن العكس هو الأجدر ما بدا البهيل الذين تجرى فى شرايينهم دماء تورانية أنبلَ من خُلّصهم ، وهنا نُلْحِق بالبهيل شعبين مقيمين براجبوتانا ، وهما : الميَنا والمهاير ، فنقول : إذا كان العنصر الأصليّ غالباً فى البهيل فإن العنصر التورانيّ مساوٍ للعنصر البهيلى فى المهاير غالبٌ فى المينا .

والمنطقة التى استقرّ بها البهيل بعد أن طُرِد بعضهم من راجبوتانا هى منطقة جبلية كثيرة الغاب ممتدةٌ من شمال جبال كَهات الغربيـة إلى جنوب جبال آراولى ومن خليج كَمبى إلى الجزء الأوسط من وادى نَرْبَدا ووادى تابتى ، وفى جبال وِندهِيا وسات بورا ، على الخصوص ، مأواهم ، وفى هـذا المأوى بدَوْا مستقلين إلى الآن ، وعديدُهم كثيرٌ فى جبـال كجرات وفى وادى ماهى النهرِ الصغير الذى يسيل إلى خليج كَمبى .

والبهيلُ سُودٌ قِبَاح شُوهٌ فُطْسٌ ذوو عيون صغيرة زُوْر[١] ووجنات نائتة قليلاً وقاماتٍ مربوعة مع خفة وقوة ، والبهيلُ عُرَاة ولا يَضَعُون سوى فُوَط حول الـكُلَى ومَرَسٍ حول شعورهم السُّود المُلْسِ الطويلة ، ويتألف سلاحهم الابتدائىّ البسيط من حِراب ومزاريقَ ورماحٍ وأقواس وسهام يرمونها بمهارة فيقابلون بهـا حتى الأنمار ، ويعيشون من صيد البرّ والبحر ويَسُمُّون مجارىَ المياه بِرُبِّ اليَتُوع فيُدَوِّخُ السمك بذلك فيسهل إمساكه .

ويَعرِف البهيل النظام القَبَلِىّ السياسىّ الفطرىّ كما يعرفه الراجبوت وتقوم القبيلة من الوجهـة النظرية على وجود جدٍّ واحد لجميع أفرادها ، ويندُر ، حتى عند

(١) الزور : جمع أزور وهو المائل ، الناظر بمؤخر عينيه .

الآريين ، دخولُ بيضة[١] القبيلة ، ما لم تقض ضرورة الجوار أو ضرورة الدفاع بأن يدخل القبيلةَ غرباء بطريق الوَلاء ، وكلما سَهُل أمر الوَلاء غدا النظامُ القَبَلِيُّ مَرِناً متحولاً إلى النظام الشعبيّ ، وأبواب القبيلة مفتوحةٌ عند البهيل بعض الفتح ، فإذا ما أتى تورانيٌّ أو راجبوتيّ من أهل السهل مُنكَراً فأُطِلَ[٢] دمه التجأ إلى البهيل في الجبال فتقبلوه بقبول حسن ، ما كان معنى كلمة البهيل « الأطِلّة[٣] » .

والزواج بين أفراد القبيلة الواحدة مُحَرَّم عند البهيل ، وعلى الغريب الذى يودُّ الزواج أن تتبناه إحدى القبائل ، فإذا تمَّ له ذلك سَهُل عليه أن يتزوج فتاة من قبيلة أخرى ، والفتاة إذا ما سُبِيت[٤] لم يُفَكِّر المُستَبون في تزويجها بأحدهم قبل أن تُعَدَّ واحدة من إحدى القبائل التى لا يجوز لها أن تتزوج بواحد منها ، فمثلُ هذا اليُسْر الممزوج بالعُسْر يثبت في وقت واحد ميلَ البهيل إلى تكوين أنفسهم ، مثل جيرانهم الأكثر منهم تمدناً ، ودرجةَ عروقهم[٥] في البداوة الفطرية .

ونكاحُ البهيل يتمّ ببساطة ، فالعروسان يتواريان بضعة أيام في الغاب ثم يعودان فيعربان عن اقترانهما ، ويندرُ وقوع الطلاق عند البهيل .

ويُعْرَفُ البهيل الذين يسكنون قرًى محصنةً بالبال ، ويُعْرَفُ ساكنو هذه القرى بالپلارى عند أهل السهل ، والپلارى ، فضلاً عن البهيل والمهاير والميتا ، ليسوا من الأنجاس عند الهندوس مع أنهم لا ينتسبون إلى طائفة .

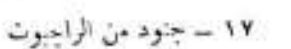
ودينُ البهيل فِطْريٌّ فطرةَ أخلاقهم وعاداتهم ، فالبهيل يعبدون الشجر ويضعون في أسفله ألواحاً صغيرة لتكون هياكل تُخَضَّبُ بالدم أو بِمَغْرَة[٦] رمزاً إلى الحياة ،

---

(١) بيضة القبيلة : ساحتها ـ (٢) أطل دمه : أهدره ـ (٣) الأطلة : جمع طابل وهو الدم المهدور ـ (٤) سبي العدو يسبيه سبياً واستباه : أسره (٥) عرق في الأرض يعرق عروقاً : ذهب فيها ـ (٦) المغرة : الطين الأحمر يصبغ به

ويُسكِنُ البهيل احتراماً عظيماً للإله القرد هنومان ، وهذا ما يستوقف النظر ما كان ذلك القردُ الوهميُّ رفيقَ البطل الآريِّ راما فأعانه على فتح الهند ونَزْعِها من أهلها الأصليين .

ونَعُدُّ من سكان راجپوتانا شِباه الوحوش المهاير والمينا الذين تكلمنا عنهم آنفاً ، فهؤلاء هم الحلقتان اللتان يتَّصل بهما البهيل المتوحشون بالجات المتمدنين ، ويقيم المهاير والمينا بجبال آراولى الواقعة فى راجپوتانا ، ويبلغ عددهم مئات الألوف ، ويُنشئون ، كالبهيل ، قُرًى منيعة ، ويحافظ أكثرهم على عاداتهم فى النهب والسلب مع حُثالة الجات والراجپوت فيؤدى هذا الاختلاط إلى تحسين مثالهم الذى يقترب عند المينا من مثال الجات .



١٧ — جنود من الراجپوت

ويسير المهاير والمينا إلى الحضارة قُدُماً ، فقد أخذوا يحرُثون الأرضَ ويعتنقون البرهمية ، ولكنهم لا يمارسون شعائر هذه الديانة إلاَّ باعتدال ، فتراهم يُقدِّسون الشجر والهياكل الحجرية والحديد كإخوانهم البهيل ، وهم يتكلمون بلغة هندية مع أن بهيل الوسط يتكلمون بلغة مشابهة للغة الغوند .

٦ ــ سكان الكجرات وشبه جزيرة كاتهياوار

تمتدُّ الكجرات إلى جنوب راجپوتانا وتشتمل على قسم من اليابسة غنيّ خصيب حافلٍ بالمدن الزاهرة كالمدن : بَرُودَة وسُورَت وأحمد آباد ، وعلى قسم ساحليّ جبليّ وعلى شبه جزيرة كاتهياوار التى يفصلها خليج كَمبى عن ذلك القسم .

ويسكن الكجرات ، التى يُبَلِّلُها البحر ويقصدها التجار من جميع أنحاء الدنيا ،خليطٌ من الآدميين،ففى الكجرات تجد زُمَراً من البراهمة المراتها والراجپوت والجات ، وتجد فيها الجَيْنيين ، وتجد فيها أناساً من السنيين والشيعة والمجوس والدراويدِ والكول .



١٨ ــ بندت هندوسى من أودى پور

ولا تزال الجبال الواقعة فى شبه جزيرة كاتهياوار ملجأً لشعوب متوحشة ، على حين ترى هندوساً من أتباع المذهب الجَيْنى يسكنون مدنها وشواطئها ، وهذا المذهب المشابه لِلبُدَّهِيَّة هو أكثر مذاهب الهند حباً لإقامة المعابد للآلهة ، فَتُبْصِرُ شبه الجزيرة تلك حافلةً بنماذجَ رائعةٍ لفن البناء الهندوسى ، فتشاهد فوق جبل شترونجَيا الواقع فى القسم الجنوبى الشرقى مدينة مؤلفةً من معابدَ للعبادة لا من منازلَ للإقامة ، فإذا قضى المؤمنون مناسكَهم تحت قِبابها الجبليـة وبين أعمدتها المزينة بأنواع النقوش اللطيفة نَزَلوا إلى مدينة پالى تانا الواقعة فى سفح ذلك الجبل المقدس .

وأكثرُ الناس فى السكجرات من أتباع طريقة وِشْنَوِيَّة ذاتِ طقوس عجيبة ، فتقوم هـــذه الطريقة على تقديس هؤلاء المؤمنين لثلاثين كاهناً كبيراً يُدْعَوْن بالمهاراجوات تقديساً مطلقاً مع قيامهم بأمور معايشهم ، فعلى الـكاتب الهندوسىّ وناشرِ صحيفة « الإينديَن سبكتتر » السيد ملبارى أحيلُ القارىءَ ليعلم طِراز حياة هؤلاء الـكهنة وسذاجة مريديهم ، قال السيد ملبارى :

« إن المهاراجه هو الـكاهن الذى يُؤَلَّه ، أى الذى يَتَجَسَّد فيه وشنو كرشنا فيَقِف عليه كلُّ وشنوىّ تقىّ جسمَه وروحه ومُلْـكه وأهله وتوابعه .



١٩ — أناس من المينا (قبيلة شبه متوحشة فى راجبوتانا)

« .. وإليك بعض ما يَجْبِيه المهاراجه من عُبَّاده الأتقيـاء : خمس روبيات (نحو عشرة فرنكات) للتشرف برؤيته ، و ٢٠ روبية للمسه ، و ٣٥ روبية لغسل

رجليْه ، و ٦٠ روبية للجلوس بجانبه ، و ٥٠ — ٥٠٠ روبية للثَّواء بغرفته ، و ١٣ روبية ليتفضَّل فيضربه بسَوْطه ، ١٩ روبيةلشربه من غُسَالته أو غُسَالة ثيابه القَذِرة و ١٠٠ — ٢٠٠ روبية من النساء اللائى يَقْضِين معه روحَ اللذة » .

وأبدى ذلك الـكاتب الهندىُّ حول « قضاء روح اللذة » تعجبه من إغضاء رجالٍ غَيارَى ونساء مُحْصَنات العيونَ عن أعزِّ المشاعر ، وأرى، معذلك، أنه ليس فى الأمر ما لا يمكن إيضاحه مع وَقْفِه للنظر ، فقد ظلَّ الإيمان الدينى أقوى العوامل فى توجيه النفوس على الدوام ، فهذا الإيمان يُعَلِّم الإنسان أن يحتمل كلَّ شىء وأن يقتحم كلَّ شىء ، وبالإيمان استقبل الشهداء ضاحكين لَهَب النار وبالإيمان أقام الفاتحون أعظم الدول .

الفصل الثالث

عروق الهند الوسطى والهند الجنوبية

---

(١) المراتها — أهمية المراتها فى الهند — نظام بلديات المراتها السياسى — (٢) صفات العروق الدراويدية العامة — انفصالهم عن عروق الهند الأخرى — أهمية جماعة التمول — (٣) سكان كوكن — (٤) سكان شواطئ ملبار : النايَر الخ . — أهمية البحث فى النايَر لتمثل بعض تطورات الأسر الأولى — تعدد الأزواج وتعدد الزوجات — الأمومة عند النايَر — شأن رب الأسرة الضعيف — قدم تعدد الأزواج من الذكور فى الهند — (٥) سكان نل غيرى — هؤلاء عنوان مراحل البشر الأولى — التودا والبداغا الخ . — (٦) سكان جنوب الهند الوحوش — (٧) سكان الولايات الوسطى أو غوندوانا — عزلة غوندوانا منذ القديم — غوندوانا منطقة ظلت منيعة فى وجه الفاتحين على الدوام — الغوند — طبائعهم وعاداتهم ومعتقداتهم وقرابينهم البشرية — التنبؤ بالبلايا والآفات — عبادة النمر والأفعى — نظام الأسرة والنظام السياسى عند الغوند — (٨) سكان أمركن تك وجهوتا ناغبور وأوريسة الخ . — السكوندو السكول الخ . — عادات السكول — الخلاصة — تنوع عروق الهند وما بين هذه العروق من عظيم الفروق .

لقد سِرْنا فى وصف العروق مع التقسيمات الجغرافية التى أوضحنا أمرها فى فصل « البيئات » ، فذكرنا صفات شعوب الهندوستان الأساسية فانتهينا إلى شعوب الدَّكَن الواسع الشامل للمنطقة الممتدة من نهر نَرْبَدا ونهر سون إلى رأس كُمارى .

وفى الدَّكن سندرس قبل كلِّ شىء أمر المراتها الذين نستطيع أن نَصِلهم وحدَهم بالغُزاة رأساً ، ثم نبحث فى العروق الدراويدية القديمة التى تختلف عن السكان الذين وصفناهم آنفاً ، ثم نختم الفصل بدرس أحوال الوحوش المقيمين بالجبال الوسطى والذين يُعرف أكثرهم بالكول ، فدرجةُ هؤلاء هى الدنيا بين عروق الهند ، وهم أقدم ممثلى الجنس البشرى فى تلك الديار .

١ — المراتها

يشتقُّ اسم المراتها من كلمة مهاراشترا التى تَعْنِى « المملكة الكبرى » ، فهذا الاسم والعرق الذى يدل عليه قديمان فى الهند إلى الغاية ، فلا نستطيع أن نُعيِّن بالضبط حدود مهاراشترا القديمة ولا أصل الشعب الذى كان يسكنها ، ففى القرن السابع عشر فقط ظهر المراتها على مسرح التاريخ فمثَّلوا دوراً مهماً ففتحوا قسماً كبيراً من الهند فأقاموا دولة أهلية .

واليومَ يتجمّع المراتها ، وعددُهم نحو عشرة ملايين ، فى شمال الدَّكن الغربىّ بين جبال كهات الغربية وجبال سات پورا ويقيمون بالمنطقة الجبلية المحتوية على منابع نهر غوداوَرى ونهر كرشنا ومجاريهما العليا ، ويعتنقون منذ القديم الدِّيانة البرهمية فيُقَسَّمون إلى طوائف ، وهذه الطوائف دون سَمِيَّاتها فى الشعوب الأخرى مرتبةً ، ولا يَعُدُّ الهندوسُ المراتها فى مجموعهم إلا من طائفة الشودرا ، وفى هذا دليل على أن المراتها أبناء عرقٍ غُلِب فى غابر القرون وأُذِلّ ، ومثالُ المراتها تورانىٌّ من بعض الوجوه ، شأنَ الشعوب المتوالدة ، فالمراتها وسيطو القامات صُفْر الجلود بارزو

الوَجَنات قليلًا صغيرو العيون مرتفعو طرف الأنوف واسعو المناشق ، وتتصف نسوتهم بالتماع جلودهنَّ وشعورهنَّ السود الطويلة الكَثّة .

ويؤلِّف المراتها جامعةَ بلديات مستقلة يدير شؤون كلٍّ واحدة منها رئيسٌ منتخب يُدْعَى پَتيل ، ويتألف من نواب البلديات مجلسٌ وطنيٌّ يُسَمَّى پَنْجَايَت ، وبلغ المراتها من الارتباط فى نُظُمهم القديمة ما حَمَل مَلِكَهم لقبَ پَتيل بعد أن أقاموا مملكةً وما ظلّت السلطةُ العليا قبضةَ ذلك المجلس الوطنى .

ونذكر بجانب مراتها كَهات الغربية أولئك ممالكَ مراتها الهند الوسطى ، فلا يُقيم بهذه الممالك أناس من عرق أولئك فى الحقيقة ، بل تملكم ، فقط ، أُسَرٌ من أولئك لا تزال محافظةً على نفوذ قدماء الفاتحين وسلطانهم ، ومملكةُ غواليار هى أهمُّ هذه الممالك الممتدة مئات الكيلومترات بين نهر جَمْنَة وجبال وِندهيا فى راجپوتانا وبُنديل كَهند وكجرات ، وينتسب مَهَارَاجَة غواليار إلى أُسرة سِنْدهيا الشهيرة التى استطاعت أن تقيم دولة زاهرة على أنقاض الدولة المغولية وأن تقاوم الغزو الإنكليزى ببسالة وأن تحافظ على عرشها حين تَدَاعِى العروش الأخرى فى كل ناحية .

وأسرة سِندهيا من أصل وضيع ، فهى سليلة راناجى سِندهيا الذى كان سنة ١٧٢٥ يقوم فى قصر پيشوا بونا بحمل الخِفَاف فعظم أمره بالحيلة والدهاء ، ثم أضحى ولداه مادَهُوجى ودولت راو بَطَلَى استقلال الهند ، فقاما بجهود جَبَّارة لجمع كلمة أهل البلاد ضدَّ غُزاة الإنكليز .

والأَفّاقُ شيواجى هو الذى أسَّس دولة المراتها وجعل من تلك البلديات الزراعية الصغيرة المجهولة الأمر أمةً محاربة مرهوبة فى القرن السابع عشر ، والأَفّاقُ شيواجى

هذا هو الذى ألّف عِصاباتٍ ذواتِ بأسٍ شديد فسارت هذه العِصابات من الدَّكَن وألْقت الرُّعْب حتى فى المدن الواقعة على مصب الكَنْج وهدمت الدولة المغولية ، ولا تَجِد اليوم شبهاً بينها و بين حَفَدتها خلا راجوات غواليار و إندور المحافظين على بعض ما كان لأجدادهم من نفوذ .

٢ — صفات العروق الدراويدية العامة

يَبْدُو الدراويد ، الذين نبحث فى أمورهم الآن ، نتيجةَ توالد سكان الهند القطر بين الأصليين والغُزَاة الصُّفْر الذين أتَوْا من شمال وادى برهابوترا الشرقى ، ثم من توالد جميع هؤلاء والغزاة التورانيين الذين جاءوا من الشمال الغربى ، ويُقسَّم الدراويد ، بحسب النسبة التى تَغلَّب بها عنصرهم الأساسىُّ ، إلى فرعين : الدراويد الأصليين الذين هم نتيجة التوالد الأول والدراويد المُوَلَّدين الذين هم نتيجة توالد أولئك والتورانيين .

و إذا نظرتَ إلى القطر الهندىِّ الواقع جنوب غوداوَرى وجدته دراويدىَّ الطابع ، ولا يزال حَفَدة الدراويد الأصليين يُرَوْن فى المناطق الجبلية التى التجأ إليها أجدادهم بالتدريج فِراراً من تأثير المغازى الأجنبية .

وعلى ما بين الدراويد الأصليين والدراويد المُوَلَّدين من تفاوت تُبْصِر فيهم كلِّهم صفاتٍ عامةً كاحمرار جلودهم وضعف شعورهم واسودادها ومَلاستها وضخامة أنوفهم واتساع مناشقهم وسفول قاماتهم وشكل جماجمهم التى هى دون المستطيلة ، وتُبْصِر فيهم عباداتٍ فطريةً واعتقاداتٍ خرافيةً وطبقاتٍ طائفيةً وما إلى هذه من الأمور التى عرَفوها قبل غزو الآريين لبلاد الهند على ما يحتمل ، ولمَّا قاتلهم الآريون

كان عندهم قليلٌ من التمدن كما دلّت عليه أقاصيص الرامايانا ، فكانوا على علم بصناعة المعادن والخزف وإنشاء السفن وحَبْك النُّسُج وفنِّ الكتابة .

ولا علاقة للغاتهم بالسنسكرت ، وقد درسها علماء أوربة قبل اكتشاف السنسكرت ، ولتلك اللغات عِدَّةُ لَهَجات ، وتُقسَّم إلى أربعة فروع أساسية لكلٍّ واحدٍ منها نَحْوٌ خاصٌّ وآدابٌ خاصة ، وهذه الفروع الأربعة هي : فرعُ الكَنَرِى ويتكلمون به بالغرب في جبال كَهَات الغربية وكوكن وملبار ، وفرعُ المَلَيَالَم ويتكلمون به في ساحل ملبار على الخصوص ، وفرعُ التيلغو ويتكلمون به بالشرق في وادى غوداوَرى ووادى كِرِشنا ، وفرعُ التمول ويتكلمون به بالجنوب في ساحل كوروميندل ورأسِ كُمارى وقسمٍ من جزيرة سيلان .

وتجد بين الدراويد الذين يقطنون في جنوب الهند من وادى غوداوَرى إلى رأس كُمارى أناساً من الهمج مقيمين ، على العموم ، بالمناطق الوعرة التى دَحَرتهم المغازى المتتابعة إليها ، فهؤلاء هم عنوان السكان الأصليين الخُلَّص أو الذين توالدوا هم والصُّفرُ قليلاً .

فإذا طرحت هؤلاء جانباً رأيتَ في هَضْبَة الدَّكَن الواقعة في جنوب نهر غوداوَرى طبقاتٍ كثيفةً من العرق الدراويدى يبلغ عدد أفرادها خمسين مليوناً .

ولا يُقسَّم أولئك الدراويد إلا من ناحية اللغة مع بُعْدِهم من التجانس المطلق، وجميعُ الدراويد يسايرون تقدم الحضارة منذ زمن طويل ويَدِينون بدين البراهمة ويَبْدون من طائفة الشودرا ، والهَمَج ، على العكس ، يَعُدُّهم الهندوس نُفَايةَ البشر ومنبوذى الطوائف وطريدى العدل وأطلّةَ الدم .

والتمولُ المقيمون بشرق الهند الدراويدية وبوسطها أمْدَنُ الدراويد ، وبين

التمول تقوم المدينتان مدراس و بون دى چيرى ، وفى مدراسَ تُطبع كتبُ التمول بلا انقطاع ، وما فى لغة التمول من الكلمات الكثيرة والتراكيب الوافرة يجعلها ذات آداب ، ويتكلم بهذه اللغة ١٥٠٠٠٠٠٠ شخص ، ويتمُّ لها الغَلَب على الكَنَرى والتيلغو الدراويديتين ، وللتمول كتبٌ وُضِعت منذ ألف سنة .

وأمةُ التمول ذات نَجْدَة وشهامة و إقدام واستعداد للتقدم ، وعليها يتوقف مصير الهند الجنوبية على ما يحتمل .

و يعيش التيلغو فى ساحل كورومينذل سائرين إلى الجنوب ، والتيلغو دون التمول مدنيةً ولهم ما لهؤلاء من العَدَد.

والمَلَيالَم ، ويتكلمون بإحدى اللَّهَجات الدراويدية الأربع المذكورة آنفاً ، يسكنون ساحل مليار ، والهندوسُ الذين هم فريقٌ منهم هم ، على عكس التمول ، هاربون من التمدن ومتمسكون بعاداتهم القديمة .



٢٠ ــ ساپان هندوسيان فى جوار مدراس

وتقع كَرْنَاتَك أو « الأرض السوداء » فى وسط الدُّكَن ، وتشتمل على مملكة ميسور وعلى جزء من مملكة نظام ، ففى تلك المِنطقة يتكلم الناس بلغة الكَنَرى التى هى ثالثةُ اللغات الدراويدية الأدبية ، والوسط هو « البلد الأسود » الحقيقىّ حيث يتجمَّع التراب الأسود المُتفتِّتُ من الحجارة البركانية، بفعل سيول الرياح الموسمية وفيضانات الأنهر ، والصالحُ لزراعة القطن .

ونحن ، بعد أن درسنا صفات شعوب الدراويد ، نبحث فى الجماعات المتفرقة التى هى بقية الأهالى الفطريين الخُلَّص كما قلنا .

٣ — سكان كوكن

يُقصَد بكلمة كوكن جميعُ الساحل الممتدّ من خليج كَمْبى إلى جنوب غوا حيث يبدأ ساحل ملبار ، ويُطلَق اسم كوكن أحياناً على منطقتين : شمالية وجنوبية ، وإلى ذلك البلد المتوجِّه إلى بحار الغرب وَصَل منذ زمن طويل تجار وأفّاقون من أوربة وآسية وإفريقية ، فكان ما نرى من اختلاط سكانه ، ولا تَجِد فيه جماعةً ذات مثال جُثْمانىّ خاصّ يستحق الذكر ، وهذا إلى أنك تشاهد فى جوانب جبال كَهات بعض القبائل الوحشية التى تسكن الغابَ فيتصف أفرادها بخِفّةٍ يَنْمُلُون[1] بها فى الشجر كالقِرَدة ، فينتفعون بها فى استغلال النخل التى هى هنالك مصدرُ ثروةٍ فيكون لهم بها ما يأكلون وما يلبَسون وما يسكُنون بما يَعْصِرون منها وما يحتطبون وما يجتنون[2] وما يَغْزِلون وما يَخْصِفون ، وإلى أصحاب الأيك[3] أولئك حاول تيبو صاحب أن يُدْخل عادة لُبْس الثياب ذاتَ يوم ، فوَزَّع عليهم بُزُوزاً[4] فتأملوها مذعورين من غير أن يَرَوا استعمالها ، فخَرَّ أحد زعمائهم باكياً ساجداً على قدَمَىْ ذلك السلطان وهو يقول : « مولاى ! دَعْنا نَقتَدِ بآبائنا كما تقتدى بآبائك » .

ونساء التير يَسْتُرْنَ ما تحت السُّرَر ، ومن السُّنَّة عندهن أن يُخْفِين صدورهن ، فلم تستطع حواضن الإنكليز اللائى يَتَّخِذْنَهُنَّ مراضعَ أن يَحْمِلْنَهُنَّ على ترك العُرْى كما عَجَز تيبو صاحب من قبلهنّ عن إلباس أولئك الهمج من زُرّاع النخيل ثياباً .

---

(١) نمل يشمل فى الشجر نملا : صعد — (٢) اجتنى الثمر : تناوله من شجرته — (٣) الأيك : الشجر الكثير الملتف ، الواحدة أيكة — (٤) البزوز : جمع بز وهو الثياب .

٤ — سكان شواطىء ملبار (الناير ، الخ .)

لشعوب الهند المختلفة نظمٌ وعاداتٌ تَتَمَثَّل بهـا ما جاوزته الأمم المتمدنة من المراحل والأطوار قبل أن تَصِل إلى حالها الحاضرة ، فنحن ، حين نَجُوب شِبْهَجزيرة الهند ، نُبْصِر جميع أدوار الحياة التى مَرَّ أجدادنا منها .

والناير القاطنون فى ساحل ملبار يزاولون بعض تلك النُّظُم الفطرية التى عاد الغرب لا يعرفها فى غير الـكتب ، فاليومَ يستطيع الباحث أن يبحث عنـد الناير فى نظام الأُمُومَة كما كان فى فجر التاريخ .

دَلَّت المباحث الحديثة التى عَرَضْناها فى كتابنا «الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما» على أن نظام الأُمومة أولُ نظام ظهر بعد الدور الذى كانت تُعَدُّ فيه جميع نساء القبيلة وجميع أولادهن ملكَ جميع رجال القبيلة ، فنظام الأُمُومَة ذلك هو أصـل الأسرة ، وما كانت الأُسرة لتنشأ بغيره ، ونظامُ الأُسرة ذلك يجعـل الأمَّ زعيمة أولادها ويمنحهم حقَّ وراثة اسمها وأموالهـا فحلَّت المصالح الفردية القوية بذلك محلَّ المصالح القَبَلِيَّة الضعيفة .

وفى أوائل القرن السابع عشر من الميلاد زار فرنسوا پيرار ساحل ملبار فوصف الناير بما يَقْرُب من حالهم فى أيامنا فذكر أنهم قوم محاربون مقـاديم ذوو عادات تُذَكِّر الإنسان بفرسان الدور الإقطاعى الأوربى فى القرون الوسطى لما وجده فيهم من حُبِّ الفخر وشدة البأس والحرص على الاستقلال وخلق الـكرم وحفظ الـكرامة واحترام النساء .

وكان الناير فى القرن السادس عشر من الميلاد أناساً أغنياء أقوياء يملـكون مُدُناً مهمةً ، فقـال ذلك السائح « يبدو زامورن (تمولى) فى كالى كت من أعظم أمراء

الهند وأغنامهم ، فهو يقدر أن يُجَهِّزَ ١٥٠٠٠٠ جندىٍّ من النابر .. ويُعَدُّ جميع ملوك النابر المقيمون بذلك الساحل من أتباعه فيطيعونه خلا ملكَ « كوچين » .

والنابر من الناحية الجُثمانية عرقٌ ذو مَسْحَة من الجمال ، فهم ذوو قامات ناهضة وهيئات مليحة وأطراف لطيفة وجلود سُمْر لامعة .

وتعنى كلمة النابر « السادة » ، ولا عجب ، فالنابر تتألف منهم طائفة أرستوقراطية مسيطرة على ساحل المليار ، والنابرُ ، وإن خضعوا ذات حين للبراهمة، لم يلبثوا أن رفعوا نير هؤلاء عنهم ، ولم يتركوا لهم غيرَ نفوذ روحى ، والبراهمة هؤلاء ليسوا من أصل آرىٍّ ، فلم يُعَدُّوا مساوين لبراهمة شمال الهند الآريين ، والنابرُ أنفسُهم ، وإن كانوا يزعمون أنهم من طبقة الأكشترية ، لا يراهم الهندوس إلا من طبقة الشودرا ، والنابرُ يَتَكَبَّرون على الأهلين الذين يحيطون بهم ويتعاظمون على النير الخاضعين لهم مع أن جلود هؤلاء أصفى من جلودهم ، والنابرُ يَمْقُتُون الموبلا الذين هم عرب مسلمون مُخَضْرَمون ، والموبلا هؤلاء على جانب عظيم من الشجاعة مع ذلك ، فتراهم لا ينفكون ، فى الغالب ، عن مقاتلة سادتهم قتالاً لا هَوادة فيه ولا رحمة .

وأكثر الأقوام الذين بلغوا شأواً فى التقدم جاوزوا نظام الأمومة الذى نراه فى النابر ، فلا تَجِد هذا النظام عند غير القليل من الأهلين كالكهاسيا القاطنين فى ولاية آسام فتكلمنا عنهم فى فصل آخر ، وكالنابر الذين نتكلم عنهم فى هذا المطلب .

ولا تَجِد فى القبائل العريقة فى الفطرة أثراً للنكاح ، فنسوةُ إحدى هذه القبائل مِلْكُ جميع رجالها ، فإذا تطورت هذه القبيلة قليلاً أخذتْ بنظام

الامومة ، شأنَ النايَر ، فقدت النسوة مُلْكَ قليل من الرجال وعُهِـد إليهن ّ فى إدارة الأسرة .

والزواج عند النايَر قائم على مبدأ تعدد الأزواج من الذكور ، ومن المحتمل ألا يكون بدء المظاهر التى تَسْبِقه أقدمَ من الزمن الذى صارت السيادة فيـه إلى البراهمة .

أجَلْ ، إن الزواج عند النايَر قائم على مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة ، ولكن أمَدَ هذا الزواج قصير فلا يزيد على بضعة أيام ، فالخطيب يجعل فى عُنق الفتاة قِلَادَة على ألا تَنْزِعَها منه ، ويدوم زواجها به ما قَبِلَتْ هذه القِلادَة وحافظت عليها ، فإذا مضت أيام سُرِّح مع جائزة فاسحاً فى المجال لأزواج آخرين كثيرين .

ولن تصبح الفتـاة النايرية مُلْكَ القبيلة بأسرها كما هو أمر القبـائل العريقة فى الفطرة، بل مُلْكَ عدد من أفرادها ، ولن يزيد عدد أزواج الفتاة عند النايَر عن أحد عشر رجلًا ، والفتاةُ النايرية هى التى تختـار أزواجها ليعملوا على دوام الأسرة ، والفتاةُ النايرية ، وهى تقيم مع إخوتها ، تَقْبَل أزواجها الكثيرين بالنَّوْبَة على أثر اقترانها بخطيبها الأول ، والأزواجُ هؤلاء يَغْرِزُون خناجرَهم فى باب الزوجة ليُعْلِم حضورُهم وليذْكر ما لهم من حقوق المُتْعَة ما ظَلُّوا ذوى حُظْوة .

ومن الطبيعى ألا يُنْسَب الأولاد الذين هم نتيجة تلك الاقترانات الموقتة إلّا إلى أمّهاتهم وأن يُسَمَّوْا بأسمائهن ما جُهِل آباؤُهم على العموم .

فالمرأة النايرية هى رَبّة الأسرة الحقيقيةُ ، وتمارس سلطان هذه الأسرة بمعونة ابنتها البِكْر ، ولا يعيش معها من الذكور إلّا إخوتها وأولادها ، فما يُسكِنُه الأولاد

الذين تُنَشِّئهم أمهم وأخوالُهم لأخوالِهم هؤلاء من الحب يَعْدِل الذى يُكِنُّه الأولاد لأبيهم فى الأمم الأخرى ، والأبناء إذ كانوا لا يتركون أخَوَاتهم تقريباً ، فإنهم يحملون لهنَّ من الوُدِّ ما لا يحملون لزوجاتهم ما كان زواجهم بهؤلاء لا يدوم أكثر من أيام .

ويسهل إدراك السرِّ فى تمثيل المرأة ، التى تُرَبِّى أولادها على ذلك الوجه فيرثونها ، دوراً أساسياً فى الأسرة ، وفى تلك الأسرة يَلِى الأولادُ درجةَ الخال والإخوةِ الذين يعيشون معها منذ عهد الطفولة ، ولا يكون للزوج غيرُ شأن ضعيف ما قام عمله على السَّكَن الموقت مع الزوجة وصولاً إلى دوام الأسرة ، وليس للمرأة من همٍّ سوى اختيار أقوى الرجال وأجملهم لنفسها ، وللمرأة حقٌ مطلق فى الاقتران بمن يروقونها ، على ألا يكونوا من طائفة أدنى من طائفتها حَذَرَ العار والفضيحة .

ومما لامِرْيَةَ فيه أن يكون بين أولئك المُوَلِّدين أناس من البراهمة لِما لهم من التقديس وقديم النفوذ ، فالبراهمة هؤلاء ينتقلون من بيت إلى بيت حاملين بذوراً من الدم الغالى ما يرتفع به مستوى العرق الذى يقترنون به .

وللرجال مثل حرية النساء عند النابر ، فلنا أن نقول إن النابر يمارسون نظام تعدد الزوجات ونظام تعدد الأزواج معاً ، وفقراؤهم ، فقط ، هم الذين يعملون بنظام تعدد الأزواج من الذكور ، فترى كثيراً من الإخوة أو غيرهم يتفقون على التمتع بالمرأة الواحدة ، وذلك إلى أن نظام تعدد الأزواج من الذكور شائعٌ فى عِدَّة مناطق من الهند ، ولا سيا فى مناطق أقصى الشمال القريبة من التبت وفى أقصى الجنوب حيث

القبائلُ القريبة المجاورة لمدورا ، وكان لِلْمَلِكَةِ بِكالِي كَت ، فى غابر الأزمان ، عشرة أزواج مختارون من البراهمة خلا زوجها المَلِك .

ويظهر أن نظام تعدد الأزواج من الذكور ذلك ، وهو مما لا يلائم مبادئنا المصرية ، عريقٌ في القِدَم ، فقد وَرَد فى كتاب مهابهارتا أن الإخوة الخمسة المعروفين بباندَوا تَزَوَّجُوا درويدى الحسناء « ذاتَ العينين اللتين هما كالسُّدْر » .

وإذا مات أحد النايَر وَرِثه أولاد أخته الكبرى ، لا أولاده ، وينتقل إرث الأم من بنت إلى بنت ، كما كان حال السلطة المَلَكية فى تراوَن كور ، والإخوة يستغلون أملاك الأم من غير أن يتملكوا منها شيئاً .

ويلائم نظام الأُمومة عند النايَر مزاجهم النفسىّ وطرق معايشهم ماحافظوا عليه منذ قرون مع اتصالهم بالمسلمين والنصارى المقيمين بساحل ملبار منذ زمن طويل ، ولم يَسْطِع الفتح البرهمى أن يقضى عليه .

٥ — سكان نِل غيرى

يسكن طَوْد[1] نِلغيرى أقوامٌ متوحشون مختلفٌ بعضهم عن بعض بسَحَناتهم ، ونتوصل بالبحث فى طبائعهم وعاداتهم إلى تَمَثُّل الحال فى القرون الخالية ، ويُقَسَّم هؤلاء الأقوام إلى خمس قبائل مختلفة : التودا والبداغا والكوتا والكورومبا والإيرولا .

ويسكن التودا قِمَّة الطَّوْد ، وهم أسنى من جميع أولئك ، وهم معدودون من الرُّعاة ويتكلمون بلغة كَنَرِيَّة ، ويُفْتَرَض أن يكونوا قد جاءوا من كَنَرا منذ ثمانية قرون ، ولا يزيد عددهم على ألف .

---

(١) الطود : الجبل العظيم ، الهضبة .

والبداغا هم مهاجرون أتوا من ميسور حوالى القرن السادس عشر ، ولا يختلفون عن سكان السهل إلا بأنهم دون هؤلاء حضارة ، وهم أكثر سكان ذلك الطود عدداً فيبلغ عددهم نحو ٢٥٠٠٠ ، وهم قومٌ زُرّاعٌ ، ويتكلمون مثل أولئك بالكنرية .

وتجد تحت ذينك القبيلين المعروق الأصل الكوتا والكورومبا والإيرولا الذين لا يزيد عددهم على ٣٠٠٠ ، فهؤلاء هم ، لاريب ، من بقايا الأهالى الأصليين ، وإلى أجدادهم يُعزى صُنع الأنصاب المشابهة لأنصابنا القديمة ، ويتكلمون بلهجات دراويدية قريبة من لهجات سكان السهل المتصلين بهم ، والكوتا عنوان العنصر الصناعى فى الطود ، ويمثّل الإيرولا الذين يقيمون بالغاب فى أسفل الطود أدنى مُثُل النوع البشرى .

والآن نبحث فى سَحَنات هؤلاء الأقوام الذين أشرنا إلى أصولهم وفى طبائعهم وعاداتهم .

التودا .ـ التودا هم ، كما ذكرنا ، أسنى سكان نل غيرى ، وهم يتصفون بطول قاماتهم وكثافة شعورهم السُود وكثاثة لحاهم الجَعْدة وغِلَظ شفاههم ، واستقامة أنوفهم على العموم ، وقَنَاها فى الغالب ، ورشاقة خُطاهم ، ولا نستطيع أن نلصِقهم بالمسج لدَعَتهم وطلاقة وجوههم ومَرَحهم ولطفهم وسلامة سرائرهم وعاداتهم السلمية



٢١ ـ تودى (نل غيرى) (استعيرت هذه الصورة والصورتان التاليتان من مجموعة بريكس)

وحسن الذوق فى ملابسهم وصفاء سَحَناتهم ، وتَعُدُّهم عنوان الهمجىّ المثالىّ ، وإن شئت فقل عنوان إنسان الطبيعة الذى رَاق وصفَهُ روسو ومن على مذهبه فى القرن الثامن عشر .

وتجىء كلمة تودا بمعنى الرُّعاة ، ولا يُعنَى التودا بغير رعاية مواشيهم ، وما فى نِل غيرى من المراعى الصالحة بُقيت أطيب القِطاع ، والألبانُ أهمّ ما يتغـذى به التودا ، وبلغ احترام التودا للأنعام درجة العبادة ، والبقرة عند التودا هى الحيوان المقدس كما هو أمْر البداغا ، والزَّرِيبَة هى كنيسة التودا ، ويُدْعَى كاهنهم بالپَلال أو اللَّبّان الأكبر ، ويرى التودا أن حِلاب البقر وصُنعَ الزُّبْد والجُبْن من أقدس الأعمال الدالّة على جلال خُلق من يتعاطاها ، ويعتقد التودا أن الإلاهة العليا هى بقرة مشهورة النَّسَب ، والحَـبْرُ الأعظم لدى التودا هو أقدر الرُّعاة فى فنّ تربية الحيوانات والعناية بها .

والبقرة ، وهى حيوان التودا المقدس ، تشترك فى جميع طقوسهم وترأس جميع حوادثهم المهمة ، فإذا وُلِد تودىّ جُعِل فى حِرْزِ القِطاع ، وإذا مات تودىّ عُرِض أمام جُثَّتِه بقر عشيرته وذُبحت اثنتان منها لتَقيماه فى ملكوت الأرواح ، ويحمِل عجلٌ اسمه بَسَاوَا خَطايا التودا فى بعض أيام السنة فيُطْرَد بالعِصِىّ إلى الغاب فيكون لهؤلاء القوم بذلك تزكيةٌ وتطهير ، وفى هذه العادة من المشابهة لأمر تَيْسِ العبريين ما لا يخفى على المتأمل .

ويَعْبد التودا أرواح الأموات ، خلا عبادتهم للبقر ، شأنَ الشعوب الفطرية ، فإذا قُعِص[1] أحدهم خُيِّل إليهم أن روحه تعود عَطْشَى الانتقام حائمة حول ما قُتِل به من

---

(١) قعصه : قتله مكانه ، أجهز عليه .

السلاح فيكون هذا السلاح المُضَرَّج محلَّ احترام لديهم فيحفظونه بين ذخائرهم ومَمَاخِضِهم وآنية زُبَدهم وقوالب جُبُنهم .

ومن خرافات أهل نِل غيرى الطريفة أن يَرَوْا بين الكوروميا ، أصحاب الأدغال الغِلاظ المتعودين الأبْخِرة الوبيئة والهالكين فى الأمكنة العَذِيَّة[١] ، سَحَرَةً ذوى قوّة لاحدَّ لها ، فإذا أصابت مصيبة أسرة تودية أو إذا اجتاح وباء سوائمهم بداغا استدعوا ، على عجل ، كوروممباوياً وابتهلوا إليه أن يَقِف الشرَّ الذى أحدثه ، فَلَبَّى ضَرَاعتهم وأخذ يُكثِرُ من الحركات والالتواء ، ثم ارتمى على الأرض زاعقاً صارخاً .

ويحترم التودا الشجر ، أيضاً ، احتراماً دينياً ، وبيان الأمر : أن نكاحهم ، وهو فطرىّ ، لا يكون شرعياً إلاّ إذا بلغ حَمْلُ الفتاة ، من غير عائق ، الشهرَ السابع للمرة الأولى ، فيذهب الزوجان ، إذ ذاك ، إلى الغابة كى يَقْضِيا ليلةً تحت شجرة جميلة من أشجارها جاعلين إياها حامية للطفل القادم ، فإذا وُلِد هذا الطفل أخذ أبوه وَرَقاً منها وثَنَاه على شكل قَدَح وصَبَّ فيه ماء قليلاً ثم بَلَّتْ شِفاهُ الأبوين والطفل به فَتَمَّ بهذا تأليف الأسرة حقاً .

وتَسْبِق بعض المظاهر النكاحَ مع ذلك ، فعند ما يختار الفتى فتاةً من عشيرته يُؤدّى إلى حميه القادم نقوداً ، فيضع حَمُوه هذا رجلَه على رأسه ويَعُدُّه ابناً له ، ثم يُؤتى بالخطيبة إلى بيتها الجديد لابسةً ثياباً فاخرة على صوت الأغانى ، فتسجد أمام زوجها فيضع هو والأقارب أرجلهم على رأسها ، ثم تُرْسَل لتبحث عن جَرّة ماء فإذا فعلت هذا الأمر اليسير قامت بشؤون المنزل خادمةً .

---

(١) عذا المكان يعذو عذواً : طاب ، كان بعيداً من الماء والوخم .

والنكاح الذى يقع على ذلك الوجه يَدْخُل دور التجربة ، ولا يُعْترف به إلّا فى الشهر السابع من الحَبَل الأول حين تَمِيس[١] الفتاة فى وليمة فاخرة عارضةً أمام الجميع تَغَيُّرَ قَدِّها فيَرْبِط زوجها بعنقها شريطاً يُدْعَى بتالى التاير .

والتودا من القائلين بتعدد الزوجات وتعدد الأزواج معاً ، وذلك بأن يتزوج رَهْطٌ من الإخوة رَهْطاً من الأَخَوات ، فيكون لكلٍّ زوجة أزواج إخوة ويكون لكلٍّ زوج زوجات أَخَوات ، فالفتى يكون بذلك قد تَزَوَّج مع زوجته أَخَوات زوجته كلما بَلَغْن مكتفياً بما تعهد بدفعه إلى كُبْراهن من المال ، ويكون لإخوته حق مشاركته فى زوجاته الأَخَوات على أن يدفعوا نصيباً مما اتفق على تأديته .

٢٢ ــ كوتاوى (تل غيرى)

والانتحار بسبب الحبّ ليس من النادر ، على ما يظهر ، عند أولئك الأقوام القطريين ، ولا سيما عند البداغا ، مع ما فى نكاحهم وطلاقهم من يُسْرٍ ، أقولُ هذا وأنا أرى ضرورة وضعه على مَحَكِّ النقد .

والأولاد يُوَزَّعون بحسب العمر على أزواج أمهم ، فأكبرهم يكون من نصيب

---

(١) ماس يميس ميساً : مشى وهو يتمايل ويتبختر .

الزوج الرسمىّ ، ويكون الولد الثانى من نصيب عمه الأكبر، ويكون الولد الثالث من نصيب عمه الثانى ، وهكذا .

وتَنْزِع هذه العادات الفطرية إلى الأفول عند التودا ، فالغنىّ منهم يشترى لنفسه زوجةً ، فأضحى أمر تعدد الأزواج من الذكور مقصوراً على طبقاتهم الدنيا .

والأولاد عند وفاة والدهم يقتسمون تَرِكَته بالتساوى مع احتفاظ أصغرهم ببيت أبيه على أن يَسْكن فيه نساء الأسرة ويَعُولَهنّ .

ولا يَعْرِف التودا من مبدأ التملك غيرَ ما يحتفظ به المرء لنفسه من بيت ومتاع ، فالأراضى عندهم مُشَاعة ، وهم لا يزرعونها ، بل تكون مراعىَ لمواشيهم ما أعْرَض التودىّ عن الفِلاحة .

ولا يعرف التودا من أمور الصيد شيئاً ، ولا يحملون سلاحاً لذلك ، ولا يُفَكِّرون فى الهجوم ولا فى الدفاع ، ويكتفون بصنع أبوابٍ أكواخهم واطئة جداً دربما لما قد يُعْرَضون له من الغزو .

٢٣ — رهط من الإيرولا (تل غيرى)

والتودا ، كالبداغا ، يسكنون القُرَى ، مع أن الكوتا والكورومبا يقيمون بخِصَاص (١) حقيرة ، ويقطن الإيرولا فى الكُنُس (٢) والاجحار (٣) وتحت الأشجار كالأيائل والظباء .

---

(١) الخصاص : جمع الخص وهو البيت من قصب أو ما إليه — (٢) الكنس : جمع الكناس وهو بيت الظبي — (٣) الأجحار : جمع الجحر وهو المكان الذى تحتفره السباع والهوام لأنفسها

البداغا . - لا تجد فى البداغا ما تجده فى التودا من حسن المنظر والأخلاق والكياسة والنُّبل ، فالبداغا أقصرُ قامةً من التودا وأشد سوادَ جلودٍ منهم ، والبداغا ذوو شعور قليلة ولِحًى مَعِرَة[1] وأنوف مُفَلْطَحة[2] وشفاهٍ غليظة ، ويتصف البداغا بالمراوغة والقسوة والشُّحّ وتعاطى الأفيون ، ويبدون أكثر الشعوب الخمسة التى تسكن نِل غيرى عدداً ، ويقومون بزراعة تلك المنطقة الغنية من غير أن يمنعهم ذلك من أن يكونوا رُعاةً ، وللبداغا عقائدُ مشابهة لعقائد التودا ، ويرتبطون فى مجموع عباداتهم فى دين البراهمة مع ذلك ، ويُقدّس البداغا لِنغًا ويعبدون شيوا فى صورة ثَوْر ، وفى نكاح البداغا ما فى نكاح التودا من يُسْرِ العَقْد وفيه ما فى نكاح هؤلاء من التعقيد فى عدد الزوجات والأزواج ، ويتماثل ذانك الشعبان فى الطقوس تقريباً ، ويختلفان ، مع ذلك ، فيما يدْخِلان إليها ، فى الغالب ، من مظاهر السرور والألم ، ويَشُوب تهانيَهما شهيقٌ وزفير ويتخلل رقصَهما نِياحَةٌ ونَحِيب ، ويقومون بجنائزهم مع سُكْر وعَرْبَدة .

السكورومبا والسكوتا والإيرولا . - تختلف هذه القبائل الثلاث عن القبائل المذكورة آنفاً من الناحية الإثنولوجية ، وتتمثل بها قدماء السكان الأصليين ، وتتصف بالضعف وبسواد الجلود وازْبِئْرار[3] اللِّحَى وخشونتها وصَوَف الشعور وبَرْمِها وغِلَظ الشِّفَاه واستواء الصدور وطول الذِّرْعان وقِصَر السِّيقان ، ووَجَد بعض السياح شَبَهاً عظيماً بين هذه القبائل وسكان أوسترالية الأصليين .

ويسكن السكورومبا أكواخاً كبيرة فى سفح الطَّوْد ، حيث يجتمع عِدّة أُسَر ، ويخاف البداغا والتودا من السكورومبا المساكين ويزدرونهم فى وقت واحد ، وقد

---

(١) المعر : القليل الشعر - (٢) فلطح الشيء : بسطه وعرضه - (٣) ازبأر : انتفش .

يُغمَى على نسوة البداغا والتودا ذُعْراً عند ما يُباغتهن أناس من الكورومبا ، ويُعَدُّ الكورومبا من السَّحَرَة لِما فى جيرانهم من السذاجة وسرعة التصديق فيُوسِعُون ضَرْباً أكثرَ من أن ينالوا نَشَباً[١] .

ويزاول الكورومبا مِهَناً كثيرةً قليلة الإنتاج كالعِرافة والسِّحر والغِناء مع الطَّواف ، ويَمْدَح أهل السهل الكورومبا أُجَراء ، ويعرف الكورومبا شيئاً من الفِلاحة ويُثِيرون الأرض بِعِصِىّ مُذَرَّبَة[٢] .

وليس الكوتا بأرقى من الكورومبا كثيراً ، ويعيشون مثلَهم عيشَ بُؤس ، ويعرفون عِدَّة مِهَن ، وتتألف منهم طبقة العمال بين أهالى الجبل ، ولا يقتنى الكوتا بسبب اتِّضاع حِرَفهم ، ويَتَضَوَّرون جوعاً على الدوام ، فلا يشبعون إلا فى رأس كلِّ سنة فيخلطون ما استطاعوا جمعه من القُوت فيلتهمون فى ثمانٍ وأربعين ساعةً ما تحتمله مِعَدهم منه .

ويجىء الإيرولا فى أدنى تلك الدرجات ، ويعيشون فى آجام رِزل غيرى ويتصفون بجلودهم السُّود وأذرعهم الطويلة وسُوقهم النحيلة وشعورهم الخَشِنة المُنْتَفشة وظهورهم الحَدِبة ، ويَتَنَفَّسون من هواء منطقة ترائى الوخيم النَّجس الذى مَرَنوه[٣] فأصبح ضرورياً طيباً لديهم ، فإذا ما غادروا ملاجئهم العَفِنة حيناً وتَنَشَّقوا نِسام[٤] التلال والسهول الصافية وهَنُوا وماتوا .

والمتوحشون المحيطون بالإيرولا يزدرونهم زاعمين أنهم يعيشون مع الأنمار وأن أولادهم يَشِبُّون فى حَيْص بَيْص بين صغار السباع .

---

(١) النشب : المال – (٢) مذربة : ذات حد – (٣) مرن الشىء : اعتاده وداومه –
(٤) نسام : جمع نسيم .

وللايرولا فضيلة واحدة ، وهى سلامة الطَّوِيَّة ، فمن المحتمل أنهم لم يبلغوا من الذكاء ما يقدرون به على الكذب ، فما يقولونه من كلام مجرد أصـدق مما يقوله البراهمة مع اليمين المؤكدة .



٢٤ ــ أمثلة من أهل الكيرات

وصناعة الخيزُران هى كل ما يعرفه الايرولا من المِهَن ، ويتألف غذاؤهم ، على الخصوص ، من الجذور والفواكه والحبوب البرية .

٦- سكان جنوب الهند الوحوش

تشتمل جبال أنامالا القائمةُ فى جنوب جبال نِل غيرى على قبائل وحشية مماثلة لتلك مع استثناء التودا كما ذكرنا آنفاً .

والكادر هم سكان جبال أنامالا الذين يمارسون الصيد ، ويزْعُم الكادر أنهم أمراء الجبال ، ويرَوْن من الشُّبْهة أن يزرعوا الأراضيَ ، وتُرِك أمر الزراعة إلى الملسار ، ويقوم البااليار بالرَّعْى والتجارة ، ويُرْخِى البااليار هؤلاء شعورَهم الكثيفة النافرة فتصِل إلى كُلَاهم فيكتسبون بذلك منظراً وحشياً ، ويرى علماء وصف الإنسان إلصاقَ هذه العروق بزنوج جزائر الملايو .

ولا تزال توجد جماعاتٌ وحشية من سلالة قدماء الدراويد فى جنوب الهند ، فهى تشابه الشعوب التى وصفناها فيما تقدم بمنظرها وعاداتها وأعمالها ودِياناتها الوثنية وعبادة الأرواح ، وإليك قولًا موجزاً عن هذه الجماعات .

الجِنَار ، ويقيمون بأقصى جنوب الهند وبجنوب تراون كور ورأسِ كُمارى ، ويبلغ عددهم ٥٠٠٠٠٠ ، ويدِين من هؤلاء مئةُ ألف فقط بالنصرانية ، ويعبُد الباقون أرواح الأموات ، ويرى الناظر إلى مداخل قُرَاهم أهراماً صغيرة يضَعون عليها نُذُوراً من فواكهَ وحبوب وأزهار لتجْلِب إليهم حماية الملائكة ، ويتعاطى الجِنار زراعة النخيل وحدَها ، وتقوم النخيل بجميع احتياجاتهم على ما فى استغلالها من عُسْرٍ ونَصَب ، ويتكلم الجِنار بلغة التمول كجيرانهم الإيلاوا الذين لا يختلفون عنهم فى شىء .

الكانيكهار ، ويسكنون أعالى جبال أليغرى التى تمطُّ إلى الجنوب طَوْدَ أنّامَلا ، ويُنْشِئون مساكنهم الخفيفة بين أغصان الأشجار حفظاً لهم من الضوارى ، ويجهلون نظام التملك ، وأموالُهم مُشاعة ، وقد انتقلوا ، مع ذلك ، من نظام تعدد الأزواج من الذكور إلى نظام الاقتصار على زوجة واحدة الذى لا تجده عند هَمَج الهند إلا قليلًا .

النياديش ، ويسكن بعضهم حول كالى كت ، ويقيم بعضهم الآخر بجوار بحيرة بولى كت ، ويَبْدُون أشدَّ وحوش جنوب الهند بُؤساً ، ولم يزالوا ، إلى وقت قريب جداً ، يُوقِدون النار بدَلْك غصنين يابسين أحدهما بالآخر .

الكولر ، ويسكنون مناطق كوِئْم بتور ومَدُورا الجبلية ، ولم يقلعوا عن العادات المُضَرِّجة إلّا منذ زمن قصير ، فكان الواحد منهم ، إذا أراد أن يَجْلِب النَّحْس والتَّعْس إلى عدوِّه يذهب بأحد أولاده ليذبحه على عَتَبته .

٧ — سكان الولايات الوسطى أوغوندوانا

فَرَغْنا من وصفنا المختصر لعروق جنوب الهند ، فنرى أن نَصْعَد فى شمال الدَّكَن وننظر إلى جبال غوندوانا الواقعة فى وسط الهند والتى لم تُرْتَدْ حتى اليوم ، فتشتمل على حَفَدَة قدماء السكان حافظةً لهم من مغازى الأجنبى بهِضابها المنيعة وفِجاجها العميقة .

ويُقْصَد بغوندوانا المِنطقة الجبلية التى هى أعلى مناطق الهند ، وتفصِل غوندوانا منطقة الهند الغَنْجية أو الهندوستان عن الهند الجنوبية أى الدَّكَن ، وتبدو غوندوانا مُمْسِكَةً ، بجَوِّها وحيوانها ونباتها ، ذينك القطرين المعترضة بينهما ، وعند سفوح

غوندوانا وقَفَت المغازى المتوالية فلم تَسْتَطِع اجتيابَها بغير الدَّوْر حولها، ومن شِماف[١] غوندوانا تَتَصَبَّب إلى جميع الجهات : إلى الغَنْج و إلى خليج البنغال و إلى بحر عُمَان ، أنهارٌ وروافدُ تَخْلِط منابعَها فى أعاليها الحافلة بالأسرار .

ولا تنطبق كلمة « المنيعة » تلك على الأمر الواقع منـذ عشرين سنة ، ولـكنَّ مدةً قصيرة كهذه وما تَمَّ فى أثنائها من المعجزات بفعل مبتكرات العلم الحديث ليس مما يُحْسَب عندما نبحث فى عروق الهنـد وفى الحال التى انتهت إليها تبعاً لسنة النشوء وتأثير مختلف البيئات .

حقاً أن عادة القرابين البشرية ، مثلًا ، غابت من غير ناحية بأمر الإنـكليز ، وحقاً أن احتياجات الشُّرَطىِّ الإنـكليزى أحَلَّت نسائجَ مانچستر القطنية محـلَّ الأضفاث[٢] التى ظلَّت لِبَاس فريق من الأهالى منذ قرون ، وحقاً أن الخطَّ الحديدىَّ الذى يَصِل بَمْبِى بكلكته يسير موازياً لنهر نَرْبَدا الذى يَحُدُّ الولايات الوسـطى فى الشمال ، وحقاً أن خطاً حديدياً آخر يَمُرُّ من ناغپور ويقطع مِنطقة الغوند ، وحقاً أن من المحتمل ألا يبقى بعـدَ نصف قرن شىء من الطبائع والعـادات والمعتقدات التى دامت فى وسط الهند ألوف السنين ، بَيْدَ أن ساعة زوال هذه الأمور ، التى دنا وقت إبطالها ، لم تَدُقّ بَعْدُ ، فيمكن ، والحالة هـذه ، درس أحوال أهل غوندوانا الفطرية كما هى اليوم فى البِقاع الكثيرة الغاب الوبيلة ، مادام أهل السهول والهضاب يَتَهنّدون بسرعة .

ويبلغ الغوند ، الذين اشتُقَّ اسم غوندوانا من اسمهم ، عِدَّةَ ملايين ، غير أنه لم يبق منهم سوى مليون ونصف مليون فى طور الوحشية المطلقة .

---

(١) الشماف : جمع الشمفة وهى رأس الجبل ـ (٢) أضفاث : جمع ضغث وهو قبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه فى بعض .

ولا تجِد من مِنطقة غوندوانا التى غزَتْها الحضارة أثراً للهمجيـــة فى غير قسمها الجنوبى الشرقىّ المُتَّجِه إلى منابع رافِدَىْ غوداورى : بِرنْهيتا و إنْدرَاوَتى ، وفى غيرِ قسمها المُتَّجِه إلى الشمال الشرقى حيث جبال أَمَرْكَن تك والجبال التى بجانب مجرى نهر نَرْبَدَا الأعلى .

تسمع عن تلك الأصقاع التى لم تُرَدْ[1] حتى الآن ما تَجِده فى كتب الآريين من الأساطير حول جبال الهند الوسطى ، فيصفها هندوس السهول بأنها غاباتٌ مملوءة بالدَّوْح[2] المُظِلَّة لأبْخِرَةٍ وبيئة قاتلة وبأنه يسكنها حيواناتٌ مفترسة ذوات قاماتٍ عظيمة وقُرُودٌ كريهة محاكية للإنسان، فبمثل هذا تَصوّر قدماء غُزَاة الهندالهِضابَ الواسعة التى دحروا إليها سكان البلاد الأصليين المغلوبين من غير أن يَجْرُؤوا على دخولها .

والمراتها هم أول من اقتحموا غوندوانا ، وكان ذلك فى القرن الثـامن عشر ، فبسطوا سلطانهم غير الفعّال عليها ، وفى زماننا أسـفرت جهود الإنـكليز عن فتح أبوابها وعن تَعَقُّب الهمجية الفطرية فى ملاجئها المخيفة .

ويُرَدُّ الآدميون ، الذين التجأوا إلى غوندوانا والذين يُدْحَرون إليها بين حين وآخر ، إلى ثلاث جماعات أساسية : البهيل والـكول والغوند ، وهؤلاء الغوند هم الأكثر عَدَداً والأقدم إقامةً ، فأطلقوا اسمهم على ذلك القطر .

والبهيلُ ، وهم من الدراويد ، قد درسـنا أمرهم فى فصـل آخر ، ولا يسكن

---

(١) راد الأرض يرودها روداً ورياداً : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للنزول فيها — (٢) الدوح : جمع الدوحة وهى الشجرة العظيمة المتسعة .

غوندوانا غير ٢٠٠٠٠ شخص منهم مع ذلك ، ومقرُّ البهيل الدراويد الحقيقيُّ هو فى الشمال والغرب مع ذلك .

والكولُ ، وقد عادوا لا يكونون من الدراويد ، لا يسكن غوندوانا منهم غير ٤٠٠٠٠ تقريباً ، وينتشرون ، على الخصوص ، فى جهوتاناغپور وفى ساحل أوريسة وفى البنغال حيث لاقيناهم ، ومن قبائلهم القاطنة فى غوندوانا الكوركو المقيمون بأودية مهاديو والكوندُ الذين لا يجوز خلطهم بالغوند .

ونحن ، إذ نُخَصِّص مطلباً آخر للبحث فى أمر الكول المقيمين بجهوتاناغپور وفى أمر سكانها الآخرين، ندرس الآن حال الغوند الذين هم أساس سكان غوندوانا والذين هم أهمُّ سكان الهند الأصليين أوصافاً وعدداً

إذا لم يكن الغوند عرقاً أصلياً من عروق الهند فإنهم يُصَفُّون ، على الأقل ، بين قدماء الدراويد الذين هم أقرب الناس إلى المثال الزِّنْجيِّ الفطريِّ ، وللغوند أدنى درجةٍ فى سُلَّم العروق لشَنَعهم وقِصَرِهم وسوادهم ، وللغوند ، مع ذلك ، أعضاء عَضِلَةٌ قوية ، والغوندُ يختلفون بهذا عن بعض وحوش بِل غيرى ذوى المظهر الناقص الضعيف وعن الهندوسيِّ ذى المنظر القَضِيف[1] ، ووجوه الغوند مستوية ، وأنوفهم قصيرة ، وشفاههم غليظة ، وعيونهم صغيرة أُفُقِيَّة ، وشعورهم سُود خَشِنَة لامعة مُسَدَّلَة خُصَلًا وضَفَائِر على جوانب وجوههم ، وتتألف ثيابهم من رُبُط يجعلونها حول كُلاهم ومن رُبُط أخرى يجعلونها حول رؤوسهم ، وتتألف ثياب نسائهم من نُسُج ساترة لأوزارِهِنَّ صاعدةٍ إلى عواتقهنَّ شاملةٍ لأنصافهن الفوقانية، ولا يزال يُرَى أناس من زُمَر غوندية متفرقة يقتصرون على نُطُق من ورق الشجر

(١) قضف الرجل يقضف : نحف ودق .

كما فى غابر الأزمان ، وفى الغالب تَهُبُّ ريح الشمال الشرقىّ على تلك الهضاب بشدّة فلا تكفى ثياب الغوند لِرَدِّ عادية هواء المساء والصباح فيُوقِدون نيراناً عظيمة ليَتَدَفَّأُوا حولَها ، ومما يَسْتَحِى الغوند منه أن يُضِيفوا شيئاً إلى تلك الثياب التقليدية، فالغوند على النقيض منا فى النظر إلى عوامل الأدب والحشمة .

وأسلحة الغوند بسيطة جداً ، ولا يعرف الكثيرون منهم القوْس ولا السَّهْم ، وبالفؤوس التى يحملونها على الدوام يُصْمُون[1] الصَّيْدَ ، ويَصْرَعون العدوّ ويقطعون النبات المُعَرَّش الذى يعوق سيرهم فى الغاب ، ويجندلون ما يطاردونه من الأَنْمُر فى عرائنها .

وإذا كان الغوند يزدرون التسربل والتسلح فإنهم يُزَيِّنون أجسامهم ووجوههم بالحُلِىِّ الثقيلة وبضروب الوَشْم الفَنِّىّ ، وتُحِبّ نساؤهم الأساور والخُرْصان[2] المصنوعة من الحديد فيُثْقِلْن بها ذُرْعانَهُنّ وسيقانَهُنّ ، ويزَوِّقْن خدودهن وأفخاذهن بنقوش وتصاوير ، وهنّ دون رجالهن قُبْحَ منظر ويَكُنّ على قليل من الملاحة فى بعض الأحيان .

ويعرف الغوند فَلْح الأرض ، ولكن بغير إتقان ، شأنهم فى كلّ صناعة ، فإذا مااختار الغوند أرضاً صالحة قطعوا أشجارها الساترة لها ، وأشجارُ الغاب (السال والمهووا والبانيان) فى منطقة الغوند تَطْغَى وتنتشر فى كلّ مكان بالقوة التى تنمو بها أشجار البلاد الحارة ، ثم حَرَّقوها فى محالّها ثم بَذَروا الحبوب فيها ، وفى الغالب يَضَع الغوند الحبوب أكداساً أكداساً فى مكان مرتفع من الحقل تاركين للريح والمطر

---

(١) أصمى الصيد : رماه فقتله مكانه وهو يراه - (٢) الخرصان : جمع الخرص وهو حلقة الذهب أو الفضة وغيرهما .

أمر نثرها عليه ، ثم يُقيم الغوند بعُرُش منتظرين وقت الحصاد .

والغوند يَسْتَغِلّون الأرض مرتين أو ثلاث مرات ، فإذا فقدت خِصْبها بحثوا عن أرض أخرى ليُحْيوها ويزرعوها ناقلين إليها مسا كنهم مُبَدِّلين أماكن إقامتهم مرةً في كل سنتين أو ثلاث سنين .

ولو اقتصرت معايش الغوند على ما تنتجه أراضيهم لوَقَعوا في بؤسٍ شـديد ما دامت آلاتهم الزراعيـة ناقصةً وفنونُ فِلاحتهم ضعيفةً ، ولـكن مِنطقتهم الغنية تَمُنّ عليهم من مصادر العيش الشيء الوافر ، فما أكثر ما أنقذوا من المجاعة بفضل ما عندهم من أثمار أشجار المَنْغَة والسال والبانيان والعُنَّاب وأزهار المَهُوَا ، ومن هذه الأزهار النافعة يَسْتَخْرِج الغوند عصيراً متخمراً يسكرون منـه في الأعياد فضلاً عن استفادتهم من موادِّها الغذائية ، ويغتذي الغوند أيضاً بما في غابهم من الطرائد التي تُفَرِّخ بكثرةٍ وبالأسماك التي توجد في مجاريهم بوَفْرَة .

والغوندُ ليسوا بمحاربين مع أنهم غيرُ جُبَناء ، والغوندُ ، على ما ليس فيهم ما في البهيل من غرائز الشرّ والاعتـداء والتخريب ، هم ، مثلُ هؤلاء ، لصوص ، ومَنْ أتيح لهم من الغوند أن يعيشوا في السهل حيث الحضارة لم يَرَوْا أن من غير الطبيعي أن يسرقوا ما يقع تحت أيديهم من أموال الهنـدوس أو الإنـكليز النازلين بين ظَهْرانَيهم ، ويمقت الغوند الـكذِب مع ذلك ، ويمتازون بهـذا الخُلُق ، كما يمتاز جميع وحوش الهند ، من الهندوس الذين أضحى زُورُهم مَضْرِبَ الأمثال .

والغوندُ في منـازلهم مُحِبُّون للقِرَى ذوو دَعَةٍ ، والغوندُ ليسوا قُساةً ما لم تُثَرْ حَمِيَّتهم الدينية أو ما لم يُهَيَّجوا بعد أن يَسْكَروا ، فهم يَنْقَضُّون إذ ذاك على قُربانهم ليُمَزِّقوه بأسنانهم وأظافرهم إرْباً إرْباً ، وقلما يكون مثل هـذا القربان من البشر في

أيامنا الحاضرة ، ومن المحتمل أن يبقى أثرٌ للقرابين البشرية فى بلاد الغوند ما تقلّصت آجامٌ منيعة وهضاب وعرةٌ وأوْدية وبيئة من رَقابة الشُّرطىِّ الإنكليزىِّ ، ولا تغيب الطقوس المُضرَّجة إلا حيث يتّصل الغوندُ بالأوربيين .

وفى الزمن الحالىِّ استُبْدِلت مجاديرُ[1] الصَّفصاف أو دُمَى التراب أو الأزهار أو الأثمار بالعُجُول أو المَعْز أو القراريج كقرابينَ إلى الآلهة ، وعادت المذابح القائمة فى إطار من حجر فى أسفل الأشجار المقدسة لا تُحمَّر بغير طِلاء رمزاً إلى ما كان يُراق فيها من الدم .

وإلى العفاريت والأرواح الشِّرِّيرة ، على الخصوص ، يُقدِّم الغوند النُّذور الرمزية أو القرابين ، فالإيمان بالأرواح الشِّرِّيرة أمرٌ عام بين سكان بلاد الهند الأصليين ، ومما يعتقده هؤلاء السكان أن الجنَّ يطوفون فى الليل حول القُرَى بقصد الإضرار ، فيجب أن يجدوا فى المذبح ماء ليُطْفِئوا غليلهم ، وفوا كهَ ليقتلوا جوعهم، ودماً ليَشْفُوا حُرْقتهم أو لوناً أحمرَ مشؤوماً ليتمَّ به خِداعهم ، وأوتاداً مغروزة فى الأرض ليَضَعوا عليها أقدامهم الخفيــة ما خُطِر عليهم مسُّ الأرض وما طافوا مغاضبين بغير ذلك .

والأرواح التى تخافها شعوب الهند الفطرية فتَعْبُدها هى أرواح المَوْتَى ، ولا سيما التى نُزِعَت من الأجسام بخاتمة فاجعة ، فإذا مات واحد منها قَعْصاً[2] ، ولو طَوْعاً ، افتُرِض أن روحه التى نُكِّل بها تعود لتطوف فى الأماكن التى خَرَجت فيها وَعُزِى

---

(١) المجادير : جمع المجدار وهو ما ينصب فى الزرع لطرد الطير والوحش — (٢) قعصه يقعصه قعصاً : قتله مكانه ، أجهز عليه .

إليها من فعل الشرّ ما يجب دفعه بالتعزيم[١] وتقريب القرابين ، وأرواح النّسْوَة اللائى يَتَوَفَّيْن فى النِّفاس أصعبُ الأرواح مِرَاساً[٢] .

وإذا مات غريب بين الغوند أقاموا له عِبادَةً خاصة كما يُقيمون للقريب ، ومن هذا أن قائد المئة پول مات مُثْخَناً بالجراح فى قتال قام به لِيَصِل إلى مدراس بِجَوْب غوندوانا ، فهال ذلك السكان الذين خَرَّ بينهم قتيلاً لاعتقادهم أن روحه الغاضبة الساخطة ستختلف إلى منازلهم ، فأقاموا له هيا كلَ وَقَدَّموا ما يستميلونه به من الأدعية والقرابين .

وليست أرواح المَوْتى وحدَها هى ما يَعْبُدُه الغوند ، فكلُّ شىء إلٰهٌ عندهم ، فقُوَى الطبيعة وآفاتها ، مثلاً ، مما يَعْبُدُونه ، فهم يَرَوْن أن على رأس كلّ آفةٍ عِفْريتٌ لا بدّ من إجادة عبادته إذا أريد درء ما يحمله من الشرور ، وهم يَرَوْنَ تقديس الهَيْضَة[٣] والجُدَرِىّ وحُمّى الآجام والضَّرَع إليها بُغْيَةَ دفع عواديها .

والإلٰه الذى يحتلّ ، مع الشمس النافعة أو الضارة والأرض الخصيبة أو الجديبة ، أسْمَى مقام بين آلهة الهند الوسطى هو الإلٰه القادر على كلّ شىء الذى تَصْفَرُّ الوجوه حين يُذْكر ، وتَجِفُ[٤] القلوب حين يُزْمْجِر ، أ كّال البشر ، الإلٰهُ النَّمِرْ .

والنَّمِرْ عند ما يَتَذَوَّق لحم الإنسان فيروقه فَيُلْقِى الرّعْبَ فى إحدى البِقاع ، تُنْصَبُ له الهيا كل ، ثم يختلط العِفريت الذى يُغْرِيه وَيُحَرّضه بأرواح ضحاياه فتشتدُّ عزيمته بعددها فيكون لها من الحماسة مثلُ ما له ما أضيف غضبها إلى غضبه ، فيصبح أمر تسكينها ضَرْبَةَ لازب ، فيُجْلَب فى الغالب كاهن ذو شهرة من قبيلة

---

(١) عزم يعزم تعزيما : قرأ العزائم — (٢) المراس : الشدة والقوة — (٣) الهيضة : انطلاق البطن وهو المعروف بالكوليرا — (٤) وجف القلب يجف وجفا : خفق .

البايفاس على العموم ، فيقرأ هذا الـكاهن العزائم داعياً إليه تلك الأرواحَ المتقمصة للنَّمْر والدافعةَ له على الصَّولَة والشَّرَه فيصيب الـكاهنَ نوعٌ من الذهول والوَلَه بفعل الرُّقْية والدروشة فيُخَيَّل إليه أن ضَرَاوَة النَّمْر قد انتقلت إليـه فَيَنْقَضُّ على جَدْيٍ حَيّ يُقَدَّم إليه فيخنُقه بأسنانه و يُمَزِّق لحه ويدسُّ رأسه فى جوفه الداخن ثم يرفعه فيرى القوم وجهه المُضَرَّج بالدم فيرفعون أصواتهم مستبشرين مسرورين .

وتُؤَلِّه شعوب الهند الفطرية ، ولا سيا الغوند ، الأفاعيَ (القبرا على الخصوص) مثلما تُؤَلِّه تلك الآفات ، فيَدَعها كثير من أبناء هذه الشعوب التُّعَساء تلْدَغهم من غير أن يقتلوها ، وعبادة الدراويد للأفاعى أسفرت عن تسمية الآريين لهم بالناغا .

وفى الهند ، حيث يقوم بعض الأديان بجانب بعض من غـير اصطراع وحيث يقتبس بعضها من بعض عقائدَ ورموزاً وطقوساً ، لا يقتصر اعتقاد الأرواح وتقديس الأفاعى والأنمار على الأقوام الفطريين ، بل سَرَت عَدْوَى بعض ذلك إلى البراهمة وقليلٍ من ذلك إلى المسلمين ، فأضحى الصِّلُّ[1] من خصائص عظيم الأرباب عنـد الهندوس ، فتُتَّخَذ مطاويه الرائعـة أداةَ زينة فى المبانى و ينتصب رأسه ذو الحدقتين الشاخصتين متوعداً بجانب رأس وِشْنو .

ولا عهد للغوند بنظام الطوائف ، ويُقَسَّمون إلى قبائل متزاوجـة ، فمن سِفاح ذوى القرابة أن يقترن رجلٌ بامرأةٍ من قبيلته ، و يؤدى قِران مثل هـذا إلى القتل أحياناً ، وعادة خطف الخاطب للفتاة خطفاً صُوريًّا أو حقيقياً شائعـةٌ شيوعاً مُنَظَّماً عند أولئك القوم ، وفى الغالب يدافع عن الزوجة من يرافقها مع ضحك تجاه أصحاب الزوج ، فيَتِمّ الغَلَب لهؤلاء الأصحاب بحكم الطبيعة فيسيرون بالأسـيرة حاملين إياها

---

(١) الصل : الحية الخبيثة جداً .

على أكتافهم فاكهين ، ومما يحدث عند سكان الهند الوسطى القطريين ، أحياناً ، أن يتكرر الخطف بعد الزواج ، وذلك وقتما تُغَادِر الفتاةُ بيت زوجها إلى بيت أبيها بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك باكيةً بكاء مصنوعاً مُعْرِبة عن عزمها على عدم تركه .

والغونديُّ ، على العموم ، يشترى لابنه امرأة قبل أن يبلغ سِنَّ الزواج بها ، فيختارها قويةً ضليعة ليتخذها ، فى الغالب ، خادمةً وخليلة ، إلى أن يُلِحَّ الزوجُ الحقيقىُّ فى طلبها ، فإذا عدَوْت هـذه العادةَ وجدتَ الغونديَّ من المقتصرين على زوجة واحدة ، والزوجة عند الغوند ، إذ تكون ، على الدوام ، أكبر من بعلها سناً فإنها تتمتع بنفوذ عظيم فى أمور المنزل .

ونظام الغوند السياسيّ بسيطٌ جداً ، فيدير شؤون كل عشيرة منهم رئيسٌ خاضع ، على العموم ، لِما يقضى به شيوخها المجتمعون ، ولكلّ رجلٍ غونديٍّ صوتٌ فى الحكومة ، ويكون الرئيس فى الغالب سليل الراجپوت ، ويُسَرِّح بعض ممثلى الراجپوت عند كل حرب بين الغوند الذين لا يَنْشَبُون أن ينالوا عندهم شيئاً من النفوذ .



٢٥ ـ راقصة من جنوب الهند

٨ – سكان أَمَركن تك وجُهوتاناغپور وأوريسة ، الخ

يقوم فى شمال جبال الهند الوسطى الشرقى طَوْدُ أَمَركن تك ، فهذا الطَّوْد هو أعلى تلك الجبـال ، ويُعَدُّ عُقْدَةَ ، تلك المِنطقة الجبليـة ، وهو أقلُّها رَوْداً[1] ، وغابُه أشدّ من غابها امتناعاً ، وآجامه أكثر من آجامها ضوارىَ ، وحُمّياتُ أوديته أعظم من حُمّيـات أوديتها خطراً ، وسكانُه أظهر من سكانها همجيـةً واقتراباً من الحيوان واحتمالاً للجوّ القاتل والطعام الجَشِب[2] .

وَيقِف كل وصف عنـد الحدّ الذى وَقَف عنده القُرّاء المتمدنون ، فما قيـل عن معايش أهـل تلك المِنطقة الوحشية ليس إلا فَرَضِيّـات ، فهندوس السهل يُشَبّهونهم بالقرود ويخشونهم كأنهم من الجنّ الأشرار ، ومن الأساطير ما هو خاصٌّ بغاب تلك المِنطقة البعيدة الغَوْر وفِجاجها الـكثيبة التى لا تخلو من حَفَدَة أقدم عروق الهند البائسين .

٢٦ – ثلاثة وحوش من جهوتا ناغپور

ويتألف من جهوتاناغپور مِنطقة متوسطةٌ بين هَضْبة الولايات الوسطى والسهول المجاورة لمصبِّ نهر الغَنْج ، وتشتمل تلك المِنطقة ، المائلة إلى الجنوب الشرقى والمتوجهة

(١) راد الأرض يرودها رودا : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للنزول فيها –
(٢) الجشب من الطعام : الغليظ الخشن .

إلى خليج البنغـال ، على وادى مَهَانَدى ووادى برهمَى الأعليَيْن ، وتجرى من متحدَّراتها الشمالية الغربية روافد سون ، و يُمَدُّ معظمها من ولاية البنغال .

وجهوتاناغپور منطقه انتقال من الناحية الإثنولوجية والناحية الجغرافية ، فالمرء إذا ما نَزَل من أعاليها وتوجّه إلى أوْدهة ، حيث يعيش أجمل العروق الآرية بالهند كما ذكرنا ، وَجَدَ بالتتابع أمثلةَ جميع ما فى الهنـد من العروق المترجحة بين قِباح وثنيى الزنوج وشُمَّخ البراهمة .

ويسكن جهوتاناغپور قبائلُ من سكان البـلاد الأصليين على الخصوص ، فهذه القبائل ، وإن ظَلَّت وحشيةً فى الجبال ، تَتَهَنَّد فى السهول بالتـدريج ، وهنا نُنَبِّه القارئ، إلى أن ما نَصِفها به ينطبق على حالها الفطرية الأولى التى قد تشاهَد اليوم فى أقاصى تلك المنطقة وفى أراضيها المنيعة قياساً على ما فعلناه فى أمر الغوند .

ونحن ، حين نُضيف إلى جهوتاناغپور سلسلةَ جبال ونِدهيا ومعظمَ شبه جزيرة الـكجرات تبدو لنا بلادٌ ممتدة من بحر إلى بحر قاطعةٌ لوسط الهند ، فهـذه البلاد المستطيلة هى مقرّ العروق الـكولية التى تُعَدّ ثالثةَ الجماعات الهندية فتأتى بعد الجماعة التورانية الآرية ، أو الهندوس البراهمة ، التى هى الأولى منها والجماعةِ الدراويدية التى هى ثانيتُها .

واختلافُ اللغات بين تلك العروق ، ولا سيا بين الدراويد والـكول ، هو سبب ذلك التقسيم الثلاثى ما كان الدراويدُ والـكول من الشعوب الفطرية التى توالدت هى والغزاةُ بعضَ التوالد وما تماثل الدراويد والـكول طبائعَ وصُوَراً ، ويشابه الـكولُ البهيلَ الذين يقطنون معهم فى الأراضى التى تغشى جبالَ ونِدهيا ، بيد أن الـكول المقيمين بجهوتا ناغپور يقتربون من البهيل ذوى المثـال المغولىّ مع أن دم الراجپوت

يجرى فى شرايين الكول المقيمين بالكجرات ، وقد تكلمنا فى فصل سابق عن هؤلاء الكول القاطنين فى المنطقة الغربيـة والذين يَعُدُّهم البراهمة من الشودرا فيُستخدمون فى المدن للقيام بأشقِّ الأعمال ، فأُطلق اسم الواحد منهم (القُلِى) فى المستعمرات الإنكليزية وأمريكة على العمال والعتّالة والمُكارِين .

ويُعَدُّ الكول الشرقيون من زمرة المنبوذين لا من طبقة الشودرا ، ولم يخرج أكثرهم من دور الهمجية الأولى ، وعن هؤلاء قلنا إنهم يُذَكِّروننا بالمثال المغولىّ ، فهم ، بالحقيقة ، ذوو وجوه مثلثة الأضلاع ولِحَىً مَعِرَة[1] وعيون صغيرة مزمومة أفقية وشفاه غليظة ووَجَنات نائتة وأنوف قصيرة وألوان مُتَرَجِّحَة بين الصُّفْرَة والسواد وقامات قصيرة مربوعة ضليعة ، ويتكلمون بلَهَجات مُفَرَّعَة من اللغة الكولية التى يتميزون بها من شعوب الهند القطرية الأخرى ، ويجاوز الكول مِنْطَقَتهم المستطيلة إلى وادى الغَنْج حيث لاقيناهم .

ويسكن السانتهالُ والمليرُ الجبالَ الواقعة بين بهار والبنغال ، فيُعَدُّون من الأَرُومَة الكولية بالحقيقة ، ومما قلناه إن لغة السانتهال تُمَثِّل دور اللغة الأمّ بين اللَّهَجات الكولية كما هو شأن السنسكرت فى اللغات الهندية الأوربية .

وكان الكولُ جميعهم يُسَمَّوْن باسم سوارا العامّ الذى ورد ذكره فى كتب الهندوس غيرَ مرة ، ورأى بعض العلماء أن هذا الاسم مشتقٌّ من الكلمة الشيثية « سغارى » التى تَعْنى « الفأس » ، والواقع يُؤَيِّد هذا الرأى ما كانت الفأسُ سلاحَ الكول والغوند المُفَضَّلَ وما ظَلَّت ، فى بعض الأحيان ، عُدَّتَهم الوحيدة ، فالحقُّ أنك لا ترى شخصاً من أهل جهوتاناغپور أو أهل غوندوانا الأصليين لا يحمل بيده

---

(١) معرة : قليلة الشعر .

فأساً إذا ماابتعد قليلًا عن منزله ، ولا غَرْوَ ، فلا غُنْيَةَ له عن هذه الآلة فى فتح طريق له وسط الآجام وفى الهجوم على الأثمار .

و بعضُ القبائل الكثيرة التى تسكن جهوتاناغپور وساحل أوريسة فى الشرق ما هو كولىٌّ خالص و بعضُها ما هو ممزوج بالعنصر الدراويدى الحديث والقديم ، و بين هذه القبائل فروقٌ غير واضحة تماماً لعدم وجود أمثلة بَيِّنَةٍ لها على الدوام ، وتُدْعَى تانك الجماعتان بالأوراؤن والمُنْدَا ، فأما المُنْدَا فيشابهون المغول كثيراً ، وأما الأوراؤن فمن الزنوج الذين يبدو مثالُهم أقربَ إلى القرود منه إلى البشر .

ومن أهمّ الأهالى الذين يسكنون وادى برهمَنِي ووادى مَهَانَدِي الأَدْنَيَيْن وقسماً من ساحل أوريسة نذكر السكوند الذين يجب التفريق بينهم و بين الغوند المقيمين بغوندوانا ، وعلى ما بين تلك الشعوب من صِلَة كما بين جميع القطريين يتألف منها جماعتان مختلفتان .

وتلك الشعوب ، إذ كانت ذوات عادات متماثلة يَدِينُون بها من إخوانهم سكان الولايات الوسطى الذين وصفناهم آنفاً ، نوجز أمرها بما يأتى :

تقوم دِياناتها ، كما تقوم دِيانة الغوند ، على عبادة الشمس والأرض وقُوَى الطبيعة والخوفِ من أرواح الموتى وتقديس الضوارى والآفات التى يُعَرَّضون لها ، على الدوام ، تقديساً ممزوجاً بالهوْل ، وترى فى الأعاصير والمجاعات والأوبئة والجفاف مظاهرَ لقُوًى هائجة يجب التوسل إليها بقراءة العزائم وتسكينُها واستعطافها بالقرابين ، فعُدَّت الدموعُ ودماء الضحايا البشرية طويلَ زمنٍ نَدًى سحرياً لا بدَّ للأرض منه لكى يَتَّسع صدرها فتصبحَ خصيبة ، واليوم يزول هذا الاعتقاد بالتدريج ، وصارت الأنعام، أيضاً ، لاتُذْبح ، فتُستبدلبها فى المذابح صورٌ خزفية وفواكهُ وأزهار و يستبدل

بدمائها دَهْنٌ أحمرُ تُرَشُّ به الحجارةُ المصفوفة على شكل دائرة أو الأهرامُ الصغيرة التى تعلوها أو الأوتادُ المُثبَّتة فى الأرض .

ولما حاول الإنكليز أن يحملوا ، بالاقناع والتهديد ، الكولَ السُّذَّج على نَبْذ عادة تقريب القرابين البشرية رَضِى هؤلاء بذلك على أن يحتمل الأوربيون تَبِعَة هذ الإلحادِ تجاه الآلهة ، ولا شيء أفظع من القيام بمثل هذه الشعائر ، فكان الجمهور يقطع الضحية إرْبًا إرْبًا عند ذبح الكاهن المُقرِّب لها اتباعاً للاعتقاد القائلِ إن كلَّ قطعة من اللحم الخافق تميمةٌ قادرة ، فمن يأخذها فيدفنها فى ناحية من حقله وهى دامية سخينة ينَلِ البركات من السماء لأمَدٍ بعيد ، فبهذا الثمن يزول غضب الإلاهة تارى أى الأرضِ الساخطة .

وكان يتخطَّف صِبْيَةٌ من الغرباء والأيتام ويُؤتَى بهم إلى الكول ليُرَبَّوْا فيكونوا ضحايا المستقبل ، وكان يقوم بذلك الاصطياد قَهارِمة[1] فيبيعون مايتصيدون بثمن عال ، فإذا لم يجد هؤلاء القهارمة ما يصطادونه اشتَرَوْا صِبْيَةً من آبائهم الفقراء أو الطُّمَاء ليَشْرُوهم بربح فيُثْرُون بذلك لعدم المَكْس ، فكلما كانت الضحية غاليةً كانت مقبولةً لدى الأرض والشمس والجنّ الذين يثيرون أمواج البحر فيُلْقونها فى الحقول زوابعَ وعواصفَ .

ويدير شؤون كلّ قبيلة من الكول رئيس خاضع ، على الدوام ، للأهالى المجتمعين ، وتُسْفِر هذه الاجتماعات ، فى الغالب ، عن دعوة منطقةٍ بأسرها ، لا قريةٍ واحدة ، إلى العمل بأحد الأمور ، وتشعُر الشعوب الكولية بأنها أمة واحدة ، ويذكر الكول أنهم كانوا سادة الأرض ، وفى أساطيرهم ، كما فى الشواهد الغريبة ، ما يدلّ

(١) قهارمة : جمع قهرمان وهو الوكيل .

على أنهم كانوا أمة ذات حكومة مُنَظَّمة ، ومن قبائلهم قبيلةُ البهومية التى يعنى اسمها « أبناء الأرض » ، أو أهل البلاد الأصليين ، ويعلم الكول أنهم حَفَدة أمة قديمة إلى الغاية ، وليس الكول من البأس ما يقدرون به على القتال فتراهم لا يبالون بالحِيَل وصولًا إلى الإثْرَاء على حساب من يَسْرِقونهم ، فالكولُ جميعهم لصوص أجْرِئاء[1] فُخُرٌ بما يقترفون من اللَّصّ ، فيقولون : « لانعمل غيرَ استرداد ما تَمَلَّكه قَسْرًا منا فيما سلف » ، ومن التناقض العجيب أن يصبح هؤلاء السُّرَّاق ، حينما يحملهم الفقر على الخدمة عند سادة الهند فى الزمن الحالىّ ، من أحسن موظفى الشُّرْطة وأحزمهم ومن أيقظ النُّظَراء وأقدرهم على خفر المزارع ، ومما يحدث أن يجمع هؤلاء بين حَرَس الحقول والمواشى فى النهار وسَرِقتها فى الليل بجِدٍّ وحَذَرٍ ولباقة ، فإذا ما اكْتُشِف الأمر لم يبق لإقامة البينة وسماع الشهود ضدّهم ضرورةٌ ، فهم يعترفون بما اجترحوه من فَوْرِهم حين الاستنطاق فيُسْتذنبون .

والكولُ شديدو القِرَى ، فيبذلون أرواحهم دون الضيف إذا حاق به خطر ، والكولُ كثيرو الفَخْر ذوو مزاج حُرّ ، والكولُ ، إذ يُحْمَلون على دفع الضرائب إلى الإنكليز ، يحملونها إليهم بانتظام حيث يكونون عند حدودهم ، وذلك حَذَرَ تدنيس الجُباة لِحُرْمة منازلهم فى غابهم .

ويُحِبُّ الكولُ الحربَ لهواً وتقرباً إلى الآلهة ، فهم يَفْتَئِلون[2] قبل أن يوقدوا نارها ، فإذا رأَوْا أن السماء تأمر بالحرب وسفك الدم أرسلوا رُسُلًا إلى القبيلة المجاورة لدعوتها إلى القتال فى أحد الميادين، والقتال يدوم طويلًا مالم يَفْتَئِلوا ثانيةً فيَرَوْا

(١) أجرئاء : جمع جرئ . ـ (٢) افتأل : ضد تشاءم .

وَقْفَ الحرب، ولا يشوب المتحار بين حِقدٌ ولا وَغَر [١] فينامون في الغالب معاً ويأكلون معاً في الهُدَن التي تتخلّل القتال ، ويشهد النساء الطِّعان فَيَهْتِفن عند إصابة الأهداف ويُصَفِّقن عند باهر الأعمال ويَجْمَعْنَ الجرحى ويَضْمِدْن جُرُوحهم ويبكين القتلى ويَنْظُرْن ، كما كانت نساء سابين تنظر في القرون القديمة ، آباءهن وإخوتهن في أحد المعسكرين وأزواجهنّ في المعسكر الآخر ، فالأنكحةُ عند الكول لا تكون إلّا بين مختلف العشائر .

والفتى من أولئك القوم يشترى له أبواه المرأة التي يرغب في الزواج بها ، وهو ، إذ كان لا يملك لنفسه شيئاً ، لا يقدر على تأليف أُسْرَة مستقلة عن أبويه فيبقى تحت وصايتهما زمناً طويلًا ، والمرأة من أولئك القوم حقُّ الطلاق ، فتتزوج ، في بعض الأحيان ، أربعة أزواج أو خمسةَ أزواج بالتتابع ، فيجب على كلِّ زوج لاحقٍ من هؤلاء أن يَرُدَّ إلى الزوج السابق ما دفعه ، فيسعى الزوج اللاحق إلى التخلص مما عليه .

إذن ، يمارس أولئك القوم مبدأ تعدد الأزواج من الذكور ممارسةً مُقَنَّعة ، وتنشأ هذه العادة عن الفقر وعن ارتفاع المهور ، وقتلُ الأولاد عند أولئك القوم أمر شائع ، فالأسْرَة الواحدة منهم لا تحتفظ ، في الغالب ، بغير ابنة أو ابنتين ، وأما البنات الأُخرى فيُوضَعْن ، حين ولادتهنّ ، في آنية من فَخّار ويُدْفَنّ ، فيسفر ذلك عن زيادة مهور النساء لقلة عددهنّ .

ومعايش سكان چهوتاناغپور ضَنْكٌ ، فأراضيها فقيرة وفلاحتها رديئة ، وأسوأ منها أراضي أوريسة ، حيث يَغْتمِر الطوفانُ غَلّاتها الهزيلة في بعض الأحيان فيَعْقب

---

(١) الوغر : الضغن .

الطاعون ذلك ، ثم يُشفَر الجذْب الذى يجىء بعد ذلك عن موت الألوف من السكان جوعاً ، وليس للإنسان فى بلد بائس كهذا البلد أن يختار نوع الطعام ، فترى السكول يأكلون من كلّ لحم مع مقت براهمة الهندوس لذلك .

ولم يكن ساحل أوريسة منطقةً بائسة فى كل زمن كما هو اليوم ، فقد كان يقوم فيه دولةٌ زاهرة أيام هرون الرشيد وشارلمان ، وفى أساطير الهندوس ما يؤيد ذلك ، وما اشتمل عليــه من المعابد العجيبة الخربة ، كمعابد بهُو ونيشور ، يثبت ، بأقوى من ذلك ، أن هذا الساحل غيرَ القِرَاء[1] كان مَقَرّاً لحضارة قوية ، ومما لاريب فيه أن السكولد الوحوش لم يكونوا المبدعين لذلك الفن المعمارى الرائع التالد .

وتغشى ساحلَ أوريسة معابدُ أكثرَ من أن تغشاه مدنٌ ، وساحلُ أوريسة هذا، الذى يتساوى البراهمة والهمج فى تقديسه ، إذ يقع بين الهند الآرية والهند الدراويدية، شاهدٌ على اختلاط كثيرٍ من العروق والأديان فيه وعلى نظر المؤمنين إليه نظر إجلال واحترام وعلى حَجِّهم له من كلّ صَوْب وحَدَب مهما كان نوع الإله الذى يعبدُونه .

ذلك ما يَبْهَر الهمجىّ الذى لم يَسْجُدْ لغير أوثان فيــدعو كالى ووشنو وشيوَة فينتقل ما يدور فى خَلَده من الهواجس إلى بنى قومه فيَتَساوَوْن هم والآخرون فى بعض المعابد حيناً فيغــدو المنبوذُ أخاً لأشهر البراهمة ، فلا ترى فرقاً بين الأبيض والأسود و بين الآرى والدراويدى و بين الهمجى والمتمدن فيُخَيَّل إليك امتزاج مختلف العناصر التى يتألف منها سكان شبه جزيرة الهند لوقت قصير .

بحثنا فى تلك العناصر بحثاً خاطفاً ، فنختم دراستنا بذكر شعب الأوريا المهم القاطن فى المِنطقة الساحلية الممتدة من شاطىء أوريسة إلى مَصَبّ نهر الغَنْج ، فهذا

---

(١) القراء : الذى يقرى الضيف ، الكثير الضيافة .

الشعب المتوسط ، الذى هو شعبٌ شِبْهُ همجىٍّ ذو لغة خاصة وغيرُ ذى مثال واضح ، أخذ نصيباً من العروق الكثيرة التى يعيش بينها .

نطمع أن يكون القارىء قد اطَّلع ، بالخلاصة الخاطفة غير الكاملة التى سردناها فيما تقدم ، على ما بين عروق الهند من الفروق التى لا حدَّ لها وعلى ما بين هذه الفروق من المساوف العظيمة ، ونحن بعد أن بيّنّا اختلاف أوصاف تلك العروق وأخلاقها وعاداتها ومعتقداتها و بعد أن ذكرنا أن أمثلة البشر ودرجات الحضارة التى جاوزها منذ فجر تاريخه إلى يومنا هذا لا تزال قائمةً بادية فى الهند نرى أن نُرَكِّب بعد أن حَلَّلْنا فنبحثَ فيما بين هذه العروق من الأخلاق المشتركة وفى ميل هذه العروق إلى الوَحْدَة التى قد يَصِلون إليها شيئاً فشيئاً بالتوالد والخضوع لبعض النُّظُم الكبيرة العامة ، ونحن بعد أن درسنا ما يَفْصِل بعض عروق الهند عن بعضٍ ندرس ما تتقارب به هذه العروق وما تلتقى فيه من النقاط .

٢٧ — امرأة هندوسية من جنوب الهند تهرس الأرز

الفصل الرابع

الصفات الخلقية والعقلية المشتركة

بين عروق الهند المختلفة

(١) ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة في الهند من تماثل بين شعوب الهندوس — ما بين فريق كبير من شعوب الهندوس من الصفات المشتركة — المؤثرات الجثمانية والعقلية التي أدت إلى هذه الأخلاق المشتركة — نظام الطوائف والنظام السياسي والمعتقدات الدينية الخ — (٢) الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس — الدماثة والصبر والتسليم والمداجاة وعدم النشاط وعدم التبصر وفقدان المبدإ الوطني — نتائج عدم النشاط في مصير الهندوس — الصفات الخلقية أفضل من الصفات العقلية في تقرير مصير الأمم — مستوى الهندوس العقلي — مقابلة بين الهندوس والأوربيين — طبقات الهندوس الوسطى مساوية لطبقات الأوربيين الوسطى — طبقات الهندوس العليا هي دون طبقات الأوربيين العليا — قدرة الهندسي على الإدغام — ضعف رأيهم وبرهانهم — عدم الدقة في تفكيرهم — الفروق بين العروق العليا وغيرها — تطبيق هذه الفروق على الهندوس — نتائج مزاج الهندوس النفسي — تقصيرهم في العلوم وفي التاريخ — الخلاصة .

---

١ — ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة في الهند من تماثل بين شعوب الهندوس .

ظهر من الفصول التي خصصناها للبحث في عروق الهند اتساعُ الفروق بين تلك العروق ، فالحقُّ أن شبهَ جزيرة الهند الواسعة فُسَيْفِساءُ عظيمةٌ مؤلفة من

شعوب مختلفة إلى الغاية ، فني الهند تجد الوحش الفطريّ والرجل المتمدن وما بينهما من آدميٍّ مختلف الدرجات .

وقد رأينا أن المُثُل الجثمانية لهذه العروق متباينة جداً وأن كلمة الهندوس تشتمل على أناس مختلفي الألوان مُتَدَرِّجين بين الزِّنْجِيِّ الأسود والرجل الأبيض وأن تلك المُثُل تَتَدَرَّجُ بين الجمال الباهر وأقصى البشاعة .

وما لهذه العروق من الصفات الخُلقية والعقليـة ليس بأقلّ من تلك الفروق الجثمانية اختلافاً ، فترى هُوّة عميقة بين الراجپوتيّ المشهور بشجاعته النادرة والبنغاليّ المعروف بجبانته الفاضحة ، وترى مثـل تلك الهُوّة بين جَبَلِيٍّ راج محل الذين لا يعرِفون الـكَذِب و بعض الهندوس الذين يكذبون على الدوام .

ومن الصواب ، إذن ، أن نستنتج ، أولَ وَهْلَةٍ ، فقدان أيّ صـفةٍ مشتركة بين عروقٍ ذلك مدى تباينها ، بيد أننا سنرى عما قليل أن هذا زعمٌ خاطىء ، فقد نجم عن البيئات المادية والأدبية الواحدة أخلاقٌ عامة تجمع بين تلك العروق فى أُسْرة واحدة كما يجمع العالم الطبيعيّ مخلوقاتٍ متباينةً أشدّ التباين ، كالفيل والفأر ، فى فصيلة واحدة .

فلْنَدَعِ الفروق التى عرضناها بدرجة الـكفاية ولنبحثْ فى الصفات المشتركة بين عروق الهند المختلفة ، فنرى ، إذ ذاك ، أن الهندوسيّ ينال بهذه الصفات معنًى معيناً ، ولا يَظُنَّ القارىء ، مع ذلك ، أنه يكون لهـذا المدلول من القيمة المقررة ما لـكلمة « الفرنسى أو الإنـكليزى أو الألمانى » ، فلم يقع تمازج مختلف العنـاصر بدرجة الـكفاية ، ونحن ، لـكى نوضح رأينا بأحسن من ذلك ، نَتَمَثَّل أمر فرنسة فى العصر الـكارلوڤينجى وقيمة كلمة « الفرنسيّ » الدالة فيه على خليط من القوط

والفَرَنْج والفوليين والرومان بدأ يمتزج فيكتسب بعض الصفات المشتركة .

ونرى ، قبل أن ندرس الصفات المشتركة لأكثرية الهندوس فنشيرَ إلى الأسباب التى أوجدتها ، أن نأتى بتقسيماتٍ قليلة أساسية للعروق الكثيرة التى وصفناها فيما تقدم على انفراد ، فبعد أن نصنع هذا على طريقة التحليل نبدأ بالدرس على طريقة التركيب .

يُؤدّى البحث الخاطف إلى إمكان تَشكْيل جميع تلك العروق فى ثلاثة تقسيمات أساسية كبيرة ، فأما التقسيم الأول فيشتمل على العروق التى لم تَنَلْ بصيصاً من أية حضارة فتجلّت فيها آثار سكان الهند الفطريين الأصليين ، فليس هؤلاء السكان الفطريون القاطنون فى الجبال أو فى المناطق المنعزلة إلاّ أقلية ضعيفة ، وهم من شِدّة الاختلاف عن بقية سكان شِبْهِ جزيرة الهند ما لا يحتشدون بها معهم ، فلهذا لا نُفَكِّر فى أمرهم هنا .

وأما التقسيم الثانى فيشتمل على الهندوس الحقيقيين الذين هم ، كما نعلم ، نتيجةُ توالد عروق بيض أو صُفْر مع السكان السُّود الأصليين ، فهؤلاء الهندوس إذ كانوا على شىء من التمازج فى غضون القرون فإنهم مجموعٌ من الزُّمَر المتباينة بنسبة العناصر التى تتركب كلٌّ واحدة منها ، وهذا مع القول إن البِيْئات المادية والأدبية الواحدة التى خضعت تلك الزمر لأحكامها منذ زمن طويل والمعتقداتِ الواحدة التى اعتنقتها قد وَسَمَتْها بعدد من الصفات المشتركة ، وإنه على تلك الزُّمَر التى تتألف منها أكثرية الهند الساحقة تنطبق هذه الصفات المشتركة التى نرى أن نبحث فيها .

وأما التقسيم الثالث فيشتمل على السكان المسلمين الذين هم نتيجة توالد العرب

والأفغان والفرس والتركمان والمغول وغيرهم من الذين غَزَوا الهنـد فى مختلف الأدوار فانتَهوْا إلى فتحها ، وكان يصعُب خلط هؤلاء المسلمين بزُمَر التقسيم المذكور آنفاً لو ظلّوا خُلَّصاً بعيدين من كل توالد ، بيد أنك لا تجد بين الملايين الخمسين الذين يدينون بالإسلام فى الهنـد سوى أناس قليلين لا تجرى فى شرايينهم دماء هندوسية ، فهؤلاء المسلمون ، وإن كانوا يختلفون عن زُمَر ذلك التقسيم الثانى فى غير ناحية ، أ كثرُ تأثُّراً بهذه الزُّمَر من تأثيرهم فيها ، فإذا كان جميع الصفات العـامة التى نذكرها فيما يأتى لا ينطبق على المسلمين فإن كثيراً من هذه الصفات مشتركٌ بينهم وبين تلك الزُّمَر مع ذلك .

إن المؤثرات التى أسفرت عن صفات مشتركة هى مادية وأدبية معاً .

ويمكن تلخيص المؤثرات المادية فى بضع كلمات : فمن هذه المؤثرات نذكر الجوَّ الحارَّ الذى لا يُعِدُّ الإنسان إلى الأعمال القاسـية ، بل يُسَهِّل عليه أمر زراعة الأرض الذى وَقَفَ أ كثرُ السكان به نفوسهم عليه من جهة ويؤدى إلى اعتمادهم على النظام النباتى فى أمر الغِذاء من جهـة أخرى ، فالهندوسىُّ يكاد لا يَغتذى ، ويقتصر فى طعامه على قليـل من النبات ويرتوى بماء صاف ، ويعيش عن سَعَة ببضعة دوانق مياومةً ، فارتفاع درجة الحرارة فى بلد الهندوسىِّ ، إذ يؤدى إلى زهد الهندوسىِّ فى الطعام واللبـاس ، لا يجد الهندوسىُّ به الحافز الحاجىَّ الذى يُزيل به كسـله الطبيعىّ .

ونشأ عن تأثير البيئات المادية المتماثلة وتَكَرُّرِ الأعمال الواحدة طرقٌ للمعايش متشابهةٌ بحكم الضرورة ، ثم ثَبَتَ أمر هـذه المعايش المتشابهة بمؤثرات أدبية واحدة أهمُّها نظام الطوائف والنظام السياسىُّ والمعتقدات الدينية .

ونظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نُظُمِ الهند الاجتماعية منذ ألفى سنة ، و بلغ نظام الطوائف من الأهمية ما وَقَفْنَا به مطلباً خاصا من هذا الكتاب على البحث فيه ، فسنرى فى هذا المطلب ما هى الأسباب الإثْنُولوجِيَّة التى أوجبته فى غابر الأزمان وما هى الأسباب التى حَلَّت محلّ تلك بالتدريج فدام بها مع تتابع القرون ، وسنرى كيف أسفر ذلك النظام عن تقسيم الهند إلى ألوف من الجمهوريات الصغيرة غيرِ مبالٍ بعضُها بشؤون بعض ، أو مُعَادٍ بعضُها لبعض ، ومنفصلٍ بعضها عن بعض فى المشاعر انفصالاً يتعذر معه أن تكون ذواتِ مآربَ مشتركة ، وسنرى كيف أن طائفة الهندوسى، لا الهندَ ، هى وطن الهندوسىّ الحقيقىّ ، وكيف أن طائفة الهندوسىّ قد أحاطته بشبكة من التقاليد والعادات إحاطةً ثبت أمرها بالوِراثة فأضحى خروجه منها صعباً إلى الغاية .

وأدّى النظام السياسىّ، الذى هو ثانى المؤثرات المذكورة آنفاً ، وذلك فى غضون القرون ، إلى مثل ما أدّى إليه نظام الطوائف فى تكوين روح الهندوسى ، ويمكن تعريف نظام الهند السياسىّ السائد منذ زمن طويل بأنه يتألف من جماعات صغيرة تُعْرف بالطوائف ، وأن هذه الطوائف متجمعةٌ على شكل جمهوريات صغيرةٍ تُعْرَف بالقُرَى الخاضعة لسيد واحد ذى سلطان مطلق ، وعلى ما اعتور اسم السيد من تَبَدُّل لم يتغير ذلك النظام الذى بلغ من الدَّيْمُومَة ما وَهَنَتْ به روح المقاومة فى الهندوسىّ فتعَوَّدَ الهندوسىّ مع القرون أن يطيع سلطةَ سيدٍ إطاعةً تامة ، سائراً وَفْقَ المعتقدات الدينيــة .

ونذكر التعاليم الدينية ، التى هى ثالثة المؤثرات ، ممـا أوجب اتصاف الهندوس بأخلاق متماثلة ، ولا يستطيع الأوربىّ أن يُدْرِك تأثير الدين العظيم فى الهندوس إلاّ

إذا حَقَّقه بنفسه ، فأكثر الأوربيين تديناً يُفَرِّق بين المقدس والمدنس تفريقاً لا يفهمه الهندوسيّ الذى يعتقد أن الآلهة تنظر فى أدقّ شؤونه وأن تعاليم الدين تهيمن على جميع أعماله ، فالدين ، بالحقيقة ، كلُّ حياته إن لم يكن جزءاً منها ، فما السعى والأكل والنوم عند الهندوسيّ إلاّ أعمال دينية ، وكلُّ شىء ما خلا أوامرَ الدين باطلٌ لديه ، والدينُ هو الذى يُوَجِّهه ، ولم يرض بلِقَاحِ الجُدَرِيّ ، مثلاً ، إلاّ بعد أن اكتسب شكلاً دينيًّا ، ونحن ، حين البحث فى تكوين أديان الهند ، نُثْبِت مقدار الفراغ الذى تملؤه الأديان فى حياة الهندوس ومقدارَ عَدِّ الهندوس لكلّ سلطة عنوانَ قدرةٍ إلْهية ، وهنا ، كما فى أمورٍ كثيرة أخرى ، تَتَمَثَّلُ الهُوَّة العظيمة التى تفصِل الشرق عن الغرب فى كلّ أمر والتى لم تَفْتأ تزيد اتساعاً .

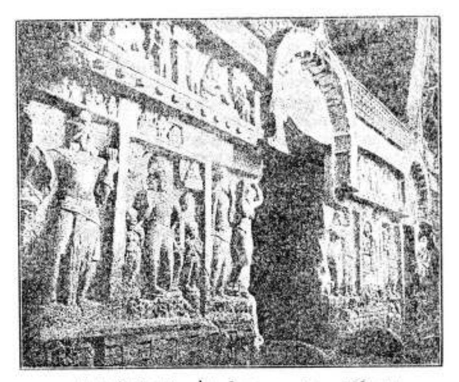
والباحث وقلما يُدَقِّق فى تسليم الهندوسيّ وإذعانه المطلق لأوامر الآلهة فيعلَم أن هذه الأوامر سيطرت عليه قروناً كثيرة وأن تعاليم مَنُو الدينية هى صاحبة السلطان فى الهند منذ ألفى سنة يدرك درجة انسكاب أذهان الهندوس التى احتملت نِيراً واحداً تلك المدة فى قَالَبٍ واحد .

ولنَبْحَث ، بعد أن أوضحنا تأثير تلك العوامل الكبيرة ، فى الأخلاق العامة التى نشأت عنها .

٢ — الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس

لا تَجِد فى أمة خضعت منذ عِدّة قرون لمعايشَ وأحوالٍ مادية وأدبية ، كالتى ذكرناها آنفاً ، ما تَجِده فى الأحرار من شِدّة البأس ومتانة الخلق ، فلو كان عند الهندوس مثل ذلك ، أو أقلُّ من ذلك ، لخلعوا نِير الأجنبى عنهم منذ زمن طويل ،

فلا عَجَبَ إذا رأينا فى الهندوس من النقائص ما يُرى عادةً فى الأمم التى رَئِمت[1] حكمَ الأجنبىِّ قروناً كثيرة ، فالهندوسىُّ ، على العموم ، خَوّار[2] هيَّاب مَكَّار وَلاج[3] مَلاّق[4] إلى أبعدِ حدٍّ ، وتدل أوضاعه على الخداع والإلحاف[5] ، وهو بعيد من المبادىء الوطنية ، وما عُرِّض له من البغى والطغيان أحقاباً[6] جعله يرى الخضوع لسيد على أن يحترم هذا السيد شرائعَ طائفته وعقائدَه الدينية ، فالهندوسىّ ينقاد سلفاً لجميع أوامر سيده ويَعُدُّ نفسه سعيداً إذا ما نال حُفْنَة أرز يُمْسِك بها رَمَقه .



٢٨ — كارلى . مدخل معبد مصنوع تحت الأرض فى القرن الثانى قبل الميلاد

(١) رئم الشىء : ألفه — (٢) خوار : الضعيف الرخو — (٣) ولاج : كثير الولوج — (٤) ملاق : كثير التملق — (٥) ألحف : ألح — (٦) أحقاب : جمع حقب وهو ثمانون سنة أو أكثر .

والهندوس قوم ليِّنون صابرون مُسْلِمُون ، وأشدُّ نقائصهم وقفاً لنظر الأوربيّ هي ، خلا ما تقدم ، البَلادةُ والغفلةُ والخمول .

والخمول أظهر أخلاق الهندوس ، و بالخمول نفسِّرُ خضوع ٢٥٠ مليون هندوسي لسلطان ٦٠٠٠٠ إنكليزيّ من غير أن يرْفَعوا عَقِيرتهم[١] ، مع أنه يسهل عليهم أن يُبيدوا هؤلاء الإنكليز في يوم واحد إذا قاموا قَوْمَة رَجُل كما يسهل على رِجْلٍ[٢] من الجراد أن تُهْلِكَ بُرَّ حقل ، وليس هذا مما يصدر عن الهندوس ، وما اضطراب فصائلَ من السپاهي الساخطين في سنة ١٨٥٧ إلاّ فورةٌ محلية عارضة لم يكترث لها مُعْظَم القوم .

وسنرى أن مستوى الهندوس العقليّ المتوسط ليس دون مستوى سادتهم الأوربيين العقليّ المتوسط ، بَيْدَ أن الهندوس أقلُّ من هؤلاء الأوربيين أخلاقاً بمراحل ، وفي هذا بيانٌ لسبب انقياد الهندوس للغربيين ، والأخلاقُ (أي الثبات والعزم) ، هي ، كما نعلم من التاريخ ومن دراسة الناس ، تُمَثِّل دوراً في حياة الأفراد والأمم غيرَ الذي يقوم به الذكاء ، فبالأخلاق ، على الخصوص ، أكثرَ مما بالذكاء ، تؤسَّس الدِّيانات وتُشاد الدول ، ففي صراع يقع بين شعبين يتألف أحدهم من أناس أذكياء متعلمين متصفين بالحذَر الذي هو وليد الذكاء قائلين ببُطْلان كلِّ مَثَل عالٍ غيرِ مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل المُثُل العُلْيا ويتألف الآخر من أناس محدودي الذكاء عُنُدٍ لا يتأخرون عن بذل أرواحهم انتصاراً لدين يَتِمُّ النصر لهؤلاء على أولئك لاريب، فهذا ما قُلْته غيرَ مرة في غير كتاب ، ففيه مِفْتاح كثير من حوادث التاريخ التي يَظَلُّ

(١) العقيرة : الصوت ــ (٢) الرجل : القطعة العظيمة من الجراد خاصة وهو جمع على غير لفظ واحده

إدراك أمرها متعذراً بدونه ، فإذا كان الرومان قد قهروا الإغريق ، و إذا كانت قبائل العرب التي هي من شِبَاه البرابرة قد خَرَجَت من جزيرتها ففتحت العالم الإغريقيّ الرومانيّ ، و إذا كان المسلمون قد ملكوا الهند ، ثم جاء إنكليزٌ قليلون فدوّخوها ، لم يتفق ذلك كلُّه لهؤلاء الفاتحين جميعهم إلا بفضل ما اتصفوا به من شدّة العزم أكثرَ من اتصافهم بقوة الذكاء ، فالعزيمة هي أقوى ما في البشر من القوَى .

و يُضاف إلى الخمول الذي هو أظهر صفات الهندوس عدم اكتراثهم الدالّ على الإذعان والتسليم بالقَدَر فيُمضي الهندوسيّ هادئاً عن كلّ ما لا يَمَسّ تعاليمَ طائفته ومعتقداته الدينية فيحتمل أقسى ضروب الجَبَرُوت عادّاً إياها أمراً مُقدَّراً لا مَفرّ منه .

وليست شجاعة الهندوسيّ مثلَ شجاعة الأوربيين ، فالهندوسيّ يزدري الحياة ولا يَهزُّه الموت ، ولا يحاول اجتنابه ، لما يَجده من عدم استحقاقه لذلك ، ولما يراه من أن كل عمل للفرار منه لا يُجدي نفعاً .

وعدمُ اكتراث الهندوسيّ لأكثر ما في هذه الدنيا يؤدي إلى عدم التأثير فيه بمثل العوامل التي يُؤَثِّر بها في الأوربي ، فكيف يُؤَثَّر في أناس لا يبالون بالحياة ولا بالموت ولا يشعُرون بشَيْنٍ من فرض أية عقوبة تَنُصّ عليها قوانيننا، ولاسيما السجن، ولا يطلبون في كل يوم غيرَ وَجْبَة أرز يَسُدُّون خَلَّتهم بها ؟ فالهندوس إذا ما نالوا مثل هذه الوَجْبَة لم تَجِد ما يُخرجهم من بَلادتهم ، فَعِد العامل الهندوسيّ أيّ مبلغ من المال مقابلَ عملٍ يقوم به في وقت معين وَنَلْ منه أيّ عهد بذلك لم يُنجز ما عاهدك عليه ، فالغدُ عند الهندوسيّ مستقبلٌ بعيد مشكوك في أمره كثيراً

فلا يدور فى خَلَدِه أن يُفكِّر فيه ، فالأوربىّ الذى اختبر الهندوسَ قليلاً يعلم جيداً أنه يجب عليه ، إذا أراد أن يعتمد على حَمّاليهم ، مثلاً ، ليكونوا حاضرين فى الزمن المُقرَّر ، أن يحمِلهم على النوم ليلاً أمام بابه .

ويجب على الباحث أن يدرس أحوال الهندوس عن كَثَبٍ ليعلم جهلهم بعضَ مشاعرنا البسيطة التى انتقلت إلينا بالوراثة كالدقة والضبط ، ومن ذلك أن الهندوس فى بدء إدخال الخطوط الحديدية إلى بلادهم كانوا يَصِلون إلى مَحطّاتها بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت المُقرّر لذهاب القُطُر ، فلما علموا بالتجربة أن القُطُر تَمضى من غير أن تنتظرهم صاروا اليوم يَفِدون إلى المحطات قبل الميعاد بساعتين أو ثلاث ساعات ، فمِنْ ثَمّ ترى أن خُلُق عدم الضبط فيهم لم يتغير، بل بَدَّل دليله على حسب تعبير علماء الجبر .

وقد عاملتُ هندوساً من جميع الطبقات ومنهم خرِّيجو الجامعات الأوربية ، فلم يحدُث أن أتانى واحد منهم مَرّةً واحدةً فى الوقت المعين ، مع أننى لم أجِد فى الهند إنكليزياً واحداً يُخلِف الميعاد .

ونحن ، بعد أن درسنا أخلاق الهندوس العامة ، نرى ، للوصول إلى حكمٍ صائب، أن نبحث فى صِلاتهم بالأوربيين وفى علاقات بعضهم ببعض .

يَألَم الأوربيون ذوو الصِّلات بالهندوس من مُداجاة هؤلاء وعدم صدقهم ، وهم يَنْسَوْن أن هذه النقائص من مقتضيات علاقات العبد بسيِّده ، فصِلاتُ الهندوس بعضِهم ببعض هى على خلاف ذلك ، وإذا ما اتخذنا احترامَ المرء لطبائع بلده وعاداتها

وشرائعها وما ينطوى عليه هـذا المرء من التقوى وروح التسامح مقياساً أمكننا أن نقول إن عوامَّ الهنـدوس أفضـلُ من عوامِّ الأوربيين وإننا كلما صَعِدْنا فى السُّلَّم الاجتماعية بدا لنا العـكس فرأينا فُقدان الأخلاق فى الهندوس الذين تخرَّجوا على الطريقة الأوربية فثبت لنا بذلك فساد النظرية القائلة إن التعليم يرفع مستوى أخلاق الناس وعلِمْنا بذلك أن التربية التى تلائم احتياجات أمةٍ فتَصْلُح لها تأتى بنتائجَ سيئة عند تطبيقها على أمة أخرى سلـكت طريقاً أخرى فى التطور .

وتقتصر تقوى الهندوسىِّ على أبنـاء طائفته ، ولا تَنْسَ أن هذا من مقتضيات أوامر دينه القائلة إن العمل يكون ذنباً على حسب أهمية المَجْنِيِّ عليه ، فمع أن شريعة مَنُو تَعُدّ شتم البرهمىِّ جنايةً تَنُصّ على أن أكبر جناية على الشودرىِّ من اللَّمَم [١] .

ولا أرى أفضل من قول الأستاذ الإنكليزى مستر مونير وليامز الخبير بأحوال سكان الهند فى أخلاق الجمهور الهندوسىِّ ، قال هذا الأستاذ :

« لم أرَ فى أية ناحية من أوربة شعباً ، كالهندوس ، متديناً مُتِمّاً لواجباته خاضعاً لأولياء الأمور مُحْتَرِماً ، مع خفضِ جناحٍ ، للسنِّ والعلم مطيعاً لأبويه ، أجَلْ ، إن للهندوس نقائصَ ومعايب ، ولـكن ذلك دون ما فى الأوربيين ، وإنى لأشُكُّ فى أن يكون أسوأ الهندوس ذا مساوىء وشوائب كما فى طبقات الأوربيين التى تقابل طبقته » .

ذكرنا صفات الهندوس الخُلُقيـة المشتركة على العموم ، فنرى الآن أن نُقدِّر مستوى أهليّاتهم العقلية ، ويتطلب هذا التقدير مقياساً فنتخذ الأوربيين مثالاً .

---

(١) اللمم : صغار الذنوب .

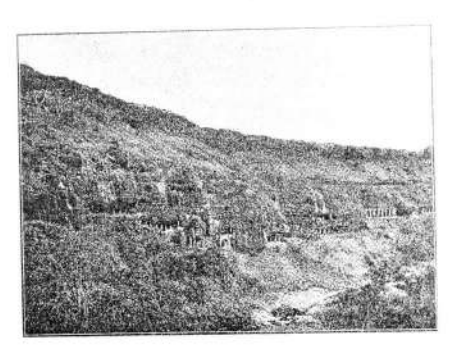
ولكي تكون المقابلةُ ممكنةً يجب أن تتناول عناصر متماثلة يُقاس بعضُها ببعض فنقابل بين هندوس الطبقات الوسطى بأوربيي الطبقات الوسطى ونقابل بين هندوس الطبقات العليا وأوربيي الطبقات العليا .

أشُكُّ في تأدية المقايسة بين طبقات كلا الفريقين الوسطى إلى تفوّق يذكر للأوربيين مهما بُولغ في التدقيق ، نَعَمْ ، إن الهندوسيّ دون الأوربيّ مبادرةً وأبطأُ منه عملًا ، ولكنه يستطيع أن يقوم بمثل ما يقوم به الأوربيُّ من غير عَنَاء وبآلات أقلّ من آلات الأوربيّ ، فيَصْنَعَ كأحسنِ عاملٍ أوربيّ أنواعَ المصنوعات الخشبية والحجرية والمدنية ، وما يؤدى إليه التّخَصُّص من إضعاف مستوى الأوربيّ لم يُؤثِّر في الهندوسيّ بَعْدُ ، والهندوسُ مثلُ الأوربيين ، إن لم يفوقوهم ، في القيام ببعض الفنون كفنّ العِمارة .

والهندوسُ مساوون للأوربيين في أكثر الأعمال التى لا تستلزم غيرَ أهليات عقلية متوسطة ، فتَجِد بين الهندوس محامين وأطباء ومهندسين يَعْدِلون من هم في المستوى المتوسط بيننا ، فالهندوسيُّ يستطيع كالأوربيّ أن يَرْسُم صورةَ بناء وأن يسوق قاطرة وأن يُدِير جِهازَ بَرْق ، وتَجِد الهندوس في الإدارات الإنكليزية بالهند يقومون بأكثر وظائف البريد والمصارف والمالية والخطوط الحديدية ، الخ .

ويبدو قصورُ الهندوس وعجزُهم عند الصعود في أعلى درجات المقياس العقلي حيث قوة المبادرة وروحُ الإبداع والقدرةُ على التأليف بين الأفكار الكثيرة وتفريقُ ما ائْتَلَفَ منها وما اخْتَلف ، فالهندوسيُّ يتعذر عليه أن يدير مشروعاً صِناعياً عظيماً وأن يقود الرجال وأن يقوم بالمباحث العلمية وأن يأتي بالاكتشافات وما إلى ذلك

كلّه من الأعمال التى تتطلب استقلالًا وحريةَ سيرٍ ، فالهندوسىُّ ، وإن سَهُل عليه أن يدير قاطرةً أو جهازَ برقٍ ، يستحيل عليه اختراعهما، وتقريباً للذهن نقول : إننا إذا جمعنا اتفاقاً ألفَ أوربىٍّ وَجَدْنا بينهم ٩٩٥ على الأقل لا يفوقون ألفَ هندوسىٍّ يُجْمَعون اتفاقاً أيضاً ، وإن الذى لا نَجِده فى الهندوس هؤلاء هو واحدٌ أو أكثرُ من ذوى المواهب العالية والأهليات النادرة .



٢٩ ــ أجنتا : منظر عام لمداخل قدم من الأديار والمعابد التى نحتت تحت الأرض فى منحدر الجبل بأجنتا بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد

هــذه مسألةٌ مهمة قد فَصَّلتها فى كتاب آخر فذكرتُ أن الفروق بين العرق العالى والعرق المتأخر لاتقوم على تفاوت فى مستوى كلا ذينك العرقين العقلىّ المتوسط ،

بل تقوم على عَطَل العرق المتأخر من رجال قادرين على مجاوزة ذلك المستوى ، وهذا أمرٌ أساسيٌ يمكن الاستدلال عليه في العوامل النفسية ، وهذا أمرٌ أساسيٌ قد سعيت في استنتاجه من العوامل التشريحية أيضاً ، فقد أثبتُ ، بما قمت به من المباحث في عِدَّة جماجمَ من عروق مختلفة ، أن العروق العالية تحتوي على الدوام مالا تجده في العروق المتأخرة من الجماجم الكبيرة الواسعة .

ولْنَتْرُك تلك المبادىء الفلسفية العامة ولْنُعَيِّن ما يختلف به هندوسيُّ الطبقات العليا عن أوربيِّ الطبقات العليا ، لنُبْصِر أن ذلك الهندوسيَّ يفترق عن ذلك الأوربيّ ، على الخصوص ، في عَطَله من روح الضبط والدقة وروح النقد وخُلُق المبادرة وأصالة الرأي وقوة البرهان وفي سِعَة خياله وفي عجزه عن رؤية الأمور كما هي عليه وما إلى ذلك من النقائص التي لا يَطْفُو عليها قدرتُه على الإدغام وما فيه من المنطق الذي لا يَعْدُو به حدّ استنباط عِدّة نتائج من الأمر الواحد فلا يستطيع أن يقابل بين المتشابهات والمختلفات التي تُستخرج من مقايسة شتى الأمور .

عَطَلُ الهندوسيِّ من روح الضبط واضح ، فالأمور تتموّج عنده ، كالضَّباب ، من غير ضابط ، فتبدو له كما لو كانت من خِلال عَدَسَاتٍ كالمرايا المُشوِّهَة التي يعرفها علماء الفيزياء ، فترى نُظُمه الدينية وأقاصيصه التاريخية وقصائده القومية مبهمةً متناقضةً ، ولهذا التناقض وعدم الضبط تجد أديان الهندوسيِّ ، ولا سيما البُدَّهِيَّة ، غامضةً لدى علماء أوربة الذين تعوّدوا دِقّة المنطق فلا يكون للكلمات عندهم سوى معانٍ صريحة معينة ، ولذلك يلوح الإلحاد والشِّرْك للأوربيّ ، مثلًا ، أمرين تفصل

أحدهما عن الآخر هُوَّةٌ عميقةٌ مع أنهما لا يَبْدُوان للهندوسيِّ إلّا أمرين يمكن التوفيق بينهما فتقرأ فى كتبه فرضَهما عليه .

وأمورٌ كفقْدان الضبط وتَمَوُّج الفِكْر ، وإن كانت تُحْتَمَلُ فى الإلٰهيات والأشعار والقصائد الدينية ، تُضْحى ثقيلةً غيرسائغة عند تطبيقها على الموضوعات التى لا بدَّ لها من الضبط ، وأمورٌ كتلك حالت دون مجاوزة الهندوس أدنى المراحل فى العلوم الصحيحة ، أَجَلْ ، قد هَضَمَ الهندوس ما عَلَّمَهم إياه العرب فيما مضى وما يُعَلِّمهم إياه الأوربيون فى الزمن الحاضر ، ولكنهم لم ينتهوا إلى اكتشاف واحد فى ميدان المعرفة .

ومن آية عدم الضبط ذلك أنك لاتجِد بين ألوف الكتب التى وضعها الهندوس فى ثلاثة آلاف سنة من سنوات الحضارة كتاباً واحداً يشتمل على تواريخَ صحيحة ، فاضْطُرَّ العلمُ الحديث إلى اتخاذ بعض الطرق المصنوعة كى يُعيِّن تعييناً تقريبياً الأزمنةَ التى ظهر فيها أشهر ملوكهم ، ولا تسأل عن أنبائهم التاريخية ، ففيها يتجلى لك استعداد الهندوس ، عن حسن نيةٍ ، لرؤية الأمور على غير ما هى عليه وروايةِ ما يشاهدونه مُحَرَّفاً مُبَدَّلاً .

وإذا أردنا إجمال ما ورد فى هذا الفصل عن الأخلاق المشتركة بين أكثرية الهندوس قلنا إن عوامَّهم ليسوا دون عوام الأوربيين ، وإنه ليس عندهم ما عند الأوربيين من أصحاب النفوس العالية ، وإن معظمهم عاطلٌ من النشاط والثبات والإرادة ، وإنهم مقسومون إلى عِدَّة طوائفَ مؤلفة من ألوف الزُّمَر التى ترى لكل واحدة منها جنسية خاصة ذات مصالح تختلف عن مصالح الأخرى ، وإن أحوالًا

كهذه تُفسِّر الدور الذى مَثَّلته الهنـد على مَسْرَح العالم والذى ستمثله ، فالهندُ ، إذ كانت أمَةً منذ الأزَل كُتِب عليها أن تخضع لسادةٍ من الأجانب على الدوام .

تمَّ البحث فى البِيئات والعروق التى هى عواملُ حضارة إحدى الأمم الأساسية ، وقد تجِد عوامل أخرى فى تطور هذه الحضارة ، ولـكنها تستند إلى البيئات والعروق على الدوام ، ونحن ، إذ فرَغْنا من بحثنا التمهيدىّ ، ندرس الحضارات التى أينَعَت فى الهند والتطورات التى اعتورتها فى غضون الأجيال .



البَابُ الثَّالِث

تَارِيخُ الهِند



الفَصلُ الأوّل

تاريخ الهند قبل المغازي الأوربية

---

(١) مصادر تاريخ الهند — نقص المصادر التاريخية — ليس للهند تاريخ — اقتصار تلك المصادر على المباني والكتب الدينية والأساطير وأقاصيص قدماء السياح — أهمية المباني والتماثيل والنصبات — لا يزيد تاريخ أقدمها عن ثلاثة آلاف سنة — الأسس لتقسيم تاريخي — (٢) العصر الويدى — العصر الويدى هو عصر الهند الأساطيرى — المغازى الآرية — كتب الويدا — (٣) العصر البدهى — فقدان الوثائق التاريخية — الغزو الإسكندرى — علاقات الإغريق بالهندوس — أشوكا ووكراماديته — عواصم الهند القديمة — (٣) العصر البرهمى الجديد — وثائق هذا العصر — دوامه — (٤) العصر الإسلامى — أهمية الغزوات الإسلامية — لم يبدأ تاريخ الهند الصحيح إلا فى هذا العصر — تعاقب الدول الإسلامية فى الهند — المغول — سقوط دولتهم — (٥) تاريخ جنوب الهند — تاريخ جنوب الهند مستقل عن تاريخ شمالها — ممالك الدكن الهندوسية القديمة — ممالك بنديا وجيرا وجولا وجالوكية — فتح المسلمين لجنوب الهند — سقوط دولة بيجانغر .

---

١ — مصادر تاريخ الهند

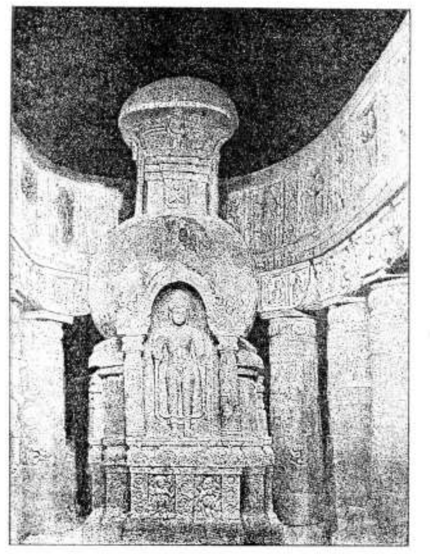
ليس للهند القديمة تاريخ ، وليس فى كتبها وثائقُ عن ماضيها ، ولا تقوم مبانيها مقام الكتب ما دامت لا تزيد فى القِدَم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد ، ولولا ما فى قليل من الكتب الدينية من أكداس الأساطير التى يُستَشَفُّ منها بعض الحوادث التاريخية لظلّ ماضى الهند مجهولاً جهلَ ماضى جزيرة الأطلنتيد التى يُحيط

بانقلاب جيولوجيّ فجاء ذكرها في الأساطير القديمة التي خلّدها أفلاطون .

وأقدم المصادر التي يُرْجَع إليها في تَبيُّن أثرٍ للماضي المفقود أشْعارُ ويدا الدينية التي كُتِبَت في أدوار مختلفة والتي تَصِل في القِدَم إلى ماقبل القرن الخامس عشر من التاريخ الميلاديّ تقريباً ، ثم تأتي القصائد الحماسية المعروفة بمهابهارتا وراماينا وشريعةُ مَنُو الدينية والاجتماعية .

وليست آداب الهندوس في عصرنا بأغنى منها في العصر الذي قبله ، والمصادر الوحيدة التي يمكن مراجعتها في الأمر هي المجموعات التي ألَّفها البورانا ووُضِعَت في أدوار مختلفة لا تُجاوِزُ القرن الثامن بعد الميلاد ومُلِئَت بالخرافات العجيبة وعَطِلت من أيّ تاريخ عَطَلًا لا يستطيع العلم الحديث أن يستنبط معه كبيرَ شيء ، فالحقُّ أن دور الهند التاريخيّ لم يَبْدَأ إلاّ بعد المغازي الإسلامية في القرن الحادي عشر بفضل مؤرخي المسلمين .

ونُضِيف إلى تلك المصادر الناقصة أقاصيصَ السُّيَّاح الذين زاروا الهند في القرون القديمة ، وهذه الأقاصيص قليلة جداً ، وليس لدينا مما هو خاصٌّ بما قبل المسيح سوى مختارات من أُحْدُوثَة ميغاستين السفير اليوناني لدى بَلاط مَغَدْها قبل الميلاد بنحو ثلاثمئة سنة ، ولم يَنْتَه إلينا عن الثلاثة عشر قرناً التي انقضت بين ذلك الزمن القديم والمغازي الإسلامية غيرُ قِصَّتَيْن للحاجَّيْن الصينيين فاهيان وهيو ين سانغ اللذين زار أولُهما الهندَ في القرن الخامس وزارها الآخر في القرن السابع ، وذلك خلا ما ورد في كتب المؤلفين من شُذُور ، وتُعَدُّ قصة ثاني ذينك الحاجَّيْن، على الخصوص، أهمّ الوثائق التي وَصَلَتْ إلينا عن الهند قبل الغَزَوات الإسلامية .



٣٠ ـ أجنتا . محراب معبد منحوت تحت الأرض (يبلغ ارتفاع التمثال الكبير متراً واحداً و ٦٠ سنتيمتراً)

وما في كتب التاريخ من نقص كبير عن الهند يُسْفِر عن أهمية الآثار الماثلة كالمباني والتماثيل والنُّصُبات[1] ، وأقدمُ هذه الآثار الأعمدةُ التي نَقَشَ أشوكا عليها مراسيمَه قبل الميلاد بـ ٢٥٠ سنة ، ثم يليها في القِدَم نقوش المباني العظيمة كَبَهارَت وسانجي وغيرها من التي أقيمت في القرن الأول من الميلاد أو قبله بقرنين أو أكثر ، فمن يُنْعِم النظر فيها يظفر بفوائد كبيرة عن طبائع الشعوب التي أقامتها وعاداتها ومعتقداتها وفنونها ويَعْلَمْ درجة تمدنها .

وإلى تلك الآثار التي لا يكاد أقدمها يرجع إلى ماقبل ثلاثة قرون قبل الميلاد تُضَاف المعابد المصنوعة تحت الأرض والتماثيلُ والنقودُ التي تُلْقي ضوءاً على تاريخ البُقْعَة التي أُنشئت فيها ، ومن ذلك أن كَشَفْنَا من بقايا التماثيل والمباني تأثيرَ الإغريق العميق في بعض المناطق بعد الإسكندر بِعِدَّة قرون ، أي بعد طرد الإغريق من الهند بزمنٍ طويل ، ومن ذلك أن نقوش المعابد تَكْشِف لنا عن منشأ ما انتاب الهند القديمة من المعتقدات وتطور هذه المعتقدات .

وللدين أثر بالغ في الهندوس على الدوام كما في أمم الشرق ، وبلغ الدين من الشأن العظيم في الهند ما نَقْدِر أن نتخذ به تطور المعتقدات أساساً لتقسيم تاريخي .

ويشتمل ذلك التقسيم الواسع ، الذي لم تُحَدَّد فيه الأدوار لتداخلها أو لوجودها معاً ، على الأعصر الآتية : ١ — العصر الويدي ، ٢ — العصر البرهمي ، ٣ — العصر البُدّهي ، ٤ — العصر البرهمي الحديث أو عصر النهضة البرهمية ، ٥ — العصر الإسلامي ، ٦ — العصر الأوربي .

---

(١) النصبة : الصورة التي تعبد .

١ — العصر الويدى

ترجع أوائل العصر الويدى إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وآيتها غزوُ الآريين للهند .

ويُعَدُّ العصر الويدىّ عصرَ تاريخ الهند الخرافىّ ، فكلُّ ما نعرفه عنه من علم قليل هو ما تكشف عنه الكتب الدينية المعروفة بالويدا والتى أُصيب فى تسمية أهمّها رِغْ ويدا بتوراة آريى شمال الهند الغربى .

عاش قدماء الآريين الذين استوطنوا ما بين جبال هِمَالَيَة وجبال وِندهيا فى البَداءة رعاةً أعراباً ، ومن المفروض أن قاموا بغزوهم شيئاً فشيئاً ، ويظهر أن اقدمَ كتبهم وُضع قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً حين كانوا لا يعرفون نظام الطوائف وحين كانوا يعبدون قُوَى الطبيعة غيرَ مقيمين لها معبداً ولا هيكلاً ، وإلى الشعوب التى مَلَكوها جَلَبوا لغةً وديانة جديدتَين ولم يأتوها بفنٍّ عمارة ، فهؤلاء الآريون الفطريون ، وإن كانوا قادرين على وضع الكتب ، لم يكونوا عارفين بشَيْد المبانى الحجرية ، ولا شىء يَدُلُّ فى أقدم كتبهم على أنهم أنشأوا معابدَ وقصوراً .

وسنعود إلى العصر الويدىّ فى الفصل الذى خَصصناه لدرس الحضارة الآرية بالهند ، فلا نرى أن نُسْهِب فى بيانه الآن كما أننا لا نُسْهِب فى بيان العصر البرهمىّ الذى خُتِم به ذلك العصر فنعود إلى دراسة حضارته ، وهذا إلى أن وثائق هذين العصرين التاريخية الصحيحة مفقودة ، وما انتهى إلينا من قصائد العصر البرهمى التى أيدتها أُحْدُوثة ميغاستين يُثْبِت أن الهند أخذت فى العصر البرهمىّ تُغطَّى بالمدن والمعابد والقصور ، وإن لم يَصِل إلينا أىُّ طَلَل لمبانيه .

٢ — العصر البُدّهي

يرجع ظهور البُدّهيّة فى الهند إلى الأساطير أكثر مما إلى التاريخ ، فلا نعرف عن عصرها الأول غيرَ ما ورد فى الكتب البُدّهيّة من الأحاديث الخيالية ، ثم أخذ صريح الحوادث يبدو والإبهامُ ينجلى بعد مغازى الإسكندر ، ولا سيا حين أضحت البُدّهيّة ديناً رسمياً قبل المسيح بنحو ٢٥٠ سنة ، ثم عاد الغموض بعد زمن قليل مع الأسف ، وبَقِىَ على ما كان عليه عِدّة قرون .

وقع غزو الإسكندر فى سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، فلما أتمّ الإسكندر فتح بلاد فارس عزم على فتح الهند لكى يصبح سيد آسية .

وما كان من انقسام منطقة البنجاب إلى عِدّة دُوَيلات مستقلة متنافسة يَسَّرَ للإسكندر بدء فتحه للهند ، والإسكندر حضر إلى الهند على رأس جيش مؤلف من ١٢٠٠٠٠ مقاتل ، وكانت نَوَاة هـذا الجيش من الإغريق وسياجُه من الفُرْس ، وكان لديه أدِلّاء من الهنود ، وكان على اتفاق مع رؤساء لسكان البلاد الأصليين ولا سيا مع ملك تاكشيلا الواقعة بين نهر السِّنْد ونهر جِهِلَمَ الذى كان يُعْرَف بنهر هيداسبس .

زَحَف الإسكندر من بقطريان إلى مدينة كابُل ثم سار إلى الهند فعَبَرَ نهر السِّنْد فاعترض له بُورَس ملك ما بين هيداسبس وجِنَاب فهزم هذا الملكَ ثم حالفه تاركاً له مملكته فخضع له إذ ذاك عِدّة ملوك ولا سيا ملك كشمير .

ثم زحف الإسكندر بعـد عِدّة وقائع ضدّ رؤساء من الأهالى إلى نهر هيفاس (المعروف اليوم بنهر بِيَاس) ، فلم يوافقه جيشه على السير إلى ما وراءه ، فأقام على

ضِفافه اثنى عشر هيكلاً تذكارياً لتكون علائمَ على نهاية الغزو ، فلما عاد إلى ضِفاف هيداسبس أنشأ أسطولاً فنزَل به إلى حيث يَصُبُّ في نهر السِّند ، ولم يفتأ الإسكندر يحارب إلى أن وَصَـل إلى بتيالة الواقعة على مصب نهر السِّند فأرسل أسطوله إلى الخليج الفارسي بقيادة نِيارْك وسار على الشاطئ ، ثم قسّم جيشه إلى فيلقين فأعاد أحدَهما من طريق كرمان إلى بلاد فارس بقيادة كراتر ورَجَع بالآخر من طريق جدروزيا (السِّنْد) ، ثم وَصَل ذلك الأسطول إلى الخليج الفارسي وتلاقى الإسكندر وكراتر فأقيمت الأعياد ابتهاجاً بالعودة من الغزو .

ولو نظرنا إلى غزوة الإسكندر من ناحية الفتح لقلنا إنها غير ذات نتائج لتلاشي الحاميات الإغريقية التي تركها في الهند في بضع سنين ، بيد أنه كان لتلك الحملة نتائجُ طيبةٌ لوصلها أوربة بالهند لأول مرة .

اغتنم الملك الهندوسيُّ جَنْدَرغُبْتَا (المعروف لدى الإغريق بساندروكوطوس) فرصةَ رجوع الإسكندر ، وكان ابناً لأحد زعماء البنجاب الذين شتّت الإسكندر شملهم ، فوسّع رُقْعَة مملكته في شمال الهند بالتدريج ، مُنَكِّلاً بالحاميات الإغريقية جاعلاً باتلي بوترا (بَتْنَة الجديدة) عاصمةً لمملكة مَغَذْها ، ولم يلبث أن ذاع صيته فأرسل نيكاتور السلوقيُّ ، الذي مَلَكَ بعد وفاة الإسكندر سورية و بلادَ بابل والولايات الواقعة بين نهر الفرات ونهر السند ، حوالَيْ سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، سفيراً إلى بَلَاطه اسمه ميغاستين ، فأقام هذا السفير الإغريقيّ زمناً طويلاً بباتلي بوترا ، فمن القصة التي ألفها هذا السفير فانتهى إلينا جزء منها اطلعنا ، لأول مرة ، اطلاعاً صحيحاً على طبائع الهندوس وعاداتهم في ذلك الزمن .

ولم تقتصر علاقات الإغريق بالهنـدوس على غزوة الإسكندر ولا على سفارة

ميغاستين ، فاليوم نعلم ، مع سكوت المؤرخين ، وذلك من النقود و بقايا المباني التي انتهت إلينا ، أن خلفاء الدولة الإغريقية البقطريانية التي أقامها نيكانور السلوقي فتحوا البنجاب وشادوا عِدّة ممالك ووَصَلوا إلى متزا ، وأن أفّاقاً اسمه ميناندر أسس سنة ١٢٦ قبل الميلاد مملكةً بين نهر جَمْنة ومصب نهر نَرْبَدَا .

والنقوش والنُّصُبات[1] والنقود هي كلُّ ما انتهى إلينا من تلك الممالك الإغريقية في الهند ، فمنها نعلم أن هذه الممالك زالت أمام مغازى الشيث حوالَى الميلاد ، وأن هذه المغازى بدأت في القرن الذي جاء قبل الميلاد ، وأن الشيث استولَوْا على شمال الهند الغربي فأقاموا مملكةً اشتملت على بقطريان وضِفاف السند والبنجاب وقسم من راجپوتانا وأن أجل هذه المملكة كان قصيراً ما احتمل طَرْدُ الشيث من الهند في أوائل القرن الأول من الميلاد .

ولْنَدَعْ جانباً هذا الجزء الغامض من تاريخ الهند الذي بعثته المباحث الحديثة ولنأت إلى چَنْدَرغپتا وخلفائه .

يُدْعَى حفيد چَنْدَرْغپتا بأشوكا الشهير الذي تَقَلَّد الملك سنة ٢٥٠ قبل الميلاد تقريباً ، ومما جاء في بعض الأساطير البُدْهِيَّة أن أشوكا هذا قَتَل إخوته المئة الذين وُلدوا لأبيه من ستَّ عشرة زوجة فأمِن بذلك أمر منافستهم له فبَسَط ملكه على جميع شمال الهند ، وتَتَّضِح حدود مملكته من الكتابات التي لا تزال موجودة ، فمنها نرى أنها قامت بين أفغانستان والبنغال وهِمَالْية ونَرْبَدا وأنها تاخمت مملكة الإغريق في بقطريان من الغرب .

---

(١) النصبة : الصورة التي تعبد .

وُبدئ تاريخ الهند المعمارىُّ بالملك أشوكا ، ولا يزال كثيرٌ من العَمَد التى رفعها لِتُنقَشَ عليها مراسيمه قائماً ، وأشهر هذه الآثار ، كالموجودة فى بهارت وسانچى وبُدَّهَة غَيَا ذاتِ النقوش البارزة المعتبرة فى تاريخ البُدَّهِيَّة ، صُنِع فى أيام ملكه أو بعدها بزمن قليل ، ولم ينته إلينا شىء من القصور التى أنشأها ، ونفترض ، مع ذلك ، أنها جميلةٌ جداً ، فقد روى الحاجُّ فاهيان ، الذى رأى أطلالها وأطلال برج قصره فى پاتلى پوترا ، أنها من الأعاجيب التى يَعْجِز عن صنعها إنسان .

وأشوكا ذلك هو الذى جعل من البُدَّهِيَّة دينَ الهند الرسمى ، وكان على جانب عظيم من الحَمِيَّة الدينية فأرسل مبشرين إلى كلّ ناحية ، حتى سيلان ، حتى مصر بالقرب من بطليموس فيلادلفيا .

ودام مُلْكُ آل موريَة الذين كان أشوكا أهمّ رجالهم نحوَ قرن ونصفِ قرن ، أى بين سنة ٣٢٥ وسنة ١٨٨ قبل الميلاد ، فبَعْد أن أديل منهم انقسمت الدولة التى شادها أشوكا إلى عِدَّة دُوَيْلات ذوات ملوك مستقلين ، واستطاعت مملكة مَغَدْها أن تدوم ، مع ذلك ، إلى القرن السادس من الميلاد مقتصرةً على البُقْعَة التى تُعْرَفُ فى عصرنا ببهار ، وتَجِد فى القوائم التى وَضَعَها الپورانا أسماء ملوك مَغَدْها لمدة ألف سنة ، ولكن هذه القوائم غيرُ موثوق بها .

والوثائقُ الوحيدة التى انتهت إلينا عن الهند بعد عهد أشوكا حتى الغزو الإسلامى هى المبانى وأساطير الپورانا ، فهذه الوثائق وما يضاف إليها من أحاديث الحاجَّيْن الصينيَيْن هى كلُّ ما نستطيع أن نَتَمَثَّل به حضارة الهند فى ذلك الدور الطويل .

ولم يظهر فى أثناء ذلك الظلام الدامس الذى دام اثنى عشر قرناً غيرُ قليل من الرجال ذوى الخطر فخَلَّدت أحاديث الهند ذكراهم ، وأشهرُ أولئك هو الرجل الأساطيرىُّ

وكرماديته الذى كان ملكاً لمالْوَا ومقيماً بأوجّين بالقرب من نَرْبَدَا ، ففى تلك الأحاديث أنه بَسَط مُلكه على بلاد الهند إلى أقصى جنوب الدَّكَن ، وعلى ما فى تاريخه من روح الأساطير نرى أنه مَثَّلَ دوراً مهماً فأرَّخ الهندوس سنة جلوسه فافترضوا أنها سنة ٥٧ قبل الميلاد فاتخذوها مبدأً للتاريخ المعروف بِسَمْوَا .

ومن دواعى الأسف أن خَلَتْ تواريخ الهندوس من الضبط ، شأنَ الهندوس فى كل أمر ، فمن البحث الدقيق فى المبانى والكتابات الحجرية يَثْبُت لنا أن وِكْرَماديته كان يملك بعد التاريخ المُدَوَّن فى الكتب بستمئة سنة .

وإلى هذا البطل تعزو الأساطير طَرْدَ الشيث من الهند ، والشيثُ كانوا قد أوغلوا بين إغريق بقطريان قبل الميلاد بقرنين فأخضعوهم ، ثم انتحل أحد ملوكهم كِنِشكا البدهيةَ فأقام قبيل الميلاد دولةً اشتملت على أفغانستان والپنجاب وراجپوتانا ، ولا نعلم عن تاريخ الشيث فى الهند غير أنهم نشروا الفن الإغريقىَّ فيها ، كما يشهد بذلك بعض التماثيل بمترا .

ونذكر من معاصرى وِكْرَماديته ، وذلك بحسب الكتابات التى فسّرها كننغهم ، الراجة هَرشاوَردهان الذى دام ملكه من سنة ٦٠٧ إلى سنة ٦٤٨ فقصَّ علينا الحاجُّ الصينىّ هيوين سانغ الذى زار الهند سنة ٦٣٤ أنه من أقوى ملوك شمال الهند ، وكانت مدينة قَنَّوج التى هى من أقدم مدن الهند عاصمتَه ، وهذه المدينة ظلّت مقراً لآل غُپتا مدةً طويلة ، ويُفتَرض أنها من مُهُود[1] الحضارة الآرية ، فذكرها بطليموس سنة ١٤٠ بعد الميلاد باسم قَنُّوجيا ، وكانت المملكةُ التى اتخذتها عاصمةً لها فى زمن هيوين سانغ تمتدُّ من كشمير إلى آسام ومن نيبال إلى نَرْبَدَا .

---

(١) مهود : جمع مهد .

وتقع قَنُّوج فى غرب أغرا وتبعد من نهر القَنْج بضع كيلومترات ، وأجمعت الأنباء على مدح جلالها ، وأُعجب السلطان محمود الغزنوى بها أيَّما إعجاب وقتما هجم عليها سنة ١٠١٦ من الميلاد فرآها حينما دنا منها ، على رواية فرشتة ، « مدينةً تُناطِح السماء بحصونها ومبانيها جديرةً بأن تَفْتَخِر بأنها لا نظير لها » .

ولم يبق من هذه العاصمة القديمة التى كان طولها خمسَ كيلو مترات ، على قول هيوين سانغ ، حجرٌ يُنَبِّئُنا بتاريخها ، وبلغ خراب مبانيها التى كانت قائمة قبل الغزو الإسلامى مبلغاً لم يقدِر كننغهم معه أن يَجِد طَلَلاً منها على ماقام به من بحث واستقصاء ، وكلُّ ما استطاع كننغهم أن يلاحظه من قديم فى مدينة قَنُّوج القديمة هو كتابةٌ يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٦ ميلادية ، أى إلى ما بعد الفتح الإسلامىّ بزمن طويل ، وما تراه فيها من المبانى فجميعه أقيم فى العصر الإسلامىّ وإن بُنِىَ بعضه من أنقاض المبانى الهندوسية القديمة .

وقَنُّوج هى من كُبْرَيات المواصم القديمة التى لا نَعْرِف تاريخها إلا من بعض الروايات المبهمة وبعض الكتابات ، ولا يجوز أن يُعْزَى إلى خيال الأدباء وحدَه ما وُصِفَتْ به عَظَمَةُ هذه المواصم بعد أن شاهدنا بقايا بعضها الذى نَجاَ من التخريب كمدينة كهجورا مثلاً .

كانت قَنُّوج وكهجورا ومَهوبا وغيرُها من المدن المشهورة ، التى لم يبق منها سوى الاسم أو الأطلال ، عواصمَ لدول قوية ، وأشهرُ هذه العواصم ما كان يملكها ملوك من العرق الراجپوتى الذى لا نزال نرى منه أُسَراً مالكةً فحافظ على نُظُمه وعاداته إن لم يَصُن استقلاله ، ومن المحزن أن بدأنا نعلَم تاريخ الراجپوت بعد أن

أخذوا يتصادمون هم والمسلمون ، أجَلْ ، استطاع المسلمون أن يُخَرِّبوا عواصمهم وأن يدحروهم إلى مناطق راجپوتانا الجبلية الوَعِرة ، غير أنهم لم يخضعوا لهم إلّا ظاهراً .

ذلك العصر الذى دام من زمن خلفاء أشوكا إلى زمن النهضة البرهمية فإلى المغازى الإسلامية هو ، إذَنْ ، كالعصر الذى جاء قبله غموضاً ، فلولا ما بَقِى من مبانيه لجهلنا أمره تقريباً .

٣ — العصر البرهميّ الجديد

ليس لدينا وثائقُ تاريخية عن عصر النهضة البرهمية أو العصر البرهميّ الجديد ، فالنقود والمباني هى المصادر الوحيدة التى يُرْجَع إليها فى تَنَوُّره .

ومن المحتمل أن شرع نفوذ البرهمية القديمة ، الذى لم يَغِبْ تماماً ، يبدو أيام آل كپتا الذين بسطوا سلطانهم على شمال الهنـد فى القرن الخامس من الميلاد ، ففى نقود ملوك قَنُّوج ودهلى ومَهُوبا ذكرٌ للعودة إلى المعتقدات القـديمة ، وفى القرن الخامس والقرن السادس لم ينفكَّ نجم البُدَّهِية عن الأفول ، فلما حَلَّ القرن السادس تَدَرَّسَتْ مبانٍ بُدَّهِيَّة ، ولما حَلَّ القرن الثامن غابت البُدَّهِيَّة عن الوجود تقريباً ، وسندرس فى فصل آتٍ سرَّ هذا الغياب مستندين فى ذلك إلى المباحث التى قُمْنا بها فى الهند .

وأخـذ يظهر مذهبٌ جديد اسمه الجَيْنِيَّة حينما بدأ ذلك الماضى المظلم ينجلى ، ولـكن معظم الهند قد شُطِر بين دِيانة وِشنو ودِيانة شِيوا ولم يَعُدْ حـدَّ النظر محافظةُ البرهمية الجديدة على الآلهة القديمة ، فما بين هذه الدِّيانة الجديدة والدِّيانة القديمة من فرق عظيمٌ جداً ، فالبرهمية الجديدة هى ، بالحقيقة ، مزيجٌ من قديم المذاهب الويدية والمعتقدات البُدَّهية ومختلف الخرافات الأجنبية .

ولم يُقطَع عصر البرهمية الجديدة التي خَلَفَت البُدَّهِيَّة في الهند في القرن السابع أو القرن الثامن من الميلاد بفعل الغَزَوات الإسلامية ، فالهندُ ، وإن خضعت لأتباع النبي وكثيرٌ من الهندوس وإن رَضُوا بالإسلام ديناً كما يدل عليه وجودُ خمسين مليون مسلمٍ في الهند ، حافظ معظم أهاليها على دينهم القديم ولا يزالون يزاولون شعائره حتى الآن .

٤ — العصر الإسلاميّ

مارس المسلمون في الهند مثلَ النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها ، ولا أمة ، كالمسلمين، تَمَّ لها من النفوذ البالغ ما تَمَّ للمسلمين كما أثبتناه في كتابنا «تاريخ حضارة العرب» ، ولا تستثنى الرومان من ذلك ، ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون غَيَّر فريقٌ كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييراً عظيماً وظلّ هذا التغيير بادياً بعد زوال ملكهم ، فعلى ما نَعلَمه من عدم تأثير الغزو الإغريقي للهند وعلى ما نراه من تَفَهِ النفوذ الإنكليزيّ في الهند تجد فيها خمسين مليوناً من الهندوس يَدِينون بدين محمد .

ترجع غَزَوات المسلمين الأولى للهند إلى القرن السابع ، ولم تكن هذه الغَزَوات سوى غارات مُوَقَّتة ، ولكنها لم تُسْفِر عن استقرار دائم ، وفي أوائل القرن الحادي عشر فقط بدأ غزوُ المسلمين الجِدُّ للهند بقيادة محمود الغزنوي .

محمود الغزنويُّ هذا من سلالة أفَّاق تركيّ أنشأ إمارة مستقلة في مدينة غَزْنَة الجبلية الواقعة في جنوب كابُل الأفغانية ، فلما زحف إلى الهند كان شمالها الغربيّ مقسوماً بين أمراء كثيرين من الراجپوت معترفين لراجة دهلي بالغَلَب والتفوق ، وكان

راجة قَنُّوج الذى هو سليل راما يملك إمارة أودهة و إمارة وادى القَنْج ، وكان آل پال يمْلِكون البنغال وبهار، وكان خلفاء وِ كَرَماديتة يَمْلِكون ملوا ، وكان جنوب الهند يشتمل على الممالك الهندوسية الثلاث التى سنتكلم عنها فى مكان آخر : چيرا وچولا و پنديا .

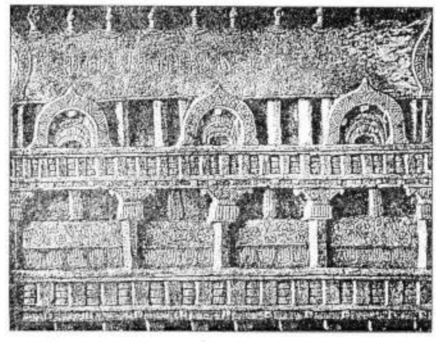
لم يُوَطِّد محمود الغزنوى سلطانه بسهولة ، فقد قاومه الراجپوت ، ولا سيما مَلِك لاهور أشدَّ مقاومة ، وما لاقاه من المصاعب الكبيرة غير التى لاقاها الإسكندر فلم تقلَّ الحَمَلات التى قام بها بين سنة ١٠٠١ وسنة ١٠٢٦ لإخضاع شمال الهند عن سبعَ عشرةَ حملة، ووصَلَ فى غزوه إلى الكجرات حيث انتهب معبد سومنات ، ولكنه لم يحتفظ بغير البنجاب ، فظلَّ الراجپوت مستقلين تقريباً ، ثم سار خلفاؤه على سُنَّته فى التوسع فهاجر الراجپوت إلى منطقة راجپوتانا الجبليـة الصعبة حيث أسَّسوا دُوَلاً لم تخضع بالحقيقة لأحد ولا للمغول ، وهى لا تزال مُلْكَ كثيرمن الأسَر الراجپوتية المالكة .

وما تَمَّ على يد محمود الغزنوى من فتح فذو طابع دينى سياسىّ ، فمحمودُ الغزنوى كان مسلماً متينَ العقيدة تَوَّاقاً إلى رفع شأن الشريعة النبوية فأعلن فى كل مكان أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم فأنعم خليفة بغداد عليه بلقب يمين الدولة .

وكانت الهند تتمتع ، حين أوغل محمود الغزنوى فيها ، بما لا عهد لها بمثله من الوَفْر واليُسْر ، وما لا يزال قائماً فيها من المبانى والآثار يُثْبِت أن وصف أدباء الشرق لها بعيدٌ من المبالغة ، وما كان يقع بين ملوكها المحليين من الحروب لا يُؤَدِّى إلاّ إلى تبديل مواضع خزائنها وكنوزها من غير أن تخرج منها مع أن ما عُرِّضَت له منذ قرن من امتصاصها المنظم قد نَهَكها تماماً .

وليس مما لا طائل فيه أن نُسهب فى ذلك الأمر لنطلع على سرّ غِنَى المبانى التى نَصِفها فى هذا السِّفْر فلم يجد مؤرخو الشرق ، حتى محمود الغزنوى نفسه ، مِن التعابير ما يُعْرِبون به عن إعجابهم بها .

فلما فتح محمود الغزنوى مدينة مترا سنة ١٠١٩ بَهَرَته أُبَّهتها فكتب يقول :



٣١ — بهارت . نقوش بناء هندوسى أقيم فى القرن الثانى قبل الميلاد تقريباً

« تحتوى مدينة مترا العجيبة على أ كثرَ من ألف من المبانى المتينة متانةَ أهل الإيمان والمصنوعِ أ كثرُها من الرُّخام .. وإذا عُدَّ المال الذى أُنفق على إنشاء هذه المبانى بلغ ألوف الألوف من الدنانير فضلاً عن أنه لا يقام مثل هـذه المدينة فى أقلّ من قرنين ، ووَجَد جنودى فى معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذواتِ عيون من ياقوت أحمر تساوى قيمته خمسين ألف دينار ، ووَجَدوا فيها صنماً آخر مزخرفاً

عا زِنَتُه أربعمئة مثقال من الياقوت الأزرق .. ووَجَدوا فيها ، فضلاً عن ذلك ، نحو مئة صنم من الفِضة يَعْدِل وَزْنها حمل مئة بعير » .

رأى محمود الغزنوىُّ مثل تلك العجائب فى جميع المدن التى دخلها ، ولا سيما فى قَنُّوج التى كان لها أن تُبَاهِيَ بأنها فريدة بمبانيها كما روى فرشتة الذى ذكرناه آنفاً ، فوَجَد فى أثناء الحملة التى قام بها سنة ١٠٢٤ لهدم معبد سومنات بالكجرات على الخصوص ، معبداً عجيباً ذا ستٍّ وخمسين ساريةً مصفحة بصفائح من ذهب ومرصعةً بالحجارة الكريمة ، وذا ألوفٍ من التماثيل المصنوعة من الذهب والفِضة والمحيطة بهيكله ، وذا صنم ضخم قائم فى وسطه مشتملٍ فى جوانبه على مقدار كبير من الحجارة الكريمة ، وذا حَشَم مؤلفين من ألفى برهمى وخمسمئة راقصة وثلاثمئة موسيقىٍّ ، ويُقَدَّر ما غَنِمَه المسلمون من الكنوز فى تلك الأثناء بنحو ٢٥٠ مليون فرنك أى بمبلغ عظيم جداً فى ذلك الزمن .

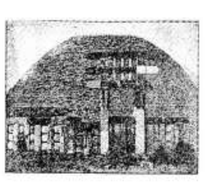
ولم يقلَّ دَهَش خلفاء محمودالغزنوى عنه تجاه الثَّروات والعجائب التى لاقَوْها فى كلِّ مكان بالهند، فقد هدم محمدالغورىُّ أصنامَ ألف معبد ببنارس وحَمَّل أربعة آلاف بعير من الغنائم التى استولى عليها ، و بلغ ما حمله جنود المسلمين فى حملتهم الأولى التى قاموا بها فى الدَّكَن من الذهب الكثير ما تركوا معه الأدوات الفضية لِثِقَل نقلها ، فلم تكن أوانى المعابد و بيوت الأغنياء مصنوعة إلاَّ من الذهب الخالص ، ولم يكن الناس ليتداولوا غير النقود الذهبية على عكس ما يقع فى أيامنا .

ودام سلطان آل محمود الغزنوىُّ الأفغانِ فى غزنة ولاهور من سنة ٩٩٦ إلى سنة ١١٨٦ حين طردهم محمود الغورىُّ رأسُ أُسْرَة الأفغان الثانية ، فسلك محمود الغورىُّ هذا فى فتوحه مسلكاً بسيطاً كُتِب له التوفيق به كما كتب لخلفائه ، ومنهم الإنكليز،

من بعده ، فقام ذلك على التدخل فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من نزاع وعلى الاستفادة من تنافسهم بإضعافهم ثم بالاستيلاء على ممالكهم ، فهو بعد أن توسّط حليفاً فى نزاع كان يُفرّق بين ملوك دهلى وقنّوج جمع مملكتيهم وألّف منهما دولة واسعة يَحُدُّها بنارس من الشرق وغواليار وكجرات من الجنوب جاعلاً مدينة دهلى مقرّاً للحكومة .

مات محمود الغورى فأعلن أحد وُلاته قطبُ الدين استقلاله فأضحى قطب الدين هذا رأسَ الأسرة الأفغانية المعروفة بأسرة الملوك المماليك التى دام سلطانها من سنة ١٢٠٦ إلى سنة ١٢٩٠ ، وإلى قطب الدين هذا يُعزَى إنشاء « منارة قطب » بدهلى.

والملكُ ألتمش هو أشهر ملوك هذه الأسرة ، ويُعدُّ مزاره الفخم من أشهر مبانى دهلى ، ودام عهده من سنة ١٢١١ إلى سنة ١٢٣٦ فحارب فى أثنائه عدّة مرّات ضدّ غارات المغول وفتن القبائل المحلية .



٣٢ — سانچى . منظر معبد مقبب (من المحتمل أن يكون هذا المعبد قد أنشىء فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد أنشىء السياج المحيط به والأبواب الكبيرة المؤدية إليه فى القرن الأول من الميلاد) (يبلغ ارتفاع القبة نحو ١٧ متراً ويبلغ قطرها ٣٤ متراً)

أُديل من الأسرة الغورية فقامت مقامها أُسْرة أخرى يُعَدّ علاء الدين من أشهر ملوكها (١٢٩٤ — ١٣١٣) ، لِما اتّسع به مَدَى الفتوح الإسلامية فى عهده ولِما كان له من الذوق فى الفنّ المعمارى مثل ما كان لأسلافه كما يشهد بذلك الباب المنقوش الذى يَحْمل اسمه بدهلى .

ومن سوء حظ هذه الأسرة الجديدة أن تفاقم خطر المغول الذين جُنِّدوا فى

جيشها المَلَكىّ شيئاً فشيئاً ، فلم يلبث زعيم هؤلاء المرتزقة أن أسَّس أُسرة أفغانية مالكة خامسة (١٣٢٠ — ١٤١٤) اشتهر منها فَيْرُوز وطوغلُق ، وامتاز ملوكها بالطابع الذى وَسَمُوا به فنَّ العِمارة .

وفى سنة ١٣٩٨ ، أيام ثانى ذينك المِلكين ، أغار تيمورلنك على الهند فسلَب دهلى فجاب الهند كإعصار فعاد إلى بلاده .

وكان الوُلاة يحاولون الاستقلال أيام انهماك ملوك دهلى فى الحروب فوُفِّق أكثرهم له فشادوا عِدَّة ممالك فتنافست عواصمها فى البهاء وزَيَّنَت أجيادها بقلائد من المبانى التى لا يزال عددٌ كبيرٌ منها قائماً .

سادت الفوضى بعد غارة تيمورلنك ، فحاول الوُلاة الذين استقلوا بالولايات الإسلامية أن يصبحوا أصحاب دهلى ، فتمكن اللودى ، حكامُ لاهور ، من الاستيلاء عليها فى سنة ١٤٥٠ فأسَّسوا أُسرة أفغانية مالكة سابعة دام سلطانها إلى سنة ١٥١٧ .

فى تلك السنة سَلَكَ حاكم لاهور الجديد تلك السُّنَّة فأراد الاستقلال فرأى إبرٰهيم لودى أن يحمِله على الخضوع فاستغاث بملك كابُل المغولىّ بَابَر الذى هو من حَفَدة تيمورلنك وجنكيزخان فأبصر بَابَرُ هذا أن فرصة فتح الهند سَنَحَت فلاح له اهتبالها فزحف إليها بجيش مؤلف من ١٢٠٠٠ رجل فغَلَبَ جيش لودى المؤلف من ١٠٠٠٠٠ رجل فاستولى على دهلى وعلى جميع شمال الهند .

بَابَر ذلك هو مُؤَسِّس آل الملك المغولىّ بالهند ، وهو الذى استطاع أن يُدَوِّخها، ثم مات فى أغرا سنة ١٥٣٠ بعد أن أصبحت أفغانستان وهندوستان قَبْضَتَه .

حافظ جنوب الهند على استقلاله فى مُعْظَم الدور الإسلامىّ الأول الذى لخصناه آنفاً ، وذلك خلا القسمَ المتوسط المجاور لِتَرْبَدَا الذى استولت عليه الدول الإسلامية

المستقلة ، ولم تخضع الهندُ بأسْرها لسلطان واحـد إلا فى الدور الأخير من الدولة المغولية ، وذلك لوقت قصير جداً ، فى شمال الهند ووسطها ، إذَنْ ، مارَس بابَر وخلفاؤه ملكهم .

اضْطُرَّ همايون (١٥٣٠ — ١٥٥٦) ، ابن مؤسس الدولة المغولية بالهنـد ، إلى الجهاد طويلاً فأُكره على الجلاء عن أغرا إلى السِّند حيث تَزَوَّج امرأة فارسية فرُزِق منها فى سنة ١٥٤٢ ابنه الذى اشتهر بالملك أكبر فيما بعـد ، ثم ثَبَّت دعائم مملكته فاستردَّ ما خَسِره فمات بالقرب من دهلى حيث لا يزال ضريحه ماثلاً .

وفى زمن خليفة همايون ، الملكِ أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) ، تَجلَّتْ عظمة الدولة المغولية بالهند ، فقد حاول هـذا الملك إدغام الهندوس بالمسلمين فتزَوَّج أميرات هندوسيات واتَّخذ وزراء له من المسلمين والهنـدوس معاً ، وأراد مَزْج فَنَّىْ عِمارة كلتا الأمتين ، ونستطيع أن نَتَبيَّنَ مقاصده من المبانى التى شادها وإن سكت التاريخ عنها ، ويُعَدُّ عهده الذى دام خمسين سـنة من أنضر العهود الجديرة بأطيب الذكر ، ونرى النُّظُم التى انتحلها من أكثر النُّظُم ملاءمةً للشعوب التى ملكها ، وكُتِبَ لـكثير من هذه النُّظُم البقاء بعدَه ، وقلَّدَها الإنكليز فى الغالب .

وأكبرُ ، إذ كان مرتاباً وكان يَعُدُّ الهندوس والمسلمين من المتعصبين ، احترم دِيانتيهم ، وشَجَّع بإنصاف إقامةَ معابد لجميع الأديان ، وخُيِّل إليه أن يَصْهَرَ الأديان فى دين واحد فحَبِط ما سعى إليه .

والملك جهانكير (١٦٠٥ — ١٦٢٨) من النوابغ أيضاً ، وإن كان دون أبيه أكبرَ أهميةً ، وهو ، إذ كان مرتاباً كأبيه مُتحَلِّياً مثلَه بخُلُق التسامح ، سار على سياسته فتزوَّج نساءً مسلماتٍ وهنـدوسيات فعامل هاتين الأمتين بإنصاف ، وكان

للنصارى الذين بلغ عددهم ستين شخصاً فى عاصمته نصيب من رعايته .

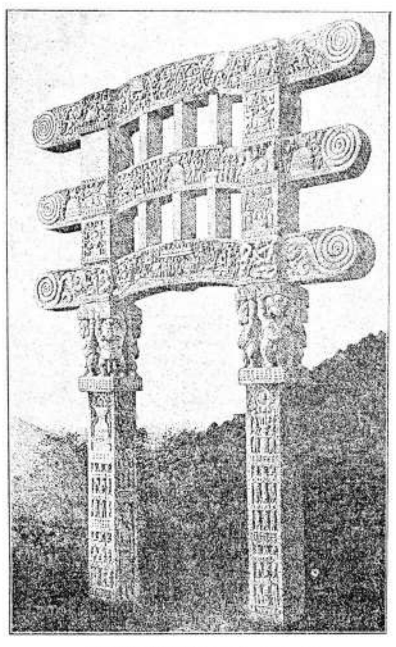
ولم يكن ابنه شاهجهان الذى خَلَفَه سنة ١٦٢٨ فدام سلطانه إلى سنة ١٦٥٨ متسامحاً مثلَه ، فقد حذف من فن العِمارة ما استطاع حـذفه من المؤثرات الهندوسية كما يدل على ذلك ما شاده من المبانى .

وفى سنة ١٦٣٧ استقرّ شاهجهان بدهلى وأنشأ فيها القصر الفخم الذى لم يسمح الإنكليز بغير بقاء جزء منه ، فيُعَدُّ ، مع ذلك ، من أجمل مبانى الدنيا .

وفى عهد شاهجهان أُقيمت أشهر مبانى المغول فنذكرُ منها تاج محل ومسجد اللؤلؤ بأغرا والقصرَ والمسجد الكبير بدهلى ، الخ .

وخَلَف أورنغ زيب أباه شاهجهان فى سنة ١٦٥٨ فدام ملكه إلى سنة ١٧٠٧ ، فكان يقيم بأغرا تارةً وبدهلى تارةً أخرى ، وفاق أباه قلةَ تسامحٍ تجاه الهندوس ، وأدّى بتعصبه إلى سقوط الدولة المغولية بالهند ، وذلك أنه قضى على مملكة بيجابور ومملكة غول كوندا الإسلاميتين فى الدكن فقضى على الحاجز الأخير القائم أمام أعدائه الذين كان المراتها أهمَّهم ، فأعَدَّ بذلك انحلال دولته العظمى ، فنحن لو عَدَدْنا أهمية الدولة بنسبة اتساعها لقلنا إن الدولة المغولية بالهند بلغت الأوْج فى عهد أورنغ زيب ، غير أنه كان ينطوى تحت هـذا الاتساع بذور الانحطاط التى لم تلبث أن محقَتْها ، فهى لم تَعِش ، بالحقيقة ، بعد الملك الذى رفع شأنها .

دام العصر الإسلامى الذى أجملنا تاريخه بما تقدم نحوَ سبعمئة سنة ، ولم تكن وَحْدَة الهند فى مُعْظَم هـذا العصر الطويل الذى امتدَّ إلى زمن أورنغ زيب فى غير الظاهر ، فقد أقام وُلاة المسلمين ممالكَ مستقلةً كمملكة غور ومملكة غولكوندا ومملكة بيجابور وغيرها من الممالك التى لا نرى البحث فى أمورها ، فالحقُّ أن الهند لم تُصْبح قَبْضَةَ سيد واحد إلاّ فى أيام أورنغ زيب ، وذلك لوقت قصير .



٣٣ ـ سانجى : منظر باب بعيد قليلا من المعبد المقبب
(يبلغ مجموع ارتفاعه خمسة أمتار و٢٥ سنتيمتراً)

لم تدُم تلك الدولة المُوحَّدة زمناً طويلاً ، فكان موت أورنغ زيب نذيرَ انهيارها ، فلم يكد أورنغ زيب يُتوَفَّى حتى وقعت الهند فى الفوضى العميقة، فأخذ المراتها والأفغان والسِّك والجات والراجبوت وأمراء مسلمون يتَلَهَّوْن بالنِّهاب و باقتطاع ممالكَ مستقلةٍ من الجُثَّةِ الضخمة فلم يبق لخلفاء أورنغ زيب الضعفاء سوى سلطة اسمية ، واستردَّ الدَّكَنُ استقلاله فأنشأ الوزير نظامٌ فيه دولة لا تزال قائمة باسمه حتى الآن واتخذ مدينة حيدر آباد عاصمة لها .

وفى سنة ١٧٣٩ أغار شاهُ الفرس نادرٌ على دهلى فغَصَب جميع ما جمعه المغول من الكنوز ، فآب بغنائمَ تُقدَّر بأكثرَ من مليار فرنك ، وفى سنة ١٧٤٧ استولى الأفغان على لاهور والپنجاب ، واغتنم المراتها الفوضى فنَزَعوا من الدولة أجملَ ولاياتها .

ولم يكن زوال مُلْك المغول كلّه وليدَ يوم واحد ، فقد ظلّ جالساً على عرش دهلى حَفَدَة أولئك الملوك ١٥٠ سنة أخرى ، بيْد أن سلطانهم أصبح اسمياً بالتدريج فكانت خاتمةُ أمرهم أن أضحَوْا موظفين لدى الإنكليز ، ولما أُسِر آخرهم فى سنة ١٨٥٧ كان سلطانه أقلّ من ظلٍّ فى المدينة التى كانت مقرًّا لآبائه .

وتَعُدُّ غزواتِ المراتها من أقوى الأسباب فى سقوط دولة المغول بعد موت أورنغ زيب وتقسيمها إلى عِدّة ممالك ، ونكاد نَسْدُل على هذه الغَزَوات ثوباً من النسيان لو كانت غاراتِ انتهاب كالتى قام بها الفرس والأفغان ، لا مغازيَ فتحٍ ، فقد كان المراتها يجمعون الهند بأسْرها تحت سيادتهم لو تمّ لهم النصر فترى الهندُ نفسَها إذ ذاك قَبْضَةَ الهندوس لأولِ مرَّة منذ قرون كثيرة، فيتطلب الفتحُ الأوربىّ حينئذ جهوداً غيرَ التى اقتضاها .

وكان المراتها يسكنون المنطقة المعروفة قديماً بمهاراشترا والواقعة فى الشمال الغربىّ من الدّكَن وفى جنوب ولاية بمبى الحاضرة مبتدئةً من جبال ساتپور ، وتجوب تلك المنطقةَ الجبليةَ فروعٌ من جبال كهات وجبال وِندهيا فكان يقيم بها أناس جبليون لم يخضعوا للمسلمين إلاّ ظاهراً .

بدا المراتها أعداء أشداء للدولة المغولية فى سنوات أورنغ زيب الأخيرة ، فما أظهره هذا الملك من قلة التسامح حملهم على شقّ العصا ، فجمع الأفّاق شيواجى المولودُ فى جوار بونا جيشاً من الأتباع ، بعد أن قضى عمراً فى قطع السابلة ، فاستطاع أن يقتطع مملكته التى لم تشتمل على غير جزء من مملكة بيجابور فى بدء الأمر فلم يلبث أن وسّع رُقعتها فى مُعْظم جنوب الهند ، فمات أورنغ زيب قبل أن يقهره مع ما قام به من الحروب الطاحنة .

ومملكة بيجابور الإسلامية هى الحاجز المهمُّ الذى كان يَقِى الدولةَ المغولية من المراتها ، بيد أن أورنغ زيب هَدَم هذه المملكة فاستطاع المراتها أن يقوموا بالمغازى والغارات أحراراً فى كل مكان .

فتح المراتها ، بعد موت أورنغ زيب ، أكثرَ الولايات الهندية بالتتابع ، ومثّل أمراء المراتها المتحدون دوراً عظيماً فى نصف قرن ، وإنهم لجادُّون فى تدويخ الهند بأسرها إذ وَقَفَتْهم مغازى الأفغان الذين كسروهم سنة ١٧٦٠ فى معركة بانى پت الشهيرة حيث قُتِل ٢٠٠٠٠٠ رجلٍ كما روى .

ومن نتائج غَزَوات الأفغان وتنافس أمراء المراتها وما اضطُرَّ إليه هؤلاء من محاربة أمراء المسلمين المستقلين أن دَبّ الضعف فيهم ، فاغتنم الإنكليز ذلك فاستطاعوا أن يقهروهم ، والإنكليز وَجَدوا بين أولئك من قاتلوهم بعنف مع ذلك ،

ولم يُتِمّ الإنكليز إخضاعهم إلا بعد أربع حروب انتهت في أوائل هذا القرن ، ولا يزال بعض أمراء المراتها مالكين لإندور وغواليار على الخصوص ، ولكنهم لا يتمتعون بشيء من السلطان السياسيّ على ما عندهم من جيوش كثيرة .

٦ — تاريخ جنوب الهند

جنوبُ الهند منطقة لا يرتبط تاريخها في تاريخ شمال الهند إلا عرضاً ، ونحن إذ لم نستطِعْ أن نطبّق عليه تقسيماتنا العامة نرى أن ندرسه في مطلب مستقل .

قسّم القدماء الهند إلى المنطقتين الكبيرتين : الهندِ الشمالية أو الهندوستان والهندِ الجنوبية أو الدّكَن ، واتُّخِذ وادي نَرْبَدَا في الغرب والجبال المجاورة لكَتَك على خليج البنغال فواصلَ لتينك المنطقتين ، واليوم لا يُطْلِقون اسم الدّكَن إلا على الهَضْبة الوسطى التي يَحُدُّها نهر نَرْبَدَا وجبال وِندهيا شمالاً ووادي كِرِشنا جنوباً وجبال كَهات الغربيةِ غرباً وجبال كَتَك وجبال كَهات الشرقية شرقاً .

وإذا عَدَوْتَ المسلمين وقليلاً من الآدميين القاطنين ببعض البِقاع المُعيَّنة وجدتَ سكان الدّكَن القديمة من ذوي الجلود السُّمْر الذين هم نتيجة توالد العروق السُّود الفطرية والغزاةِ الصُّفْر الذين أتَوْا من التبت لا ريب والمغولِ الذين أتَوْا من الغرب ، وهذا التوالد المُكَرَّر قد تَمَّ في عصورٍ أقدمَ من عصرنا كثيراً ، واليوم يبدو سكان جنوبِ الهند ، وإن شئتَ فقُل الدراويدَ ، من أكثر عروق الهند تجانساً ، فهم يَدينون منذ اثنى عشر قرناً بديانة واحدة ويتخذون فنوناً واحدةً ويتكلمون بلغات تكاد تكون واحدة .

ويظهر أنه لم يكن للبُدْهِية أثرٌ كبير فى سكان جنوب الهند ، وهـذا الأثر ، عند افتراض وجوده ، قد زال بسرعة ، فلا ترى بعد نهر كِرِشنا بناء بُدْهِيًّا .

ولِلْجَيْنِيةِ أثرٌ أكبرُ من أثر البُدْهِيَّة هنالك ، فلا تزال تجد لهـا أشياعاً حول كانجى وَرَمَ وفى ميسور ، وللإسلام أتباعٌ غيرُ قليلين هنالك أيضاً ، ولـكن البرهميـة ظلت دِيانة الأكثرين من سكان جنوب الهنـد ، ويُقَسَّم هؤلاء بين المذهبين : وِشنو وَشِيوا ، غيرَ أن معابدهم متماثلةٌ غـيرُ مختلفة فى سوى الرموز ، فنرى، لذلك ، أن نَضَع، من الناحية المعارية ، أكثر مبانى جنوب الهند فى فصل واحد بدلاً من أن نُصَنِّفها بحسب المدن والممالك كما نُضْطَرُّ إليه فى أمر مبانى شمال الهند ووسطها .

وتاريخُ جنوب الهند ، إلى دور المغازى الإسلامية ، أى إلى القرن الثالث عشر من الميلاد ، أشدُّ غموضاً من تاريخ شمال الهند ، فلا تجد فيه آثاراً أدبية كـكتب الويدا ومهابهارتا الخ ، ولا يجاوز ما أُلِّف من الكتب بلغة التمول أو اللغات الدراويدية الأخرى القرنَ الثامن بعد الميلاد قِدَماً ، ولا يجاوز ما أقيم من المبانى الحجرية وما نُقِش من الـكتابات الحجرية القرنَ الخامس بعد الميلاد قِدَماً .

ونستنتج من تقاويم الملوك وفتوحهم التى أشير إليها فى الـكتابات الحجرية ، وورودِ أسماء لممالك جنوب الهند فى مراسيم أشوكا قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وذِكْرِ أسماء بعض المدن فى كتب قدماء المؤلفين ، وجودَ ممالكَ فى جنوب الهند قبل الميلاد بخمسة قرون أو بستة قرون وإن كنا لا نستطيع قولَ شىء عن حضـارتها ، ومما لا مِراء فيه ، مع ذلك ، أن جنوب الهند لم يتمدَّن إلا بعد شمالها بزمن طويل .

ويمكن تلخيص ما نَعْرِفه عن ممالك جنوب الهنـــد قبل المغازى الإسلامية بما يأتى :

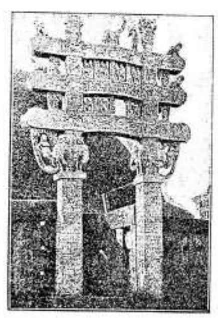
كان جنوب الهنـد مقسوماً ، قبل الميلاد ، إلى ثلاث ممالكَ كبيرةٍ ، مملـكةِ بنديا ومملـكة چولا ومملـكة چيرا ، وذلك بحسب أساطير الهنـدوس التى جاءت الـكتاباتُ الحجرية مُصَدِّقَةً لها ، وكانت مملـكة بنديا تلك تقع فى أقصى جنوب الهند ، وورد ذكرها فى المهابهارتا وفى مراسيم أشوكا وأحاديث ميغاستين ، ويُرى ، على العموم ، أنها كانت موجودة فى القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً وإن لم يَنْتَهِ إلينا شىء من تاريخها ، واتّخذت مدينةَ مَدُورا عاصمةً لها ، ومما لا شكَّ فيه أن كان لسكان مدينة مَدُورا هذه علاقاتٌ بالرومان كما تدلّ عليه النقود الرومانية التى وُجِدَت بالقرب منها .

ثم استولى بيتُ چولا المالكُ على مملـكة بنـديا حوالَى القرن الحادى عشر من الميـلاد فظلّ أمرها اسمياً إلى منتصف القرن السادس عشر تقريباً ، فلما حَلَّت سنة ١٥٥٩ استولى عليها راجه بيجانَغَر ، وشِيدَ فى عهد الملك تيرومل (١٦٢٣ـ١٦٥٩) ما فى مَدُورا من المبانى .

وكانت مملـكة چولا تقع فى شمال مملـكة بنديا وشرقها فتمتدُّ من وادى كولرون ووادى كاويرى إلى مستوى مدراس ، ومن اسمها اشْتُقّ اسم چول مَنْدَلَم الذى جعله الأوربيون كوروميندل .

ومن المحتمل أن تكون هذه المملكة قد قامت فى الزمن الذى قامت فيـه مملكة بنديا ، فقـد ذُكِرتْ فى مراسيم أشوكا وإن جهلنـا تاريخها مثلما نجهـلُ تاريخَ بنديا ، ونعلمُ ، مع ذلك ، أن ملوك چولا كانوا ، كما جاء فى الـكتابات الحجرية ، فى

عظيم يُسْرٍ ورَخاء بين القرن العاشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ، فقهروا جنوب الهند وامتدّ سلطانهم إلى سيلان التى كانوا قد استَولَوْا عليها فى سنة ٢٥٠ قبل ظهور المسيح على حسب ما جاء فى التواريخ السنغالية ، وبلغت فتوحهم البنغالَ ومملكة أُودَهَة فى الشمال ، فكانوا مالكين فى القرن الحادى عشر لأقوى ما عَرَفه جنوب الهند من الممالك ، بَيْدَ أن نفوذهم لم يَدُم طويلًا ، فقد كان آفِلًا قبل الغزو الإسلامى الذى وقع سنة ١٣١٠ .



٣٤ — سانجى . منظر الباب الكبير الشمالى (يبلغ مجموع ارتفاعه نحو تسعة أمتار و٦٠ سنتيمتراً) .

ويظهر أن عاصمة مملكة جولا فى القرن الثانى من الميلاد كانت مدينةَ أورايور القريبة من ترى جنابلى فنُقِلت إلى مدينة كُنْبَهَ كُونَم فى القرن الثالث فإلى مدينة تانجور فى القرن العاشر .

وكان الجيرا يملكون ناحيةَ الغرب من مملكة جولا وناحيةَ الشمال من مملكة بنديا وجزءاً كبيراً من ولاية ميسور الحاضرة ، وكانت مملكتُهم قائمةً قبل الميلاد ، فقد ورد ذكرها فى مراسيم أشوكا أيضاً ، وكانت هذه المملكة على جانب عظيم من القوة فى القرن الرابع والقرن الخامس من الميلاد كما تشهد بذلك تقاويمُ الفُتُوح المنقوشةُ قديماً على الحجارة ، وبلغت فُتُوح ملوكهم مَدًى بعيداً فى الشمال فافتخر مَلِكهم كُوغَنِى راجه الثالث فى إحدى الكتابات بوصول جيوشه إلى نهر نَرْبَدَا ،

وتمّ هـــذا الفتح حوالَى القرن الثامن من الميلاد ، فاستُدِلّ عليه من معبد قائم على الطراز الدراويدى فى إيلورا .

وكانت مدينة تلاكاد ، الواقعة على نهر كاويرى والبعيدة اثنى عشرَ فرسخاً من شرق ميسور ، عاصمة جيرا .

ويُضَاف إلى تلك الممالك الثلاث مملكةُ جالوكيا التى مَثَّلت دوراً مهماً فى فنّ العمارة على الأقل ، وكان ظهور هــذه المملكة بعد تلك بزمن طويل ، فقد قامت فى القرن السادس من الميلاد ، ثم غاب نجمها بعد ستة قرون ، وتُقَسَّم أُسَر جالوكيا المالكة إلى بيت جالوكيا الشرق وبيت جالوكيا الغرب على حسب ما كان ملوكهم يُقسِّمون الدَّكَن .

وكان سلطان ذينك الفرعين مبسوطاً ، فوق تلك الممالك الثـلاث ، على أملاك واسعة مشتملة على مملكة ميسور الحاضرة وجزء كبير من مملكة نظام الحالية ، وكانا يزعمان أنهما من العرق الراجبوتى فجاء طِراز مبانيهما الذى هو مزيج من طِراز الهند الشمالية وطِراز الهند الجنوبية مؤيداً لزعمهما .

وما تركه جالوكيا من المبانى قليـل ، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد نجَم عن اتخاذ المسلمين لِما كان يملكه جالوكيا من المدن ، كبيجابور وكُلْبَرغَه الخ ، مقراً لدولهم الكبرى فيما بعد ، ولتلك المبانى بعضُ الأهمية مع ذلك ، فقد رأى بعض المؤلفين أنها عنوان طِراز سَمَّوْه بالطِّراز الجالوكياوى .

وفى ولاية ميسور بلغَ ذلك الطِّراز غايته بين سنة ١٠٠٠ وسنة ١٣٠٠ من الميلاد ، فتجد أجمل نماذجه فى هُلاَّبيد وبيلور ، ومن المحتمل ألا تكون قد أُنشِئَت قبل القرن الثانى عشر من الميلاد ، ويُذَكِّرنا ما فيها من فَيْضِ الزخرف بالمبانى الجَيْنِيَّة ،

وليس ما يسترها من النقوش التى تُمَثِّل الآلهة الهندوسية شِيوا و پاروَتى ووشنو الخ ، بأرق من نقوش المعابد الدراويدية ، ونَعُدُّها مرحلةَ انتقال بين طراز شمال الهند وطراز جنوبها أكثرَ من أن تكون عنوانَ طِراز جديد .

وطَفِق جنوب الهند يُعَرَّض للمغازى الإسلامية منذ القرن الثالث عشر من الميلاد، وجاهد المسلمون عِدَّة قرون لفتح أقسام الدَّكَن المختلفة، ولم يُوَفَّقوا لتدويخ جميعه إلَّا لوقت قصير ، وفى الدَّكَن أقاموا ممالكَ قويةً و إن لم تكن من الشَّوْكة بما يقاس بأسهم فى شمال الهند ، وذلك كما يبدو لنا ، عند سكوت التاريخ ، من قِلَّة تأثيرهم الدينىّ واللغوىّ والفنىّ فيه ، ولم يصبح فن العِمارة إسلامياً ، مع ذلك ، إلا فى المدن التى ظلَّت بأيديهم زمناً طويلًا ، أجَلْ ، شاد ملوكٌ من الهندوس، كأحد ملوك مَدُورا ، قصوراً على الطِّراز الإسلامى ، ولكن تأثير هذا الطِّراز ظلّ فى المعابد الهندوسية كالعدم تقريباً .

وقعت مغازى المسلمين الأولى للدَّكَن سنة ١٣٠٦ فى عهد علاء الدين ، فبلغ الجيش الإسلامىُّ شاطىء ملبار فى سنة ١٣١٠ وخُرِّبت هُلَّابيدُ وميسورُ فى سنة ١٣١٠ ، وكان لوَرَنْغل مثلُ نصيبهما فى سنة ١٣٢٣ ، واسُرْعان ما تمَّ فتح شمال الدَّكَن فقام بأمور حكومته ، بعض الوقت ، وُلاة مسلمون تابعون لملوك دهلى مُتَّخِذون دَوْلَتْ آباد مقراً لهم .

لم يلبث أولئك الوُلاة أن نَشَدوا الاستقلال لأنفسهم فكان أولُ بيتٍ إسلامىّ مالك مستقل بيتَ ملوك بَهْمَنى الذى دام سلطانه من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٥٢٦ فاستطاع فى أثناء ذلك أن يَضُمّ إليه ساحل أوريسة بعضَ الزمن، ولم تُعَمِّر هذه المملكة أن قُسِّمت إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة متحاربة على الدوام ، وهذه

الممالك هى : مملـكة بيجابور (١٤٨٩ — ١٦٨٩) ومملـكة أحمد نَقَر (١٤٩٠ — ١٦٣٧) ومملكة غول كوندا (١٥١٢ — ١٦٨٧) ومملـكة بَرار (١٤٨٤ — ١٥٧٤) ومملـكة بِيدَر (١٤٨٩ — ١٥٩٩) ، فما كان من اقتتال هـذه الممالك منعها من التوسُّع فى جنوب الهند فَتَسْهُل على جنوب الهند أن يحافظ على استقلاله .



٣٥ ــ خريطة الهند الإسلامية فى عهد الملك أكبر
(القرن السادس عشر من الميلاد)
(خططها المؤلف)

والواقعُ أن جنوب الهند كان مقسوماً إلى منطقتين مختلفتين فى القرن الخامس عشر وفى النصف الأول من القرن السادس عشر ، فأما المِنطقة الأولى فـكانت واقعـةً شمال نهر كِرِشنا تابعةً للمسلمين ، وأما المِنطقة الثانيـة فـكانت واقعةً جنوب ذلك

النهر تابعةٌ لراجوات من الهندوس معدودين من عُمّال راجه بيجانَغَر ، وما في بيجانَغَر هذه من المباني الرائعة ، الخربة الآن ، شاهدٌ على ازدهار دولتهم فيما مضى .

وفي سنة ١٥٦٤ فقط وُفّق ملوك الدَّكَن المسلمون المتحدون لتقويض سلطان الهندوس في جنوب الهند وتخريب بيجانَغَر ، ولم يكن تدويخ جنوب الهند هذا إلا ناقصاً مع ذلك ، فقد قامت فيه عِدَّة دُوَيْلات ، كدُوَيْلَة تانجو ودُوَيْلة مَدُورا وغيرهما من الدُّوَيْلات التي حافظت على استقلالها بين الفِتَن إلى أن نزعه المراتها ثم الإنكليز .

استقرَّ المراتها بتانجور سنة ١٦٧٤ واستولى المسلمون على مَدُورا سنة ١٧٣٦ ، ثم استفاد الإنكليز الذين ثبّت أمرهم بمدراس سنة ١٧٣٦ من تلك المنازعات ففتحوا جنوب الهند بالتدريج ، وما أصاب مسلمي ميسور من الهزيمة سنة ١٧٩٩ في زمن تيپو صاحب أسفر عن تسلّم الإنكليز لزمام السلطة العليا في جنوب الهند وعن بسط سيادتهم عليه بأسْره ، وسنرى ، عما قليل ، كيف تمّ لهم هذا الفتح وما هي العوامل التي جعلته ممكناً .

الفَصلُ الثاني

صِلاتُ الهِندِ القَديمَةِ بالغَربِ

تاريخ الغزوات الأوربيــة

كيف فُتِحَت الهنــد

---

(١) صلات الهند بأوربة فى القرون القديمة والقرون الوسطى ـ كيف كانت الهند تتصل بأوربة فى القرون القديمة ـ العرب وحدهم كانوا واسطة ذلك ـ صلات الهندوس بالفرس ـ صلات الهندوس بالإغريق بعد غزو الإسكندر ـ صلات الهند بممالك بقطريان الإغريقية ـ اكتشاف طريق إلى الهند أيام قياصرة الرومان ـ طريق بحر أريثرة ـ معارف بطليموس عن الهند ـ انقطاع صلات أوربة بالهند مدة ألف سنة بعد الفتوح الإسلامية ـ رحلات علماء من العرب إلى الهند ـ بعثة ماركوبولو ـ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى القرن الخامس عشر ـ نتائج هذا الاكتشاف العظيمة ـ (٢) مؤسسات الأوربيين الأولى بالهند ـ محاولات البرتغاليين والهولنديين ـ إقامة أول شركة إنكليزية فى أوائل القرن السابع عشر ـ كره وكلاء الإنكليز فى البلاط المغولى ـ حلول الإنكليز محل البرتغاليين والهولنديين بالتدريج ـ تأسيس شركة فرنسية للتجارة فى الهند ـ (٣) الصراع الفرنسى الإنكليزى فى الهند ـ قوة الإنكليز والفرنسيين فى أوائل ذلك الصراع ـ محاولة دوپليكس طرد الإنكليز من الهند ـ استدعاؤه ـ حبوط عمل خلفه ـ اتساع الفتح الإنكليزى بسرعة بعد طرد الفرنسيين ـ (٤) كيف فتحت الهند ـ انتحال الإنكليز لأساليب دوپليكس ـ كيف فتح الإنكليز الهند بجنود هندوس ومال هندوسى ـ الصفات الخلقية التى أدت إلى استيلاء الإنكليز على الهند ـ نتائج فقدان الشعور القومى فى الهند .

---

١ — صِلات الهند بأوربة فى القرون القديمة والقرون الوسطى

كانت أوربة والهند تتبادلان سِلَعَهما منذ أقدم القرون ، ولكن بطُرُق عرضيّة،

وذانك العالَمان ، و إن كانا يتقايضان ، لم يتعارفا ، وتلك الصلات كانت تتمّ إما بطريق آسية الوسطى بعد أن تجوب السلع الهندية بلاد التتر و بلاد فارس و إما بطريق مصر بعد أن تقطع هذه السلع البحرَ الأحمر مارّةً من الخليج الفارسي وسواحل بلاد العرب، والعربُ وحدَهم كانوا واسطة هذه المقايضات ، وظلّ سكان اليمن الذين كانوا يُعْرَفون بأهل سَبَأ محتكرين لها زمناً طويلاً ، وكان تجار مصرَ ، بعد وفاة الإسكندر بـ ١٥٠ سنة ، ينالون سِلَع الهند بواسطة هؤلاء العرب .

وطرقُ اتصال العرب بالهند كانت ثلاثاً ، كانت إحـــداها بَرِّيَّةً والأُخْريان بحريتين ، فأما الطريقُ البرية فـكانت تَصِل بواسطة القوافل أعظمَ مراكز الشرق كسمرقند ودمشق و بغداد وغيرها بالهند مارّةً ببلاد الفرس وكشمير ، وأما الطريقُ البحرية فـكانت أكثر استطراقاً ، فـكان التجار الذين يسلُـكونها يأتون إلى موانئ الخليج الفارسيّ حيث يتسلمون سلع الهند لينقلوها إلى البحر الأحمر مُحَاذين سواحل بلاد العرب ، ومن البحر الأحمر كانت تلك السلع تُنْقَل إلى الإسكندرية حيث كان الفنيقيون ثم التجار الأور بيون من جنوه و بيزه والبندقية يأخذونها ليوزعوها بين مرافئ البحر المتوسط ، فـكانت مصر ، بذلك ، خطّ وصل بين الشرق والغرب وكانت تلك التجارةُ مصدرَ ثروتها المهمّ .

صِلاتُ الفرس بالهند كانت أُولى الصِّلات لا ريب ، فنعلم مما ذكره هيرودتس الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد أن دارا بن هِسْتَسْب « أراد أن يعرِف البحر الذى يصبّ فيه نهر السِّنْد » فأرسل بعثةً بقيادة سيلاكس فسارت هذه البعثة من جوار أتك الواقعة على ضِفاف نهر السِّند مع هذا النهر إلى البحر ثم أبحرت إلى الغرب

فوصلت إلى البحر الأحمر بعد سفر دام ثلاثين شهراً « فبعد أن تمّت هذه الرحلة البحرية أخضع دارا الهنودَ و بَسَط سيادته على ذلك البحر » .

ولم يكن الهنود الذين حكى عنهم هيرودتس فكانوا يدفعون إلى دارا الأتاوى[1] ، كما تشهد به الكتابات المسمارية ، إلا من الهمج المجاورين لنهر السِّند ، فنعلم مما رواه هيرودتس أن من عاداتهم أكلَ أقربائهم وأصدقائهم إذا مَرِضوا « وعدُّ نسائهم من الأنعام » ، ومن المحتمل أن دامت تلك الصلات فى عهد خلفاء دارا ، ودليلنا على ذلك وجود أفيال فى جيش ملك الفرس دارا قزمان حينما غَلَبه الإسكندر سنة ٣٣٠ قبل الميلاد .

ولم يَغْدُ أمر الهند معروفاً بعضَ المعرفة إلا بعد غزو الإسكندر سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، وكاد هذا البطل المقدونىّ لا يَمَسُّها ، فلم يُوغِلْ فيما هو أبعد من نهر السِّند ، ولم يبق أحد من جنوده فى الهند بعد عشر سنين من حملته ، فأسفرت هذه الحملة عن لفت الأنظار إلى الهند بعد أن كان أمرها مجهولاً تقريباً .

غادر الإسكندر بلاد الهند ، فلم تلبث الممالك التابعة له والمَرْزَبات[2] التى أقامها أن رفعت رايات العصيان ، ففَتَرت العلاقات التى تربط الهند بدولته العظمى بعد موته بالتدريج ، فبَدَت الهند طليقة من الفاتحين الأجانب بعد عشر سنوات .

على أن صِلات الإغريق بالهند دامت بواسطة ممالك بقطريان الإغريقية كما يُثْبِت ذلك خبرُ الوفد الذى أرسله مؤسسُ المملكة السورية السلوقىُّ بزعامة ميغاستين إلى پاتلى پوترا (پتنه) حوالَىْ سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، وهذه هى الرحلة الأولى التى نفذ

---

(١) الأتاوى : جمع الإتاوة وهى الخراج — (٢) المرزبة : الرآسة عند الفرس .

الأوربيون فيهـا قلب الهند فـكانت أُحْدُوثةُ ميغاستين التى انتهت إلينا المصدرَ الوحيد عن أحوال الهند فى ذلك العصر .

ومما لا شكَّ فيه أن الهدف المقصود من الوفد هو أن يُحَوَّل عن مصرَ إلى تَدْمُر ودمشق وأنطا كية مجرى التجارة الذى كان يَسْلُـكه العرب فيؤدى إلى اغتناء البطالمة كما أدَّى إلى إثراء خلفاء القاهرة فيا بعد ، فنشأ عن ذلك انتظامُ العلاقات بين بقطريان وشمال الهند الغربى انتظاماً نستدلّ عليه من المؤثرات فى مبانى شمال الهند الغربى .

أضحت مصرُ ولايةً رومانية سـنة ٣٠ قبل الميلاد فاعتقد أغسطس ، كما كان الناس يعتقدون ، أن بلاد العرب هى مصدر التوابل والأبازير مع أن العرب كانوا يأتون بها من الهند ، فوَجَّه إلى بلاد العرب حملةً لم يُكْتَب لها فوز ، وفى زمن القيصر كلوديوس ، أى فى القرن الأول من الميلاد ، دفعت ريحٌ سفينةً إلى سـيلان اتفاقاً فعُلِم بذلك أن من الممكن الوصولَ إلى الهند من سَوَاء البحر العظيم بفعل بعض الرياح بدلاً من محاذاة السواحل كما كان يُسار قبل ذلك ، فصار تجار من الرومان يقومون بهذه الرِّحْلة من مصر فى سبعين يوماً على رواية پلين فيبلغون مَنغلور الواقعةَ بين غوا وكاليـكت ، وفى ذلك الحين ألف تاجر إسكندرىٌّ كتاباً سَمَّاه « رحلة فى بحر أرِيثْرَة[١] » فنَجِد فيه بعض المعارف الجغرافية .

وما عَرَفه القدماء عن الهنـد فى القرن الثانى من الميلاد نَعلمه من كتاب بطليموس فى الجغرافية ، وما فى هـذا الكتاب من المعارف فـطحىٌّ مقصور على وصف الساحل .

---

(١) بحر أريثْرة : هو المحيط الهندى الآن وفى العصور الأولى أطلق اليونان هذا الاسم على المحيط الهندى وخليج العرب والخليج الفارسى (المترجم)

وقَلّت الصِّلات بالهند في دور انحطاط الدولة الرومانية ثم قُطِعت تماماً حينما فتح العربُ العالَمَ القديم بقيادة خلفاء محمد ، وظلّت مقطوعةً عن العالم النصرانيّ أكثَرَ من ألف سنة ، فمن أراد الاطلاع على حال الهند في القرون الوسطى فليطالع ما جاء في كتب سُياح العرب من الأنباء ، ومن هؤلاء السياح نذكر المسعوديَّ الذي زارها في أواسط القرن العاشر وابنَ بطوطة الذي طاف فيها سنة ١٣٣٠ ، الخ .

وزار الهند ، قبل سيّاح العرب ، حجاجٌ من الصينيين البُدّهيِّين ، وما رواه هيوين سانغ عن الهند في القرن السابع من الميلاد فأهمُّ ما انتهى إلينا عن الهند في ذلك الدور .

وأولُ من وُفّق من الأوربيين لدخول الهند رجلان من البندقية ، أحدُهما ماركو پولو الذي زارها في القرن الثالث عشر من الميلاد ، والآخرُ ، وهو من أبناء بلده ، زارها في القرن الخامس عشر من الميلاد بعد أن نَزَل من الفرات والخليج الفارسي فوَصَل إلى كَمْبي (كهمبات) .

وحَرَّكَت عجائبُ الهند الخرافية عواملَ الطمع في الشعوب الأوربية في القرون الوسطى ، فصار كلٌّ واحدٍ منها يبحث عن طريق للوصول إليها غيرِ الطريق التي منعهم المسلمون منها ، وليس بمجهول أن كريستوف كولونب وَجَد أمريكة في طريقه إلى الهند ، فاعتقد ، حين وَطِئ جُزُرَ الأنتيل أنه نَزَل إلى الجُزُر القريبة من شواطئ الهند ، فمات هذا الملّاح الكبير قبل أن يَعْرِف خطأه .

والبرتغاليون هم الذين وَجَدوا الطريق المنشودة فكان لاكتشافها أهمُّ النتائج ، ففي سنة ١٤٩٨ جاوز ڤاسكودوغاما رأسَ إفريقية الجنوبيَّ متوجهاً إلى الهند فبلغ كاليكت الواقعة على شاطئ مليبار من جنوب الهند .

والبرتغاليون ، حين وُفِّقُوا لهذا الاكتشاف الكبير ، وَصَلوا أوربة بالهند رأساً فقَضَوْا بذلك على تجارة مصرَ التى ظلّت مستودعَ السِّلع الهندية عِدَّةَ قرون ، ولم تنقطع علاقات أوربة بالهند منذ ذلك الحين فانقضّ كلُّ أفّاق أوربىٍّ عليها بُغْيَةَ استغلالها ، ومنذ أوائل هذا القرن فقط كُشِف أمر اللغة السّنسكرتية وتوالت البعثات العلمية على الهند بانتظام فكُشِف عن الهند ذلك الغِطاء الذى كان يَحْجُبها عن أوربة فكانت تُعَدُّ مكاناً لكلِّ عجيب .

٢ — إقامة الأوربيين الأولى بالهند

وَصَل ڤاسكودوغاما إلى سواحل الهند حيث يقيم زعيمٌ صغيرٌ اسمه زامورن الكاليكتى ، فاستولى ألبوكرك على غوءا فاتخذها عاصمةَ منطقة الهند البرتغالية ، ولم يَفتَأ البرتغاليون يَبْسُطون سلطانهم فدان لهم قِسْمٌ كبير من الساحل الغربى الممتد من ملبار إلى جزيرة كاتهياوار .

والبرتغاليون ، وإن عَرَفوا أن يفتحوا ، جَهِلوا المحافظة على ما فتحوا ، فلم يلبثوا أن تَوَارَوْا أمام أوربيين آخرين حينما أتَوْهم لينافسوا .

والهولنديون أول من بدأوا بمنافستهم ، فكانت حملتُهم الأولى فى سنة ١٥٩٦ ، فلم ينقَضِ نصفُ قرن حتى طردوهم ، والهولنديون لو لم يُزَحزِحهم الإنكليز عن مكانهم لأقاموا فى الهند إمبراطورية عظيمة ، ولكن موارد هولندة إذ كانت ضعيفة فى أوربة لم تَقْدِر هولندة على مقاتلتهم باستمرار فتَخَلَّت عن مكانها لهم .

وفى سنة ١٦٠٠ ، أى فى عهد الملكة إليزابت ، أُلِّفَت أول شركة إنكليزية

للتجارة فى الهنـد فبدَت وضيعةً فى أوائل الأمر ، وبدَا وكلاؤها الذين بُعِثوا إلى بَلاط المغول خُشَّعاً ، وفى سنة ١٦٠٨ ، حين ظهر هوكِينز الإنـكليزى سفيراً لملك إنـكلترة جيمس الأول ولشركة الهند الإنـكليزية لدى بَلاط الملك جهانـكير المغولى قال له وزراء هذا الملك إن ملك إنكلترة ليس غيرَ سيدِ جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون ، فلما مضت سنتان ونصف سنة على إقامته هنالك من غير أن يظفر بطائل عند الملك المغولىّ ضَرَع إليه أن يُعْطِيَه كتاباً إلى مولاه فقال له الوزير الأول إن مما لا يناسب قَدْرَ ملك مغولىّ أن يكتب إلى أمير صغير كملك إنـكلترة .

بَيْدَ أن تلك الشركة الإنـكليزية لم تَقْنَط ، فنالت ، بالدسائس ، بَرَاءة من الملك المغولىّ سُمِح لها فيها بأن تتاجر فى سُورت ، فاتسعت دائرة أعمالها بالتدريج فـكان لها فى أقلّ من ستين سنة فروعاً فى كل مكان تقريباً ، فاشترت فى سـنة ١٦٦١ مدينة بمبى من البرتغال ، ثم اسـتقرت فى سنة ١٦٧٧ بمدراس ، ثم عَيَّنَت فى سنة ١٦٨١ قائداً لـكتائبَ بالهند ، ثم أرادت فى سنة ١٦٨٦ أن تقاتل كتائبَ الملك المغولىّ بالبنغال فهُزِمَت .

قام الإنـكليز مقام البرتغاليين والهولنديين شيئاً فشيئاً ، ولـكنهم لم يُعَتِّموا أن قابلوا أعداء آخرين طامعين فى فتح الهند وجهاً لوجه ، فرأوا أن يُزيلوهم من طريقهم أيضاً ، فهؤلاء المنافسون الجُدُد هم الفرنسيون الذين أخذوا يُثَبِّتون أقدامهم فى الهند وإن أتوها متأخرين ، فقد أنشأوا فى سـنة ١٦٦٤ شركةً فرنسية للتجارة فى الهند تحت رعاية كولبر .

لم تفـكِّر دولةٌ أوربية ثانيةٌ فى بَسْط سلطانها ، ولو قليلاً ، على جزء من داخل الهند ما ظلَّت دولة المغول قائمة ، مكتفيةً بما لها من المؤسسات فى سواحلها ، ولـكن

أبواب المطامع فُتِحَت بوفاة أورنغ زيب الذى كان موته نذير انهيار سلطان المغول ، فلما تم انحلال الدولة المغولية العظمى قامت على أنقاضها عِدّة ممالك فصار من الممكنات إقامة إمبراطورية جديدة فى الهند بالتَّدَخُّل فيما يقع بين أمرائها الكثيرين من المنازعات الداخليــة ، وفى الهند كان الفرنسيون والإنــكليز وحدَهم ثابتى الأساس قادرين على وِراثة تلك التَّرِكة التى يتنازعها كثيرمن الخصوم ، فلَسُرْعان ما اصْطَرَعوا .

٣ — الصراع الفرنسى الإنــكليزى فى الهند

أوّل نزاع بين الفرنسيين والإنــكليز كان فى جنوب الهند ، ففى جنوب الهند كانت الفوضى عظيمة ، فكان مُعْظم الدَّكَن مِلْكاً لمملكة حيدر آباد المستقلة ، وكان أمير أركت يدير كِرناتك بالنيابة عن حيدر آباد ، وكان أقصى الجنوب مقسوماً بين الممالك الهندوسية : ترى جنابلى وميسور وتانجور ، وكان الفرنسيون يملكون بونديچيرى ومتاجرَ غيرذات قيمة فى ماهى وكارى كَل وچندر نَغَر ، وكان الإنكليز يملكون مدراس وبمبى ومرافىء كثيرة على الشاطىء ، وكان امرائها يَشُنّون الغارات على كلّ مكان .

وَقَعَت الحرب بين فرنسة وإنــكلترة فى أوربة سنة ١٧٤٠ فعَنَّ لدوپليكس الذى عُيِّن سنة ١٧٤١ حاكماً عاماً للممتلكات الفرنسية فى الهند أن يَطْرُد الإنكليز من الهند وأن يُحَوِّلها إلى إمبراطورية فرنسية ، فوُفِّق سنة ١٧٤٦ لإجلاء الإنكليز عن أكثر مراكزهم ، ولا سيما عن مدراس بعد وقائعَ كثيرة ، فلم يلبث أن أصبح

سيد ساحل الهند الشرقيّ بأسره ، وهو إذ رأى أنه لا يَقْدِر أن ينال من حكومته رجالاً ولا أموالاً عقــد عزيمته على عدم مطالبتهـا بأيّ مَدَد وعلى فتح أعظم إمبراطوريات العالم وطَرْدِ جميع الإنـكليز بثات الأوربيين الذين هم كلٌّ من بَقُوا عنده مستعيناً بنائبه بوسي .

واغتنم دو پليـكس فرصةَ وفاة نظام حيدر آبادر فأُجْلِس أحدَ أنصـاره على عرشه وتَمَـكَّن من نصب أميرٍ مُوَالٍ على أرْكُت ، ودو پليـكس ذلك عُيِّنَ ، فى مقابل ما ساعد به كثيراً من الأمراء ، أميراً على جميع البقاع الواقعـة جنوب نهر كرشنا ، أى على بلاد تَعْدِل فرنسة مِساحةً وتزيد دخلها عن خمسةَ عشر مليونَ فرنك ، وهكذا استفحل أمر دو پليكس وعَظُم نفوذه من غير أن يُـكلِّفَ فرنسة شيئاً ، فلما رأى الإنـكليز أنهم كادوا يُجْلَوْن عن جميع ما يملـكون فى الهند تَذَرَّعوا بِحَوْكِ الدسائس فى قصر فرساى فاستطاعوا ، بوسائلَ لا يزال أمرها سِرًّا غامضاً ، أن يَحْمِلُوا لويس الخامس عشر على استدعاء دو پليكس وعلى ترك جميع ما فَتَحَه ، فـكان هذا أخزى عهدٍ قطعه ملكٌ فرنسيٌّ .

يَئِس دو پليـكس فعاد إلى فرنسه ليموت فيها بائساً ، ومن المؤسف أن أطاع أمر استدعائه بعــد أن أصبح ، بالحقيقة ، أميرَ عِدَّة ولايات واعترف ملك المغول بإمارته وعاد لا يخشى ضياعها ، فلو خالف أمر مولاه ذلك لأسدى إلى فرنسة خدمة لا تُقَدَّر بثمن ما دامت تلك المعاهدة الشائنة لم تَحُلْ دون محاربة إنـكلترة ثانيةً فى سنة ١٧٥٧ ، ولم يكن مُجْدِياً عزمفرنسة ، إذ ذاك ، على تجديد ماصنعه دو پليكس بعد أن أُقْصِيَ عن الهند هذا الرجلُ العظيم ، فَخَلَفه الأسيف لالى الذى جُهِّزَ بوسائل لم يَنَلْ دو پليـكس مثلَها فى أيّ زمن فلم تنفعه هــذه الوسائل ما عَطِل من دهاء

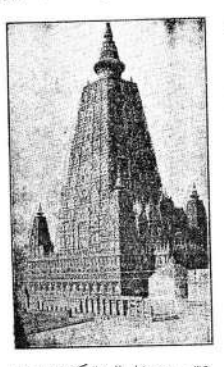
كدهاء دو پليكس ضروريٌ لتمام النصر له ، فقد غُلِب فى كلّ مكان فخَسِر فى سنة ١٧٦١ حتى پونديچيرى فعاد إلى فرنسة فحُكِم عليه بالقتل فقُتِل مع أن الإنصاف يقضى بقتل أولئك الذين استدعَوْا دو پليكس فأضاعوا على فرنسة إمبراطورية الهند .

تخلّص الإنكليز من مزاحمة الفرنسيين فخَلا لهم الجوّ فاتسعت فتوحهم بتدخلهم الدائم فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من منازعات و بتسليط بعض هؤلاء الأمراء على بعضٍ ، فكانت هزيمة ملك ميسور الأخير تيپو صاحب فى سرنغاپتم فى أواخر القرن السابق ، وكانت محاربتهم الطويلة للمراتها فى أوائل هذا القرن الصفحاتِ الأخيرةَ المُهِمّةَ لفتحهم الهند ، ثم ضُمّت إليهم بالتدريج الممالك الهندية التى لم يستولوا عليها بعدُ متذرعين للوصول إلى هذا بأية ذريعة ، وعاد الأمراء ، الذين لم تُنزَع أملاكهم لِما قاموا به من الخِدَم ، لا يمارسون سلطة سياسية وأضحَوْا معدودين من أتباع إنكلترة ، ومملكةُ نيپال وحدَها هى التى حافظت على استقلالها التام إلى أيامنا .

٤ — كيف فُتِحَت الهند

ليس من مقاصدنا أن نُفصِّل فى هذا الكتاب الوقائعَ التى قام بها الإنكليز لفتحهم الهند ، ولكن من المفيد أن نشير إلى المبادئ العامة التى سار الإنكليز عليها ، وتلك المبادئ قد اهتدى إليها دو پليكس الذى هو من أكبر دُهاة التاريخ ، فأنصفه الإنكليز فأقرّوا بأن اتخاذهم لأساليبه أدى إلى فتحهم الهند التى لم يتخلّوا بتدويخها فى أى زمن ، فاسمع ماقاله المؤرخ الإنكليزى الكبير ماكولى : «دو پليكسُ

هو أول من أدرك إمكان إقامة إمبراطورية أوربية فى الهند على أنقاض المملكة المغولية ، فقد وضع هذا الداهية ذو النظر الثاقب خطةَ ذلك حين كان أمهرُ موظفى الشركة الإنكليزية لا يفكرون فى غير تنظيم قوائم الأوْسَاق[1] وحساباتها ، ولم يقتصر دوپليكس على انتحال غرض ، فقد قدّر ببصره الحديد الوسائلَ المؤدية إلى بلوغ ذلك الغرض ، فرأى أن جميع ما يُمْكِن أمراء الهند أن يحْشدوه من الجيوش فى ميدان القتال لا يقدر على مقاومة فئة قليلة من الجنود المُدَرَّبين الذين يُقادون بحسب فن الحرب الحربى ، ورأى أيضاً أن أهالى الهند يمكنهم أن يتحولوا إلى كتائب يُبَاهِى بقيادتها مرِشالُ سكس أو فردريكُ الكبير إذا كان على رأسهم زعماء أوربيون ، ورأى أيضاً أن أفضل ما يستطيع أن يتمسك به أفَّاقٌ أوربىٌّ ليَصِل إلى الحكم فى الهند هو أن يُوَجِّه الأحوال والأهواء وأن يتكلم بلسان إحدى اللُّعَب الفخمة التى تحمل ألقاب الملوك



٣٦ — بدهه غيا . المعبد الكبير (يبلغ ارتفاعه ٥٢ متراً) (تدل صورة هذا المعبد التى التقطها المؤلف على حاله الحاضرة بعد ترميمه وإصلاحه، وقد أنشئ قبيل الميلاد ونرجح أن يكون سياجه الذى يرى بعض أنقاضه فى هذه الصورة قد أقيم فى زمن أشوكا،أى فى القرن الثالث قبل الميلاد)

---

(١) الأوساق : جمع الوسق وهو الحمل .

أو الأمراء ، فكان دو پليكس أولَ من طبقوا فنون الحرب والسياسة التى سار عليها الإنكليز بعد سنوات قليلة مُوَفَّقِين » .

ثم كَرَّرَ الفيلسوف الإنكليزى ستيوارت ميل ما قاله ما كولى تقريباً عندما بحث فى أسباب فتح الإنكليز للهند فقال : « إن الاكتشافَيْن المهمَّين اللذين انتهى الفرنسيون إليهما لفتح الهند هما : ضَعْفُ جيوش الاهالى تِجاه الكتائب الأوربية المُدَرَّبة ، وسهولة تدريب من يستخدمهم الأوربيون من الأهالى على النظام الأوربىّ الحربىّ » .

وإلى ذينك السببين يعزو الإنكليزىُّ المفضال الأستاذ سيلى فتحَ الهند ، فبعد أن ذكرهما فى كتاب نشره حديثاً لم يَرَ أن ذلك الفتح نشأ عن بَسْطَة الإنكليز فى الخَلْق والخُلُق كما يَتَشَدَّق به بعض هؤلاء ، وعلى ما أراه من عدم القسوة على الإنكليز ، خلافاً للأستاذ سيلى الشديد فى حكمه على أبناء قومه ، أُضِيفُ إلى السببين المذكورين آنفاً عنادَ الإنكليز وعزمَهم الذى لا ينثنى ، ففى هذين الخُلقين سِرُّ سياستهم وبقاء سلطانهم .

وليس ذانك الاكتشافان وحدَهما ما أسفرت عنه عبقرية دو پليكس ، فالإنكليز مَدِينُون له ، أيضاً ، باكتشافٍ ثالث طَبَّقوه ، فقد قام هذا الاكتشاف ، الذى هو مثل ذينك الاكتشافين أهميةً ، على إمكان تدويخ مستعمرة بأموال أهاليها المغلوبين ورجالهم ، ومن الغريب أن يَعْجِز الفرنسيون عن العمل بهذا المبدأ الذى اهتدى إليه واحدٌ منهم ، فقد أثبت مثالُ تونكنَ ومثال الجزائر وغيرِهما من الأمثلة درجةَ عجز المكتشفين لأحد المبادىء عن تطبيق هذا المبدأ فى بعض الأحيان .

والإنكليز ، حين اتخذوا مبادىء دو پليكس نِبْراساً لهم ، توصلوا إلى فتح الهند

برجال الهندوس وأموالهم ، وإن شئت فقل بجنودٍ غيرِ جنودهم ونقودٍ غيرِ نقودهم[١]، فالحقُّ أن الهند دانت للإنكليز بجيوش مؤلفة من الهندوس و بأموال أدتها حكومات من الهندوس .

وقد يَعْجَب الإنسان ، أولَ وهلة ، من قهر تلك الملايين الكثيرة بسهولة ، مع أنه يجب أن تكون جيوش الفاتحين مؤلفةً من جنود كثيرين ، لا من بضعة آلاف من الجنود ، ولكن عجبه يَبْطُل إذا قرأ فصولَ هذا الكتاب السابقة ، ففيها يرى أن كلة « الهنـد » ليست سوى تعبير جغرافيّ وأن الهند بلادُ شعوبٍ مختلفة أشدَّ الاختلاف ، وأنها لا تحتوى على ما تَعْرِفه أوربة من معنى « الأمة الواحدة » ، أى وَحْدَةِ العرق واللغة والمشاعر المؤدية إلى وَحْدَة المصالح ، وأنها لا تشتمل على قومية هنديةٍ كالقومية الفرنسية أو القومية الألمانية أو القومية الطليانية الخ ، وأن بعض شعوب الهند المختلفة أجنبيٌّ عن بعض ، وأن نظام الطوائف الذى يُفَرِّق بين مختلف طبقات العرق الواحد ، كما سنرى ذلك ، يوجب نَظَرَ أىِّ هندوسيّ إلى أكثرية أبناء قومه الساحقة كغرباء مثل الأوربيين كما يَعُدُّ الراجپوتيُّ سكانَ جنوب الهند من الغرباء .

ولا نُطيل البحث فى فُقْدان الشعور القوميّ فى الهند فُقْداناً لا يدركه الأوربيون الذين لم يطوفوا فيها ، قال الأستاذ الإنكليزى سيلى : « تغيب إمبراطوريتنا الهندية

(١) لم يقتل فى معركة پلاسى ، التى خاض الإنكليز غمارها ضد الهندوس فى سنة ١٧٥٧ فكانت أشهر المعارك التى دخلوها لما أسفر انتصارهم فيها عن انتقال سيادة البنغال إليهم وخضوع الهند بأسرها لهم فيما بعد ، سوى اثنين وعشرين جنديا ولم يجرح فيها سوى خمسين رجلا ، وكان جيش العدو فيها مشتملا على ٦٨٠٠٠ مقاتل وكان الجيش الإنكليزى لا يشتمل فيها على غير ٦٥٠ أوربيا خلا من فيه من الهندوس .

عن الوجود عندما يبدأ الشعور القوميّ ينمو فيها وعندما يشعُر الناس فيها بأن من العار مساعدتَنا على دوام سلطاننا ولو لم يبتغوا طرد الأجنبيّ منها بالفعل ، ما دام ثلثا الحاميات مؤلفيْن من السكان الأصليين » .

ولما لا تراه من الشعور القومى فى الهند تجد سلطان الإنكليز قوياً فيها وتجد ما يحدث فيها من الفِتَن غيرَ ذى خطر ، ومن ذلك أن ثورة السپاهى التى اشتعلت سنة ١٨٥٧ كانت وليدة شكاوى عسكرية خاصةً ، فلم تكترث لها شعوب الهندوس فأطفأتها كتائب هندوسية مخلصة تقودها فئةٌ قليلةٌ من الإنكليز (ككتائب الغوركها وفرق البنجاب ومُشاة السِّك) .

و إذا عدَوْت المغازى الأجنبية التى قد يقوم بها أوربيون وجَدْت أن أكبر خَطَرٍ على سيادة الإنكليز فى الهند بزوغُ شعور قوميّ فيها و إن كنا نرى بُعْدَ ذلك فى الوقت الحاضر ، والإنكليز أنفسهم ، هم الذين يتعهدون ، بما يَسْلُكونه من أساليب التربية التى ندرس نتائجها فى فصل آخر، نُمُوّ ذلك الشعور ويُعِدُّون بذلك انهيارَ إمبراطوريتهم العظمى .



الباب الرابع

تطور حضارات الهند



الفَصْلُ الأوّل

حضارة العصر الويدي

وصفٌ للمجتمع الهندوسيّ قبل الميلاد بألف سنة

---

(١) عناصر بعث حضارات الهند — التقسيم إلى أعصر — الكتب الدينية — الحماسيات — الأساطير — أحاديث قدماء السياح — المباني — بطوء التطور في الهند — لماذا لم تجاوز شعوب الشرق أطوار القرون الوسطى بعد — تأثير التقاليد والمعتقدات — من أسباب جمود الشرق اختلاط شرائعه الدينية والاجتماعية على الدوام بدلا من فصل بعضها عن بعض كما في الغرب — المعتقدات الدينية في الشرق هي أساس جميع نظمه الاجتماعية — عناصر التقسيم لمختلف أطوار الحضارة في الهند — التقسيم إلى ستة أعصر — (٢) مصادر بعث الحضارة الآرية — غموض أصول العصر الآري — لم تصل إلينا منه آثار حجرية، وإنما انتهت إلينا منه كتب دينية — قيمة كتب الويدا — لم تكن هذه الكتب من عمل شعوب فطرية بل من وضع فريق من الأدباء وعلماء اللاهوت — (٣) أصل الآريين — مقايسة بين الآريين وقدماء الفرس — غموض أصل الآريين — الفرضيات الحديثة — أدخل الآريون إلى الأمم المقهورة حضارتهم ولغتهم، لا دمهم — توارى الآريين عن الهند — (٤) الأسرة عند الآريين — كانت الأسرة والعرق أساس المجتمع الآري — ارتباط الفرد الوثيق في أجداده وحفدته — كانت الأسرة، لا الفرد، أساس الوحدة — لم تكن الديانة غير عبادة العرق والأسرة — خلط الآلهة بالأجداد — أهمية ما يقرب إلى أرواح الأجداد من القرابين — حال المرأة عند الآريين — سلطان رب الأسرة المطلق — (٥) نظم الآريين السياسية والاجتماعية — القرية وليدة الأسرة الكبيرة — لا يزال نظام القرية، كوحدة سياسية، باقياً إلى أيامنا في الهند — (٦) الحياة عند الآريين — فنونهم — طرق معايشهم — الميسر والملاهي والمآتم الخ . — (٧) مبادئ الآريين اللاهوتية والدينية — لا آلهة معينة عند الآريين — تشتمل كتب الويدا على أكثر المبادئ الدينية تناقضاً واختلافاً — تذبذب مبادئ الآريين — آلهة الآريين الأصلية — ما يعزوه الآريون لإلهامن القدرة المحدودة — ما يمكن استنتاجه من كتب الويدا من المبادئ اللاهوتية والمبادئ الدينية — الأخلاق عند الآريين — تقدير الحضارة الآرية في مجموعها .

١ ـ عناصر بعث حضارات الهند ـ التقسيم إلى أعصر

ذكرنا فى فصل سابق أنه ليس لدينا كتابُ تاريخ بين آثار الهند القديمة وأن أدوار ما يَقْرُب من ألف سنة تبقى مجهولةً تماماً لو لم يُلْقِ عدد قليل من المبانى والكتابات وكتب القدماء نوراً ضئيلاً عليها .

وما عندنا من الوثائق التى نبعث بها حضارة الهند ، فى دور يَقْرُب من أربعة آلاف سنة سَكَنَ الهندَ فى أثنائها شعوبٌ بلغت درجاتٍ متفاوتةً من الحضارة ، وإن كان غيرَ كافٍ ، يزيد عما يقتضيه رسم تاريخ هذا الدور ، فما انتهى إلينا من الكتب الدينية ككتب الويدا ، ومن الحماسيات كالرامايانا والمهابهارتا ، ومن الشرائع القديمة كشرائع مَنُو ، يكفى لتَمَثُّل الأحوال الاجتماعية فى الأزمنة التى وُضِع فيها، وما وَصَل إلينا عن الهند القديمة من مئات الأقاصيص والأمثال والأساطير يَدُلُّنا على شعور الأمم التى أبدعتها وأفكارها ونظرها إلى الأمور ، وما بَلَغنا من المبانى وأحاديث الشهود ، القليلة مع الأسف ، كأحاديث السفير اليونانى ميغاستين والحاجَّيْن الصِّينيَّيْن فاهيان وهيوين سانغ، يُتِمُّ تلك المصادر إتماماً نافعاً .

ومن يَبْحَث فى تاريخ حضارة الشعوب الأوربية يَرَ التطورَ التدريجيَّ من صفات هذه الحضارة ، ومن يبحث فى حضارة الأمم الشرقية ، كالصينيين والهندوس على الخصوص ، يَبْدُ له مثلُ ذلك التطور أمراً غامضاً وإن تَعَذَّرَ إنكاره ، وذلك التطور ، وإن لم يُبْصِرْه الباحث ، نشأ خفاؤُه عن قِلَّةِ معرفتنا لماضى تلك الأمم وعن عدم مجاوزة تلك الأمم للطور الذى يكون التطور فيه بطيئاً ، فلو وَقَفَتْ حضارة الغرب فى أواخر القرون الوسطى فجأةً غيرَ تاركةٍ لنا سوى وثائقَ ناقصة نَقْصَ التى نحكم بها فى

أمر الشرق الأقصى لاعتقدنا ، عند عدم التدقيق التام ، أن الغرب لم يتطور ، مع أن أُسُس حضارة الغرب وُضِعَت فى ذلك الزمن الطويل فقامت على هـذه الأسس بعدئذ بسرعة .

جاوزت شعوب الشرق طورَ الهمجية الأولى كما جاوزنا ، وارتقت إلى دور يشابه دور قروننا الوسطى كما ارْتَقَيْنَا ، ولكنها إذ قَيَّدَت نفسها بسلسلة من العـادات والتقاليد والمعتقدات أقوى ممـا يُقَيِّدُنا لم تَسْطِع أن تتخلص منها كما استطعنا ، فلم تَخْرُج من ذلك الدور كما خَرَجنا ، فظَلَّت فى الدور التمهيـديّ الذى لا يَتِمّ تطور إحدى الأمم فيه بسرعة .

وتَمُدُّ نِيرَ معتقدات الشعوب الشرقية من أهمّ الأسباب المختلفة التى يُفَسَّر بها بطوء تطورها كالبيئة المادية وطُرُق المعايش والمزاج النفسىّ والعروق الخ . ونيرٌ كهذا قد ثَقُلَت وطأته علينا فى أحد الأزمان لا ريب ، بَيْدَ أن معتقدات الغرب لم تَعْدُ حَدّ التعاليم الدينية مع أن معتقدات الشرق نسيجٌ من الشرائع الدينيـة والاجتماعية ، فالشرائع الدينية إذ عُدَّت ثابتة غيرَ متحولة على الدوام وجب عَدُّ الشرائع الاجتماعية المشتملة عليها ثابتة غيرَ متحولة أيضاً ، فـكان ما تراه من بطوء تطورها ، وهنا نقول إننا حينما دَرَسْنا فى كتاب آخر « تاريخَ حضارة العرب » ذكرنا أن القرآن الذى هو دستور دينىّ واجتماعىّ كأكثر دساتير الشرق ، وإن أنعم على العرب بالوَحدة التى بَدَوْا بها أمةً واحدة ذاتَ مشاعرَ واحدةٍ ومعتقداتٍ واحدة ومقاصدَ واحدةٍ ، أدَّى ، فيما بعد ، إلى انحطاط الحضارة العظيمة التى نشأت على أساسه[1] .

المعتقدات الدينية فى الهند هى أساس جميع النُّظُم الاجتماعية ، فما فى الهند من نُظُم اجتماعية ليس ، بالحقيقة ، إلا نُظُماً دينيةً ، ونحن ، حين نرى الدور المهمّ الذى

(١) أخطأ المؤلف فى رأيه ذلك فرددنا عليه فى مقدمتنا لـكتاب « حضارة العرب » (المترجم)

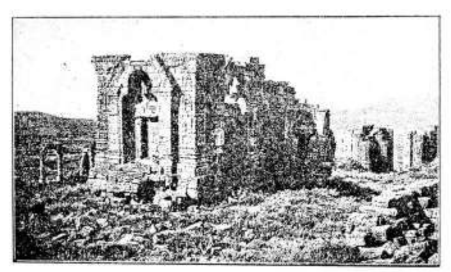
مَثَله الدين فى جميع شعوب الهند على الدوام ، نَعُدُّ تطورات الدين عنصراً أساسياً فى تقسيم ما لحضارتها من الوجوه ، وتكون هذه التطورات غيرَ محسوسة عند النظر إليها بين قرن وقرن ، وتبدو كبيرةً عند النظر إليها فى أدوار تحتوى عِدّةَ قرون على الدوام، وذلك كما نُضْطَرُّ إلى أن نفعله لعدم كفاية الوثائق ، ولا يقاس تاريخٌ يُؤَلَّف عن حضارات الهند بكتاب جغرافىّ يشتمل ، مثلاً ، على ما لأحد البلاد من الطرق المترجِّحة بين مسارب الغاب وشوارع المدن وطرق القُرَى ، بل بكتابٍ يضعه سائحٌ ينظر إلى إحدى البِقاع من فوق جبلٍ فيُصَوِّرها تصويراً عاماً مقتصراً على الإشارة إلى مُدُنِها بإيجاز على أن يُفَصِّل أمرها بعدئذٍ إذا تيَسَّر له أن يجوب إحدى المدن التى أشار إليها مختصراً .

فلنتخذ المعتقدات الدينيةَ ، إذَنْ ، أساساً للتقسيم ، ولْنَنْظُرْ إلى الأعصر الستة الآتية فى دراسة حضارات الهند وهى : العصر الويدى والعصر البرهمى والعصر البُدَّهِى وعصر البرهمية الجديدة والعصر الإسلامى والعصر الحديث الذى جعلناه موضوعَ بحثٍ منفصل فى هذا السِّفْر ، ولا يقلُّ العصر الحديث عن تلك العصور أهميةً ، فَبِهِ تتجلى نتائج اصطدام حضارتين يَفْصِل إحداهما عن الأخرى مثلُ هُوَّةٍ ما بين القرون الوسطى والأزمنة الحديثة .

٢ — مصادر بعث الحضارة الآرية

نرى أن نتفادى من التكرارات فنَبْسُطَ فى هذا الفصل وفى الفصول الآتية حضارةَ كلِّ عصرٍ بسطاً عامًّا على أن نَعْرِض فى فصول خاصة آثارَ كلِّ عصر من تلك الأعصر ، كالآداب والمبانى ، الخ .

تتجلى الحضارة الآرية فى شمال الهند الغربىّ فى عصر يرْجِع فى القِدَم إلى خمسةَ عشرَ قرناً قبل الميلاد ، ولم يَفُته إلينا منها أىُّ أثر حجرىّ كما أننا لم نَجِد ما يدلُّ على إنتاجها مثل هذا الأثر ، وكلُّ ما وَرِثه العالَم منها هو دائرة المعارف الدينية الواسعة المعروفة بالويدا ، وتحتوى هذه الدائرة على أسفار كُتِبَت فى أزمنة مختلفة ، ويُعَدُّ السِّفر المسمَّى بالرِّغ ويدا أهمَّها ، ويرى مكس مولر أن سِفْر الرِّغ ويدا هذا وُضِع قبل المسيح بألف سنة على الأقل ، وفسَّر هذا السِّفْر تفسيراً ملائماً فأخبرنا عن لغة الشعوب التى ألَّفته ودِياناتها وأحوالها الاجتماعية ومزاجها النفسىّ .



٣٧ — مارتند . أطلال المعبد الذى أقيم فى كشمير على الطراز الإغريقى الهندوسى
(فى القرن السادس من الميلاد على ما يحتمل)

ولمَّا يَمْضِ قرنٌ على معرفة أوربة لتلك الأسفار ، وقضى مترجموها من العَجَب مالا يَقِلّ عن نَصَبهم فى سَبْك أفكار واضعيها المترددة فى قالَب لُغَوىّ واضح ، ولا أرى أن أحكم هنا فى ذلك الأثر الأدبىّ العظيم الذى لا يُلقى فى رُوع من يقرأه

بإنصاف سوى قليل عَجَب بالحقيقة ، فهو يعترف ، لا ريب ، بأن من العبث أن يُبْحَث فيه ، خلافاً لما صُنِع حتى الآن ، عن« أَثَر الرُّعاة الفطريين الذين يُقدِّسون للآلهة حين يَسْرَحون[1] أنعامَهم » ، وليس مما يحتاج إلى نظر ثاقب أن يُقطع بعجز الرُّعاة عن وضع أشعار كالتى نراها فى الويدا ، فكلُّ شيء فى الويدا مصنوعٌ ، وهو من وضع أدباء نُبَهاء ولاهوتيين أذكياء ، فمتى نَفَذ مبدأ التطور فى العلوم التاريخية سَهُل الاعترافُ بأن آثاراً كالويدا تَفتَرِض سابقَ إعداد فى قرون فلا تَصْدُر عن أدمغة أناس فطريين كما أن كنيسةً غوطية لا تَصْدُر عن أدمغة أناس فطريين معاصرين للماموث[2] أو لوَغْل الشمال ، فلا نبحث فى الويدا ، إذنْ ، عن الحضارة الفطرية ، بل عن حضارة أمة ذات ماض تَليد .

٣ — أصل الآريين

تطلق كلمة « الآريين » على شعب ، ذى جلود بيض وشعور سود ولغة ضائعة معروفة بالأرياك (فاشْتُقَّت منها اللغة المعروفة بالسَّنسكرت) ، هَبَطَ قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرناً إلى شمال الهند الغربىّ مارّاً من معابر كابُل ، وكان الآريون قبائلَ شِبْهَ بَدَوِية شِبْهَ حَضَرِيَّة تَعرِف الزراعة وتتَّصِف ، ككثير من الأعراب ، بانْقِياد الخيال ، وتشابه بطرق معايشها قدماء الفرس الذين حَكَى عنهم هيرودتس .

وتَقَدَّم الآريون رويداً رويداً من نهر السِّنْد إلى نهر الغَنْج ، ثم تَقَدَّموا من نهر الغَنْج إلى نهر برهما بوترا ، فأخضعوا فى أثناء ذلك ذوى الجلود السُّود والشعور

---

(١) سرحها يسرحها سرحا وسروحا : أرسلها لترعى — (٢) الماموث : الفيل البائد .

السِّباط[١] كما أخضعوا التورانيين الذين سبقوهم إلى الهنـد ، فتدرَّج الآريون من البداوة إلى الحضارة .

لا يزال أصل أولئك الغُزَاة الآريين ، الذين مثَّلوا ، لا ريب ، دوراً مهماً في تاريخ الهند خافياً ، ويُرى ، على العموم ، أن الآريين الفطريين كانوا يقطنون قبل الميلاد بألفيْ سنة في بُقعة من التركستان مجاورة لمجرى نهر أكسوس[٢]، ثم سَلَكوا طريقين للهجرة ، إحداهما الطريقُ المؤدِّية إلى أوربة والأخرى الطريقُ المؤدية إلى إيران ، فالآريون الذين سَلَكوا طريقَ إيران أقاموا ببلاد فارس وبقطريان والصُّغْد ، ثم داوم حَفَدتهم على سيرهم إلى الجنوب فجاوزوا جبال هِندُوكُش ودخلوا الهند ، فإذا صَحَّت هـذه النظرية كان الأوربيون والهندوس فَرْعَيْ دَوْحَة آسيوية بدوية واحدة .

بَيْد أن تلك النظرية ليست غيرَ فرضيَّة قائمة ، فقط ، على تشابه أصول اللغات الأوربية (اللاتينية واليونانية والألمانية الخ .) والفارسية والسَّنسكرتية .

حقا أن هنالك قرابةً لغويةً بين الهندوس والأوربيين ، ولكننا نَعْلَم اليوم أن تشابه اللغات لا يعني ، دائماً ، قرابةَ العروق ، فإذا عَدَوْت هذه القرابةَ اللغوية لم تجِد ما يؤيد تحدُّر الأوربيين من أصلٍ آسيويّ ، ما أمكن افتراضُ العكس بأن يقال إن الآسيويين أتَوْا من أوربة .

هـذا ما افترضه حديثاً علماء من الألمان مستندين إلى وجود أناس شُقْر قليلين في شمال الهنـد الغربيّ ، وأرى أن فَرضيَّة علماء الألمان هذه ضعيفةٌ كتلك ما عُدَّ

---

(١) السباط : جمع السبط وهو من الشعر نقيض الجعد — (٢) هو نهر جيحون المسمى الآن أموداريا (المترجم)

هؤلاء الشُّقْر القليلون بَقِيّةَ كثيرٍ من الغُزاة الذين أَتَوْا منذ ثلاثة آلاف سنة فاتحين لتلك البُقْعَة من كلّ جهـة ، لا من أوربة وحدَها ، فإذا كان فى العالم بُقْعَةٌ يَنْدُر وجودُ الشُّقْر فيها فهى بلاد الهند لا ريب ، فلقد طُفْتُ فى جميع نواحيها فلم أصادف فيها إنساناً أشقر ، وهذا إلى قولى إن الشُّقْر الآريين لا بُدَّ من أن يكونوا قد وُجِدوا فعَرَفهم مَنُو فَمَدَحَهم من شعب متأخر فحَظَرَ زواج رجال الطوائف العليـا بِنِسْوَتِهم « ذوات الشعور الشُّقْر » .

لم يبق سوى الرجوع إلى الافتراض القائل إن الآريين من أصل آسيوى بعـد دحض الافتراض القائل إن الآريين من أصل أوربىّ ، فقد رُئِى نزولُهم الأساسىُّ بمختلف البِقاع الممتدة من نهر أكسوس إلى بحيرة بال كاش ، أى بِبُقْعَة من بلاد المغول كان العرق الأصفر يملكها منـذ أكثر من ألفى سنة قبل الميلاد على حسب ما جاء فى أقاصيص الصينيين ، فأرى ، أيضاً ، وجوب استبعاد هذا الافتراض القائل إن بلاد المغول هى مهدُ الآريين ، ما لم نَرْض بزعم ويلر الواهى القائل إن الآريين من المغول .

ولا أحاول هنا أن آتِىَ بافتراض جديد فى أصل الآريين ، بل أذكر أن المحتملَ أكثرَ من سواه ، على ما يظهر ، هو أن الآريين كانوا سكان إيران الأصليين ، وأن المجاورين منهم للهند هم الذين دَخَلوها على دَفعات متتابعة لاريب ، كما استولى أجدادهم على أوربة من قبلهم ، وأن تأثيرهم فى دماء الشعوب المقهورة كان ضعيفاً إلى الغـاية كما يبدو لى خلافاً للرأى السائد .

ولا أعتقد وجودَ شعبٍ فى الدنيا يستطيع أن يزعم اليوم أنه من سلالة الآريين ، وسببُ ذلك أنه افْتُرِض ضِيقُ بلد الآريين الأول وأن ما فتحه الآريون من البلاد،

ولا سيا الهند ، واسعُ آهِلُ بأمم كثيرة فوقع ما أثبته البحث من أن شعبيْن متفاوتيْن في العَدَد إذا تقابلا لم يلبث أكثرها عدداً أن يبتلع أقلّهما عدداً ابتلاعاً يَمَّحى به مثال هذا الأخير بعد بضعة أجيال ، ووقع مثلما حدث في مصر التي ليس القوم فيها من سلالة العرب الفاتحين ، بل من سلالة مصريي عهد الفراعنة ، كما تشهد بذلك سَحَناتهم المشابهة لسَحَنات قدماء المصريين التي خَلَّدتها نقوش المعابد ، وذلك مع اعتناق المصريين لدين العرب وانتحالهم لغة العرب وَفْقَ ما ذكرتُ في فصل سابق .



٣٨ — نقش إغريقي بدهي بالقرب من بيشاور
(صنع قبل القرن الخامس من الميلاد
بزمن قليل على ما يحتمل)

وجب أن يكون شأن الآريين في أوربة قد تماثل هو وشأنهم في الهند ، فيكونوا قد أدخلوا إلى الأمم المغلوبة حضارتهم ولغتهم ، لا دمهم ، وهم إذا لم يتواروْا في الهند بسرعة كتوارى العرب في مصر فلأن نظام الطوائف الشديد حال دون امتزاجهم في الهند بالتورانيين المقهورين زمناً طويلاً أو أنهم امتزجوا بهؤلاء شيئاً فشيئاً ، ولكن هذا الامتزاج مهما كان بطؤه أدى إلى اختفاء الفاتحين بتعاقب القرون ، فلم تجد في الهند أثراً للآريين منذ زمن طويل ، ونحن إذا سايرنا رُخْصَة اللغة والعادة فقلنا إن الشعب الفلانيّ آريّ فإننا نقصد بذلك أن هذا الشعب من البيض وأنه يدنو من مثال الأوربيين من غير أن يساويهم بياضاً .

ونحن ، وإن لم يكن لدينا علمٌ قاطع بأصل الآريين ، نَعْرِف وجودهم من آثارهم الأدبية أو من آثار حَفَدتهم الذين دخلوا الهند فيما مضى ، وفيما تقدم ألمعنا إلى حقيقة تلك الآثار ، فبَقِى علينا أن نبحث فى أحوال واضعيها الاجتماعية ودرجةِ حضارتهم ، وهذا ما نفعله كما يأتى :

٤ — الأُسْرة عند الآريين

كانت الاسْرة والعرق فى العصر الويدىّ أساسَى المجتمع الآرى ، فلم يُفَرِّق بين الآريين أية زمرة كالقبيلة أو العشيرة أو الحكومة ، والعرقُ عند الآريين هو الذى كان يعلو الأُسْرة ، ولم يُوجَد شىء عندهم دون الأُسرة ، فالفردُ الآرىّ لم يُعَدّ مستقلًا عن أجداده ولا عن حَفَدته ، فالوَحْدة ، لدى الآريين ، لم تَقُم على الفرد ، بل قامت على الأب والأم والأبناء والأجداد وعلى الذرارى التى تَخرُج من أصلاب هؤلاء فتحافظ على ذكراهم واسمهم بتعاقب الأجيال .

ولم تكن الدِّيانة عند الآريين سوى عبادة العرق والأُسرة ، وكانت آلهة الآريين تختلط بالأجداد ، وكان النكاح والوِلادة لديهم من الأعمال المقدسة ، وكانوا يَرَوْن أن انتقال الحياة من الأب إلى الابن بواسطة الأم هو انتقالٌ خَفِىٌّ لإلٰه النار أَغْنِى الذى هو أصل الإلقاح وسيدُ الكون ومُبْدِعه من خلال أحشاء البشر لتخليد الوجود الأزلىّ .

ومن أعظم المصائب عند الآريين أن يَتَزَوَّج الواحد منهم أجنبية أو أن يموت غيرَ ذى ولد ، فإفساد نَقاوَة العرق لدى الآريين كانت تتضمن قطعاً أبدياً للنَّسَب الإلٰهى الذى يَصِل الآرىّ بأغنى فيؤدى ذلك إلى تصامّ هذا الإلٰه عن صلوات ذلك

الذى أوجب جريانه ، وهو إله كلِّ حياةٍ نقيةٍ فى عروق شعبه الذى يكون قد اتّصل بعناصر غليظة جُبِلَت منها العروق الدنيا ، فالزواج بالأجنبيات ، إذَنْ ، هو عند الآريين ، جناية يستحقُّ مقترفوها اللعنةَ الدائمة .

وليس بأقلّ فظاعةً من ذلك أن يموت الآريُّ بلا عَقِب، فالولد ، عند الآريين، يُخلِّد الأجداد بما يقوم به من عباداتهم وبما يُقرِّب من القرابين إليهم ، فإذا قُطِعَت تلك العبادة وهذه القرابين تلاشَت أرواح الآباء وفَنِيَت وزالت الأسرة إلى الأبد .

والبناتُ الآرياتُ إذا ما تَزَوَّجْنَ انتَحَلْنَ آلهةَ أُسَرِ أزواجهن فعَبَدْنَ أجدادهم وصِرْنَ غير صالحات لتخليد آبائهن ، فالرجلُ الآريُّ الذى يموت غير ذى ابنٍ يَهْلِك من غير أن يُبْعَث فيما وراء القبر ، ويجرُّ خلفه ، بذلك ، أجيالاً كثيرة من الأجداد إلى بَوَارٍ لا يمكن تلافيه .

ونرى فى الرِّگ ويدا نَصَّا على قرابة الإله أغْنِي وعلى شأنه فى خَلْق الأسرة وعلى نقاوة العرق وأهميته وعلى ضرورة وِلادة أعقاب قادرين على تقريب القرابين ، جاء فى الرِّگ ويدا :

« أغْنِي هو ربُّ الخلود ، هو ربُّ الغِنَى ، فهو الذى ينعِم بالأسرة القَوِيَّة ، فيا إلهنا القادر ! لا تُؤاخذنا ، نحن عبادك ، بما تراه فينا من عدم العَقِب ومن العَطَل من الجَمَال وفُقْدَان القرابين » .

« أيَشْمُلنا العَطُوف أغنِى بأفضاله ؟ أنأمُل منه سَعَةً سَرْمَدِيَّة ؟ فيا أغنى لسنا من أصلاب عرق أجنبيّ ولا من عرق كافر ، فلا تَسْلُك غير السبيل المؤدية إلينا » .

« فلو لم يكن الإله أغنى من دم كدمنا لكان من العبث بَحْثُه عن خضوعنا وقرابيننا ، فله علينا حقُّ المأوى فنحفظه له ، فليَدْخُلْ علينا هذا الإله القادر الظافر الجدير بأن يُسْجَد له » .

والأسرة المُوَحَّدة المباركة الوافرة هي عند الآريين مصدر كلّ سعادة دنيوية وأبدية ، فلا شيء لديهم يَعْدِل مَسَارّها ، فهم لا يفتأون يتغنَّوْن بها ، وهم إذا ما أرادوا تصوير مجد الآلهة أو يُمْنِها لم يَتَمَثَّل لهم غير جمال الزوجة ووفائها وقوة الأب الكاهن وجلاله وظَرْف الأولاد وانقيادهم ، فهم يَرَوْن في هذه الأمور كلّ نعيم ، وتملأ هذه الأمور جوانحهم ، فتَجِد فيها سرّ أغانيهم الدينية الكثيرة المُفَصَّلَة حولها ومنها تُجْتَلى أحْوالُهم .

ولا شيء يفوق أهمية تقديم كلّ أسرة قرابينَ إلى أرواح أجدادها ، وقد قلنا إن تقديم هذه القرابين إذا ما انقطع تلاشت أرواح الموتى وانطفأت الأسرة إلى الأبد ، والأب هو الذى كان يقوم بتقريب القرابين ، وكان للأم ، كما أن عليها ، أن تساعده على ذلك فتُقاسِمَه المجد ، فالأم كانت تجمع على ضوء القمر الأزهارَ من سفوح الجبال فتستخرج منها بدقة و بتخمير بطيء الشرابَ المقدس المعروف بالسوما ، فكان الأبُ يَنْضَح الضحية بهذا الشراب ، والنارُ إذ كانت تزيد اشتعالاً بشراب السوما الروحانيّ بعد أن تكاد تنطفىء ، وكان أغنى يبدو بذلك أشدّ قوةً وأسطعَ نوراً ، عَبَدَ الآريون هذا الشراب كما عبدوا النار فأبدعوا له مدائح وصلوات ، فما جاء فى الرِّگْ ويدا .

« عَظِّموا بتَلِيد الأناشيد ذلك الإله النقيّ الذى يبدو لكم بالأعمال المقدسة المُمَجِّدَة للآلهة » .

« هو يَنْصَبُّ على مِمْصَل[1] من صوف ليُصَفَّى ، هو سَنَد العالم ، هو مَلَاك صلاة الفجر الذى يُسَبِّح الحكماء بحمده » .

« يستقرّ السوما الذى هو عَيْن الزَّكاء ومنبع السعادة بآنية القربان ، ويبدو نائراً للدعاء نَثْرَ النَّوْر للَّقاح فى النَّعَم[2] » .

وكانت لحوم القرابين تُمَدُّ نافعة لتغذية الأجداد ، وكان الإله أغنى يَحْمِلها إليهم ، ولم تكن النار لتَحْرِقها إلاَّ لتجعلها صالحةً للتقديم إلى الآكلين من الطعام الإلهى ، وكان عدم تقريب القرابين إلى الأجداد عند الآريين كترك المرء والديه يموتان جوعاً فى زماننا ، وما أكثر ما كانت الأُسرة تأكل جالسةً هى وعشيرتُها من مائدة واحدة حول المَوْقِد الداخن .

والأمُّ إذ كانت تُقاسِم الأب شرف تقديم القربان وما يتطلبه هذا التقديم من عمل نفترض مساواتها له ، ويَتَّضِح من كتب الويدا أن المرأة ابنةً كانت أم خطيبة أم زوجة أم والدة لم تَعُدَّ تلك المخلوقةَ المنحطة الفاقدة الشعور خلافاً لاحتقار المشترع مَنُولها فيما بعد ، فكُتُبُ الويدا تُحَدِّث عنها وعن شأنها باحترام على الدوام ، جاء فى كُتُب الويدا :

« تعالَىْ ، أيتها الزوجة الحسناء ، تعالَىْ يا مُنْيَةَ الآلهة ، تعالَىْ أيتها المرأةُ ذات القلب الحَنُون والحظ العَذْب والصالحةُ لزوجها ولأنعامها والمُعَدَّةُ لولادة الأبطال ! » .

« إن امتياز المرأة هو مقاسمتُها لزوجها شرفَ تقريب القربان » .

---

(١) المِمْصَل : الوعاء المصل وهو وضع اللبن أو نحوه فى خرق أو نحوها ليقطر ماؤه —

(٢) المقصود من النعم هنا البقر .

ونُضيف إلى ذلك الامتياز نَظْمَ المرأة للنشائد ، فني الرِّغ ويدا أناشيدُ كثيرة مُمْضاة بأسماء نساء .

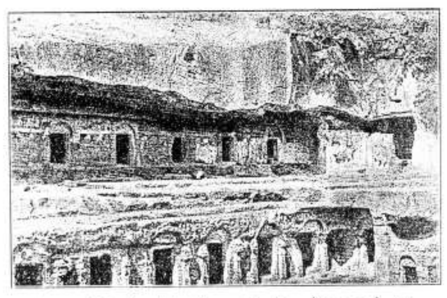
ويظهر أن الاقتصار على زوجة واحدة كان مبدأ آريًّ ويدا على العموم ، ونحن إذا مانظرنا إلى الأمر بما نراه بعد ذلك وَجَدْنا الأمراء والأغنياء منهم كانوا يتزوجون عِدّةَ زوجات ، والذي حَفَز الآريين إلى انتحال مبدأ تعدد الزوجات هو احتياجهم الملِحُّ إلى الأولاد الذكور ، فالرجلُ الذي لا تَلِد له زوجته الأولى إلاّ إناثاً كان يتزوج امرأةً أخرى بحكم الضرورة .

وكان للفتاة أن تختار زوجها ، وكان للفتاة أن ترفض تكليل المبارز الغالب في المبارزة عند وجود غير خاطبٍ واحد لها كما يحدث أحياناً ، وإن كانت موافقتها على المبارزة ضربة لازب ، وفي كتب الويدا وصفٌ دقيق للغرام الناشئ ولأولى العلاقات بين الفتيان والفتيات ، والآريون ، إذ لم يَرَوْا سعادة في الدنيا والآخرة خارج الأسرة، كانت تدفعهم أسباب دينية ومصالح دنيوية ، أي كلُّ ما يمكن أن يُؤثِّر في الروح البشرية ، إلى الاهتمام بكلِّ ما يَمُتُّ إلى النكاح بصلة .

وكانت طقوس الزواج تتّسِم بذلك الطابع الديني البادي في جميع شؤون الأسْرَة، فتظهر رائعةً بالصلوات والقرابين والنذور وتظهرُ ذاتَ بهْجَة بسناء الأزياء وكثرة الحضور وضروب اللهو والطرب كما ورد في أنْشُودة طويلة من أناشيد الرِّغ ويدا ، فالمرء حين يقرأ أنْشُودة « أعراس سوريه » يُخَيَّلُ إليه أنه يشاهد عيداً قديماً من أعياد الأسرة كما لو ذهب راجعاً ألوف السنين في مجرى الأجيال ويلوح له أنه يسمع نصيحة الكاهن وما يُكَلَّمُ به الفتى خطيبتَه .

ويُضاف إلى صفة الأب الرائعة في تقريب القرابين سلطانُه المطلق ، فيُطيعه

أبناؤه إطاعته للأجداد ، لا إطاعة العبيد للأسياد ، فإذا ما طَعَنَ الأبوان في السِّنّ وعَجَزا عن العمل غَذّاهما أبناؤهم كما يُغَذّون الأجداد بالقرابين ، ولم تُقْطَع هذه الفروض المتقابلة قطّ ، وكلّ ما كان الآريّ يَنْشُدُه هو أن يشيخ بين أولاده وحَفَدَته وما كان ليخاف الكِبَر ما بدأ يَتَذَوّق فيه شيئاً من طعم سعادة الأجداد الأبدية الهادئة .

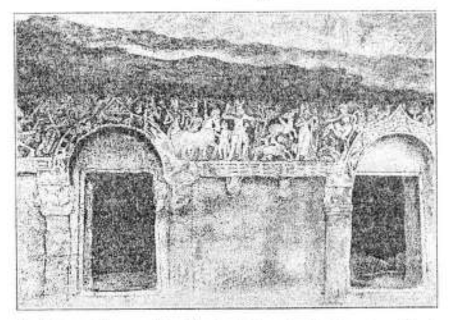


٣٩ — أودي غيري (أوريسة) . مقدم دير رآني نور البدهي المنحوت في منحدر جبل (في القرن الثاني قبل الميلاد)

٥ — نُظُم الآريين السياسية والاجتماعية

لم يوجد للنُّظُم السياسية ولنظام الطوائف وللنظام الحكوميّ أثرٌ في أوائل العصر الويدي حينما كان الآريون يقيمون بسهول الهند الواسعة ذات الأنهار السبعة ، وإن شئت فقل حينما كانوا يقيمون ، قبل دخولهم وادي الغَنْج ، بالمِنطقة التي تُرْوَى بمياه نهر السِّند وروافده .

وقد رأينا أن الأسرة هي أساس مجتمع الآريين ، وأن هذا المجتمع كان يؤلف من العرق بأسره من غير وظائفَ وطبقاتٍ ، فربُّ الأسرة كان يجمع في شخصه صفة المُقرِّب والزارع والمحارب ، أي جميع الوظائف التي إذا ما فُصِل بعضها عن بعض نشأ نظام الطوائف ، ولم يكن للثَّراء الذي هو مصدر التفاوت الاجتماعي وجودٌ في ذلك الحين ، أجَلْ ، كان الأبطال يبدُون زعماء وقت الجهاد ، وكان أشجعُهم يسير رئيسَ أصحابه ، ولكن أرضاً إذا ما استُوْلِيَ عليها فوجب إحياؤها بالفأس والنار لتَصْلُح للزراعة بمَشَقَّة تَساوَى الجميع في القيام بذلك .



٤٠ — أودى غيري . نقوش قديمة منحوتة على صخر دالة على موكب صيد ملكي ، وذلك في الدير السابق ذي الحجرات المنقورة في منحدر الجبل ، (وتلك النقوش هي من أقدم ما تشتمل عليه الهند ومن أهم نماذج الفن الهندوسي)

وكانت تنشأ قرية على الأرض الجديدة ، وكانت المساكن الابتدائية المصنوعة من التراب وسُوق الخيزُران تؤاوى الأسَرَ إليها على انفصال بعد أن كان

بعضها يختلط ببعضٍ فى الحقول ، ثم وَدَّت كلُّ أسرة أن تنال قطعة من الأرض فبدا مبدأ التقسيم ، فلم يبق مُشاعاً بين الجميع سوى مراعى المواشى .

ولم يُسْفِر إنشاء الآريين للقرية وتقسيمهم للحقول والأنعام عن نشوء زمرة سياسية أو اجتماعية بعد ، فالأسرة الكبيرة ظلّت مَدار الوَحْدة ، فكان أرباب الأسرة الشيوخ يجتمعون لتوطيد النظام فيها وتقرير المسائل المهمة من غير أن ينتحلوا سلطاناً بالمعنى المعروف ، ولم يلبث أن أقيم حصنٌ تخينٌ مُرَبَّع الزوايا على مكان مرتفع قريب من القرية مُشْرِف عليها ليقيم به الزعيم المنصور الذى وَسَّعَ الأرض فنيط به أمر المحافظة عليها .

ولم تجد رابطة بين قرية وقرية ، ولم تجد سلطة عالية تفرض سيادتها على الزعماء ، فمصادفات الحروب كانت تؤلف بين هؤلاء الزعماء فينقادون ، أحياناً ، لقائد واحد من غير أن ينبغى ذلك عَدّه ملكاً ، فالآريون لم يقولوا بمبدأ الملكية إلا بعد استقرارهم بوادى الغَنْج ، وذلك مع عدِّ الملك قائد حرب فقط كما جاء فى الويدا ، فلا ترى فى العصر الويدىِّ ملكاً ذا وزراء يَجْبِى الضرائب بانتظام ويملك شعباً بأسره .

وإذا وُجِد للآريين مَلِك فى الهند فبالاسم فقط ، فما كانت القرية الآرية فى الهند إلا جمهوريةً صغيرةً متماسكة منظمة ، وما كان الزعيم المقيم بحِصْنه والمعروفُ بالراجه إلا سيداً ذا سلطان ، فهذا هو النظام السياسى الذى كُتِب له الفوز فى الهند بتعاقب الأجيال ، وهذا هو النظام الثابت الآساس الذى احترمه الفاتحون على الدوام مهما كان جنسهم .

ومن ثَمَّ ترى بذورَ دستورٍ لايزال باقياً منذ عِدَّة قرون فى مجتمع ناقص التكوين،

ومن ثمّ ترى بذور نظام الطوائف الذى نشأ مذبذباً مبهماً حين حاولت الطبقات أن تتميز فى البَداءة فاشتدّ أمره بعدئذ بفعل المؤثرات الإثنولوجية فأدى إلى حفر هُوّى بين العروق يتعذر اقتحامها .

ويمكنك أن تُبْصِر فى الويدا مسافة ضيقة بين الكُهّان والمحاربين لم تُمْسِ أن اتسعت لأسباب سندرسها فيما يأتى .

لم يَقِف توزيع الأعمال عنـد ذلك الحد ، فبينما كان المُقَرِّب يقضى أوقاته فى القيام بالطقوس المقدسة ووضع النشائد وبينما كان المحارب يقضى أوقاته فى الغارات والرياضات العنيفـة كان من الصواب أن يُسْأل : ماذا يكون مصير الحقول وأمر استغلالها إذا لم يوجد من يحرثها ؟ فلذلك كان لا بد من ظهور طبقة أخرى : طبقة الزراع .

بَدَتْ فى إحـــدى أناشيد الرِّغ ويدا الأخيرة طبقاتٌ ثلاثٌ مختلفة دُعِيَت بالبراهمة والأكشترية والويشية فدلّت بعد زمن على طوائف حقيقية ذات مدلولات مطلقة عميقة.

وفى أنشودةٍ أقدمَ من تلك تقرأ العبارة الآتية ذاتَ المغزى الدالّة على تقسيم الطبقات:

« ابْتَهِلَ إلى إندرا الـكِبارُ والصِّغار وأبنـاء الطبقة المتوسطة والسـائرُ والقـاعد والحارسُ لمنزله والمحارب وجميع طالبى الفيض والبركة » .

٤١ — يهو ونبشور (أوريسة) . نقوش معبد براشورا ميشوار الخارجية (أنشىء فى القرن السادس من الميلاد)

وتمَّ ظهور الطائفة الرابعة ، أى طائفة الشودرا بعد حين ، فجُعِلَت شاملةً للشعوب المغلوبة ، وذلك عند ما دخلت دائرة الحضارة الآرية فى آخر الأمر ، وكلما وقع فتحٌ لم يَعْتَرِف بسيادة الأجنبى سكان البلاد الأصليون المجاهدون جهراً أو المهاجرون إلى الجبال للمحافظة على استقلالهم الفطرىّ .

من أجل هؤلاء أَوْجَد الغالبون طائفة رابعة ، فتحولت الطبقات التى كان أمرها مبهماً غيرَ واضحٍ ، فكان بعضها يشترك مع بعض فى الولائم وكان بعضها يتصل مع بعض بصِلات النسب ، إلى طوائفَ مختلفةٍ أشدَّ الاختلاف .

وأهمُّ تلك التقسيمات هو الذى حَدَث قبل غيره فَفُرِّق به بين الكهنة والمحاربين ، فلم يلبث البراهمة الذين هم وسائط بين الناس والآلهة أن صاروا يزيدون مزاعمهم فعَدُّوا أنفسهم من العالين وحملوا غيرهم على اعتقاد ذلك .

وما بين المحارب والزراع من فَرْقٍ لم يُعَتِّمْ أن بدا واضحاً ، وقد قام على اختلاف فى الثَّراء أكثر مما فى الوظائف .

وكان القائد الذى يعود مُثْقَلاً بالغنائم يُسْتَرُ بخرصان[1] ذهبية وثياب زاهية وأسلحة لامعة ، فيصبح راجه (أى ساطعاً) ، وللراجوات ، وإن شئت فقل للأكشترية ، شأنٌ كبير فى كتب الويدا فكان الشعراء الذين يَنْظِمون الأناشيد يأمُلون منهم المجد والعطايا فكان من الطبيعىّ أن يُشِيدوا بذكر بأسهم وكرمهم أو التنويه ببخلهم وإمساكهم .

ولم يكن بين الطبقات حاجز فى ذلك الحين ، فالطبقات كان بعضها يختلط ببعض

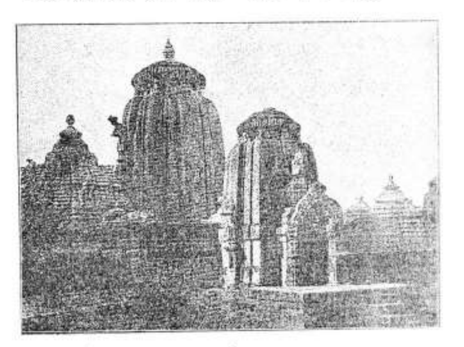
---

(١) الخرصان : جمع الخرص وهو حلقة الذهب أو الفضة أو غيرهما

لتقريب القرابين وإقامة الولائم وما إلى ذلك من الأمور التى لا تكون عند وجود طوائف حقيقية .

وشعوب البلاد الأصلية ، إذ لم تُقهَر بعدُ ، كان الآريون يَمدُّونها أسرى حرب ، وكلٌّ يدل على استعباد الآريين لهؤلاء الأسرى ، جاء فى الويدا :

« نضرَع إليك يا سوما أن تَهَب لنا الغِنَى بالذهب والخيل والبقر والناس » .



٤٢ — بهو وبشور . المعبد الكبير (يبلغ ارتفاعه نحو ٥٢ متراً وأقيم فى القرن السابع من الميلاد)

ولم يكن أمر وِراثة الوظائف التى هى إحدى علامات النظام الطائفى قاطعاً عند آريى العصر الويدى وإن ذرَّ قرنه[١] بينهم ، فهنالك أسَرٌ كانت تنتقل إليها الأغانى

(١) ذر القرن : طلع أدنى شىء منه .

المقدسة ووظائفُ التضحية كابراً عن كابر ، وبهذا يُفَسَّر حفظ كتب الويدا حفظاً عجيباً .

وكان الأولاد ، على العموم ، يرِثون أبويهم فى الأعيان ، وفى الأناشيد المقدسة ذكرٌ غالب لعادة إيصاء الإنسان بثروته لأبنائه .

ذلك هو مجتمع آريى العصر الويدى الذى كانت تَنْضَج فيه ، مع القرون ، بذور النُّظُم التى ثبت أمرها فى الهند فيما بعد فظلّت فيها سائدةً لا تبديل لها .

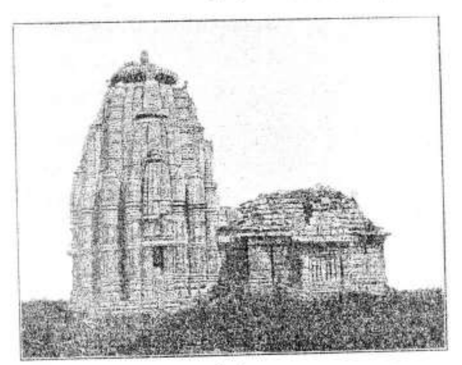
٦ — الحياة عند الآريين

يمكننا أن نَتَمَثَّل الآريين فى أدقّ شؤون حياتهم اليومية حينما ندرس كتب الويدا :

كان شعراؤهم يبحثون مختارين عن صُوَرهم فى الأشياء المألوفة البسيطة التى تبدو لنا غليظة لاختيارها بوحى دينىّ رفيع كوحيهم ، بيد أن بساطة الموضوعات هذه التى نجد مثلها فى قصائد أكثر الشعراء الفطريين لا تَحُطُّ من قَدْر انسجام أناشيدهم ، فالشاعر الآرىُّ كان يَعْرِف كيف يرفع شأن أكثر الأفكار ابتذالًا وأن يستخرج من النظائر العادية أروع النتائج ، والعرقُ الآرىّ إذ كان ذا خيال مُتَّقِد مولعاً بتساوق الكلمات كان يَتَرَنَّح من أناشيده التى انتهى إلينا منها عدد كبير وَضَعه مئات الأدباء ، ومن هذه الأناشيد نستطيع أن نُقَدِّر غِنَى الأدب السنسكرتى فى العصر الويدى .

ويظهر أن فنّ الشعر هو الفنّ الوحيد الذى نجح فيه الآريون ، فكلُّ شىء

يدلُّ على أنهم كانوا يجهلون فنَّ العِمارة ، وقد تتخيل لهم ، مع ذلك ، بعض الآلات الموسيقية الابتدائيـة وأنهم كانوا يصنعون من المعادن والخشب بعض الأدوات صنعاً فنياً و إن لم يحدثونا عن الصور المُلوَّنة أو المنقوشة .



٤٣ — بهو ونيشور . معبد راجاراني (أقيم فى القرن العاشر من الميلاد)

والمِهَن التى كانوا يزاولونهـا كثيرة ، ويظهر أنهم كانوا على شيء من الحذق فى بعضها ، فمـا وَصَفوا به ثيابَهم الزاهية وخواتمَهم وخِرْصانهم وأسْوِرَتَهم وأرياشهم الذهبية ومراكبهم الحربيـة وزينةَ خيلهم وأسلحتَهم اللامعة ودروعَهم وسيوفهم وأغمادهم يُثْبِت أنه كان عندهم حَوَكَةٌ[1] وصُوَّاغ ونَجّارون وصانعو أسلحة وعمالٌ

(١) الحوكة : جمع الحائك .

قادرون على التصرف فى الخُشُب تصرفاً دقيقاً فيصنعون منها أكواباً مقدسة ليُصَبَّ فيهـا شراب السوما ، وليس قليلًا ما ذكروه من الأدوات المنزلية كالملاعق والمراجل المصنوعة ، كأسلحتهم ، من الحديد على ما يحتمل .

وكانت نُسُجهم تُصْنع من الصوف أو الـكَتّان مع خيوط من الذهب فى بعض الأحيان ، والنساء هن اللائى كُنَّ يَغْزِلْن والعمال هم الذين كانوا يَحْبُـكون بالمَـكُّوك .

وكان الآريون ينتعلون أحذية فَيَرْبِطونهـا بكِعابهم كما تدلُّ عليه الآية التى حَـكَت عن الإله إندرا فقالت إنه دائم السير والحركة « فلا يَفُكُّ حذاءه أبداً » .

والآريون كانوا يُبْدون أفخر النفائس فى عُدَدهم الحربية ، فـكانت مراكبهم مزينة بصفائح معدنية وكانت تحمل على عجال مدورة ذات محاور[١] .

وكانت الحُصُن تُقْرَن بالمراكب وتُساق بالأعِنّة واللُّجُم والسياط .

وكان المحاربون يتقلدون أسلحة مصقولة ساطعة ، ويركبون مراكب ويَلْبَسـون أساور من ذهب تُصَلْصِل حينما يَهُزُّون أسلحتهم ، وكانت أسلحتهم تُؤلَّف من سيوف وأقواس وسهام توضع فى كنائن[٢] وتنتهى بِقَوارٍ[٣] من حديد ، وكانوا يضعون على جِباههم ريشاً من ذهب ، وكانت الأعلام تَخْفِق فوق صفوف الجيش .

وكانت الزراعة والحرب وما إليهما من المِهَن أهمّ ما يُعْنَى به الآريون .

والآريون إذ سكنوا وادى السـند غيرَ ذى الزرع فى بعض الأحيان بسبب الجفاف عَلِموا كيف يَرْقُبون الفصولَ ويَرْصُـدون قدوم الأمطار ذات البركات ، فـكانوا يَعُدُّون سُحُب الرياح الموسمية أبقاراً سماوية تَرْعَى فى سهول الفلك ويسوسها

---

(١) المحـاور : جمع المحور — (٢) الـكنائن : جمع الـكنانة وهى جعبة من جلد أو خشب تحمل فيها السهام — (٣) القوارى : جمع القارية وهى أعلى السهم .

راعٍ إلهيٌّ فتدرُّ من ثُديِّها الثِّقالِ السعادةَ والرخاء على الأرض .

وكان الآريون يُثيرون الأرض بمحاريث يَجُرُّها بقر ، ويعودون إلى منازلهم في فصل الرياح الموسمية على مراكبَ يَجُرُّها بقر .

وكانت المواشي من أهمِّ منابع الثروة عند الآريين ، وكان الآريون يُمجِّدون البقرة التي تَدِرُّ باللبن المُغَذِّي فيُعْنَوْن بتربيتها ويحترمونها ويكادون يعبدونها .

وكان اللبن والسمن أساسَي الغذاء عند الآريين ، وكان الآريون يُريقون منهما للآلهة ، وكان المَوْقِد يُبَلَّل بالسمن الذائب فيزيد النارَ سعيراً والإلهَ أغنى نوراً ، وفي الويدا مدحٌ للعسل في كل زمن ، فلتُضَف الفطائرُ والحلاوَى إلى تلك الأغذية المُفضَّلة التي كانت تُقدَّم إلى الآلهة .

وكان الآريون يأكلون اللحم أيضاً ، وكانوا ماهرين في الصيد فيُصْمون الفرائس بالسهام أو يصطادونها بالحبائل والأشراك ، وكانوا يصطادون السمك بالشِّباك .

وكان الآريون على علمٍ من المِلاحة ، فلم يجرؤوا في البداءة على غير السير في أنهر سَپْتَا سِنْدُهُو التي بدت لهم طُرُقاً طبيعية للمواصلات ، ثم اتَّسع نِطاق تجارتهم فصارت سفنهم تجري في البحر حاملةً سِلَعاً على ألا تبعدُ من الشواطئ المجاورة لمصابِّ نهر السِّند .

وكان للآريين علمٌ بالطبِّ ، غير أن ثقتهم بالأدوية التي يقول بها الطبُّ كانت دون ثقتهم بالرُّقَى والعزائم التي كان الكهنة يزعمون شفاء المرضى بها .

وكلما سار الآريون في ميدان الحضارة اتَّسع نِطاق توزيع الأعمال عندهم ، ففي

أناشيد الدور الأخير تُبصِر زيادة المِهَن ، فتجِد لكلّ عملٍ عاملاً ، فترى فيها وصفاً حتى لحلاّق القرية .

وبدأ التفاوت بين الثروات يزيد فى ذلك المجتمع الذى كان أمره يتعقد ، فأخذ يمارس أمور التجارة ، فبدا وصف أُبَّهَة الأغنياء وآلام الفقراء عنيفاً ، فصار الفقر الكريه يُجَسَّم ويُضْرَع إلى الآلهة أن تُبْعِدَه ، والجفافُ هو الذى كان يؤدى إلى الفقر فى الغالب فيَفِرُّ أمام سيول الموسم الماطر ، جاء فى الويدا :

« توَجَّه ، أيها الفقرُ ذو العين الموعوكة والسير الثقيل ، إلى الجبل السماوىّ حيث تجد مُحْسِناً مُنْعِماً ، فبأمواج السحاب ندفعك » .

« يَضُرُّ الفقر المدحور من هذا العالم ومن العالم الآخر بالبذور ، فيا بَرْهَسْبَتِى أَبْعِد هذا الشرّ » .

ونشأت عن تفاوت الثَّرَوات هذا فضيلةٌ جديدة ، أى الإحسان ، فتأمر أسفار الويدا به كثيراً فيقول الكهنة :

« الإحسان الإلهىُّ الناصر جزء من القربان .

« الرجلُ المحسن هو الرجل الطيب نحو البائس الجائع ، فإذا دخل بيته وَجَد سعادةً فى القربان ووجد أصحاباً بين الآخرين » .

وانهماك الآريين بالمَيْسِر من أسباب الفقر الشديد المفاجئ وتدهور الثروات عندهم ، فقد بلغ وَلَعهم بالميسر ، ولا سيما بالنَّرْد ، ما كانوا يخسرون به ، أحياناً ، فى يوم واحد جميعَ كنوزهم وبيوتهم وحقولهم وأولادهم وأزواجهم وحريتهم ، وفى الويدا وصفٌ تامّ لِما يَجُرُّ إليه ذلك الوَلُوع من المصائب ، ومن ذلك الوصفُ الآتى الذى جاء فى أنشودة رائعة منها :

« يَصِل المقامر إلى مجلس الميسر فيقول : في نفسه متحمساً : « سأ كسب ! » فيستحوذ النرد على روحه فيُسلِّم إليه كلّ ما يملك .

« والنردُ ، كـأنس الفيل المُجهَّز بكلاّب يضغطه به ، يُلهِب المقامر بالرغبة والحسرة ويأتي بالنصر ويوزع الغنيمة ويوجب سـعادة الفتيان ويورثهم اليأس ويغويهم بِسُكْرٍ من عسل .

« والنرد لا يُؤثِّرُ فيـه غضبٌ ولا وعيد ، وله يَعْنُو[1] الملوك » .

« والنردُ إذ يتدحرج على الأرض ويهزّ في الهواء يبـدو عاطلاً من الذُّرْعان فيهيمن على من لهم ذُرْعان ، والنردُ فحم سماويٌ يسقط على الأرض ، فيُجْمِد القلوب ويُشْعِلها » .

« زوجةُ المقامر تحزَن حين تُهْجَر ، وأمُّ المقامر تَغْتمّ حين تجهل مصير ابنهـا ، والمقــامرُ يرتجف حين يَتعقَّبه الدائن فيَعِنُّ له أن يَسْرِق فلا يدخل بيتـه إلاّ ليـلاً » .



٤٤ — بهو ونيشور ، مشكاة منقورة في معبد بهكواتي (القرن التاسع من الميلاد) (تدل هذه الصورة على دقائق التزيين في داخل معابد بهو ونيشور ، وهي من رسم الهنود فتجدها في كتاب بابوراجندرالاميتره .)

(١) عنا يعنو عناء وعنوا : خضع وذل .

ولم تكن ملاهى الآريين كلّها ذاتَ خطر، فبينهما كان يسوده الطُّهْر، كتمثيل اللَّعب على المسارح الخشبية التى أشير إليها فى الويدا .

والآريون ، كجميع الفطريين ، كانوا يُوقِدون النار بِدَلْك حطبتين إحداهما بالأخرى ، وكانت تانك الحطبتان ، اللتان يظهر من دَلْك إحداهما بالأخرى إلهُ النار أغنى ، تُسَمَّيان بالأرنى ، جاء فى الويدا :

« هذا هو زمن هزّ الأرنىوولادة أغنى ، فَجِئْ بملكة الشعب (أرنى) ولنعمل على إنتاج ابنها .

« فالإله الذى بيده الخــير هو فى قطعتى الأرنى ، فهو فيهما كالجنين فى بطن أمه » .

والآريون كانوا يدفنون موتاهم على العموم ، وفى الويدا غيرُ نصّ على المآتم ، وفى النصّ الآتى تصويرٌ شِعْرىٌّ لوداع حىّ لميت :

« اذهب تَجِد الأرض الأمّ الكريمة الرؤومالفتاة الواسعة المطوف ، كالبِساط ، على من قدّس للآلهة بعطاياه .

« فيا أيتها الأرض ! انهضى ولا تُؤذِى عظامه ، وكونى سلاماً عليه رؤوفاً به ، ويا أيتها الأرض زَمِّليه كما تُزَمِّل الأمُّ طفلها بذيل ثوبها .

« فَلْتَنْهض الأرض له ، ولأجْمَعْ هذا التراب لكيلا تؤذىَ عظامه ، وليحرس الأجداد قبره ، وليحفر يما هنا منزله .

« ألاَ إن الأيام عندى كالسهام التى تذهب بالريش » .

فأين تجد ما هو أشدُّ وقعاً على النفس من سرعة الحياة التى تذهب بها الأيام كما تذهب السّهام بالأرياش ؟ .

٧ — مبادئ الآريين اللاهوتية والدينية

مبادئ الآريين الدينية على شيء من الإبهام والغموض ، فلم تكن أمور أيّ إله معينةً تعييناً قاطعاً عندهم ، فكان للمشاعر والخيالات الشخصية شأن كبير في تكييفها ، وليس قليلاً ما تجده من ذلك في الويدا ، فمن ينظر في الرِّغ ويدا يَتَمَلَّم طوراً بعد طور أن ديانة الآريين كانت ديانة توحيدٍ خالص وديانةَ وَحْدَةِ وجودٍ راقية وديانةَ شِرْكٍ غليظ .

حقاً أن قواعد المنطق التي أثبتت التربية أمرها في أدمغتنا الأوربية بتعاقب القرون جعلت لتلك الكلمات المُجَرَّدة فيها معانيَ صريحة مُحْكَمَة لا يُوَفَّق بينها مع فصلها بهُوَّى عميقة بين ما تدلُّ عليه من المعتقدات ، بَيْدَ أنه ليس لهذه المبادئ المجردة معانٍ مقررةٌ في أدمغة الفطريين التي لا يكون فيها للأفكار والعقائد واللغات غيرُ معان مذبذبة متقلبة على الدوام ، ولم يكن للتناقض مكان في دماغ الآريّ ذي الفكر المتقلب بسرعةٍ تقلبَ السُّحُب التي كان يراها في الفلك ، فالإله الذي يَرِد ذكره في الأنشودة يبدو الأهمَّ ما حُدِّث عنه ، فلم تَكَد تُقَلَّب الصفحة حتى تَجِد إلهاً آخر يَفْلِيه ، والإنسان يرى أحياناً أن الشعراء الذين وضعوا الأناشيد أرادوا الجدل بذلك ، مع أنهم ، كأكثر الشعراء ، لم يكترثوا لموضوعات الأناشيد إلاّ قليلاً لا ريب ، فكانوا يُضَحُّون مختارين بالرأي في سبيل خيال أو وصف .

إذَنْ، تبدو الأناشيد الآرية مُتَموِّجةً بين أشدّ المبادئ الدينية اختلافاً ، فتجد

فيها عبادةَ قُوَى الطبيعة وتجد فيها وَحدة الوجود وتجد فيها الشِّرْك وتجد فيها التوحيد .

ولا شيء أصعب من وضع تقسيم لآلهة الآريين ووضعِ سلسلة لها .

وأكثر الآلهة أو الرموز المذبذبة ذات الصفات والمقامات غيرِ المستقرة على الدوام ، فتجد الأساطيرَ الويدية مملوءة بها ، هي ما يأتي :

إلهُ النار أغنِي والشرابِ المختمر سوما الذي يحثُّه ، فأغنِي هو موجب الآلهة وهو موجب العوالم وهو موجب الحياة الكونية ، وسوما يُخلِّد الآلهة ويهَب للناس القوةَ والنشاط ، وسوما أوجب مثله ، السماء والأرض ، إندرا وَوِشنو ، وسوما حين اتَّحَد بأغنِي صَوَّر السماء والكواكب .

وملكُ السماء إندرا هو من أكثر الآلهة ذكراً لدى الآريين، فهذا الإلهمحاربٌ واقف على مركبةِ حربٍ كأنه زعيمُ عشيرةٍ آرية .

ويجتمع حول الإله إندرا آلهةٌ لايحصيها عَدٌّ فتقاسمه سلطانَه وتَغْلِبه في الغالب ، ومنها الآلهةُ التي تُعْرَف بالماروت ، أي آلهةُ الزوابع والأعاصير والبروق وتوزيع الأمطار ، والتي هي أولادُ رودرا الذي هو أجمل إلهٍ والذي يُرْسِل الصواعقَ ويحْمِي الأنعام ويَشْفِي المَرْضَى ، ومن تلك الآلهة الإلٰه الذي يُعْرَف ببرهَسْپَتِي الذي يُنَظِّم الكون ، ومنها الإلٰه وَرُونا الذي ينظر إلى أعمال الناس والذي هو ملك السماء كالإلٰه إندرا ، والذي يُصَوِّره بعض الأناشيد خاضعاً للإلٰه إندرا هـذا ويُصَوِّره بعضها سائداً له، ويُصَوِّره بعضُ آخر منها متحداً به .

ثم يجيء الإله سُورْيَه ، الشمسُ ، وِشنو الذي يجوب الفضاء بثلاث خطوات ، والذي قَفَز ذات يومٍ إلى الصفِّ الأول من الآلهة بعد أن كان ذكره خاملًا في الويدا .

ويُضاف إلى تلك الآلهة ، الكثيرة التى لا فائدة من عَدِّها جميعها ، أشخاصٌ مجردةٌ كبوراندهى (الرخاء) وأراماتى (الإحسان) ومرتيو (الموت) ، الخ .

وتَمَثُّل الآريين للآلهة يختلف عن تَمَثُّل الأوربىّ لها اختلافاً عظيماً ، فلا نرى علماً يستطيع أن يحيىَ أفكاراً مَيِّتَةً عُبِّرَ عنها بلغة شعب ميت ، فما فى لغاتنا العصرية من كلمات بَيِّنَة مُحْكَمَة لا يَعْزُبُ به عن آراء أولئك .

ولا يمكننا أن نُبْصِر معنى الأمور الخاصة بزمان زال إلى الأبد إلّا بالبحث العميق فى آثاره الأدبية ، فمع أن قصائد المهابهارتا والرامايانا أحدثُ من النشائد الويدية الأولى تبدو آثاراً آرية بالحقيقة ، فمن يقرأها يسهلْ عليه أن يَتَبَيَّن الفروق بين ما دار حول الآلهة عند الآريين من الأفكار وما يدور حولها عندنا ، فسلطانُ الآلهة وإن مُجِّدَ فى تلك القصائد ، فى الغالب ، لم تَخرُج هذه الآلهة ظافرةً فى كلِّ مرة من اصطراعها هى والإنس أو الجنّ ، والأدبُ الهندوسىّ حافلٌ بمئات الأقاصيص التى هى من هذا الطّراز ، ومن ذلك أن راونا ، ملكَ الجنّ المعروفين بالركشَسَا افتخرَ ، وهو يخاطب أحد الزُّهّاد ، بقهره للإله العظيم إندرا والإله يَمَا ، ومن ذلك ما ورد فى صفحة أخرى من أن ابن الإنسان لكشامَنَا أخا راما قال للحسناء سيتا مُعَزِّياً إياها عن غياب زوجها الذى افترضت وقوعه فى مَكْمَن :

« من المستحيل أن تَغْلِب الأُسُرَا وجميعُ الآلهة ، حتى الإله إندرا ، أخى » .

ومن ذلك أيضاً ما ورد فى رواية شَكُنْتَلَا التى نظمها الشاعر كالى داسا فى القرن السادس من الميلاد ، على ما يحتمل ، من أن « مَلِكَ الآلهة » إندرا أرسل رسولًا إلى الملك دُشايَنتا ، الذى هو رجلٌ ، ليرجوَ منه أن يُعينه على قهر العفاريت الذين « يَشْعُرُ بعجزه عن دحرهم » ، فوافق ذلك الملِكُ الرجلُ على ما طُلِب منه

فانتصر على أولئك العفاريت الذين لم يَسْطِعْ « مَلِكُ الآلهة » أن يَغْلِبهم .

ظهر مما تقدم أن من الصعب حصرَ المعتقدات المذبذبة المتحولة التى اُسْتنبط من الويدا فى دوائرَ من التعاريف معيَّنةٍ ، وهذه المعتقدات تشابه تلك للموجودات المتقلبةَ غيرَ المحددة التى كان علماء الطبيعة يَعُدُّونهـا من الحيوانات تارةً ومن النباتات تارةً أخرى ، ونحن ، مع محاولتنا القيام بهذا العمل الجديب نستخرج ، تقريباً ، الأمورَ الآتية من مجموع المعتقدات التى جاءت فى الويدا .

(١) عبادة قُوَى الطبيعة .

(٢) تَشَخُّص هذه القُوَى بأسماء الآلهة .

(٣) اعتقاد خلود الروح .

(٤) عبادة الأجداد .

(٥) الميل إلى إخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإلهٍ واحد أقوى منها ، وهو الإله إندرا على العموم .

(٦) هَيُولِيَّة الدين الثابتـة التى ينحصر بها أمر الدين فى تبادل الإنسان والآلهة للهبـات ، وذلك بأن يُقَرِّب الإنسان قرابينَه ويُقَدِّم نوا كهَه وأن تَمْنَح الآلهةُ الكُثْرَ واليُسْرَ والمطرَ المبارك والصحةَ والكنوز .



٥٤ — جكن ناتهه (ساحل أوريسة) مدخل المعبد الكبير (القرن الثاني عشر من الميلاد)

والآن نبحث فى هذه المسائل مستندين إلى بعض النصوص :

عِلاً تأليه قُوَى الطبيعة وعبادتُها الرَّغ و يدا .

و نُفرِّض عبادة كتلك على شعب جاهل فتىٍّ ساذج هَلُوع[١] فى قطر ، كالهند ، ذى عظمة رائعة وجمال عالٍ وذى يُسْر لم تسمع به أذنٌ مرة وذى عُسْر مرهوب مرة أخرى ، ففى الهند عُدَّت الشمس والرياح والأنهار والجبال والنباتات قُوًى قادرة ، و بدا سَيْر الشمس للآريين سِرًّا مُحَيِّرًا للعقول ، وشَمَلَت لطائفُ الفجر وعُذُوبة الشفق وتعاقب الفصول أنظارَهم فملأ شعراؤهم حظيرة قُدْسهم بآلهة وصفوها .

ولكن القوم فى وادى السِّنْد حيث يكون الحرُّ والجفاف هائلين كانوا يَضْرَعون ببليغ القول ، فى الغالب ، إلى إله الريح وايو و إلى أعوانه ورسله الماروت و إلى البقَرات السماوية التى هى سُحُب تَحْمِل المطر .

فإليك بعضَ الأنشودة التى تَتَغَنَّى بالشمس ، فتُعَدُّ مثالاً حسناً للشعر الويدى :

« يقيم الإلهُ ساوِتْرى بالنجم الساطع الذى يَبْزُغ[٢] فينير العوالمَ كلَّها ، فالشمس تُحْيِى بأشعتها السماء والأرض والهواء » .

« يجىء بالشمس جيادُها الحُمْر ، فيَصِل الفجرُ العظيم الجميل الذى يُنْعِش الجميع بضيائه ، فتأتى الإلاهة على مركبة فخمة فتوقظ الإنسان ليقوم بعمل نافع » .

« كيف تطلع الشمس التى لا دليل لها وكيف تغيب الشمس التى لا رابط لها من غير أن تسقط ؟ ومن يعرف القدرة التى تُمْسِكها ؟ هى صاحبة ربتا ، هى حافظة القُبَّة الخضراء وعمادها » .

والنارُ التى تُعْرَف بأغنى من أهمّ الآلهة الويدية ، ولا يفوق النارَ سوى الخالق الأعلى الإله إندرا ، فالنارُ موجودة فى كل مكان ، وتسرى النار فى كل مكان ،

---

(١) الهلوع : الضجور الذى لا يصبر على المصائب — (٢) بزغ يبزغ بزغا وبزوغا : طلع .

تسرى فى شرايين الأحياء وفى جَوْف الأرض وفى عروق النبات وفى أشعة الشمس، والنار تتجلى إذا ما ألهب الـكاهنُ الحطبَ ، جاء فى الويدا :

« حينما أرى هذا الـكائن المنير فى قلبى تدوى أذناى وتختلج عيناى وتتيه نفسى فى ارتياب ، فماذا أقول ؟ وَفِيمَ أفـكرُ ؟ » .

« فيا أغنى ! تمجدَتك جميعُ الآلهة واجفةً[1] ما تواريتَ فى الظلام » .

والمعتقدات حول اليوم الآخر مبهمةٌ متقلبة فى الويدا ، ففى الويدا يعود الشخص بعد موته إلى العناصر ، ويغشى روحَه جسمٌ جـديد ، فمن ثمَّ ترى بَداءة المذهب التناسخى[2] ، وفى الويدا تَجد الاعتقاد القائل بخلود الروح وبأن الروح أسمى من الجسم وأنها أساس شخص الإنسان ، جاء فى الويدا :

« لتَذْهَب عين الميت إلى الشمس ولتذهب روحه إلى وايو ، ولْتَرُدَّ إلى السماء والأرض ما أنت مدين به لهما ، ولْتُعْطِ الماء والنبات ما فى بدنك من الأجزاء التى لهما .

« وفى الـكيان جزء خالد ، وهذا الجزء هو ما يجب أن تُدْفِئه بأشعتك وتُلْهبه بنيرانك يا أغنى ، وانقُلْ ، يا جاتا ويدا ، ذلك الموجودَ السعيد ، الذى بَرَأْتَه ، إلى عالم الأتقياء الأبرار .

« وروحُك حين تَزور هنالك بقعةَ الموت نَدْعوها إلى منزلك هنا ، إلى الحياة .

« وروحُك حين تَزور هنالك السماء والأرض ندعوها إلى منزلك هنا ، إلى الحياة.

« وروحُك حين تَزور هنالك الشمسَ والفجر ندعوها إلى منزلك هنـا ، إلى الحياة . الخ » .

---

(١) الواجف : المضطرب ـ (٢) التناسخ : انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر ويعرف « بالتقمص » والذين يعتقدون ذلك يسمون« بالتناسخية » .

ونشأت عبادة الأجداد عن ذلك الإيمان بخلود الروح ، ورأينا فى مكان آخر أن الأجداد المَوْتَى ، عنـد الآريين ، لا يدومون ولا يَسْعَدون فى المَثْوَى الأبدىّ ما لم تَدُم أُسرتهم فى الدنيا فتُقَدِّمَ إليهم القرابين وتُصَلِّى من أجلهم ، وفى الويدا :

« يا أغنى ! تعالَ مع هؤلاء الأجداد القدماء الأتقياء العظماء ، تعالَ مع أُلوف عِباد الآلهة هؤلاء الذين يركبون وإياها مركباً واحداً ويشربون هم والإله إندرا الشرابَ ويأكلون وإياه القربانَ ويذهبون للجلوس بالقرب من الدار » .

وتَجِد فى الويدا بذرةَ الإيمان بالله عَلِىّ خالقِ كلٍّ فانٍ وكلٍّ دائمٍ مهيمن على الناس والأجداد والآلهة ، ويُخَيَّل لواضع أُنشُودَة كلٍّ إله فيها أن هذا الإله هو أهمّ الآلهة أو الإله الواحد ، ومما حدث فى الويدا أن عُدَّت الآلهة ، فى بعض الأحيان ، إلهاً واحداً ذا أسماء متنوعة ، وفى الويدا :

« أن الروح الإلهيــة التى تسير فى السماء تُسَمَّى إندرا ومِترَا وورونا وأغنى ، فالحكماء هم الذين يُطْلِقُون على الموجود الواحد عِدَّة أسماء فيقولون هذا أغنى (النار) ويَمَا (الموت) ، الخ . »

ومن هنالك ترى أن للموجود الواحد خواصَّ مبهمة فيـدعى تارةً بالنار وتارةً بالموت أو ما إلى ذلك من المُجَرَّدات الأخرى ، وفى العبارة الآتية تَجِد ما هو أدقّ من ذلك :

« ذلك الذى هو أبونا ، ذلك الذى هو سبب كلّ كائن ، ذلك الذى هو محيطٌ بكل موجود عليمٌ بكلّ عالم ، فالإله الواحد هو موجب الآلهة الأخرى ، وكلُّ ما فى الـكون يُقِرُّ بسلطانه » .

بَيْدَ أنك تَجِد ، أحيـانًا ، ما يكسو ذلك القولَ المؤكد ثوبًا من الالتباس مصدرُه شعورُ الإنسان بعجزه عن معرفة أصل الأشياء ومصيرها ، ففى الويدا :

« تَعْلَمُون خالقَ كلِّ شىء ، هو ذلك الذى تَرَوْنه أمامكم ، ولـكن كل شىء عندنا مستورٌ بغِطاء من ثلج ، فأحكامُنا غامضةٌ ، والناسُ يَمْضُون مُقَرِّبين للقرابين وَمُرَتِّلين للأَناشيد » .

وكان يَنْبُتُ فى تلك الأدمغة الفطرية مذهبُ الارتياب الذى نَمَا بعدئذ فى كتب الهنـــد نموًا عظيمًا ، ودليلُنا على ذلك النصُّ الآتى الذى ورد فى الرِّغْ ويدا فاستَشهدَ به مكس مولر فى كتابه « أصل الأديان ونشوؤها » :

« مَنْ يَدْرِى ، من يقول من أين أتى هذا الـكون ؟ فالآلهة ظهرت بعد ظهوره، فمن يستطيع أن يُخْبِرنا بمصدره ؟

« من أين أتى هذا الـكون ؟ هل هو من صنع خالق أم لا ؟ يَعْلَمُ ذلك من ينظر من فوق الفلك ، وقد لا يعلم . »

ويظهر أن الجمهور كان لا يبالى كثيرًا بمثل هـــذه الأفـكار التى كانت تُساوِرُ بعضَ المفكرين، فالذى كان يُهِمُّ الجمهور هو أن يتساوم هو والآلهة تساومًا عمليًا فيقدمَ إليهـا القرابينَ والأدعية والنشائد فى مقابل أُسَرٍ عزيزة وكنوز وافرة وقِطاع كبيرة وانتصاراتٍ مُؤَزَّرَة ، ففى الويدا غيرُ شاهد على ذلك، والشواهد فيها من نَمَط واحد ، ففيها أن أىَّ إلٰه يُضْرَع إليـه يَتَمَلَّقُ بوعده بسيول من شراب السوما وأنهـار من عسل ولبن وبالصلوات والأدعيـة والتسابيح ، وبتقريب القرابين أحيانًا ، على أن يَحْمِى الأُسَرَ ويَقِى من الأمراض ويُنْزِل على الحقول المطرَ ويجعلَ البقر كثيرة النسل والدَّرِّ .

وقلما كان يُخْلَط بتلك الأمور الغليظة الصادرة عن الحرص والطمع روحُ التوبة والندم على ما فَرَط من الذنوب والرغبة فى إصلاح الحال .

ولا تكاد تجد فى الويدا مبدأ الذنب ، فالآرىُّ كان لا يَبْغى الكمال ، ويعزو ما يقترفه إلى ضعف الطبيعة البشرية ، جاء فى إحدى تلك الأناشيد :

« ياپتريس ! لا تؤاخذنا بذنوبنا ، فهى نتيجة ضعف طبيعتنا البشرية . »

وما عند الآريين من مبادئ الأخلاق قليلُ النموّ قليلُ الصرامة ، فيكاد ينحصر ما تأمر به الويدا فى إيتاء الصدقات والرِّفق بالحيوانات والوفاء للأصدقاء .

نختم بحثنا المُجْمَل الذى رسمنا خطوطه بإخلاص فاعتمدنا فيه على الويدا ، فحاولنا فيه إظهار حضارة الآريين وشأنهم ، فنقول ، من غير أن نعترف لهم بالصفات العالية التى أريدوصفُهم بها حينما كُشِف أمرهم ولا بما عُزِى إليهم من الشأن فى تكوين العروق ولا بما قُصِد نسبته إليهم من كلّ أمر رفيع فى الغرب ، إنك لا تُبصر حضارة تساوت هى وحضارتهم فى النشوء فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الهمجية الأولى ، وإنك إذا قايست بين الشعب الآرى والشعب اليهودى الذى مَثَّلَ دوراً كبيراً فى العالم وجدتَ ذلك أعلى من هذا ، ففى تاريخ بنى إسرائيل ترى ما لا ترى له أثراً فى كتب الآريين



٤٦ — جكن ناتها . داخل معبد غورشاباري
(القرن الثانى عشر على مايحتمل)

من الأكاذيب وكفرانِ النعمة والجُبْن والنذالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء والخُرَافيَّة الضارية .

وغيرُ ذلك يكون تقديرنا عند المقايسة بين ذينك العرقين فى الأسلوب الشعرىّ، فليس الرَّغْويدا بأجملَ من سِفْر أيوب .

ونعترف عنـد النظر إلى المناحى الفلسفية المدوَّنة بصورة استثنائية فى كتابَىْ كلا العرقين بأن الشوق إلى معرفة الحقيقة والمجهولِ وغيرِ المحدود وبأن مشاعر البؤس البشرى وبأن وَهْىَ حُطام الدنيا أظهرُ بياناً وأكثرُ نَصًّا فى التوراة مما فى الويدا .

وإذا نظرتَ إلى الأمر من ناحية الحيـاة وجدتَ ، على العموم ، أن التوراة أكثر من الويدا تشاؤماً ، وتبدو الويدا أكثر من التوراة تفاؤلاً ، فالآرىُّ متفائلٌ بطبيعته ويَسْهُـلُ أن تَجِده راضياً بمـا قُسِم له ، فإذا علمت أن الآريين أربابَ الأسر يغتبطون بأبنائهم ومواشيهم ورياحهم الموسمية فلا يطلبون من السماء الصافية أكثرَ من هذه الأشياء صَعُبَ عليك أن تُصَدِّق أنهم أجدادنا ، نحن الغربيين ذوى الحاجات التى لا تقف عند حدّ فيصعُب قضاؤها ، نحن الغربيين الذين لا نعيش إلاّ بين المآرب الأزلية والرغائب الأبدية

الفَصلُ الثاني

حضارة العصر البرهمي

وَصفٌ للمجتمع الهندوسيّ قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون

---

(١) الوثائق التي يستعان بها في بحث المجتمع الهندوسي قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون — شرائع منو — العلائق بالإغريق — رحلة ميغاستين — (٢) تقسيم المجتمع الهندوسي إلى طوائف — حقوق كل واحدة من هذه الطوائف وواجباتها — الضرورات الإثنولوجية التي أدت إلى نظام الطوائف — فساد المثال الآري كما ظهر من دراسة النقوش القديمة — شدة نظام الطوائف — وظائف أفراد كل طائفة — (٣) المدن والمباني — ما انتهى إلينا من مباني ذلك العصر — وصف مدينة هندوسية قديمة على حسب رواية ميغاستين ورواية رامايانا — (٤) الحكومة والإدارة — سلطة الملك المطلقة — إدارة الدولة — الضرائب — (٥) إقامة العدل — الشرائع والعادات — إذا عدوت الشريعة الدينية لم تجد شريعة سوى العادة — كيف كان العدل يقوم — البحث عن الجرائم والاشتراع الجزائي — حكم الله — لا تفرض العقوبة بحسب الضرر الواقع — دماثة الطبائع — (٦) الجيش وفن التعبئة — أهمية الجيوش الهندوسية على حسب رواية ميغاستين — الأسلحة — فن التعبئة — (٧) الزراعة والتجارة — التعليمات الزراعية — مبادئ المقايضة — الربا الفاحش — الطبقة الصناعية والتجارية — (٨) أحوال النساء — الوصاية على المرأة في العصر البرهمي — عقوبة الزناء الشديدة — واجبات الأزواج المتبادلة — (٩) معتقدات الهندوس الدينية قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون — تطورات النظام الويدي القديم — جفاء الطقوس — أسس وحدة الوجود — مذهب التناسخ — مستقبل الإنسان على حسب أعماله في حياته — شدة النير الديني المفروض على الهندوس في العصر البرهمي .

١ - الوثائق التى يستعان بها فى بعث المجتمع الهندوسى كما كان قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون

كان وادى السِّنْد مقراً للحضارة الآرية التى وصفناها فى الفصل السابق ، وكان وادى الغَنْج محلَّ نشوء الحضارة البرهمية التام .

استمرَّ فاتحو الهند على زحفهم إلى الشرق فى الدور الذى دام نحو ألف سنة فصل بين دَوْرَىْ هـذه الحضارة البارزيْن ، فأضحَوْا سادةَ جميع الهندوستان ، أى جميعِ القطر الواقع بين بحر عُمَان وخليج البنغال ، و بين جبال هِمَالْية وجبال وِندهيا ، وخضع سكانُ هذا القطر الواسع الغنىّ القدماء لقاهريهم نهائياً وكَفُّوا عن مقاتلتهم راضين بِنِيرهم مختلطين بهم ، ورأى الآريون أن يجتنبوا هذا الاختلاط الذى بدا فى الصميم فصار يؤدى إلى انصهار بعض العروق فى بعض بعد أن كان سطحياً ، فوضعوا ، وضع المُتمّ ، نظامَ الطوائف الذى ذكرنا ظهوره الأول فى العصر الويدى.

بلغت الحضارة البرهمية ذُروتها قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون ، ففى ذلك الزمن ، لا ريب ، أُلِّفَت مجموعة شرائع مَنُو (مانوا - دَهرما - شاسترا) التى صارت دستور الهند المدنىّ والسياسىّ .

وظُنَّ فى بدء الأمر أن تلك المجموعة أقدم من ذلك بزمن طويل ، فَرَجَعها جونس إلى القرن الثامن قبل الميلاد ورجَّعها آخرون إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أبْدِى حديثاً رأىُ أقومُ من ذلك كما يظهر ، فلم يُرْجِعها إلى ما قبل القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد .

إن مانوا — دَهرما — شاسترا أوثقُ مصدرٍ لدينا عن العصر البرهمى ، وهو يَمْدِل الرِّغْ ويدا عن العصر الويدى ، وما وصفناه فى أمر الويدا تصنع مثله فى أمر شرائع مَنُو فنستنبط من هـذه الشرائع الأساسية جميع الشواهد التى نتمثل بها ، بالضبط ، ما نشير إليه من الأزمنة .

وليست الـكتب المقدسة وحدَها هى التى نستجلى بها العصر البرهمى مع ذلك، فقد أخذ التاريخ ، أيضاً ، يُلقِى بَصِيصاً ، ولو ضعيفاً ، على الهند القديمة بعد غزوة الإسكندر .

أجَلْ ، إن غزوة الإسكندر لم تُسفر عن كبير معرفة للغربيين ، غير أنهم أبصروا بها القطرَ الحافلَ بالأسرار الواقع فيما وراء نهر السِّنْد فوَجَّهوا إليـه بعدئذ أفـكارهم وأنظارهم فى الغالب ، فعَنَّ لنيكاتور السلوقى ، الذى هو أحد الأمراء المقتسمين لدولة الإسكندر المقدونى ، أن يُتِمَّ ما بدأ به هـذا الفاتح راجياً أن يكون أوفر حظاً منه فخاب أمله ، فقد كان لدى ملوك الهنـد الشمالية من الحرس والجيوش الـكثيرة ما لم يجرُؤْ معه على مقاتلتها مخاطراً .

بَيْدَ أن ذلك الأمير فتح بقطريان فأصبح جاراً لأولئك الملوك ففرَض عليهم أن يتفاوض هو وإياهم ، فحالفه چَنْدَرا غُوپتا (المعروف لدى الإغريق بساندرو كوتوس) الذى كان من أعظمهم سلطاناً فتزوج هذا الملك الهندوسىُّ بابنته مُضِيفاً إياها إلى نسائه مما عُدَّ خارقاً للعادة عند الإغريق والهندوس على السواء ، فذهبت هذه الأميرة الفتاة إلى عاصمة زوجها پاتلى پوترا الواقعة على ضِفاف الغَنْج وغيرِ البعيدة من رأس الدلتا لتلحق به ، فرافقها إليه السـفير ميغاستين فقضَى هـذا السفير أوقات فراغه فى وصف ما كان غريباً عليه من طبائع الشعوب التى أصبح بين أظهرها .

ومن المؤسف أن رِحْلة ميغاستين الكاملة المفصلة ، كما يظهر ، لم تَصِل إلينا ، واليومَ تُعَدُّ مزورةً المجموعةُ التى عزاها أنيوس الڤيتربى فى القرون الوسطى إلى ذلك السفير السلوقى على أنها صحيحة ، غير أن مؤرخى الإغريق واللاتين وجغرافييهم المعاصرين لهذا السفير والذين ظهروا بعده قد استشهدوا برحلته فى الغالب فاقتطفوا منها فصولاً كاملة ، فتجد أسترابون ، مثلاً ، يستند إليها كثيراً فى الجزء الذى درس فيه جغرافية الهند ، فنشأ عن ذلك أن انتهت إلينا منها قِطَعٌ واسعة بعض الاتساع تُعَدّ ، بالإضافة إلى شرائع مَنُو ، الأساسَ الذى نعتمد عليه فى بعث الهند البرهمية .

حقاً أن رِحلة ميغاستين وشرائعَ مَنُو هى الوثائق الوحيدة التى تُستنبط منها معارفُ ، على شىء من الصحة ، عن العصر البرهمى ، وأما القصائد الحماسية الكبرى، كالرامايانا والمهابهارتا ، فمحشوةٌ بالأساطير مهذبةٌ عِدّة مرات لا ريب ، فلا تَصْلُح لمعرفة الزمن الذى وُضِعت فيه ولا لتعيين ما أشارت إليه من الحوادث بالضبط ، وإن كانت آثاراً أدبية خالصة يُرْجَع إليها أحياناً بتحفظ كبير .

٢ — تقسيم المجتمع الهندوسى إلى طوائف

حقوق كل واحدة من هذه الطوائف وواجباتها

رأينا فى أواخر العصر الويدى تقسيمَ الوظائف وتطورها لتكون إرثية ، وذكرنا أن ذلك يوجب نظام الطوائف وإن كان لا يُؤدى وحده إلى ظهور هذا النظام .

كانت ضرورة المحافظة على نَقَاوةِ العرق واحترام الأنساب وبقاء الأُسَر القديمة مما يَشْغَل بال آريى العصر الويدى ، فصار التفكير فى ذلك هَمّ مشترعى الآريين

عندما دان للآريين الفاتحين شمالُ الهند فتفرّق هؤلاء القليلو العدد بين سكانه المغلوبين الكثيرين .

وكانت الحقائق الإثنولوجية ، التي هدَت إليها التجارب فوُضِعت في نصوص من الحِكَم ، بديهيةً عند الآريين ، فالآريون كانوا يعلمون ، لا ريب ، أن الغُزَاة لا يلبثون أن يَعْفُوَا في الشعب المقهور إذا امتزجوا به فلا يبقى لهم أثر بعد بضعة أجيال ، وكانوا يعلمون ، أيضاً ، أن تزاوج رجل وامرأة من عرقين متفاوتين يؤدي في الغالب إلى ولادة أولاد متوسطين خَلْقاً منحطين خُلُقاً .

فاسمع ما جاء في شريعة منو :

« لم يلبث كلّ بلد يُولَد فيه أولاد من عرق متوالد مُفْسِد لصفاء الطبقات أن تُقَوَّض دعائمه وينحطّ سكانه .

« وأسرة الرجل مهما تكن شريفةً ممتازة لا بُدَّ لهذا الرجل ، إذا كان وليدَ طبقات مختلطة ، من أن ينتقل إليه بالإرث شيء من سَجِيَّة أبويه وسوء خُلقهما .

« وما في الرجل من فُقْدان المشاعر النبيلة وغِلْظة الكلام والجَلَف وإهمال الواجبات فموروثٌ عن أمٍّ جديرة بالاحتقار » .

والآريون قد تَعَلَّمُوا تلك المبادئ على حسابهم الخاص لا رَيْب ، فلما راعهم ، على الأرجح ، هبوط عرقهم أقاموا الحواجز الواقية الشديدة التي لا تزال باقية .

ولا يدلُّ ما في شرائع مَنُو من التعاليم على سلامة العرق الآرى قبلها ، وإن دلَّت على تقدير الآريين لضرورة سلامة عرقهم ، فتوالدُ الآريين وغيرهم قد حَدَث حتماً ، فلم يَعْتَمّ المثال الآرىّ أن تَغَيَّر ، فلا تجد شريعة قادرة على مقاومة بعض الضرورات الفيزيولوجية .

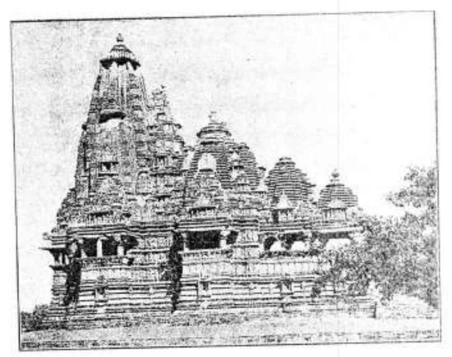
ومما يُؤيِّد هذه النظرية ما في المباني القديمة من النقوش ، فتدلُّ نقوش ذلك العصر ، كنقوش بَهارَت مثلاً ، على مثال نَجده في القرون الآتية وفي مناطق الهند البعيد بعضُها من بعض بُعْداً كبيراً ، كسانچي وبَهاجا على الخصوص ، فلا نرى بينه وبين المثال القفقاسيّ وجهَ شَبَه ، فهو ذو وجه عريض صفيح يُثْبِت تَغَلُّبَ العنصر التورانيّ ، والآريون الُخلص إذا ما وُجِـدوا في ذلك الحين كانوا أقليةً صغيرة منتسبة إلى طائفة البراهمة وحدَها لا ريب .

ويدلُّ درس المجتمع في ذلك العصر على تطوره خَلْقاً وخُلُقاً ، فقد أضيف ثِقَل نظام الطوائف الذي وُضِع لإنقاذ ما بَقِي من النَّقاوة والفَخْر إلى نير التقاليد الشديد الذي حُصِرت فيه الحضارة الهندوسية فلا تخرج منه أبداً ، فَغَدَت الآلهة هَيُولاَنيَّة وحلَّت تعاليم مَنُو الجافَّة محلَّ الشعر الآرى الرائع ، نَعَمْ ، إن الخيال لم يُقَيَّد تماماً ، بيد أنه أضحى أشعثَ ثقيلاً مُنْتِجاً للأساطير المُطَوَّلة التي لا حدَّ لها بدلاً من أدعية الويدا البليغة أو نشائدها الساطعة .

والطوائف التي ورد ذكرها في شريعة مَنُو أربع : طائفةُ البراهمة (الكهنة) وطائفة الأكشترية (المقاتلة) وطائفة الويشية (الزراع والمرابين والتجار) وطائفة الشودرا (سِفْلة الناس الذين ليس لهم مهنةٌ خاصة فلم يُعْترف لهم بعمل غير خِدْمَة الآخرين) .

وعلى الرجل أن يتزوج بامرأة من طائفته أو من طائفة أدنى منها ، ولكن الرجل الذي يتزوج بواحدة من الشودرا يصبح مفضوحاً مَهتُوك السِّتْر ويُطْرَد من طائفته ويصيبه خزيٌ في الدنيا والآخرة ، فلا يتزوج نساء الشودرا إلاَّ رجالٌ من الشودرا .

ويمكن البرهمىّ أن يتزوج امرأة من الأكشترية أو من الويشية ، ولاعكس ، فمن معتقدات الآريين أن الأب الذى هو من طائفة أعلى من طائفة زوجته يستطيع أن ينقل بعض صفاته إلى ابنه ، وأن الأب الذى هو أدنى من طائفة زوجته يُنْزِل هذه الزوجة وأولاده منها إلى مستواه ، فيُنْظَر فى عدم الكفاءة الحقيقية فى الزواج إلى زواج المرأة حيث الذرارى .



٤٧ — كهجورا ، معبد شيوا (القرن العاشر من الميلاد) (ارتفاعه نحو ٢٥ متراً)

وإليك واجباتِ كلٍّ واحدة من الطوائف ومبادىء النكاح كما جاءت فى شريعة مَنُو بادئاً بالرمز البرهمىّ المشهور القائل إن كل طائفة خرجت من جزء من جسم برهمة .

« أراد الربُّ المولَى تكاثرَ الجنس البشرىّ فخلق من فَمِه وذراعه وفخذه ورجله البراهمة والأكشترية والويشية والشودرا وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكلٍّ واحدة من هذه الطبقات أعمالاً خاصة .

« فعَهِد إلى البراهمة فى درس أسفار الويدا وتعليمها وتقريب القربان وإدارة ضحايا الآخرين والعطاء والأخذ .

« وفَرَض على الأكشترية حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك فى الشهوات .

« وخَصَّ الويشية بتربية المواشى وإيتاء الزكاة والتضحية ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحرث .

« وأوجب على الشودرا عملاً واحداً فقط ، وهو خدمة تلك الطبقات من غير أن يَحُطُّوا من قَدْرها .

« وليُعْرَف أمر الرجل الذى ينتسب إلى طبقة دنيئة والذى وُلِد من أمٍ حقيرة لم يظهر أمره جيداً فيُخَيَّل إلى الناظر إليه أنه رجلُ شرفٍ وما هو بذلك .

« يمكن المرء الذى يولد من أب شريف وأمّ حقيرة أن يكون شريفاً بخصائله، ولكن الذى يولد من أمّ شريفة وأب حقير يُعَدُّ حقيراً كما هو حكم القدَر .

« لا يَنْجُل الرجلُ الشودرىُّ الذى يتزوجُ امرأةً من طبقة الكهَّان غيرَ ولدٍ أدنى منه ، كما أن كلّ واحد من هؤلاء المُوَلَّدين الأدنياء يتزوج بواحدة من بنات الطبقات الأربع الخالصة لا يَنْجُل إلاّ ولداً أدنى منه .

« نارُ جهنم هى دار البرهمى الذى يتزوج امرأة من الشودرا ، لا من طبقته ، فإذا وُلِد له ولد منها طُرِد من طبقة البراهمة » .

كان تفوقُ رجال البراهمة على بَقِيَّة الشعب عظيماً ، وما كانوا يتمتعون به من السلطان والحقوق والاحترام يجعلهم من شِباه الآلهة أكثر من أن يكونوا من البشر ، وقد نالوا هذا المقام الممتاز بعنصرهم الطيب و بما لصلواتهم من التأثير المزعوم فى عزائم الآلهة و بما اكتسبوه من العلم فى جميع أيامهم .

وكان البراهمة يقومون ببعض الواجبات ، فى الحقيقة ، فى مقابل ما يتمتعون به من الامتيازات، و بيانُ الأمر : أن حياة البرهمىّ كانت تُقَسَّم إلى أربعة أدوار :دورِ المراهقة وفيه يَتَخَرَّج البرهمىّ على أساتذة مخصوصين فى دراسة الكتب المقدسة والاطلاع على أسرار الدين ، ودورِ الفتوة وفيه يَتَزَوَّج البرهمىّ فيصبح أباً وربَّ أُسْرة ما كانت وظائفه وِراثية وما كان واجبه الأول أن يكون ذا ولد ، ودورِ الكهولة وفيه يقضى البرهمىّ أيامه معتزلًا مُتَبَتِّلًا زاهداً ، ودورِ الشَّيْبَة وفيه يصبح البرهمىّ كاملًا متصلًا بالآلهة رأساً متأملًا متأهباً للموت .

و يجب أن تكون هذه الحياة ، التى قُسِّمَت على هذا الوجه إلى هذه الأدوار الأربعة (المراهقة والفُتُوَّة والكُهُولَة والشَّيْبَة) ، لكلّ هندوسىّ وُلِد مرتين ، أى لكل هندوسىّ مقبول ، و يُعَدّ جميع رجال الطوائف الثلاث الأولى من الذين وُلِدوا مرتين ، فالواحد منهم إذا خَرَج من دور المراهقة وُضِع حول عنقه حَبْلٌ رمزىٌّ فى احتفال ليكون علامةً على الوِلادة الروحية وعلى أنه ابن برهمة ، غير أن البراهمة وحدَهم هم الذين يمارسون بدقة الوظائفَ الأربع : وظيفةَ المرشح للرهبانية ووظيفةَ ربِّ الأُسرة ووظيفة الناسك ووظيفة القانت .

وفى حالة الفقر يؤذن للبرهمىّ فى القيام ببعض الوظائف ، وبالتجارة أيضاً ، ولكن فقراء البراهمة يعيشون ، على العموم ، من جُود الأكشترية وكَرَمهم ، فإيتاء

الهبات للبراهمة هو أفضلُ عمل يقوم به هندوسيّ ، جاء في شريعة مَنُو :

« يُؤْجَر الواهب مرة على هِبَة المال لغير البرهميّ ، ويُؤْجَر مرتين على هِبَته لرجل يزعم أنه برهميّ ، ويُؤْجَر مئةَ ألفِ مرةٍ على هِبَته لبرهميّ مُتَبَحِّر في كتب الويدا ، ويُؤْجَر أجراً لا حدّ له على هِبَته لبرهميّ مُتَبَتِّل إلى علم اللاهوت » .

وإليك أهمّ ما جاء في شريعة مَنُو من النصوص على حقوق البراهمة :

« إذا وُلِدَ البرهميّ وُضِع في الصف الأول من صفوف هذه الدنيا ، والبرهميّ إذ كان السيدَ الحاكمَ لكلّ مخلوق وَجَب عليه أن يحافظ على كَنْز الشرائع المدنية والدينية .

« والبرهميُّ محلٌّ لاحترام الجميع والآلهة بسبب نَسَبه وحدَه ، وأحكامُه حجةٌ في العالم ، والكتاب المقدس هو الذي يمنحه هذا الامتياز .

« كلُّ ما في هذا العالم مُلْك البرهميّ ، وللبرهميّ حقٌّ في كل موجود بسبب البِكْرِيَّة والنَّسَب .

« والبرهميُّ إذا ما افتقر حُقّ له أن يمتلك مال الشُّودريّ الذي هو عَبْدٌ له من غير أن يجازيه المَلِك على ما فعل ، فالعبدُ وما يَملِك لسيده .

« ولن يُدَنَّس البرهميُّ صاحبُ الرِّگْ ويدا بذنب ولو قَتَل أهل العوالم الثلاثة وتناولَ طعاماً من أسفل رجل .

« ولا ينبغي للمَلِك أن يَجْبِيَ خَرَاجاً من برهميّ عالم بالكتاب المقدس ولو مات المَلِك محتاجاً ، ولا يجوز له أن يَصْبِر على جوع برهميّ في ولايته .

« وليجتنب المَلِكُ قتلَ برهميّ ولو اقترف جميع الجرائم ، وليَطْرُدْه ، إذا رأى ، من مملكته على أن يترك له جميع أمواله وألّا يصيبه بأذى .

« والبرهمىُّ المُحْصَن إذا ما زَنَى قُصَّ شعر رأسه قصًّا شائنًا ، على حين يُقتَل الزُّناة المُحْصَنون من أبناء الطبقات الأخرى » .

ومن حقوق البراهمة أن يكونوا مشيرين للملك ، فعلى الملك ألاَّ يقطع أمراً مُهِمًّا قبل أن يستشير أكثرهم دراية ، فكان يجتمع بانتظام مجلسٌ يدعى بالمجلس الكبير للبحث فى أهمِّ الشؤون .

وشاهد ميغاستين ما كان يتمتع به البراهمة من ضروب العزِّ والشرف وحدَّث عن فلسفتهم معجباً فقال إنها قريبة من فلسفة سقراط وفيثاغور .

وكان الأكشترية (المقاتلة) يقومون بأمور الحرب وحدَها فلا يمارسون حِرْفةً أو مِهْنة أخرى ، وكان وقت السلم لهم وقتَ بَطالة ، وكان يجب عليهم أن يستعدوا للحرب على الدوام وأن يُلَبُّوا أول نداء ما قامت رسالتهم على حماية الشعب وما أركن الويشىُّ (الزارع ..) إلى مرابطتهم فى الثغور فحَرَث حقله مطمئناً .

وكان الأكشترية والبراهمة (الكهنة) عِمَادَىِ المجتمع الْمُتِمِّ أحدُهما للآخر ، وإن كان الأكشترية دون البراهمة بدرجات ، جاء فى شريعة مَنُو :

« لا فلاح للأكشترية بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الأكشترية ، فتانك الطائفتان إذا ما اتَّحدتا كُتِبَ لهما الفوزُ فى الدارين .

« يجب أن يُعَدَّ البرهمىّ أباً للأكشترىِّ ولو كان عمر البرهمىِّ عشرَ سنوات وعمر الأكشترى مئة سنة ، ويجب أن يحترم الأكشترىُّ البرهمىَّ على هذا الأساس » .

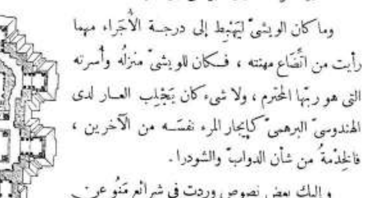
ومن ثَمَّ ترى الفرق بين تينك الطائفتين الأوليين ، وهذا الفرق ليس بالذى يذكر إذا ما قِيس بالهُوَّة التى تفصلهما عن بقية الشعب ، ويبدو الأكشترى نِدًّا

للبرهمىّ من بعض الوجوه كما يُسْتَشَفُّ من ذلك النصّ الدالّ على الصلة الوثيقة بينهما ، و يبدو مالا يتصوره العقل من الوِهاد العميقة بينهما و بين الويشية ، ولا نقول الشّودرىّ الذى يكاد يكون غير موجود فى المجتمع .

وكانت طبقة الويشية تشتمل على الزراع والتجار والمرتهنين ، وكان هؤلاء يُعَدُّون من الذين يُولَدون مرتين ، و إن كان قبولهم يَتِمّ بعد الأكشترية بمدة كما أن قبول الأكشترية هؤلاء كان يتأخر عن قبول البراهمة .

وما كان الويشىّ ليَهْبِط إلى درجة الأُجَراء مهما رأيت من اتّضاع مهنته ، فكان للويشىّ منزلُه وأُسرته التى هو ربّها المحترم ، ولا شىء كان يَجْلِب العار لدى الهندوسىّ البرهمىّ كإيجار المرء نفسَه من الآخرين ، فالخِدْمةُ من شأن الدوابّ والشودرا .

و إليك بعض نصوص وردت فى شرائع مَنُو عن الويشية :



٤٨ — كهجورا ، رسم معبد كهندريا (كما خطله الجنرال كننغهم) (القرن العاشر من الميلاد)

« يجب على الويشىّ بعد أن يُقَلَّد الحبلَ المقدس ويتزوج امرأة من طائفته أن يُعْنَى جادًّا بمهنته ويُرَبِّىَ المواشى على الدوام .

« ولْيَعْلم جيداً كيف يبذُر الحبوب ، ولْيُفَرِّقْ بين الأرض الجيدة والأرض الرديئة ولْيَطَّلِعْ على نظام الأوزان والمكاييل اطلاعاً تاماً .

« ولْيَعرف أَجْرَ الخدَم ولغاتِ الناس وما تُحْفَظ به السِّلع وكلَّ ما يَمُتُّ إلى البيع والشراء بصلة » .

ولا ريب في سريان قطَرات من الدم الآري في عروق الويشية وإن كان دم الويشية كثير الاختلاط بغيره ، وأما الشودرا فهم سكان البلاد الأصليون الأدنياء الذين لا يحالفهم الإنسان من غير أن يَهْبِط من مرتبته ، وهم نُفاية الخلق وأحقر من البهائم ، وليس في هذا ما يَصْعُب إدراكه عند النظر إليه من الوجهة البرهمية ، فليس في الكلب أو الحصان أيُّ خَطَر على مستقبل العرق الآري ، مع أن الشودرا كانوا يُهَدِّدون ، على الدوام ، قاهريهم بغَمرهم وابتلاعهم ، فلو لم يُقَصِّ المغلوبون منذ الساعة الأولى لأدّى غزوهم السُّفليُّ إلى زوال أي أثر من العرق القديم الذي يفتخر البراهمة بالانتساب إليه ، ولو انقطع القَرَاح[1] عن السيل في قناته الصّوَّا بيَّة لامتصته حَمْأة[2] مُسْتَنْقَع واسع .

ويمكن القارىء أن يطلع على درجة الذلّ العظيم التي كان يعيش فيها الشودري المنكود الحظّ من النصوص الآتية الواردة في شرائع مَنُو :

« يجب على الشودريّ أن يمتثل امتثالاً مطلقاً أوامر البراهمة سادةِ الدار العارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل ، فتُرْجَى له السعادة بعد موته (بعث أسنى) .

« خدمةُ الشودريّ للبراهمة هي أفضلُ عمل يُحْمَد عليه ، ولا أجرَ للشودريّ على عمل آخر يقوم به .

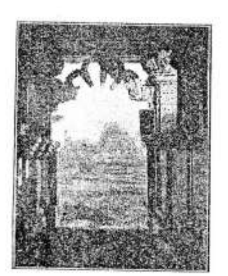
« ولا يجوز للشودريّ أن يجمع ثَرَوات زائدة ، ولو كان على ذلك من القادرين ، فالشودريّ إذا جمع مالاً آذى البراهمة بقِحَته .

---

(١) القراح : الماء الخالص — (٢) الحمأة : الطين الأسود .

« ويجب نفى ابن الطبقة الدنيا الذى تُحَدِّثه نفسه بأن يساوىَ رجلاً من طبقة أعلى من طبقته وأن يُوسم تحت الوِرْك .

« وتقطع يده إذا علا من هو أعلى منه بيده أو عصاه وتُقْطع رجله إذا رَفَسه برجله حين الغضب .



٤٩ — كهجورا ، باب المعبد السابق (أخذت هذه الصورة من داخل المعبد) .

« وإذا ما دعاه باسمه أو باسم طائفته مُتَشَتِّماً أُدْخل إلى فمه خِنْجر مُحَمّى مَثْلُوثُ النَّصْل طوله عشرة قراريط .

« ويأمر الملك بصبِّ زيتٍ حارٍّ فى فَمِهِ وفى أذنيه إذا بلغ من الوقاحة ما يُبْدى به رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم .

« ومن يَكُ ذا علاقات برجل منبوذ أُسْقِط فى نهاية سنة ، ولا يكون هذا السقوط ، فقط ، بأن يُقَرِّب معه أو يُقْرَأ معه الكتاب المقدس أو يُحَالَف مما يؤدى إلى السقوط حالاً ، بل يَنْجُم أيضاً عن الذهاب معه فى مركبة واحدة أو الجلوس معه على متكأ واحد أو الأكلِ معه حول خِوَانٍ واحد » .

٣ — المدن والمبانى

أقام الهندوس فى العصر البرهمىّ مبانىَ فَخْمَةً ومدناً زاهية على ضِفاف الغَنْج ،

فكانوا بذلك على عكس آريى العصر الويدى الذين لم يُنشئوا غير قرًى حقيرة .

وأطلال ماشاده الهندوس فى العصر البرهمى قليلةٌ جداً ، ويُثْبِت ما بَقِى منها ، كنقوش بَهارَت وأعمدة أشوكا ، أن الهندوس كانوا ماهرين فى فنّ العمارة .

ومن المحتمل أن أُنْشِئَت أبنية الهند الأولى من الخشب والآجُرّ وأن المبانى الحجرية لم تكن غير نسخة عنها ، وليس ما قام به ميغاستين من الوصف وحدَه هو الذى أَسْتَنِد إليه فى هذا ، بل أَسْتَنِد ، أيضاً ، إلى مشاهداتى فى نيبال التى حافظت على طبائع الهند القديمة ، فقد وجدتُ فيها أعمدة حجرية غير قليلة اقتُبِسَت نقوشها من نقوش الأعمدة الخشبية اقتباساً تامّاً .

والأمر مهما يكن فإن الذى لا ريب فيه هو أن الهندوس كانوا مالكين لمدن مهمة فى زمن ميغاستين ، فما وصَفَ به هذا السفير اليونانىّ مدينةَ پالى پوترا الكبرى من القول يدلنا على اتساعها وقوتها وعظمتها .

قامت تلك المدينة ، كما روى ميغاستين ، على ضِفاف الغَنْج وكانت مسطحة مستطيلة جداً وكان يحيط بها سُورٌ ، وكان يوجد فى أسفل هذا السّور خندق عريض ، وأثار عجبَ ميغاستين قصرُ الملك فيها وأسواقُها وحوانيتها المملوءة بالسلع الثمينة والمواكبُ الزاهية التى كانت تجوب شوارعها .

ولم يكن وصف ذلك السفير كلّ ما لدينا من الوثائق لتَمثُّل إحدى المدن الهندوسية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فإليك وصفاً أكثر تفصيلاً مما ورد فى رحلة ذلك السفير جاء فى شعر الرامايانا الحماسى الذى وُضِع فى زمن أقدم من تاريخها لا ريب :

« هى بُقعَة واسعة دَسِمَة باسمة وافرة الغِنَى مملوءةٌ بالحبوب والمواشى واقعة على ضِفاف سَراجو مُسَمَّاةً كوسَلا ، هنالك كانت مدينةٌ مشهورة فى جميع العالم أنشأها سيد البشر مَنُو ، فـكانت تدعى بأجودهيا .

« يا لَجمال تلك المدينة ويا لسعادة تلك البلدة التى كان عرضها ثلاثةَ أَوْدَجِنَاَ وكان طول سورها الرائع اثنى عشر أَوْدَجِنَاً ! .

« كان لتلك المدينة أبواب يَفْصِل بعضَها عن بعض مسافاتٌ متساوية ، وكان يقطعها شوارعُ كبيرةٌ عريضة ، وكان يَسْطَع من هذه الشوارع الشارعُ المَلَكِيُّ حيث تَرْشاشُ الماء يُسَكِّنُ ثائرَ الغُبار .

« وكان تجار كثيرون يَتَرَدَّدون إلى أسواقها ، وكان كثيرُ الحُليِّ يزخرف حوانيتها ، وكانت منيعة، وكان كبيرُ البيوت يُغَطِّى أرضها ، وكانت مُزَيَّنَة بالغِياض والحدائق العامة ، وكانت تحيط بها الخنادق العميقة التى يتعذر اقتحامها ، وكانت دور صِناعتها طافحة بأنواع الأسلحة ، وكانت الأقواس البديعة تُتَوِّج أبوابها فيَحْرُسها النَّبَّالة على الدوام .

« وكان الملكُ المنصور العالى الشأن دَشَرَتها يَمْلِكُ تلك المدينةَ كما يَمْلِكُ الإله إندرا مدينةَ الخالدين أَمَرَاوَتِى .

« وكانت البنودُ الخافقة ترفرف فوق حنايا مداخلها المنقوشة ، وكانت تتمتع بكلّ مايُنتجه مختلف الفنون والمِهَن ، وكانت زاخرة بالمراكب والخيل والفِيَلَة والعُدَد والمقامع وآلات الحرب ، وكانت طرقها ذواتُ الأبوابِ المتينة وأسواقُها الحَسَنَة التوزيع على أبعادٍ محسوبة حساباً دقيقاً تَعِجُّ بالباعة والسُّعاة والسُّيَّاح ، وكانت

ألوف الجموع تَغْدو وتَعْدو فيها ، وكانت تُحاذيها العيون الساطعة والبساتين العامة ورِداه المجالس وضَخْمُ المبانى المُوَزَّعة توزيعاً كاملاً ، وكانت تبدو محطةً لمراكب الآلهة الحيَّة فى هذه الدنيا لِما فيها من هيا كل هذه الآلهة » .

٤ — الحكومة والإدارة

كان نظام الحكم فى العصر البرهمىّ مَلَكيًّا مطلقاً ، فكان الملك يُطاع كإله ، فإذا ما ارتقى الملكُ العرشَ ، ولو بعد جناية يقترفها ، نُظِر إليه ممثلاً لمشيئة قُدُسيَّة وقدرةٍ إلهيَّة ، جاء فى شريعة مَنُو :

« يجب ألا يُسْتخفّ بالمَلِك ولو كان طفلاً ، وذلك بأن يقال : إنه إنسان ، فالألوهية تتجسَّم فى صورة الملِك البشرية » .

ويظهر أن حكومة ذلك العصر كانت ذات حُنُوٍّ أبوىّ لم تَبْدُ شديدة على الرَّعِيَّة ، وكان البراهمة على رأسها تقريباً بسبب مركزهم الطائفى ، فكان على الملك أن يعمل برأيهم وأن يُجْزِل لهم العطايا ، وكان لصلواتهم من النفوذ ما كانوا يُعَدُّون به قادرين على جعل أيام حكمه سعيدةً مَجيدةً أو على صبّ ضروب الغضب وجميع اللَّعَنات السماوية على رأسه .

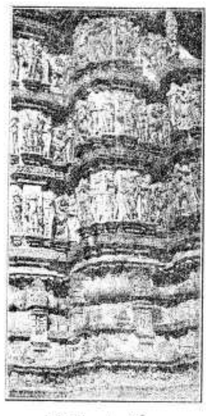
ومن الأكشترية كان يُنَصَّب الملك ، والملك على الأكشترية ، وقد كانوا رفقاءه فى الجيش ، احترامُ الجنود لقائدهم .

إذَنْ ، كان سلطان الملك المطلق يتجلَّى على الويشية ، ولم يُعَدَّ رجال هذه الطائفة إلا من مُساقيه ومُزارعيه ، فكانوا يزرعون الأرض ويتاجرون لأجله ،

وإن شئت فقل لأجل الدولة ، فالضرائبُ ، وإن كانت تُجْبَى للملك ، كان على الملك أن ينظم الجيش ويرعاه وأن يقوم بكلّ ما ينفع الرعية من الأعمال .

وكان فى الولايات وفى المدن وفى أحقر القرى مفتشون لمراقبة إنتاج الأراضى وقِيَم السِّلع والأثمان التى تُباع بها كى تُجْبَى ضرائب الملك منها بعد أن تُعَيَّن .

ويلوح لنا أن نوع الإدارة ذلك مزعجٌ جائر ، بَيْدَ أن احتماله كان سهلاً على الهندوس كما يظهر ، وهم الذين شَبَّههم ميغاستين بالأولاد السَّهْلِى الانقياد فقال إنهم أكثر شعوب العالم دماثة وتسليماً ، شأنهم فى الزمن الحاضر .



٥٠ — كهجورا . دقائق نقوش معبد كهنداريا .

والملوك ، مع ما كانوا يتمتعون به من السلطان المطلق ، لم يكونوا قادرين على إساءة استعمال مقامهم ، فهم ، إذ كانوا مُنْزَوين فى قصورهم ملزَمين ، مع انتظامٍ فى العيش ، بتطبيق شرائع مَنُو والعملِ بتعاليمها الكثيرة فى واجبات الملك كان هَمُّهم الكبير مصروفاً ، على ما يظهر ، إلى الخلاص من الخِنجر والسُّم ، فعلى ما كان يَحُفّ منصبَهم من الأخطار

كان محلَّ رغبـة وطمع ، والقائلُ المُوَفَّق الذى يَخْلُف الملك إذ كان يُمَدُّ موجوداً إلهيًا فَوْرَ قبضه على التاج والصولجان وإذْ كان لا يخشى سوى الإخفاق وَجَب على الملِك أن يتذرع بالحذر وحدَه لإنقاذ حياته ، والحذَرُ ما توصيه به شريعـة مَنُو أيضاً ، فترى أن تُؤَلَّف حاشية الملك من أناس ضِعاف ذوى حياء يَخْشَوْن حَوْكَ الدسائس حوله والائتمار به وأن يُغَيِّرَ الملك مكان نومه فى الغالب وألا يسكر لاحتمال قتل إحدى زوجاته إياه فى أثناء سُكْره ، طمعاً فى الزواج بخلفه .

ولم يكن من حق إنسان ، مع ذلك ، أن يَسْكُن داخـل القصر غيرُ الملك وأزواجه ، فـكان على حرس الملك أن يقيموا بخارجه .

وكنت ترى بين حين وحين موكباً رائعاً مشتملاً على الملك وزوجاته مُؤَلَّفاً من فُيُول مجهزة بأفخر جهـاز ومن نساء مُسَلَّحَات ومن نَبَّالة وحرس سائراً بأُبَّهة من الشوارع إلى الصيد بين حبال ممدودة على الجانبين وَقْفاً لمحبى الاستطلاع .

وكنتَ ترى الملك حينما يذهب ليُقَرِّب القرابين الرسمية أو ليحكم بين الرعية أو ليقود الـكتائب .

وفى شرائع مَنُو أن الملك الحـكيم الرشـيد هو الذى يَظَلّ متأهباً للحرب على ألا يخوض غِمارها إلاّ إذا كان موقناً بأن النصر يكون حليفه ، فعلى الملك الذى يَوَدّ النصر ألا يمتشق الحسام قبل المفاوضات وبَثّ العيون والأرصاد وبَذْرِ عوامل الشقاق بين الأعداء ، جاء فى شرائع مَنُو :

« ليجتـذب الملكُ من يستطيعون أن يساعدوه على بلوغ مآربه ، كأقرباء الأمير العـدوّ الطامعين فى عرشه أو وزراء هذا الأمير الساخطين ، وليَعْلم جميعَ ما

يصنعه الأعـــداء ، فإذا ما آنس من السماء عطفاً حارب ، غَيْرَ هَيَّابٍ ، ليفتح بلاداً » .

ولم يكن التجسُّس نافعاً ضد الأعداء وحدهم ، بل كان يُعَدّ أداةً حكومية صالحة، فبالعيون كان الملك يكتشف الائتمار به ، وبهم كان يعلم مَدَى نَزَاهَة مفتشيه وإخلاصهم ، وبهم كان يراقب الغِلال ·الأسواق دَرْءاً لـكلِّ غِشٍّ وتدليس فى جباية الخراج .

وكان الخراج يزيد وينقُص بحسب جَوْدة المواسم ورداءتها ، فـكان يُزاد فى الجَدْب وينقص فى الخِصْب ، فاسمع ما جاء فى شريعة مَنُو حَوْل هذه التحولات:

« يمكن إبلاغ الضريبة المفروضة على التجار فى زمن العُسْر إلى ثُمُن الغَلَّات ، وإلى رُبعها ، وإلى واحد من عشرين من الربح النقدىّ بعد أن تـكون فى زمن اليُسْر واحداً من اثنى عشر من الغَلَّات وواحداً من خمسين من الربح النقدىّ ، ويجب على الشودرا والعمال والمحترفين أن يُؤَدُّوا عمل يوم واحد فى الشهر من غير أن يُؤْتُوا ضريبةً .

« وليأخذ الملكُ سُدُسَ الدخل السنوىِّ من اللحم والعسل والسمن والرُّبِّ والعقَّار[1] والشجر والعِطْر والزهر والجَذْر والثَّمر » .

ومن ثَمَّ تُبْصِر أن الشودرا ليس لهم ثروةٌ غيرُ العمل فلا يؤدُّون إلى بيت المال ضريبة سوى عملِ يومٍ واحد فى الشهر .

وكانت المراقبة العامة فى البلاد مُحْكَمَة التنظيم ، فـكان لـكلِّ قرية وكلِّ مدينة مفتشها الذى يرفع تقريره إلى المفتش الأعلى لمجموعةٍ من المدن ، ثم يرفع هذا

---

(١) العقار : ما يتداوى به من النبات .

المفتش تقريره إلى مفتش الولاية ، ثم يرفع مفتشو الولايات النتائجَ رأساً إلى وزراء الملك الذين كانوا يُختارون من أعلم البراهمة .

وكان للجيش أيضاً مفتشون من مراتبَ مختلفة على حسب أهميتهم .

٥ — إقامة العدل ، الشرائع والعادات

الأصلُ هو أن يقيم الملك العدل ، ولكن الملك إذ كان يَتعذَّر عليه ، بحكم الطبيعة ، أن ينظر فى جميع الدعاوَى كان يُنيب عنه البراهمة فى ذلك . قال مَنُو :

« على الملك الذى يَوَدّ أن ينظر فى الخصومات أن يذهب إلى مجلس القضاء متواضعاً هو وأناس من البراهمة والمشيرين المُحَنَّكين .

« فالملك إذا لم يفعل ذلك وجَب عليه أن ينيب عنه برهمياً مثقفاً .

« وليُدقّق هذا البرهمىّ فى القضايا المعروضة للفصل فيها مستعيناً بثلاثة مساعدين.

« وليَختر الملك لتفسير الشريعة ، إذا أراد ، رجلاً من طبقة الكَهنوت فلا يستند هذا الرجل فى القيام بالواجبات وبالدلالة عليه إلى غير نسبه ، أو ليَختر رجلًا يبدو من البراهمة وإلّا فمن الأكشترية أو الويشية ، ولكن ليَجتَنِب اختيار مفسرٍ لها من الطبقة السُّفلى » .

ولم يُوجَد قانونٌ شامل لجميع مشاكل الحياة الاجتماعية ، فترى من قول مَنُو الآتى أن للعادة حكمَ القانون على العموم .

« يجب على الملك الصالح أن يدرس قوانين الطبقات والولايات الخاصة ، وأن يدرس نُظُم شركات التجار وعادات الأُسَر ، وأن يجعل لها قوّة القانون إذا لم تكن تلك القوانين والنُّظُم والعادات مخالفة لتعاليم الكتب المُنَزَّلة » .

والخصومات بين الناس كانت قليلة، فكان الهندوس يمقتون الدعاوى خلافاً لما يُشاهَد فى أيامنا، وكانت الجُنح والجنايات تُفصَل بعد عناية كبيرة واحتفال عظيم.

والعيون هم الذين كانوا يكتشفون الجرائم فى الغالب، فكان التجسس شاملاً للعدل والسياسة، والبَغايا، على الخصوص، هُنّ اللائى كُنّ يَقُمْن بأعمال التجسس، وكان الغريب إذا ماوَصَل إلى البلد يُحاط، من غير أن يَشْعُر، بجواسيس لايتركونه.

وكانت تُعَدّ شهادة الزور من الكبائر فيعاقب مقترفها بعقوبة رادعة فى هذه الدنيا إذا ما اكتُشِفَت و بأشدّ الجزاء فى الآخرة على كلّ حال، جاء فى شريعة مَنُو:

« يجب على كل عاقل ألاّ يَحْلِف زوراً ولو من أجل أمر تافه، فالبَوَار فى الدنيا والآخرة للشاهد الكاذب.

« ويُعَدّ لشاهد الزور من النَّكال ما يُعَدّ لقاتل البرهمىّ أو لقاتل المرأة أو لقاتل الصبىّ أو للذى يؤذى الصديق أو للذى يُتْلِف المال.

« سيَهْوِى فى نار جهنم رأساً على عقب المجرم الذى يَشْهَد الزور عند سؤاله من قِبَل القضاء ».

وكان يُرَى فى أمر الشهادة، كما فى محاكمنا، ألّا يكون الشاهد قريباً للمتهم أو ذا علاقة أخرى به، وكان يُزَكَّى قبل سماع شهادته، قال مَنُو:

« يجب أن يُختار الشهود للقضايا فى جميع الطبقات من أناس موثوق بهم عالمين بواجباتهم خالين من الغرض، ويجب أن يُرَدّ من لم يكونوا من هؤلاء.

« لا يجوز أن تقبل شهادة من لهم مَغْنَم، ولا شهادةُ الأصدقاء، ولا شهادةُ الأُجَراء، ولا شهادة الأعداء، ولا شهادة من اشتهروا بسوء النية، ولا شهادة المجرمين ».

وكان لا يُشَدَّدُ في أمر الشهود إذا كان الجرم كبيراً وأُمسِكَ المجرمُ مُتَلَبِّساً به وكان إثباته سهلاً ، جاء في شريعة مَنُو :

« لا يُفْرَض تَقَصِّى أمر الشهود في جرائم الغصب والسَّرقة والزناء والشتائم وسوء المعاملة » .

تُثْبِت تلك النصوص وغيرها ، مما لا نرى سَرْدَه في هذا الكتاب ، درجةَ حرص براهمة الهندوس على إحقاق الحقّ بتدقيق ووضوح .

وتَجِد بين تلك التحفظات الحكيمة الدقيقة التى وُضِعت لإظهار الحقّ عاداتٍ خرافيةً شاملة للنظر قريبة من أحكام الربّ في قرون القرب الوسطى ، جاء في شريعة مَنُو :

« ليُحَلِّف القاضى البرهميَّ بصدقه ، وليُحَلِّف الأكشتريَّ بخيوله أو فُيُوله أو سلاحه ، وليُحَلِّف الويشيَّ ببقره وحبوبه وذهبه ، وليُحَلِّف الشودريَّ بكلّ الجرائم .

« أو ليأمُر القاضى ، بحسب أهمية المُعْضِلة ، من يريد امتحانه بأن يُمْسِك النار بيده أو يُغَطِّس في الماء أو يَمَسَّ رأسَ زوجته ورأس كلّ واحد من أولاده على انفراد .

« فالذى لا يَحْرُقه اللَّهَب أو لا يَطفُو فوق الماء فلا يناله أذىً يُعَدُّ صادقاً في يمينه » .

ومن يَتَصفَّح السِّفْر الثامن والسِّفْر التاسع من شرائع مَنُو يَجِدْهما مملوءين بما يجب عمله في تحرى الآثام والجرائم وبالعقوبات التى تُفْرَض على المذنبين .

وتُوَجَّه تلك الأحكام رأساً إلى الملك الذى هو قاضى المملكة الأعلى والمسؤولُ عن جميع ما يُقْتَرف فيها من الجرائم الصغيرة والكبيرة .

ومما ذكرناه أن للملك سُدْسَ الدَّخْل ، ومن يُنْعِم النظر فى الآيتين الآتيتين يَطَّلِعْ على ما كان من التضامن بين الملك وشعبه مادةً ومعنى .

« سُدُس ثواب طَيِّب الأعمال للملِك الذى يَحْمى رَعِيَّته وسُدُس جزاء سَيِّء الأعمال يقع على الملِك الذى لا يسهر على مصالح رعيته .

« وسُدُسُ ثواب ما يُقَدَّم إلى الآلهة من القراءات الصالحة والقرابين والهبات والتسابيح للملك الذى يُجير رَعِيَّته » .

ومما قلناه أن هندوس ذلك العصر كانوا يرغبون عن رفع الدَّعاوى ، فقد أوصُوا بأن يَحُلُّوا مسائلهم صُلْحاً وأن يلجأوا ، عند الاقتضاء ، إلى بعض التدابير القَسْرية ، قبل أن يَطْرُقوا أبواب القضاء .

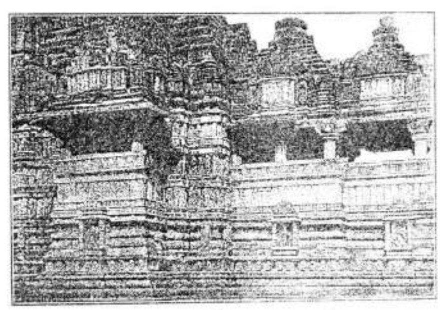
« يمكن الدائنَ أن يتخذ جميع الوسائل المألوفة لإكراه المَدِين على رد ما استدانه .

« وعلى الملك ألا يُعَزِّر دائناً أكره مدينَه على رد ما استدانه » .

والمقصودُ من عبارة « اتخاذ جميع الوسائل المألوفة لاسترداد ما استدانه المَدِين » هو اتخاذ طرق الإرغاب والإرهاب وتوسيط الأصحاب نحوَ المَدِين وتَعَقُّبه فى كل مكان وفى بيته والقبض على زوجته أو أولاده ووَقْف هؤلاء فى بيت الدائن والالتجاء إلى الجلد فى نهاية الأمر .

ولم تكن أبواب اليُسْر مُوصَدَةً دون المَدين ، فكان يمكنه أن يوفى ما عليه من الدين بأن يعمل مقداراً فمقداراً ، وإذا ما عَقَد مُقَايَضَةً أو مصالحةً أو مبايعةً أمكنه

الرجوعُ عنها في خلال عشرة أيام ، فذلك العقد لا يصبح باتًّا لا يُنقَض إلّا بعد انقضاء عشرة أيام .



٥١ — كهجورا . دقائق معبد لكشمن جى (القرن العاشر)
(يبلغ عرض هذا القسم المصور نحو ١٣ مترا)

والشريعة عيَّنت مقدار الرِّبا ، وكان هذا المقدار يختلف باختلاف الطوائف ، فما كان يؤديه البرهميّ من الرِّبا أقلُّ مما يؤديه الأكشتريّ ، وما كان يؤديه هذا أقلّ مما يؤديه الويشيّ .

ومما تقدم تُبصر أن كلّ شيء كان يميل إلى المرونة والرِّفق في علاقات بعض الأفراد ببعض ، فكان هؤلاء القوم الصابرون الهادئون يكرهون أعمالَ العنف ، وكان أولَ ما يجب على الملك أن يصنعه هو أن يمنع القهر ويجازيَ الغاصب بشدة .

« يجب على الملك الذى يطمع فى سيادة العالم وفى السعادة الثابتة الأبدية

ألا يَغْفُل طَرْفَةَ عَيْن عن مجازاة الذى يقترف أعمال العُنْف كالحرق وقطع السابلة .

« وليُعَدَّ الذى يقترف أعمال العُنف مجرماً أكثرَ من النَّمّاز[١] الهَمّاز[٢] الثَّلاب[٣] الضَّرّاب السَّرّاق .

« وما الملك الصابرُ على مقترف أعمال العُنف إلّا بالذى يُلْقِى نفسه فى الهاوية فلا ينال غيرَ بُغْض الناس » .

وكانت أهمية الجرائم التى تُقْتَرَف والعقوبات التى تُفْرَض تختلف باختلاف طائفة المَجْنِىّ عليه ، لا باختلاف الضرر ، فما كانت العقوبات التى تُفْرَض على البرهمىّ من الشدة كالتى تُفْرَض على أبناء الطوائف الثلاث الأخرى .

« فإذا اقترف برهمىٌّ معروفٌ بكَرَم النَّحِيزَة[٤] جنايةً غُرِّم ، وإذا كان ذلك عمداً نُفِى من البلاد وأُذِن له فى أخذ أثاثه وأسرته .

« بيد أن من يقترف من أبناء الطبقات الأخرى تلك الجناية غَيْرَ متعمد يخسر أمواله ويُنْفى من البلاد ، ومن يقترفها عمداً يُقْتَل » .

وتقول العقوبات المنصوص عليها فى شريعة مَنُو بمصادرة الأموال أو النفى أو القتل عند اقتراف الجنايات الكبرى كالقتل أو زنا الأزواج ، وبالغرامة أو قَطْع العضو أو السِّجْن عند السَّرقة .

وعُدَّ خطف البنات وغَصْب الفَتَيات وزناء الأزواج من الجنايات الكُبْرى لِما يؤدى إليه ذلك من تمازج الطوائف الذى حَرَّمته شرائع مَنُو ، وسنعود إلى هذا الموضوع فى المطلب الذى خَصَّصناه للبحث فى أحوال النساء .

وإنى أختم قولى الإجمالى فى النظام القضائىّ بكلمة عن المواريث فأقول إن

---

(١) النماز : النمام ــ (٢) الهماز : العياب ــ (٣) الثلاب : المغتاب ــ (٤) النحيزة : الطبيعة .

الأولاد كانوا يقتسمون ميراث أبيهم بالتساوى حين وفاته ، ومما كان يَحْدُثُ أن يُخَصِّص الأب ابنه البكر ذا المزايا الحيدة بجميع التَّركة فيقوم مقامه بعد موته ، وكان إخوة الميت وأبواه يَرِثونه عند ما يُتَوَفَّى بلا ولد ، وكان الملك والبراهمة يَرِثونه إذا مات بلا وارث .

٦ — الجيش وفنُّ التَّعْبئة

كان جيش براهمة الهندوس يُؤَلَّف من طبقة الأكشترية ، وكان مما يخالف الشريعة أن يتعاطى أكشترىٌّ غير مهنة الجندية ، والشريعة كانت لا تأذن للأكشترى فى اتخاذ مهنة أخرى إلا عند أقصى الضرورة ، والأكشترىٌّ كان يعيش جنديًّا حتى فى زمن السِّلْم .

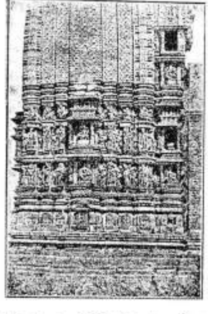
ومما رواه ميغاستين وجودُ معسكر جامع لجميع المقاتلين مُقَدَّراً عددهم بأربعمئة ألف ، فكان هؤلاء يَقْضون أيامهم فى تمرين قُوَّتِهم وحِذْقِهم فى اللعب والشرب والنوم ، وكان الملك يَعْرِضهم بين حين وحين .

وأُعجب ميغاستين بانتظام ذلك المعسكر المحتوى على أربعمئة ألف مقاتل وبأمانة الهندوس فرَوَى أنه لم يسمع من الأخبار السيئة عنه سوى سَرِقَةِ جندىٍّ منه لبعض ما عند جندىٍّ آخر .

وكان المقاتلون يتجمَّعون عند أول نداء ، فما كان عليهم أن يُعِدُّوا عُدَّة ولا أن يجهزوا حصاناً أو مركبة ، فكان الملك يقوم بجميع ذلك ، والملك كان يُخَصِّص مُعْظم الضرائب لهذا الغرض كما رأينا ، وكانت قوة الجيش وأُبَّهته تتجليان فيما فيه من المراكب والفيُول والخُيُول ، فكان يركب كلَّ فيل أربعةُ رجال وثلاثةُ نَبَّالَةٍ وسائقٌ ، وكان يركب كلَّ مركبة ثلاثةُ رجال ونَبَّالان وسائق .

« قوةُ الجيش فى الفيل على الخصوص ، فلا شيء يَعْدِل الفيل ، فتُعَدُّ أعضاء الفيل وحدَها أسلحةً ثمانية ، وفى الحصان تتجلى قوة الجيش أيضاً ، فالحصان حِصْنٌ متحرك ، فالملك الذى يملك خيولاً أكثر من عدوه يكون النصر حليفه فى ميدان الوغى .

« لا بدَّ لمن يقاتل فى السهول من المراكب والخُيُول ، ولا بدَّ لمن يقاتل فى أماكن المياه من السفن والفُيُول ، ولا بدَّ لمن يقاتل فى الأدغال من الأقواس والنِّبال ، ولا بدَّ لمن يقاتل فى الميدان من السيوف والتروس وما إليها من الأسلحة » .



٥٢ — كهجورا . دقائق نقوش فى معبد موززدهارا

لم نقتطف ذلك القول من شريعة مَنُو ، بل أخذناه من مختارات الأقاصيص التى جُمِعَت بعد زمن فَعُرِفت بالهِتُوبديشا لما رأيناه فيه من دقائق الطبائع الحربية الموافقة لعادات العصر البرهمى .

ومن تلك المجموعة نقتبس العبارة الآتية التى تشير إلى حرب الاستيلاء أكثر من أن تُشير إلى إحدى الحَمَلات العادية ماذُكِرَ فيها النساء وما يرافق الجيش من كل ثمين :

« يجب أن يكون القائد العامّ وأشجع الجنود فى مُقَدَّمة الجيش ، وأن يكون النساء والأمير والمال وكل ثمين فى القلب ، وأن يكون الخيل والمراكب والفُيُول والمُشاة فى الميمنة والميسرة .

« ويجب على القائد المساعد أن يكون فى المُؤَخَّرة وأن يَشُدَّ عزيمة كلِّ تَعِب ، ويجب على الملك ، ويَحُفُّ به وزراؤه وأعوانه ، أن يقود الفيلق المهمّ من الجيش . »

وإذا نظرنا إلى أمر الجيش من حيث فنّ التعبئة أبصرنا التواصىَ الثلاث الآتية التى اقتطفنا أولاها من الهتوپديشا واقتطفنا الأخريين من شرائع مَنُو فرأينا أنها تأمر باتباع تلك السُّنَّة :

« يجب على من يرغب فى النصر المُؤَزَّر أن يناوش جيش العدو فيُبيده بالتدريج ، فمن السهل قهرُ العدو إذا ما أُتْعِب زمناً طويلاً .

« وإذا أحاط بالعدوّ وجب عليه توطيد معسكره وتخريبُ أملاك العدو وإتلاف ما فيها من الكَلأ والقُوت والماء والوَقُود .

« وليَهْدِمْ أحواض العدوّ وحصونَه وخنادقه وليُنَازله نهاراً وليُبَاغِته ليلاً . »

وإذا وُجِدَت فى كتب الهندوس نصوصٌ على ضروب الخدائع الحربية والحِيَل السياسية وُجِدت فيها أيضاً تعاليمُ تُشيعُ رحمة، ففيها، مثلاً، نَهْىٌ عن استعمال الأسلحة الغادرة التى تُحْدِث جروحاً بليغةً خَطِرَةً كالسهام السّامّة ، وفيها نَهْىٌ عن الإجهاز على عدوّ عاجز عن الدفاع كأنْ يكون قد سقط صريعاً أو أن يكون مبارزاً لمجاهد آخر ، فإليك ما جاء فى شريعة مَنُو :

« لا يجوز لمحارب أن يقاتل أعداءه بأسلحة غادرة كالعِصِىِّ ذوات الخناجر الملوثة النَّصْل أو النِّبال ذوات الأسنان أو السهام السّامّة أو الحِراب الملتهبة .

« ولا يجوز لمحارب أن يضرب عدوًّا ماشياً إذا كان هو راكباً مركبةً ، ولا رجلاً مُخَنَّثاً ، ولا مُتَكَتِّفاً طالباً الرحمة ، ولا من يَفُكُّ شعره ، ولا من هو جالس ، ولا من يقول : أنا أسيرك . »

وأوصى مَنُو بأن يُعامَل الأعداء المغلوبون بكرم على أن هــذا من حُسْنِ السياسة فقال :

« لا تزيد موارد الملك ووسائله إلا إذا جعل المَلِك صديقاً من الضعيف الذى قد يَقْوَى ذات يوم ، ولو نال الملك كنوزاً واكتسب أملاكاً . »

والنصر إذا تمَّ للملك أمكنه أن يأخذ مغانمَ كثيرةً على أن يُعْطِى البراهمة قسماً وافراً منهـا ، ومن مصالح الملك ، مع ذلك ، ألاَّ يُرْهِق الشعوب التى أصبح سيدها عُسْراً ، قال منو :

« اغتصابُ الأشياء الثمينة المؤدى إلى الحقد أو منحُ الأشياء الثمينة المؤدى إلى تآلف القلوب قد يكون محموداً أو مذموماً بحسب الأحوال » .

وإليك وصيةً بأن يحترم الغالب قوانين المغلوبين ودياناتهم احتراماً يُذَكِّرنا بالسياسة الرشيدة التى سار عليها الرومان ، أمهرُ مالكى رقاب الشعوب :

« يجب على المالك الفاتح أن يُمَجِّد آلهة الشعب المغلوب وأصحابَ الفضيلة من كهّانه ، وليُشْبِعْ عليه النِّعَم ، وليُزِل مخاوفَه بمراسيمَ خاصةٍ ، وليَحْتَرِمْ قوانينَه كما هى ، وليُنْعِمْ على أميره وأعوان أميره بالجواهر » .

٥٣ ـ كهجورا . تماثيل فى أساس معبد الإلاهة باراوتى (القرن العاشر من الميلاد)

وكانت الحرب تُعَدُّ أمراً خَطيراً سيئاً ، فعلى وَلِيِّ الأمر ألا يلجأ إليها إلا بعد أن يَبْذُل ما فى طاقته من الوسائل السلمية لاجتنابها ، قال منو :

« يجب على الملك أن يَبْذُل جميع جهوده فى حمل أعدائه على الخضوع فلا يُقصِّر فى مفاوضتهم ولا فى تقديم الهدايا إليهم ، ولا فى نشر بذور الشِّقاق بينهم ، وليُعَمَل ذلك دفعةً واحدةً أو على انفراد مُتجَنِّباً القتال .

« والملكُ إذ كان لا يعلَم تماماً من سيخرج من الحرب منصوراً ومن سيخرج منها مقهوراً وجب أن يُبْعِد شبحها ما استطاع .

« فإذا لم يستطع أن يتَّخِذ واحدة من تلك الوصايا الثلاث وجب عليه أن يحارب بِبسالة لِيغْلِب العدوّ » .

٧ — الزراعة والتجارة

الويشية هم الذين كانوا يمارسون الزراعة والتجارة ، بَيْد أن أبناء هذه الطائفة كانوا لا يتعاطَونها لحسابهم الخاصّ و إن استطاعوا أن يتملكوا وأن يقتنوا ، فالملكُ هو مولاهم،وهو مالك الأراضى الحقيقىّ ، وكان الزارع المهمل يُجازَى لإضراره حقوق الملِك، فضلاً عن افتقاره ، قال مَنُو :

« يُغرَّم الزارعُ الذى تُتلِف مواشيه حقلَه أو الذى لا يَبْذُر الحبّ فى الوقت الملائم بغرامة تَعدِل ثَمَنَ حِصَّة المِلك من الغَلَّة عشر مرات ما حدث هذا بإهماله ، أو بنصف هذه الغرامة إذا نشأ الإهمال عن أُجَرائه من غير أن يَعلَم » .

وكان الملك يُنَظِّم بدقة أمور البيع والشراء وأثمان السلع وقيمة العيارات والمكاييل وشؤونَ الاستيراد والإصدار ، جاء في شريعة منو :

« يجب على الملك أن يَضَع مراسيم لتنظيم أمور البيع والشراء بعد أن ينظر إلى المسافة التى تُجْلَب بها السِّلَع الأجنبية و إلى المسافة التى تُصَدَّر بها السلع المحلية و إلى مدة خزنها و إلى ما يمكن أن يُرْبح منها وما يُنْفق عليها .

« ولْيُنَظِّم الملك ، بواسطة الخبراء ، أثمانَ السِّلع المتقلبة فى كلّ خمسة أيام أو خمسةَ عشرَ يوماً .

« ولْيُعَيِّن الملك قِيَم المعادن الغالية ، ولْيُحدِّد العيارات والمكاييل ، ولْيَفْحصها فى كلّ ستة أشهر مرة » .

وأكثر العيارات والمكاييل استعمالاً ما كان مصنوعاً من الذهب والنحاس والفِضّة ، وكانت تُفْرَض أقسى العقوبات على من يَغُشّ فى أمر الضريبة أو نوع السلعة ، فمن شريعة مَنُو :

« يُغَرَّم من يُخَادع فى أمر الضرائب أو من يبيع و يشترى فى غير الأوان أو من يُزَوِّر فى قِيَم السِّلَع ثمانيةَ أمثال القيمة .

« ويجب ألا تُبَاع سِلْعَةٌ مخلوطةٌ بغيرها على أنها غيرُ مخلوطة ، ولا أن تُبَاع سِلعةٌ رديئةٌ على أنها جيدة ، ولا أن تُباع سِلعةٌ أخفُّ من المُتَّفَق عليها ، ولا أن تُباع سِلعةٌ غيرُ مُحْرَزَة ، ولا أن تُباع سِلعةٌ مع إخفاء عيوبها » .

ولم يكن اتصال الرَّقابة وجَوْر المفتشين الملكيين الدائم والضرائب الثقيلة على الزارع والتاجر وما إلى ذلك من القيود الشديدة ليُثِير ذلك الشعب الجاهل الهادئ الذى حَنَا النِّير الدينى ظهرَه فضلاً عن الاستعباد الإدارىّ ، وما كان لذلك الشعب أن

يتوجع من هذا ، فقد كان يرى المُقابِلَ فيما يتمتع به من السلام الذى هو أطيب الأموال .

وكان مُعظم ما يُجْبَى يُنفَق ، بالحقيقة ، على شؤون الحرب ، وكان الويشى غير مُكَلَّف بأية خدمة عسكرية ما انطوت هذه الخدمة على نُبْل كثير عليه ، وما كان يَحْرُث حَقْله آمناً مطمئناً على حين يدافع الأكشترية عن الثغور ، فإذا ما أتت المواسم جَيِّدَةً حاز الويشى الغِنَى وإذا ما أتت رديئة فكان عُسْرُ رجا العونَ من بيت المال ما بدا الملِكُ مولاه وأباه الذى لا يَرْضَى بهلاكه ، وكان للويشىّ أعيادُه الريفيةُ ، وكان رَبًّا لأسرته فيتمتع بما يتمتع به أرباب الأُسر من الهناء المنزلى ، وكان الويشى ممن يُولَدون مرتين ، فكان له بهذا حقّ قِيادَة الشودرا ، وما كان له أن يقوم بالأعمال الدنيئة .

وما كان الأُجَراء قليلين لديه ، ففى شريعة مَنُو سبعة أنواع للأُجَراء الذين كانوا ، بالحقيقة ، أرقاء فلا يستطيعون أن يتملكوا ، جاء فى شريعة مَنُو :

«للأُجَراء سبعةُ أنواعٍ وهى : أسيرُ الراية أو أسير المعركة ، والأجيرُ بشرط الإعالة ، وابنُ الأَمَة فى بيت السيد ، والمملوكُ المُشْتَرَى أو الموهوب ، والعبدُ الموروث ، والمُسْتَرَقُّ عقوبةً ، والعاجزُ عن دفع الغرامة .

« ولا يملِكُ الولد والزوجة والرقيق شيئاً ، فكلُّ ما يُحْرِزونه مُلْكُ أمعيلهم » .

« وعلى ما تراه من تكاليف شريعة مَنُو الكثيرة الوثيقة لا تخلو هذه الشريعة من رحمة ، فمن كان عاجزاً عن العمل كانت تُعْفيه من الضريبة ، فقد جاء فيها :

« لا يجوز للملِك أن يَفْرِض ضريبةً على الأعمى والأبله والأكسح وابن السبعين ومن يساعد المُتَبَتِّلين إلى الكتاب المقدس » .

وكان الصانع الفقير لا يُطالَب بغير عمل يوم في الشهر ضريبةً .

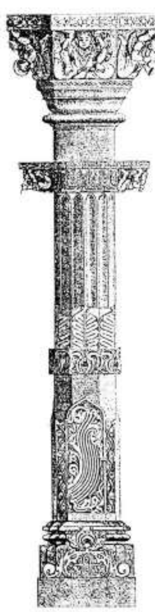
والمرء يَحار حين يقرأ بين نصوص تلك الشريعة ، الواضحة العادلة إجمالًا ، إباحةَ الربا الفاحش الذي كان يَتَرجَّح ، بحسب الأحوال وفي الغالب ، بين ٢٠ و ٢٤ و ٤٠٠ و ٥٠٠ في المئة ، جاء في شريعة مَنُو :

« لِيَقْبِض الدائنُ الراهنُ في كل شهرٍ واحداً من ثمانين في المئة أو واحداً ورُبعاً زيادةً على رأس ماله .

« ولْيَقْبِض ، عند عدم الرهن ، اثنين في المئة في كلِّ شهر ، ذاكراً أهلَ الخير والصلاح ، فهو إذا ما قبض اثنين في المئة لا يُعَدّ مقترفاً لذنب الربح غيرِ الشرعي .

« ولْيَقْبِض ، فقط ، في كلِّ شهر اثنين في المئة من البرهميّ وثلاثةً في المئة من الأكشتري وأربعةً في المئة من الويشي وخمسةً في المئة من الشودري ، وذلك بحسب الترتيب الطائفيّ .

« ولا يجوز أن يزيد الربا عن رأس المال إذا قُبِض مع رأس المال من غير مشاهرة ولا مياومة ،



٥٤ — كهجورا . عمود في معبد شيوا القائم في مدخل كالنجر بشمال كهجورا الشرقي (يبلغ ارتفاعه ستة أمتار و ٩٠ سنتيمتراً)

وليُضْبِح رأس المال مع الربا خمسةَ أضعافه عنـد إدانة الحبوب والفواكه والصوف والسَّبِيب[١] والدوابّ لِتُرَدّ بأعيان من ذات القيمة » .

ولا نستطيع أن نتمثل جيـداً الطبقةَ الصِّناعية والتجارية فى الهند فى العصر البرهمىّ إلاّ بنقل بعض عبارات وردت فى شريعـة مَنُوعن واجباتها ، جاء فى شريعة منو :

« يجب على الويشىّ ، بعد أن يتقلد الحبل المقدس ويتزوج بامرأة من طبقته ، أن يقوم، كادحاً ، بمهنته وبتربية المواشى .

« فالحقُّ أن ربّ المخلوقات فوّض أمر الحيوانات النافعـة ، بعد خلقها ، إلى الويشىّ ليقوم بتربيتها ، كما وضع الجنس البشرى تحت وصاية البراهمة والأكشترية .

ولا يَقْمِـع ويشىٌّ هواه فيقول : « عُدْتُ راغباً عن تربيـة المواشى » ، فإذا تشاغل عنها وَجَب ألا يقوم آخرُ مقامه فيها .

« وليَكُنْ على علم بتقلب أثمان الجواهر واللآلئ والمرّجان والحـديد والنُّسُج والعطور والتوابل .

« وليَعْرِف كيف تُبْذَر الحبوب ، وليُفَرِّق بين الأراضى الجيـدة والأراضى الرديئة ، وليُطَّلِـع جيداً على نظام المـكاييل والعيارات .

« وليَقِف على خبيث السِّلَع وطَيِّبها ومحاسن البلدان ومساوئها وما يُحْتَمَل من الربح والخسران عند البيع وما تَزِيد به المواشى من الوسائل .

« وليُلِمّ بأجور الأُجَراء وبلغات الناس وبطُرُق حفظ السِّلَع وبكلّ ما يَمُتُّ إلى البيع والشراء بصلة .

---

(١) السبيب : من الفرس شعر الذنب والناصية والعرف .

« وليبذل جهوده فى إنماء ثروته حلالًا ، وليُعْنَ بإطعام ما عنده من الخلائق الحيَّة » .

٨ — أحوال النساء

لم تكن المرأة فى العصر البرهمىّ ، كما كانت فى العصر الويدى ، العروسَ المُدَلَّلة التى تنال الحظوةُ لديها برفيع الأعمال ، ولا ربَّة المنزل الفخورَ المحترمة التى تقاسم زوجها شرف تقريب القربان ، فقد اتَّضع شأنها فيه وبدا فى شريعة مَنُو كما يأتى :

« واجباتُ النساء هى أن يَلِدْن ويُرَبِّين أولادهن ويُدَبِّرْن أمور منازلهن » .

وتكون المرأة ، بحسب شريعة مَنُو ، تحت وصاية دائمة وتقضى حياتها مطيعةً . فيجب على الحفيدات والفتيات والعجائز ألاّ يَصْنَعْنَ شيئًا كما يَشَأْن ولو فى بيوتهن .

« وتكون المرأة تحت رعاية أبيها فى صباها وتحت رعاية زوجها فى فُتُوَّتها وتحت رعاية أبنائها فى شَيْبَتها ، فلا ينبغى لها أن تسير كما تريد » .

والمجتمعُ الهندوسىّ إذ قام على نظام الطوائف الجديد القائل بالتفريق بين الطوائف تفريقًا مطلقًا وبعدم اختلاط بعضها ببعض فإن المرأة التى تَخِفُّ وتطيش فتخالف هذا النظام تَفْقِد حريتها ، وقد أسىء الظنّ بقلبها ومشاعرها ، ووُجِد أن كلّ قانون لا يَحُول دون هواها ، وأنها لا [illegible] به المراسيم السياسية فى تنظيم وحى فؤادها فلم تُتْرَك لِحدتها ، جاء فى شريعة مَنُو :

« يجب على الأزواج ، مهما بلغوا من خَوَر العزيمة ، أن يراقبوا سلوك نسائهم ، وأن يَعُدُّوا هذا الأمر شريعةً سائدة لجميع الطبقات .

« فالحقُّ أن الزوج يصون ذريته وتقاليده وأسرته ونفسه وحقَّه إذا ماصان زوجته.

« ويجب على المرأة الفاضلة أن تُقدِّس لزوجها على الدوام كإله ، وإن كان فاسد السيرة عاطلاً من الصفات الحيدة منهمكاً فى ضروب العِشق والغرام .

« والمرأة إذا لم تكن وفيّةً لزوجها غَدَت عُرْضَةً للخزى فى الدنيا ، وبُعِثَت بعد موتها فى بطن ابن آوى أو أصيبت بعده بالجذام والسِّلّ » .

ولا جُرْمَ يَعدِل زناء الأزواج ، فنى شريعة منو :

« يؤدى زناء الأزواج إلى اختلاط الطبقات ، وهذا الاختلاط يؤدى إلى انتهاك الواجبات وهلاك النوع البشرى وخراب الكَوْن » .

والعقوبات التى تُفرَض على المرأة الزانية وشريكها فى الذنب هائلةٌ ، وتبدو هذه الشدة عند ما تكون الزوجة من طبقة رفيعة على الخصوص ، جاء فى شريعة مَنُو :

« إذا كانت المرأة الفخورُ بأسرتها وصفاتها غيرَ وَفيّةٍ لزوجها فخانته وجب على الملك أن يَدَع الكلاب تفترسُها فى مكان عامّ .

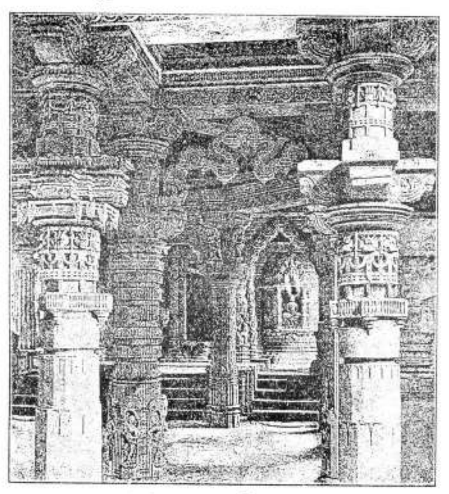
« وليَحْكُم على الزانى بها بالحرق على سرير من حديد مُحْمَى على أن يزيد منفذو الحكم النارَ سعيراً بالحطب إلى أن يُحْرَق الداعر »

ووَدّت شَريعة مَنُو ، التى قدّرت ضعف المرأة الشديد وتقلب سجيتها فتكلمت عنها برحمة مع الازدراء ، أن تتساوق معها فحمّلت نتائجَ الخطيئة ذلك الذى لم يعرف أن يصونها وذلك الذى أغواها فقالت :

« إذا حدث أن اغترب الزوج فى بلد أجنبىّ وجب عليه ألا يَحْرِم زوجته وسائل العيش قبل أن يغيب ، فالمرأة التى يَعَضُّها البؤس قد تأتى المنكرَ ولو كانت صالحة .

« وليَنفِ الملكُ من يَغْوُون نساء الآخرين بعد أن تُقَطَّع بعض أعضائهم » .

وما فرضته شريعة مَنُو على الزوج من الوفاء لزوجته والعِناية بها ليس بأقلّ مما فرضته على الزوجة ، وهذه الشريعة قد رأت أن سعادة العرق في الحال والمستقبل قائمة على اتحاد الجنسين بالزواج فأوْصَت الرجل بأن يختار زوجةً صالحة له فلا يستطيع أن يتركها بعدئذ إلاّ إذا أبغضته أو كانت عاقراً أو كانت لا تضع غير إناث .



٥٥ — جبل آبو ، داخل معبد وِملا شاه
(القرن الحادى عشر)

« بَيْدَ أن الزوجة الطيبة المتحلية بالأخلاق الصالحة لا تَحِلُّ زوجةٌ أخرى مَحَلَّها إلّا برضاها ولو كانت مريضة ، ولا يجوز أن يزدريها أبداً » .

ويجب على الزوج أن يُدْخل السعادة إلى قلب زوجته قبل كلّ شيء ، فما يُقَوِّض دعائم المنزل أن تعامل المرأة بعنف أو ألا تكون موضع احترام من يحيطون بها ، جاء في شريعة مَنُو :

« رِضَى الآلهة باحترام النساء ، ولن يكون للعمل الصالح ثوابٌ إذا ما احْتُقِرَت النساء .

« والسعادةُ كلُّ السعادةِ في الأُسرةِ التي يَتَحَابُّ فيها الزوجان .

« يجب أن يَحْبُوَ الزوجاتِ آباؤهنّ وإخوتُهن وأزواجهنّ وإخوة أزواجهن بضروب الاحترام والعطايا إذا رَغِبُوا في الفلاح » .

ويجب ألا يقــلّ احترام الأولاد وإطاعتهم لأمهم عن احترامهم لأبيهم وإطاعتهم له إن لم يَزِدْ ، فقد جاء في شريعة مَنُو :

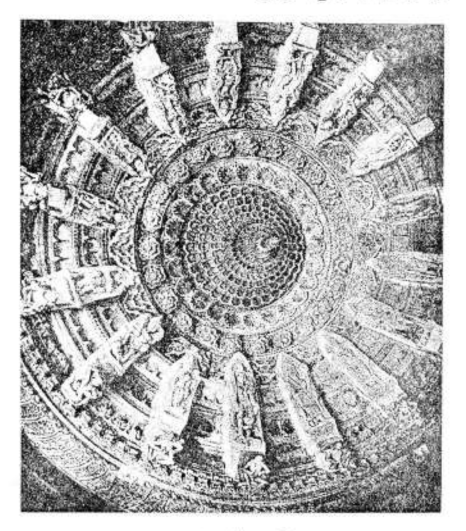
« ليصنع الفتى ما يروق أبويه ومعلمَه ويُرضيهم على الدوام وفي كلّ حال ، فإذا فعل ذلك قام بأعمال التقوى ونال ثواباً .

« والمعلم أجدر بالاحترام من عشرة مُرَبِّين ، والأب أجدر بالاحترام من مئة مُعَلِّم ، والأم أجدر بالاحترام من ألف أبٍ » .

ولم يكن النكاح تجارة ، فليس لوالد الفتاة أن يُعطَى مالاً ولاأن يُعْطَى حُطاماً ، وإنمـا كان يُفْرَض عليه أن يبحث عن أخلاق الخطيب ، قال مَنُو :

« يجب على والد البنت ألا ينال مالاً عند ما يزوجها ولو كان شودرياً ، لما يدلّ عليه ذلك من بيعها المضمر .

« وأحرى بالبنت الصالحة للزواج أن تقبع فى بيت أبيها إلى أن تحضرها الوفاة من أن يزوجها أبوها بزوج عاطل من الأخلاق الحسنة » .



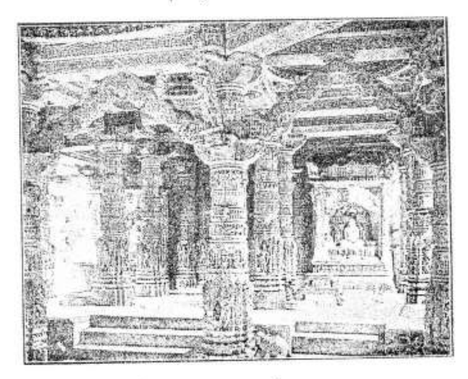
٥٦ ــ جبل آبو . قبة المحراب فى معبد وملا شاه
(مصنوعة من الرخام المنقوش)

والخلاصة أن شريعة مَنُو ، إذا بَدَت كثيرةَ الارتياب فى فضائل النساء، ومتانة

أخلاقهن ، وإذا كانت لم تُحَدِّث عنهن بمثل ما جاء فى الرِّغ ويدا من القول الشعرى والكلام العذب ، وإذا كانت لم تَمْنَحْهُنَّ مقاماً كالذى كان لهن عند قدماء الآريين ، جعلت لهن ، مع ذلك ، مكاناً مهماً فى المنزل والمجتمع ، فالأسرة التى تُؤَلَّف على حسب شريعة مَنُو متينة وتكون حقوق أفرادها وواجباتهم متبادلة ، جاء فى تلك الشريعة :

« أهمُّ واجب على الزوجين أن يَفِيَ أحدُهما للآخر وفاء متبادلاً إلى آخر العمر .

« وما على الزوجين من التحاب فقد أُظهِر لكم » .



٥٧ — جبل آبو . معبد ورج پال تيج پال الجينى
(القرن الثانى عشر من الميلاد)

وليس فى شرائع مَنُو ذكر لعادةِ حرق الأرملة على مَوْقِد زوجها التى لم تَزُل عن بلاد الهند إلاّ فى أيامنا ، وتلك العادة أخذت تَشيع فى ذلك الزمن مع ذلك ، فقد رَوَى خبرها مؤرخو الفتح المقدونىّ من اليونان .

٩ — معتقدات الهندوس الدينية

قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون

ظهرت البُدْهِيَّة فى الهند فى العصر البرهمى ، وكاد يكون لها شأن فيه ، فقد حَدَّث ميغاستين عن رهبانٍ بُدْهِيِّين وعن مذاهبهم الحديثة التى كانت حديث القوم فى زمانه وعن معارضة البراهمة لها ، غير أن البُدْهِيَّة لم يستفحل أمرها فتصبحَ دينَ الهند الرسمى إلا بعده قليلاً ، أى فى عهد آشوكا الذى ظهر قبل الميلاد بقرنين ونصف قرن كما نرى ذلك فى فصل آت ، وأما الآن فإننا نبحث فى الديانة البرهمية قبل المسيح ببضعة قرون .

ظلّ دين القوم ، من الناحية النظرية على الأقل ، كما هو منصوص عليه فى كتب الويدا ، فقد بَقِيَت هذه الأسفارُ الكتبَ المقدسةَ المعتبرة التى يُحْتَجّ بنصوصها على الدوام ، بَيْدَ أن المعتقدات تطورت تطوراً شاملاً مع بقاء الآلهة القديمة ، فترى من جهة ظهورَ نظريات فيما بعد الطبيعة جديدةٍ حول مقادير الإنسان ومصاير الكون وأسبابه ، وترى من جهةٍ أخرى تَحَوُّل الدستور الكَهَنُوتىّ إلى دستور شديد إلى الغاية ، وبلغ أمر الطقوس وتقريب القرابين من الأهمية ما نقول معه إن قدرته السحرية غَدَت تَفوق قدرة الآلهة ، وإقامةُ الشعائر هى التى تُهِمّ قبل

كلَّ شيء ، ولن تجد دِيانة ذات شعائرَ جافَّة مُعقَّدة كتلك ، وكأن ريحاً صَرْصَراً قد هَبَّت في العالم الويدى القديم فأتت إلى الأبد على الآلهــة العجيبة التى وصفتها كتب الويدا بالقول الرائع والخيال الساطع ، فَصِرْت لا تُبْصِر في الشرق ذلك الفجرَ العَذْب اللطيف ، بل ترى كوكب النهار فوق مركب النصر ، وصِرْت لا تَشْعُر بالرياح الطيبة تسوق البَقَرات الإلهية إلى المراعى السماوية فتَدِرّ ثُدِيُّها بما يَغْمُرُ الأرض من المطر السخىّ ، حقاً لقد غابت هذه الأساطير وما كانت تثيره في النفوس من الخيالات .

ولا ندرس في هذا المطلب بالتفصيل عــلم اللاهوت البرهمى القــديمَ الزاخر بدقائق الشعائر وتقريب القرابين ، وإنْ كُنّا نعود إلى ذلك ، مع تعديل ، في الفصل الذى خَصَّصْناه للبحث في دِيانات الهنــد الحديثة ، وكلُّ ما نفعله الآن هو أننا نُشِــير إلى أكثر المناحى الفلسفية انتشاراً في ذلك الحين ، وهى ماتراها مُجْمَلة بوضوح في كتاب مَنُو الذى لم يفعل غير تــكرار ما يقوله البراهمــة والأوبانشد بإسهاب .

٥٨ — غواليار . معبد تيلى مندر
(أنشىء في القرن العاشر من الميلادعلى مايحتمل)
(يبلغ ارتفاعه نحو ٣٤ متراً)

ولم تــكن الآلهة الغامضة الأمر في الرِّغْ ويدا ، فتجلَّت مؤخراً في شَخْصَىْ شيوا ووشنو ، إلا أشدَّ غموضاً مما كانت عليه في العصر الويدى ، فليست هذه الآلهةُ غيرَ

مظاهرَ مجردةٍ قاترة للإله الأعلى برهما الذى يَبُثُّ الحياة فى كلّ موجود ، وليس الإله برهما ، مع ذلك ، الربَّ الأسمى الخالقَ لكلّ شىء ولكلِّ موجود والمهيمنَ على العزائم الذى بَصَّرَت به كتب الويدا ، فهذا الإله ليس مستقلاً فضلاً عن عدم تدبيره لِلْكَوْن ، فهو إذ كان مُوَزَّعاً فى جميع المخلوقات المُتَرَجِّحة بين أطيبها وأخبثها يشاطرها مصايرها وينال نصيباً من آثامها وآلامها وبعثها وتحولها البطىء وارتقائها العسير ، قال مَنُو :

« تَسْتَقِرّ الروح العليا فى أرقى المخلوقات وأسفلها .

« فمن جوهر تلك الروح العليا يَخْرُج ، كالشرر ، ما لا يُحْصَى من أصول الحياة فتوجب هذه الأصول الصادرة حركةَ جميع المراتب على الدوام » .

فلهذا المذهب ، القائل بتَجَلِّى الروح العليا فى جميع المخلوقات ، يجب على الإنسان أن يحترم كيانَ هذه المخلوقات ولو كانت من الحيوانات الضارة أو الحشرات الواهيـة .

« والإنسانُ ، حين يَعْرِف تَجَلِّىَ الروح العليا فى روحه الخاصة وفى جميع المخلوقات ، يبدو هُوَ إياه تجاه جميعها فيُثاب بأن يَفْنَى فى برهما ، أى بأحسن مصير .

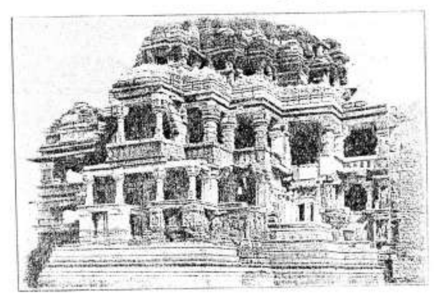
« وإذا عَجَز البرهمىّ عن تكفير ما اقترفه من قتل حَيَّةٍ أو مخلوق آخر فَلْيَتُبْ ، فبالتوبة تُمْحَى الذنوب .

« ولْيَتُبْ ، أيضاً ، إذا قَتَل ألف حيوان صغير ذى عظام أوقَتَل من غير ذوات العظام ما يملأ مركَباً كما يتوب عند ما يقتل شودرياً » .

وليست الروح بمنفصلة عن الله ، فالروحُ فى كلّ حىّ جزء من الكائن الأعلى ، وتتألف الروح العليا من مجموع أرواح الآلهة والناس والحيوانات ، واللهُ ، المتعددُ وغيرُ الشخصىّ معاً ، هو مصدر كل عمل وكل حياة وكل تبدل .

« ألَا إن الروح هى مجمع الآلهة ، وإن الروح العليا هى مقرّ الكون ، وإن الروح هى مصدر أعمال ذوات الحياة » .

وليس ربُّ الكَوْن الأعلى بالذى يتصوَّره الخيال ، فهو غير الهَيُولَانِىّ القاهرُ الذى يَسْرى فى الكَوْن فَيَهَب له الحياة كأغنِى إلهِ الآريين القديم ، وهو النور القوىّ الموجود فى كلّ مكان ، وهو الذى يُقدِّس البرهمىّ له مرتجفاً فيشعُر بسريانه فى عروقه ، جاء فى شريعة مَنُو :



٥٩ — غواليار ، معبد ساس بهاو الكبير (القرن الحادى عشر) (يبلغ ارتفاعه الآن نحو ٢١ متراً ، وقد كان ٣٠ متراً قبل أن يهدم أعلاه على الأرجح)

« يجب على الإنسان أن يعلم أن الموجود الأعظم هو ربّ الكَوْن الأعلى ، وأنه أدقّ من الذرة وأنه أسطع من الإبريز[1] وأنه لا تدركه الأبصار إلا فى المنام على وجهٍ مجرَّد .

(١) الإبريز : من الذهب خالصه .

« فبعض الناس يَعْبُده فى عنصر النار ، و بعضهم يَعْبُده فى شخص سيد المخلوقات مَنُو ، و بعضهم يَعْبُده فى إندرا ، و بعضهم يعبده فى عنصر الهواء الخالص ، و بعضهم يعبده فى برهما الأزلى .

« ذلك هو الله الذى يُحِيط بجميع المخلوقات بجسم مؤلف من العناصر الخمسة فتنمو هـذه المخلوقات بعد أن تُولَد ثم تنحل فيَتِمّ ذلك كلّه بحركة تشابه دوران العَجَلة » .

والخلاصة أن ذلك هو مذهب وَحْدَة الوجود ، ولـكن ذلك ليس بمذهب وَحْدَة الوجود الهَيُولَانِيَّةِ الساطعة الظاهرة التى عَرَفَها الآريون ، وليس بقُوَى الطبيعة التى أضحت آلهة مع محافظتها على ثيابها المؤلفة من السُّحُب والأشعة وعلى شَذَا عطورها وعلى هَدِيرها ودَوِيِّها ، بل هو مذهب وَحْدَة الوجود الأكثرُ تجرداً وقولًا بالقضاء والقدر ، هو مذهب وَحْدَة الوجود الذى يَحْجُب الله فلا يُبْدِيه رائعُ الـكلام ولا ساطعُ الألوان ، هو مذهبُ وَحْدَة الوجود الذى يجعل اللهَ أسيراً فى العناصر ، هو مذهبُ وحدة الوجود الذى يقيم عِزَّةَ الله ومَجْده على تجريده من الصورة والظاهر والإرادة والحياة ، فيشابهه من يَتَطَهَّرون من الذنب ، أو يَفْنَوْن فيه .

وعلى الإنسان ، قبل أن يَصِل إلى ذلك النعيم الدائم ، أن يحتمل أذى الحياة زمناً لا يتصور طولَه المرهوب سوى خيال الهندوسىّ الخصيب ، فمدى حياة الإنسان ليس بالشىء الذى يُذْكَر إذا ما قيس بذلك الزمن الطويل ، فالولد الذى يُولَد لا بدّ من أن يكون قد جاوزَ عِدّةَ أطوار قبـل أن يولد ، والأشيبُ الذى يموت لا بُدّ من أن يولد و يعود أشيبَ عِدّةَ مرات فى عدة أجسام .

وتجِد فى شريعة مَنُو تفصيلًا واضحاً لمذهب تناسخ الأرواح الذى هو أساس

جميع مذاهب الهند الدينية ومنها البدهية ، وتجد فيه ، أيضاً ، تفصيلًا لمذهب الكَرْما الذى يرى أن عمل الإنسان فى هذه الحياة الدنيا يُعَيِّن الحالَ التى يُولَد بها مرة أخرى فَتَمَّ أمره ، كذلك ، جميع المذاهب الدينية التى انتشرت فى الهند فيا بعد .

والحياة التى تَعْقُب الحياة الأولى تكون طيبة أو خبيثة بحسب حُسْن الحياة الأولى أو خُبْثها ، فالروح تتقمص إما برهمياً أو قديساً أو إلهاً ، وإما جَنْدَالا[1] أو بقرة أو خنزيراً أو حية ، جاء فى شريعة مَنُو :

« إذا عَمِلت الروحُ الصالحاتِ على الدوام وقليلاً من السيئات فتقمَّصَت جسماً من العناصر الخمسة تمتعت بأطايب النِّعَم .

« وإذا عَمِلَت الروح السيئات على الدوام وقليلاً من الصالحات جُرِّدَت بعد الموت من جسمها ونُزِعَت من العناصر الخمسة وتَقَمَّصَت جسماً آخر مؤلفاً من أجزاء دقيقة من العناصر وعَذَّبَها يَمَا عذاباً شديداً ، والروح ، بعد أن تقاسِيَ هذا العذاب الأليم كما يقضى به قاضى النار وتَطْهُر ، تَتَقَمَّص جسماً من العناصر الخمسة ، أى تكتسى ببدن .

« فعلى الإنسان أن يَعْلَمَ بنفسه أن نوع التناسخ يكون على حسب ما يعمل من الصالحات والسيئات فيُوَجِّه نفسَه إلى الفضيلة على الدوام .

« ويَلْبَث أكابر المجرمين فى جهنم أحقاباً ، ثم يُقْضَى عليهم بأن يجاوزوا المراحل الآتية تكفيراً عن خطيئاتهم :

« فيتقَمَّص قاتل البرهمى ، بحسب أهمية جرمه ، جسمَ كلب وخِنْزِير وحمار وجمل وثَوْر وتَيْس وكَبْش ووحش وعُصْفُور وجَنْدَالا .

---

(١) الجندالا هو ابن الرجل الشريف والمرأة الشودرية ، ويجىء دون الشودرا أنفسهم مرتبة .

« والبرهمىّ الذى يَسْرِق ذهباً يَتَقَمَّص ألف مرةٍ أجسام العناكب[1] والأفاعى والحَرَابِىّ[2] وحيوانات العُدْران والعفاريت الأشرار » .

وفى شريعة مَنُو يتوقف مصير الإنسان على جميع أعماله فى الحياة الدنيا فيدخل فى وزنها الهائل كبيرُ هذه الأعمال وصغيرُها ، لا كما فى النصرانية التى تقول بمحاسبة الإنسان فى اليوم الآخر على العمل الفلانىّ أو العمل الفلانىّ أو الوضع الأخير فقط مع النظر إلى التوبة فى الساعة الأخيرة ، جاء فى شريعة مَنُو :

« الإنسان مجزىٌّ بأىّ عمل يأتيه بقلبه أو لسانه أو جسمه إن خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ ، وعلى ما يصنعه الإنسان يَتَوَقَّف حاله فيكون طيِّباً أو متوسطاً أو سيِّئاً . »

وتلك العقيدة هى مصدر خضوع الهندوسىّ لنظام مرهوب لا يترك له خيار القيام بأىّ عمل مهما صَغُر ولا قضاء أىّ احتياج جُثْمَانىّ مهما ضَؤُل .

فأقلّ إهمال منه يذهب بثمرته التى تَعَهَّدَ أمرها بمشقة ، فلا يأمُل تلافى ما فَرَط منه من اللَّمَم[3] إلا بإقامة شعائر التطهير ، وما قيمة أحكام القضاة فى مخالفة الإنسان للشريعة ؟ وما قيمة العَطَل من وجود شاهدٍ على تعدى أمرها ؟ فشعور المذنب الوَرِع يُصَوِّر له نتائج ما صنع ، فيرْضَى طائعاً بما تَفْرِضُه الشريعة عليه من العقوبات الشديدة .

(١) العناكب : جمع العنكبوت — (٢) الحرابى : جمع الحرباء ، وهى ضرب من الزحافات تتلون فى الشمس ألواناً مختلفة ويضرب بها المثل فى التقلب — (٣) اللمم : صغار الذنوب .

ومن يطالع ما فى شرائع مَنُو من الأوامر الشديدة يَتَبَيَّنْ ثِقَلَ النِّير الذى كان مفروضاً على الهندوس وأثره فى أدقِّ شؤون حياتهم فى العصر الذى نحاول بَحْث تاريخه ، ويَتَمَثَّل الفرق بينه و بين أدب آرِيِّى العصر الويدىِّ السَّمْحِ اليسير ، فالحقُّ أن الزمن تَغَيَّرَ وأضحى شعب الأجيال القديمة الحرُّ السعيد قطيعاً من الرعايا الخُوَّف الذين يتجلى فيهم الذُّعْر والألم إذا ما ساروا على الدوام .

ذلك أمرُ المجتمع البرهمىّ القديم ، وتَجِد مبادئه الأساسية فى المجتمع البرهمى الجديد ، حتى فى الهند الحديثة ، بَيْدَ أنك ترى شِدَّةَ تلك المبادئ قد خَفَّت بفعل البُدَّهِيَّة السمحاء .

و بلغت البرهمية القديمة من شِدَّة التَّوَتُّر حول النفوس ما كانت تَتَقَصَّف به تحت الضغط فتنتظر المنقذ ، وكانت وطأة النِّير تَثْقُل على النـاس فى أدق أعمالهم فتنسحق قلوبهم فلا يَرَوْن بخيالهم سوى رِجْس الحياة وقُبْحها ، فيبدو لهم كلُّ شىء سيئاً إلاّ الفناء ، وما وَصَفَ « دانتى » به العذاب فى رواية « جهنم » هو وحدَه يُمَثِّل لنا رأى قدماء البراهمة فى ضروب العـذاب الذى يبدأ فى الدنيا فيتدرَّج شدةً فى أحقاب لا يتصورها خيال إلى أن يَغْدُوَ الإنسان جديراً بالفناء فى الـكَوْن، و إن شِئت فَقُلْ فى العـدم ، ومن طبيعـة الأمور أن يَنْبَثِق فجر الأمل فى تلك الأمم المُثْقَلَة من خِلال الضغط المُشْتَدّ عليها ، ومثل هذا ما حدث بعد زمن قليل فى العـالَم الرومانى حين ظهر المسيح و إن اختلفت الأسباب .

ظهر فى الهند ، أيضاً ، المنقذُ الذى جاء بما كانت النفوس الظَّمِئَة تنتظره من

القول العذب ، فكان لهذا القول صدى بعيدُ المَدَى فى أرجاء آسـية ، فوَجَدت به ملايين البشر ، الذين حَنا كواهلَهم نِيرُ الطوائف وأثخنتهم قيود الدين الثقيلة وأوْلَهَتهم أنواع العذاب الأبدىّ المنتظر الذى لا مفر منه ، ريحاً طيبةً مملوءة حناناً ورحمة وإحساناً .

كان بُدَّهة شا كيه مونى ذلك المنقـذَ ، وكانت البُدَّهِيَّةُ تلك البُشْرَى الطيِّبَـة .

الفصل الثالث

حضارة العصر البدهي

(١) الوثائق التي يستعان بها في تمثل المجتمع الهندوسي حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد — دام العصر البدهي في الهند نحو ألف سنة — قلة الوثائق التاريخية وكثرة المباني الحجرية في العصر البدهي — مخطوطات نيبال — رحلات حجيج من الصين — (٢) القصة البدهية — تحول العالم البرهمي القديم في أوائل العصر البدهي — حياة بدهة كما جاءت في لليتاوِشتار — ولادة بدهة — يأسه — تأملاته في أسباب الألم — نظرياته في هدف الحياة وبؤسها — (٣) الديانة البدهية — الأدب الذي نجم عن البدهية — لا تمس البدهية الآلهة القديمة — مذهب الكرما — الأسباب الأدبية والمادية التي انتشرت بها البدهية — تأثير البدهية الواسع في آسية — بماذا تختلف البدهية عن البرهمية — (٤) البدهية كما جاءت في المباني — رأي علماء أوربة في إلحاد البدهية — فساد هذا الرأي — البدهية أكثر الأديان إشراكا — مطابقة ما جاء في الأقاصيص لما في المباني — مافي البدهية من التأملات اللاهوتية يرى في جميع ديانات الهند — نشوء النظريات الفلسفية حول البدهية نشوءاً موازياً لها مستقلا عنها — مصدر ما في أوربة من الأغاليط حول البدهية — يجب عد البدهية متطورة عن البرهمية — (٥) توارى البدهية عن الهند — تؤدى دراسة مباني نيبال وسائر بلاد الهند إلى تفسير ذلك الغياب — البدهية في نيبال — الثالوث البدهي — امتزاج البرهمية والبدهية في نيبال — (٦) المذاهب الفلسفية في البدهية — بطلان الأشياء — مختارات من كتاب بدهي حديث — (٧) المجتمع البدهي — روح الاتحاد والإحسان والرحمة — رحلات الحاجين الصينيين فاهيان وهيوين سانغ في الهند — ما انتهى إلينا منهما عن المجتمع البدهي — الخلاصة .

١ — الوثائق التي يُستعان بها في تَمَثُّل المجتمع الهندوسي

حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد

دام العصر البدهيّ من القرن الثالث قبل ظهور المسيح إلى القرن السابع بعد ظهوره، فينطوي هذا العصر على مدة ألف سنة تقريباً ، ويتطور الدين في السنوات الألف هذه ، وتُغَطَّى الهند في أثنائها بالمباني العجيبة ، ويُؤدِّي ما سمح الدهر ببقائه من أطلال هذه المباني وما اكتُشف حديثاً من الكتابات الدينية إلى الوقوف على نشوء الحضارة الهندوسية في ذلك العصر ، غير أن حوادث ذلك العصر التاريخية ظلّت دفينةً تحت طبقة من الظلام الدامس .

والعالِم الذي كان يَوَدّ ، منذ نصف قرن ، أن يكتب فصلاً بعنوان فصلنا هذا لم يَجِد من المعارف ما يملأ به سطراً واحداً ، وكادت أوربة تكون وقتئذ جاهلة كلّ شيء عن شأن البُدّهِيَّة وحقيقة أمرها مع أنها الشريعة العليا لنصف مليار من البشر .

وليست كثيرةً الوثائقُ التي تؤدي إلى نَبْش بضعة أسطر عن تاريخ تلك السنوات الألف من تحت أعفار القرون ، ومن هذه الوثائق نذكر ، في الصف الأول ، المبانيَ الفَخْمَة التي نعلم منها مبتكرات الفنون وعظمةَ الملوك ، ومن أقدم هذه الوثائق وأكثرها قيمة نذكر ، كمصادرِ معارفَ ، الأعمدةَ التي ملأ الملك آشوكا ولاياته الواسعة بها فنقش عليها قبل الميلاد بثلاثة قرون أحكام شريعة جديدة لدى الهندوس .

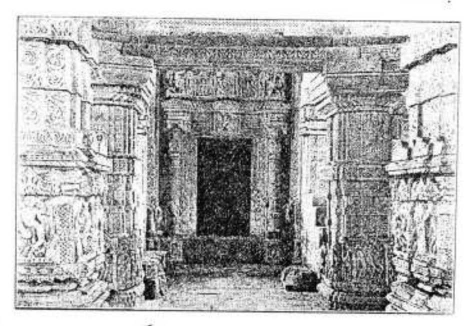
ومن الوثائق التى يستعان بها فى ذلك نذكر ، أيضاً ، مجموعةَ مخطوطات نيبال الكثيرة الخاصة بالديانة البُدّهيــــة تقريباً ، ونَعُدُّ « زهرة الشرع القويم » و « لَلِيتا وِشتار » أهمَّ ما نُقِل إلى اللغات الأوربية منها ، ونُضيف إليهما «تواريخ ملوك مَغَدْها » التى هى ، بالحقيقة ، أقاصيص خرافية لا تَمُتُّ إلى التاريخ الصحيح بصلة ، كما نضيف إليهما رِحلة الحاج الصينى فاهيان الذى زار الهنـد فى القرن الخامس ورِحلةَ الحــاج الصينى هيوين سانغ الذى زارها فى القرن السابع من الميــلاد .

٢ — القصة البُدّهية

من يُنْعِم النظر فى الوثائق الأولى المذكورة آنفاً ، أى فى كتابات آشوكا التى نُقِشَت قبل الميلاد بقرنين ونصف قرن يَعْلَم وجود تحولٍ عميق فى العالم البرهمىّ القديم ، وبيان الأمر : أن من مطالعة شرائع مَنُو يَثْبُت لنا استخذاء أجيالٍ كثيرة من البشر لِنِيرٍ دينىّ دقيق شديد ، ومن مطالعتها يبدو لنا مقدارُ الضِّيق الذى كان مستحوذاً على كثير من الآدميين الذين كان أقلُّ ذنب قلبىّ أو حسىّ يأتيه الواحد منهم يؤدى إلى أفظع تكفير ، والذين لم يكن بينهم اشتراكٌ فى احتمال البأساء فكان بعضهم ينظر إلى بعض من فوق الحواجز الطائفية ، فإذا تناول الواحد منهم ، بحسب الأحوال ، كأسَ ماء من آخر أو قال له قولاً لَيِّناً ممزوجاً بأطيب التمنيات عُدَّ مقترفاً جرماً لا يمّحى إلا بالتوبة والتكفير الطويل ، فبينما كان القوم على ذلك أتتهم ريحٌ طيبة فيها حنان وإحسان فسقطت القيود وتفتّحت القلوب وصار وجه الأرض يتبـدل ،

فقد صاح مصلح كبير مُجَلْجِلٌ[١] فكان شرعُ عطفٍ وكان شرعُ محبةٍ شاملٌ لجميع الخَلْق مؤَلِّفٌ لِما بين الطوائف .

لم نعرف حياة المصلح الشهير الذى يُقَدَّس اسمه وذكراه خمسمئة مليون من البشر إلاّ من الشعر الأساطيرى ، فمن خلال هذه الأساطير ، إذَنْ ، نستطيع أن نستنبط تلك الحياة ، وتُعَدُّ « لَلِيتا وِسْتار » التى وُضِعَت فى نيبال فى أوائل التاريخ الميلادى ، على ما يحتمل ، أقدمَ هذه الأساطير ، فإليها تستند فى رسم حياة بُدْهَة .



٦٠ — غواليار ، داخل معبد ساس بهو الكبير

وهاجم النُّقَّاد المعاصرون تاريخَ بُدْهَة الأساطيرىَّ بشدةٍ ، فلم يرَوْا أن

---

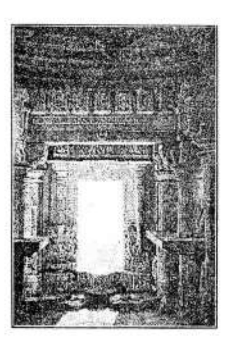
(١) المجلجل : البعيد الصوت .

يَزْعُموا دَور الأسطورة البُدْهِيَّة الافتراضيّ ولا أن يُثبِتوا أن شاكيه مونى انتفع بالتقاليد القديمة التى أُخِذت من أسطورة وِشنو وأسطورة كِرشنا ، فالحقُّ أن مُعْظم تاريخ بُدْهَة هو ، كما أشار إليه مسيو سينار ، مقتبسٌ من الأساطير القديمة وأن من الممكن عَدَّ دِيانته خلاصةَ عقائدَ وطقوسٍ كانت موجودة قبله .

وليس من المهمّ أن نعرف حياةَ بُدْهَة الحقيقية ، فإذا استثنيتَ محمداً لم تجدنا مطلعين على حياة مؤسسِ دِيانة اطلاعاً صحيحاً على ما يحتمل ، فلم تُؤلَّف سِيَرُهم ، على العموم ، إلا بعد وفاتهم بزمن طويل ، وكلُّ ما نرى معرفته ، مع ذلك ، هو أن ملايين كثيرة من البشر يُقَدِّسون بُدْهَة منذ أكثر من ألفى سنة ، سواءٌ أكان رجلاً حقيقياً أم وهمياً .

لم تظهر ديانة بُدْهَة على مسرح التاريخ إلا فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مع أن بُدْهَة وُلِد قبل ظهور المسيح بخمسة قرون فى كَپيلا وَسْتُو الواقعة فى جنوب نيپال ، وتجد أوجهَ شبهٍ شاملةً للنظر بين حوادث حياته الخرافية وبعض أقاصيص الأناجيل ، فبُدْهَة ، كعيسى ، وُلِد من أمٍّ عذراء ، وأُخْبِر بولادته إخباراً معجزاً ، وبُدْهَة الذى سُمِّى ، حين وُلِد ، بغُوتَمَا فلُقِّب بشاكيه مونى كان ينتسب إلى أسرة مالكة كما انتسب عيسى إلى آل داود ، وتجد ، مع ذلك ، اختلافاً فى طفولة ذينك المصلحين وشبابهما ، فمع أن غُوتَمَا رُبِّيَ وارثاً لعرش كان ابن مريم يشاطر يوسف النجار عمله ، فإذا عَدَوْت هذا الاختلاف رأيتَ تماثلاً عجيباً من كل وجه بين صيام عيسى فى البَرِّيَّة حيث حاول الشيطان أن يُغْويه ثلاث مرات وصيام شاكيه مونى فى الآجام حيث حاول الشيطان أن يُغْويه ثلاث مرات أيضاً ، ويُذَكِّرنا

ما حدث لهذا الحكيم الهندوسيّ مع المرأة التى طلب منها أن تَسقيه بما حدث لعيسى مع السامرية وما قاله لها .



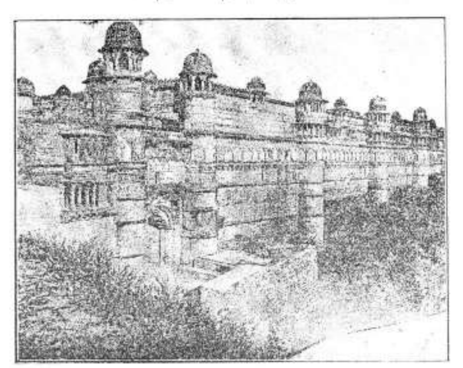
٦١ ــ غواليار. معبد ساس بهو الصغير (القرن الحادى عشر من الميلاد) (أخذت هذه الصورة من المحراب)

وتَزيد أوجه الشبه تلك أهميةً عند الوقوف على تشابه تَيْنِكَ الدِّيانتين موضوعاً فضلًا عن الشكل ، فكلتاهما أمرتا بالإحسان والمساواة والزهد ، وكلتاهما ناطتا الخطيئةَ بالنِّيَّات كما تُناط بالأعمال ، وكلتاهما ابتدعتا الرَّهْبانيَّةَ ، وكلتاهما اعتنقهما ملايين من البشر بروح واحدة ووسائلَ واحدة ، فصَلُح الغرب بالنصرانية وصَلُح الشرق بالبُدَّهيَّة ، وكلتاهما عنوان أملٍ إنسانيّ واحد ولم تكونا سوى وجهين لحادث مهمّ واحد فى تاريخ أدب العالم ، وليس مما نبالى به كثيراً أن تكون إحداهما مدينةً للأخرى أو أن تكون كلٌّ واحدة منهما قد نشأت نشوءاً ذاتياً غريزياً مستقلًا عن نشوء الأخرى ، فلا ندرس هذا الأمر فى هذا الكتاب .

ذاق غُوتَمَا منذ أن كان طفلًا فى قصر أبيه كلّ ما يمكن أن يجود به الجاه والثَّراء والجمال والصحة والفُتُوَّة من أطايب النعم ، فلما بلغ سنّ الرجولة تزوج بفتاة حسناء كان يَعْبُدها فوضعت له ذكراً ، فى ذلك الحين الذى بلغ فيه أَوْج السعادة اتفقت له

ذات يوم ثلاثُ مصادفات متتابعات فقرَّرت مصيره وهي : أنه لَقِي شيخاً حَنَت الأيام ظهره فلا يكاد يمشي من السَّقَم ، وأنه لَقِي رجلًا مصاباً بالطاعون القطيع فيتلوّى من الألم ، ولَقِي ميتاً شاحباً مُشوَّهاً فيُكفّنه والداه المحزونان .

فقال غُوتَمَا في نفسه : لِمَ الهَرَم ؟ لِمَ المرض ؟ لِمَ الموت ؟



٦٢ ــ غواليار . منظر قصرمان مندر (القرن الخامس عشر) (يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً ويبلغ طوله نحو مئة متر)

وقال في نفسه أيضاً : إنني غَنِيّ قويّ سعيد عزيز ، وما لديّ من الثروة والقوة لا يمنع ، مع ذلك ، رأسي من الشَّيْب ووجهي من التَّكَرُّش وأعضائي من التَّلَوِّي والألم ، ولن يحول دون ذلك أحِبّائي الذين سيبكون فوق قبري ، وكيف أفرح

بكنوزى وصحتى وزوجتى الفتاة الحسناء وولدى وأنا عارف بما ينتظرنى ؟ أجَلْ ، عندى من السعادة أقصى ما يطمع فيه رجل ، ولكن ما هو عَيْش أولئك الذين هم عاملون ، أولئك الذين هم بائسون ، أولئك الذين هم مُسْتَضْعَفون ، أولئك الذين هم جائعون ؟

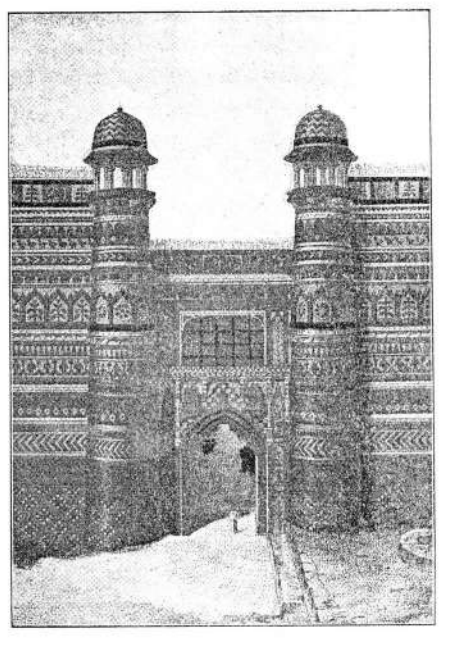
أسفرت هذه التأملات عن وصوله إلى النتيجة القائلة إن العالَم ليس إلّا مجموعةَ آلام فسأل :

من أين يأتى الألم ؟ ما هو سببُه ؟ كيف يكافَح ؟

هنالك عزم بُدَّهَة على اكتشاف مصادر الألم الملازم لكل موجود ومداواته ، فرأى أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً ما عَلِم أن لسعادته نهايةً وأن ما يتمتع به من سعادة زائلة أمر شاذٌ فترك زوجته العزيزة وولده الطفل وأباه الشائب وقصره وأُجَراءه وكنوزه ولَبِس ثوباً حقيراً وحمل بيده كَشْكُولًا وصار يجوب القرى ماشياً عائشاً من الصدقات مفكراً فى الحياة مُقَلِّباً لجميع وجوهها مداوماً على تأملاته .

بَيْد أنه لم يَصِل بتلك التأملات إلى الحلّ المنشود فأراد اعتزال العالم فأوغل فى الأدغال البعيدة مفكراً سابحاً فى بحر من الرُّؤى ليلَ نهار .

مَرّت السنون ، وكانت كلما مَرّت رأى شاكْيَه مونى بُعْده من الغاية الغامضة التى يسعى إليها ، ورأى أن من العبث ما عَرّض روحه و بدنه له من ابتلاء قاس وأن من العبث ما قام به من الصيام إلى أن فَقَد وَعْيه وكاد يقضى نحبه وأن من العبث أن ينهمك فى فهم الطبيعة ومصير الأمور فهماً مجرداً ، فهو لم يَصِل ، بَعْدُ ، إلى درجة بُدَّهَة ، إلى الدرجة التى يصبح فيها المخلوقَ الذى يعلو البشر فيقدِر على إنارة الناس وكشف الكُرُوب عنهم .



٦٣ ـ مدخل قصر غواليار

وإن بُدّهَة لَيُجْهَد نفسه فى الوصول إلى العلم الأسمى إذ ابتُلى بأمير العفاريت وروح الشرّ مارا ، فقد أراد هــذا الجنّىّ أن يُبطل عمله وأن يُدخله إلى زمرة المذنبين .

رأى بُدّهَــة من الرُّؤى ، التى وُصِفَت فى « لَليِتاوِستار » ما أزعج نفسه ، وبيان الأمر :

أن كتائب من الجنّ الأشرار أخــذت ، فى سكون البَرِّيَّة ، تدور حوله وهى تقول له همساً ، بالمنــاوبة ، قولَ الشكّ المأثور : « ما فائدة ذلك ؟ » الذى يُبْعِد أصلب الناس عوداً من الهدف ويُلقيه فى هُوَّة من اليأس ، وبينما كان يَهْزِم برصين الــكلام جيشَ العفاريت المؤلَّف من غيلان ذوى أجسام عارية دُكْنٍ سُودٍ وعيونٍ مُشَوَّهَة غائرة كالآبار مُلتهِبة مقلوعة أو شافِنَة[١] وغيلان[٢] متوَّجين بأكاليل من أصابع بشريةٍ وغيلانٍ لا رأس لهم وغيلان لهم مئة ألف رأس، إذ بنور رائع حافل بالأسرار يَعُمّ الغابةَ التى بَدَت نَدِيَةً كما لو بَلَّلَها القطر ، إذ بامتحان يُبتَلى به ذلك الحكيم فيرَى نفسه ، وهو غارق فى تأملاته ، مُحاطاً بجحفل من بنات الجنّ أَبْشَرِا الساحراتِ ، إذ بِصُوَرٍ رائعــة تتموَّج بين الأغصان فيندمج بعضها فى بعض على شــكل زُمَرٍ شهوانية ، إذ بنساء متطرِّفات أو معتدلات لابسات أزهى ثياب أو عاريات باهرات يَرمى بعضُهنّ من تحت أهدابهنّ الطويلة بسهام أحداقهنّ المُغرِية ويرفع بعضٌ منهن لِحاظَهن الحادّة فيُحْدِقن به لطيفاتٍ محاولات إغواءه بعبارات الحبّ وأوضاع الفسق وبما لم تَسْمَع به أذن من وعود اللذات .

---

(١) الشافنة : الناظرة بمؤخرها أو فى إعراض — (٢) تجد صورة قريبة لهذا المنظر فى أحد تصاوير جدر أجنتا التى نشرناها فى هذا الــكتاب .

قالت بنات العفاريت الساحرات لذلك الحكيم : « تعالَ ، يا صاحب الوجه الذى يُحا كى القمر وانظر إلينا نحن ذوات الوجوه التى تشابه الزهر النَّضِر والأصواتِ العَذْبة التى تنفذ القلوبَ والأسنانِ البيض التى تحْكى الثلج والفِضَّة ، أتجد لنا مثيلاً حتى فى مَقَرّ الآلهة ؟ أترى مثلنا فى منــازل الإنسان نحن اللائى ترغب فيهن آلهة الدرجة الأولى على الدوام ؟ » .

ولـكن شا كْيَه مونى صَبَرَ على هـذا الامتحان الساحر فأجابهن ، كما جاء فى الأسطورة التى نلخصها بما يأتى :

« أرى البدنَ الدَّنِسَ الرِّجس النَّجِس المملوء دوداً والسريعَ الالتهاب والزوال والمُدَّثِّرَ بالآلام ، فسأنال المجد الخالد الذى تقوم عليـه سعادة العالم الثابت والمتحرك فيُقَدِّسه الحـكماء » .

فسمع شا كْيَه مونى القولَ العَذْب الآتى :

« لقد أبْدَيْن سُحُور الشهوة الأربعة والستين وأطْنَنَّ نُطُقَهُنَّ وخِرْصانَهُنَّ(١) وخــلاخِلَهُنَّ وخَلَعْن ثيابهنَّ ثَمِلات ضاحكات ، فماذا أسأن إليك أنت الذى يحتقرهنَّ ؟ » .

غير أن شا كْيَه مونى قاوم المِحْنَة بشجاعة فقال :

« الخطيئةُ موجودةٌ فى كلّ مخلوق ، ويعلم أمرَها من خلع عنــه نِير أهوائه ، ولا أعرف الشهوات إلاَّ كالسيوف والسهام والحِرَاب والمُوسى المدهون بالعسل ورأسِ الأَفْعَى والأُخْدُود(٢) النارىّ .

وفى الأسطورة أن شا كْيَه مونى « لم ينظر إلى تلك المخلوقات عاشقاً ولاساخطاً ،

---

(١) الخرص : حلقة الذهب أوالفضة أوغيرهما — (٢) الأخدود : الحفرة المستطيلة .

فالآن ترجُف[1] الجبالُ وتُسجّر[2] البحارُ وتُكوّر[3] الشمسُ والقمر أقربُ من أن تفتِن النساء ذلك الذى رأى بنور بصيرته خطيئاتِ العوالم الثلاثة » .

هنالك أرى كبيرُ العفاريت ، كما صنع الشيطان مع المسيح ، بُدَهَةَ المستقبلِ ممالكَ الدنيا ومجدَها واعداً إياه بالنجاح والنصر والسلطان إذا ما عَدَل عن طلب الحكمة .

قال العِفْريت : « أنا ربُّ الشهوة فى العالم كلّه ، وأنا المُسَيِّر والمُذِلّ للآلهة وجَمْعِ الأرباب والإنسان والحيوان ، فقُمْ أيها الذى يقيم بملكى وسَمِّعْ صوتك » .

فقال شاكيه مونى : « إذا كنتَ ربَّ الشهوة فلستَ ربَّ عالم المرئيات ، انظُر إلىَّ ترَنى صاحب الشريعة ، وإذا كنتَ ربَّ الشهوة فلا تَسْلُك سبيل الضلال ، سأنال النُّهى وأنفُكَ راغم وأنت ناظر » .

كفَّ جيش العفاريت المرهوب عن الكفاح مُغَاضِباً متوارياً فى الظلام ، فبذلك تمَّ النصر لشاكيه مونى ، فبرّد وابلٌ من الزهور جبينه فسمع صوتاً من السماء يقول له :

٦٤ ــ چتور ، برج النصر (القرن الخامس عشر)
(ارتفاعه نحو ٣٦ متراً)

(١) رجف الجبل يرجف رجفاً : زلزل ــ (٢) سجر البحر : فجره ــ (٣) كورت الشمس : اضمحلت وذهبت .

« تمنح الآلهةُ تيجاناً من اللآلىء وتُعطِى راياتٍ وأعلاماً وتُمطِرُ أزهاراً وتنشر من الصَّنْدَل ذرًا وتقول على أنغام الموسيقى : أيها البطل ! غُلِبَتْ كتائبُ العدوِّ بعد أن أحاطت بشجرتك .

« أيها البطل ! اليوم تنال ، على أحسن أريكةٍ ، النُّهى الخالىَ من شائبة الشهوة، واليومَ تظفَر علَّك بذُهة بعد أن قهرتَ برِفْقٍ حزب الشيطان » .

وأريد بالشجرة المذكورة آنفاً تلك التى كان يلجأ إليها شاكيه مونى فى أثناء عزلته ، وكانت تلك الشجرة مغروسة فى المكان الذى يُعْرَف اليوم ببُدَّهة غيا والواقع أمام المعبد الذى نشرنا صورته فى هـذا الكتاب ، ولا يزال القوم يُقدِّسون ذلك المكان كما يُقدَّس اليوم زيتونُ جَثْسَيمانى الذى سال تحته عَرَقُ المسيح الدامى ، أجَلْ ، تحولت تلك الأغصان ، التى كانت تقى بُدَّهة حين تأمله ، إلى غُبار منذ زمن طويل ، ولكن تقوى المؤمنين حلَّت ، على الدوام ، محلَّ تلك الشجرة وقتما هلكت .

جاوز ذلك الحكيم تلك المِحْنَةَ صاحباً للنُّهى الأسْمَى فانتهى إلى حلِّ ما كان يساوره من المُعْضِلات الهائلة ، جاء فى « لَلِيتا وِسْتَار » :

« جَمَعَ إذْ ذاك أفكارَه خالصةً كاملةً نيِّرَةً مُنَزَّهَةً عن الرجس خاليةً من الفساد مَرِنةً مُهَيَّأةً لما أُعِدَّت له ثابتةً محافظة على العهد مستعدة لتلقى الحكمة الربانية » .

« فرأى بالعين الإلهية الخالصة التى هى أرقى من العين البشرية بمراحل أن الخلائق ترتحل وتُبْعث من طبقة طيِّبة أو من طبقة حقيرة وفى طريق قويم أو طريق ردىء عاجزةً أو ناهضةً مَجْزِيَّةً بأعمالها » .

وتَمَثَّلَ له مَدَى البؤس البشريّ من جديد فمَنّ له أن يكتشف ، فى هذه المرة ، مسببَه والوسائل التى يزول بها زوالاً تاماً .

وهو إذ أنعم النظر فى سلاسل العلل والمعلولات رأى أن الشهوة أو الرغبة هى أمُّ الشرور وأن الوهم على رأسها ، فالشهوةُ تستحوذ على الإنسان منذ ولادته وتَقْضَم قلبه كالثعبان ذى السبعة الرؤوس الدائم الحياة الذى لا تُرْوَى له غُلَّة أبداً ، وكيف تُرْوَى غُلَّة هذا الثعبان ؟ ليست الفرائس التى تُرْمَى له ، أى المجدُ والسلطان والعز وثَمَلُ المشاعر وملاذُّ الروح والفُتُوَّة والجمال والحبّ إلا أعراضاً زائلة وأوهاماً خادعة ، والإنسان وإن طَمِع فيها لم تكن إلا طَيْفاً باطلاً ، وإذ إن كل شىء فى الكون يتحول بلا انقطاع ، وإذ إن كل شىء فى الكون يَهْلِك ويَتَجَدَّد ، وإذ إن كل شىء فى الكون فى يومنا غيرُه بالأمس فهل تَجِد غيرَ الأوهام التى هى وليدة الرغبة وهدفها؟ ألا نُحْسِن صُنْعاً إذا ما قتلنا الرغبة فى أنفسنا وبَدَّدنا بذلك الأوهامَ فالآلام ؟

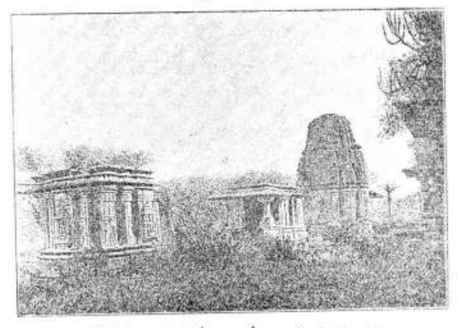
« هكذا اتَّضَحَ لِبُدَّهة نورُ الدين، المجهول سابقاً ، فيَقْسِم ، على الدوام ، بإعمال الفكر فيصدر عنه الرأى والرُّؤْيا والعلمُ والفهم والذِّكْر والمعرفة .

« وهكذا علمتُ ، أيها المتدينون ، ما هو الألم وما هو مداه وما هى الوسائل التى يُزال بها ، وعلمتُ ، أيضاً ، ما هو بؤس الشهوة وبؤس الحياة وبؤس الجهل وبؤس النظر وكيف تُغْلَبُ هذه الأبْؤُس وتزول فلا يبقى لها أثر ، وعلمتُ ، أيضاً ، ما هو الوهم وما هو مداه وكيف يُبَدَّد ويزول فلا يبقى له أثر » .

إذَنْ ، قام مذهب شاكْيَه مونى ، الذى أراد أن ينشره بين الناس حينما نَهَض من تحت شجرة الحكمة وعاد إلى إخوانه ، على إبطال الرغبة والتجرد من أمور

الدنيا وتبديد الوهم كأملٍ عالٍ والدخول فى ملكوت نِرْوانا حيث يغيب الشعور والفكر .

ولو اقتصر ما جاء به شاكْيَه مونى على البراهين الفلسفية التى عَزَتْها القصّة إليه ما خرج اسمه من تحت طبقة الظُّلمات حيث يَرْقُدُ كثيرٌ من أجيال البشر ، فالبراهينُ الفلسفية لا تُحرِّكُ الجموع ، والجموعُ يُؤَثِّر فيها صوت المشاعر وحده ،



٦٥ — ناخدها ، بالقرب من أوديبور ، أطلال معابد قديمة فى الآكام

فمن يُرِد أن ينفُذَ قلوبَ الناس فليشاطِرْهم آمالهم وآلامهم وليُهِزَّ مشاعرهم ، وذلك كما أصاب أحدُ الشعراء فى قوله : « مهما بلغ ما نَعْبُدُه من الشدّة وَجَدْنا فيه ما يقاسمنا آلامنا ، امرأةً كان أو إلهاً » .

فى ذلك ترى سِرَّ النفوذ البالغ الذى اتفق لِبُدْهَة الذى كان ابن ملك فأصبح ، كما وَدَّ ، سائلاً ليقاسمَ الجموعَ بُؤْسَها وليُعلِّمها كيف تتخلص منه مُعَرِّف كيف يحرك

أفئدتها ، وبُدَّهَة ، كعيسى ، أدرك آلام البشر وقاسمهم إياها وعلّمهم قيمة المحبة والأمل ، فلم يزل سيدَهم .

أجملنا حياةَ بُدَّهَة على حسب ما جاءت فى القصة ، وسنتكلم عن دِيانته كما فهمها أتباعه وتوطّدت فيما بعد ، وكما تبدو فى الكتب التى انتهت إلينا ، لا كما جاء بها لأول مرة حينما غادر شجرة الحكمة .

٣ — الديانة البُدَّهية

لم تأت البُدَّهيّةُ العالمَ بدين جديد فى الحقيقة ، بل جاءت بأدب جديد ، وليس فيها سوى عقيدة واحدة قائمة على توكيد أمر الوهم والعدم .

حقاً أن البُدَّهيّة لم تُكَبْكِب شيئاً ولم تكافح أمراً من الناحية العملية ، فقد أبقت على البرهمية وعلى آلهتها وطوائفها ، مع القول إن الآلهة والعفاريت والبراهمة والشودرا ليست إلا صُوَراً موقتةً متحولة بلا انقطاع إلى أن تفنى فيه تعالى بعد أن تكون بُدَّهَة ، أى أن تصير صاحبة العقل المطلق فترى بنور البصيرة سلسلة الموجودات السابقة وغاية الحياة وارتباط العلل والمعلولات ثم تدخل فى سلام نِرْوانا الأعلى الأبدى .

ذلك هو الهدف الذى تسير إليه النباتات والحيوانات والآلهة والناسُ وجميع المخلوقات الحيّة بعد ما لا يُحْصَى له عَدٌّ من التناسخات والتقمصات .

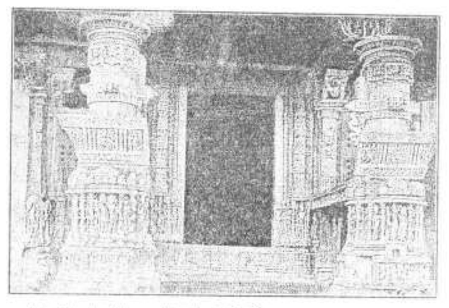
والطبيعةُ الأزلية إذ وُجدت فى كلّ زمن وكانت جوهر كلّ شىء عُدّت عدماً لا أساس له ، وإن شئت فقل خلاء لا حدّ له ، والخلاء هذا قد تَجَلّى ، ذات مرة ، على صورةٍ بفعل الرغبة فصار ذا إحساس وضمير وإرادة ، أى ذا حياة ، وأخذ يتطور

تطوراً متسلسلاً ، والسببُ الأعلى بعد أن تجسَّد على هذا الوجه غدا قادراً على القيام ببعض الأعمال الطيبة أو السيئة وأضحى عاجزاً عن الاهتداء ثانيةً إلى جوهره المادىّ إلاّ بثواب أعماله ، وفى السكرْما تقديرٌ لانتقال السبب الأعلى من الأسفل إلى الأسمى نتيجةً لجميع أعماله وجميع أقواله وجميع أفكاره فى أثناء كل حياة من حيواته ، فيَصِل إلى درجة الإنسان ، فإلى درجة المتدين ، فإلى درجة بُودّهِى سَتْوا ، فإلى درجة بُدْهَة، ثم يَهْبِط إلى الهُوَّة الصامتة الهادئة التى أخرجته الرغبةمنها ، وترافقه الرغبةُ وما تجَرُّه فى موكبها من الآلام ما دام حياً ، فهدفُ البُدّهِىِّ الصحيح ، إذَنْ، هو أن يُمِيت الرغبة فى نفسه لينال الراحة العليا .

وتأتى الأعمال الصالحة التى تسير إلى تلك الغاية بجانب ذلك الجَهْد الدائم المؤثر ، ولكل عمل ثمرتُه ، ومن الأعمال النيّاتُ والأقوال والأفكار .

وتجِد روحَ البرهمية فى مذهب السكرْما القائل إن أعمال كل واحد تُعيِّنُ الصور التى يُبْعَثُ بها فيما بعد ، بَيْدَ أن الأدب فى البُدّهِيَّة أرق مما فى البرهمية ، فالبُدّهِيَّة تُعْنَى بالحياة الباطنية وبجميع الأعمال التى تُصْنَع كلَّ يوم فى ضمير الإنسان، فبُدْهَة ، كما فى الإنجيل ، يَعُدُّ الإنسان قاتلاً إذا أراد سوءًا بإنسان آخر ، ويُعَدُّ مجرمَ شهوةٍ كلُّ من يبتغى ثمرةً مُحرَّمةً ، ولا يقول بُدْهَة إن التوبة تُكفِّرُ الذنوب، فهو يرى أن التوبة ، مقصودةً كانت أو غير مقصودة ، لا تستطيع أن تمنع صدور المعلول عن العلة ولا العمل عن نتائجه ، وأكثرُ ما يبدو الفرق الأساسىُّ بين البرهمية والبُدّهِيَّة هو فيما تقول به البدهية من روح المحبة القوية التى تُحْيى هذا الأدبَ الجديد فى تواضعها وحلمها ولطفها وتسامحها العام .

ويُكتب نجاح كبير ، لا ريب ، لإصلاح دينيّ يرفع البائسين الذين أثقل نظام الطوائف كواهلهم ، ويجعلهم من الناحية النظرية ، إن لم يكن من الناحية السياسية ، مساوين بطبيعتهم ومستقبلهم لسادتهم المتكبرين ، ويَحْمِل القولَ العَذْب والمبادئ الرحيمة إلى مجتمع حناه حكمٌ حديديٌّ ، ويُظهِرُ أسباب الألم في منابعه ، ويُعَلِّمُ وسائل إزالته شعباً أرخاه جَوٌّ شديد وأخافه كابوسُ دينٍ صارم بما لا يَعرف الرحمة من الوسائل المفاجئة .



٦٦ — ناغدها . قسم من معبد بانكا (أقيم في القرن العاشر من الميلاد على ما يحتمل)

ذلك الإصلاح الدينيّ هو وليد احتياجات حِبَابِيَّة فظهر لقضاء هذه الاحتياجات، فلا يَبْحَثَنَّ العلماء في براهين أئمته الدقيقة وما استنبطوه من النتائج الفلسفية عن أسباب انتصار البُدَّهِيَّة وما بين أدبها ومذهبها من التناقض .

مذهبُ البُدَّهِيَّة دُوِّنَ مؤخراً ، ولم يستمع الشعب إليه قط ، وكلُّ ما سَمِعَه

الشعب هو نداء الأمل والمحبة الذى رَدَّدَت سماؤه صداه فلبَّاه بروحه من فَوْرِه .

ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار البُدْهِيَّة ماهو مادىٌّ أيضاً ، فقد كان يتألف من قسم الهند الشمالى المعروف بالهندوستان دولةٌ واحدة قبل الميلاد بقرنين ونصف قرن ، وكان أشوكا مَلِكَ هذه الدولة ، وكان اعتناق المَلِك لدين يكفى لازدهار هذا الدين وانتشاره .

ذلك ما اتفق للنصرانية فى الدولة الرومانية حينما انتحلها قسطنطين ، فأصاب كثيرٌ من المؤلفين فى تسمية أشوكا بقسطنطين الهند البُدْهِىّ .

وما انتهى إلينا من الوثائق الثمينة التى تركها أشوكا ، أى الكتاباتِ المنقوشة على أعمدة وصخور فى جميع أجزاء دولته الواسعة ، يُثْبِت حَمِيَّته فى نصر تلك المبادئ الجديدة ويثبت أن ما فى هذه المبادئ من الناحية الشعبية السائغة ومن الأدب الكريم وروح المحبة أوجب اعتناق الجُهَّال والحكماء والمنبوذين والبراهمة لها على السواء .

تَجِد جذورَ الفلسفة البُدْهِيَّة فى المذاهب القديمة المعاصرة للبرهمية الأولى ، ولم يَبْدُ نموُّها إلا بعد طويل زمن ، ولم يَكُ أثرٌ فى بدء الأمر للكنيسة البُدْهِيَّة وما اشتملت عليه بعد حين من المحافل الدينية ومبدأ الاعتراف وذخائر الأولياء وبُدْهَة المؤلَّه ، ولم تك أسطورة بُدْهَة آنئذٍ شائعةً ، وما كاد أشوكا يذكر اسم ذلك المصلح الكبير إلا مرةً أو مرتين ، والثورة الوحيدة التى قد يَرْجِع تاريخ حدوثها إلى عهد هذا الملك ، أى الثورةُ الأساسية التى أعان على وقوعها بما أُوتِىَ من قوة ، هى تطور الأخلاق والوجهُ الجديد الذى بَدَت به واجبات بعض الناس نحو بعض وزعزعة

النِّير البرهميّ الثقيل وبزوغُ دور المحبة العميقة والحِلْم الذى جدَّد العالمَ الآسيوىّ الهَرِم من الأساس.

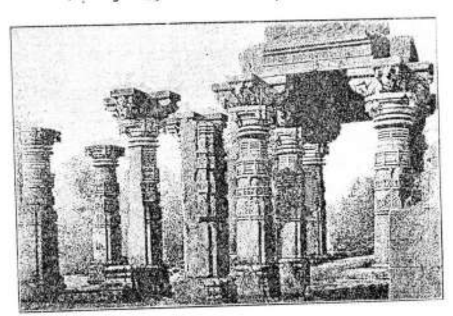
وأضحت البُدَّهِيَّة بالتدريج ديناً مُنَظَّماً ثابت الأساس ذا آلهة وشعائر وعبادات وفلسفة، ومن سوء حظ انتصار البُدَّهِيَّة النهائى أن عَطِلَت من آلهة فتركت الميدان الآلهة البرهميــة كى تَعْبُدَها الجماهير وإن لم تُوص بها، ومن العبث أن وَضَعَت البُدَّهِيَّةُ الآلهةَ دون الوَلِىِّ أو دون الرجل الذى يَصِل إلى درجة بُدَّهَة، فنشأ عن ذلك أن هَصَرَت الآلهةُ البُدَّهِيَّةَ واستغرقتها وصهرتها مع البرهمية.

بذلك نفسر السبب فى غياب البُدَّهِيَّة عن بلاد الهند إلى الأبد مع أن بلاد الهند مهدُها، والبُدَّهِيَّة هى التى قالت بديانة الهند ورَضِيَت أن تُدْغَمَ فيها، والبُدَّهِيَّة وَصَلَت إلى بقية آسية مع موكب من الآلهة البرهميــة التى لاءمت الخيــال وأعانت على انتصارها.

ولا يمكن دِيانةً كالبُدَّهِيَّة أن تَــكْبُتَ آلهةً سيطرت على الهند أحقاباً كَبْتاً أبدياً، والبُدَّهِيَّةُ هى التى أرادت وضع تلك الآلهة فى مرتبة ثانوية من غير أن تجىء بما يقوم مقامها.

ولم تلبث فِرَق البُدَّهِيَّة أن كَثُرَت كما كَثُرَت فرق البرهمية من قبل، وبينما كان يقوم فى معابد بُدَّهَة إله حَدَّدَته القِصَّة بالتدريج جعلته بعض الفرق حالًا عاليــةً يصــير إليها جميع المخلوقات بعد أن تستعدَّ هذه المخلوقات فى ألوف من البُعُوث التى تَتِمُّ فى عصور لا حدَّ لها، وهذه المخلوقات تستطيع، إذ ذاك، أن تــكون عاملَ نجاة لأهل الــكون الآخرين ثم تُقِيم بنعيم نِرْوَانا السَّرْمَدِىّ حيث الخــاتمة السعيدة المُثْلَى.

وترى الفِرَقُ الجديدة أن بُدَّهَة شاكِيَه مونى وحده لم يكن رسولَ الحقِّ في العالم، فسيظهر بُدَّهَة ثانٍ وثالثٌ حاملين أنواراً جديدةً وقوًى جديدة مرشدين إلى أقصر طرق لبلوغ الكمال، بَيْدَ أنه لا بدَّ من مرور أحقاب لا تُحصَى بين ظهور بُدَّهة وبُدَّهَة لِما يتطلبه تكوين بُدَّهَة من زمن طويل لا يتصوره سوى الهندوس ذوى الخيال الخصِب الذى لا يَقِف عند حدٍّ فلا عهد لتصوراتنا الغربية المتواضعة بمثله .



٦٧ — أومكارجى . أعمدة معبد سدسوهرا (القرن الثانى عشر على ما يحتمل)

والزهد أحسن وسيلة لنيل حال بُدَّهة ، ومن هنا جاء النظام الرهبانيُّ الذى لم يَعتِمْ أن ملأ الهند بالأديار ، وأقوى طريقة يتخذها الإنسان ليكون بُدَّهة هو أن يقتل فى نفسه الرغبة التى هى عِلَّة الحياة والألم ، وهذا ما تهدى إليه الحقائق الكبرى الأربع التى هى أساس الشريعة البُدَّهِيَّة والتى تخاطب رجال الرهبان ، لا الجمهور ،

لِما يتطلبه إدراكها والعملُ بهما من التقدم فى سبيل الكمال ، جاء فى لَلِيتا وِشْتَار ما يأتى :

« أيها الراهب ! إليك الحقائقَ الأربعَ المُكَرَّمَة : الألم ومصدر الألم وردع الألم وسبيل ردع الألم .

« فما هو الألم ؟ الألم هو الولادة والهَرَم والمرض والموت وفراق الحبيب والاجتماع بالبغيض ، والألم هو أن تَرغب فى شىء وألا تنال ما ترغب فيه ، والألم ، أيضاً ، هو أن ترغب فى شىء فتَجِدَّ فى طلبه فلا تناله ، والألم ، بالاختصار ، إذ كان موضوعَ الأمور الخمسة التى تتقبلها الحواس ألما فإن هذ هو الألم .

« وما هو مصدر الألم ؟ مصدر الألم هو الرغبة التى تَتَجَدَّد بلا انقطاع ، هو الذى يذهب مع هَوَى اللذة ، هو الذى يُسَرُّ هنا وهنالك .

« وما هو ردع الألم ؟ ردع الألم هو التسكين من غير أن يبقى منه شىء ، هو الرغبة التى تتجدد بلا انقطاع ، هو الذى يذهب مع هوى اللذة ويُسَرُّ هنا وهنالك ، هو الذى يَحْضُل ويُقْضَى .

« وما هو سبيل ردع الألم ؟ سبيل ردع الألم هو الصراط المقدس المؤلف من ثمانية أجزاء كالبصر الكامل المؤَدِّى إلى ردع الألم .

« تلك هى الحقائق المُكَرَّمة الأربع أيها الرهبان ! » .

وهنالك سبب آخر ، غير الرغبة فى قتل الألم والوصول إلى حال بُدَّهة المجيدة فإلى السكينة التامة ، أوجبَ اختيارَ كثيرٍ من المُرِيدين لحياة العزلة فى الأديار ، وهو تَجَلِّى المساواة فى الأديار فعلاً بعد أن أعلنتها البُدَّهِيّة مبدأً ، ففى الأديار يساوى

الشودرا والباريا والجاندالا البرهمىَّ ويأكلون معه إذا ما كانوا أعضاء محفل واحد ، وكان للنساء ، أيضاً ، أديارُهنّ حيث يَطْهَرْن غيرَ ضعيفات ولا خاضعات لِما أمَرَ به مَنُو من الوِصاية الدائمة .

وكانت الحياة شاقة فى تلك الأديار المنحوتة فى الجبال فأنشأتها الهند فى ألف سنة فنقضى العجب من طِرازها فى الزمن الحاضر ، وكان لا بدَّ لمن يود العيش فيهـا أن يوجب على نفسه الفقرَ والطُّهْرَ ، وأن يَنْتقل إلى الحياة الجديدة بهجر المرأة والمال والولد ، وكان على الراهب ألا يَملِكَ شيئاً وأن يعيش من الصدقات على ألا يطلبها وألا يأخذ من أيدى المحسنين أكثر من أكلة ، وأن يُعَلِّم الناس السلام والحق ، وأن يُنْشِىء مشاقَ وملاجئَ للفقراء والمسافرين ، وأن يَجِدَّ فى منع الحروب ويأمر بالتسامح العظيم تِجاه جميع الأديان عادًّا إياها أَوْجُهاً ناقصة للحقيقة الواحـدة ، وأن يربى الأولاد ويحمِلَهم على احـترام الوالدَيْن مُتَمَثِّلًا نصَّ الكتب البُدَّهِيَّة على « أن الولد لايكافىء والديه ولو حَمَل أمَّه على إحدى كَتِفَيْهْ وأباه على كتفه الأخرى مئة سنة » .

والبُدَّهِيَّة أتت العالمَ الآسيوىَّ القَرِم بروح المحبة وبما لم يَعْرِفه هـذا العالم من الأدب العالى ، وقولُ العالم الفاضل المتدين مكس مولر جاء مُصدِّقاً لما قاله المُبشِّرون فورَدَ فيه : « دعا إلى الأخلاق الفاضلة ، قبل ظهور المسيح ، أناس اعتقدوا أن الآلهة أشباح باطلة فلم يُقيموا هيكلاً حتى للربِّ غير المعروف » .

وتؤيد الجملة الأخيرة من هـذا القول آراء الأوربيين الخاطئة فى البُدَّهِيَّة ، وسأثبت عمـا قليل أنك لا تَجِد دِيانة ، كالبدهية ، ذاتَ أرباب متعددين مستنداً

فى ذلك إلى البــانى ، ومن الصحيح إشارة تلك العبارة إلى سموّ الأدب البُدْهِىّ ، فلا تجد ، بالحقيقة ، ديانةً ، أنقى من البُدَّهِيَّة أدباً ولا أعذبَ منها قولاً ولا أكثرَ منها رُحْماً ، فبُدّهَة بحث عن الوسائل التى يُنْقِذ بها الناس من مصيرهم القاسى فلبّى الناس دعوته ، وهو ابن الملك الذى غدا سائلاً لِيشاطر الجماهير بُؤْسَها و يُعَلِّمَها المحبة، فــكان من أعظم من عَرَفتهم الدنيا أخذاً بمجامع القلوب ، وهو الذى اعتنق الناس دينه الحاملَ لاسمه حيث غُرِس ، وهو الذى اكتسب دينُه الناسَ بمـا تَحَلَّى به دُعَاته من الحلم والمحبة و إنكار الذات ، وهو الذى ألآن دينُه الطبائع فى آسية وحَوّل البرابرة السفاكين إلى رجال هادئين ، ومن هؤلاء نذكر أجلاف المغول الذين أقاموا أهراماً من رؤوس البشر فأصبحوا بتأثيره قوماً مُهَذَّبين مُتَّقِّين .

وغايةُ القول أن البُدَّهِيَّة تشتمل على أرق المعارف الدينية التى عَرَفها العالم لو لم تَحْنِ الـكواهلَ للاستعباد أكثرَ من أىّ دين .

ومما تقدم ترى أن البُدَّهِيَّة تختلف عن البرهميـة بسموّ الأدب وروح التسامح والمحبة أولاً ، وبالمـكان الواسع الذى جعلته للإنسان فى الـكون فلم تُعْطِه ديانةً أخرى مثلَه ثانياً ، فالطبيعةُ إذ إنها تتغير بلا انقطاع وتُبْدِع صُوَراً سائرةً إلى الـكمال مؤديةً بالتدريج إلى ظهور الإنسان الذى يستطيع أن يصبح بفضله وعزمه أكثرَ من إله ، أى أن يصبح ُبدّهةَ الـكائنَ الـكاملَ الذى هو الأصلُ والغاية ، والجمعُ والصفر ، والعِظَمُ والعَدَم ، ومعنى الـكون ، فإنها ، كالـكون ، سلسلةُ أحوال زائلة وشـعورٍ واهم ، والـكائنُ ذلك ، إذ إنه عظيم مُبْهَم ، فإن من عدم الصواب أن يُحَدِّده من ليس عنده إقدام لاهوتيى الهندوس وهيامُهم باختراع الصور الجسيمة والأعداد الضخمة .

ولم يُغيِّر أتباع بُدَّهَة ، الذين يُعَدُّون بالملايين بتعاقب القرون فكانت أكثريتهم الساحقة من الدهماء والجهلاء والصُّغَراء والوُضَعاء ، تلك التأملاتِ الهائلةَ التي تَقْلِب دماغ الأوربيّ ، فكان هؤلاء يدخلون معابده مفتخرين بالسجود مع البراهمة المتكبرين أمام صورته المقدسة وعبادة ذخائره والاحتفال بأعياده الرائعة تكريماً لإبائه الخاصّ بالصدقات ، وكانوا لا يعرفون عنه سوى المحبة العَذْبة ذاكرين ، ناعمي البال ، أن أحد أصحابه[1] سأل أحقر امرأةٍ أن تَسْقِيه فقالت ، وهي تعلم أن ابن الطائفة يُفضِّل الموت على تناول قطرة ماء من يدها :

« مولاى ! إنني جَنْدَالِيَّة » .

فأجابها برِفْقٍ :

« لا أسأل عن أنك جَنْدَاليةٌ أو غيرُ جَنْدَالية ، وإنما أقول إني ظمآن ، فأطلب منك أن تَسْقِيني » .

ذلك أمر بسيط في الظاهر ، ولكنه معجزة المحبة عند الهندوسيّ وآيةٌ تَبْعَث لدى جموع من الخلائق البشرية .

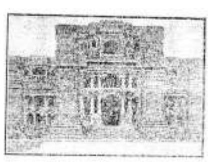
تلك هي البُدَّهِيَّة ، وليس بضائرها أن تَغْرَق فلسفتها بعد زمن في بحر من المجردات القريبة من الهوَس وأن تَغْرَق عباداتها في طقوس البرهمية ورموزها ما كانت ديانة محسنةً مصلحة قوية مؤثرة تأثيراً لا يَعْدِله شيء في تاريخ الإنسان .

---

(١) ربما قصد المؤلف أن بدهة نفسه ، لا أحد أصحابه ، هو الذي سأل تلك المرأة أن تسقيه ، كما تدل عليه مقارنة المؤلف في أوائل الفصل بين بدهة والمسيح ، وإلا وجب أن يكون الحادث قد تكرر ، وهذا ما نستبعده ما دام عزو طلب السقي إلى بدهة أكثر ملاءمة لسياق الموضوع من عزوه إلى صاحب له (المترجم)

٤ — البُدَّهِيَّة كما جاءت فى المبانى

استحوذ على الناس بأوربة عَجَبٌ عظيم حينما علموا أمر البُدَّهِيَّة من كتبها الفلسفية التى وُضِعَت بعد ظهورها بستة قرون فتُرْجِمت منذ سنوات قليلة إلى اللغات الأوربية فرَأَوْا أن أتباعها البالغ عددهم خمسمئة مليون نفس لا يعرفون إلهاً عادِّين العالم وهماً باطلاً لا يقابلُ آمالَ الناس إلاّ بالعَدَم .



٦٨ — بندرابن . معبد غوبندو (القرن السادس عشر) (يبلغ ارتفاع المقدم ١٤ متراً)

ومن الطبيعىّ أن كنتُ لا أعرفُ عن البُدَّهِيَّة ، قبل زيارتى للهند ، غير ما ورد فى الكتب التى أشرت إليها آنفاً فأتكلَّم عنها فى فصل آخر ، وكنت أشكّ ، مع ذلك ، فى إمكان اعتناق الملايين من شِباه البرابرة لإلحادات فلسفية فاترة ، فكان يلوح لى أن مما يناقض سُنن التاريخ أن تظهر دِيانة قائمة على مبادىء كتلك المبادىء بَغْتَةً فى العالم وأن تَغيب هذه الديانة عن البلد الذى ظهرت فيه فَوْر قيامها تقريباً ، فكنتُ أرجو أن تؤدى دراستى للمبانى البُدَّهِيَّة ، التى أهْمَل أمرها مَنْ بحث من علماء أوربة فى الدِّيانة البُدَّهِيَّة ، إلى إلقاء ضياء جديد على تاريخ هذه الدِّيانة ، فلم يَخِب رجائى ، فثبت لى من النظر فى النقوش التى تستر وجه المبانى القديمة فى الهند أن الدِّيانة البُدَّهِيَّة التى مارسها الهندوس فى ألف سنة تختلف عن الذى نتعلمه من الوثائق المكتوبة .

وفى المبانى ، لا فى الكتب ، يجب دراسة تاريخ البُدّهية ، فما تخبرنا به المبانى غيرُ ما نجده فى الكتب الأوربية ، فهذه المبانى تثبت أن البُدهية التى أراد العلماء المعاصرون أن يجعلوا منها دِيانةَ إلحادٍ هى أكثر الدّيانات قولاً بتعدد الأرباب .

أجل ، إن المُصْلح الأكبر بُدهةَ لم يظهر فى المبانى البُدهية الأولى التى أقيمت منذ نحو ألفى سنة ، كسياجات بهارت وسانچى وبُدهة غيا وغيرها ، إلاّ رَمْزاً ، فكانت تُعْبَد آثار قدميه وصورة الشجرة التى بلغ تحتها درجةَ الحِكْمَة العليا ، غير أنه لم يُعتَمْ أن أصبح إلهاً ماثلاً فى جميع المعابد ، وقد بدا وحيداً فى أول الأمر كما يُرَى فى أقدم معابد أجنتا ، ثم اختلط بالتدريج بالآلهة البرهمية : إندرا وكالى وسَرَسْوَتِى الخ . كما يُرَى فى معابد إيلورا ، ثم غَرِق بين ما كان يهيمن عليه من الآلهة الكثيرة فعاد بعد بضعة قرون لا يُعَدّ إلاّ جسداً لِوِشنو ، فهنالك أفَلَت البُدهية عن الهند .

وتَطَلَّب حدوثُ ذلك الأفول أو التحول الذى أشرنا إليه فى بضعة أسطر مدةَ ألف سنة ، وأُنْشِئَت المبانى الكثيرة التى تنطق بتاريخه بين القرن الثالث قبل المسيح والقرن السابع بعده ، وظل بُدهة يُعْبَد فى أثناء هذا الدور الطويل كإله قادر على كلّ شىء ، وفى الأساطير تصويرٌ له وهو يَمْنَحُ أتباعه النِّعَم ، وفى رِحلة العالِم البُدهىّ الحاج هيوين سانغ الصينىّ الذى زار الهند فى القرن السابع خبرٌ بأن بُدهة ظهر أمامه فى غار مقدس بما اتفق له من اتصال طويل فى الهند .

فالأساطير والمبانى صريحةٌ إذَنْ ، فلو استند البحث فى البُدهية إليها لَبَدت على غير الصورة التى صُوِّرَت بها فى الزمن الحاضر ، ومن المؤسف أن أهمل علماء

أوربة دِراسةَ مباني الهند حتى الآن فلم يزوروا الهند فاقتصرت دِراستهم للبُدَّهِيَّة على الـكتب ، ومن المؤسف أن عَوَّلوا على كتب المذاهب الفلسفية التي وُضِعَتْ بعد وفاة بُدهة بخمسئة سنة فـكانت بعيدة من الدِّيانة الحقيقية .

على أنه لا جديد في التأملات الفلسفية البُدَّهِيَّة التي أثارت عَجَب الأوربيين كثيراً ، فقد وُجِدَت ، منذ عُرِفَت كتب الهند بأحسن مما في الماضي ، في كتب المذاهب الفلسفية التي ازدهرت في العصر البرهميّ ، في كتب الحكمة التي عُرِفَت بأوپانِشَاد التي وُضِعَتْ في مختلف الأدوار فوُجِد منها نحوُ مئتين وخمسين ترى الزندقة وازدراء الوجود والأدبَ المستقلَّ عن المعتقدات الدينية والمبدأ القائل إن العالم باطل الخ . وترى في بعض تلك الـكتب ماقي الـكتب البُدَّهِيَّة الفلسفية من المذاهب ، وكان واضعوها من العاملين بمذهب الـكَرْما الذي هو أساس البُدَّهِيَّة وأساسُ جميع فِرَق الهند الدينية وأساسُ شريعة مَنُو فيقول : إن الناس مَجْزِيُّون بأعمالهم في البُعُوث القادمة ، وإن غاية هذه البُعُوث هي الفناء في أصل الأشياء العام ، في برهما الذي حَـكى عنه مَنُو فَيَقْرُبُ من نِرْوَانَا عند البُدَّهِيِّين ، فالروح تنجو ، إذ ذاك فقط ، من البعوث .

والإنسان ، لـكي ينتهي إلى ذلك الفناء النهائيّ ، يجب عليه ، كما يقول البُدَّهِيُّون والبراهمة ، أن يَقْمَع الرغبة وأن يَزْهَد في متاع الدنيا وأن يعيش عَيْشَ النُّسَّاك المتأملين .

فمن ثَمَّ ترى أن نظريات العصر البُدهيّ الفلسفيـــــةَ مطابقةٌ لنظريات العصر البرهمي الذي جاء قبله ، وهي قد نَمَت مُوَازِيةً للدين الذي يُعَلِّمه الـكُهّان ويمارسه الجمهور وإن اختلفت عنه أشدّ الاختلاف ، فَعَدُّها كالبُدهية نفسها من الخطأ العظيم

كخلط نظريات الأوبانِشاد بالبرهمية ، والبُدهيةُ إذ لم تُعْرَف فى أوربة إلا بتأملات بعض أتباعها الفلسفية عُدّت هذه التأملاتُ البُدهيةَ نفسَها .

ومن السهل أن ندرك أن ديناً يبلغ عدد أتبـاعه خمسمئة مليون لا يقوم على المبادىء الفلسفية الفاترة ، ويُعْذَر بعض العلماء إذا أخطأوا فقالوا غير ذلك ما أفنَوْا أعمارهم فى دِراسة الكتب ، لا دراسة الرجال ، وإذا ما مَرّتْ ثلاثة آلاف سنة وتَبَدّل مركز الحضارة ونُسِيَت كتبنا ولغاتنا كان من المحتمل ، حينئذ ، أن يكتشف بعضُ الأساتذة اللغةَ الإنكليزية فيترجموا أول ما يَعْثُرون عليه من الكتب ، ككتاب الأصول الأولى لسپنسر وكتاب أصل الأنواع لداروين ، فيَدّعوا أنها خلاصة المذاهب التى كانت تمارسها الأمم النصرانية فى القرن التاسع عشر من الميلاد .



٦٩ — بندرابن . معبد مدن موهن (أنشىء فى القرن السابع عشر) (يبلغ ارتفاع البرج ٢١ متراً و ٤٠ سنتيمتراً)

وعلى الباحث ألاّ يُجْهِد نفسه فى البحث عن هندوس ليفترض أنهم استطاعوا ممارسة دين بلا آلهة ، فكيف تَجِد هندوسياً لا يعبد آلهة والعالمُ عنده زاخرٌ بها ؟ فالهندوسيُّ ، بالحقيقة ، يُصَلّى للنَّمِر الذى يفترس أنعامه ، وللجسر الخط الحديديّ الذى يصنعه الأوربىُّ ، وللأوربى نفسه عند الاقتضاء .

حَقّاً ، قد يحفظ الهندوسيّ على ظهر القلب كتاباً من كتب بُدْهِيّى الجنوب ، كالذى أُلِّف حديثاً تحت إشراف لجنة من الأوربيين ، يُعلِّمه أنه لا خالقَ للعالم وأن كلّ

ما فيه وَهْمٌ ، ولكن هذا لا يمنعه من أن يَشْعُر باحتياجه إلى عبادة بُدّهة الأعظم وجميع مَجْمَع الآلهة الذى يَمْلكه بُدهة هذا ، وحقًّا يشتمل كتاب « لَلِيتَا وِسْتَار » ، الذى هو أقدم الكتب البُدّهِيَّة والذى يرجع إلى نحو ألف وثمانيمئة سنة ، أى إلى زمن حَلَّ بعدظهور بُدّهة بنحو ستمئة سنة ، على مباحث فى الأوهام و بُطْلان أمور هذا العالم ، ولكن من ذا الذى عَلَّمه بُدهة هذا ؟ عَلَّمَ أولًا ، الآلهةَ الكثيرة التى تجد لها ذكراً فى كل صفحة من ذلك الكتاب والتى حَضَرَت وِلادته وعلى رأسها الإله برهما فأَلَّهته فأخذت ترافقه فعبدَته فى نهاية الأمر .

أَجَلْ ، إن ذلك الكتاب محشوٌّ بالمتناقضات ، غير أن هذه المتناقضات لم تكن لتَبْدُوَ للهندوسىّ ، فَفِكرُ الهندوسىّ قد صُهِر فى قالَب غيرِ الذى صُهِرَت فيه أفكارنا .

لا عهد للهندوسىّ بالمنطق الأوربى ، ولا تجد كتاباً من كتبه ، التى تَتَرَجَّح بين ديوانى رامايَنا ومهابهارتا الحماسيين من جهة والكتب الفلسفية التى أشرنا إليها آنفاً من جهة أخرى ، غيرَ زاخر بالمتناقضات ، فالمنطقُ ، وإن وُجِد فى هذه الكتب ، ليس سوى منطق نسوىّ يُفْرِط ، أحياناً ، فى استخراج النتائج إفراطاً لا يعبأ معه بالمتناقضات .

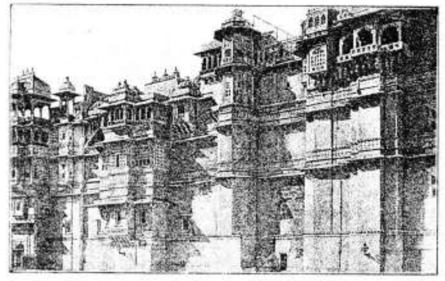
إذَنْ ، يجب على من يريد أن يعلم أمر البُدّهِيَّة ألا يَغْفُل عما لا غُنْيَةَ لديانات الهند عنه من الآلهة ، وذلك عند النظر إلى التأملات الفلسفية التى تَنَضَّدَت فوق البُدّهِيَّة ، فلم يحاول بُدّهَة ، خلافاً للخطأ الشائع ، أن يُزَعْزِع الآلهة البرهمية ، كما أنه لم يحاول أن يَمَسَّ نظام الطوائف ، فلم يكن أىُّ مصلحٍ من القوة ما يستطيع أن يَدُكَّ به ركن نظام الهند الاجتماعىّ ذلك .

وما تقدم يدلُّ بسهولةٍ على أن البُدّهِيَّة لم تكن غيرَ تطور بسيط للبرهمية ، وذلك لمحافظتها على جميع آلهتها ولأنها لم تُغَيِّرْ سوى أدبها ، ومما لا ريب فيه أن البُدّهيَّة اختلفت عن البرهمية قليلاً بعد مرور عدة قرون ، ومن المشكوك فيه أن تكون قد عُدّت ديناً جديداً فى البَداءة ، ولا شيء يدلُّ على أن أشوكا اعتنق ديناً جديداً ، ولا تكاد تجد غيرَ ذكرٍ أو ذكرين لبُدّهَة فى مراسيم هذا الملك التى ملأ الهند بها فانتهى إلينا عددٌ كبير منها ، ففى هذه المراسيم أوصى بالتسامح تِجاه جميع المذاهب الدينية التى كانت البُدّهِيَّة واحدةً منها والتى بَدَت جديرة بالتكريم لما اشتملت عليه من روح مؤسسها ، ابن الملك الشهير ، المملوءة محبة .

وسنثبت ، بعد قليل ، أن البُدّهية غابت عن الهند بسبب اندماجها فى البرهمية القديمة مقداراً فمقداراً ، وفى خارج الهند من البلاد ، كبرمانية وكمبوج ، التى استقرت البُدّهِيَّة بها ، رافقتها الآلهة البرهمية ، ولكن هذه الآلهة إذ كانت مما لم تَعرفه تلك البلاد العاطلة من البراهمة ذوى المآرب فى تَقَوُّتها حافظ بُدَّهة فيها على ما خَسِره فى الهند من النفوذ البالغ ، ومن الجَدَل الكبير ما دار حول مبانى أنغكور الشهيرة ليُعْرَف هل هى بُدّهِيَّة أو برهمية لاختلاط ما يشاهَد فيها من الرموز البُدّهِيَّة والشِّيَويّة ، وما كانت هذه المجادلات لتحدث لو درس العلماء مبانى الهند ، ولا سيما مبانى نيبال ، قبل أن يُنعِموا النظر فى مبانى كمبوج فنها ، كانوا يَتَبَيَّنُون اختلاطَ المذهبين كما أنهم كانوا يَتَبيَّنُونه فى البلد المجاور برمانية ، فما

٧٠ — متراً . برج‌ساتى بورى
(القرن السادس عشر)
(يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً)

اطلع عليه الموظف الإنكليزيُّ السابق فى برمانية مستر ويلر أن البرمانَّ ، الذين هم بُدَّهِيُّون كما هو معلوم ، يَعْبُدُون ، أيضاً ، الآلهـةَ الويدية ولا سيما إندرا وبرهما وأن بلاط مَلِك برمانية يحتوى على براهمة ، ومما اطلع عليه ذلك الموظف الإنكليزىّ ، أيضاً ، أن خانات المغول بآسية يعبدون الآلهة الويدية فى جوار جبل آلتائى .



٧١ ـ أوديبور . قصر مهارانا (القرن السابع عشر) (دقائق الجبهة المشرفة على الساحة الكبرى)

وترى مما عرضناه أنه لا أثر للهُوَّةِ العميقة التى افتُرِض وجودها بين البُدَّهية والبرهمية افتراضاً نشأ عن اطلاع العلماء على البُدَّهيَّة من قراءة الكتب ، وما بَيَّنَه هؤلاء العلماء من رأى هو الذى حال دون تَبَيُّن ما بينهما من ارتباط ، ومما حدث أن البحّاثة الأوربىّ هوغسن الذى عاش فى الهند أشار إلى بعض الصور الشِّيوية التى تشاهَد فى معابد الهند البُدَّهية فأجهد نفسه فى تفسير سبب وجودها فيها فقال إنه لا يوافق ثانيةً على امتزاج تينك الديانتين اللتين تنفصل إحداهما عن الأخرى انفصال

السماء عن الأرض ، وهوغسنُ هذا كان مقيماً إنكليزياً بنيبال ، وما كان عليه إلا أن يُحَدِّق إلى ما حوله ليَرَى درجة اختلاط الآلهة البُدْهية بالآلهة البرهمية فى معابد ذلك البلد ، بيد أن العلماء بلغوا فى ذلك الحين من اعتقاد اختلاف تينك الديانتين مبلغاً لا يَرَون معه وجود شىء مشترك بينهما .

ويزيد هذا المثل ، الناطقُ بوجود رأى مُبَيَّت حاجبٍ للحقيقة ، غرابةً عند النظر إلى الرسالة الإنكليزية التى عنوانها « بحثٌ فى الشَّبَه بين كثير من الرموز البُدْهية والشِّيوية » ، فذكر كاتبها ، مُتَعَجِّباً ، أن كثيراً من كُتَّاب الهند أنفسهم يَخْلِطون ما فى المعابد القديمة من الصُّوَر البرهمية بالصور البُدْهية مستنداً فى ذلك إلى كثير من الأمثلة[1] ، مع أن عَجَب ذلك الكاتب الإنكليزىّ كان يزول لو أوضح بمثل ما أوضحنا به سبب امتزاج البُدهية بالبرهمية .

٥ — توارى البُدهية عن الهند

لا يجهل أحد أن البُدهية التى يَدِين بها اليوم خمسمئة مليون من الآدميين ، أى ثلثُ البشر ، توارت تقريباً عن الهند حوالَى القرنين السابع والثامن من الميلاد بعد أن كانت الهند مهداً لها فانتشرت فى بقية آسية فعَمَرت الصين و بلاد التتر الروسية

(١) تتجلى أوجه الشبه بين صور الديانتين ورموزها فى أحوال كثيرة جداً ، ومن ذلك المثال الذى يتجلى للقارىء فى الصورة التى نشرتها فى هذا الكتاب لتمثال صنع فى القرن السادس من الميلاد ونصب فى بادامى مشخصاً وشنو وهو واقف على الأفعى أننتا ، فهذا التمثال مماثل لصورة بدهة البارزة الموجودة فى أمراوتى والتى صنعت فى القرن الخامس أو القرن السادس من الميلاد مشخصة إياه وهو قائم على أفعى أيضاً ، وفى غيا زرت معبداً برهمياً معروفاً بوشنوپد (معبد قدم وشنو) حيث يعبد القوم ما يزعمون أنه أثر قدم وشنو كما يعبد البدهيون أثر قدم بدهة ، فأمر مثل هذا يدل على اختلاف الأسماء للشىء نفسه ، وهو ما تعد أمثاله بالألوف فى الهند .

وبرمانية الخ . وهي إذا كُتِب لها بقاء في الهند فليكون ذلك في أقصى حَدَّيْها فقط، أي في نيبال شمالاً وفي سيلان جنوباً .

وترى كتبَ الهندوس صامتةً صمتاً تاماً عن توارى البُدَّهية عن الهند ، وعُزِى ذلك حتى الآن إلى ما افتُرِض حدوثه من الاضطهادات الشديدة ، وإذا سلَّمْنا جَدَلاً بأنه يمكن التوفيق بين مبدأ تسامح الهنــدوس ومبدأ الاضطهادات الدينية وبأن الاضطهادات تُقَوِّض دعائم الدين بدلاً من تسهيل انتشاره خلافاً لما تؤكد حوادثُ التاريخ أمرَه وما إلى هذا من الافتراضات التي لا تُصَدَّق وجدنا أنفسنا تجاه المُعضِلة الآتية وهي : لماذا عزم فَجْأةً أمراء الهند ، التي كانت مقسومةً إلى مئة إمارة صغيرة، على الكفر بدين مارسه أجدادهم عِدَّة قرون وحملوا رعاياهم على اعتناق دين آخر ؟

أخذتُ أبصِر سبب تحول البُدَّهية فَوْرَ بحثي في مباني الهند ، ثم اتضح لي ذلك السبب حين زيارتي لنيبال ، فعلمتُ ، إذ ذاك ، درجةَ الأغاليط في الأسباب التي ذُكِرَت إلى يومنا لتفسير ذلك ، وبيانُ الأمر أنني درست أكثر مباني الهند المهمة بإمعام نَظَرٍ فانتهيتُ إلى النتيجة القائلة إن البُدَّهية غابت عن الهنـد لأنها صُهِرَت بالتدريج في الديانة التي خَرَجت منها .

والحقُّ أن ذلك التطور تمَّ ببطوء ، ولكن الذي جعل الباحثين يَرَوْن وقوعه بغتةً هو عَطَلُ الهند من تاريخ ، ومن ثمَّ وجودُ فواصل خمسة قرون أو ستة قرون يَتَعذَّر معها وَصْل ما بين تحولاتها ، فترانا إزاء ذلك في حال كحال علمـاء الأرض السابقين الذين كانوا يَرَوْن تحولاتِ طبقات الأرض وسكانها العظيمة ، لا ما بينها من الأدوار المتوسطة ، فيَعْزُون ذلك إلى الانقلابات المنيفة ، ثم تَقدَّم العلم فأثبت لهم أن هذه الانقلابات وليدةُ تطورات غيرِ محسوسة .

تُخْبِرنا دراسة ما فى مبانى الهند من النقوش البارزة والتماثيل بتاريخ تطور البُدهية، وتوضحُ لنا كيف أن مؤسس هذه الديانة الذى استخفَّ بجميع الآلهة أصبح إلهاً، وكيف أنه أخذ يظهر فى جميع المعابد بعد أن كنتَ لا ترى له صورة فى واحد منها، وكيف اختلط بالآلهة البرهمية القديمة مقداراً فمقداراً، وكيف أنه تحوّل إلى إله تابع، وكيف أن تلك الآلهة دَحَرَته فى نهاية الأمر.

وكان لا بدّ لى من الرجوع إلى القرن السابع من الميلاد أو اكتشافِ بلدٍ يتجلّى فيه الطور الذى كانت عليه الهند فى القرن السابع المذكور لإثبات نظريتى فى ذلك التحول وفى توارى البُدهية عن الهند، فوجدتُ أحد مُهُود البُدهية نيبالَ البلدَ الذى قاومت البُدهية فيه عواملَ التطور التى هدّدته فى كلّ مكان حين صاقبت البُدهيةُ البرهميةَ القديمة، فتجلى فيه الطور الذى اختلطت فيه البُدهية بالبرهمية من غير أن تذوب فيها، وفى معابد نيبال بلغت الآلهة الهندوسية والآلهة البُدهيــة من الاختلاط ما يتعذر معه، فى الغالب، تَبيُّن الدين الذى يقول بها، وهذا ما عرفه علماء الإنكليز الذين دَرَسوا شؤون نيبال من غير أن يستطيعوا تفسيره، وما رُئِىَ أنه من الألغاز عند عدم تفسيره بدراسة مبانى الهند القــديمة ظهر لى أنه ليس من الألغاز عند إنعام النظر فيها، فقد ثَبَت لدىّ أن اختلاط تلك الآلهة فى الهند حَدَث فى كلّ مكان من الهند فى زمانٍ ما، وزال عنى العَجَب من عَزْو علماء الهنــدوس قديمَ المعابد إلى إحدى الدِّيانتين تارةً وإلى الدّيانة الثانية تارةً أخرى.

و بمثل ذلك نفسر مايبدو غريباً فى الظاهر، وهو أمر إقامة معابد بُدهية وجَيْنِيَّة وبرهمية بعضها بجانب بعض فى أدوار واحدة، فإذا رَجَعْنا البصرَ إلى الطور الذى يوشك أن تمازج فيه دِيانتان سَهُل علينا أن نتَمَثَّل مَلِكاً يُوَزِّع الهِبات، غيرَ

مُحاب ، بين معابدهما كما كان يُوَزِّعُها أحد الملوك فى القرون الوسطى بين كنائس مختلف القدّيسين .

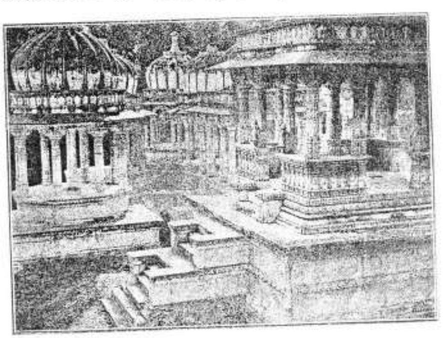
ولم يَنْتَهِ إلينا سوى ما قصّه الحاجُّ الصينىّ هيو ين سانغ الذى زار الهند فى ذلك الدور فرَوَى أن مَلِكاً هندوسياً وَزَّعَ العطايا بين البُدهيين فى اليوم الأول من عيدٍ ووزّعها بين البرهمية فى اليوم الثانى منه ، فذلك الدور الذى كانت فيه تانك الدّيانتان مُتوائمتَيْن هو الدور الذى سَبَق انصهارَهما فى دِيانة واحدة ، ومن السهل أن نتبيَّن الصورةَ التى تمّ فيها هذا الإدغام من البحث فى الدّيانة السائدة لنبيال فى الوقت الحاضر .

تاريخُ دخول البُدهية نبيالَ قديمٌ جداً، والقصةُ تقول إن بُدهة نفسَه جاءه، والأمر مهما يكن فإن أقدم المخطوطات البُدهية وُجِدَت فى أديار نبيال القديمة ، وفى القصة أن أشوكا الذى كان مَلِكَ مَغَدْها فى القرن الثالث قبل الميلاد حَجَّ نبيالَ ليزور معبد شَمْ بِهُونَاتِهِ ومعبدَ بَشُوبَتِى الخ . وفى القِصّة ، أيضاً ، أن الملك أشوكا هذا هو مؤسس مدينــة پَتَن التى تُعْرَف باسمها النيوارى لَلِيتا پَتَن فيُفْتَرَض أن أصل هذا الاسم مُحَرَّف من پتلى پُتْرا التى كانت عاصمة أشوكا فى الهنـد ، وغيرُ قليلةٍ المعابدُ المخروطة الشكل التى عُزِيَت إليه منذ القديم .

غدا نبيالُ ، إذَنْ ، مهداً من مُهُود البُدهية ، ولا تَزال هذه الدّيانة سائدة له منذ ألفى سنة ، وإذا حالت عزلةُ نبيال دون أفول البُدهية عنه ، كما أفَلَت فى بقية بلاد الهند ، فإنها لم تَحُل دون تَحَوُّلها فيه تحولاً مشابهاً للذى غابت به عن بلاد الهند تبعاً للمبدأ القائل إن العللَ نفسَها تُسْفِر عن النتائج نفسها ، ونبيالُ لما كان عليــه من الأحوال الخاصــة أخذت البُدهية تغيب عنه ببطوء ، ولهــذا البطوء

نستطيع أن نتصور ماذا كانت عليه البُدهية فى الهند فى القرنين السابع والثامن من الميلاد مع توارى النظم الرَّهْبانيّة القديمة عنه ومع عودة الكَهَنُوتيّة فيه إلى النظام الإرثى ومع رجوع الآلهة القديمة فيه إلى سلطانها السابق .

اليومَ تبدو البُدهية والبرهمية فى نيبال ديانتين مختلفتين اسماً كما بدَتا فى الهند



٧٢ ـ أوديبور . المقبرة الملكية

فى القرن السابع من الميلاد ، واليومَ تبدو تانك الدِّيانتان فى نيبال متسامحتين كتسامحهما الذى رأينا وجوده فى بقية بلاد الهندقبيل أفول البُدهية عنها للأسباب المعروضة آنفاً ، و بلغ هذا التسامح الذى يُفَسَّر بتشابه تينك الدِّيانتين من القوة ما كان به لأتباعهما معابدُ وآلهةٌ وأعياد مشتركة كما سنرى ذلك .

تفرِض البُدهية ، فى نيبال ، على أتباعها عبادةَ ثالوثٍ عالٍ ، بدلاً من أن

تسير مع المذاهب البُدهية الفلسفية فترى العالَم مؤلفاً من هَيُولَى أزليةٍ قادرة على التكوين ، وتُعَدُّ هذه الهَيُولَى آلهةَ التكون الوحيدة ، ويشتمل ذلك الثالوث على مُمَثِّل الروح آدِي بُودَّهة الذى هو الأصلُ وعلى ممثل المادة دَهرما وعلى ممثل المرئيات سنغها الذى هو نتيجة اتحاد الروح والمادة ، ورمزُ هذا الثالوث ، الذى يشابه الثالوثَ البرهميّ المؤلفَ من برهما ووِشنو وشِيوا ، هو مُثَلَّث ذو نقطة فى مركزه ، وهذا المركز هو رمز آدى بُودَّهة الذى عُدَّ العلةَ الأولى فى آخر الأمر .

وتجىء تحت ذلك الثالوث الأعلى الآلهة البرهمية القديمة : وشنو وشِيوا وغَنيشا ولَكشمى وغيرُه من الآلهة التى بَرَأها الكائن الأعلى لتسيطر على العالم ، وعلى ما تراه من هبوط هذه الآلهة من المرتبة التى قالت بها الدِّيانة البرهمية ظلت من رفعة المقام ما بَدَت به أهلاً ليعبُدَها البشر بأسْره .

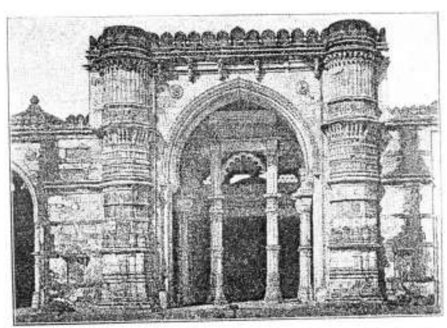
ولا تختلف مبادئ بُدهيِّ نيبال فى الروح البشرية عن المبادئ البرهمية القديمة بصورة محسوسة ، وعُدَّت هذه الروح ، كأرواح جميع الحيوانات ، صادرةً عن العلة الأولى آدى بُودَّهة راجعةً إليه بعد عِدَّة تناسخات ، والرجوعُ إلى العلة الأولى بعد هذه التناسخات ، أى الفناء فى آدى بُودَّهة ، هو الهدف الأسمى الذى يُؤْجَر به المؤمنون ، ويتوقف عدد هذه التناسخات وطبيعة هذه التناسخات على سلوك الإنسان فى حياته ، وتُعَيِّن أعمالُه مصيرَه .

وعُدَّ مؤسس البُدهية نفسُه ، كإخوانه الذين افْتُرِض ظهورهم قبله حاملين لاسم بُدّهة ، وَ ليًّا صَفَت جِبِلَّته بحَيَوات سابقة فأوشك أن يَصِل إلى الفناء الأسمى .

وأُنْشِىء أكثر معابد نيبال أهمية ، ولا سيما معبد شَمْ بُهُوناتهة ، تقديساً لآدى بُودَّهة ، ومُثِّل الثالوث البُدّهىّ (بدهة ودَهرما وسِنغها) فى تماثيلَ جالسة على

زهرةِ سدر، وفى هذه التماثيل يبدا بُدْهَة ذا ذراعين و بدا سِنْغها ودهرما ذوَى أربع أذرع ، ومن ذلك الثالوث يدَتْ دهرما وحدها ، إلاهةُ المادةِ ، على شكل امرأة .

ويجىء بعد الثالوث البُدْهى ، كموضوعات للعبادة ، صُوَرُ مؤسس البُدْهِيةَ وأسلافه من الآلهة والبشر ، ثم تجىء آلهة الهندوس : مَهَانْكَالُ مثالُ شيوا ، وكالى زوجــةُ شيوا ، و إندرا مَلِكُ السماء ، وغرودا الإله ذو الرأس العُصْفُوري ، وغَنِيشا الإلهُ ذو الرأس الفِيلىّ ، وآلهة الحكمة ، الخ . وهــذا الإله الأخير هو من أعظم الآلهة احتراماً وتجِد صورته فى مداخل جميع المعــابد ، و بعبادة هذا الإله البرهمىّ الخالص تُباشَر جميع الشعائر البُدْهِيةَ .



٧٣ ــ أحمد آباد . مقــدم المسجد الكبير (القرن الخامس عشر) (ارتفاع الجبهة : ١٣ متراً و ٥٠ سنتيمتراً) (أنشئت مبانى أحمد آباد المهمة المرسومة فى هذه الصورة وفى الصورة الآتيــة فى العصر الإسلامى على الطراز الهندى المعروف بالجينى ، وهى لا تختلف عنه إلا بما أضيف إليها من الأقواس والدقائق الثانوية وخلوها من التماثيل)

وانتحل بُدّهيُو نيپال الرمزَ الهندوسيّ مع تحريف مدلوله ، فهم قدعَدُّوه الرمزَ السّذْرِيّ الذى تجلى به آدى بُودّهة على صورة لهيب بدلًا من عَدّه رمزاً إلى قدرة شيوا على الإبداع .

وقد بُدِّل شكلاً مع ذلك ، فنُقِشَت أربعة وجوه لِبُدّهَة على جوانبه ، كما عَلَتْه زخارف بُدّهيّة .

ومما قلنـاه ترى درجة اختلاط بُدّهيّة نيپال بالبرهمية ، ولهذه البُدّهيّة أثر فى البرهمية كذلك ، فيُمَثَّل بُدّهَة فى المعابد التى أُنْشئت تمجيداً لشيوا ، ويَقْصِد أتباع كلتا الديانتين كثيراً من المعابد ذوات الآلهة المشتركة .

وما نشاهده من امتزاج تَيْنِك الدّيانتين فى المعـابد تجِد مثله فى الأساطير التى تَكْثُر فى نيپال ، وتَجِد مثل هـذا الامتزاج فى الأعياد الدينية التى يتعذر تمييز البُدّهيّ من البرهميّ فيهـا ، ويزور الحجيج معابد تينك الدّيانتين ، على السواء ، زيارةَ المؤمن المطمئن .

تلك هى حال البُدّهيّة فى نيپال فى الوقت الحاضر ، ويمكن الناقدَ البصـير أن يُبْصر منذ الآن انصهارها فى البرهمية قبل انقضاء قرنين أو ثلاثة قرون مستنداً إلى ما ذكرناه ، وقد يعزو السائح ، الذى يجهل فى المستقبل دور التطور الذى تُجاوِزه الآن كما جَهِل المؤرخون المعاصرون تطور البُدّهيّة السابق فى الهند ، أفولَ البُدّهيّة عن نيپال إلى شِدّة الاضطهاد مستشهدين بأطلال المعابد التى تستره إذ ذاك .

بَيْد أن السائح الذى أتَخَيَّل ظهوره فى المستقبل إذا لم يقتصر على درس بُقْعَة واحدة من بقاع الهند فسَبَرَ فَجابَ جميع أرجائها نَفَذَت مبادئ التطور الدينى نفسه فصانته عن مثل ذلك الخطأ ، فمن أجل هذا نرى أن تَقَصِّيَ الهند أفضلُ من مزاولة

كتب التاريخ بمراحل ، فالهند هي البلد الوحيد الذي يمكن الباحثَ أن يُبصر فيه عند انتقاله من مكان إلى آخر سلسلةَ التطور التي جاوزها البشر منذ عصور ما قبل التاريخ إلى الوقت الحاضر ، فبذلك الدرس الحيّ يطلع الباحث على التطورات السابقة التي اتفقت للنُّظُم والمعتقدات فلا تَنُصّ الكتب في الغالب إلا على أقصى وجوهها .

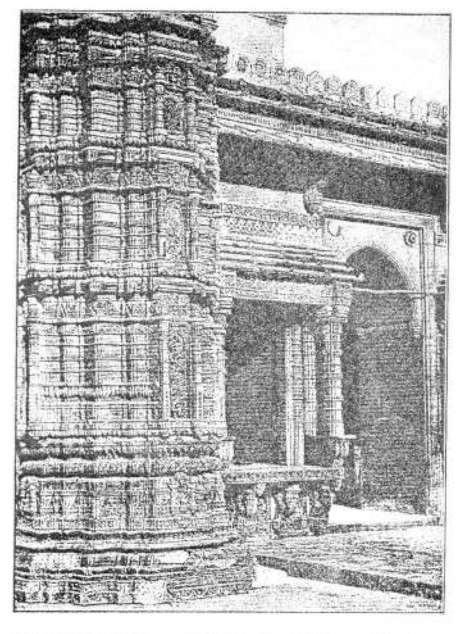
٦ — المذاهب الفلسفية في البُدْهيّة

نشأت مذاهبُ فلسفيةٌ موازية للبُدهية مشابهةٌ للتي ظهرت في العصر البرهمي ، وليس في هذه المذاهب ما هو مبتكر كما ألمعنا إلى ذلك ، وبعضُ كتبها إذ تُرْجِم إلى اللغات الأوربية وظُنّ أن البُدهية نفسها بين أضاميم ما تُرْجِم من هذه الكتب نرى من المفيد أن نُلَخّص روح تلك المذاهب تلخيصاً خاطفاً .

قامت تلك المذاهب على القول ببُطْلان ما في السماء والأرض ، فالموجوداتُ ليست إلا مظاهرَ وحوادث صائرةً إلى الفناء ، وهي تشابه الزَّبَد الذي يعلو الماء طَرْفَةَ عَيْن .

« فلا رجال ولا نساء ، ولا خَلْق ولا حياة ولا نَفْس ، فلا حقيقة لهذه الأشياء ، فهي وليدة الخيال ، هي مشابهة للوهم ، مشابهةٌ للرؤيا ، مشابهةٌ لكلّ ما هو مختلق ، مشابهةٌ لخيال القمر في الماء » .

ولا يَعْرِف هذا المذهبُ الفلسفيّ ، الذي لا عهد للأوربيين بمثل تَطَرّفه ، إلهاً خالصاً ولا إلهاً أقدم من العالم ، فالطبيعة ، بحسب هذا المذهب ، هي سلسلةٌ لا حدّ لها (أولاً وآخراً) من المواليد والحَرَكات والتراكيب والانحلالات الدائمة



٧٤ ـ أحمد آباد . مسجد الملكة فى ميرزاپور (القرن الخامس عشر من الميلاد) (دقائق الزخرف)
(يبلغ ارتفاع قسم المئذنة البادى على الصورة ستة أمتار و ٣٠ سنتيمتراً)

والعلل المتحولة التى هى معلولاتٌ والمعلولاتِ المتحولةِ التى هى عِللٌ والحوادثِ التى لا أولَ ولا آخر لها .

وفلاسفةُ البُدْهية ، بعد أن أنكروا مبدأ التكوين ، أنكروا مبدأ القضاء والقدر السائد لجميع الأديان اليونانية ، فلم يرَوْا وجودَ قَدَرٍ مسيطر على المخلوقات ، فمصيرُ كلِّ مخلوقٍ عندهم مَنُوطٌ بسَيْره ، والناموسُ الأدبىّ هو الذى يربط الحوادث بعضها ببعض ، والأعمالُ وحدَها ، أو نتائج هذه الأعمال ، هى الخالدة ، والمخلوق يمكنه بالفضل أن يَصِل ، بعد سلسلة من الموالد ، إلى نعمة العدم فلا يبالى بالدموع ولا بالآلام فيفنى فى نِرْوانا فلا تبقى ضرورة إلى تقمُّصه صوراً أخرى .



٧٥ — أحمد آباد . مسجد الملكة فى سارنغ پور
(القرن الخامس عشر من الميلاد)
(يبلغ ارتفاع قسم المئذنة الظاهر فى هذه الصورة خمسة أمتار و ٦٥ سنتيمتراً)

وفى كتب الفلسفة البُدْهية سلسلةٌ من التأملات التى تُثْبِت بُطْلانَ الأشياء ، فالبُدْهىّ ، بعد أن يَعْلُوَ مِنطقة الصورة والصلابة والخِلْقة ينتهى بتأمله إلى منطقة اللانهاية فى الفضاء ، والبدهىُّ بعد أن يَعْلُوَ منطقة اللانهاية فى الفضاء ينتهى إلى منطقة اللانهاية فى الذكاء ، والبُدهىُّ بعد أن يَعْلُوَ منطقة اللانهاية فى الذكاء ينتهى إلى منطقة العَطَل من

الموجودات ، والبُدهيُّ بعد أن يجاوز مِنطقة العَطَل من الموجودات ينتهى إلى مِنطقة العَطَل من الخيـالات وعدم الخيالات ، والبُدهيُّ بعـد أن يجاوز مِنطقة العَطل من الخيالات وعدم الخيالات ينتهى إلى مِنطقة الانقطاع عن الخيالات والإدراكات ، فهنالك يصبح محايداً تجاه الأفـكار ، محايداً تجاه إدراك الخيالات فيَعُود غيرَ ذى خيال، أى غيرَ مُؤكِّـد عدمَ الوجود لِما يَدُلّ عليه هذا التوكيد من الوجود ، فإذا ما بلغ هذه المرحلة الخالية التى ارتفع إليها « أضحى اسم بُدْهة كلمةً وأضحى بُدهة نفسُه وَهْماً أو طَيْفاً » .

وهذه المزاعم الفلسفية التى لا أمارى فى بُعد غَوْرها تَسُوق واضعيها ، فى بعض الأحيان ، إلى السفسطة ، والتوكيدُ أولُ ما يُجيب به فلاسـفة البُدهية عن جميع الأسئلة ، ثم يجيبون عنها منكرين ، ثم يجيبون عنها غيرَ مؤكدين وغيرَ منكرين، ومن ذلك أنهم يجيبون عن السؤال : « هل يوجد بُدهة أو لا يوجد بعد الموت ؟ » بقولهم : « يوجد بُدهة بعد الموت ، ولا يوجد بُدهة بعد الموت ، ويعود بُدهة غيرَ موجود بعد الموت ما دام غيرَ موجود بعد الموت » .

وبين الأوربيين مَن يَرَوْن ، مثل حَوَارِيِّ شاكَيَـه مونى أن العالم سيصبح بُدْهِيًّا ، وليس فيما يَرَوْن ما يتعذر وقوعه ، فاستنبطوا من تأملات فلاسفة البُدْهِيـة كتاب دِيانة ذا مَسْحَة عصرية فوافق عليه كاهن شرى بدا الأكبر بجزيرة سيلان ، ولا أقول مؤكداً إن هذا الكاهن الأكبر الذى استعصو به قد ألَمَّ به ، وإنما يُخيَّـل إلىَّ أنه يوافق على كتابِ دِيانة آخر مُسْتَنْبَطٍ من الـكتب البُدْهيـة مناقضٍ لذلك الـكتاب .

وذلك الكتاب الصغير إذ اشتمل ، بأسلوب واضح ، على ما يمكن استنباطه من رسائل الفلسفة البُدَّهية وكان مما رَضى به مذهبٌ بُدَّهِيٌّ مهمٌّ معروفٌ ببُدَّهية الجنوب فإننا نقتطف منه العبارات الأساسية الآتية :

« ٥٧ — ما هو النور الذي يُبَدِّد جهلنا ويُزيل جميع همومنا ؟ هو أن تعرف ما سَمَّاه بُدَّهة بالحقائق الأربع الكريمة .

« ٥٨ — ما هي هذه الحقائق الأربع الكريمة ؟ هي .(آ) بُؤْس الوجود — (ب) عِلّة البُؤْس أي إرواء الغُلّة التي لا تُرْوى لتَجَدُّدِها — (ح) هدم الرغبة — (د) وسائل هدم الرغبة

« ٦٥ — إلى أيّ شيء نَصِل عند إحراز النجاة ؟ نصل إلى نِرْوَانا .

« ٦٦ — وما هي نِرْوانا ؟ هي حالٌ يَقِف عند حَدِّها كل تحولٍ فتكون السكينةُ فيها كاملةً ما عَطِلت من الرغائب والأوهام والآلام وكلُّ ما يجعل الإنسان هَيُولاَنِيًّا ، والإنسانُ ، لكي يبلغ نِرْوانا لا بدّ له من أن يُبْعَث باستمرار ، فإذا ما بلغها انقطع بعثه .

« ٦٩ — وهل لحسناتنا أو سيئاتنا فعلٌ في الصورة التي نُبْعَث عليها ؟ أَجَلْ ، فالحكم العام هو أننا نبعث في حال حسنةعند ما تَثْقُل حسناتنا وأننا نُبْعَث في حال سيئة عند ما تَثْقُل سيئاتنا .

« ١٢٢ — وبأيّ شيء يختلف كهنة البُدَّهية عن كهنة الأديان الأخرى ؟ كهنةُ الأديان الأخرى يزعمون أنهم وسائطُ بين الله والناس لِيُعِينوا الناس على نَيْل الغفران ، وكهنة البُدّهية لايعترفون بالقدرةالإلهية فلايأْمُلون شيئًامنها ، ويجب عليهم، مع ذلك ، أن يَقضُوا حياتهم على مذهب بُدَّهة وأن يَهْدُوا الآخرين إلى الصراط المستقيم ، ويرى البُدّهيُّون أن الله ظِلٌّ عظيم قَذَف به خيال الجُهّال في الفضاء .

« ١٢٨ — وبأىّ شىء تختلف البُدّهيّة اختلافاً جوهريًا عن الذى يُسَمّى ديناً بالمعنى الصحيح ؟ بُدّهيّة الجنوب تُعَلّم الصلاح من غير إيمان بالله ، وتقول بدوام الوجود من غير الذى يُسَمّى الروح ، وبالسعادة من غير سماء ذاتية ، وبالسلامة من غير رسول مُنْقِذ ، وبالنجاة من غير طقوس وصلوات وتَوْبَة ووسطاء من الكهنة أو القديسين ، وإن شئت فقل بفَرْط الصّلاح فى هذه الحياة وفى هذه الدنيا .

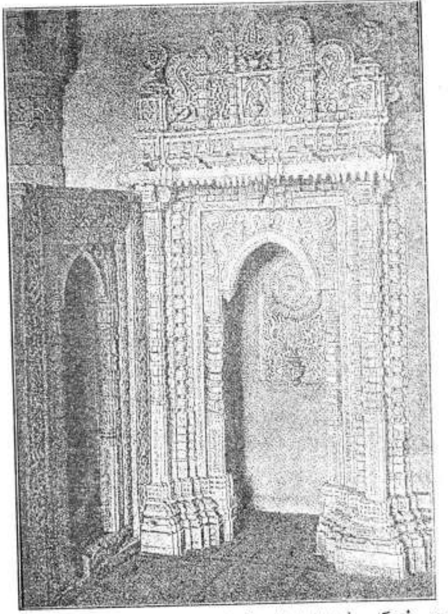
« ١٣٥ — أفتقول البُدّهية بخلود الروح ؟ يَعُدُّ مذهب الجنوب « الروح » كلمةً يُعْرِب بها الجاهل عن رأى خاطئ ، فإذا كانت الأشياء عُرْضَة للتغير وكان الإنسان شيئاً وجب أن يتغير كلُّ جزء منه ، فلا دوام مع التغير ، ولا خلود مع التحول .

« ١٣٦ — إذا طُرِح المبدأ القائل بالروح البشرية جانباً ، فما الذى يُوحِى إلى الإنسان بدوام وجوده ؟ الرغبةُ فى الحياة التى لا تُرْوَى لها غُلّة ، فالموجود ذو الرغبة الذى يصنع مايكافأ به أو يعاقب عليه فى المستقبل يتناسخ بتأثير كَرْما .

٧٦ ـ أحمد آباد ، مسجد محافظ خان (أقيم فى القرن الخامس عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع قسم المئذنة الظاهر فى هذه الصورة ١٢ متراً وسبعين سنتيمتراً)

« ١٣٧ — وما الذى يُبْعَث ؟ هو تَكَتُّل سِكَنْدَا أو شخصٌ جديد صادر عن تَنَضُّد الشخص الميت تنضداً أدبيًا .

« ١٤٤ ـ وهل تَكَتُّل سِكَنْدَا الجديد هذا أو هذا الشخص الجديد هو الموجود



٧٧ ــ أحمد آباد . المحراب الرخامى المنقوش فى المسجد السابق (يبلغ مجموع ارتفاع القسم المنقوش نحو ثلاثة أمتار)

السابق نفسُه ؟ نَعَمْ ، من جهةٍ ، ولا ، من جهةٍ أخرى ، ففى أثناء حياتنا الحاضرة تتبدل سِكَنْدَا تبدلًا تاماً فمع أن ابن الأربعين فلاناً هو الشخصُ نفسه أيام كان ابنَ الثامنة عشرة ، يُعَدّ غيرَه لِما اعتور جسمه وذكاءه وأخلاقه من التَّغَيُّر ، ويُجْزَى وهو شيخ ، مع ذلك ، بما عَمِل من الصالحات وما اجترح من السيئات وهو شابٌّ ، والشخصُ الجديد الذى يولَد إذ يولد مُتَقَمِّصاً الشخصَ السابق مع تبدل قليل فى الصورة أو يولد بتكتل سِكَنْدَا فإنه يحتمل نتائج أعماله فى حياته الأولى » .

وإننى حين أختم تلك المختارات أقول مكرِّراً إن البُدَّهِيَّة التى قامت فى الهند فى العصر البُدَّهِيّ فأفصحت عنها المبانى تختلف عن المذاهب الفلسفية المذكورة آنفاً ، وإن قرابة هذه من البُدَّهِيَّة دون قرابة النصرانية من الوثنية اليونانية الرومانية ، وإن البُدَّهِيَّة الصحيحة هى أكثر أديان الهند إشراكاً ما أضافت آلهةً جديدة إلى الآلهة البرهمية ، وإن البُدَّهِيَّة التى تنطق بها المبانى هى دِيانةٌ ، وإن البُدَّهِيَّة المذكورة فى الكتب التى وُضِعت بعد ظهور بُدَّهة بستمئة سنة على الأقل هى مذهبٌ فلسفىٌّ ، وإن ما بين تلك الدِّيانة وهذا المذهب من الهُوَّة العميقة مثلُ التى تَفْصِل التوحيد عن الإلحاد .

٧ — المجتمع البُدَّهِىُّ

من يُرِدْ أن يتبيَّن ما كان للأدب البُدَّهِى من الأثر الطيب فى المجتمع فَلْيَطَّلِعْ على مراسيم أشوكا ، فهو يجدها مملوءة بالتعاليم التى أريد بها سيادة الوئام والسلام والمحبة بين الأنام ، وليست تلك المراسيم شريعةً سياسية كما ظُنَّ فى أيامنا ، بل هى قوانين ذات صِبْغَة دينية أرادها ولىُّ الأمر المُحِبُّ لرعاياه ، لِما فيها من

البساطة والحسن وبذر الحبِّ للآلهة وجميع المخلوقات .

وتختلف مراسيم أشوكا عن شرائع مَنُو فى ثلاثة أمور ، وهى :

١ — حبُّ الخير العام الشامل للحيوانات أيضاً وحَظْرُ ذبح هذه الحيوانات .

٢ — روحُ المساواة التى دُعِى بها جميع الطوائف إلى سماع الوعظ الدينىّ والفوز بوعوده .

٣ — التسامُح الذى يُرَى معه أن فى كثرة المذاهب الدينية سيرَ البشرية إلى الكمال المطلق فيوجب احترامَها جميعها .

كانت الحيوانات محلّ احترام فى المجتمع البرهمىّ لتجلى الروح العليا فيها بعضَ التَّجَلِّى أيضاً ، ولأنها صُوَرٌ لآدميين تَقَمَّصوا فيها ، فى الغالب ، بسبب آثامهم ، بَيْدَ أنه كان لا يُرَى كبيرُ حَرَجٍ فى قتلها ، فكان الصيدُ من وسائل تَسْلِية الملوك والأكشترية ، ثم وضع أشوكا حدًّا لذلك فجاء فى مرسوم له ما يأتى :

« أجَلْ ، إن مئات الحيوانات تُذْبَح فى كل يوم لأغراض محمودة وإن من الجائز ذبحها لغاية مفيدة ، ولكنْ تَبَيُّن النيَّة والغاية إذ يبدو صعباً فإن من الخير أن يُكَفَّ عن ذبحها ، ومن ثَمَّ يجب ألَّا يذبحَ حيوانٌ فيما بعد » .

واتُّخِذت وسائلُ لبلوغ رَفَاهِيَة الحيوانات والآدميين ، فجاء فى تلك المراسيم :

« ستُنْقَل الأعشاب والأشجار المثمرة التى تفيد الناس والحيوانات وتُزْرَع فى الأماكن التى لا تَكْثُرُ فيها ، وستُحْفَر الآبار وتُغْرس الأشجار فى الطرق العامة ليستفيد منها الناس والحيوانات » .

وفى البرهمية الأولى نَصٌّ على أن الناس يُولَدون مرَّتَيْن ، والطوائفُ الثلاث

الأولى وحدَها هى التى كانت تُدعى للتمتع بنِعَم الدين وسماع المواعظ ، فكان يُصَبُّ فى أُذُنَى الشودرىّ الذى يستمع إلى وعظ بَرْهَمِىّ أو إلى قراءة الكتب المقدسة زيتٌ حارٌّ ، فإليك ما قاله أشوكا فى ذلك :

« سيَعِظ الواعظون البراهمةَ المحاربين والسائلين والمحرومين وغيرَهم من غير عائق ، ليُدْخِلوا السرور إلى من يريد ويَحُلُّوا وَثاق من هو مُوثَق ويحرروا كلَّ أسير ، وسيحمِل الواعظون جوامعَ الكَلِم ومبادىء البرِّ إلى إخوانى وأخواتى ويَشُدُّوا أَزْر كلِّ تقىّ وينقذوا كلَّ شقىّ فى أرجاء دولتى » .

وفى مراسيم أشوكا أروعُ مبادىء التسامح ، فقد جاء فيها :

« يقوم أصل مذهبنا وجوهره على أن تتبعَ دينَك ولا تَسُبَّ دينَ غيرك أو تَحُطَّ من قدره ، وأن تحترم الأمور الدينية مع ما بين العقائد من الاختلاف لِما فى ذلك من زيادة إيمانك ونموّ يقين غيرك ، ففى كلِّ دينٍ نواحٍ طيبة يَحْسُن التمسك بها ، ولا شىء ، عند الآلهة المحبوبة ، يَعْدِل زيادةَ الإيمان ونموّ الكمال الذى هو هدف جميع الأديان » .

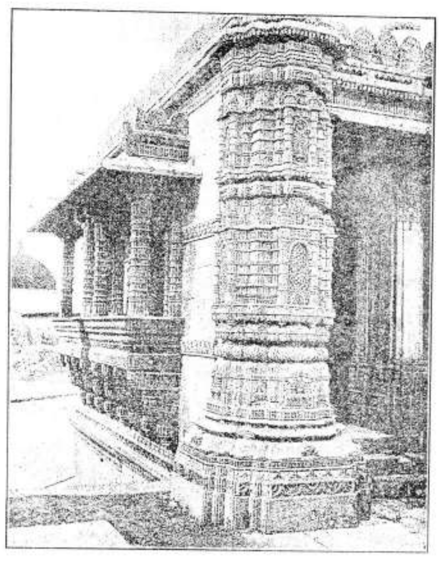
ولم تَبْق البُدهية ، على ما يظهر ، دينَ الدولة زمناً طويلاً كما كانت فى عهد أشوكا ، فلم يَكَد قرن واحد يمضى على وفاة هذا الملك حتى رَجَع بعض خَلَفه إلى البرهمية ، وظَلَّت البُدهية ، مع ذلك ، دينَ الشعب المسيطر فى ستة قرون أو سبعة قرون ، فكانت زاهرة حينما ساح الحاجُّ الصينىّ فاهيان فى الهند من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤١٤ بعد الميلاد ، ثم زار الحاجّ الصينىّ هيوين سانغ الهندَ بعد ذلك التاريخ بقرنين فأبْصَر الانحطاط الذى آلت إليه البُدهية وشاهد فى كلّ مكان

هَجْرَ الناس لمعابدها وأديارها وتداعىَ هذه المبانى ، فلما انقضى ألفُ سنة على عهد أشوكا كانت البرهمية قاهرةً للبُدهية نهائياً ، وكانت البُدهية غائبةً ، كديانة ، عن الهند ، ولم تكن البُدهية لتأفُلَ كمبدأ أدبىّ ، فلا تزال ذاتَ نفوذ إلى أيامنا ، وهى التى أوجبت ظهور البرهمية الجديدة التى هى دِيانة الهندوس الحاضرة فندرسها فى الفصل الآتى .

والحاجُّ الصينىّ فاهيان ذلك قد قام برِحلته فى الهند بعد الميلاد بأربعة قرون ليزورَ الأماكن المقدسة التى وُلِد فيها بُدهة وعاش وامتُحِن ووَعَظَ ، وليُباحثَ أئمةَ البُدهية ويَنْسَخ الكتب المقدسة .

كانت البُدهية فى تلك الأثناء بالغة ذِروتها ، فكان البِنجاب ووادى الغَنْج زاخرَيْن بالأديار التى يَقصِدها ألوف الرهبان ليتعلموا فيها أسرار الدين ويتبتَّلوا إلى التأمل العميق الدائم قبل أن ينعَمُوا بنِرْوَانا ، وتلك الأديار كانت تقوم على صدقاتِ المؤمنين وهِبات الملوك ، وكانت مركزاً للمعرفة ومقراً لحل المُعضِلات ، وكان يسودها صمتٌ زهدِ فيَتِمّ الأمور اليومية فيها بنظام مطلق ، وفى تلك الأديار حَلَّ فاهيان ضيفاً فوجد ثلاثة آلاف راهب يسكنونها فيجتمعون حول الموائد من غير أن يُسْمَع لهم صوت ولآنيتهم رِكْزٌ فقضى العجب من وقارهم وحيائهم واتّزانهم .

وظهرت عِدَّةُ مذاهبَ يمكن ردّها إلى فرقتين ، فرقةِ المحمل الكبير وفرقةِ المحمل الصَّغير ، فتُمَثِّل الأولى الفلسفة البُدهية وتُمَثِّل الثانية أدبها ، وكانت الأساطير توضع وتنمو ثم تصبح من أصول الدين ، وكانت الطقوس تُنَظَّم والأعيادُ والمواكب تَزِيد وكانت الصور والذخائر والزهور والعطور تُجَسِّم فى هذا الفضاء الذى يتعذَّر على العامة أن تتخيله ، فكان بذلك قيام الفلسفة البُدهية .



٧٨ ــ أحمد آباد ، مسجد رانى سپرى ، دقائق زخرفية (القرن الخامس عشر) (يبلغ ارتفاع القسم الظاهر فى الصورة أربعة أمتار وخمسين سنتيمتراً)

وإذا نظرت إلى البُدهية من ناحية الدستور الاجتماعى والطبائع رأيتها تتجلى فى تخفيف الآلام وتقليل الضرائب وتسهيل العلائق ونشر السعادة وتعميم السلام بما يلائم طبيعة الهندوسى.

أجَلْ، ظلت الطوائف باقيةً مختلفة عملاً كما فى الماضى، ولكنها بدَت متحدة تسامحاً ورِفقاً، فكُشِفَت الكروبُ وأُنشِئت المشافى وأُقيمت المرابط رمزاً إلى الإخاء الذى يَجمع بين جميع الموجودات.

ومُقوِّمات المجتمع الهندوسىّ تلك، وهى التى أبصرها فاهيان، هى التى تَسُود جميع الأقطار البُدهية، وقَرَّت فى الهند بفعل البرهمية التى نهضت بعد زمن فكانت خاسرة لِرَوْعَتها الأولى حينما أتمّ هيوين سانغ حَجَّه فى القرن السابع من الميلاد، وكان النصرُ لِمُنْجهية البراهمة على مبادئ البُدهية القائلة بالمساواة، وما قام به هؤلاء من مكافحة البُدهية كان يعود عليهم بالفائدة، وما فى الشعوب، ولا سيما الشعب الهندوسىّ، من احتياج إلى الآلهة الشخصية المنظورة جَذَب الجموع إلى الدين القديم بالتدريج، فأسفر ذلك عن خراب المعابد والأديار البُدهية فى كثير من الولايات وأخذ بُدهة يحتلُّ فى المعابد مكاناً دون مكان وشنو وشِيوا، وأضحت عاصمة البُدهية السابقة پاتلى پوترا خَرِبة، وصار المكان المقدسُ بُدهه‌غَيا نفسُه لا يأوى إليه سوى البراهمة.

وتطوراتٌ كتلك حَدَثت فى النظام الاجتماعىّ، فبعد أن تكلم فاهيان عن حرية الزراع وقلة ما كانوا يُؤْتونه من الضرائب فى زمانه رَوَى هيوين سانغ أن

مقدار الخراج الذى أخـذوا يؤتونه واحدٌ من ستة أى مثلما كانـ فى زمن مَنُو لا ريب .

وظَلّت العقوبات خفيفة مع ذلك ، وكان يُصار ، فى الغالب ، إلى الماء والنار والسُّم فى الابتلاء ، كما كان يُصار إليه فى محاكاتنا الإلهية فى القرون الوسطى .

وأثنى هيوين سانغ على أخلاق الهندوس فأعجب بشرفهم وبما نشرته البُدهية من الرِّفق والمحبة بين جميع طبقاتهم ، فذكر ، على سبيل المثال ، الأفراح العامة التى كانت تجمع بين ألوف الآدميين من جميع المذاهب والطوائف فيُوَزِّعُ الملك فى أثنائها العطايا السَّنِيَّة على الجميع ، لا فَرْقَ فى ذلك بين البراهمة والشودرا ، و بين البُدهيين والملحدين .

ولـكى يُجيد هيوين سانغ الاطلاع على الفلسفة البُدهية أقام خمس سـنوات بدير نَالَنْدَا الذى كان أشهر أديار الهند فـكان يَضُمُّ نحو عشرة آلاف راهب ، ثم جاب هذا الحاجّ الصينىّ الهنـــد فوَصَل إلى سيلان ، ثم قطع الهند ثانيةً راجعاً إلى بلاده فـكانت الرِّحلة التى قام بهـا كالتى قام بها فاهيـان فيما مضى تقريباً .

وأخذ نجم البُدهية يأْفُلُ عن الهند بسرعة منذ ذلك الدور ، أى منـذ القرن السابع من الميلاد ، فلم يلبث أن غاب عنها تماماً ، فـكانت المعابد البُدهيـة التى أقيمت فيها بعد القرن السابع قليـلةً جداً ، ومن الأسباب التى أوجبت ذلك الأفول عن الهند كَثْرةُ الفِرَق التى انقسمت إليها ، فَعَدَّ هيوين سانغ ثمانىَ عشرةَ فرقةً منها فَشَبَّه حماستها فى مجادلة بعضها لبعض بأمواج البحر ، ونرى البُدهية فى هذا

القرن التاسع عشر، كذلك، بعيدةً من الوصول إلى وَحْدة العبادة والمذهب، فنجد فرقتين كبيرتين : إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب تزْعُم كلٌّ واحـدة منهما أنها على الحقّ وأنها حافظةٌ لِتُراث بُدهة .

والآن نذكر فى بضعة أسطر المبادىء الأساسيةَ التى يمكن استخراجها من هذا الفصل فنقول :

إن البُدهية الأولى لم تكن ديانةً جديدة ، بل كانت طوراً من البرهمية التى لم تختلف عنها بسوى أدبها ، وإنه نشأ بعد ظهور البُدهية بزمن طويل مذهبٌ فلسفىٌّ نشوءاً موازياً لها ، وإن أدب البُدهية يرجع إلى أوائلها ، فيلوح لنا أنه نتيجة آلام البشر ، وإن بدهة كان أحدَ أكابر المعتكفين الذين هَزَّ صوتهم الدنيا هَزّاً عنيفاً لتقمّصهم آمال الجنس .

وإن جذور الفلسفة كانت ساخنةً فى تراب أقدمَ من ترابها ، وإنهـا ظهرت حينما كان زُهَّاد البرهمية المتهوكون المهزولون يُفـكِّرون ساكنين تحت الأشجار فكان الفناء مثلَهم الأعلى قبل ظهور بُدهة .

وإن البُدهية إذْ لم تـكن ديناً، وإن العالم إذ كان عاطلاً من أىّ شعب يستغنى عن دين ، استردّت البرهميةُ سابقَ منزلتها ، وتَمَّ لها النصر بعد أن أخذت البُدهية تتحول إليها ، وإن البُـدهية التى يَدين بها اليومَ خمسمئة مليون من البشر ليست ، بالحقيقة ، سوى طور من البرهمية غيرِ قريبٍ من مثالها الأول لنشوئها بعيدةً من العالم البرهمىّ أى من العالم الهندوسىّ ، وإن الفروق زادت مع الزمن باختـلاف

العروق التى اعتنقتها ، و إن هذه الفروق تَتَدَرَّج إلى الزوال لدى العرق الذى لاحت له البرهمية ولاح له إصلاحُها .

ولا يمكن الافتراضَ القائلَ إن الاضطهادات العنيفة هى التى أدَّت إلى توارى البُدهية عن الهند أن يَقِف أمام الوثائق التى عرضناها فى هـذا الفصل ولا أمام ثبوت الحماسة الغريزية التى صدرت البُدهية بها عن البرهمية وثبوتِ تطور النفوس البطىء الذى عادت به إليها

الفصل الرابع

حضارة العصر البرهمي الجديد

وصف المجتمع الهندوسيّ حوالَى القرن العاشر من الميلاد

---

(١) العناصر التي يستعان بها في بعث العصر البرهمي الجديد — غموض تاريخ الهند فيما بين القرنين الثامن والثاني عشر — مباني ذلك العصر وكتاباته وأساطيره — الوسائل التي يستعان بها في بعث حال المجتمع السياسية والاجتماعية في ذلك العصر — (٢) المجتمع الهندوسي حوالى القرن العاشر من الميلاد — بلوغ الفن الهندوسي غايته — وصف مدن الهندوس الكبيرة في القرن العاشر — حياة سكانها — شأن الحليلات — أعمال الملوك والأمراء — دين الأهالي — (٣) نظام ممالك الهند الآرية السياسي والاجتماعي حوالى القرن العاشر من الميلاد — راجبوتانا هي البلد الهندي الوحيد الذي حافظ على نظامه السياسي والاجتماعي القديم — أوجه شبه ظاهرة بين هذا النظام والنظام الإقطاعي — الفروق الأساسية الحقيقية بينهما — الزمن الراجبوتية — ظهورها — الأسرة الراجبوتية — الطبائع والعادات.

---

١ — العناصر التي يُستعان بها في بعث العصر البرهميّ الجديد

يبدأ العصر الذي نصفه الآن حوالَى القرن الثامن من الميلاد أي حين توارت البُدهية عن الهند تقريباً ، فالبُدهية ، بعد أن سيطرت على الهند ألف سنة ، خسرت سلطانها على النفوس ، فماتت ، فكان موتها دليلاً على تبدل المجتمع ، و برهميةُ القرون الأولى هي التي حلّت محلّ البُدهية ، ولكن مع ما اعتورها من تطور بالغ بفعل تلك البُدهية .

وفى العصر الذى انتهينا إليه كان النظام السياسىّ الذى أعان على انتشار البُدهية، أى على اتحاد مُعْظم الهند تحت سيد واحد ، قد زال منذ زمن طويل ، فقد انقسمت الهند إلى دويلات كثيرة مَلَكِيَّة مطلقة مستقلة متناجزة فى الغالب .

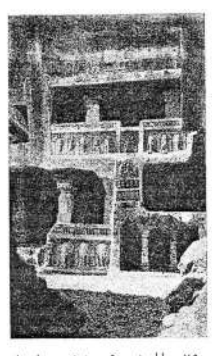
وتاريخُ العصر الذى ندرسه فى هذا الفصل فيمتدُّ من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر بعد الميلاد ، أى الذى دام منذ أفول البُدهية إلى دور المغازى الإسلامية، من أكثر التواريخ غموضاً ، فلولا ما وصل إلينا من مبانيه التى تنطق بعظمة الممالك التى ازدهرت فيه ما علمنا من أمره إلا قليلاً ، والمبانى الخَرِبة و بعضُ الكتابات والنقود والكتب الأدبية التى لا يُعْرف تاريخها هى كلّ ما بَقِىَ من وثائق ذلك العصر ، وهذه الوثائق تكفى ، مع ذلك ، لإثبات أن ذلك العصر الجديد ليس أقلّ ازدهاراً من الذى جاء قبله .

إذَنْ ، وثائقُ بعث المجتمع الهندوسى حوالَى القرن العاشر قليلةٌ جداً ، وهى تؤدى، مع ذلك ، إلى رسم خطوط الحضارة التى ندرسها فى هذا الفصل .

وما تُمْلأُ به الهند من المبانى العجيبة ، فلا يُقاس به ما أُنْشِىء فى القرن الأول من الميلاد ، هو أهمُّ وثائق ذلك العصر ، فقد رأينا فى الفصل السابق درجة وضوح هذه الكتب الحجرية التى تبدو صفحاتٍ هائلةً فوق أرض الهند ، فبهذه المبانى نستطيع أن نَقِف على ما اعتور أديان الهند من التطور البالغ .

قامت المتقدات الجديدة التى نبحث فيها الآن على أساس المبادىء القديمة التى تغَلَّبت عليها البُدهية عدة قرون ، نَعَمْ ، بُعِث الدين القديم ، ولكن مع تبدل عميق بفعل البُدهية من جهةٍ و بفعل روح الأجيال الجديدة من جهة أخرى ، وهذا الدين

الذى نسميه « البرهمية الجديدة » هو الدين السائد اليوم ، وهو الدين الرسمىّ لمُعظم الهند الحديثة على الدوام ، وهو وإن حوّلته الأفعال لم تتبدّل أصوله ، ونحن ، حين ندرس هذه الأصول كما تبدو لنا اليومَ ، نتمثل ما كانت عليه منذ ثمانية قرون على وجه التقريب .

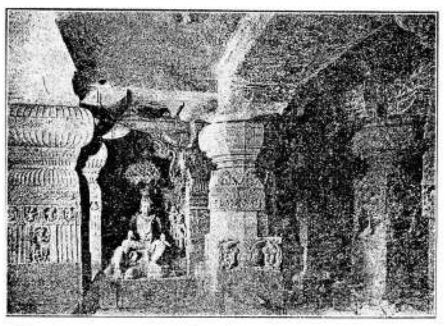


٧٩ — إيلورا . قسم من مقدم معبد إندرا المصنوع تحت الأرض (فى القرن السادس من الميلاد) (يبلغ ارتفاع مجموع المقدم ١١ متراً و٢٠ سنتيمتراً)

نتبيّن دينَ ذلك العصر بدرجة الكفاية بما انتهى إلينا من المبانى والكتب إذنْ ، وبالمبانى نطّلع على حال الحضارة الهندوسية فى القرون التى مرت قبل الفتح الإسلامى ، ومن دواعى الأسف أنها لا تفيد كثيراً فى استخراج نُظُم ذلك العصر الغامض السياسية والاجتماعية ، وهو الذى نُسِجَت فيه شبكة ما فى الهند من العادات والمعتقدات التى لا تزال تكتنفها .

وإذا كنا لا نستجلى نُظُمَ المجتمع الهندوسىّ السياسيةَ والاجتماعية فى ذلك العصر بما لدينا من المبانى والكتب لم يَبْقَ لنا ، لبلوغ ذلك ، سوى البحث عن بُقعة فى الهند صانت نفسها ، لعزلتها ، عن المؤثرات الأجنبية فحافظت على النظام القديم، من غير تغيير كبير .

ومن حسن الحظ أن وُجِدَت تلك البُقْعة فاستطعنا أن ندرس نظامَها فى زمن أوشك أن يَغيب فيه ، فإذا عَدَوْت بعضَ أجزاء الدَّكَن التى تسكنها عروقٌ متأخرة لم تَرَ فى جميع الهند سوى بُقْعة واحـدة تَفَلَّتت بفضل موقعها الجغرافى من المؤثرات الأجنبية فحافظت على نُظُمها وعاداتها القديمة وما فُطِر عليه أهلوها من خُلق الحرية



٨٠ — إيلورا . داخل المعبد السابق المصنوع تحت الأرض (يبلغ ارتفاعه مترين و ٦٠ سنتيمتراً)

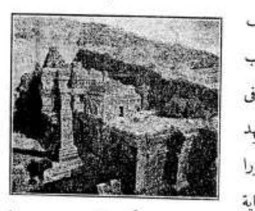
والاستقلال ، وتلك البُقْعة هى المنطقة الجبلية الواسعة التى نَصِفُها باسم راجپوتانا ، وتلك البُقعة هى البلد الهندىُّ الوحيـد الذى لا يزال يملكه حَفَدة قدماء الملوك ولا يزال مُمْسِكاً بتلابيب النُّظم الأولى وآثار الماضى مع تعاقب القرون ، ونحن ، إذ ندرس هذه النُّظُم كما تبدو اليوم للباحث نَتَمكّن من رسم صورة صادقة عن نظام ممالك الهند التى كان يسكنها أهلون من الآريين حوالَى القرن العاشر من الميلاد .

٢ — المجتمع الهندوسيُّ حوالَى القرن العاشر من الميلاد

يمكننا أن نقيس الحضارة الهندوسية التى دامت من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر بعد الميلاد بالحضارة الأوربية فى أواخر القرون الوسطى ، وذلك عند النظر إلى المبانى العظيمة وبعض الكتب الأدبية التى انتهت إلينا من ذلك العصر ، فقد بلغت الفنون حينئذٍ دورَها الزاهر فى الهند ويمثل ماشيد فى كهجورا وجبل ابو وغيرهما من المبانى العجيبة التى ندرسها فى مكان آخر ما أسفر عنه الفنّ القوطىّ من الآثار الجميلة ، ولن تقوم آثارٌ رائعة كتلك إلّا فى مجتمع غنىٍّ مُهَذَّب مُقدِّر للفنون مشتملٍ على فريق من كبار المتفننين ، وليس بمجهول لدينا تاريخ مبانى ذلك العصر ، وهى كثيرة فى شمال الهند وراجپوتانا وشواطىء أوريسة ، وتؤلِّف أصدقَ ما لدينا من الوثائق عن ذلك العصر ، وما وَصَل إلينا من كتب ذلك العصر الأدبية من أشعار وروايات فجديرٌ بالذكر ، وإن كان من الحَذَر الحسن ألا يُستَند إليها كثيراً لتعذر معرفة الزمن الذى صيغت فيه فى الغالب : أهو نحوُ سبعة قرون أم نحو ثمانية قرون ، ولكننا إذا علمنا أن الأمور تتبدل فى الهند قليلاً وأن مُضِىّ القرون فيها كمُضِىّ السنين فى سواها أمكننا أن نقتبس من تلك الكتب بعض المعارف العامة التى نُكمِلها بوثائقَ أصدق منها .

وعلى ما نقوله ، تقريباً ، من أن القصائد الحماسية الهندوسية الكبيرة المعروفة بالرامايانا والمهابهارتا هى وليدةُ كلّ دور ما صُحِّحت وأكملت بما أضيف إليها فى غضون عشرة قرون نرى أصلها أقدمَ من الميلاد وأنها لا تصلح جيداً لاستنباط المعارف التى تُطَبّق على العصر الذى ندرسه فى هذا الفصل ، وكلّ ما نرى الاعتماد عليه فى

هذا المضمار هو القِطَع التمثيلية التى تُعَدّ كاليداسا وسُدْراكا أهمَّها ، ولا نعرف تاريخ هـذه القِطَع التمثيلية بالضبط ، ويلوح لنا ، مع ذلك ، أنها وُضعت بعد القرن الأول من الميلاد وقبل القرن العاشر من الميلاد ، وإذ إن ما يُسْتنبط منها لا يختلف عما يُسْتنبط من المصادر الأخرى نقتصر على اقتباس وصف موجز لإحدى المدن الهندوسية الكبيرة وللمجتمع الهندوسىّ ، وهذا الوصف يوجد فى رواية سُدْراكا «مركبة الصَّلْصال[1]» التى تَمُرُّ من أوجَّين عاصمة مالوا ذاتِ المبانى الخَرِبَة فى الزمن الحالىّ ، وما جاء فى تلك الرواية من وصف القصور والبيوت والمعابد يَقْضى بالعجب وينال الباحث منه الأرَب ، وليس فى هذا الوصف ما يُوصَم بالمبالغة ما شَهِد به من زار مبانى غواليار وكهجورا وجبل آبو ، فقد رَسَم واضع تلك الرواية أمامنا ، بوصف ساحر ، صورةَ قصرٍ



٨١ — إيلورا . معبد كيلاسا المصنوع من حجر واحد (القرن الثامن من الميلاد) *

رُخامى مُرصَّع بالحجارة الكريمة ذى رِدَاه مُجَهَّزة بصفائحَ ذهبيـة مُوَشَّاة بالألماس

(١) الصلصال : الطين اليابس الذى يصل من يبسه أى يصوت .

* بما أن معبد كيلاسا هو أشهر معابد الهند فدرسه فريق كبير من علماء الآثار رأينا أنه لا طائل من قياسه ظانين أننا نجد أبعاده فى كتب كثيرة ، ومن دواعى الأسف أن وجدنا اختلافاً كبيراً فى ذلك بين هذه الكتب فلم نستطع أن ننتفع بها ، وأما أبعاد المبانى التى ذكرناها فى هذا السفر فقد استعنا فى الحصول عليها بآلات حديثة وصفناها فى مذكرة خاصة عنوانها « الهند الأثرية والمناهج» فلا يعدو الخطأ الذى تستغرقه هذه الآلات بضع سنتيمترات ، فهذه الأبعاد إذ تنال بها آلياً يجتنب بها ما تؤدى إليه القراءة والحساب من الأغاليط الناشئة عن الطرق المعتادة التى لا يستفاد منها ، مع ذلك ، فى قياس الآثار المحاطة بالأبنية المائلة من قياس الأساس .

وذى قناطرَ من العاج المنقوش وذى جُدُر محاطة بحدائق وأزهارٍ زاهية مشتملة على متسكآت مُظَلَّلة ، وحدثنا عن معابدَ رائعةٍ منعكسة على مياه النهر مشتملة على محاريبَ حافلةٍ بالأسرار عامرة بكاهنات سافرات ذواتِ كعوبٍ ومعاصمَ محاطةٍ بخلاخلَ وأسْوِرَة من ذهب وفضة تجلجل باتزان عند ما يرْقصن أمام الآلهة بانسجام .

ومن أزهى دور تلك المدينة دارُ الخليلة الكبرى وسَنْت سينا التى كانت من أهمّ وجوهها ، وقد كان للخليلات فى ذلك العصر من الشأن العظيم مثلُ ما كان لهنّ فى عصر بريكليس اليونانى ، ومن ينعم النظر فى الخلاصة الآتية التى أقتبسها من رسالة لمسيو سوبه فوُصِفَت فيها تلك الدار يَعْلَم ضُؤولةَ نفائس الخليلات فى زماننا إذا ما قيست بها .

« فى تلك الدار ردَاهٌ ثمانٍ وفُسَيْفِساءُ رائعةٌ ، وزرابىُّ[1] لامعة وحنايا[2] مُرَصَّعة بالعاج ومُزَيَّنة بالرايات ، وعَمَدٌ تعلوها آنيةٌ من بِلَّوْر ، وصفائحُ من الإبريز[3] ساطعةٌ ، وقِبابٌ مُزَيَّنة ، ومعارجُ[4] رُخامية ، ومنافذُ ذواتُ قلائدَ من لؤلؤ ، وفى أصابل[5] تلك الدار بَقَرٌ وجواميسُ وكِباشٌ وخيلٌ وقِرَدَةٌ وفِيَلَة ، وفى تلك الدار موائدُ قِمارٍ ليجلس حولها صَفْوَة فُسَّاقٍ أُوجِّين ومطربون من كلّ نوع ومُغَنُّون وراقصات وممثلون وقَاصُّون ممتثلون لأوامر الخليلة الكبرى ، وفيها مطابخُ واسعة عامرة تذكِّرُ النَّهِمَ مِقْرِيًا بجنة إندرا ، وفيها حوانيت للعطور ومصانعُ للحُلِيّ

---

(١) الزرابى : جمع الزربى والزربية : ما يبسط واتكئ عليه — (٢) الحنايا : جمع الحنية : من البناء ما كان منحنياً — (٣) الإبريز : من الذهب خالصه — (٤) المعارج : جمع المعراج وهو السلم والمصعد — (٥) الأصابل : جمع الإصطبل .

فيتألف منها سوق ، وفيها كتيبة من الخَدَم أو الإمّعين[١] الذين يتنادرون ويضحكون ويلوكون المِسْك ويَعْلُكون التَّنْبُل[٢] ويقْصِفون[٣] ، وفيها حياضٌ ذات مياه مزعفرة[٤] ، وفيها حظائرُ للطيور مُذْهَبة حيث تهتزُّ الببغاوات والزرازيق والطواطى والحِجْلان[٥] والسَّلْوَى[٦] والطواويسُ والإوَزُّ ، وفيها حديقة نَضِرَة عُلِّقت فيها أراجيح من حرير » .

والمجتمع فى أوجَّين ، كما فى زمن ميغاستين وفى زماننا ، قائم على نظام الطوائف ، والمِهَن فيه وِراثيةٌ ، ويتألف منها سِلْسِلة مُعَقَّدَة يرئسها البراهمة فى كل حين ، وتَجِد بين البراهمة زاهدين وتَجِد بينهم مُتْرَفين مسرورين ، وتَجِد بينهم هُوَاةَ الشَّهَوات والنساء الجميلاتِ من غير أن يُؤثّر هذا فى مقامهم .

ويكون ولىّ الأمر مَلِكاً مطلقاً على الدوام ، ولا شىء يُقيِّد سلطانه غير ما يُحاك حوله من المؤامرات التى تُهَدِّده بلا انقطاع فلا يستطيع حارسوه من الأكشترية أن يُحْبِطوها فى كلّ مرة ، ويظهر أنه كان يُحْكم بالعدل على ألا يكون أحد الخصوم قَوِيًّا ، فنى الهند ، كما فى أوربة ، يُقْضَى للقَوِىّ إذ ذاك .

وفى مقدمة تلك الرواية ، التى وُضِعَت بعد زمن ، ذِكْرٌ لأكثر المعارف اعتباراً ، فقد مُدِح فيها مَلِكٌ لاطلاعه على كتب الويدا والرياضيات والفنون الجميلة ومهارته فى تربية الفُيُول .

---

(١) الإمعون : جمع الإمع والإمعة وهو التابع لكل أحد على رأيه ــ (٢) التنبل : نبات من الهند يمضغ ورقه ــ (٣) قصف يقصف قصفا وقصوفاً : أقام فى أكل وشرب ولهو وأكثر من ذلك ــ (٤) زعفره : جعل فيه الزعفران ــ (٥) الحجلان : جمع الحجل وهو طائر فى حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين وهو يعيش فى الصرود العالية يستطاب لحمه ــ (٦) السلوى : طائر أبيض مثل السمانى .

وإذا لم نستطع أن نتمثل جيداً حياة الملك اليومية وكبار الأمراء الذين يقلدونه بحكم الطبيعة فى ذلك العصر من تلك الرواية فإننا نتمثلها من الأقاصيص الهندوسية الأخرى ، ولا سيما الأقاصيص ال ٣٢ المعروفة بأقاصيص « العرش المفتون » .

فالملك بعد أن يستيقظ صباحاً على صوت آلات الطرب يقوم بواجباته الدينية ويوزع الصدقات ثم يتمرن على استعمال السلاح ، ثم يجمع وزراءه ويدبر الأمور .

فإذا ما حلّ وقت الظهر صلّى وتغذّى وقال[1] ، ثم تنزّه فى حدائق القصر ذوات الظلال ، محاطاً بنسائه وبالراقصات مقتطفاً أزهاراً مترنماً متمايلاً فوق أرجوحة من حرير ، الخ .

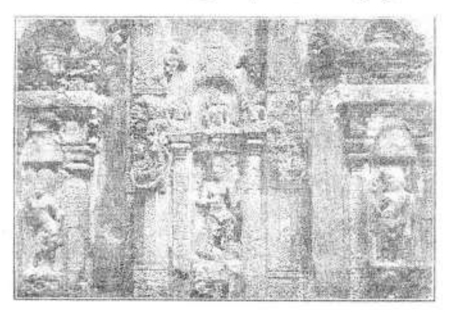
وإذا ما حلّ وقت المساء قام بالواجبات الدينية وتعشّى وتلهّى بضروب اللهو من غناء ورقص وموسيقى إلى أن يأوى إلى حريمه .

والبرهمية هى دين مدينة أوجّين الرسمىّ على حسب ما جاء فى رواية « مركبة الصّلصال » ، والبدّهية ، وإن وجدت حينئذ ، لم تكن غيرمذهب الرهبان السائلين ، أى كانت فى دور الأفول ، وفى هذا دليلٌ على أن تلك الرواية ليست من القدم فى الدرجة التى افترضت لها ، أى إنها وضعت حوالى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد ، ويلوح ، مع ذلك ، أن التسامح بين تينك الدّيانتين كان تامّاً .

على أننا لا نضطرّ إلى أىّ كتاب لتعرّف دين الهند حوالى القرن العاشر من الميلاد ما دامت معابد ذلك الزمن تخبرنا ذلك بوضوح ، فالبدّهية كانت آفلة وكانت البرهمية قائمة فى محلها ، وأضحى السلطان للآلهة التى كانت ثانوية فى العصر البرهمىّ الأول كشيوا ووشنو ، فاقتسمت هذه الآلهة المعابد ، وتنافس آلهة البرهمية ، مع ذلك ،

(١) قال : نام فى (القائلة) أى فى منتصف النهار .

آلهة المذهب الجيْنيّ القريب من البُدهية والذى مَثل ، على ما يظهر ، دوراً مهماً فى القرن العاشر كما تنطق به فخامة معابده ، وهذا مع القول إن المذاهب الثلاثة ، الجيْنيّ والشَّيُوِىّ والوِشْنيّ ، كانت على وئام وكانت متساوية فى المرتبة لما تدلّ عليه أطلال كهجورا من تماثل معابد هـذه المذاهب الثلاثة التى أُنشِىء بعضها بجانب بعض كالكنائس التى أُقيمت فى أوربة تمجيداً لضروب القديسين .



٨٢ ـ إيلورا . دقائق قسم من نقوش معبد كيلاسا

ولا نُسْهِب الكلامَ فى الدين الهندوسىّ فى القرن العاشر من الميلاد ، فبلغ هذا الدين من مشابهة دين الهند الحاضر ما لا نرى معه فَصْله عنه ، فنُحيل القارىء ، إذَنْ ، على الفصل الذى خصصتُه فى قسم آخر من هذا الكتاب للبحث فى دين الهند الحاضر.

و إننا بعد أن ألقينا نظرةً خاطفة على النواحى الخارجية من الحضارة الهندوسية القديمة التى دام أمرها بين القرنين الثامن والثانى عشر بعد الميلاد نرى أن نبحث فى

نظام مُعْظم الهند الآرية السياسىّ فى ذلك العصر فنستند، كما قلنا آنفاً ، إلى دستور الممالك التى حافظت وحدَها على نظامها القديم ، أى إلى ممالك راجپوتانا .

٣ — نظام ممالك الهند الآرية السياسى والاجتماعى

حوالَى القرن العاشر من الميلاد

تَغْشَى صحراء تهار النصفَ الغربى من المِنطقة الواقعة بين السِّند وجزيرة كاتهياوار وجَمبل والغَنْج والمسماة راجپوتانا ، وتَغْشَى النصفَ الشرقىَّ منها التلالُ الجديبة الكثيرة الآجام البالغة أقصى علوّها بسلسلة جبال أَرَاولى ، فى مِنطقة راجپوتانا الجبلية هذه يقطن من افتُرضوا أنهم حَفَدة الأكشترية الآريون الذين يُعْرفون بالراجپوت أو أبناء الملوك فلا يزالون محافظين على استقلالهم تقريباً .

ويتألف من الراجپوت أجلُّ عروق الهند وأصفاها على الأرجح ، والراجپوت هؤلاء أهلٌ لأن يقاسوا بفرسان القرون الوسطى الذين غادروا أوربة ليستولوا على القبر المقدس ، وذلك لِما اتَّصفوا به من طول القامات وانسجام الملامح ووَضَاءة البَشَرة وشَمَم الأنوف وحُسْن البِزَّة ومضاء السلاح .

ويُذَكِّرنا ما يُزَيِّن به الراجپوت جيادَهم من الجهاز الفاخر وما ينشرونه من البنود فى ميادين القتال وما يتخذونه من رموز الأُسَر بعاداتنا الإقطاعية وبطبقة الأشراف عندنا ، ولِذا يسهل علينا أن ندرك السرَّ فى اعتقاد الأوربيين الذين درسوا نظام راجپوتانا سابقاً اشتمالَ هذا النظام على صورة قروننا الوسطى الإقطاعية غافلين عن الفروق العميقة التى تَفصِله عن نظامنا الإقطاعى القديم .

ولا تقتصر أوجه الشبه الظاهرة بين نظام راجپوتانا ونظامنا الإقطاعيّ على ما ذكرناه ، فالراجه الراجپوتي يسكن حِصْناً ويسوس ما يملِكُ من هذا الحِصْن كما كان يصنع الدوكات والـكونتات والبارونات في أوربة .

ومما يحدث أحياناً أن يتخلى الراجه عن قسم من أملاكه لقريبٍ له فيصبحَ مولىً لهذا القريب التابع ، فيكون هذا القريب التابع مُلْزَماً نحو مولاه بالخدمة العسكرية ، فإذا لم يمتثل أوامره أو اقترف عملاً شائناً عُزِل وطُرِد وأعاد ما ملك إلى مولاه ، وتهيمن هذه الطبقة الأريستوقراطية العسكرية على الزُّرَّاع الذين هم من الطبقة الدنيا ، فيدفعون إلى الراجپوت في أوقات معينة قسماً من غَلّات ما يزرعون ، ويُسَخِّرهم الراجپوت ، فهؤلاء هم الشودرا الذين يشابهون فَدَّادِي[1] أوربة في القرون الوسطى .

والمرأة مكانٌ عالٍ وشأن مهمٌ عند الراجپوت كما كان لأخَواتها في عصر الفروسية الأوربية ، ومن أجل المرأة وحدَها كانت الحروب تشتعل ، في الغالب ، بين الملوك المتنافسين .

وما كان على المرأة التي تُهْضَم حقوقُها أو يُطْعَن في شرفها إلا أن تُرسل سِوَارَها إلى مبارز باسل لـكي يمتشق حُسامه في سبيلها مسروراً .

وما أكثر ما كانت المدن تقاسي فنون الحِصار دفاعاً عن حسناء يطاردها عدوٌّ عاشق ، فيُبْدِي حُماتها ضروبَ الشجاعة ، وما كان العدوّ ليَصل إلى الحسناء مهما كانت نتائج القتال ، فإذا ما شَعَر أنصارها بحبوط الدفاع أعَدُّوا لها مَوْقِداً ثم صَعِدَتْ فيه طائفةٌ معهم وقتلوا أنفسهم على حين تَفِيض روحها بين اللَّهب .

---

(١) الفدادون : الرعيان والجمالون والبقارون والفلاحون وسواهم ممن تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم .

وكانت المرأة الراجپوتية تتصف بالشجاعة ، فقد حاربت غيرَ مرة بجانب الأبطال من بنى قومها مُفَضِّلةً الموت على التسليم ، ومن ذلك أن الراجپوتيات صَعِدْن بالالوف فوق المواقد فى أثناء حِصارَىْ چِتورالمشهورين لكيلا يَسْبِيَهُنَّ الأعداء .

وتقول راجپوتانا بمبدأ تعدد الزوجات كما تقول به بلدان الهند الأخرى ، بَيْدَ أن إحدى الزوجات تكون مُفَضَّلة ، فكانت تُحْرِق نفسها فوق المَوْقِد عند موت زوجها ، ومما كان يحدث أن تُمارِىَ الزوجاتُ ، أحياناً ، فى أيتهن كانت المُفَضَّلة طمعاً فى نيل شرف الاحتراق عند موته ، وإذا كان الملكُ هو المتوفى كان من التقاليد أن يُحَرَّق جميعُ أزواجه أنفسهن ، ولا يزال يُرَى بين قبور أوديپور الملكية ضريحٌ يشتمل على رُفات الملِك سَنْغرام سِنْغها وزوجاته الإحدى والعشرين اللائى حَرَقْن أنفسهن فوق مَوْقِده فى سنة ١٧٣٣ .

وما تتمتع به المرأة الراجپوتية من الاحترام يشابه ما كان لأخواتها الأوربيات فى القرون الوسطى ، كما يدلّ عليه ما كان من تَغَنِّى الشعراء الجوّالين بمثل تَغَنِّى زملائهم بولائهم لأمراء النصارى الإقطاعيين وبالألعاب الحربية ومعانى الحب وجمال الحِسان وامتشاق الحُسام .

إذَنْ ، ليس من العجيب أن يرى الباحثون شَبَهاً بين مجتمعٍ ذلك نظامه والمجتمعِ الإقطاعى أيام الحروب الصليبية ، والآن نُبَيِّن ماينطوى تحت تلك المماثلات الظاهرة من فروق عميقة :



٨٣ — إيلورا ، تماثيل فى معبد دومارلينا المصنوع تحت الأرض (القرن الثامن)
(يبلغ ارتفاع التمثال الكبير خمسة أمتار)

يتصل طور المجتمع الراجپوتى الراهن بطور الحضارة الذى تقدمه رأساً ، لا بالنظام الإقطاعى ، وما تراه فى أوربة الآن من

الدول الكبرى فهو وليد جَمْعٍ سار من طَوْر الفرد الهمجيّ إلى طور الأُسرة فإلى طور القبيلة فإلى طور الشعب فإلى طور الإقطاع فإلى طور الأمة .

ليس النظام الراجپوتي بقائم على الإقطاع ، بل على النظام الشعبيّ .

والشعبُ ليس إلا أسرةً مُكَبَّرَةً ، ويستحيل على الأسرة أن تصبح شعباً قبل أن تجاوز الطور القَبَليّ .

ولنفترض أن هنالك مجتمعاً همجياً مقسوماً إلى أُسَر وأنه ظهر من هذه الأُسَر شخص مقدام مقحام خُلِقَ للقيادة وأن خصومةً نَشِبَت أو أرضاً ضاقت أو مطامعَ حَوْل مكان آخر ثارَتْ حين بلوغ ذلك الشخص سنّ الرُّجُولة فإن ذلك الرجل الجسور لا يسير وحدَه بحكم الطبيعة بل يستعين برجال أُسرته الذين اتفق له سلطان عليهم فيتبعونه بحماسة ، ثم ينضمّ إليه رجال من الجيران والأفّاقين والمنحطين والمجرمين ، ثم يَمْضى هو وصحبه هؤلاء قُدُماً فيستولون على أرضٍ عَنْوَةً فيستقرون بها فيقيمون حولها حاجزاً فينتحلون ، كِصَابةٍ ، اسمَ زعيمهم ويَعُدُّونه أباً تمييزاً لهم من المجاورين المعادين .

ذلك أمر رومولوس وصحبه ، وذلك أمرُ داودَ فى مَغارة عدلام .

ولا تصبح هذه القبيلة المصنوعة ، التى تألفت من اجتماع أفّاقين مختلفى الأنساب تحت قيادة زعيم ، شعباً إلاّ بعد حين ، أى عندما تُنْسى فروق الأنساب بين هؤلاء الأفّاقين فيستطيع حَفَدتهم أن يَدّعوا أنهم من ذرية مؤسس القبيلة الأول ، فتكون رآستهم لأ كبر أبناء هذا المؤسس .

ومن ثَمّ ترى أن عَدّ أبناء الشعب الواحد أنفسَهم ذرية جدٍّ واحد لم يَقُم على غير الافتراض الوهميّ ، ومهما يكن من وَهْم فى هذا الافتراض فإن قولنا ذلك يكفى

لتمييز الشعب الراجبوتىّ من الإمارة الإقطاعية الأوربية ، فمع أن أتباع الأمير الاقطاعى دونه منزلةً ولا يرتبطون فيه فلا يحتملون نِيره إلاّ لضعفهم تجد أبناء الشعب الراجبوتى يرَوْن أنفسهم إخواناً لرئيسهم مساوين له وارثين الشرَف مثله كابراً عن كابر ، ولهؤلاء الأبناء ما لرئيسهم هذا من حقوق الإكرام ، وهو إذا خاطبهم فكما يخاطب الأخ الأكبر إخوته الصغار الذين لهم ما له من المصالح فلا يمتشقون الحسام معه إلاّ لحماية هذه المصالح المشتركة ، ولا يبدو سلطان هذا الرئيس مطلقاً إلا أمام العدوّ فى الحرب كما يبدو سلطان القائد العام فى جميع البلدان .

وما كانت قيادة الجيش ، التى هى أهمّ المناصب فى دولة حربيـة منظمة ، لِتُترك لصبىّ ، فما كان يحدث ، أحياناً ، أن تُقطع ممارسة الحكم لدى الشعوب الراجبوتية عندما يؤول العرش إلى عاجز عن القيام بأعباء الملك ، فيفوَّض أمره إذذاك إلى ابن عم الكَلالة[1] ، فيختار الملكُ الراحل قبل وفاته ، أو زوجاته بعد وفاته فى الغالب ، الوارثَ للعرش بطريقة التّبنّى على أن يوافق بقية أفراد الشعب على هذا الاختيار .

والراجبوت حافظوا على استقلالهم بفضل هذا النظام المتين الذى يُعدّون به أبناء أسرة واحدة وبفضل شجاعتهم وموقع بلادهم الجبلىّ ، فعاملهم المغول كحلفاء ، لا كرعايا ، حتى بعد استيلائهم على عاصمتهم جِتّور ، ويداريهم الإنكليز إلى أقصى حدود المداراة .

ورفض مهارانا أودبيور كلَّ صِلَة نَسَب بملوك المغول فى إبان سلطانهم ، وبدا سليله أميرَ الهند الوحيدَ الذى رفض حضور اجتماع أمراء الهند حينما نُودِى بملكة

(١) ابن عم الكلالة : إذا لم يكن لحا ، أى لاصق النسب ، وكان رجلا من العشيرة .

إنكلترة إمبراطورةً على بلاد الهند رَادًّا إلى نائب الملك « قِلَادَةَ كوكب الهند العظيمة الشأن » ، قائلاً بهزوء : « إن أحداً من أجداده لم يحمِل شِعَار الذلِّ والعبودية » ، واليوم يتمتع مهارانا أوديپور بشأن رفيع بين ملوك الشعوب الراجپوتية وفى جميع الهند لِكَرَم مَحْتِده وصفاته مع عَطَلِه من أىِّ سلطان عسكرىِّ مُهِم[1] .

والراجپوت يقولون بمبدأ الزواج من خارج العشيرة ، والراجپوت لكى يحافظوا على هذا القانون المطلق محافظةً واضحة قوية لا يزالون يمارسون عادة خطف الخطيبة الرمزىَّ بعد أن كانوا يأخذون عرائسهم غصباً فيما مضى .

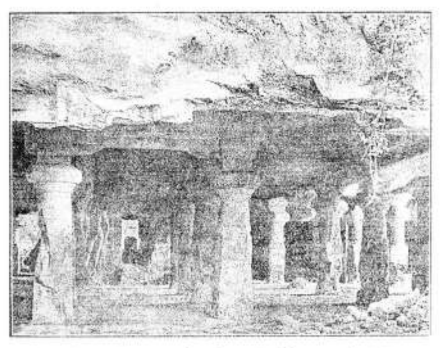
والراجپوتُ لكى يحفظوا بناتهم من الزواج بغير كفوء وزواجاً ينشأ عن اختطاف من هم دونهنَّ شرفاً لهن ، ولكيلا يكابدوا نفقات الأعراس الباهظة ، اتخذوا عادة قتلهن طفلاتٍ ، وقد أخذت هذه العادة الوحشية تزول فى الوقت الحاضر .

ونحن مع إمكاننا أن نَعُدَّ الراجپوت كهندوس استطاعوا أن يحفظوا تقاليد عرقهم من المؤثرات الغريبة بفضل مناعة منطقتهم لا نعتقد أن الهند كانت تنال مثل ما نالوه لو لم يَعُق تطورَها الغزاةُ من الأجانب ، فاعتقادٌ غيرُ هذا يكون عند تَسْيِنا الروحَ

---

(١) جاء فى الأساطير أن السى سوديا الذين يتألف منهم شعب أسرة أوديپور المالكة هم من العرق الذى افترض أنه من سلالة راما فتجسد فيه وشنو الإله الشمس ، فإذا عدوت هذا الأصل الخرافى وجدت ذلك الشعب ذا تاريخ قديم ، فما قصه على پندت راتاپرتاب الذى كان دليلى فى أثناء إقامتى بأوديپور أن باپاراول هو مؤلف شعب السى سوديا فرأيت فى تاريخ الراجهستان لتود مايؤيد ذلك ، وقد اتخذ ملك ميوا الأول هذا مدينة ناقدها ، الخربة فى الوقت الحاضر فنشرت بعض صور لآثارها فى هذا الكتاب ، عاصمة له حوالى سنة ٧٠٠ من الميلاد ، ثم استبدلت بمدينة چتور بعد الاستيلاء عليها فظلت چتور عاصمة ميوار إلى أن فتحها المغول ، فاتخذت أوديپور إذ ذاك عاصمة بدلا منها ، ودام أمرها عاصمة إلى الوقت الحاضر ، فمن ثم ترى أن أسرة مهارانا تملك منذ اثنى عشر قرناً وأن قدماً كهذا لم يتفق لأسرة مالكة فى أوربة ولا فى الهند التى لم تؤلف جميع أسرها المالكة الحاضرة إلا بعد سقوط الدولة المغولية .

الطائفية التي تحول دون نموّ الروح القومية ، تلك الروحَ التي ظلت مؤثرة مع قلة أهميتها في دور اليقظة البرهمية العامة .



٨٤ ـ إليفنتا . أعمدة المعبد الكبير المصنوع تحت الأرض (القرن الثامن من الميلاد) (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى سطحها خمسة أمتار)

ولم تبق الدول الراجبوتية ، التي تُشْبِه تخاريب النحل المُنَضَّدَ بعضُها فوق بعض تنضيداً هندسياً ، متماسكةً في الراجبوتانا لأن العدو لم يحملها على انتحال قوانينه فقط ، بل لفتور الراجبوت المحاربين الدينيّ الذي نشأ عن انهماكهم في الأعمال العسكرية في بيئة خَشِنَة غير صالحة للتأملات اللاهوتية .

ومن السهل بيان ما للروح الدينية في بقية الهند من التأثير المُفَرِّق في كيان الشعب بأن نقول إن لهذه الروح من العمل في كيان الشعب الأدبيّ مثلما يكون

للنظام المدنيّ والحربيّ من العمل في نشوء الشعب ، فما تراه في الهند من تعدد الطوائف منذ قرون يَتِمُّ ظهوره بمثل ما يَتِمُّ به ظهورُ أحد الشعوب ، ومن ذلك أن طريداً شارداً خاسراً لطائفته يرفع راية الإصلاح الديني بإقدام فينضمُّ إليه بعض المريدين ، فإذا ما كان لَبِقاً بَخِيتاً فاستطاع أن يلعب ببعض المشاعر عُدَّ مؤسساً مذهباً جديداً ، وإذا ما ذاع أمر هذا المذهب الجديد انقلب إلى طائفة جديدة .

وإليكَ ، إذَنْ ، الطائفةَ التي هي دائرة قرابة جديدة والتي تظهر خارج الشعب الذي هو دائرة القرابة الأولى ، مع اختلاف سُنَن الدائرتين وتناقضهما أحياناً ، وكلُّ هندوسيّ حقيقيّ ينتسب إلى طائفة وشعب معاً ، ولا يجوز له أن يتزوج إلاّ بفتاة من طائفته على أن تكون من غير شعبه ، وتُبْصِر النظام المعقدَّ المختلط الغريب في أعين الأوربين الذي يمكن أن تنتهي إليه الهند لو سَمَحت لها الأحوال بأن تسير طليقةً وراء مَثَلها الاجتماعيّ الأعلى وهدفها الدينيّ الأسمى ، وهذا الهدف الدينيُّ وحدَه هو ما وَصَلت إليه الهند التي يكفي ما فيها من اختلاف الطوائف لقلب خيالاتنا الأوربية .

ولم يتفق للراجبوت ، بانتظام ، ذلك التَّبَلْرُ الذي يُحَوِّل فريقاً من الهمج إلى شعوب منفصلة إذا لم يُكَدَّر ، ولم يحافظوا عليه إلا بسبب الفتور الدينيّ الذي ذكرناه آنفاً ، وتَبَلْرٌ كهذا قد يشاهد في مرحلته الأولى لدى بعض هَمَج الهند كالبهيل ، ولكن الشعب عند هؤلاء ليس دائرة مقفلة تماماً ، وليست الأنكحةُ محظورةً عندهم إلاّ ضمن دائرة القبيلة .

وكلُّ شيء يُسَوِّغ لنا أن نرى معظم الهند الآرية في القرن العاشر من الميلاد على الصورة التي نرى بها الآن دُوَيلات راجبوتانا المستقلة ، ومن أجل ذلك اتخذناها

أمثلةً على نظام الهند السياسيّ والاجتماعيّ قبل الفتح الإسلامي .

ولا نستطيع أن نُكَمِّل ، كما فعلنا في فصل آخر ، ما ذكرناه آنفاً بما رواه سياحٌ من الأجانب ، وما ورد في رحلة الرَّحَّالة العربي ابن بطوطة لا ينطوي على شيء كبير ، وليس أتمّ منه ما جاء في رحلة ماركوپولو السائح الأوربيّ الوحيد الذي زار الهند في القرن الثالث عشر ، وهاتان الرّحلتان جديرتان بالذكر مع ذلك ، لأنهما كلُّ ما لدينا من الوثائق الأجنبية عن جنوب الهند في القرن الثالث عشر .

وما رواه ماركوپولو من المعارف يدور حول الحضارة الدراويدية في جنوب الهند على الخصوص ، ولم نتكلم عن هذه الحضارة في هذا الفصل لنقص الوثائق ، ومما قصّه هذا الرَّحَّالة الشهير أنه وَجَدَ في ساحل كوروميندل أناساً سُوداً عُراةً عُبّاداً للبقر مقسومين إلى طوائف ، وأن المنبوذين وحدَهم كانوا يأكلون لحم البقر وأن هؤلاء المنبوذين كانوا يُستخدمون جزارين لذبح الحيوانات الأخرى ، لأن ذبح كلّ ذي حياة كان يُعَدُّ جرماً .

وقد أعجب ماركوپولو ببهاء الحجارة الكريمة التي كان أولئك السُّود يُزَيِّنُون بها والتي كانت تأتيهم من مناجم غولكوندا على ما يحتمل .

وكان أولئك القوم يتكلمون بلغة التمول ، وكانوا مقسومين إلى خمس ممالك تكلمنا عنها في الخلاصة التاريخية ، وكانت هذه الممالك واقعةً في الدَّكَن ، وكان يملكها خمسة إخوة .

وكان ملوك التمول يباهون بعدد نسائهم ، فكان لديهم نحوُ خمسمئة امرأة ، فكانت أرواح هؤلاء النسوة تفيض فوق المَوْقِد عند وفاة أزواجهن .

و بلغ ماركو بولو ساحل ملبار الذى كان يقطن فيه قرصان مقاديم ، و بلغ كوكنَ حيث وَجَد أناساً هادئين مشهورين بشرفهم وصدقهم .

وأُعجب ماركو بولو بكثرة مدن كجرات وبغناها و بازدهار تجارتها و بصناعاتها الخاصة ، ولاسيما صناعة جلودها المُرَصَّعة الموشاة التى كان الأهالى يصنعونها بفنٍّ عجيب، وباحترام أهاليها للحيوانات والبراهمة ، ومما شاهده أناسٌ عُرَاةٌ من البراهمة (اليوغويس) كانوا يعيشون من الصدقات كما فى أيامنا ، وأناسٌ قِباحٌ يُهْمِلون أبدانهم ويُطْلِقُون لُحاهم وشعورهم وأظفارهم ويقتلون أنفسهم جهراً ويُبْدُون أبشع المناظر .

وجزئياتُ الظواهر أكثرُ ما عُنِىَ به ماركو بولو ، فلم يكن باحثاً كهيوين سانغ أوفاهيان ، فلا نرى فى رِحلته كبيرَ طائل .

وعلى ما ترَاه من نقص الأسانيد التاريخية نجدنا قد بعثنا قسماً غير قليل من المجتمع الهندوسى فى القرن العاشر ، فوَجَدْنا للوصول إلى ذلك ما هو أحسن من مذكرات المعاصرين ، وَجَدْنا فى دُوَيْلات راجپوتانا صفحةً حية مقتطعة من تاريخ الهند فى الأزمنة التى أردنا وصفها فظلت سليمة إلى أيامنا ، فعلى الباحثين أن يُسْرِعوا فى فكّ رموزها وتَفَهُّمِها قبل أن تَطْمِسَ الحضارةُ الأوربية الحديثة معالمَها ، فالحضارة الأوربية ، و إن كانت دون الفتوح قسوةً ، أشدُّ منها تخريباً .

الفصل الخامس

حضارة العصر الهندي الإسلامي

وصفُ المجتمع الإسلاميّ في الهند حوالَى القرن الخامس عشر

---

(١) تأثير المسلمين في الهند – العروق الإسلامية في الهند – دام العصر الإسلامي في الهند من القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن عشر – الشعوب الإسلامية التي استولت على الهند في سبعة قرون – تأثير المسلمين العميق في ديانة الهند ولغتها وفنونها – تأثير المسلمين في الهند أقل منه في مصر – أدخل المسلمون حضارة العرب إلى الهند بعد أن عدلت في بلاد فارس – اختلاط حضارة المسلمين بحضارة الهند من غير أن تقوم مقامها كما تدل عليه دراسة المباني – المغول – ضعف تأثير المسلمين العرقي في الهند – (٢) الحضارة الإسلامية في الهند – نظام الممالك الإسلامية السياسي في الهند – وصف الحضارة المغولية في الهند في عصر الملك أكبر – عدم الأريستوقراطية الوراثية – سلطة ولي الأمر المطلقة – حياة الملك المغولي اليومية – إدارة المملكة – المصالح العامة – الطرق – البريد – الضرائب – العدل – نظام الجيش – شأن النساء في بلاط ملوك المغول – ميل المغول إلى العلوم والآداب والفنون – آثار ملوك المغول العلمية والأدبية – مذكرات الملك بابر – أهميتها في معرفة مزاج الأمير المغولي – مقابلة بين أمير مغولي وأمير فرنسي في عصر النهضة .

---

١ – تأثير المسلمين في الهند ، العروق الإسلامية في الهند

يبدأ العصر الإسلامي في الهند في القرن الحادي عشر وينتهي من الناحية السياسية في القرن الثامن عشر من الميلاد ، وهذا العصر عُرِف أحسنَ مما عُرِف أيُّ عصر جاء قبله بفضل مؤرخي المسلمين .

والهندُ خضعتْ في القرون السبعة التي دام فيها سلطان المسلمين لفاتحين من العرب والأفغان والترك والمغول القائلين جميعُهم بدين محمد وخلفائه ونُظُمهم .

وكان لهؤلاء الفاتحين الأثرُ البالغ في لغة الهند ومعتقداتها وفنونها ، ولا يزال هذا الأثر بادياً فتجد في الهند خمسين مليوناً من الهندوس يعملون بشريعة القرآن وتجد الناس يتكلمون في قسم كبير منها بلغة مشتقة من لغة السادة السابقين .

وفي فصل سابق درستُ تاريخَ الهند فذكرتُ مؤكداً تأثير المسلمين العظيم في جميع البِقاع التي خفقتْ فوقها رايتهم ، ففي مصر ، مثلاً ، قاموا بعملٍ أخفق الإغريق والرومان في القيام بمثله ، أي إنهم حوّلوا لغة شعب كانت له أقدم حضارات العالم وحوّلوا دينه وفنونه ، فلم يَنْشَب أبناء الفراعنة ، حين اتصلوا بالمسلمين ، أن نَسُوا ماضيَهم الذي بذل العلم الحديث جهوداً كبيرة لبعثه .

والتحولُ الذي تمّ في جزء من الهند بفعل المسلمين هو دون التحول الذي وقع في مصر ، ففي الهند كان للمغلوبين من الأثر في الغالبين ما لم يَحْدث مثلُه في أيِّ بلدٍ خضع لأتباع محمد ، فبعد أن كان للحضارة الجديدة التي أدخلها الأفغان والترك والمغول إلى وادي السِّنْد ووادي الغَنج فعلٌ عظيم في الحضارة القديمة التي كانت فيهما لم تلبث أن تأثّرت بها فأسفر هذا عن ظهور حضارة ثالثة مشتملة على عناصر تينك الحضارتين بالتساوي تقريباً ، ونُسَمّي هذه الحضارة الثالثة بالحضارة الهندية الإسلامية .

ولم يَخْلُ العصر الهنديُّ الإسلاميُّ من مؤرخين ، ولو لم يَنْتَه إلينا من هذا العصر مخطوطاتٌ كافيـة لتنوّره لأمكننا ذلك من البحث في المباني الكثيرة التي شِيدَت فيه فدلّت على اختلاف المؤثّرات الإسلامية باختلاف الأقطار ، فمن هذه المباني نعلم

أين كان أثر المسلمين البالغ وأين تغلبت عليه العبقرية الهندوسية ، وما تَجَلَّى فى المعابد والقصور من ضروب الفنون يدلنا ، كذلك ، على مصدر الأُسَر المالكة التى كان لها السلطانُ على الهند لما تحمله هذه المبانى من الطابع الفنىِّ الخاصِّ بكلِّ واحدة منها ، ويمكن القارئ أن يَتَبَيَّنَ تاريخَ المسلمين فى الهند من الصور التى نشرناها فى هذا الكتاب عن فنِّ عمارتهم .

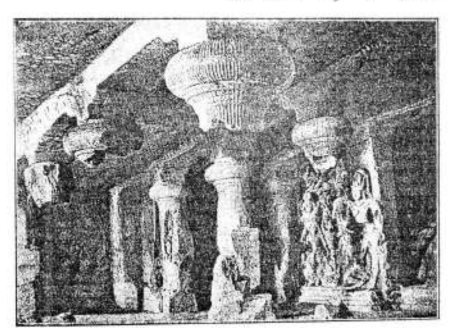
ولم يكن المسلمون الذين استولَوْا على الهند غيرَ مرة فى عهد محمود الغزنوى وتيمورلنك وبابَر وغيرِهم من عرق واحد ، فغُزَاة المسلمين الأوَّلون كانوا من الأفغان والترك ، وغُزاة المسلمين الآخرون كانوا من المغول مع شىء من التمازج ، وأما العرب الذين هم من أتباع محمد السابقين فلم يقيموا مستعمرات مُهِمَّة فى الهند وإن كانوا يجيئون إليها ، فى الغالب ، من بلادهم مجاوزين بحر عُمَان للتجارة فيُنْشِئون المستودعات ويستولون عَنْوَةً على أملاك فى السواحل الغربية نحو مصبِّ نهر السِّند .

وإن مغازى جموع المسلمين الزاخرة التى انْقَضَّت على الهند فى ثلاثة قرون أو أربعة قرون من نُقْرَة كابُل الدائمة الانفتاح هى أخرى المغازى التورانية ، ومن التورانيين ، على الخصوص ، أصحابُ بابَر المغولُ ذوو الوجوه المُسَطَّحة والجلود الكامدة والعيون الحادَّة الأفقية الغائرة والوَجَنات البارزة والشعور السُّود المُسَنْدَرة[1] واللِّحَى المَعِرة[2] ، ويختلف هؤلاء المغول الذين هم إخوان هون أتيلاَ وكلوكُ الأورال كثيراً عن الأفغان ذوى الخدود الضيقة والأنوف المِنقارية وعن الترك ذوى العيون النُّجْل والجلود البيض والوجوه المتناسبة الصفيقة .

---

(١) المسندرة : المتبسطة — (٢) المعرة : القليلة الشعر .

وكان المغول فاتحين لجميع آسية تقريباً ومُهَدِّدين لأوربة حيناً وَصَلوا إلى الهند ، ولم تُؤَسَّس دولةٌ واسعة بسرعة كالتى أسسوها ، وهؤلاء القوم بينا كانوا يَرعون مواشيَهم فى مراعى سيبرية العظيمة المُمِلَّة استحوذت عليهم روح حرص غريبةٌ طائشة فانقَضُّوا بغتة على العالم افتتحه سائرين وراء خيال يختلف عن مطامع الجمهورية الرومانية المنظمة الفاترة وحَمِيَّة العرب الدِّينية ، ذلك الخيالِ القائم على الفتح العالمى للتَّلَهِّى بالفتح نفسه ، و إن شئت فقل لإذلال الأمم أمامَ رايتهم وحملها على التسبيح بحمدهم ولوضع جبَرُوت رئيسهم الأعلى الخانِ الأكبر فوق البشر .



٨٥ — إلِفنتا . أعمدة فى المعبد السابق

يبدو جنكيز خان وتيمورلنك فى التاريخ كابوسَيْن مُكَلَّلَيْن بتاجين من النار والدم ، وتجِد ناحيةً غيرَ مُدْرَكة يَعْظُم بها شأنهما الهائل المرهوب ، وهى ما تراه

فيهما من التناقض المترجح بين الوحشية والتسامح ، و بين الجَبَرُوت الذى كانا يذبحان به الخلائق عند أقلّ مقاومة والحِلم الذى كانا ينحنيان به أمام آلهة المغلوبين ، و بين همجيتهما التى كانا يقيان بهـا ، بدم بارد ، أهراماً من هام(١) المقهورين وحُبِّهِم للآداب والفنون والعلوم الذى تحوّل به كثيرون من قومهم الأجـلاف إلى أدباء وعلماء .

كان دين المغول الفطرىّ قائماً على عبادة قُوَى الطبيعة ، شأنَ جميع الدِّيانات الفطرية تقريباً ، فكانوا يعبدون الشمس والأرض والخيـل ، ثم انتحلوا أكثرَ معتقدات الأمم المغلوبة بالتتابع مضيفين هذه الآلهة بعضها إلى بعض . و إذا عُدُّوا من فاتحى الهند المسلمين فلأنهم كانوا حين دخلوها متصلين ، منـذ زمنٍ طويل ، بأمم مسلمة كالفرس والأفغان والترك ولأنهم كانوا مشبعين من حضارة العرب المهيمنة على غرب آسية .

ومن الحظّ الحسَن أن لَقِى تسامحهم الكبير تسامحَ الهندوس فبُذِلَت جهود فى أيام دولتهم لدى الغالبين والمغلوبين لصَهْر مختلف المعتقدات بعضها فى بعض و إخراج ديانة واحـدة منها ، فهذا ما سَعَى إليه مؤسس مذهب السِّك المصلح نانَك ، وهذا ما سعى إليه الملك أكبر وآخرون ، فعلى ما حَبِطَتْ به تلك الجهود فلم يتّفق للهند دين واحد ظلّ بعض أديان الهند يُمَارَس بجانب بعض من غير تنازع .

وسنرى ، حين البحث فى أديان الهند الحديثة ، ما هو أمر الإسلام فيها وما هى التطورات التى اتفقت له ، وهو دين التوحيد ، ليلائم روح الإشراك فى الشعوب التى

---

(١) الهام : جمع الهامة وهى رأس كل شىء .

اعتنقته ، والآن نقتصر على البحث فى المؤثرات العرقيـة التى نجمت عن المغازى الإسـلامية .

من الشَّطَط أن يُقال إن تلك الغَزَوات أسفرت عن ظهور عرق جديد ، فكان الغُزاة من القِلّة ما لا يتعذّر معه أن ينْصَهِروا فى جموع الأمم المغلوبة ، والغُزاة أولئك كانوا مُوَلَّدين مع ذلك .

ولم يلبث المغول ، المتصفون بروح التسامح والتوفيق ، أن أرادوا الاتحاد بسكان الهند الذين وَجَدوهم مستقرين بهـا ، فتهافتوا على الزواج ببنات الراجپوت فلم تعتِّم سَحَناتهم أن تغيرت تماماً بعـد أن تطورت بمصاهراتهم للأفغان والترك ، فمن إنعام النظر فى صور ملوك المغول المرسومة فى المخطوطات تبدو لنـا وجوههم الأكثر تناسباً واسـتطالةً من وجوه المغول الأصليين المُسَطَّحة ذاتِ الأنوف المُتَطامِنة[١] والشِّفاه الغليظة .

ويجب أن يُفَرَّق فى زُمَر المسلمين الذين يبلغ عددهم فى الهند نحو خمسين مليوناً بين حَفَدة الأُسَر الإسلامية وحَفَدة الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام .

فأما حَفَدة الأُسر الإسلامية ، وهم الأقلون ، فيشابهون المثالَ التركيَّ ، ويتألف منهم قوم طائشون بائسون أسِفون على الزمن الذى كانوا فيه سادة البلاد منتظرون الزمن الذى يَتِمّ فيه النصر لشريعة النبى .

وأما الهندوس المسلمون فأكثر عدداً ، ويختلفون قليـلاً عن إخوانهم البراهمة مثالاً وأخلاقاً .

ونُلَخِّص ما تقدم بقولنا إن أثر المسلمين العرقىَّ فى الهند ضعيفٌ وأثرهم الأدبىَّ

---

(١) المتطامنة : المنخفضة

عظيم ، وأكثر ما يبدو هذا الأثر الأدبى فى المبانى والمصنوعات الفنية ، وله عمل كبير فى الدين واللغة ، كما يظهر ذلك من الفصول التى ندرس فيها مبانى الهند ودياناتها ولغاتها فضلاً عن هذا الفصل .

٢ – الحضارة الإسلامية فى الهند

أجملنا فى فصلنا عن تاريخ الهند أهمّ حوادث الممالك الإسلامية فى الهند ، وأنذكّر أن دولة المغول ، التى تتكلم عنها الكتب على العموم ، لم تَدُمْ سوى مئتى سنة من السنوات السبعمئة التى كان السلطان فيها للمسلمين ، ففى بعض ذينك القرنين ظلّ كثير من الممالك الإسلامية قائماً فى الدكن ، ولم تُجْمَع الهندُ بأسْرِها تحت راية ملك مغولىّ واحد إلاَّ قُبَيْلَ سقوط الدولة المغولية .

ويتضمن وصفنا لتاريخ الحضارة الإسلامية فى الهند بحثاً لتاريخ حضارة العرب التى خَصَّصْنا سِفْراً كبيراً لدراستها ، فسلمو الهند لم يُدْخِلوا إلى الهند ، بالحقيقة ، سوى حضارة العرب بعد أن تَحَوَّلَت بعضَ التحول فى بلاد فارس بفعل الأزمنة والأمكنة والاختلاط بالشعوب المغلوبة ، وذلك على درجات مختلفة ومع دوامها على التحول .

وأدخل المسلمون معهم إلى الهند نُظُم الدول العربية القديمة السياسية أيضاً ، وكانت هذه النُّظُم السياسية تَحْمِل فى تضاعيفها المحاسن التى أدَّت إلى ازدهار الدول العربية فيما مَضَى والمساوئ التى أوجبت انحطاطها .

حَقًّا ، لقد بَدَت جميع الدول الإسلامية ، فى الهند وغيرها ، مطلقةً على الدوام جامعةً لجميع السلطات الدينية والعسكرية والمدنية فى أيدى وُلاَة لا رقيب لهم ،

فكانوا يَسْعَوْن فى إعلان استقلالهم وتأسيس ممالك لهم من فَوْرهم ، وحَقًّا أن الممالك العظمى المطلقة التى تكون جميع السلطات فيها قَبْضَةَ رجل واحد تلائم الشعوب المتبربرة لِما يؤدى ذلك إلى الفتح ، فهذه الممالك لا تدوم إلا إذا ساسها رجال عظام، والرجالُ العظام إذ تَدُر ظهورهم وقع ما نعلم من انهيار الدول الآسيوية الكبرى فى وقت قصير ، وذلك ما وقع لدولة المغول التى ازدهرت أيما ازدهارٍ عندما كان على رأسها رجالٌ كِبار فسقطت عندما عَطِلت من مثلهم .

والمسلمون ، حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب، أدخلوا معها رغبة كبيرة فى العلوم والآداب والفنون ، وما شادوه فى عواصمهم: أحمد آباد وغور ودهلى و بيجاپور، الخ . من المبانى ينطق بعظيم حمايتهم للفنون ، وما انتهى إلينا من تراجم ملوك المسلمين يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يُشَجِّعون الآداب والعلوم أيضاً ، وأنهم كانوا يتعهدونها بأنفسهم ، ليس ذلك فى كُبْرَى الممالك وحدَها ، بل فى صُغْراها أيضاً ، ومن ذلك أن ملك مملكة غولكندا الصُّغْرَى فيروز شاه كان يزاول علم النبات والهندسة والشعر ولا يحيط نفسه بغير العلماء والشعراء والمؤرخين مع أشاغيله فى الحروب ضدّ دولة بيجانَغَر .

وعلى تلك السُّنَّة سار ملوك المغول ، وهى التى كانت مشتركة بين جميع الدول الإسلامية فى أوربة وآسية وإفريقية كما أثبتنا ذلك فى كتاب سابق[1] .

وإذ لم نستطع أن نَرْسُم تاريخ مختلف الحضارات الإسلامية فى الهند ، نقتصر على وصف حضارة المغول التى هى أكثر تلك الحضارات ازدهاراً ، فما جاء فى أخبار

---

(١) قصد المؤلف بذلك كتاب « حضارة العرب » وقد نقلناه إلى اللغة العربية . (المترجم)

مؤرخيهم وأنباء الأوربيين الذين زاروا الهند فى عصرهم يساعدنا على الحكم الصحيح فى إدارتهم ونظام دولتهم ، وما أبقوه من المبانى يساعدنا على الحكم الصحيح فى الفنون أيام سلطانهم .

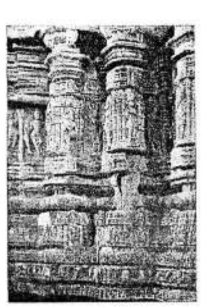
ذَرَّ قَرْنُ[1] الدولة المغولية فى الهند عندما استولى بابَر فى سنة ١٥٢٦ على أغرا التى كان يملكها أمير أفغانىّ من أسرة لودى المالكة فمات فيها ملكاً لهندوستان وكابُل ، فلم يَألُ ابنه هُمايون جهداً فى الصراع دَعْماً لدولته ، ولم تبلغ دولة المغول فى الهند ذروة الرقى إلا فى عهد ملكها الثالث أكبر الذى ارتقى العرشَ سنة ١٥٥٦ فدام سلطانه خمسين سنة ، فهذا الملك الذى هو من أكابر رجال التاريخ ساوى بين المسلمين والهندوس حاضاً تينك الأمتين على التزاوج جاعلاً نفسه قُدْوَةً ، وهذا الملك، وإن لم يُوَفَّق لصهر ديانتى تينك الأمتين فى دين واحد ، استطاع أن يَمْزُج فنون العِمارة للأمم التى خضعت لحكمه ، وهذا الملك وَسَّع رُقْعَةَ مملكته ودَبَّر شؤونها تدبيراً رشيداً كما يظهر ذلك من الكتاب الكبير الذى أمر وزيره أبا الفضل بنشره، فترى أنه أحصى الأراضى ومسحها وقَدَّر أنواع تراب الولايات وفرض الخراج على حسب الخِصْب فجعل ثُلُث الغَلَّات للدولة وثُلُثَيها للمزارعين ، وألغى كثيراً من الضرائب وصار يدفع إلى ضباطه رواتبهم نقداً بدلاً من الإقطاعات .

وداومت دولة المغول على الازدهار فى عهد خلفائه : جهانكير وشاهجهان وأورنغ زيب ، بيد أن ماصدر عن أورنغ زيب هذا من عدم التسامح وما شَهَرَه على ممالك الدَّكَن الإسلامية من الحروب أعدَّ دولة المغول للانهيار، فلم تلبث الهند عند وفاته

---

(١) ذر القرن : طلع أدنى شىء منه .

سنة ١٧٠٧ أن وقعت فى وَهْدَة الفوضى ، كما ذكرنا ذلك فى فصل سابق .



٨٦ - أمبرناتها ، نقوش طرف جانبى من المعبد (القرن التاسع على ما يحتمل) (يبلغ ارتفاع القسم الظاهر فى الصورة أربعة أمتار و ٥٠ سنتيمتراً)

وفى أوربة تُعَدُّ كلمة سلطان المغول مرادفةً لكلمة السلطان المطلق والأُبَّهَةِ الباهرة ، ولا يخلو هذا من أساس ، فالحقُّ أن مَلِكَ المغول كان مطلقاً ، فكان يستعين بسلطانه على صبِّ كنوز مملكته ، الغنيةِ إذ ذاك ، فى بَلاطه وإنفاقها على ضروب العظمة التى لا تعلوها عظمة .

وكنت تبصر بجانب الملك وزراء فتحسب أنه يستشيرهم فى شؤون الدولة المهمة ، مع أن هواه كان دستور دولته ، وكانت السلطات المدنية والحربية والدينية قبضتَه ، شأنَ جميع ملوك المسلمين ، فكان ظلَّ الله الحىِّ المرهوب وخليفتَه القادر فى الأرض .

وكان وزراؤه وولاته وقادته ومن إليهم من أمراء المغول صنائعَ فيرفعهم ويخفضهم بكلمةٍ تخرج من فيه .

ولم توجد أريستوقراطية وراثية عند المغول ، فالملكُ هو الذى كان يُوَزِّعها ويستردُّها كما يشاء ، والمَلِك هو الذى كان يَرِثها عند وفاة صاحبها ، فإذا ما قضى المرء نَحْبَه ، بعد حُظْوَة لدى الملك وتَصَرُّف فى أموال البلاد ورقاب العباد وتمتع

بأطايب النعم ، ترك زوجته وأولاده فقراء فقراً مُدْقِعاً ، وكلُّ ما كان يقدر على صنعه لهم فى أثناء حياته هو أن يدفعهم إلى البَلاط ليكونوا مَحَطّاً لأفضال الملك الذى يديم نِعَمَه عليهم ، أحياناً ، بعد وفاة أبيهم أو يُجْرِى عليهم رزقاً قليلاً .

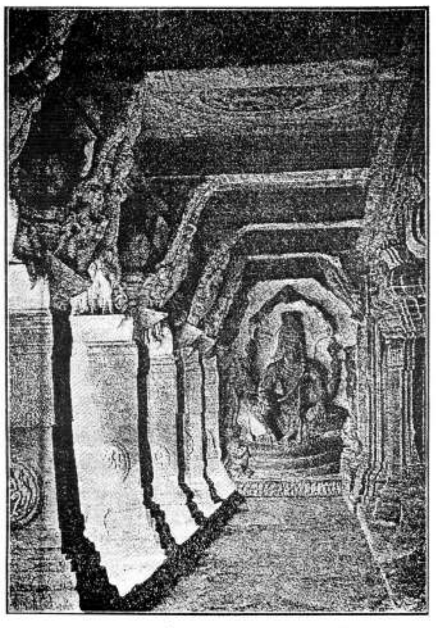
وكان ملك المغول لا يحتجب فى الهند ، فهو إذا كان يستاب رعاياه فى الغالب فإنه لم يَسْلُبهم نِعْمَةَ إمتاع العيون ، فكان يبدو للناس على الدوام .

فى الصباح كان يظهر فى شُرْفته فيجتلى الجمهور طَلْعَتَه فيَهْتِف له ، وما كان ليعدل عن الظهور فى الشُّرْفة إلا فى حالة المرض الشديد ، وإذا حلَّ وقت الظهر عاد إلى تلك الشُّرْفة ليشاهد صِراع الفُيُول ومختلفَ التمارين العسكرية وما إليها مما يَتِمّ فى ساحة القصر ، وإذا كان وقتُ العصر جلس للإستقبال ولاستماع كل ما يَجْدُر أن يقال له .

والحقُّ أن الدنو منه كان صعباً ، فكان يحاط بنطاقَيْن أو ثلاثة نُطُق من ذهب يتخللها أمراء وحرّاس لابسون أبهى ثياب حاجزون للناس عن العرش ، والحقُّ أن منظر الاحتفال والملِك الذى كان يبدو رائع الطَّلْعَة بين الجواهر كان ثمناً كافياً لنسيان الشعب ما يدفعه فى مقابل انبهاره وحماسته ذات حين مع الاحترام القريب من الفَزَع .

وفى العاصمة كانت النفائس الفنية تُجْمَع أيام سلطان المغول كما كان الأمر فى أكثر الممالك الإسلامية ، والولاياتُ إذ كان يَضْغَطها وُلاة طمعاء كانت تَقْضى حياة بؤس فتثور فى الغالب .

جاء فى مذكرات الملك جهانكير ابن الملك أكبر ما يأتى :



٨٧ ـ بادامى . أعمدة وتماثيل فى معبد مصنوع تحت الأرض (القرن السادس من الميلاد)
(يبلغ ارتفاع المعبد إلى مستوى التمثال الظاهر فى الصدر (وهو تمثال وشنو الجالس
على الأفعى أنانتا) نحو خمسة أمتار)

« علمتُ ، وأنا فى دهلى ، أن فتنة اشتعلت فى قنوج فأرسلتُ كتائب لإطفائها ، فقُتل ثلاثون ألفاً من العُصاة وأُرسل عشرةُ آلاف رأس مقطوع إلى دهلى ، وصُلِبت عشرة آلاف جُثّة صلباً معكوساً فى سُوق الشجر المغروس على جوانب الطرق العامة ، وعلى ما ترى من المذابح لم تفتأ الفِتَنُ تَنْشَبُ فى الهندوستان ، ولا تَجِد ولاية من ولايات الدولة لم يُذبح فيها خمسمائة ألف شخص فى عهدى وعهد أبى . »

وقد حَفَزَت ضرورة اطّلاع الملوك على ما يحدث فى الولايات إلى تنظيم شؤون البريد لتسير بسرعة وانتظام فى كلّ ناحية ، فلا تزال تجرى فى كثير من الجهات ، فالبُرُد كانوا سُعاةً مُشاةً يتناوبون أعمالهم بين مسافة ومسافة فى الطُّرُق العامة ، وكانت تُنْصَب على جوانب الطرُق حجارة بيضٌ تُرَى ليلاً حِفظاً للسُّعاة من الضلال .

ويظهر أن الطُّرُق كانت جيدةً فى العهد المغولى ، فقد زعم تافرنيه الذى ساح فى الهند فى أواسط القرن السابع عشر أن طُرُق الهند خيرٌ من طُرُق فرنسة وإيطالية ، وروى أن الانتقال من مكان إلى آخر كان يَتِمّ بهوادجَ يَحمِلها سُعاةٌ سُرْعان أو بمراكبَ تَجرُّها الثِّيران ، ووسائلُ نقلٍ كهذه لا تزال مألوفةً فى البِقاع التى لم تُمدَّ فيها خطوط حديدية ، أى فى معظم بلاد الهند .

وكان خفراء من الجنود يحافظون على السُّيّاح ، فكانوا مسؤولين تجاه قادتهم المقيمين بالمُدُن الكبيرة عن كلّ ما يُصاب به من يرافقونهم منهم ، فإذا ما قصَّروا فى العناية بسائح أو لم يجيدوا الدفاع عنه لم يُوصِ بهم رئيسهم فيخسروا معاشهم .

وفى شمال الهند كانت الطرق الجيدة والمواصلات السهلة ، وعكس ذلك حال الدكن الناشزة البعيدة من مَقرّ الدولة .

وكانت تُعَدُّ جميع أراضى الدولة المغولية ملكاً شخصياً لولىّ الأمر ، وكانت تُقَسَّم إلى صنفين ، فالصنف الأول كان يشتمل على الأراضى التى يُقْطِع الملك قادة الجيش إياها بشرط أن ينفقوا على كتائبهم وأن يدفعوا إلى بيت المال مبلغاً معيناً فى كلّ سنة ، والصنف الثانى كان يشتمل على الأراضى التى يستأجرها ملتزمون ببدل سنوىّ يؤدونه ، فكان هؤلاء الملتزمون ، كنواب الملك ، ذوى سلطان مطلق على من يَقْبِضون على زمامهم من الأهالى ، فكانوا يجورون عليهم فى الغالب ، فكان الفلّاح التَّعِب من العمل الدائم فى سبيل غيره لا يبالى بالزرع فلا يحرُث ولا يَحْصُد إلا بالسياط ، وكان إذا ما جمع مالاً دفنه فى التراب مُظهِراً أقصى درجات البؤس حَذَرَ سلبِ ما عنده ظلماً وعُدْواناً .

ووصف السائح فرنسيس بيرنيه ، الذى أقام بدهلى اثنتى عشرة سنة فى أواسط القرن السابع عشر ، أى فى عهد الملك شاهجهان فاقتبسنا منه هذه التفاصيل ، مظالِمَ الوُلاة ورُشاهم وبُؤْسَ الرعايا وافتقارَهم وصفاً قاتماً .

كان العدل غير سليم ، فكان يُغْوَى القضاة بالهدايا كما يُغْوَى وزراء الملك وبطانته وأزواجه ، أجَلْ ، إن الملك أكبر عَلَّق فى قصره أجراساً يمكن كلّ إنسان أن يقرعها ليشكوَ ظلماً أصابه ، غير أن القوم كانوا يعلمون أن من يصنع ذلك يكون عُرْضَةً لانتقام الظالمين الفظيع ، فكانت تلك الوسيلةُ غير صالحة لدرء المظالم .

والملكُ إذ كان يتعذر عليه أن يدير شؤون ممالكه الواسعة بنفسه وأن يراقب نائبيه كان يرسل مفتشين من لَدُنْه ليخبروه بما يقع ، ولكن هؤلاء ما كانوا لِيَشُوا إلى الملك بغير فقراء الحكام أو بُخَلاء الوُلاة الذين لم يشتروا حُسْنَ شهادتهم لهم .

وما كان أمر الجيش خيراً من ذلك ، فقد عُدِل عن نظام أكبر فى دفع رواتب

الجنود نقداً إلى إقطاع أمراء الجيش الإقطاعات على أن يُمَوِّنوا الجنود ، وأمرُ هذا الإقطاع إذ كان موقتاً لم يفكر أولئك الأمراء في غير الاغتناء سريعاً على حساب الكتائب ، فكان الجنود يُسَرَّحون والخيول تُباع ، فإذا ماأريد العَرْض اكْتَرى أمير الجيش خيلاً وجعل من العبيد جنوداً ، وما كان الملك ليجهل هذا الخداع ، وإنما كان يُغْمِض عينيه مكتفياً بتبديل وُلاته وقُوّاده لكيلا يكون لديهم من الوقت ما يقدرون فيه على الاغتناء كثيراً والتفكير في العصيان .

ومع ما نُبْصِره من نقص في النظام العسكريّ يثبت توالي انتصارات الجيوش الإسلامية على الجيوش الهندوسية تَفَوُّق تلك على هذه ، ومما نَعْلَمه أن راجه بيجانَغر عَجِب ، أيام فتوح الدَّكَن الأولى التي تَمَّت في القرن الخامس عشر ، من أنه لم يَغْلِب المسلمين في أية ملحمة فعقد مجلساً من الأكشترية والبراهمة لاكتشاف السبب في توالي انكساراته مع أنه أكثر جنداً وأوسعُ أرضاً وأوفرُ مالاً .

بدا البراهمة أولَ المتكلمين فعَزَوْا تلك الانتصارات إلى المشيئة الإلهية لاريب ، بيد أن الأكشترية اعترفوا بأن المسلمين أمهر من الهندوس في الرِّماية وأن خيولهم العربية أو الفارسية أهمّ من فُرُوس الدَّكَن القصيرة ، فأسفر ذلك عن سعي الراجوات في اجتذاب المسلمين إلى جيوشهم فاستطاعوا أن يَضُمُّوا فريقاً من المسلمين إليها فتمّ لهم بذلك بعض الفوز على ممالك الدَّكَن الإسلامية التي مَزَّقَتْها الفتن الداخلية ، وفوزٌ تمَّ للهندوس مثلُ هذا لم يَدُمْ ، مع ذلك ، إلاّ إلى حين إغضاء الممالك الإسلامية عن اقتتالها قليلَ زمنٍ مُتَألِّبةً عليهم .

ولم يَتِمّ ذلك إلا في أواخر الدولة المغولية حين قَلَّت الحروب وانحلَّ عُرَا الجيوش الإسلامية ووقعت في الحال التي نشأت عن جَشَع القُوّاد وعدم اكتراثهم

فألمعنا إليها آنفاً ، وأضحت تلك الجيوش أداة ناقصة فى أيدى الملوك عندما أخذت الفِتَن تشتعل بين الأهالى وشَرَع نواب الملك المسلمون يرفعون رايات العصيان فيُضْعِضون أركان دولة المغول الكبرى .

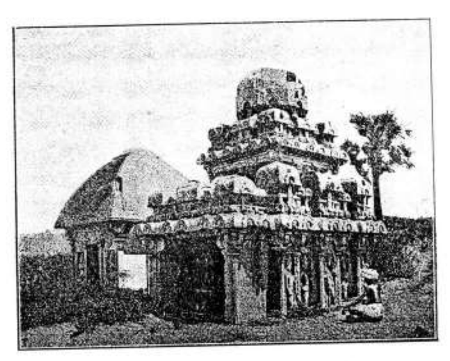
رأى الملك أورنغ زيب الذى عاش فى ميادين الحروب ألاّ يُغادر معسكره ، فاستنفد كنز أسلافه الخفىّ فأحاط نفسه بِقُوًى كبيرة ومِدْفَعِيّة عظيمة وفُروسية منظمة ، فكان يقضى أيامه بين هذا الجيش الرائع الهائل فنُقِل إليه نساؤه وجواهره وثيابه الزاهية على ظهور الفيول تحرسها صفوف متراصة من المحاربين مع المدافع ويتقدمها فريق من محرقى العطور .

وكان الملك إذا ما حَطّ رَحْلَه فى مكان نُصِبَت الخيام بسرعة عجيبة فيُخَيَّل إلى الناظر أن مدينة خرجت من الأرض ذاتَ شوارعَ وميادينَ ومفارقَ وحصونٍ حسنةِ التخطيط ، وكان لكلّ خيمة من تلك مكانٌ مُعْلَمٌ على خريطة مرسومة قبلاً ، فتبدو قصور الملك المتحركة مشتملةً على ما فى أروع المبانى من وسائل الراحة، فالحقُّ أن معسكر أورنغ زيب غدا العاصمةَ الحقيقيةَ للدولة .

ومَثّل النساء دوراً مهماً فى بَلاط ملوك المغول ، فحاول أوائل هؤلاء الملوك ، على الأقل ، أن يَمْزِجوا العرقين أحدهما بالآخر بتزوجهم أميراتٍ هندوسيات وبناتِ لزعماء الراجپوت على الخصوص ، وبِحَثّهم المسلمين على الاقتداء بهم فى هذا المضمار .

ولم يكن لملوك المغول عددٌ معين من النساء فكانوا لا يحترمون شريعة محمد فى ذلك كما أنهم لم يحترموها فى أمور أخرى ، فبلغ عدد النساء فى دائرة حريم الملك

شاهجهان نحو ألفى امرأة ، وما كان شاهجهان ليكتفىَ بهذا العدد ، فكان لا يخشى أن يَبْحَثَ عن خليلات له بين نساء أمرائه ، فأسفر هذا عن سُخْطٍ شديد لمقتِ المغول زناء الأزواج .



٨٨ — مهابلى پور ، معبد مصنوع من جلمود (القرن السادس من الميلاد)

وإذا كان الأمراء يرتاعون من تَوَلُّع الملك بزوجاتهم فإنهم كانوا يُسَرُّون من تَوَلُّعه ببناتهم ، فكان من أقصى أماني الموظف الكبير أن يرى ابنته بين حريم الملك ، فكان يمكن هذه الفتاةَ ، وهى خليلة للملك ، أن تكون عيناً عليه ، وكان يمكن هذه الفتاةَ أن تصبح ملكةً إذا ما راقت الملك ، فتنال بذلك نفوذاً بالغاً وتصير عاملَ سعادةٍ لأُسرتها .

وكان للعجائز اللاتى يراقبن الحريم من النفوذ ، فى الغـالب ، ما يعلمه نواب الملك وملوك الأجانب ، فيشترى هؤلاء ، بسهولة ، حمايتهن لهم بالبراطيل .



٨٩ ــ مهابلى بور ، نقوش بارزة على صخرة تمثل مقاتلة دورغا للغول مهاــورا (القرن الثامن من الميــلاد)

والإنسان يقضى العجب من أُبَّهَة حريم الملك ، فـكان لـكلٍّ واحدة من نِسْوَتِه جَوَارٍ وراقصاتٌ ، وكانت كلُّ واحدة منهن تَلْبَس كلَّ يوم ثوباً جديداً وحَلْياً جديداً .

وكان طُهَاة الملك يُطْعِمون المِلِـكات المعروفات « بِبِي غَمْ » أى اللاتى

لا يَعرِفنَ الغم » ، وكانت الخليلات يَقُمْن بشؤون أنفسهن بما يأخذنه من المِنَح والهِبـات .

والملك شاهجهان أقام المزارَ الرائعَ تاج محـل من أجـل أحبِّ زوجاته لديه وأعزِّهِنَّ عليه ، فَعُدَّ هذا المزار من أعجب ما اشتمل عليه العالم من المبانى .

وسار المغول على غِرَار المسلمين الآخرين فأداموا حضارة هؤلاء مُحِبِّين للآداب والعلوم والفنون حُبًّا جمًّا ، فرحَّبوا بالشعراء والعلماء ورجال الفنّ مهما كان جنسهم ، ولا تزال المبانى التى شادوها ، فلم يَصْنَع الغرب ما هو أروع منها ، تُثِير العجب ، ولم تكن العلوم دون الفنون حُظْوَة فى دولتهم فأنشأوا المدارس وأقاموا المراصد ، وحُبُّ المغول لعلم الفلك وَرِثوه كابراً عن كابر ، فقـد جلب خان المغول هلاكو إلى بَلاطه أشهر علماء العرب وأقام فى مراغة مرصداً كبيراً سنة ١٢٥٩ ، ولما اتخذ تيمورلنكُ مدينةَ سمرقند عاصمة لدولته العظمى أحاط نفسه فيها بالعـلماء ، ولما حلَّت أواسط القرن الخامس عشر بنى حفيده أولوغ بك مرصداً مُجهَّزاً بآلات رَصَد رائعة نذكر منها ربعَ الدائرة التى بلغ نصف قطرها ارتفـاعَ كنيسة أياصوفية فى القسطنطينية على ما يُرْوَى فأسفر ذلك عن نتـائج ذات قيمة فى الفلك فنشر أولوغ بك هـذه النتائج فى كتاب مهم مشتمل على أهمّ مسائل الفـلك وعلى مواضعَ صحيحة للنجوم[1] .

---

(١) لايزال يرى فى دهلى مرصد أنشىء فى العصر المغولى ، فهذا المرصد قد أقامه راجه جيبور : جى سنغها لملك المغول محمد شاه حوالى سنة ١٧٢٠ ، وراجه جيبور هذا استعان بفريق من الفلكيين والمهندسين والرياضيين ، فاحتوى ذلك المرصد على ساعة شمسية يبلغ ارتفاعها ١٧ متراً و٢٥ سنتيمتراً ويبلغ طول قاعدتها ٣١ متراً و٧٢ سنتيمتراً ، وراجه جيبور هذا أتم بناء المرصد =

ولم يَبْدُ ملوك المغول حماةً للآداب والعلوم وحدَها ، بل ترى الكثيرين منهم قد حَذِقوها أيضاً ، فالحقُّ أن حبّ الآداب ، ولا سيما الشعر ، كان نامياً عندهم ، فألّف بعضهم كتباً مهمة فيها ، ونذكر من بين ملوك المغول تيمورلنك الشهير الذى أقام فى بغداد ، كما يُرْوَى ، هَرَماً من مئة ألف رأسِ إنسانٍ فأنشأ المدارس وشمَل العلوم بعين رعايته وألّف كتباً ذات قيمة ، وكان حَفَدَته بابَر وجهانكير وغيرهما مثلَه ميله فعُدّت مذكرات بابَر ، التى شُبِّهَت بتفاسير يوليوس قيصر ، نموذجاً حسناً فى الآداب ، ومن هذه المذكرات نعلم جَمْعَ المغولىّ بين الوحشية والمدنية علماً أحسنَ مما فى جميع كتب المؤرخين ، ولا شىء يَشْمُل النظر أكثرُ من تَجَلّى حقيقة مؤسس الدولة المغولية بالهند بابَر فى مذكراته تلك ، فبابَر ، هذا الجبّارُ الذى هو سليل جنكيز خان وتيمورلنك ، سار على سُنّة أجداده فأقام أهراماً من الرؤوس المفصولة ، وتبصره ، مع جَبَرُوته هذا ، أديباً رقيقاً ، وكان بابَر هذا يتكلم المغولية والعربية والفارسية ، وله قصائد باللغة الفارسية ، وكان بابَر هذا صبوراً على مطالعة كتب العلوم والآداب والتاريخ ، وكان حُبّه للقراءة لا يمنعه من أن يكون مقامراً كبيراً

= الذى تشاهد أطلاله فى مدينة بارس ونشر أزياجاً ، وعلى ما تجده من بساطة هذه المراصد ، إذا ما قيست بآلات الرصد الحديثة ، أدت إلى نتائج صحيحة فى علم الفلك بفضل أبعادها مع بساطة طرقها ، وتنويراً للذهن نقول : إن تعيين انحراف سمت الشمس وعرض أحد الأمكنة يكون بساعة شمسية مؤلفة من جدار قائم مقسوم إلى درجات ذى ميل مستقر به استقراراً عمودياً ، فتحدث الشمس عليه ظل هذا الميل ، فترصدات الشمس المكررة كل يوم إذ كانت تسفر عن قيد أكبر مسامتة لها وأصغر مسامتة لها كان نصف الفرق بين الرقمين دالا على أبعد حد لنصف النهار ، ومن ثم على انحراف سمت الشمس ، ونحن بطرحنا هذا الرقم من أعظم مسافة للمسامتة نتوصل إلى عرض المكان ، فعلى هذا الوجه وجد العالم الفلكى المذكور آنفاً رقم ٢٣ درجة و ٢٨ دقيقة كأبعد حد لنصف النهار ، أى وجد رقماً قريباً من الرقم الصحيح بنحو نصف دقيقة .

وشاربًا مفرطًا ورفيقًا أنيسًا وباسلاً وَفِيًّا لأصحابه مع استخفاف وتهكم ، وبابَرُ هذا ، مع علمه كيف يبدو ملكاً كبيراً عند الاقتضاء ، كان يدعو السفراء ، الذين يَفِدون على بَلاطه ، إلى طرح الكُلَف الرسمية جانباً في بعض الأحيان ليَقْضوا معه ساعة لهو ومَرَح ، وبابَرُ هذا ما كان ليرى حَرَجاً فى الجدل حول مسئلة علمية أو منطقية أو لاهوتية عند انهماكه فى السكر ليلاً ، وفى كلِّ صفحة من كتاب بابَر المملوء بأدقّ ضروب النقد والنوادر تَجِد سِعَة اطلاع من غير تَنَطُّع ، وفى هذا الكتاب تَجِد أنه كان يتَمسَّك بالنكتة أو الكلمة الطيبة أينما وَجَدها ، ومما حدث ذات يوم أن أدركه ثلاثة فرسان بعد سَيْر يومين على أثر معركة خَسِرها فوَقَف فالتفت فقال لهم ساخراً متكبراً : « أريد أن أرى ، أيها الشجعان ، أيُّكم يجرؤ على مَشْى قبل الآخر » ، فارتبك هؤلاء الفرسان الثلاثة بفعل سُخْرِيته فقالوا مرتدين حالاً .

حقًّا أن بابَرَ ، المِقْدَام الموهوب العالِم الذى يُعَدُّ من أقوى الفاتحين فى العالم ، كان يجمع فى شخصه مغامرة عرقه ورقته وهمجيته ، فكان ، حينما مات ، وهو ابن خمسين سنة ، ملكَ الهند التى دَوَّخها باثنى عشرَ ألفَ جندىّ بعد أن ظهر زعيمَ قرية وهو فى السنة الثانية عشرة من عمره .

وكلُّ مقابلةٍ بين شعوب الشرق وشعوب الغرب إذ كانت خادعة على الدوام غدا من الصعب أن تقايس بين العصر المغولىّ وأىّ دور جاوزته أوربة كالدور الإقطاعىّ مثلاً ، فالفارس المغولىُّ والبارون النصرانىّ ، وإن تماثلا ذوقاً وسفكاً ،

كان الأول منهما أفضلَ من الآخر ثقافةً وحُبًّا للآداب والعلوم والفنون بدرجات ، وأرى ، مع ذلك ، أن المقابلة ممكنةٌ بين العصر المغولى وعصر النهضة ، فالأمير المغولىّ والأمير الفرنسىّ كانا متماثلين ، لا ريب ، فى حُبِّهما للمخاطر الدامية والمبارزة بالسيف وأمور الشرف والجواهر الثمينة والملابس الزاهية والأشعار الدقيقة وفى احتقار ذلك الحيوان الذى كان يُدْعَى فى أوربة بالقَدَّاد وفى الهند بالشودرىّ .



الباب الخامس

آثار حضارات الهند



الفَصْلُ الأوّل

آدابُ الهندِ ولغاتها

---

(١) قيمة آثار الهند الأدبية القديمة ــ قيمة آثار الهند الأدبية ضعيفة من الوجهة الأوربية ــ نقائص آداب الهند ــ (٢) النشائد والأشعار الدينية ــ الآداب الويدية ــ مختارات مختلفة ــ أنشودة إندرا الويدية ــ أنشودة الفجر الويدية ــ أنشودة الشمس الويدية ــ أنشودة الروح العليا الويدية ــ أنشودة برهما ــ أنشودة آدى بدهة البدهية ــ (٣) القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى ــ المهابهارتا ــ أهميتها فى الهند ــ خلاصة ومقتطفات ــ دخول الجحيم ــ دخول جنة إندرا ــ الرامايانا ــ خلاصة ومقتطفات ــ هبوط القتفا ــ طلوع القمر ــ اصطياد الغزال السحرى ــ إعلان حب سيتا ــ جيش شيوا ــ (٤) الأمثال والأساطير ــ يمكن الأمثال أن تكون أهم ما أنتجته الهند ــ أهمية البنج تنترا ــ ترجمتها إلى أكثر لغات العالم ــ الهتو بديشا ــ الأساطير ــ (٥) *التمثيل الهندوسى ــ شأن الحب فيه ــ الحوادث الخارقة التى فيه* ــ ضعف التمثيل الهندوسى ــ شكنتلا ــ (٦) آثار أدبية مختلفة ــ تنوع الموضوعات ــ البورانا ــ الأوپانشد ، الخ . ــ (٧) لغات الهند ــ تشتمل الهند على أكثر من ٢٤٠ لغة ولهجة ــ تقسيمها إلى خمس فصائل ــ أهم تلك اللغات ــ صعوبة تبين الأمكنة فى الهند .

---

١ ــ قيمةُ آثار الهند الأدبية القديمة

كَتَبَتِ الهندُ ، وانتهى إلينا كثير مما كَتَبَت .

وظُنّ ، حينما أسفر بحث بعض الأوربيين فى السنسكرت عن كشف النقاب عن آداب الهند المجهولة ، أن عالمَاً من العجائب والطرائف سيخرج من دياجير الماضى

الحافل بالأسرار ، وظُنّ ، على الخصوص ، أنه اكتُشِف مصدر جميع الحضارات وجميع الأديان وأننا ، برجوعنا إلى عَنْعَنات عرقنا الحقيقية ، نهتدى إلى العصر الذهبىّ الضائع وإلى سرّ مصيرنا .

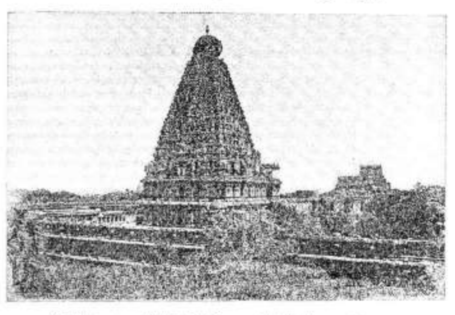
ولسُرْعان ما فتَرَت تلك الحماسة ، فقد عُرِف أن حياة شعوب الهند القديمة وأفكارها مهما كانت انتهت هذه الشعوب ، مثلما انتهينا ، إلى مُعْضِلات كبيرة من غير أن تَحُلّ واحدة منها ، فما كانت الكلمة الأخيرة التى تطمئن إليها نفوسنا لتأتينا من ضِفاف الغَنْج ، وما كان حبُّ الاستطلاع الشديد الذى أثارته المباحث الأولى فى كتب الهندوس إلاّ لينقلب بسرعة إلى عدم اكتراث .

ولسنا بالذين ندرس كتب الهند فى هذا الفصل من حيث قيمتها الفلسفية كدرسنا ما فيها من الوثائق النافعة فى البحث التاريخى ووصف الطبائع ، بل نبحث فيها من الناحية الأدبية فقط .

بُولِغ فى تقدير كتب الهند الأدبية فى البداءة ، ولم يُتَحَرّج فى تفضيلها على غُرَر آداب اليونان والرومان ، والواقع أن ما فى آداب الإغريق وروما القديمة من المحاسن التى تقضى بالعجب تُغْرِينا بالإعراض عن الكتب الهندوسية ، فما فى شعر الإغريق والرومان ونَثْرهم من الترتيب والوضوح والاعتدال والانسجام والقصْد الرائع الكامل يجعل الأوربىّ صَعْب المِراس ، فما كان مذهبنا الارتيابىّ الحديث إلا ليزيد مَقْتَنا المبالغة والإغراب ، وما كان ليَسْهُل على قُرّاء هذه هى حالهم أن يُعْجَبوا بما وَصَل إليهم من آداب الهندوس الضخمة المشوشة المُمِلّة المملوءة بالخوارق .

بَيْدَ أنك تُبْصِر ، بين هذه المبالغات وهذا الغلوّ فى الخيالات وتجسيم الموضوعات

الحقيقية البسيطة والشعور الصادق الخالص وتَمَوُّج الأهواء والعواطف، تصويراً للروح والطبيعة عما هو طريفٌ لامع أحياناً ، وترانى أشبَه ، طائعاً ، الآدابَ الهندوسية بنهر يشتمل ترابه على شُذُور من التِّبْر ، فيجب على من يرغب فى استخراج بعض هذه الشُّذُور أن يجمع إليه عِدّة أمتار مُكعَّبة من هذا الطين .



٩٠ ــ تانجور . منظر الزون الهرى ومداخله (القرن الحادى عشر من الميلاد)
أخذت هذه الصورة من خلف الزون (يبلغ ارتفاعه ٦١ متراً)

ولا نَعْرِض على القارئ فى المختارات التى ننشرها فى هذا الكتاب سوى شُذُور من الذهب ، فإذا ما استَنْبَط منها أن جميع ما أنتجته قرائح الهند هو من نوعها غافلاً عن أن هذه النتائج تحتوى على أكداس عظيمة ثقيلة مُمِلّة فإنه يكون مخدوعاً خَدْعَ من يُخَيَّل إليه أن تراب ذلك النهر من شُذُور التِّبْر فقط .

ويجب ألاّ يُعَدّ هــذا الفصل الذى تدرس فيه آداب الهند إلاّ لَمْحَةً إلى أهمّ

ما هو معروف منها ، فعلى القارئ الذى يريد أن يكون على علم واسع فى هذا المضمار أن يَرْجِع إلى الكتب التى نشرنا مختارات منها فى هذا السِّفْر والتى تُرْجِم الشىء الكثير منها إلى الفرنسية والإنكليزية ، والقارئ إذا لم يكن عالماً بآثار الهند ، أى إذا لم يكن من المعجَبين بكلّ ما يصدر عن السَّنسكرت إعجاباً تقليدياً فإنه لا ينظر حَمِساً إلى الآداب الهندوسية ، وهو يَصِل مثلنا ، لا ريب ، إلى النتيجة القائلة إن هذه الآداب إذ كانت تلائم أدمغة الهندوس وكانت تقضى بإعجابهم الموروث منذ قرون فإنها ليست مما يقرأه الأوربيون بشَغَف لعدم ارتباطها وانسجامها ولما فيها من المبالغة والإسهاب المُمِلّ وإبْعادها من المنطق .

وسنقتصر فى المطالب الآتية على تحليل أشهر آثار الهند الأدبية بإيجاز وعلى مقتطفات قصيرة منها .

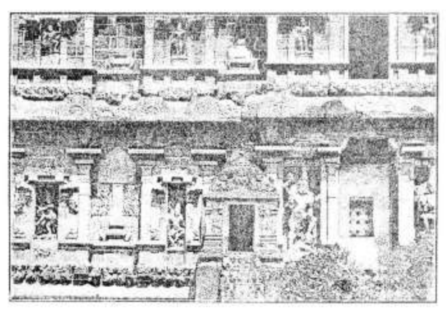
ولكى تجْلُو موضوعاً ذلك مدى اتساعه جَلاء نِسْبِيًّا رأينا أن نجعل عناوين تلك المطالب ما يأتى : الأناشيد والأشعار الدينية — القصائد الحماسية — الأمثال والأساطير — التمثيل — آثار أدبية مختلفة .

٢ — الأناشيد والأشعار الدينية

إذا عدَوْتَ القصائدَ الحماسية الكبرى التى ندرسها فى مطلب آخر رأيتَ الأدبَ الويدىَّ الصحيح يتألف من أناشيدَ ورسائلَ دينيةٍ تُعْرَف بالويدا .

وقد أُتيح لنا فيما تقدم أن نتكلم مطولاً عن الأناشيد الويدية وأن نستشهد بكثير منها وأن نشير إلى مناحيها العامة ، فعلى مالا مِرَاء فيه من جمال القليل منها نوافق العلامة كولبروك على رأيه القائل : « إن ما تشتمل عليه كتب الويدا لا يستحق

أن يُقرَأ ولا أن يترجم . » والعلامة كولبروك هـذا تلقى من براهمة بنارس علمَ الويدا فـكان من الصبر ما قرأها كلّها معه ، وهو الذى سُرّ ، مع ذلك ، من معرفة أوربة لها لما اشتملت عليه من المعارف ذات القيمة فى تاريخ الحضارة كما ذكرنا ، فهذه الـكتب هى الوثائق الوحيدة التى آلت إلينا من عصر يَظَلُّ أمره مجهولاً بدونهـا لا ريب ، وهذا مع إمكان جمع جميع المختارات المفيدة التى تُقْتَطف من كتب الويدا فى بضع صفحات .



٩١ ــ تانجور . دقائق نقوش فى الزون السابق (القرن الحادى عشر من الميلاد)

ولا تتـألف الآداب الويدية من الرِّغْ ويدا وحـدها ، بل تشتمل أيضاً على نشائد وأحكام وعهود ، ومما قلناه إن هذه الآداب نَضِجَت مقداراً فمقداراً ، وإن من السُّخف أن يسير الباحث على غِرار بعض المؤلفين فَيَنْشُد فيها « انبساطَ القلب وصَفْوَ الطبيعة وسعياً وراء المَثَل الأعلى » .

وبُدِئَ بوضع كُتُب الويدا قبل ظهور المسيح بألف سنة ، ولم تفتأ تُصَحَّح في أكثر من ستة قرون ، وكانت قبل تدوينها ، كدائرة معارف مشتركة ، يُنَقِّحها الناشرون ويكملونها في كلّ استنساخ مستعينين بمساعدين جُدُد .

ونجد في الآداب الويدية أثراً لهذا النشوء البطيء ، ولا نجد الأجزاء التي تتألف منها متجانسةً في مجموعها ، وهنالك يُعَدّ بين شعر بعض النشائد وأمثال السوترا الموجزة التي ذكر واضعوها لا ريب قولَ كاتب هندوسيّ : « إن المؤلف أن يُسَرّ إذا ما اختصر بمقدار النصف حرفَ علةٍ قصير كما لو رأى نفسه قد وُلِد صبياً . » والهندوس يسيئون استعمال هذه القاعدة قليلاً ، مع ذلك ، لا من حيث الاختصار ، بل من حيث الغُلوّ في الإسهاب الذي فيه عيبهم .

ويُعَدّ ما في الرِّغ ويدا من ألوف الأدعية أهمّ أقسام الويدا من الوجهة الأدبية ، ونصفُ ما في الرِّغ ويدا خاصٌّ بإلٰه السماء إندرا وبإله النار أغني ونصفُه الآخر خاصٌّ بالآلهة الأخرى : الشمسِ والطبيعةِ والسُّحُبِ ، الخ . وفي هذا الكتاب استشهدتُ ببعض مقتطفات منها ، والآن أذكر أهمَّها مكرراً قولي إن قيمة تلك الآثار الأدبية العظيمة لا تُقَدَّر بمثل هذه المختارات ، ولا أقتصر على ما تَيَسَّر من الويدا وحدَها بل أُضيف إليه أُنشودة برهما للشاعر كالي داسا الذي يُظَنّ أنه عاش في القرن السادس من الميلاد وأُنشودةً سَنْسكرتية اقتطفناها من مخطوطات نيبال البُدْهيَّة التي نشرها مستر هوغسن ، ولم تُترجم هذه الأخيرة إلى الفرنسية بَعْدُ ، وتجد فيها رَوْعَة التوراة التي تَنْدُر في المُدَوَّنات البُدْهية المطولة على العموم والتافهة على الخصوص .

أنشودة إندرا الويدية

« إندرا هو الإله المولود الأول ، هو الإله المجيد الذى زيّن الآلهة الأخرى بأعماله ، هو الإله الذى يزلزل السماء والأرض بقدرته وعظمته التى لا حدّ لها .

« إندرا هو الإله الذى يُثبّت الأرض الراجفة ، ويُمْسك السماوات ويُبَدِّد السحبَ العاصفة ويُوسِّع الأجواء .

« إندرا هو الإله الذى يَهَب الحياة لكلّ موجود ، هو الذى يَطَأ أعداءه الأنذال فى المغاور المظلمة ، هو الذى يَقْبِض على جُثثهم كما يَقْبِض الصائد على القنيصة.

« إندرا هو الإله ذو الوجه الجليل الذى يأمر الأغنياء والفقراء بالصلاة ، هو الذى يستغيث به الكاهن فى أدْعِيَته والشاعر فى نشائده ، هو الذى يرضى عما يَهَب .

« إندرا هو الإله الذى يملك الجياد والحقول والعِجَالَ والمدن والمَرْكَبات المملوءةَ كنوزًا ، هو الذى يجىء بالشمس والفجر ، هو الذى يُسِيل المياه .

« إندرا هو الإله الذى ينصر الأمم ، هو الذى يطلب المجاهدون منه العَوْن عند القتال ، هو الذى يبدو مثال الكَوْن ، هو الذى يَهَبُ الحياة للموجودات غير الحية .

« إندرا هو الإله الذى لا يُظْهِر قوته إلّا ليجازى الخبيث والكفور بلا انقطاع ، هو الذى لا يعفو عن الطاغين المستهزئين ، هو الذى يذبح الغيلان .

« إندرا هو الإله الذى تسجد له الأرض والسماء ، هو الذى ترتجف أمامه الجبال ، هو الذى يُرْسل الصواعق .

« إندرا هو الإله الذى يَقْبَل الإراقةَ والقرابين والأناشيد والأدْعية ، هو الذى يُجير الأتقياء ، هو الذى يُسَرُّ بضحايانا وهباتنا » .

أنشودة الفجر الويدية

« الفجر هو التُّرْجمان المنير للكلام المقدس ، الفجرُ يَنْشُر حُلِيَّه ليفتح لنا أبواب النهار ، الفجرُ يضىء الكون فيُطْلعنا على كنوزه ، الفجرُ يُنَبِّهُ الخلائق ، الفجرُ يدعو العالَمَ الراقد إلى الحركة بيده القادرة ، الفجرُ يَحْفِز الإنسان إلى البهجة والسرور وإلى القيام بالشعائر المقدسة وإلى العمل لنيل السعادة ، الفجرُ ، على عكس الظلام ، نُبْصِر به كلَّ بعيد ، الفجرُ ، ابن السماء ، يبدو لنا نافعاً لامعاً مُدَثَّراً بدِثار ساطع رَبّاً لكل تَرَاءٍ فى الأرض ، الفجرُ يُنْعِش بضيائه كلَّ موجود ويبعث كلَّ خامد ، فمتى يزورنا الفجر ؟ الفجر الذى ينيرنا الآن يكون كالذى جاء قبله ، ويكون مثله الذى يأتى بعده ، هو ينيرنا كغيره ، عادوا غير أناس أولئك الذين رأوا الفجر يتلألأ كما يتلألأ اليوم ، والآن حَلَّ دورنا لرؤيته ثم يَحِلُّ دور أناس آخرين يرَوْن الفجر بعد زمن فيموتون . . . الفجرُ فى حِمًى من الهَرم والموت ، فيتقدم ناشراً سَنَاءه غامراً شواطىء السماء ، الفجرُ إله النور وهو يُبَدِّد الظلام النَّحِس ، الفجرُ يُحْيى الطبيعة من فوق مركبته الرائعة التى تَجُرُّها جياد حُمْر ، أفيقوا ، إليكم روحاً جديدةً تسرى فينا ، الظلُّ يبتعد والنهار يقترب ، فقد مَهَّد الفجرُ الطريقَ التى تسير منها الشمس ، هَلُمُّوا إلى النور ، هَلُمُّوا إلى الحياة ! » .

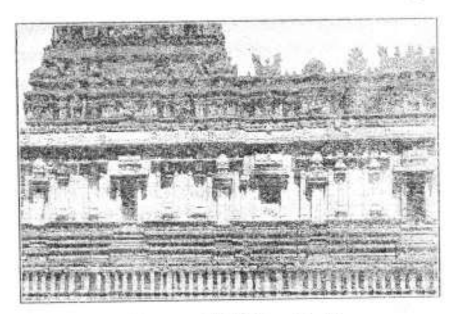
أنشودة الشمس الويدية

« أشعة النور تُظهر العالَمَ فتُنْبِئ بالإله الذى يعلم كلّ شىء ، تُنْبِئ بالشمس التى إذا ما بَدَت توارت النجوم كاللصوص وتَبَدَّد ظلام الليل ، أشعةُ الشمس الساطعة كالنار تُسَلِّمُ على جميع المخلوقات ، الشمسُ تجرى وتبدو للأعين وتبعث النور ويملأ سَناؤها الأجواء وتنهض أمام كتيبة الآلهة وأمامَ الناس والسماء فيراها كلّ واحد ويُعْجَب بها ، الشمسُ تُزَكِّى وتُزِيلُ الهمَّ بضيائها الذى يغشى الأرض المملوءة أناساً ، الشمسُ المشرقة تَغْمُرُ السماء والأجواء وتُبْدِع الليل والنهار وتُبْصِرُ كلّ ذى حياة ويَجُرُّ مركبَتَها سبعةُ جياد شُقْر ، الشمسُ إله يرى كلّ شىء وتُكَلِّل الأشعة شعره الجميل ... ونحن ، بعد أن يزول الظلام ونرى النور الرائع ، نسجد أمام ذلك الإله الذى يسطع بين جميع الآلهة ويظهر أنْضَر من جميع الكواكب . »

أنشودة الروح العليا الويدية

« لم يكن شىء فيما سَلَفَ ، فلا وجود ولا عدم ولا عالم ولا سماء ولا أثير فيما خلا ، فأين كان غِلافُ كلّ شىء ؟ وأين كان حَوْض الماء وموضع الهواء إذَنْ ؟ لم يكن موتٌ ولا خلود ولا نهار ولا ليل ، والكائنُ وحدَه كان يَتَنَفَّسُ من غير أن يستنشق شيئاً غارقاً فى ذاته التى لم يكن شىء خارجاً عنها ، وكانت الظُّلُمات بعضها فوق بعض ولم يكن للماء سَناً ، فكان كلُّ شىء ممزوجاً به ، وكان عرش الكائن فى الفضاء الذى يَحْمِلُه ، ثم بَرَأَ الكَوْن بإرادته بعد أن نشأت فيه الرغبة التى هى أصل كلّ شىء ، هذا ما قاله الحكماء الذين يُفَكِّرون بقلوبهم وعقولهم فينفُذُون ببصرهم

الحديد كل أمر فى الأعلى وفى الأسفل وفى أى مكان ما كَمَنَت فيهم بذور اللقاح أى عظيمُ الأفكار، سيبقى جوهر الكائن الأعلى بعد فناء كلّ شىء كما كان قبل خلق كل شىء، ولكن من يَعْرِف هذه الأسرار؟ ومن يستطيع أن يكشفها؟ ومن أين تأتى هذه الموجودات ومن أين يأتى هذا الكون؟ أراد الكائن الأعلى خلقَ الآلهة فبَرَأها، ولكن من يَعْلَمُ مصدر هذا الكائن الأعلى ومصدر هذا الخلق الواسع؟ .. »



٩٢ — تانجور . دقائق نقوش فى معبد سبرمانية
(ضمن اطاق الزون) (القرن الخامس عشر)

أنشودة برهما لكالى داسا

« المجدُ لكَ أيها الإله ذو الصور الثلاث الذى لم يكن غير ذى طبيعة واحدة قبل التكوين، فلما بَرَأْتَ الكونَ انقسمتَ إلى ثلاث صور لكى تبدوَ صفاتُكَ

الثلاث ، القدرةُ والذكاء والحلمُ ، أحسنَ مما كانت عليه ، أيها الخالق غيرُ المخلوق ، لقد انتشر أصلك فوق الماء فصدر عنه كلّ متحرك وساكن ، ويُقدَّس لك لأنك بارئُ كل شيء ، وأنت ، إذ تجلّتْ عظمتك على ثلاثة وجوه ، كنتَ السببَ الواحد للخلق والديمومة والفناء ، والعنصرُ المؤنثُ والعنصرُ المذكرُ هما أصلا طبيعتك ومنهما يُبثُّ كل موجود ، قسّمتَ الزمان إلى ليل ونهار ، ويُسْفِر نومك ومُهادك عن هلاك المخلوقات وبعثها ، لا أول لك ولا آخر ، وأنت أصل العالم وغايته ، وكنتَ قبل الخلق ولم يكن شيء قبلك ، ولا ربّ لك وأنت رب كل شيء ، وأنت تَعْرِف نفسك بنفسك ، وتَبْرَأتَ نفسك بنفسك ، وتَقْصُرُ نفسك بنفسك ، أنت أبو الآباء وإله الآلهة ومُبْدِع العلم وموضوعُه والبصيرُ وغايةُ البصر . »

أنشودة آدى بُدْهَة البُدْهِيّة

« ١ — لم يكن شيء في البَدَاءة ، وكلُّ شيء كان فضاء ، وما كانت العناصر الخمسة موجودة ، هنالك بدا آدى بُدْهَة المُنَزَّهُ على شكل لهيب أو ضياء .

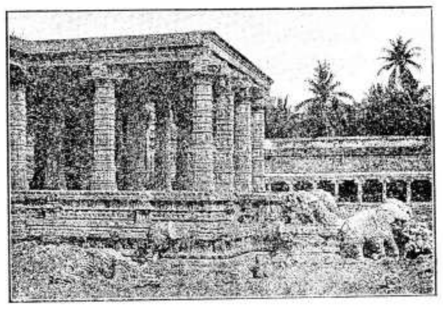
« ٢ — يشتمل آدى بُدْهَة على الفونات الثلاث ، وفيه يتجلى مهامورتى ووِيسواروبا (صورةُ كلّ شيء) ، فهو بُدْهَة الكبيرُ الذى أوجد نفسه بنفسه ، هو أديناثا ، هو مَهِيشْوَر .

« ٣ — آدى بُدْهَة هو أصل ما في العوالم الثلاثة من الموجودات ، وهذه الموجودات كانت بفضله ، فمنه ومن عميق تأمُّله انبجس الكَوْن .

« ٤ — آدى بُدْهة موجود بنفسه ، هو أسوارا ، هو جَمّاع للكمال ولما لانهاية له ،

هو لا أعضاء له ولا عواطف فيه ، وجميعُ الأشياء صورته وإن لم تكن له صورة ، هو شكل كلِّ شيء وإن لم يكن له شكل .

« ٥ — آدى بُدّهة لا يُجَزَّأ ، ولا وجهَ مرئيًّا له ، والألم لا يجد إليه سبيلاً ، وهو مصدر قدرته الذاتيـة ، وهو أبديٌّ بطبيعته ، ولكنه غير أبديّ فى تجلياته ، فتراني أسجد أمامه .



٩٣ — شلمبرم . مدخل معبد ذى محمد (القرن الخامس عشر) (يرجع أقدم أجزاء هـذا المعبد إلى القرن العاشر ، ولكن هذه الأجزاء توارت تحت ما أنشىء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر)
(يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى أعلاها ثلاثة أمتار و ٥٥ سنتيمتراً)

« ٦ — آدى بُدّهة لا أول له ، هو كامل ، هو خالص جوهراً ، هو أصل الحكمة والفضيلة المطلقة ، هو يَسْبُر الماضى ولا تبديل لكلماته .

« ٧ — آدى بُدَّهة لا شبيه له ، هو موجود فى كل مكان ، هو شديد البأس على الأشرار مثلُ الأسد الذى يَهْصِر الظَّبْيَ الوديع . .

« ١١ — آدى بُدَّهة يُنْعم على ذوات الحسِّ بالسعادة ، وهو يُحِبُّ من يخدمونه ، وهو يملأ بعظمته القلوبَ رهبةً واحتراماً ، وهو يكشف الكرب عن المكروبين .

« ١٢ — آدى بُدَّهة حائز للفضائل العَشْر ، وهو ينعم بها على من يُمَجِّدونه ، وهو يملِك بِقاع السماء العَشْر ، وهو ربُّ العالم ، وهو يملأ بوجوده السماوات .

« ١٥ — هو خالق جميع البُدَّهات وكثيراً من البُدَّهِى ستوايات الذين يُحِبُّهم ، وقد خلق العالم بمعونة برانجا ودهرما (واحد من الثالوث البُدَّهِى) ، وليس له خالق ، وهو مبدع الفضيلة ، وهو يُعِيد كلَّ شىء إلى العدم » .

٣ — القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى

المهابهارتا . — قصائد المهابهارتا العظيمة من أضخم آثار العالم الأدبية فضلاً عن آثار الهند الأدبية القديمة ، وهى تشتمل على ٢١٥٠٠٠ بيت شعر مع أن الإلياذة لا تحتوى على أكثر من ١٥٠٠٠ بيت ، ولا تحتوى الأوديسة على أكثر من ١٢٠٠٠ بيت ، ولا تحتوى الإينيئيد على أكثر من ١٠٠٠٠ بيت ، ويتألف من المهابهارتا خمسةَ عشرَ مجلداً عادياً يبلغ مجموع صفحاتها ٧٥٠٠٠ صفحة .

وللمهابهارتا أصل أضيف إليه مع الزمن شىء كثير ، فتُعَد المهابهارتا من عمل القرون ، لا من عمل رجل واحد ، وتُقَدَّر المدة التى انقضت بين وضع نصِّها الأصلى وآخر تصحيح فيها بألف سنة ، ولا يمكن تحديد عمرها بالضبط ، ولكنّ من المشكوك فيه أن يكون أحدث أقسامها قد وُضِع بعد القرن الثالث من الميلاد .

والمهابهارتا عظيمُ أهميةٍ لدى الهندوس ، فقد قيل إن كتب الويدا الأربعة وُضعت فى كِفَّة ميزان وإن المهابهارتا وُضِعت فى الكِفَّة الأخرى أمام الآلهة مجتمعةً فرَجَحت كِفَّة المهابهارتا ، ومما نُصَّ عليه أن قراءة ما تيَسَّر من المهابهارتا يمحو الذنوب ، والحقُّ أن تقديس الهندوس المهابهارتا كتقديس النصارى للكتاب المقدس وتقديس المسلمين للقرآن ، ويعتقد الهندوس أن المهابهارتا وُضِعت فى السماء وأن الآلهة أنعمت بها على الناس .

وعنوانُ المهابهارتا ، أو بهارتا الكبير ، تلخيصٌ « لقصة شعب بهارتا الكبرى » ، وتُخْبِر هذه القصة باصطراع الياندوا والكوروا فَرْعَىْ أسرة البهارتيد القمرية التى استقرت بمدينة هَسْتِنَاپورا القديمة الواقعة بالقرب من دهلى .

وتبدأ المهابهارتا بالأدعية والفواتح والأنساب ، ثم تشتمل على قصة مؤلفة من استطرادات وإيضاحات وتكرارات مُطَوَّلة يَمَلُّ الأوربى منها ، وفى المهابهارتا اختلطت الروايات بالأساطير اختلاطاً لم يُفَكِّر معه واضعوها فى ربط بعض أجزائها ببعض .

وتقوم القصة على اقتتال أبناء پاندو الخمسة (الپاندَوا) وأبناء دهرى تَرَاشتْرا المئة (الكوروا) وأُطِلَّ دم الپاندوا ، المشابهين لهركول وثيزة اللذين ذُكِرا فى الأساطير اليونانية ، ولفرسان القرون الوسطى التائهين ، فجابوا بلاد الهند وأنقذوها من الغيلان المفسدين وقاموا بغريب الأعمال ، وقاتلوا عفاريت غاب الأساطير الهندوسية الراكشسا المفترسين للناس والقادرين على الظهور بمختلف الصور والسِّباحة فى الأجواء ، وأشدُّ أولئك الإخوة الخمسة (الپاندوا) هؤلاء هو العملاق بهيماسينا « ذو الذراعين

الطويلتين والبطن الذنبي » ، فقد استأصل الراك شسا الذكور وأغوى بناتهم بجماله نائلاً الجوائز في جميع مسابقات الفروسية .

وفاز أحد أولئك الإخوة الخمسة على منافسيه الكثيرين ، فنال درويدي الحسناء ابنة الملك درويدي مُوتّراً قوساً لم يقدر إنسان على ثنيه ، وخرجت الآلهة من منزلها السماوي لتشهد القتال على حسب العادة ، وتزوج أولئك الإخوة الخمسة بهذه الحسناء معاً ، وفي هذا دليل على تعدد الأزواج من الذكور في الهند في سالف الأزمان .

ولم يلبث أولئك الإخوة الخمسة أن سقطوا بعد أن بلغوا ذروة السلطة ، وذلك عما اقترفه أحدهم الذي خسر كنوزه وقصوره في المَيْسر ، والإخوةُ الخمسة أولئك إذ أعسروا بذلك رجعوا إلى حياة السياحة ومعهم درويدي الحسناء ، وأخذوا يتلهّون بسماع ما يَقصُّه النُّسَّاك والجنّ عليهم من أنباء الخوارق التي لا نهاية لها ، وهكذا قامت حياتهم على سماع الأساطير والقتال ، ومما حدث أن بلغ أحدهم أرجُنا من البأس ما حارب به الإله شيوا المتنكرَ في صورة صياد ، أجَلْ ، إنه قُهِر ، ولكنه اعتذر عن ذلك بأنه التزم جانب الحِمْيَة فاقتصر على الاغتذاء بالهواء وجافّ الأوراق واقفاً على إبهام رجله رافعاً ذراعيه طامعاً أن ينال بهذا الزهد درجةَ إله في السماء على رأي الهندوس ، ومما يُذكر هنا أن مما يُزْعِج مجلسَ الآلهة أن يرى الناسَ يقومون بتوبة قاسية ، وأراد أرجُنا ، ذلك الذي قاتل شيوا ، أن يَفْتِن الآلهة فذهب ، كأبطال دانتي ، إلى السماء ، وقاتل العملاقُ بهياسينا « ذو الذراعين الطويلتين والبطن الذنبي » بقوة بيانٍ الثعبانَ الهائل الذي لَفّ به فلم يتركه ، كما فعل أبو هول إديب ، إلاّ إذا حَلَّ ألغازه

ولم يَنْقَن أولئك الإخوة الخمسة أمام تلك الأعمال المرهوبة بفضل ذُرْعانهم الساحرة ، فهزموا وحدهم جيشاً خرَج على مَلِك كانوا جنوداً له كاتمين أسماءهم .

وتجدُ قِصَص أعمال البطولة ممزوجة بالخوارق فى المهابهارتا ، وتجد اختلاط مسائل ما بعد الطبيعة بكثرة فيها ، فترى فى الكتاب السادس منها ، مثلاً ، مباحث دينية مُطَوَّلة ، وفيها تُبْصِر كِرِشنا الذى تجَسَّد فيه الكائن الأعلى وِشنو يُحَدِّث فى وسط المعركة أخاه أرجُنا الباسلَ ، الذى تجسَّد فيه وشنو أيضاً ، عن بُطْلان متاع الدنيا وعن مصير المخلوقات وعن تدرُّجها إلى الفناء فى برهما وعن وجوب قمع الرغبة وما إلى ذلك من النظريات القريبة من المبادئ البُدْهِيّة .

وأدلةٌ لاهوتيةٌ كتلك لا تمنع من ضَرَبات السيف ، فمع أن وِشنو تجَسَّد فى واحد من بانْدَوا لم ينتصر هذا على أعدائه كوروا إلا بعد قتال هائل دام ثمانيةَ عشرَ يوماً ، والنصرُ بعد أن تمَّ لپانْدَوا استطاعوا أن يسيطروا بسلام ، وهم عندما شعَروا بدُنُوّ أجلهم توجهوا ، ومعهم زوجتهم المشتركة الفتّانة دروپدى ، إلى جبال هِمالْية حيث ماتوا بالتتابع ليُرْفَعوا إلى مقرّ الآلهة الخالدة حالاً ، فهنالك عُلِمَ أن وِشنو لم يتجسَّد فى واحد من پنداوا فقط ، بل ظهر تجَسُّدُ مختلف الآلهة فى أعدائهم الكوروا أيضاً ، فضلاً عن الإخوة الأربعة .

هذا هو الأساس الذى قام عليه ذلك الديوان الحماسىُّ الذى لا يَنْضُب مَعِينه ، وهو ، كما ترى ، ذو مَسْحَة أرِستوقراطية كِهَنُوتية ، فلم يُذْكر فيه سوى الآلهة والكهّان والملوك ، ولا تجد فيه إشارة إلى الشعب ولا إلى العامل ولا إلى التاجر ، الخ . وفى ديوان الحماسة ذلك شِعْرٌ رائع يمكن قياسه بأجمل الأشعار الأوميروسية ، ولا ريب فى أن أدبه أرق من أدب الإلياذة والأوديسة ، ولكن ما فيه من شوائبَ

ظاهرة لا يُغْرِى الأوربىّ على مطالعتــه ، فهو ينقلنا إلى بشرية بائدة تختلف عنا بتفـكيرها وشعورها ونظرها إلى الأمور اختـلافاً تامًّا ، وهو يَعْرِض علينا عالماً من المبادىء الوهمية تسحر الإنسان فى دور طفولته لا فى دور كالدور الحاضر .

و إننا نختم تلك الخلاصة بمختارات معتدلة الخيال اقتطفناها من المهابهارتا :

هبوط يودّهيشتيرا إلى الجحيم

« تبِـع يُودّهيشتيرا رسولَ السماء من العليــاء بخُطاً واسعة ، فياله من سقوط مشؤوم ! ويا لها من رِحلة هائلة ! ذلك هو مأوى الأرواح المجرمة الغارقة فى ظُلُمات حالـكة والمُدَّثِّرة بنبات خبيث والمتنشقة رائحة الإثم الوبىء واللحم والدم ، ذلك هو المأوى المملوء بالجُثَث والشَّعْر والعظام والفاسد بالديدان والهوام ، ذلك هو المأوى الذى يرمى بالشرر المُلتَهِم وتُحَلِّق فوقه الغِرْبان والعِقْبـان وغيرها من السكواسر المُجَنَّحة التى تهبط مبتورة مَهِيضَة فوق الجبال .

« سار الملك خائفاً مُزْبَئِرَّ الشعر بين تلك الجُثَث والرائحة المُنْتِنَة ، ورأى أمامه نهراً من الأمواج الملتهبة وغابةً من النِّصال ذات الأغصان الحادّة وصخوراً من الحديد وخوابىَ مملوءةً لَبَنًا فائراً وزيتًا حارًّا وعَوْسَجاً[1] قاتلاً أُعِدَّت للمجرمين .

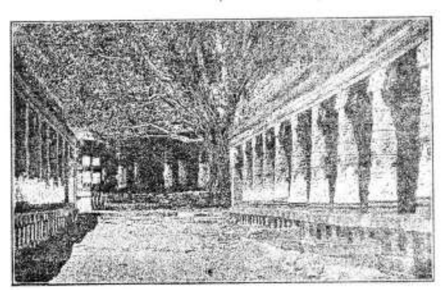
« رَاعَت تلك الأَبْخِرَة الوخيمة يودّ هيشتيرا فارتدّ إلى الوراء حين سَمِع القول الآتى يخرج من مهالك الليـل : « وَاحَرَباه[2] ، قِفْ ، أيهـا الملك العادل الشهير ، ثانيةً لتخفيف آلامنا ، يحوم عِطْر روحك التقية حولك كالرُّخاء[3] ، ولنا فى هــذا

---

(١) العوسج : من شجر الشوك — (٢) واحرباه : كلمة تستعمل للتأسف — (٣) الرخاء : الريح اللينة التى لا تحرك شيئاً .

المطر سكينة تنتظرها منذ زمن طويل ، امكث هنا ، يا ابن بهارتا القدير ، فبك يزول العذاب » .

« أثرت هذه المجاعج[1] الحزينة فى البطل فتحسر من غير أن يميزها لما تعبر عنه من التباريح ، ثم علمها ، فقال لرسول السماء متوراً مذعوراً متهماً للعدل الربانى مرتجفاً فى سوداء ذلك الجو الخانق : « ارجع إلى أولئك الذين تمتثل أوامرهم فى السماء ، لأنى عدلت عن العودة إليهما ، فسأبقى هنا عند من أحب لما يوجبه وجودى بجانبهم من تخفيف آلامهم » .



٩٤ — تريق . أعمدة فى مدخل الجبل المقدس (يبلغ ارتفاع الأعمدة من أسفلها إلى أعلاها مترين و ٥٥ سنتيمتراً) (يظهر أن المعبد أنشئ فى القرن الثالث عشر ولكن الإنشاءات التى تدل عليها هذه الصورة قد تمت فى زمن أحدث من ذلك بزمن طويل)

« فلما سمع الرسول ذلك عاد إلى قصر رب الأرباب إندرا وأخبره بما عزم عليه

(١) المجاعج : جمع العجعجة وهى اسم بمعنى الصياح .

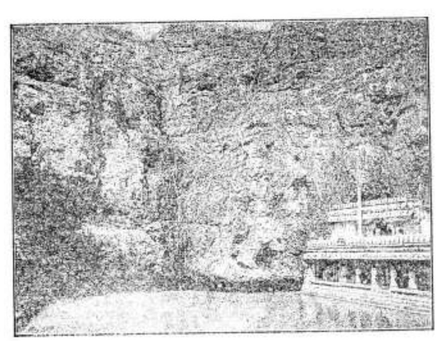
حفيد بهارتا ، ولما أقام يودهيشتيرا حيناً بدار العذاب هبط إندرا و يَمَا وغيرهما من الآلهة إلى الهاوية ، ولما بلغوها بَدّدت أنوارهم الظلام وزال العذاب عن المجرمين ، فصرت لا ترى نهراً مضطرماً ولا غابة شائكة ولا بحيرة من نار ولا صخراً من قلز[1] ولا جثة كريهة ، بل صرت تجد ريحاً طيبة عطرة تنتشر فوق أرصفة الآلهة ، وصرت ترى النار منارة بنور السماء الساطع ».

زيارة أرجُنا لجنة إندرا

«ودّع البطل الطليق من قيود الأرض أرجُنا الجبلَ وأهرع فرحاً إلى الموكب الإلهي صاعداً في الأجواء فوصل إلى البقاع المحرّمة على أبناء الأرض فوجد فيها عشرات الألوف من المركبات المنيرة بذاتها ، لا بفعل الشمس والقمر وأيّ ضياء ، والتي بلغت من البعد ما نعجز معه عن قياس حجمها والتي تبدو ، لهذا البعد ، مصابيح شاحبة ، فدنا منها فشاهد تألقها وانسجامها الرائع ، فمرّت أمامه مئات من الملوك العادلين والحكماء الراشدين وضحايا الحرب والمعتكفين الذين فتحوا السماوات ، ورأى منزل الأولياء والتائبين ذا الأزهار الجميلة الأوضاع فتنسّم شذاها العطر ، وشاهد غابة مودانا التي تنتشر جميع الغواني تحت أشجارها الخضر ، وإن شئت فقل شاهد المأوى المعدّ لأفئدة المؤمنين فلا يدخله من لا يعرفون التوبة ولا يقرّبون القرابين ولا يثبتون في ميدان القتال ولا يقدّمون الضحايا ولا يميلون إلى الزهد ولا ينصتون للويدا إذا قرئت ولا يزورون الأماكن المقدسة ولا يدخله من يستخفون بالغسل وبالصدقات ومن يجحدون بالدين ومن يسكرون ومن يزنون ، ولا تدخل مدينة إندرا قبل مجاوزة هذه الغابة الساطعة الربانية الغنّاء .

(١) القلز : النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد .

« وَقَفَتْ أمام مدينـة إندرا ألوف المَرْكَبات الحيَّة وفيها مُجِّد إندرا بصوت الشعراء والغوانى على حين كان النسيم ينشر أطيب رائحة ، وفيهـا استقبلت الآلهةُ والسعداء فَرِحين ذلك المحارب ذا الذراعين المفتولتين بسـلام التبريك على صوت الموسيقى السماوية ، فسار على الطريق ذات الـكواكب وعلى درب الشموس ذوات الأنوار محاطاً بملائكة السماء والأرض والهواء و بصفوة البراهمة والملوك فوَصَل مُـكرَّماً إلى حضرة رب الأرباب » .



٩٥ — تريتق ، حوض مقدس فى سفح الجبل

الرامايَنا . — للرامايَنا مثلُ أهمية المهابهارتا فيُعَدّ هذان الديوانان الحماسيان ، مع كتب الويدا ، أعظمَ ما فى الآداب السَّنسكرتية .

والرامايَنا ، مع أنها أقدم من الميلاد بعدة قرون لا ريب ، أحدث من المهابهارتا ، فكان ما فيها من التحريف أقلَّ مما فى الأخرى ، وهى إذ لم تشتمل على غير ٤٨٠٠٠

بيت من الشعر فإنها أصغر من الأخرى بأربع مرات ، ويعتقد الهندوس أن الإله وِشنو هو واضعُها .

تقوم الرامايَنا على خبر الحروب التي أوقد نارها راما ليستردَّ زوجته سيتا الحسناء التي اختطفها الشيطان راوَنا ملكُ الجنِّ الأشرار المقيمين بجزيرة لَنْكا (سيلان) والمعروفين بالراكْشسا .

وراما هو ، كأحد أبطال المهابهارتا ، إلهٌ في صورة إنسان ، أو إنسان تَجَسَّد فيه وِشنو ، ويتألف أعوانه في الحروب من القِرَدَة والنسور ، والحوادث في الرامايَنا ، كما في المهابهارتا ، تجرى في عالم خياليّ ، ويدور مغزاها العامُّ حول صراع بين الخير والشر ، وما في الرامايَنا من مخاطرَ فمصدره ما سام الظالمُ راوَنا به الكُهَّانَ من الخسف وما منعه من تقديم القرابين ، فلما سَخِطَت الآلهة على ذلك عقدت مجلساً ورأت أن يتَجَسَّد أحدها في صورة إنسان لإنقاذ البشر فأمر برهما أحدَ الأقانيم الهندوسية الثلاثة وِشنو بذلك ، فوَطَّن وِشنو نفسه على الإخلاص ، فوُلِد في صورة البطل راما ، ثم نفاه أبوه بتحريض من إحدى زوجاته جاهلاً أصله ، فأطاع أباه فاختفى هو وزوجته الحسناء سيتا في الغاب ، وكان يسكن غابةَ دَنْدكا التي اختارها مقراً لعزلته جِنٌّ وغيلان خياليون وغَدَت السَّعْلاء[1] سورپن كها أختُ راوَنا ملكِ الراكْشسا عاشقةً لراما الجميل فتَحُول سيتا دون التنفيذ فتحاول سورپن كها افتراسَها فيدحرها راما فيجدع[2] صاحبُه لَكْشامَنا أنفها ويَصْلِم[3] أذنيها ، فتعزم سورپن كها على الانتقام فتعود مع أربعةَ عشرَ ألفَ عفريت فيهزِم راما جميعَ هؤلاء بنِباله السحرية فتغضب سورپن كها من قهرها فتطير إلى سيلان فتطلب العَوْن من أخيها راوَنا (الملِك ذي

---

(١) السعلاء : أنثى الغول — (٢) جدع الأنف يجدعه جدعاً : قطعه — (٣) صلم الأذن يصلمها صلماً : قطعها من أصلها .

الوجوه العشرة والذرعان العشرين) لكى يخطف سيتا ، فيجوب راوَنا الهواء فوق مركبة سحرية ويجدُّ فى أخذ سيتا بالحيلة مستعيناً بصديقه الذى انقلب إلى ظبى ويستدرج راما إلى خارج منزله فيختطف حينئذ سيتا متنكراً بزىّ أحد الزهاد ويجرُّها معه فوق مركبة سحرية فيجدُّ ملك الطيور وصديق راما النَّسْر جاتايوش فى وَقْفه فيسفر ماحدث من القتال الذى أُهِين فيه راوَنا عن قتل ذلك النَّسْر ، فيداوم راوَنا على سيره ويقود تلك التى سباها إلى قصره حيث يسعى فى إغوائها على غير جَدْوى .

ويكتشف راما مكانَ سيتا بفضل القرد هنومان فيستعين بالملك سُغْريوا ويجيش مؤلَّف من قرود ودِبَبَة[1] ويزحف لاستردادها ويحاصر لَنكا عاصمةَ راوَنا ، ويقوم بهجوم هائل وتُقْلَع الجبالُ والغابات لتُطْرَح فوق الرؤوس ، ويقاتل راما أخا راوَنا قتالاً شديداً ويَقْتُله ويدوس أخو راوَنا هذا ألفى قرد حين سقوطه ، ويُجْرَح راما ، ومن حسن الحظ أن كان ملك الدِّبَبَة يَعْرِف وجود نبات سحرىّ فوق جبل كيلاسا قادر على شفاء البطل راما فَفَوَّض إلى هنومان أن يأتى بشىء منه ، وما كان هذا القرد الباسل ليُضِيع وقته فى البحث عن ذلك النبات ، فقد اقتلع الجبلَ ورَجَع حاملاً إياه على ظهره ، فشُفِى الأمير آنئذ فبُعِث المجاهدون تارةً أخرى وعاد القتال إلى ما كان عليه فأسفر عن قتل راوَنا بسهم سحرىّ سلَّمه برهما إلى راما فهتفت الآلهة الخالدة للنصر الذى أوجب عودة سيتا إلى بَعْلها ، وجاوزت سيتا هذه لهيبَ مَوْقِد فدَلَّت على أنها لم تكن لراوَنا ، وبَيَّن إندرا لراما ، إذ ذاك ، أنه شخص تَجَسَّد فيه وِشنو ، هنالك رَكِب البطل راما مع سيتا مركبةً سحرية فبلغ بها عاصمته أجودهيا حيث يمارس سلطانه أحد عشر ألف سنة .

---

(١) الدبة : جمع الدب .


٩٦ — وبلور . دقائق عمود في الزون الكبير
(القرن الرابع عشر من الميلاد)

ومما يلاحَظ أن جميع أبطال ذلك الديوان الحماسيّ هم ممن تَجَسَّدَت فيهم الآلهة فبَدَوْا من ذوى السلطان الخارق وبَدَوْا متقلدين سلاحاً سحرياً قليلَ الخطر سهلَ الاستعمال ، والمنطقُ الهندوسيّ إذ كان لا يبالى بهذه الدقائق إلا قليلاً فإننا لا نُسْهِب فيها كثيراً ، وإنما نختم المطلب ببعض المختارات المقتضبة من الرامايَنا .

هبوط الغَنْغَا

« صَعِد مَهِيشورا فوق ذروة هِمالية فخاطب نهر الغنغا الذى يجرى فى الهواء قائلاً له : اهْبِطْ !

« هنالك فتح الحزْمَة الواسعة من كل جانب مُحْـدِثاً حوضاً كبيراً شبيهاً بغار جبل ، فهَبَط نهر الغنغا الإلهى من السماوات وألقى أمواجه بصَوْلَة فوق رأس شِيوا العظيم ، فتاهَ على رأسه كَدِراً واسعاً سريعاً عامًّا ليَصِف دورانه ، ثم أراد بهاغى رتى إنقاذ الغَمْج فعوَل على نَيْل الحظْوَة لدى مهاديوا زوجِ أوما الخالد ، فأجاب شِيوا دعوته فأطلق مياه الغنغا فأرخى ضفيرة

من شعره فشقّ بها قناةً فانطلق هذا النهر الإلهي الصافي الطاهر السعيد المُثلّث المجاري فكان نهرُ الغَنج .

« حضَرَت هذا المنظرَ الآلهةُ والرِّشي والغاندهروا وجموعُ السيدّها فوق مركبات مختلفة وجياد جميلة وفيول رائعة ، وجاءت إلاهاتٌ سابحاتٍ ، وأتى الجدُّ أصلُ المخلوقات برهما يتلهّى سائراً مع النهر ، فالحقُّ أن طبقات الخالدين هذه اجتمعت هنالك لتشاهد أعظم العجائب أي لترى نزول الغنغا إلى الدنيا .

« وكان يغشى السماءَ سحابٌ مظلم مع تألق تلك الكتائب الخالدة الطبيعيّ ومع الزينة الرائعة الساطعة التي كانت مُزَيّنَة بها فتنير الفلك بنور ساطع يَعْدِل أنوار مئة شمس .

« جرى النهر ، وكان يجري سريعاً تارةً ومعتدلاً مُنثنِياً تارةً أخرى ، وكان يقسِم أحياناً ، وكان يسير بطيئاً طوراً وكانت أمواجه تتلاطم مرةً وكانت الدخْسان[1] تسبح بين أنواع الزحّافات والأسماك .

« وكانت السماء محتجبة كالبروق التي تخرج من مكامنها هنا وهنالك ، وكان الجوُّ المملوء أزباداً بيضاً كثيرة يلمع مثل لمعان البحيرة المُمَوَّهة بالإوَزّ في أيام الخريف ، وكان الماء ينزل من رأس مهاديوا إلى الأرض صاعداً هابطاً عِدّةَ مرات كالزوابع قبل أن ينال مجرًى منتظماً على صدر يرتهوى .

٩٧ ـ كانجي ورم . معبد في زون (أنفي) في القرن الخامس عشر من الميلاد على ما يحتمل)

(١) الدخسان : جمع الدخس ، وهو دابة في البحر تمكن الغريق من ظهرها ليستعين على السباحة وتسمى (الدلفين) .

« رنى آنئذ أن الغرها والفنَا والغاندهروا الذين يسكنون فوق صدر الأرض يكْسَحُون مع الناغا مجرى النهر الصائل ، ثم مَجَّد هؤلاء الأمواجَ الصافيـة التى تَجَمَّعَت فوق جسم شِيوا ونشروها فوقهم فتَطَهَّروا من كل دَنَس ، وعاد إلى القصور الأثيرية أولئك الملعونون الذين سقطوا من السماء إلى الأرض فاستردوا طُهْرَهم القديم بعـد أن اغتسلوا فى ذلك النهر ، وقام الرِّشى الإلهيون والسيدّها وأعاظمُ القديسين بالدعاء خافتى الصوت ، وكانت الآلهة والغاندهروا يُغَنُّون ، وكانت جماعات الأبسرا تَرْقُص ، وكانت كتائب الزهّاد فى حُبُور ، وكان العالم كلُّه غارقاً فى سرور » .

طلوع القمر

« طَلَع القمر وحوله كتيبةٌ من الـكواكب وعليه تاج من الأشعة فيَغْمُر العوالم بأنواره الساطعة ، ورأى هنومان الشهيرُ صعودَ هـذا الـكوكب الدُّرِّىّ الذى ينير الشواطىء الأثيرية فيبدو أبيض من اللبن أو من ألياف السِّدْر سابحاً فى الفلك كإوَزَّة فوق بحيرة ، فأعجب بأنواره اللامعة المُتألِّقة يصبُّها فى الأفق بين قطيع من النجوم كما لو كان ثَوْراً هائماً ملتهباً حُبّاً فى مُرَاحٍ عِجَال ، وأبصره وهو يُطفِىءُ بالتـدريج ما طرأ على الأرض من الحرّ فى النهار ويُثِير ميـاه البحر الواسع ويُضِىء جميع المخلوقات » .

صيدُ راما للغزال السحرى مارتچا

« يُرَى الغزالُ حيناً ولا يُرَى حيناً ، ويَمُرُّ مسرعاً خوفاً من أن يُصْمَى[1]

---

(١) أصمى الصيد : رماه فقتله .

فاتناً أكبر الراغهويد ، ويظهر تارةً ويختفي تارةً أخرى ، ويَعْدُو مذعوراً مَرَّةً ويَقِفُ مرةً أخرى ، ويغيب طوراً ويخرج من كِناسِه[1] راكضاً طوراً آخر .

« كان الغزال السحريُّ مارتجا خاتلاً فجاب جميع الغابة ، فرآه راما ذات ساعة يَرْكُض أمامه فشَدَّ قوسه غاضباً ، فلم يَكَدْ هـذا الغزال يرى راما مُنْقَضّاً حاملاً قوسَه بيده حتى توارى غيرَ مرة محاولاً ألا يراه ، فكان يبدو قريباً منه حيناً وكان يبدو بعيداً منه حيناً آخر .

« والغزالُ ، بين ظهورٍ وتوارٍ ، استدرج راما الذى يَتَعَقَّبه إلى مكان بعيد ، وكان راما ، الرا كض وراء الغزال وقوسُه بيده فيُبْصِره حينا ولا يُبْصِره حيناً آخر فى الغابة الكبرى كالقمر الذى تَحْجُبه السُّحُب فى الخريف تارةً ويبـدو جليًّا تنقشع تارةً أخرى ، يقول : « يُقْبِلُ ! أراه ! يتوارى ! » فيجوب جميع أجزاء تلك الغابة الواسعة .

« ووَصَل البطل راما الذى كان يُخْدَع فى كلِّ ثانية إلى قُبَّة مُظِلَّة من الأعشاب الغَضَّة فوَقَف فبدا له ذلك الغزال مع غِزْلانٍ أخرى ساكنةٍ قائمةٍ بالقرب منه ناظرةٍ إليـه مذعورةً ، فعزم البطل راما على إصابته فشَدَّ قوسه المتينة ووضع أحسن سهامه على وَتَرِها .

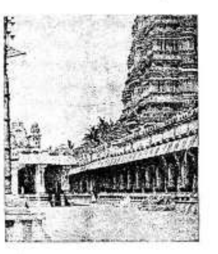
« فَوَّق[2] راما السهم وجَذَب الوتر إلى شحمة أذنه ، ثم فتح جُمْعَ كَفِّه[3] فأطلق ذلك السهم الحادَّ الحـارَّ الذى صنعه برهما بيـده فأصاب به قلب الغزال مارتجا فأصماه » .

---

(١) الكناس : بيت الظبي — (٢) فوق السهم : وضع فوقته فى الوتر ليرمى به ، والفوقة هى موضع الوتر من رأس السهم — (٣) جمع الكف : الكف حين تقبضها .

إعلان حبٌ سيتا

« قالت سيتا لزوجها راما : سأذهب إلى حيث تذهب ، أُقسم بحبك و بحيائك أننى لا أرغب فى سُكْنَى السماء بعيدةً منك يا سليل راغهُو الشريف ! فأنت مولاى وأنت سيدى وأنت دليلى وأنت إلٰهى ، سأذهب معك ، فهذا عزمى القاطع ، أراك تريد دخول هذه الغابات الكثيفة الوَعْرَة فسأسير أمامك لأُحَطِّم تحت قدمىَّ العشبَ الناهض والعَوْسَج الشائك فأشقّ لك طريقاً ، فالزوج هو القَوّام على المرأة الصالحة ، لا والدُها ولا أُمُّها ولا ابنها ولا صديقها ولا قلبها ، فلا تَنْفَسْ علىَّ بهذه السعادة واطْرُد منك هذا الفكر السّيِّئ كما تُطْرَح القَطرةالأخيرة من السكوب ، خُذْنِى معك أيها الأمير العزيز غَيْرَ حَذِر ، ثِقْ بوفائى ، أَنْعِم علىَّ بهذه الحُظْوَة ، لأُرافقك ولأَعِشْ معك فى هذه الغاب التى يسكنها الأُسُود والخنازير والدِّبَبَة والنمور ، فأتغذَّى فيها كما تتغذَّى بالفواكه والجذور ، ولن أكون عِبْئاً ثقيلاً عليك ، ما أعظم سرورى حين أقطن بتلك الغابات الوارفة[1] الطيبة العَطِرة ، إننى إذا ما عشت فيها بجانبك مَرَّت ألوف السنين على كيوم واحدٍ ، فالجنةُ بغيرك كجهنم ، وجهنم معك أطيبُ منزل » .



٩٨ - بيجانقر . داخل الباحة الثانية لزون شيوا الكبير (القرن الخامس عشر من الميلاد)

---

(١) ورف الظل يرف ورفاً : امتد واتسع ، وورف النبات : نضر واهتز واشتدت خضرته فهو (وارف) .

جيش شِيوا

«هنالك بَدَت كتائب أعوان شِيوا السماوية تقذف النار من العيون والأفواه ، وهى ذوات أرجلٍ وذُرْعان و رؤوس كثيرة ، وهى تَلْبَس أسْوِرَة مرصعة بالجواهر ، وهى ترفع أياديَها فى الهواء كأنها أفيالٌ وجبال ، ولكتائبَ من هذه صُوَرُ الكلاب والخنازير والجمال وأعضاء الأفراس و بنات آوى والأبقار والدِّبَبة والقطاط ، ولأخرى أفواه الأنمار والفهود ومناقير الغِرْبان والبَبْغاوات ورؤوس الزَّماميج[1] ، ولهذه صورة الثعابين الهائلة ولتلك مناقيرُ الإوَزّ والزراريق والعقاعق ومناظرُ السلاحف والتماسيح والدُّخْسان[2] والقِرَدَة ، و بعضُها يُقلِّد مالكَ الحزين والضِّفْدَع والحوت ، ولبعضها عِدَّة عيون وآذانٌ واسعة و بطون كبيرة ، و بعضُها بغير رأس ولبعضها رأس ذئبٍ أو رأس كبش أو رأس كلب ، وتَرْمِى بالشرر من المَسامّ و يلتهب كلُّ شعرة فى جباهها وأبدانها » .

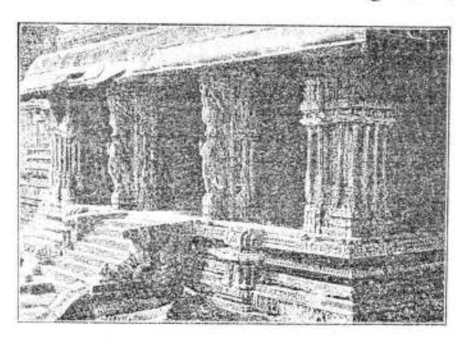
٤ — الرموز والأمثال — القصص والأساطير

« يمكن عَدُّ رموز الهند وأمثالها من أهمّ ما أنتجته ، ولا ريب فى أن الهندوس أساتذة لنا فى هذا المِضْمار ، وتُعَدُّ البَنْج تنترا[3] أشهرَ مجموعة للقِصَص والحِكَم ، وهى تتألف من رموز اتُّخِذَ فيها الحيوان عاملَ درس للإنسان ، أجَلْ ، إن ما فيها من الأحاديث قليل الاشتباك بعضه فى بعض ، ولكن هذه الأحاديث وما انطوت عليه

(١) الزماميج : جمع الزمج وهو طائر مائى أبيض فى حجم الحمام ولا يأكل غير السمك .
(٢) الدخسان : جمع الدخس وهو دابة فى البحر — (٣) البنج تنترا : هى كليلة ودمنة (المترجم)

من الأمثال مما يشمُل النظر على العموم ، وما فى صفحاتها من الحِكَم الكثيرة ، فى الغالب ، يُثير فى النفس حبّ الاستطلاع .

ويُرَى أن وضع تلك المجموعة تمّ فى زمن قديم جداً ، ويَرَى كثير من العلماء أن بعض تلك الأحاديث اقتبسه إيزوب ، بَيْدَ أن الكتاب السنسكرتى الذى يشتمل عليها جُمِع فى عِدّة أدوار ما ذُكِر فيه اسمُ عالِم فلكىّ عاش حوالَى القرن السادس بعد ظهور المسيح .



٩٩ — بيجالقر . مدخل معبد وتوبا (القرن السادس عشر من الميلاد)

وذاع صيت أمثال الهند وقِصَصها ببلاد فارس فى النصف الأول من القرن السادس من الميلاد ، فأرسل كسرى أنوشروان الساسانىّ (الذى دام عهده من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م) عالمًا طبيباً ليترجم البَنْچ تنترا إلى اللغة البهلوية ، وحافظ

خلفاء هذا الملك على هذه الترجمة إلى أن مَزَّقَ العرب دولة الفرس فى سنة ٦٥٢ ، فلما انقضت مئة سنة على زوال تلك الدولة وَجَد الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور نسخة منها تَفَلَّتَت من خراب المكتبة الفارسية فأمر بنقلها إلى العربية .

والقرون كلما مَرَّت على تلك الأمثال عَظُم قدرها، فتُرْجِمَت البَنْج تنترا فى القرن العاشر إلى الفارسية نظماً ثم نُقِلَت فى القرن نفسه إلى التركية بأمر سليمان ، وتُرْجِمَت البنج تنترا إلى اليونانية فى أواخر القرن الحادى عشر ، ونُقِلت إلى العبرية فالإسبانية فى القرن الثالث عشر ، ونُقلت إلى الألمانيـة فى القرن الرابع عشر ، وترجمها ريمون البيزيارى فى أوائل القرن الرابع عشر من الترجمة الإسبانيـة تلك إلى اللاتينية من أجل زوجة فيليب الجميل جَنَّة النَّبَرِّيَّة ، ولا تجد لغـةً لم يُنقل إليها هذا الأثر الخالد بشىء من الأمانة ، ومَثَّلَت البنج تنترا دوراً مهماً فى آداب القرون الوسطى ، ومن هذه المجموعة اشتُقَّ أكثر الأمثال الأوربية ، ومنها أمثال لافونتن

ونذكر مجموعة الهتوپَدِيشا بجانب مجموعة البنج تَنْترا ، وهى مثلها مشهورة وإن كانت أحدثَ منها كثيراً ، على أن الهتوپديشا ليست إلا نسخةً جـديدة عن البنج تنترا مع اختصار فى بعض الأمور وإضافاتِ أمثالٍ حديثة مقتبسة من مجموعة مجهولة قديمة جداً على الأرجح .

ومجموعة الهتوپديشا هذه نقلت إلى أكثر اللغات الأوربية أيضاً ، وسـنذكر بعضَ مختارات من حِكَمها فى فصل آخر .

وهنالك مجموعاتٌ أخرى مشابهة لتينك المجموعتين وإن كانت دونهما شهرةً ، فلا نرى فائدة فى ذكرها .

ويمكن القول إن كتب الهندحافلة بالقِصَص والأساطير، فتُعَدُّ الآداب الهندوسية التاريخية أو الدينية مجموعة منها .

وعُرِف كثير من الأقاصيص الهندوسية في أوربة بكتاب ألف ليلة وليلة ، وتحتوى هذه المجموعة على كثير من القِصَص الهندوسية وإن كان معظمها من أصلٍ عربيٍّ ، غير أن ما في كتاب ألف ليلة وليلة من القِصَص الهندوسية بلغ من الصقل والإصلاح ما يَصْعُب معه ، في الغالب ، تمييز ما هو من أصلٍ هندوسيٍّ فيها .

وتستحقّ الأساطير الهندوسية ، التي مُلِئَت بها الكتب الدينية أو التاريخية ، دراسةً خاصة ، لا من أجْل فائدتها الضئيلة على العموم ، بل من أجْل المعارف النفسية التي تستنبط منها عن الهندوس فيصعب على الأوربيّ تَبَيُّنُها ، فلا بدّ من قراءة أساطير غير قليلة للوقوف على منطق الهندوسيّ الخاصّ وتطور فكره وطراز ربطه الأمور بعضها ببعض ، وقد ترجمتُ في سبيل هذا الكتاب بضع أساطير تبالية ذاتَ مَغْزى ، ثم وجدت أن صدره لا يتسع لها ، فأُوصي المتخصصين في آثار الهند أن يدرسوا أُسْطُورة بيرويكشا الذي هتفت الآلهة بأنه سيتزوج أمه ، كما هتفت لإديب ، وبأنه لم يَسْتطع أن يتخلص ممـا قُدِر عليه مع ما قام به من الجهود ، وأن يدرسوا أسطورة إنشاء معبد بُدّهة بأمر أمير قَتَل والده خطأً فدلّ ما احتوته هذه الأُسطورة من التفاصيل على أن أمر القرابين البشرية كان شائعاً في الهند حيناً من الزمن ، وأن يدرسوا أُسطورة الرَّحّالة سَمْبَل الذي شاهد أصحابه الخمسة تفترسهم خمسُمئة عفريتة في أثناء سياحته في سيلان ، الخ .

٥ — التمثيل الهندوسي

بعض الروايات الهندوسية كُتِب نظماً و بعضُها كُتِب نثراً على العموم ، وتختلف لغة هـذه الروايات باختلاف مُمَثِّليها ، فأما أبناء الطوائف العليا فيتكلمون فيها بالسّنسكرتية ، وأما أبناء الطبقات الدنيا فيتكلمون فيها باللغة البراكرتية .

والأدب فى تلك الروايات أرفع مما يبدو فى مسارحنا الحديثة مع أنها وُضِعَت بلسان فاسق فى بعض الأحيان ، فروحُ الدَّعارَة التى تسود رواياتنا تراها غير موجودة فى الروايات الهندوسية تقريباً ، أجَلْ ، إن للغرام كبيرَ شأنٍ فى الروايات الهندوسية ، غير أن الزواج يَعْقِبُه فيها ، ومما كانت تُحَرِّمه مبادئُ الهندوس الاجتماعيـة وَلُوعُ المرء بزوجات الآخرين ، وللخليلات دَوْرٌ مهم فى تلك الروايات كالذى لهن فى رواياتنا العصرية لا ريب ، ولـكنه كان لهؤلاء الخليلات من المقام العالى فى المجتمع الهندوسىّ ما يَعْدِل مقام أخَوَاتِهن فى العـالم اليونانى السابق وما هو أسمى مما لأَخَوَاتِهن فى الوقت الحاضر .

وروايات الهند من روايات التوابع[1] ، فالحوادث فيها من خوارق العادة على الدوام ، وفيها تظهر الآلهة ظهوراً مستمراً ، وفيها تتزوج الإلآهاتُ بالآدميين ، وفيها تَحُلُّ الآلهة المُعْضِلات عندما تتعقد .

ورواياتُ الهندوس ، من حيث التركيب ، ضعيفةٌ ضَعْفاً يستوقف النظر ، ففيها ضُحِّى بالمجموع فى سبيل التفاصيـل على الدوام ، وأبطالُها ثَرْثارون على العموم ،

(١) التوابع : جمع التابعة وهى الجنية .

وأَشْعُرُ بالتصنع والتكلف فيا يقولون ، ومن الصعب أن تَجِد بين الروايات الهندوسية والروايات اليونانية وجهَ شبه خلافاً لما رآه بعض العلماء .

ولم ينشأ ذلك الضَّعْف عن عَطَل تلك الروايات من قواعدَ مقررةٍ ، فقد اتَّبع واضعوها ، بالعكس ، عِدَّة أصول معقدة في إنشائها ، كما يبدو ذلك في كتب كثيرة قضى العلماء المتخصصون زمناً طويلاً في ترجمتها .

ومُمَثِّلو الهندوس كانوا محترمين أكثر مما هم عليه الآن ، وغيرُ قليل ما كان يناله واضعو الروايات من الحظوة ما عَلِمْنا أن ملوكاً لم يترفعوا عن كتابة روايات تمثيلية ، ومن هذه الروايات نذكر رواية « مركبة الصَّلْصال[1] » التي ألَّفها شودراكا ملكٌ مَدَدها في أوائل التاريخ الميلاديّ على ما يظهر .

ونذكر من الروايات الهندوسية التمثيلية الكثيرة المعروفة في أوربة ما وَضَعَه كالى داسا الذي يُفْتَرض أنه عاش في القرن السادس من الميلاد ، ونَعُدُّ من رواياته : (السحاب الرسول ، وأصل الإله الفتى ، وغرام بطل بأورَوَشى ، الخ) ، وأشهرُ رواياته على الإطلاق هي رواية شَكُنْتَلاَ التي تُرْجمت إلى أكثر من عشر لغات والتي نجد لها عِدَّة تراجم فرنسية ، فأُعْجِب بها غوته ولامارتين وغيرهما من أعاظم الكتاب ، وذلك في زمن خُيِّل فيه أن اكتشاف الآداب السنسكرتية فتح للإنسان آفاقاً جديدة ، وعلى ما نراه من عدم استحقاق تلك الرواية لما مُدِحَت به في البَداءة نجد أن محاسن كُتَّاب الهندوس تَجَلَّت فيها أكثر من تَجَلِّي مساوئهم ، فهي ، على العموم ، أكثر من غيرها بساطة وأقرب إلى الصواب وأقلّ مبالغةً ،

---

(١) الصلصال : الطين اليابس الذي يصل من يبسه ، أي يصوت .

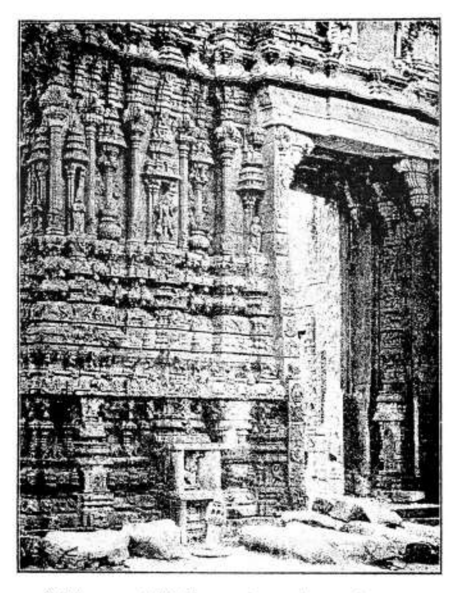
وموضوعها إنسانيّ مؤثر وأبطالها بعيدون من التَّعَمّل، والكلام فيها مُوجَز وتكاد تخلو من التعسف والمجاز، وفيها بعض فصول عاطفية رائعة.

وخلاصة تلك الرواية هي أن الملك دُشْ يَنْتَه كان يصطاد فلقى فى صَوْمعة ابنةً لإلاهة وناسكٍ اسمها شَكُنْ تَلَا فأُولعَ بها فتزوجها على الفور على حسب عادة أبطال الهندوس، وزواجٌ بسيط مثل هذا مما كانت تعترف به الشريعة موقوفاً على اعتراف الفريقَيْن المُختَصّيْن به، فلما قَضَى منها وَطَراً فتر حُبُّه لها فعاد إلى عاصمته هستنا بورا من غير أن تحزن كثيراً كما يستنبط من صَمْت واضع الرواية، وهى لم تعزم على اللحاق به إلا بعد أن أبصرت أنها ستصبح أُمّاً، وقد خامرها شكٌ فى أنه يعترف بها فأخذت معها الخاتم الذى وهبه لها لتُثْبِتَ حقيقة أمرها، ومن المؤسف أن آذَت أحدَ الزُّهَّاد بأن نَسِيت أن تجيب عن سؤاله متلهيةً، فدَعا عليها فخَسِر الملك ذا كِرَتَه فى مكانه فلم يَعْتَرِف بها، وكان من نتائج هذا النسيان أن غَضِبَتْ فأضاعت الخاتم فى نهر، أجل، وجد الخاتمَ صَيّادٌ فى بطن سمكة، بَيْدَ أن الملك لم يعترف بها فرحَلَتْ إلى حيث لم يعرف أحد، فبحث عنها زوجها الملك فلم يجدها إلا بعد بضع سنين، وما كانا ليلتقيا إلا بمعجزة مع ذلك، وبيان الأمر أن ملك السماء إندرا عَجَز عن قهر جيش العفاريت فعهد إلى الملك دُشْ يَنْتَه فى إبادتهم، مما تَبَيَّن به ما كان يُعْزَى إلى الآلهة والناس من الشأن، فانتصر هذا الملك عليهم فاستأصلهم فكافأه إندرا بأن وَجَدَ له زوجته وابنه، ثم تُختَم الرواية بتبجيل مُشَوَّش قليلاً.

٦ — آثار أدبية مختلفة

إذا عدوت التاريخَ، والتاريخُ ما عَجَز الهندوس عن تدوين كتاب فيه ما عطلوا من مثل هذا الكتاب، لم تَجِد موضوعاً لم يكتبوا فيه، فقد ألَّفُوا فى الفلسفة واللاهوت

والاشتراع ، الخ . عِدَّة كتب ، وأَلَّفوا ، كذلك ، فى العلوم عِدَّة كتب ، وإن كان ما أَلَّفوه فيها هزيلاً .



١٠٠ ــ تادپترى ، نقوش أسِتر حواجز معبد (القرن السادس عشر من الميلاد)

ولو عَدَّدْنا هذه المؤلفات لخرَجنا من دائرة الإجمال ، فلا نذكر منها ، لذلك ، غيرَ الكتب المعروفة بالپورانا ، لِما لها من الأهمية عند الهندوس .

وتجيء كلمة الپورانا بمعنى « القديم » ، ويُقصد بها كتب في الديانة وُضِعت في مختلف القرون ، فقيل ، بحقّ ، إنها مستودع الأساطير الشعبية ، وتشتمل ، كذلك ، على تاريخ أُسَر الهند المالكة القديمة الأساطيريّ ، وفيها أكثر من ٨٠٠٠٠٠ بيت شعر ، ويتألف منها ثمانيَ عشرةَ دائرةَ معارف لا يحتمل الأوربيُّ قراءتها .

ونذكر ، عدا الكتب التي ألمنا إليها في هذا الفصل ، المؤلفات الفلسفية التي فُصِّلَتْ في الأوپانِشدا ، وتكلمنا عنها حينما درسنا أمر البُدَّهِيةِ ونعود إليها في الفصل الذي خصصناه للبحث في دِيانات الهند الحاضرة ، ولا نجد ما يسبق فلسفتها جُرْأةً ، ونعترف بأن الهند انتهت منذ ألفي سنة إلى كُبْرَيات المسائل التي لم يَصِل إليها الغرب إلا منذ قرن واحد فلم تُحْجِم عن إيجاد حلّ جريء لها .

ونَعُدُّ آثار الهندوس الفنية مهمة إلى الغاية فضلاً عن آثارهم الأدبية ، ونبحث في فَنّ عمارتهم بعد أن ندرس في المطلب المختصر الآتي لغاتها ، وفَنُّ عمارتها هو الذي أرى البحث فيه أهمّ مما في غيره وإن عُرِف قليلاً حتى الآن .

٧ ـ لغات الهند

ليس من هَدَف هذا الكتاب وحدوده أن ندرس فيه لغات الهند ، ولو دراسةً وجيزة ، وسنقتصر في هذا المطلب على المعارف الإحصائية المختصرة التي تشير إلى تَنَوُّع تلك اللغات .

يجب على الرَّحَّالة الذي يَوَدُّ أن يسيح في الهند وأن يُدْرِك أمره في كلّ مكان

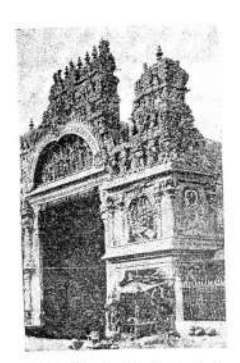
منها أن يتعلم نحو ٢٤٠ لغةً ونحوَ ٣٠٠ لهجة ، وإذا ما أراد أن يبدو تام الثّقافة فى لغات الهند أن يعرف ، عدا تلك اللغات وتلك اللهجات ال ٥٤٠ ، الفارسيةَ التى هى لغةٌ رسمية للقصور الأهلية والمجتمعات الراقية فى الهندوستان ، وأن يعرِف البهلوية التى هى لغة المجوس ، والصينيةَ التى هى لغة المهاجرين فى كلكتة ، واللغاتِ الأوربيةَ التى يتكلم بها فى الهند سكان المستعمرات الإنكليزية والبرتغالية والفرنسية ، الخ . ومما لا يُفيده أن يُضيف إلى تلك اللغات ، المُتَرجَّح عددُها بين ٥٥٠ و ٥٦٠ ، لغةَ السَّنسكرت القديمة التى تُدَرَّس وحدَها فى جامعات أوربة على وجه التقريب ، لأنه لا يَجِد فى الهند رجلاً يتكلم بها .

يمكن ردُّ لغات الهند الكثيرة إلى خمسِ فصائلَ أساسية يختلف بعضها عن بعض أكثر من اختلاف اللغات الأوربية فيما بينها ، وهذه الفصائل هى : ١ ـ اللغات الآرية ، ٢ ـ اللغات الدراويدية ، ٣ ـ اللغات الكولية ، ٤ ـ اللغات التبتية ، ٥ ـ اللغات الكهاسية .

وتشتمل الفصيلة الأولى على اللغات ذوات اللّيّ ، وتشتمل الفصائلُ الثلاث التى تليها على اللغات ذواتِ الوصل ، وتشتمل الفصيلةُ الخامسة على اللغات ذوات المقطع الواحد .

والناس يتكلمون ، على العموم ، باللغات الآرية فى شمال الهند وقسم من وسطها ، ويتكلمون باللغات الدراويدية فى الجنوب ، ويتكلمون باللغات الكولية فى جهات متفرقة فى الشرق والوسط ، ويتكلمون باللغات التبتية فى أودية هماليه ، ويتكلمون باللغات الكهاسية فى قسم من آسام .

ومن فصيلة اللغات الآرية تُعَدّ اللغة السَّنسكرتية الميتة منذ زمن طويل والتي وُضِعت بها كتب الهند المقدسة القديمة ، ولا تجد لهذه اللغة غير شأن مشابه للغة اللاتينية في كتب العبادات الكاثوليكية ، فلا يتعلمها سوى شِرْذِمة قليلين من البراهمة .



١٠١ – مدورا . (الزون الكبير) باب معبد الإلاهة ميناكشي (القرن السابع عشر من الميلاد) (أنشئ زون مدورا الكبير في زمن قديم جداً ، ولكن أهم أجزائه التي نشرناها في هذه الصورة وفي الصور الآتية يرجع إلى عهد الراجه تيرومال ، أي إلى القرن السابع عشر)

وترجع عناية الأوربيين العظيمة بالسَّنسكرتية في جامعاتهم إلى عَدِّهم هذه اللغة ، فيما مضى ، الأصلَ الذي اشْتُقَّت منه اللغات الأوربية ، بيد أن من المعلوم في هذه الأيام أن اللغات الهندية الأوربية (السَّنسكرتية والألمانية والسلافية واللاتينية واليونانية والزندية) هي أخَوات اشْتُقَّت من لغة مشتركة ضائعة في الوقت الحاضر ، فغدت السَّنسكرتية لا تكون لغة أُمًّا أكثر من أية لغة آرية أخرى كاليونانية أو الهندية أو اللاتينية مثلًا ، وانحصرت فائدة الأوربيين من تعلمها في قراءتهم كتبَ الهند الدينية القديمة الأصلية .

وفي الهند ، عدا اللهجاتِ ، ستَّ عشرةَ لغة آرية ، والهندوستانية هي أكثر هذه اللغات الآرية انتشاراً وأجدرها بالتعليم ، فهي لغة الهند الرسمية ، وهي لغة

الأعمال فيها ، وبها تُكتب الصحف وأهمُّ الكتب ، ولا غُنْيَة لمن له علائق بالهند عن معرفتها .

والهندوستانية الكثيرة الانتشار فى الهند ، اليومَ ، هى حديثة التكوين مع ذلك ، فلا يَرْجع تاريخ ظهورها إلى أقدمَ من القرن الخامس عشر ، والهندوستانيةُ مزيجٌ من الهندية ، التى هى من أصل آرىّ فكان الناس يتكلمون بهـا فى الهندوستان ، ومن اللغتين العربية والفارسية اللتين كان مسلمو الهند يتكلمون بهما ، وقواعدُ هذه اللغة سنسكرتية وتكتبُ بالحروف الفارسية (العربية) على العموم ، وتُعْرف هـذه اللغة ، فى الغالب ، بكلمة الأردو التى تعنى المُعَسْكر ، لأنها كانت لغةَ المعسكرات المغولية بدهلى ، ونشأت هذه اللغة نشوءاً غريزياً عن صلات شعوب الهند بعضها ببعض ، فعلى علماء النحو أن يدرسوها إذا ما رَغِبوا فى معرفة نشوء اللغات وتحولها .

وأكثرُ اللغات الآرية شيوعاً ، بعد الهندوستانية ، هى الهندية التى يتكلم بها أهالى قسم من الهندوستان نفسها ، والپنجابية التى يتكلم بها أهالى الپنجاب والبنغالية التى يتكلم بها أهالى البنغال ، الخ .

ولا قرابة بين اللغاتِ الآرية واللغات الدراويدية التى يتكلم بها سكان جنوب الهند كما ذكرنا ذلك فى فصل سابق ، فاللغات الدراويدية من فصيلة لغوية مستقلة ، أى من اللغات ذوات الوصل المؤلفة ، كما هو معروف ، من أصل ثابت تُوصَل مقاطعُ بأوائل كلماته وأواخرها .

وتحتوى فصيلة اللغات الدراويدية على أربع عشرة لغـة وعلى عِدَّة لَهَجات لكلٍّ واحدة من هذه اللغات ، ويتكلم بهذه اللغات خمسون مليوناً من الناس ،

وأهمُّ هذه اللغات هى التَّمولية التى يُتَكَلَّمُ بها فى جنوب الهند الشرقىِّ الممتد إلى رأس كَمارى والتى هى غنيـة بآدابها ، والتيلغوية التى يتكلَّم بها ١٧ مليوناً من الهندوس فى شرق الدَّكَن وفى بعض أملاك نظام ، والكَنَرِيَّة والمَلَيالمية اللتان يُتَكَلَّمُ بهما فى الساحل الغربى ، الخ .

وفصيلة اللغات الكولية التى تتكلم بها قبائل الهند الوحشية هى عنوان ما لسكان الهند الأصليين من اللَّهَجات قبل المغازى الأجنبية .

ولا أثر لفصيلة اللغات التبتية إلاَّ فى أودية هِمالية .

ولا يتكلَّم باللغات الكهاسية إلاَّ أناس قليلون فى جنوب آسام ، وهذه اللغات من ذوات المقطع الواحد ، أى من اللغات المؤلفة من جذر ثابت مستقل كما هو أمر اللغة الصينية .

وإليك جدولاً بأكثر لغات الهند شيوعاً على حسب الأهمية العددية ، فالرَّقم الذى هو بحذاء كل لغة منها يدلُّ على عدد ملايين الآدميين الذين يتكلمون بهذه اللغة أو اللَّهَجات المشتقة منها :

مليون		مليون	
٥ و ٨٢	الهندوستانية	٥ و ٩	الكجراتية
٣٩	البنغالية	٥ و ٨	الكَنَرية
١٧	التيلغوية	٧	الأورية
١٧	المراتهية	٥	المَلَيالمية
١٦	البنجابية	٤	السندهية
١٣	التمولية	٢	الهندية

ولا تَسْهُل السياحة فى داخل الهند بسبب تنوع لغاتها ولَهَجاتها ، فما أكثر ما كابدنا من المشاقِّ من جرَّاء ذلك ، ويصعب تعيين الأمكنة فى الهند أحيـاناً ،

فنى الهند أماكنُ يُسَمَّى كلٌّ واحد منها فى الخرائط والكتب بعِدَّة أسماء يجهلها الأهلون على العموم ، فعلى المرء أن يكون مُكاشِفاً ليَعْلم ، فى الغالب ، أيَّ مكان قَصَد المؤلف فى كتابه[١] .

ثبت مما قلناه آنفاً عن اختلاف لغات الهند أن شعوب الهند ليست أقلَّ اختلافاً فى لغاتها منها فى عروقها ، وما بين هذه الشعوب من الفروق العميقة المزدوجة إذ كان أعظم مما بين الشعوب الأوربية ، لا ريب ، فإنها لا كبيرَ أملٍ لها فى أن تُوَفَّق لتأليف أمة واحدة .

---

(١) لم يكترث الإنكليز كثيراً لتوحيد كتابة الأسماء ، فلا تجد خريطتين إنكليزيتين كتبت فيهما الأسماء على نمط واحد ، حتى إنك ترى بين المدن التى تقطعها الخطوط الحديدية اسم المدينة الواحدة مكتوباً على أوجه مختلفة فى خريطة الدليل والسجل والمحطة ودليل البريد ، أجل ، لا تصعب معرفة اسم مدينة كانپور إذا كتبت : Cownpore أو Kanhpur ، واسم مدينة أمرت سر إذا كتبت : Amritsir أو Umritsur واسم مدينة پونديچيرى إذا كتبت : Pondichéry أو Punduchéry واسم مدينة كانجى ورم إذا كتبت : Conjevéram أو Kanchipuram ، الخ . ما بدا الأمر بسيطاً ، ولكن الأمر يصعب إذا كتبت مدينة تانجور : Tanjawur وكتبت مدينة أجودهيا : Awadh أو Audh وكتبت مدينة تراون كور : Tiruwankodu ، وكتبت مدينة مدراس : Mandir - Ray ، الخ . ومما لاحظه إستويك فى كتاب مهم نشره عن الهند أن كلمة « فتح » التى تضاف إلى أسماء عدة مدن تكتب على أحد عشر وجهاً غير صحيح : (Futeh ، Futty ، Futtun ، Futteo ، Futtih ، Futteh ، Futt ، Futi ، Futick ، Futhe ، Futh) ، وندرك بسهولة ، بعد هذا ، كما بين ذلك المؤلف ، أن رؤساء الكتائب لم يستطيعوا أن يميزوا أى مكان على دلائل المسافرين التى تعطيهم الحكومة إياها ، وقال ذلك المؤلف ، فضلا عن هذا ، إنه قابل خريطة حكومة مدراس بخريطة أركان الحرب فلم يجد أية مطابقة بين الأسماء ، فأبصر اسم نهر واحد كتب فى خمس خرائط : (Tamraparni ، Tamberperny ، Tambaravari ، Pambouri ، Chindinthura)

وعلى ما تراه من اختصار الخريطة التى نشرناها فى أول هذا الكتاب ، وعلى ما تراه من اقتصارها على الأمكنة المحتوية للمبانى المهمة تجدها أكمل ، من تلك الناحية ، من أكثر الخرائط المفصلة ، وقد بذلنا كبير جهد فى تنظيمها ، ومن الطبيعى أن اعتمدنا على التهجية الإنكليزية ما دامت اللغة الإنكليزية لغة الهند الرسمية ، وما ألف أكثر الكتب الخاصة بالهند بهذه اللغة ، وقد اخترنا من تهجيات الاسم الواحد أكثرها انتشاراً وقرباً من اللفظ الدارج كما سمعناه بنفسنا .

الفصل الثاني
مباني الهند

صعوبة درس فن البناء في الهند ــ تعذر وصل بعض أدوار مبانيها ــ ظهور طرز بناء بغتة وتواريها فجأة ــ (١) تقسيم مباني الهند ــ أصول فن البناء الهندوسي ــ ظهوره ــ قواعد تقسيم له ــ جدول عام لتقسيم مباني الهند ــ (٢) فن بناء الهند في العصر البدهي (بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد) ــ المعابد والأديار المنحوتة في الصخور ــ أجنتا وكارلي ، الخ . ــ القباب ــ سانجي وسارناتها ــ المعابد البدهية الكبرى القائمة فوق الأرض ــ بدهه غيا ــ المباني الإغريقية الهندوسية في شمال الهند الغربي ــ ضعف المؤثرات الأجنبية في الهند ــ أمثلة مختلفة ــ (٣) فن البناء في العصر البرهمي الجديد (بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد) ــ فن البناء في ولاية أوريسة ــ معابد بهو ونيشور ــ فن البناء في راجبوتانا ــ معابد بنديل كهند وجبل آبو ــ قصور غواليار وأوديبور ، الخ . ــ فن البناء في كجرات ــ مباني أحمد آباد ــ مباني الهند الوسطى ــ معابد أمبرناتهه وإيلورا ، الخ . ــ (٤) فن البناء في الهند الجنوبية ــ المعابد المصنوعة تحت الأرض في جنوب الهند ــ بادامي ومهابلي بور الخ . ــ وضع معابد جنوب الهند العام ــ معابد بيجانقر ومدورا وشرى رنغم ، الخ . ــ (٥) فن البناء الهندوسي الإسلامي ــ تنوع الطرز الإسلامية في الهند ــ عناصر فن البناء الإسلامي الأساسية ــ أصول الطراز المغولي ــ عناصره الأساسية ــ تصنيف المباني الإسلامية في الهند ــ (٦) فن البناء الهندي التبتي ــ مباني نيبال ــ اختلاط العناصر الهندوسية والصينية ــ تقسيم معابد نيبال ومبانيها العام ــ (٧) فن البناء الهندوسي الحديث ــ تقهقر فن البناء في الهند حديثاً ــ أسبابه ــ المباني الهندوسية التي أقيمت في الهند منذ قرن .

دِرَاسةُ فنِّ بناء الهند ذاتُ مصاعبَ عظيمة ، فتجد بعض الأدوار من جهةٍ

عاطلةً من المبانى فتكون الأمثلة التى هى على جانب كبير من الأهمية ، فى بعض الأحيان ، واحدةً تقريباً ، وترى مبانىَ أحد الأدوار من جهة أخرى تختلف بحسب البقاع اختلافاً لا تجد معه ، فى الغالب ، قرابة ظاهرة بينها ، فالحقُّ أنك لا تُبْصِر فى مبانى الهند تلك الوَحْدَة التى عُزِيَت إليها كما أنك لا تُبْصر مثل هذه الوَحْدة فى أديانها ولغاتها وفنونها ، والحقُّ أن الهند مؤلفة من بلدان متباينة بيئاتٍ وسكاناً أكثر مما يُشاهَد بين بقاع أوربة المختلفة .

يمكن عالمَ الآثار الذى يدرس مبانى الغرب ، كمبانى فرنسة مثلاً ، أن يتبيَّن ، فى الغالب ، نشوءها بين قرن وآخر وأن يلاحظ التطورات المتتابعة التى جاوزتها بين شكل وآخر ، وليست الأدوار التى لم ينْته إلينا شىء منها طويلة أبداً ، ويمكن وصل حلقاتها بالمخطوطات التى وَصَلَتْ إلينا عند الضرورة، فبالمبانى وبالكتب يسهل بعث ماضى الغرب .

والأمرُ غير ذلك فى الهند حيث أباد الزمان والإنسان شهودَ أدوار حضارتها الغابرة الطويلة إبادةً لا رحمة معها ، وحيث لا تجد إلى زمن قريب أثراً خطيًا جديراً بأن يُسَمَّى تاريخاً .

وإن عَالِمِ الآثار الذى يطوف فى الهند ، وهو يعرف أن ماضيها حافلٌ بالحضارات الكثيرة القوية ، ليُبْهَت مما يراه ومما لا يراه فيها ، فلا تجد فى الهند حجراً أثريًا من بقايا أقدم حضاراتها ، وإن شئت فَقُل من حضارتها التى ظهرت قبل الميلاد بخمسةَ عشرَ قرناً فأشادت بذكرها كتب الأدب ، ولا تجد من الحضارة التى قامت بعد تلك بِنُضْج دام ألف سنة سوى بقايا لا تكفى لإيضاح تاريخها وإن كَفَت

لإثبات عظمتها ، والمبانى ، حين بَدَت فى الهند بغتةً قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، مَثَّلَت بدرجة من الكمال لم تُجاوَز قطّ مع تعاقب القرون .

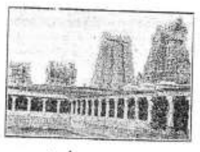
ولا يكتشف الباحث فى أية ناحية من الهند الأدوارَ الأولى التمهيدية التى تدلُّ عليها بقايا الحضارات الأخرى على الدوام تقريباً ، ففى بعض بقاع الهند يرى الباحث ظهورَ المبانى فَجْأَةً وتَجَمُّعها فى قرنين أو ثلاثة قرون ثم يرى تواريها بغتةً ، أى إنه لا يَجِد قبلها و بعدها غيرَ الليل الدامس ، أجَلْ ، إنه يكتشف فى بقاع أخرى من الهند مُؤَثِّرات يونانية وفارسية بادية ، بيد أن هذه المؤثرات لا تَعْدُو بعضَ البقاع ، وقد توارت بغتةً أيضاً ، وحقًّا أنه يشاهد ، من فَوْره ، فى إحدى البوادى الهندية أبواباً هائلة مُغَطَّاة بنقوش عجيبة، غير أنه إذا ما جاب جميع بلاد الهند الواسعة لا يكاد يرى من نوعها غيرَ اثنين أو ثلاثة من أدوار حضارة دامت أكثر من عشرين قرناً، وهو إذا ما عَدَل عن اكتشاف الماضى القديم المظلم من تحت الأعفار فاقتصر على دِراسة مبانى دور أحدثَ من تلك الأدوار معروفٍ تاريخياً كالدور الإسلامى لم يَسْلَمْ من المصاعب أيضاً ، فمن العبث أن يَفترض أنه يتألف من هذه المبانى سلسلةٌ متجانسة بِزَعْم أنها شِيدَت من قِبَل شعوب تدين بديانة واحدة وتتكلم بلغة واحدة ، فما تَجِده من الفروق بين المبانى التى أقامها أتباع النبىّ فى دور واحد و بِقاع مختلفة من الهند هى من الوضوح والاتساع ما يجعلك تسأل معه : هل هذه المبانى من آثار قرون واحدة وشعوب واحدة ؟

وتاريخ ماضى الهند وحدَه يمكنه أن يُلقِىَ بعض النور على الشذوذ الظاهر الذى تُسْفِر عنه دِراسة أطلالها ، و بالوثائق التاريخية يمكننا أن نَتَبَيَّن الحوادث التى لا تُفَسَّر بغيرها إذا فُسِّرَت هذه الوثائق تفسيراً صالحاً مع نقصها ، فبالتاريخ وحدَه ندرك

مبانيَ الهند ، ومباني الهند وحدَها هي التي تُكمِل هذا التاريخ ، و بفضل هذه المباني خَرَجَت أدوارٌ من عالم النسيان بعد أن سكتت عنها الكتب والمتمنات .

١ — تقسيم مباني الهند

إذا استثنيت بعض المغاور التي ليس لها قيمةٌ فنية وجدتَ أقدم مباني الهند لم تنشأ إلا بعد القرن الثالث قبل الميلاد ، ولدينا أدلة صحيحة ، مع ذلك ، على أن الهندوس كانوا ذوي طِراز بناء قبل هذا التاريخ فأقاموا فيه مدناً وشادوا فيه قصوراً ، فنحن نعلم ، من الوصف الذي ورد في ديوانيَ المهابهارتا والرامايانا ومن المباني التي انتهت إلينا ومن شُرَف بهارت الكثيرة النقوش مثلاً ، أن تلك المباني بلغت من الكمال

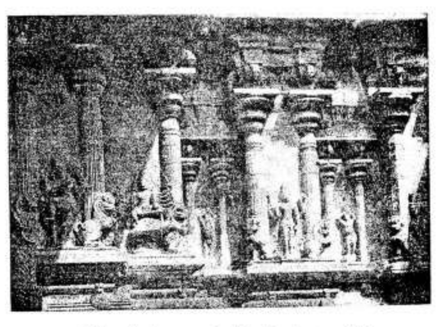


١٠٢ — مدورا . منظر معابد أخذ من حوض البدر الذهبي

درجة لم تنلها إلا بمجاوزة ماض فنيّ طويل ، ونحن نفترض ، على العموم ، أنها زالت لأنها كانت مصنوعة من الخشب والآجُرّ وإن صُنِعَت أسسها من الحجر ، كما تدلّ عليه محافظة أهل نيبال ، المتمسكين بقديم العادات ، على عادة إقامة مبانيهم من الخشب والآجُرّ إلى يومنا هذا ، وكما لاحظه ميغاستين قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وكما يشهد به معبد بُدْهة غيَا الكبير المصنوعُ بعضُه من الآجُرّ في ذلك الدور على الأقل ، فكان البناء الوحيد الذي انتهى إلينا ، فالآجُرُّ والخشب إذ كانا أسهلَ استعمالاً من الحجر في البناء كان لنا أن نرى تفضيل الهندوس لهما على الحجر .

ولم تبدأ الهند ، على ما يحتمل ، تَعرِف المبانيَ الحجرية التي وَصَل إلينا بعضها

إلا فى عهد أشوكا أى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومن المحتمل أن صنعها بَنَّاؤوها منقولة عن المبانى الخشبية القديمة ، فعلى هذا الرأى كثير من العلماء ، وقد وَجَدتُ ما يؤيده فيما شاهدته بنيبال من اقتباس بَنَّائيها ، بضبطٍ ، فى المعابد الحجرية أعمدةَ المعابد الخشبية المنقوشة .



١٠٣ ـ مدورا . دقائق نقوش فى معبد من معابد الزون الكبير

وتبدو الآثار البُدّهِيّة القديمة ، كالأعمدة التذكارية والقِباب والشُّرَف المنقوشة، من كمال الصنع ما نُسِج به على منوالها عِدَّةَ قرون فى البِقاع الهندية المختلفة : أمَراوَتى وأجنتا وسانجى الخ . وظُنَّ قبل تعيين الزمن الذى شيدت فيه هذه المبانى ، أن من الممكن إثباتَ تطورها الفنىّ بالمعابد الأولى المصنوعة تحت الأرض ، بيْدَ أن تلك المنقوشات العجيبةَ معاصرةٌ لهذه المعابد الأولى التى نُحِتت تحت الأرض لتكون

ملاجىء أو صوامعَ للرهبان المتكفين ، وما مَثَلُ من يريد أن يستنبط أصول فنّ عمارة دور من آثار ابتدائية كتلك إلاّ كمثل من يستنبط أصولَ مبـــانى المدن الحديثة من أكواخ الرُّعاة فى الجبال ، والمعـــابدُ المنحوتة تحت الأرض حينما اتّفق لها بعض الأهمية صارت تُصْنَع وَفْقَ الآثار المعمارية المعدودة من الطراز الأول .

وإذا عَدَوْت المعابد المنحوتة فى الصخر لم يبق لديك من تلك الأدوار الابتدائية سوى عدد قليل من النقوش والأعمدة التى تفلّتت من التخريب بمعجزة ، ومن حسن الحظ أن فكّر البُدْهيُّون فى نحت معابدهم الأولى فى الجبال وإنقاذها بذلك من يد الزمن ، ولو لم يُخَرِّب الإنسان فيها بعض الشىء لظلت كما كانت حين صُنِعَت، وليس عدد هذه المعابد قليلاً إذا ما قيس بالآثار التى أقيمت فوق الأرض كالأعمدة التى صُنِع كلّ واحد منها من حجر واحد فنَقَش عليها أشوكا مراسيمَه وكالشُّرَف المنقوشة القايلة فى الوقت الحاضر والمحيطة بالمزارات المخروطة الشكل .

ولم يبق شىء من القصور والمعابد الكبيرة التى صُنِعَت قبل الميلاد فوق الأرض، ووَجَد فاهيان الذى زار الهنـــد فى القرن الرابع من الميلاد أطلالاً لقصور أشوكا ، ووَجَد فاهيان هذا ما كانت عليه تلك القصور من الرَّوْعة فقال إن الناس ليَعْجِزون عن صنع مثلها .

وغابت المعابد البُدْهيّة المصنوعة تحت الأرض غياباً تدريجياً بين القرن الخامس والقرن الثامن من الميلاد ، واسْتُبْدِلت بها معابد مصنوعة فوق الأرض لمختلف الدِّيانات، وهذه المعابد إذ أنشأ أكثرَها أتباعُ الجَيْنِيّة أُطْلِقَت كلمة الطراز الجَيْنِيّ على الطراز الذى أقيمت به ، ولا أوافق على هذه التسمية ما رأيت معابدَ برهمية وجَيْنِيّة شِيدَت

على هذا الطراز فى دور واحد كما بدا لى من المقايسة بين المعابد البرهمية والمعابد الجَيْنية فى كهجورا .

وسترى فى غضون هذا الفصل أن فنّ عمارة الهند قد اختلف اختلافاً كبيراً بين بقعة وأخرى وبين دور وآخر ، وما كان الاختلاف الذى نُبْصِره فى فنّ العمارة الأوربىّ بتعاقب القرون بأعظم من ذلك .

وعلى الباحث فى المبانى الهندوسية أن ينظر إلى جزئيّاتها عند الفصل فى أمرها ، لا إلى خرائطها البسيطة ، ومما لا ريب فيه أن معابد العصر البُدّهىّ كانت تؤلَّف من رِدَاه واسعة منحوتة فى الجبال ومن مزارات مخروطة الشكل محاطةٍ بأعمدة وأن معابد العصر البرهمىّ تؤلَّف فى شمال الهند من رَدْهَة أو عِدّة رِداه قائمة الزوايا مُزَيّنَة بأروقة فوقها هَرَمٌ ذو وجوه مستديرة الخطوط ، وأنها تؤلَّف فى جنوب الهند من أُطُر واسعة قائمة الزوايا تُدْخَل من أبواب هَرَمِيّة ذوات وجوه مستقيمة الخطوط والأضلاع وذوات طبقات كبيرة ، ووصفٌ عامٌّ كهذا لا يُغْنى القارئ ، مع ذلك ، عن النظر إلى الصور التى نشرناها فى هذا الكتاب فيمكنه أن يَتَبَيَّن بها طُرُزَها .

وهنا نذكر أن مهندسى الهندوس لم يشيروا بصنع القِباب المتوجهة إلى مركز واحد فى جميع معابد الهند التى أُنشئت قبل العصر الإسلامى وبعد هذا العصر فى الغالب ، فصانوا المعابد القديمة من الخراب بذلك ، فقِبابٌ كتلك التى تُصْنَع فى الغرب بموادَّ قليلة فتَغْشَى مِساحاتٍ كبيرةً تحمل فى ثناياها بذور زوالها « فلا تنام أبداً » كما يقول الهندوس ، فالحقُّ أن البقاء لا يُكْتَب لمبان تُشاد بحسب طرقنا الأوربية فى بلد كثير الزلازل والعوارض الجوية كما يدل عليه أمر المبانى التى

أنشأها الإنكليز ، والحقُّ أن مبانى الهند لو أقيمت وَفْقَ قواعدنا ماانتهى إلينا منها سوى الغبار .

اتخذ الهندوس ، دَعْماً لجسر أوستراً لبناء ، القِبابَ ذواتَ المداميك الأفقية التى يَنضَّد بعضُها فوقَ بعضٍ تنضيداً يَنْتأ به عاليها مما سَفُل ، فإذا كانت المساحة التى يُراد غَمْوُها[1] واسعةً أضيف إلى الأعمدة التى تُمْسِك حجارة الدائرة صَفٌّ أعمدة أخَر قريبٌ من مركز هذه الدائرة ، ولم يستعمل الهندوس القِبابَ والأقواس المتوجهة إلى مركز واحد فى معابدهم إلّا نادراً ، حتى بعد أن نشر المسلمون هذا النوع من البناء ، ولا يُفْتَرض أنهم جهلوا ذلك الطراز قبل المغازى الإسلامية مارأينا الإغريق الذين لهم صلاتٌ سابقة بهم كانوا يُعَلِّمونهم إياه ، لا ريب ، عند افتراض جهلهم له كما جَهِله المصريون فى القرون القديمة .



١٠٤ ـ مدورا . دقائق أعمدة رواق فى الزون الكبير (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى السقف نحو خمسة أمتار ويبلغ ارتفاع تماثيل الحيوانات الحجرية الغريبة نحو مترين)

وما يُتَّخَذ لحضارات الهند ومعتقداتها الدينية من التقسيمات العامة يمكن أن يُتَّخَذ مثلُه لمبانيها ، والواقعُ أن هنالك فروقاً عميقة بين فن العمارة فى العصر البُدّهِىّ

(١) غما البيت يغموه غمواً : غطاه .

وبينه فى عصر النهضة البرهمية والعصرِ الإسلامىّ ، ولكن تقسيماً كهذا ناقصٌ نقصاً تاماً ، فما بين العروق من الفروق يؤدى إلى فروق بين المبانى أشدّ من التى يؤدى إليها اختلاف العقائد ، فبهذا نكتشف السرّ فى اختلاف فنّ العمارة فى شمال الهند عن اختلافه فى جنوبها مع اعتناق تَيْنِك الجهتين لديانة واحدة فى أكثر من ألف سنة .


١٠٥ ـ مدورا . دقائق عمود فى ردهة الزون الكبير المعروفة بيوتهو مونتاپام

والتقسيم الذى يلوح لنا صلاحه هو الذى يستند إلى البقاع التى أقيمت فيها المبانى ، وهذا هو التقسيم الذى رَضينا به ، وهذا هو التقسيم الذى يرَى به القارىء ، الناظر إلى صُوَر هذا الكتاب ، أنه ما يُقرِّب به بين متشابه المبانى وما يساعد على الوصف الشامل ، ونحن لم ندرس فى مختلف المطالب مختلفَ المبانى القائمة فى البُقْعَة الواحدة ، كدهلى مثلاً ، إلّا عندما تكون هذه المبانى قد أُنْشِئَت فى أدوار شديدة التباين فلا يَمُتُّ بعضها إلى بعض بوجه شبه .

وأقلُّ نظرة إلى صُوَرِ هذا الكتاب تدلُّ على أن كمال مبانى الهند ليس بحسب

أزمنة إنشائها ، بل تدلّ على أن أقدمَها أتمُّها ، ويتجلى بلوغ فنّ البنـاء ذِروته فى معابد جبل آبو ومعابد كهجورا التى ترجع إلى القرن العاشر من الميلاد ، فعلى ما فى هـذه المعابد من نقص فى فن التماثيل بلغت جُزْئيّاتها من الـكمال مبلغاً لم تَقدِر القرون معه على إضافة شىء إليها .

ولا يطمئنّ الباحث أن يجد فى الهند مثل ما يجده فى الغرب من تطور فن العمارة التدريجىّ ، ففن العمارة فى الهند ، كآداب الهنـد ، قد وَصَل إلى درجة من الرقى بسرعة ، والهندُ لم تُجَاوِز هذه الدرجة بعد أن وَصَل فنُّها إليها .

ويدلّ الجدول الآتى على عناصر التقسيم الجديد الذى هَدَتْنا إليـه مباحثنا ، ونُخَصِّص ، بعد أن نَسْرِده ، بضعةَ مطالبَ للبحث فى تاريخ فنّ عمارة كلّ دور وكلّ بُقعـة بحثاً موجزاً ، ونحن إذ كُنّا لا نستطيع ، لضيق المـكان ، أن نُسِيف بالتفصيل أىّ بناء ، نُحيل القارىء الذى يُهِمّه هـذا الموضوع إلى الـكتاب الـكبير الذى لم يكن هذا الفصلُ غيرَ خلاصة خاطفة له[1] ، فمن ذلك الـكتاب اخترنا صُوَر هذا السِّفْر الـكبيرةَ تابعةً للتصنيف الذى نَعرِضه ، فهى تـكفى ليَتَبيَّن بها القارىءُ أهميةَ آثار الهند .

---

(١) كتاب « آثار الهند » ، وهو يقع فى خمسة مجلدات ، ويشتمل على ٤٠٧ من الصور الـكبيرة ، وعلى مجلد واحد خاص بالنص ، وهذا الـكتاب هو نتيجة ما قامت به بعثة الآثار التى فوضت الحـكومة (الفرنسية) إلىّ أمرها ، فأرسلنا نسخة منه إلى وزارة المعارف (الفرنسية) العامة ، وقد تطلب درس مبانى الهند فى وقت قصير قطعنا أربعة آلاف فرسخ فى بقاع عاطلة ، فى الغالب ، من الطرق ومن جميع وسائل النقل فانتهينا إلى ابتكار أساليب جديدة فى التصوير والرسم ، فتقوم هذه الأساليب المبتكرة على المزج بين الفوتوغرافية وبعض الطرق الهندسية فتجد وصفها فى مذكرة خاصة نشرتها المجلة العلمية سنة ١٨٨٥ بعنوان « الهند الأثرية والمناهج » ، فترى فيها ، أيضا ، درجة ما فى دراسة مبانى الهند من النقص حتى الآن ، وما يقتضى من الوقت نهائيا لصنع صورة للأطلال التى تزول بسرعة عظيمة .

١ — تقسيم مبانى الهند العام

١ — فنُّ عمارة الهنــد البُدِّهِيُّ (بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد) .

١ — مبانى الهند الأولى (أعمدة تذكارية ، معابد وأديار منحوتة فى الصخر)

أمثلة : أعمدة الله آباد ودهلى التذكارية ، مبانى بهاجا وكارلى وأجنتا ، الخ .

٢ — مبان بُدِّهية أنشئت فوق الأرض .

أمثلة : مبانى بهارت وسانچى وسارناتهه و بُدِّهة غَيَا ، الخ .

٣ — مبانٍ يونانية هندوسية فى شمال الهند الغربى .

أمثلة : مبانى پِشاور وكشمير ، الخ .

٢ — فن بناء البرهمية الجديدة فى شمال الهند ووسطها

(بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد)

١ — فن العمارة فى شمال الهند الشرقى .

أمثلة : مبانى ساحل أوريسة (بهُو ونيشوَر ، جَـكَن ناتهة ، الخ) .

٢ — فن العمارة فى راجپوتانا و بنديل كهند .

أمثلة : مبانى كهجورا وغواليار وچِتُّور وجبل آبو وأوديپور وناغدَها ، الخ .

٣ — فن العمارة فى كجرات .

أمثلة : مبانى أحمد آباد ، الخ .

٤ — فن عمارة الهند الوسطى .

أمثلة : مبانى إليفنتا و إيلورا وأمبرَناتهة ، الخ .

٣ — فن عمارة الهند الجنوبية (بين القرن السادس
والقرن الثامن عشر من الميلاد)

١ — معابد جنوب الهند المصنوعة تحت الأرض .

أمثلة : مبانى مَهاكَلِى پور و بادامى ، الخ .

٢ — فن عمارة المعابد فى جنوب الهند .

أمثلة : مبانى شِلَمْبَرَمَ وتانجور وترپيتى وكانجى وَرَم و بيجانغر ومَدورا وسِرِى رِنكهم ، الخ .

٤ — فن العمارة الهندوسى الإسلامى (بين القرن الثانى عشر
والقرن الثامن عشر من الميلاد)

١ — فن العمارة الإسلامى قبل العصر المغولى .

أمثلة : مبانى دهلى القديمة ومبانى أجمير و بيجاپور وغول كوندا ، الخ .

٢ — فن العمارة فى العصر المغولى .

أمثلة : مبانى أغرا ودهلى وفتح پور ولاهور ، الخ .

٣ — فن العمارة التى توحِى بالمؤثرات الإسلامية فى مختلف بقاع الهند التى يختصُّ الهندوس بأكثر مبانيها .

أمثلة : المبانى الإسلامية فى غواليار ومَهُوبا ومَدورا ، الخ .

٥ — فن العمارة الهندوسى التبتى (بين القرن الثانى من الميلاد والزمن الحاضر)

أمثلة : مبانى‌شم بهُونانهة و بُدْهَة ناتهة و بهات غاؤن وَيَتَن وكهات‌ماندو ، الخ .

٦ — فن العمارة الهندوسى الحديث

أمثلة : مبانى بنارس وأَمْرِتسَر ، الخ .

٢ — فن عمارة الهند فى العصر البُدّهى

(بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد)

لا يَرْجِع أقدم مبانى الهند إلى ما قبل زمن راق من العصر البُدّهِى ، أجَلْ ، وُجِدَتْ فى البنغال معابدُ مصنوعةٌ تحت الأرض فى القرن الخامس قبل الميلاد ، بَيْدَ أن هذه المعابد ليست إلاَّ حفائرَ تُثْبِت مهارة الهندوس فى نحت الحجر ، ولا تَكشِف عما كان عليه فنُّ عمارتهم ، فالهندوس لم تَبْدُ آثارهم المعمارية إلا فى عهد الملك أشوكا الذى كان قبل الميلاد بنحو ٢٥٠ سنة .

ويمكن تصنيف جميع آثار الهند فى العصر البُدّهِى كما يأتى :

الأعمدة التذكارية . — ترْجع هذه الأعمدة التذكارية إلى عهد الملك أشوكا الذى أمر بأن تُنقَشَ عليها مراسيمه ، ويمكن عدُّها من أهم المصادر لتاريخ الهند ، وتَجدُ أشهرَها فى الله آباد ودهلى ، وتُبْصِرُها مستورة بكتابات خاصة بالتعاليم الدينية وذِكْرَيات الملوك ، الخ . ويعلو تيجانَها أفيالٌ أو أسود تُذَكِّرُنا بأعمدة برسيبوليس ، ويُفتَرَض أن هـذه الأعمدة كانت منصوبة ، على العموم ، أمام القِباب البُدّهِيَّة أو ما إليها ، وتشاهَد ، أحياناً ، أمام المعابد الواقعة تحت الأرض ، ولا سيما فى كارلى .

المعابد والأديار المنحوتة فى الصخر . — إن أقدم مبانى الهند وأغناها ما نُحِت فى منحدرات الجبال من المعابد والأديار .

و إذا استثنيتَ بعض الرَّدْهات المنحوتة تحت الأرض فى بِهار ، فتَرْجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد ولا تبدو غير حفائر بسيطة ، وجدتَ تاريخ أقدم تلك المعابد والأديار لا يزيد عن القرن الثانى قبل الميلاد ، وداوم القوم على صنع معابدَ وأديار من ذلك

الطراز إلى القرن الثامن بعد الميلاد فيكون مجموع الزمن الذى استمروا على إنشائها فيه نحو ألف سنة ، وهم لم يكفوا عن صنعها إلا بعد توارى البُدَّهِيَّة عن الهند ، فالحقُّ أن تسعة أعشار تلك المعابد والأديار بُدَّهِيَّة ، وأن عشرها فقط برهميٌّ أو جَيْنِيٌّ .

وتقسم تلك المبانى المنحوتة فى الصخر إلى معابدَ وأديارٍ ، فنَعُدُّ من هذه المعابد ثلاثين ونَعُدُّ من هذه الأديار ألفاً .

ولم يَعْدُ بعضُ هذه المبانى حفائرَ قليلة الزينة ، بَيْدَ أنك ترى فى أكثرها وأقدمها غِنًى فى النقوش والتخاريم لم يَتَّفِق لأمة أحسنُ منه .

وفى هذا الكتاب نشرنا صُوَرَ ما هو مهمٌّ من تلك المعابد ولا سيما أشهر ما يُشاهَد فى بهاجا وكارلى و إيلورا و بادامى وأجنتا ، الخ . والآن أقول بضع كلمات عما هو موجود منها فى أجنتا ليَتَمَثَّلَ القارئ صنعَها والعملَ الهائل الذى تُعْرِب عنه ، على أن أذكر فى مطلب آخر شيئاً عما فى إيلورا

نُحِتَت معابد أجنتا بعيدةً تسعين كيلو متراً من أورنغ آباد ، وذلك على جوانب جبل وعر فوق فَجّ غامر يجرى منه سيل فائر ، ولا تُبْلَغ تلك المعابد إلاّ بجَوْب أكداس من الصخور ، ويدلُّ منظر تلك الأماكن الوَهِرة الوَعِرة أن الرهبان الذين كانوا يهاجرون إليها كانوا يتمسكون بالعُزْلة تمسكاً لايُوصل معه إليها بأية وسيلة ممكنة ، كما يُسْتَدَلّ عليه من حال الأور بيين القليلين الذين يَرَوْن زيارة أجنتا ، مع قرب بمبى ، فيقتضى تحقيق رغباتهم بِرَحابة .

ويُثْبِت تفاوت أعمار تلك المعابد أن كثيراً من الآدميين قد عاشوا تحت قبابها الدُّجن قرونا طويلة ، ولن يَتَبَيَّن الإنسان العمل الذى تَطَلَّبه نحت تلك المعابد فى

جَوْف الجبل إلاَّ إذا تخيل القرون التى تمَّ فيها .

ومن المحتمل أن يكون أقدم تلك الآثار قد أُنشِيء بأَجَنْتا قبل ظهور المسيح بـ ١٥٠ سنة ، وأحدثُها قد تمَّ بعد الميلاد بسبعة قرون ، وما بين تلك الآثار من الفروق يقوم على فَيْض الزخارف أكثر مما على القيمة الفنية ، ففى أجنتا ، كما فى بقية بلاد الهند ، لا تستند قيمة المبانى إلى قاعدة التطور التدريجى .

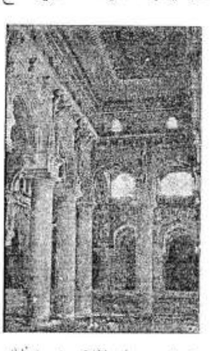
ويتصف أحدث معابد أَجَنْتا باشتمالها على صورة بُدَّهَة ، على الخصوص ، اشتمالاً مُكَرَّراً بما لا حدَّ له ، وتحتوى هيا كل هذه المعابد على نقوش يبدو بُدَّهَة بالغاً بها درجةَ السعادة الإلٰهية .

ويتقدم معابدَ أَجَنْتا وأديارها المنحوتة تحت الأرض شُرَفٌ حجرية قائمة على أعمدة منحوتة مثلها فى الصخر .

وفى أَجَنْتا عِدَّةُ أديار تابعة للمعابد ، ويتألف كلٌّ واحد منها من حُجُرات حول رَدْهَةٍ ، وتشتمل كلٌّ واحدة من هذه الُحجرات على سرير من حجر ، ولا تنفصل هذه الُحجرات عن المعبد فى الغالب ، بل تُتَّخَذ الرَّدْهَة التى تحيط بها هذه الُحجرات، وهى واسعةٌ أحياناً ، معبداً مشتملاً على مقاصيرَ جانبيةٍ خاصة بعبادة بعض الأولياء كما فى الكنائس الكاثوليكية ، ولم تَفْتَأْ الأديار الأخيرة تَتَّسِع ، فوجب دَعْمُ سقف المعبد الواقعة حوله بأعمدة إضافية ، وإن كان هذا السقف مؤلفاً من الجزء الأعلى مما هو منحوت فى الجبل ، وتحتوى أَجَنْتا على رِدَاه منحوتة تحت الأرض يبلغ جانبها ٢٨ متراً ويحملها ٢٤ عموداً ضخماً لا يزيد ارتفاعه على أربعة أمتار .

ويُرَى فى صدر كلٍّ واحدة من تلك الرِّداه العظيمة المنحوتة فى الصخر ، على

العموم ، تمثال كبير لبُدَّهَة تُحيط به تماثيل أخرى وتستر الأعمدةَ والسقوف نقوشٌ وزخارفُ ملونة ، وتستر الحيطانَ تصاويرُ ممثلة لحياة بُدَّهَة ، وهذه التصاوير ، مع رداءتها ، مفيدةٌ إلى الغاية ، فهى وحدَها كلُّ ما انتهى إلينا من التصوير فى الهند الغابرة ، ومن المحتمل أن تكون قد صُنِعَت فى القرن الخامس من الميلاد ، ومما يشمل النظر الوجوهُ فيها ، فملامح هذه الوجوه وقَسَماتُها وزِيُّها وزينتُها مما يدلُّ على عِرْق يختلف عن العِرق الذى يُرَى مثالُه فى المبانى الأولى القائمة فى بَهاجا وكارلى وبهارت وسانچى ، الخ .



١٠٦ — مدورا . داخل قصر تيرومل نايك (القرن السابع عشر من الميلاد) اقيم هذا البناء الذى هو من أهم قصور الهند فى القرن السابع عشر أيام الراجه الهندوسى تيرومل ، فلو جرد من التماثيل التى تزين مختلف أجزائه لعد أثراً إسلامياً خالصاً ، فيمكن عده مثالا على التأثير العظيم الذى اتفق للمسلمين فى جميع بقاع الهند، ومنها التى لم تخضع لسلطانهم .

ولا شىء يفوق تلك المعابد المنحوتة تحت الأرض غير معابد إيلورا ، فمن أروع المناظر منظر تلك الرِّداه الواسعة ذات الأعمدة الضخمة والتى يَتِيه النظر وسط ظلامها فلا يُرَى فيها تمثال بُدَّهَة العظيم ، الذى يلوح العُلُوج حارسين له ، إلا على نور المشاعل .

القِبَاب . — يُذَكِّرنا شكل القِباب ، على العموم ، بمزاراتنا الأوربية القديمة، فهى ذات شكلٍ نصف كُرِىّ على العموم ، كما فى سانچى ، وقد يكون

بُرْجيًّا كما فى سارناتهة ، ويحيط بها سياج حجرىّ ذو نقوشٍ ، وتُدْخَل من أبواب ضخمـــة .

ونتَنوَّر أمر تلك القِبساب من وصف قُبَّة سانچى الكبيرة ، فهذه القبّة من أقدم مبانى الهند وأجملها ، وأُنشئت هذه القبّة نفسها فى أيام الملك أشوكا ، أى فى زمن أقدمَ من ٢٥٠ سنة قبل ظهور المسيح ، وأُنشىء سياجها الحجرىّ وأبوابها فى أوائل القرن الأول من الميلاد ، ولا تحتوى الهند على غير قليل من المبانى التى أقيمت فى ذلك العصر إذا استثنيتَ المعابد التى نُحِتَت فى الصخر ، وإذا كانت مبـــانى سانچى قد تَفَلَّتَت من التخريب فذلك لوقوعها فى بُقعة منيعة ، وإذا أدنيتَ إلى ذلك الأثر ما شيد فى ذلك العصر من المبانى ، كمبانى بَهارت مثلاً ، فعلمتَ أن هذه ليست دون تلك زينةً أيقنتَ أن فنَّ العمارة فى كُبْرَيات المواصم الهندية كان قد بلغ درجةً رفيعة من العظمة لا ريب .

أقيمت قُبّة سانچى فى زمن أُنشِىء فيه ما يماثلها من المبانى التى شِيدت للدلالة على مكان مقدس أو لتخليد حادثة دينية .

وشكلُ قُبّة سانچى نصفُ كُرِىّ تقريباً ، وظَهْرُ هذه القبّة مُسَطَّحٌ ، ويبلغ قطر قاعدتها ٣٤ متراً ، ويبلغ ارتفاعها نحو ١٧ متراً ، وكان يعلوها ، كما كان يعلو كلَّ ما يُماثِلها ، هيكلٌ متآزى السطوح لإمساك ثلاثة ألواح حجرية منقوشة يزيد عرض كلٍّ واحد منها عن الذى فوقه ، وهذا إلى أن شكل الهيكل ذلك كان شائعاً فتَجِده فوق رسوم القِباب والنقوش البارزة وفى المعابد المنحوتة تحت الأرض .

وقُبّة سانچى أُنشئت من الآجُرّ كغيرها من المبانى المماثلة لها ، وأهمُّ أقسام

هذه القُبة هو السِّياج الحجرىّ الكبير الذى يحيط به ، ولا سيا الأبواب الأربعة الرائعة التى يُدْخَل منها فنشرنا صورَ ابرزِ أجزائها .

ذلك السياجُ الحجرىّ يُحْدِق بتلك القُبَّة ، ويتألف من أساطينَ عمودية مثمنة الزوايا ذواتِ ثُغَرات أُدخلت إليها أعمدة حجرية أفقية إتماماً لها .

ويشتمل ذلك السياج على نقوش كثيرة ، ولكن دقائق عمل المتفننين تَجَلَّت، كما يظهر، فى تلك الأبواب الكبيرة التى تكلمنا عنها آنفاً، فترى جميع وجوه هذه الأبواب مُغَطَّاة بضروب النقوش البارزة ، والباب الشمالىّ هو أهمّ هذه الأبواب ، فيبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار ويبلغ عرضه ستة أمتار .

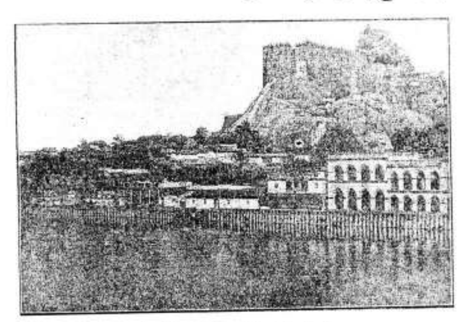
والنقوش البارزة التى تستر تلك الأبواب الضخمة تشيرُ ، على العموم ، إلى مناظر حياة بُدَّهة حينما كان أميراً و إلى معايشه قبل ذلك ، ولم يُصَوِّر هذا المصلح الكبير فيها بحسب الأوضاع المتفق عليها فانحصرت فيما بعد فى رسمه واقفاً أو متربعاً .

ويعلو هذا البابَ الشمالىّ خَطَّافٌ ، والخَطَّافُ رمزُ بُدَّهة ، وتَجد عن يَسَار ذلك الباب وفى قاعدة العمود صورةً لأثر قدم بُدَّهة .

ومع أن نقوش الأبواب الأخرى وزخارفها دون نقوش ذلك الباب وزخارفه فَيْضاً فهى جديرة بالذكر ، كما يبدو ذلك من صورنا الفوتوغرافية ، فالحيوانات التى تعلو أعمدة أحدها تستوقف النظر كثيراً .

ويشير منظرُ صُوَر الأشخاص المنقوشة فى سانچى وزينة رؤوسهم ووجوههم المستديرة والمسطحة ، كما يظهر ، إلى عِرْق من آسية الوسطى لم يبق إلى أيامنا ، وإن مَثَّل دوراً مهماً فى ذلك العصر لِما نراه بارزاً أيضاً فى مبانى بهارت وبُدَّهة غَيَا ، الخ .

المعابد البُدَّهية الكبيرة القائمة فوق الأرض . — المعابد البُدَّهية الكبيرة القائمة فوق الأرض نادرة جداً ، ولم ينشأ هذا عن أنه لم يُصْنَع منها سوى عدد قليل ، بل نشأ عن اندثار مُعْظَمِها بسبب صنعها من موادَّ لا تقاوم جَوَّ الهند كالآجُرّ على الخصوص، والمعبدُ البُدَّهيُّ الوحيد الذى لم تُصِبْه يد التخريب ، لترميمه المتصل ، هو معبد بُدَّهة غَيَا الذى أُنْشِئ قبل الميلاد بقرن فى المكان الذى تقول الأساطير إن بُدَّهة بلغ فيه مرتبة الحِكْمة العُلْيا .



١٠٧ — تَرى جنابلى . منظر المدينة وقلعتها

وأقدس أماكن الدنيا عند البُدَّهيين ، البالغ عددُهم خمسَمئة مليون من الآدميين، أى عند أكثر شعوب آسية ، هى الأمكنة الثلاثة : مدينةُ كاپلا وستو حيث وُلِد بُدَّهة ، ومدينةُ بنارس حيث دعا بُدَّهة الناس إلى مذهبه ، ومدينةُ بُدَّهة غَيَا حيث بلغ بُدَّهة مرتبة الحكمة العليا ، ولا نعلم ، بالضبط ، مكان أُولَى هذه المدن الثلاث ،

ولاتزال المدينتان الأخريان منها باقيتين ، وهما من أكثر بلاد العالم التي يزورها الناس.

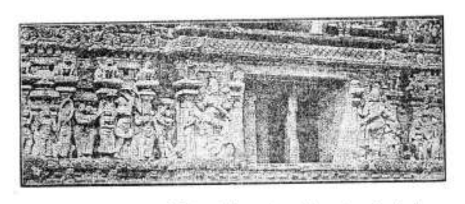
وكان تاريخ معبد بُدّهة غَيَا موضعَ جدال كثير بين علماء الآثار ، ولم يكن تاريخ إنشائه الأول محلَّ أخذ وردّ بين أحد ، ما اعترف الباحثون ، على العموم ، بأن وصف (الحاجّ الصينيّ) هيوين سانغ له يطابق حاله الحاضرة ، وإنما يدور النقاش حول دلالة أوائل القرن الرابع عشر الذي ورد ذكره في مخطوط على تجديد ذلك المعبد أو على ترميمه ، ثم أزالت مباحث كننغهم وراجندرا لالاميترا كلَّ شكّ في أن ما تمّ في القرن الرابع عشر ليس إلا ترميماً قام به عُمّال من الأهالي غيرَ مُبَدّلين شيئاً في أشكاله الأصلية .

وشكلُ معبد بُدّهة غَيَا هَرَمِيّ وقاعدتُه مربعة ، وطبقاتُه تسعٌ ، ويقوم على مُكَعَّب ارتفاعُه نَحْوُ ثمانية أمتار وجانبُه خمسةَ عشرَ متراً ، ويبلغ مجموع ارتفاعه اثنين وخمسين متراً ، وتجد في داخله ثلاثةَ محاريبَ صغيرةٍ منضودة ، ويُقدّر ارتفاع الأسفل منها بنحو سبعة أمتار وجانبُه بأكثرَ من ستة أمتار ، ويشتمل على تاج من حجر بركانيّ أسودَ كان يعلوه تمثال ذهبيّ لبُدّهة .

وإنني أذكر أن شكل ذلك المعبد الهرمي أمرٌ شاذّ في شمال الهند ، وإنما يذكرنا بمعابد جنوبها ، وأقدمُ المعابد التي أقيمت على هذا الطراز إذ أُنشِئَت بعد معبد بُدّهة غَيَا باثني عشر قرناً حُقّ لنا أن نرى من الإمكان اتخاذَ صانعيها هذا المعبدَ نموذجاً لهم .

وأسفرت الأحافير الحديثة التي تَمّت حول بُدّهة غَيَا عن إخراج عدد كبير من النقوش والأعمدة والتماثيل النَّذْرِيّة القديمة في الغالب فوُضِعَت هذه الآثار ، اليوم ، في الحدائق المحيطة بذلك المعبد ، وتشير إحدى صورنا الفوتوغرافية إلى أهمها .

ورَمَّمَت الحكومة الإنكليزية معبدَ بُدْهة غَيَا حديثاً ، ولا أرى الثناء على فاعل هذا الترميم ، فقد غَيَّر شكلَ بعض الجزئيات بصورة محسوسة كما بدا لى من المقايسة بين حال ذلك المعبد الحاضرة وصورته الفوتوغرافية قبل الترميم ، وكَسَى ذلك المعبدَ لوناً أصفر كَدِراً فاكتسب به منظراً كريهاً ، مع أنه أنفق على ترميمه المحزن نحو مئتى ألف فرنك .



١٠٨ — شرى رنغم ، دقائق نقوش معبد فى الزون الكبير (القرن السابع عشر من الميلاد) (ربما كان زون شرى رنغم الكبير أوسع زون فى العالم ، وهو يتألف من سبعة أطر تبلغ جهة أكبرها ٩٠٠ متر ، ويشتمل على ١٥ برجاً يبلغ ارتفاع أحدها ٥٢ متراً)

المبانى الإغريقية الهندوسية فى شمال الهند الغربى . — لم تَحُل الحواجز المنيعة التى تَفْصِل الهند ، كما يلوح ، عن بقيــة العالم دون غزو مختلف الأمم لها منذ القديم ، والفاتحون من آريين ومغول وفرس وأفغان قد دخلوا الهند من خلال جبال هِمَالية ، ولا سيما معبر أفغانستان ، فعَمَروها ، وإذا بدأتَ بالفرس الذين غَزَوْها بقيــادة دارا قبل الميلاد بخمسة قرون ثم بالإغريق الذين أوغلوا فيها سنة ٣٣٠ قبــل المسيح بقيادة

الإسكندر فانتهيتَ إلى العرب فإلى المغول الذين فتحوها بأسرها وجدتَها ذات صلات بأمم كثيرة وأبصرتَها خاضعةً لكثير من المؤثرات الأجنبية .

جازَ لنا ، إذَنْ ، أن نتوقع انعكاساً لتلك المؤثرات فى فنّ عمارة الهند ، وانعكاسٌ كهذا كان ضعيفاً ، مع ذلك ، إذا عَدَوْت المؤثراتِ الإسلامية ، فالحقُّ أن الهند ظلّت ، إلى حين خضوعها لسلطان الإسلام، تمتَصُّ فاتحيها من غير أن يؤثّروا فيها ، ومَثَلُ الهند فى ذلك كمَثَل بلاد الفراعنة مصرَ التى غزتها عشرون أمة ، كاليونان والرومان ، فحافظت على كيانها القديم وعلى دينها وفنّ عمارتها ولغتها ، فما كان لغير التمدن الإسلاميّ أن يُحَوِّل دِياناتها ولسانها وفنونها .

وكان للإسلام أثرٌ بالغ كذلك الأثر فى الهند ، وذلك من غير أن يُزيل ما لَقِيَه فيها ، خلافاً لِما اتفق له فى مصر ، ففى الهند اختلطت المؤَثِّرات الإسلامية بالمؤَثِّرات الهندوسية فأضحى نصف فَنّ عمارة الهند ، كافّتها ، إسلامياً وأضحى نصفه الآخر هندوسياً .

وإذا عَدَوْت الإسلام وَجَدْت المؤثرات الأجنبية فى الهند ضعيفةً إلى الغاية ، ووجدت تلاشى هذه المؤَثِّرات فى العوامل المحلية ، فالفنّ الذى أُدْخل إلى الهند ، مهما كان نوعه ، لم يلبث أن تَحَوّل على أيدى عمال من الهندوس فاكتسب مظهراً خاصًّا ذا طابع هندى ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون هذا الفنّ قد دخل الهند منذ ألفى سنة وأن يكون قد دخلها فى أيامنا .

ويتجلى أقدم المؤَثِّرات الفنية الأجنبية فى ضِفاف السِّنْد ، فأولى علائق الهند بالفرس ثم باليونان صَدَرَت عن هـذه البُقعة ، وقد رأينا أن ما رواه هيرودتس

يُثبِت أن الممالك التى قامت على ضِفاف نهر السِّند كانت تُعطى الجزية قبل الميلاد بأربعمئة سنة ، ثم أيّدت الكتابات المسمارية هذه الرواية .

وما نراه من أطلال المبانى التى لا يرجع أقدمُها إلى ما قبل الميلاد كثيراً يَكشِف عن التأثير الفارسىّ فى بعض أقسام من فنّ العمارة ، ويبدو هذا التأثير ، على الخصوص ، فى الأعمدة ذوات التيجان التى هى على شكل الجرس فتعلوها حيوانات مُضْطَجِعَة ظِهْرِيًّا ، وتجد نَموذَجَ ذلك فى قصر بنى أخميد ببرسيبوليس ، فأعمدةٌ كهذا النَّموذج تبصرها فى كثير من معابد الهند القديمة ، ولا سيا فى ناسك وسانچى الخ . وفى المناطق القريبة من پشاور ، وتشاهد فى بهارت أقدَمها ، أى ما يرجع إلى ما هو أقدم من ٢٥٠ سنة قبل الميلاد .

ثم حلّت المُؤَثِّرات الإغريقية محلّ المُؤثِّرات الفارسية ، بَيْد أنك لا تجِد الأثر الإغريقىّ إلا فى أودية كابُل وكشمير ، ويظهر هذا الأثر ، على الخصوص ، فى التماثيل والأعمدة ، فالأعمدة فى كشمير مصنوعة على الطِّراز الإغريقى المعروف بالدُّورِىّ ، والأعمدة فى تَكشيلا مصنوعة على الطِّراز الإغريقى المعروف باليُونِىّ ، والأعمدة فى وادى كابُل مصنوعة على الطِّراز الإغريقىّ المعروف بالقورنتى ، وهذا إلى أنك تُبصِر فى هذه الأعمدة طابع المتقدات الهندوسية ، فترى ، على الخصوص ، تمثال بُدْهَة بين أوراق الأقَنْثا[1] .

ولم تُجاوِز المُؤثِّرات الإغريقيةُ قسمَ شمال الهند الغربىّ الضيق الذى أشرنا إليه فيما تقدم ، ومن العبث أن حاول بعض الباحثين أن يكتشفها فى نقوش مختلف المعابد

---

(١) الأقنثا : هو نبات يعرف بشوك اليهود .

البارزة والمحفورة ، فأنت إذا بَعُدْت من المناطق المجاورة لنهر السِّنْد وجـدتَ تلك المؤثرات غارقة فى الفن الهندوسى ، فلا تَقْدِر على تَبَيُّنها ، وإنى بعد أن درست أهمَّ معابد الهند بدقة لم أُبْصِر فى نقوشها وعمارتها ما يدلُّ على أن الهنـدوس اقتبسوا من الفنّ الإغريقى شيئاً يستحقُّ الذكر فيما خلا تلك البقاع الضيقة .

وتلك المؤثرات الفارسية الأولى التى توارت ، من فَوْرها ، عن الهند عادت إليها مُؤَخَّراً مع المغازى الإسلامية بأعمقَ مما فى الماضى ، والفنّ الذى أدخله المسلمون إلى الهند هو من أصل فارسىّ تطورَ تطوراً عميقاً بفعل الحضارة التى جاء بها العرب إلى بلاد فارس حينما هَدَموا عرش الأكاسرة من بنى ساسان فى القرن السابع ، ويرتبط الفنّ الجديد الذى أدخله المسلمون إلى الهند ، فـكان نصفه عربياً ونصـفه الآخر فارسياً ، فى أقدم طُرُز الفرس من عِدَّة وجوه ، فخُذ الخزف المطلىّ بالميناء مثلاً تَرَهُ يَرْجع إلى ما قبل الميلاد .

٣ — فنُّ البناء فى العصر البرهمى الجديد

(بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد)

نُقَسِّم ، أولَ وَهْلة ، مبانى العصر الذى ندرسه الآن فيبدأ حوالَى القرن السادس من الميلاد ، أى فى الزمن الذى كان نَجْم البُدَّهية يأفُل فيه عن الهند بسرعة ، إلى صنفين ، ويشتمل الصنف الأول على جميع المبانى القائمة فى مختلف بقاع الهند الشمالية والوسطى ، وتختلف مبانى هـذا الصنف الأول اختلافاً جديراً بالذكر باختـلاف الأمكنـة والأزمنة التى نشأت فيها مع ما تجده بينها من قرابة ظاهرة ، ويشتمل الصنف الثانى على مبانى جنوب الهند ، وتبلغ مبانى هذا الصنف الثانى من التشابه

ما يحتاج معه تمييزُ بعضها من بعض إلى عين بصيرة ، ونحن ، حين نُضْطَرُّ إلى تقسيم دراسة مبانى الصنف الأول إلى عِدّة مطالب ، نستطيع أن نلخص مبانى الصنف الثانى فى مطلب واحد .

فنُّ البناء فى ولاية أوريسة . — تُعَدُّ المبانى القائمة على سواحل أوريسة من أقدم مبانى الهند وأجدرها بالذكر ، وأنشئت هـذه المبانى بين القرنين الخامس والثـالث عشر من الميـلاد ، وما فى أوريسة من المعـابد المصنوعة تحت الأرض فأقدم من تلك المبـانى ما وُجِدَت بينها معابد يَرْجِـع تاريخ إنشائها إلى ثلاثة قرون قبل الميـلاد ، وإن كانت هذه المعابد لا تَمُتُّ بصـلة إلى طراز المعابد التى نتكلم عنها الآن .

١٠٩ — شرى رنغم . الزون الكبير ، أعمدة فى داخل المعبد

وأقيمت معابد ولاية أوريسة على نمط واحد من حيث خطوطها الأسـاسـية ، وذلك مع انقضاء سبعة قرون أو ثمانية قرون بين إنشاء مبانيها الأولى ومبانيها الأخيرة، وهى تختلف عن معابد جنوب الهند ، فلا ترى فيها أبراجاً ذات طبقات مُنَضَّدَة ولا رِدَاهاً تحملها أعمدة ، وعلى ما كان يُعْرف من أمر الأعمدة ، التى أسفرت الأحافير فى أوريسة عن اكتشاف عدد منها صُنِـع قبل إنشاء معابدها بطويل زمن ، فإن القوم لم يستعملوا الأعمدة فى تَشْيِيد هذه المعابد إلاّ نادراً .

وشكل معابد أوريسة الخارجيّ هَرَميٌّ ، بَيْد أن جوانب هذه الأهرام ذات خطوط مستديرة بدلاً من أن تكون ذات خطوط مستقيمة كما في معابد جنوب الهنـد .

ويتألف المعبد الأوريسيّ من مزار مُكعَّب مشتمل على صور للآلهة يَعْلُوه بُرْجٌ هَرَميٌّ ذو جوانب مستديرة الخطوط من التى تكلمنا عنها ، وذُرَا تلك الأهرام مقطوعةٌ وتعلوها تيجان ذوات جوانب تُشابِه بها البِطِّيخ المُسَطَّح ، ويستر تلك الأهرامَ زخارفُ ونقوش ، ويتقدم جبهةَ المعبد الأوريسيّ رُوَاق يغشاه بُرْج هَرَميّ أيضاً ، ويَلى هذا البرجَ رَدْهَة أو رَدْهَتان مُعَدَّةٌ إحداهما للرقص والأخرى للطعـام .

ويحيط بالمعبد الأوريسيّ سُورٌ ذو أبواب كثيرة مزخرفة يعلوها سقف هَرَميّ ذو جوانب مستقيمة الخطوط .

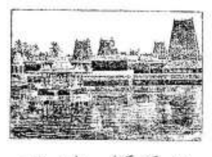
وجبهة المعبد الأوريسيّ مصنوعة على وجه تكون الآلهة به أمام شمس مشرقة .

والنِّسَب في المعبد الأوريسيّ وأبعاد كلّ جزء فيه خاضعة لقواعدَ دقيقة ، ولم يَسِر رجال الفن على هواهم إلا في زخارفه ونقوشه ، وأُنْشِئت جميع معابد أوريسة على رسم واحد ، فترى أشكالها العامة متشابهة كثيراً ، والهندوس محافظون أكثر من جميع الأمم المحافظة ، فإذا ما أثبتت العادة بينهم أى طِراز وَجَب انقضاء عِدّة قرون ليبتعدوا عنه ، وفي دقائق الزخارف ، لا في شكل المعابد ، يجب البحث عن أوجه التطور عند درس فنّ عمارة الهند .

وثخَنُ جُدُر المعابد بأوريسة عظيمٌ إلى الغاية ، وتَنْشأ بما هو أقوى مما تتطلبه متانتها ، فمما جاء في أقدم كتب فنّ البناء الهندوسيّ أن تَعْدِل جُدُر البناء أربعة

أعشار مجموع مساحته وأن تُترك الأعشار الستة الباقية لفضائه ، فكان من نتائج هذا الغُلُوّ في الموادّ الإنشائية أن اكتسب البناء من القوة ما لم يَفْنَ معه تقريباً فضلاً عن رَوْعته ، ولعلّ فيما يَحْدُث في بلاد الهند من الزلازل وتقلبات الجوّ ما يُسوِّغ إفراط القوم في ذلك كما تشير به النظرية .

ولم يَغْفُل مهندسو تلك المعابد عما يَزيد أبعادَها الظاهرة ، فتراهم أكثروا من الخطوط القائمة قصداً ، وتراهم تجنّبوا الخطوط الافقية عمداً .



١١٠ — كُنبهكونم . الحوض المقدس في داخل الزون (القرن السابع من الميلاد)

وبُنِيَت جميع المعابد في أوريسة من الحجارة الرملية على الخصوص ، لا من الآجُرّ كما هو الأمر في جنوب الهند ، وبلغ تشذيب حجارتها ووصل بعضها ببعض درجة من الكمال والإحكام لم يبق معها احتياج إلى المِلاط فلم يُتّخذ قطّ ، وشُدّت أقسامها الناتئة كثيراً بكلاليب من حديد في بعض الأحيان، وأُنشئت العوارض المرتكزة على الأعمدة ، أحياناً ، من حديد مُطرّق ، بدلاً من الحجارة ، ووُجد في كُنارك من هذه العوارض ما طوله سبعة أمتار ومقطعه ٢٠ و ٢٥ سنتيمتراً ، ورُوعِيَت في صنع هذه العوارض قواعد الميكانيكا النظرية فجُعِلَت أواسطها أثخن من أطرافها .

ومما تقدم ترى أن تلك المعابد صُنعت من الحديد والحجارة فقط ، وأما الخشب فلم يُعتَمد عليه إلا في صنع الأبواب ، ومن هذه الأبواب نذكر باب بُهُوَنيشْوَر المصنوعَ من خشب الصندل المحفور .

ولا تعرف مباني أوريسة القِباب ذات الحجارة المتجهة إلى مركز واحد ، شأنَ

قِباب معابد الهند الأخرى ، وكلُّ ما يُرَى فى أوربة من القِباب تلك التى تتألف من مداميكَ أفقية ، وقِبابٌ كهذه بعيدةٌ من شروط الاقتصاد فى المواد الإنشائية لا ريب ، ولكنها تتصف بالدَّيْمُومة .

وفى معابد أوربة تَدْرُت الأعمدة والأساطين المنفصلة عن الجُدُر ، ولا تَجِد منها فى سوى بَهْو من معبد بُهُوَنِيشْوَر الكبير .

فنُّ العمارة فى راجپوتانا . — يُطْلَق اسم راجپوتانا على البُقعة المعروفة عند الأهالى باسم راجهستان أو بلد الراجوات ، ووُفِّقت طائفة الراجپوت للمحافظة على نُظُمها فى تلك البقعة منذ فتحهم لها ، حتى بعد أن دَوَّخها المسلمون .

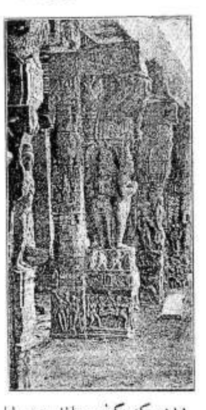
تعنى كلمةُ الراجپوت أبناء الملوك ، والراجپوت هم عنوان عِرْق من أقدم عروق الهند وأصفاها ، ويزعم الراجپوت أنهم حَفَدة الفاتحين من الآريين ، وبين الراجپوت ترى أقدم طبقة للأشراف فى العالم الهندوسى ، وراجه أوديپور هو ولىُّ الأمر الوحيد الذى يستطيع أن يَزْعُم أن شجرة نسبه ترجع إلى ما قبل ألف سنة .

ووَجَد المسلمون ، حينما أوغلوا فى الهند ، الراجپوتَ مستقرين بجميع مدن الشمال وبسهل الگَنْج إلى حدود البنغال الحاضرة ، فكانت لاهور ودهلى وقنوج وأُجُودهيا الخ . قبضَتَهم ، وكانت دولتهم ممتدةً فى الشمال والغرب من نهر السِّنْد ونهر سَتلج إلى نهر جَمْنَة القريب من أغرا ، وكانت ممتدة فى الشرق والجنوب إلى جبال وِندهيا ، وإن شئت فَقُلْ إن دولتهم كانت قائمة على جميع شمال الهند الغربى ، فلما دُحِروا من هذه البِقاع الخصبة هاجروا إلى مناطق راجپوتانا الحالية المنيعة .

سَيَجِد القارئ شبهاً عظيماً بين أكثر المبانى التى أُنشئت قبل العصر الإسلامى على الأقل فنبحث فيهـا الآن ، وتقع هذه المبانى فى بُقعة واحدة وشادها عِرْق

واحد ، و بين هذه المبانى ما هو ذو طراز خاص ، ومن المتعذر أن تشير إلى الأطوار التى اشتُقّت منها وإلى المراحل التى ترتبط بها فى مبان أخرى أحدث منها ما كانت عنوانَ نوعها .

ويلوح لنا أن نعتَ « الجَيْنِىّ » الذى وُصِف به فنّ كثير من المبانى التى سندرسها غيرُ صحيح كما قلت ذلك آنفاً ، فيظهر أن الباحثين أطلقوا كلمة « الفن الجَيْنِىّ » على طِراز عمارة خاصّ بديانة معينة مع أنه لايشير إلا إلى طِراز أحد الأدوار بالحقيقة ، فنرى أن مبانىَ أحد الأدوار فى المكان الواحد قامت على طِراز واحد ، مهما كانت الآلهة الجَيْنِيّة أو البرهمية التى شِيدَت تقديساً لها ، ولنا أمثلةٌ على ذلك فى معابد كهجورا .



١١١ ــ كنيهه كونم . داخل معبد راما فى الزون الكبير (القرن السابع عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى أعلاها أربعة أمتار و ٤٠ سنتيمتراً)

نذكر من مبانى راجپوتانا القديمة التى نشرنا غيرَ صورة لها فى هذا السِّفْر معابدَ كهجورا الواقعةِ فى بُنْدِيل كهند ومعابد جبل آبو .

تقع مدينة كهجورا ، التى كانت عاصمة آل چندل من الراجپوت فَغَدَت مهجورة ، على بُعْد ٣٤ كيلو متراً من شرق مدينة چهَتَرپور ، وكانت هذه المدينة ، التى أصبحت مَنْسِيّةً فى الوقت الحاضر ، من أهمّ مدن الهند كما تشهد بذلك مبانيها العظيمة ، ففيها نحو أربعين معبداً يبلغ

اتساع بعضها سِعَةَ كنائسنا القوطيـة الـكبرى ، ولا تزال تَطّلِـع على أطلال لهـا فيا مِساحته عِدّة كيلو مترات مربعة ، وأنت إذا ما استثنيت مدينة بُهُوَوَنِيشُوَر لم تَرَ مدينة ذات مجموعة مبان مثلها .

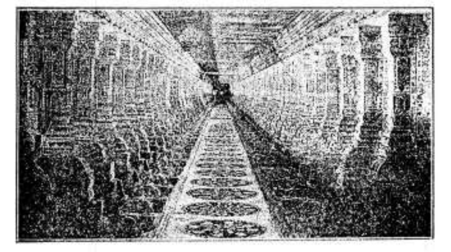
وأ كثر معابد كهجورا التى لا تزال قائمة مما بُنِى فى القرن العاشر من الميلاد ، ويُفتَرَض أن أحـدَها شِيد فى القرن السابع بعد الميلاد ، وإن كان يُشَكُّ فى تاريخ إنشائه .

وعلى ما نُبْصِره من إقامة معابد كهجورا فى قرن واحـد ، على العموم ، فإنها خاصة بثلاث دِيانات مختلفـة ، أعنى دِيانة وِشْنُو ودِيانة شِيوا ودِيانة الجِيْنِيِّين ، و بلغت هذه المعابد من التشابه الفنىّ ما يَصْعُب معه ، أوّلَ وَهْلَةٍ ، أن يُعْرَف الدين الذى تخصه ، و يمكننا أن نستنبط من تساوى أهميتها تساوىَ تلك الدِّيانات الثلاث ازدهاراً فى ذلك العصر .

ولم يَتَنبّق الهندوسُ قَطُّ معابد كهجورا من الناحيـة المعارية ، وتَجِد بين ألوف التماثيل التى تَغْشَى هـذه المعابد غيرَ تمثال لا يَعيبه مِنْقاش نَحّاتِى الزمن الحاضر ، ولا تَجد بين متفننى الـكتدرائيات القوطية غيرَ واحد استطاع أن يصنع ما يَعْـدِل معابدَ كهجورا فى بعض الأحيان ، وقلما تُبْصِر واحداً منهم قَدَرعلى صنع ما يفوق زخارفها .

ولما بين تلك المعابد من شَبَه أ كتفى باتخاذ أحدها مثالاً ، فأختار معبد كهندراياماهاديو الذى أُنْشِئ فى القرن العاشر من الميـلاد على مُسَطَّح حجرىّ فبلغ طوله ٣٣ متراً و بلغ عرضه ١٨ متراً و بلغ ارتفاعه ٣٥ متراً ، فهذا المعبد يُذَكِّرنا خارجاً ، أى من حيث شكل أهرامه ذوات الخطوط المستديرة ، بمعابد أوريسة الـكبرى و إن كان

يختلف عنها فى جُزْئِيّات الزخارف مع اشتقاقها من مصدر واحد ، ويتقدم مزارَ هذا المعبد إطارٌ أمامه رُوَاقٌ يُدْخَل من درج حجرية ضيقة ، وحول هذا المزار ممرٌّ خلافاً لما يشاهد فى أكثر معابد أوربة ، ويُضَاء هذا المزار والرَّدْهَة التى تجيء قبله إضاءة جانبية بنوافذَ واسعة يتألف من مجموعها رُوَاق تُمْسِكه أعمدة فينجم عن ذلك اكتساب رسم المعبد شكلَ صليب مزدوِج ، وقِبابُ هذا المعبد ، كما فى جميع معابد الهندوس ، مصنوعة من حجارة مُنَضَّدة تنضيداً أفقياً ، وطِرازُ عمارةٍ كهذا ، وإن كان لا يسمح بأخذ مساحة كبيرة يَمْنَح القِباب قوة كبيرة كما قلنا ذلك آنفاً ، ومما رأيناه ، أيضاً ، أن مهندسى الهندوس وُفِّقوا لتكبير المساحة التى تَغْشاها القُبَّة المصنوعة على ذلك الوجه بأن دَعَموا المداميكَ الأفقية المجاورة للوسط بأعمدة .



١١٢ — راميشورن . معبر الأعمدة فى داخل الزون (القرن السابع عشر من الميلاد)
(يبلغ طول هذا المعبر نحو ٢١٠ من الأمتار ، أى أكثر طولاً من أوسع صحون أكبر الكتدرائيات)

ويستر داخلَ معبد كهنداريا وخارجَه تماثيلُ يَقْرُب ارتفاعها من متر واحد ، ويبلغ عدد هذه التماثيل نحو سبعمئة .

وتقع معابد جبل آبو التى نذكرها الآن ، ككثير من معابد الهند القديمة ، فى بقاع صعبة الوصول ، ويبدو لنا أن منشئيها أرادوا هذه الصعوبة وَفْقَ خطة مرسومة .

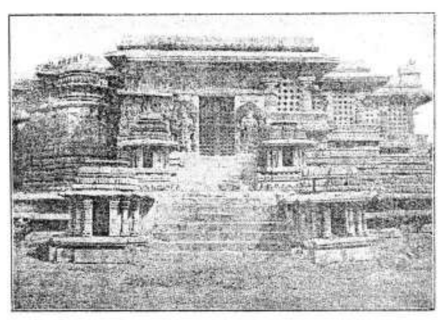
وتقوم معابد جبل آبو فوق ذِرْوة جبل مُوحِش يبلغ ارتفاعه نحوَ ١٨٠٠ متر ، وُبنِيَت جميع هذه المعابد من الرُّخام الأبيض الذى لا عهد لتلك المِنطقة به ، فوجب نقل هذا الرُّخام إلى تلك الذروة وتحمُّلُ نفقاتٍ باهظة بذلك ، وتَطَلَّب إدماجُ قِطَع هذا الرُّخام بعضها فى بعض أعمالاً أشدَّ من تلك ، وما أسفرت عنه هذه الجهود من الأثر الفنىّ فيساويها ، ولا تُبْصِر مثلَ ذلك الإدماج فى أىِّ بناء غوطى بأوربة .

ومعبدا جبل آبو خاصَّان بالدِّيانة الجَيْنية ، وبُدِىء بإنشاء أحدهما المعروف بمعبد وِملاشاه سنة ١٠٣٠ ، وبُنِى الآخر المعروف بيال تيج بال بين سنة ١١٩٧ وسنة ١٢٤٧ .

وشِيد ذانك المعبدان على نسق واحد ، ويتألف أساسهما من إطار قائم الزوايا يبلغ طوله ٣٤ متراً وتُحِيط به مقاصيرُ صغيرة لايَدخلها النور إلا من أبوابها ، ويحتوى كل واحد منها على صنمٍ عارٍ مُمَثِّل لصورة القديس الذى بُنِى المعبد تقديساً له ، وترى الصورةَ نفسَها مقتبسةً فى كلِّ مقصورة اقتباساً تاماً ، وترى نحو ستين مقصورة حول ذلك الإطار ، وترى أمام كل واحدة من هذه المقاصير شُرْفَة مؤلفة من صَفَّىْ أعمدة ، وتعلو كلَّ باب لها نقوشٌ بارزة تُمَثِّل مناظر حياة ذلك القديس .

ويتألف قسم الإطار المقدَّم من رُوَاق واسع تغشاه قُبة يَدْعمها ٤٨ عموداً مُتَدَمِّجاً من الرُّخام الأبيض يفوق الأعمدة الإغريقية العارية .

والقُبة التى تَدْعَمها تلك الأعمدة هى ، كجميع قِباب ذلك العصر ، مصنوعةٌ من مداميكَ أفقية ، ويُشاهَد ستةَ عشرَ تمثالاً مصفوفاً حول دائرتها ، وهذه القُبة إذا ما قِيسَت بقُبَّتَىْ كنيستَىْ وستمنستر وأكسفورد المشهورتَيْن بفنّاهما بَدَت هاتان القُبتان بجانبها ثقيلتين ، هذا ما رآه فرغوسن ، فلا يسعنى إلا أن أشاطره رأيه هذا مشاطرة تامة .



١١٣ ــ هيلابيد (ميسور) ، مدخل المعبد الكبير (القرن الثالث عشر من الميلاد)
(هذا المعبد هو مثال الطراز المعروف بالچالوكى نسبة إلى آل چالوكية الذين
شيدت هذه المبانى فى أيامهم فيظهر أن هذا الطراز مزيج من الطرز الجينية
فى شمال الهند ووسطها ومن الطراز الدراويدى فى جنوبها)

ومعبدا جبل آبو ، على عكس ما يشاهد فى كهجورا ، خاليان من كلّ زينة خارجية ومن كلّ نقش خارجى ، ولا شىء يدلّ ، أوّلَ وَهْلَة ، على ما تشتملان عليه من العجائب .

وفى راجبوتانا مبانٍ رائعة أخرى ، ولا سيما مايقوم منها فى غواليار وچتور ، ولا أرى وصفها لضيق صدر هذا الكتاب ، فأكتفى بنشر صور لها ، و يُعدّ قصر غواليار والمعابد التى يشتمل عليها سور القلعة من أهم مبانى الهند القديمة ، وسأقول بضعَ كلمات عن هذا القصر وعن قصر أوديبور.

ومع ما عليه قصر غواليار من تَلَف ، وعلى ما مُنِىَ به أكثرُ قِطَعه الخزفية المَطْلية بالميناء من السقوط ، فإن السائح الناظر إليه لا يستطيع إلا الإعجاب به كما أُعجب به الملك بابَرَ حينما دخله سنة ١٥٢٧ .

أُقيم قصر غواليار حوالىْ سنة ١٥٠٠ ، ويسيطر هذا القصر على القلعة التى أُنشِئ على جانب منها ، ويبلغ طوله خارجاً نحو مئة متر وارتفاعه ثلاثين متراً ، وأهم وجوهه هو الوجه الشرقى المستور بالخزف المطلىّ بالمينا ، ولهذا الوجه طبقتان ، ويُؤلف من رصيف قائم الزوايا يتخلله على أبعاد متساوية ستةُ أبراج مستديرة تعلوها قباب ، ولا تزال تَجِد رَوْعَةً لِما بَقِى من خزفه المطلىّ الساتر للجُدْران ، وليست التصاوير التى تغشاها غير هندوسية ، ولكن صنعها من أصل فارسى كما هو واضح .

وداخل ذلك القصر مؤلف من طابقتى غُرَف صغيرة منظومة حول باحات صغيرة ، ولا تزيد مساحةُ أكبر هذه الغُرَف عن ١٠ × ٦ = ٦٠ ، وهى ذات فنّ بديع كما يبدو ذلك من إحدى الصور الفوتوغرافيـة التى نشرناها ، ولا أجد ما يَعْدِلها رَوعةً غيرَ بيوت فى قصور فتح پور المشابهة لها .

وقصر أوديبور هو القصر الراجپوتى الوحيـد الذى تستطيع أن تقيسه بقصر غواليار ، بَيْدَ أن قصر أوديبور دون هذا القصر فنًّا ، لأنه أحدث منه ، ولِما تَجِده

فيه من الطابع الإسلامى ، وهو يُعَدُّ ، مع ذلك ، من أجمل القصور التى تَخْطُرُ على قلب بشر لقيامه على مكان من أروع ما فى الدنيا .

وترى ، أيضاً ، بين الصور الكبيرة التى نشرناها عن مبانى أوديبور بعضَ مزارات فى المقبرة التى تضم رُفَات ملوك ميوار .

وتجد على بعد ١٩ كيلو متراً من أوديبور مدينةَ ناغدها الخَرِبة الضائمَة فى الآجام ، وتشتمل هذه المدينة التى أُنشِئت فى القرن السابع من الميلاد على معابد من أروع ما فى الهند ، وإذ كان يَصْعُب بلوغ تلك الأطلال تَقَلّتْ من الرُّوّاد على العموم ، فلم يشتمل كتاب آخر على صور لآثارها الفخمة .

فنّ البناء فى كجرات . ــ طِراز البناء فى كجرات ، ولا سيما طِراز أحمد آباد ، الذى يمكن اتخاذه نَمُوذَجاً يختلف عن طُرُز المبانى المذكورة آنفاً ، وذلك لاختلاط العناصر الفنية الإسلامية فيه بطراز البناء الذى يُدْعَى بالجَيْنِىّ .

أنشئت مدينة أحمد آباد فى القرن الحادى عشر من الميلاد وظلّتْ مئةً وخمسين سنة عاصمةً لولاية كجرات التى تَعْدِل بريطانية العظمى مِساحةً والتى حافظ أهلوها على استقلالهم مع اختلاف العروق التى يتألفون منها ، ومدينةُ أحمد آباد تلك اشتهرت بِجِدِّها ، وفيها ازدهرت الفنون والآداب أيما ازدهار ، وذاع صيت البُقعة القائمة عليها منذ القديم ، وكانت تتاجر مع بلاد العرب ومصر .

ويعود فضل إقامة أهمّ مبانى كجرات إلى أتباع الديانة الجَيْنِيَّة المشابهة للبُدّهِيَة، ولم يصنع المسلمون غيرَ جعل هذه المبانى ملائمة لمذهبهم .

استولى العرب على كجرات منذ القرن الأول من الهجرة ، ولكنهم لم يستقروا بها ، وحافظت كجرات على استقلالها إلى عهد الملك فيروز تُغْلُق ، مع ما قام به

محمود الغزنوى من غزو لاحق ، فلما حلّت سنة ١٣٩١ اعتنق هندوسىٌ راجبوتىٌ الإسلامَ وتسمّى بمظفر وعُيّن نائباً للملك فى كجرات .

وفى سنة ١٤١٢ نقل حفيد مظفر السلطان أحمد عاصمته إلى المدينة التى أطلق عليها اسمه فجعل اسمها أحمد آباد .

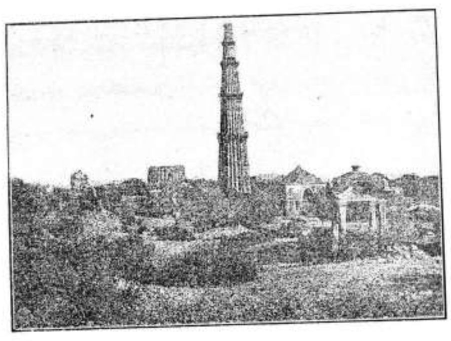
وحُوّلتْ المبانى الهندوسية القديمة المبنية على الطراز الجَيْنىّ إلى مساجد ، وما أنشىء بعدئذ من المساجد قام على هذا الطراز ، فإذا جَرّدْت مبانى أحمد آباد الحديثة من الأقواس والمآذن والكتابات العربية أمكنكَ عَدُّها هندوسيةَ الطراز .

فَتَح الملك أكبرُ مدينة أحمد آباد سنة ١٥٧٢ فجعلها من أملاك الدولة المغولية ، فكان يُدير شؤونَها وُلاةٌ يأتونها من دهلى ، ومن هؤلاء نذكر شاهجهان وأورنغزيب قبل أن يَجْلِسا على عرش أجدادهما .

بلغت أحمد آباد ذُرْوة عظمتها فى العصر المغولى ، فبدَت أجمل مدينة فى الهندوستان ، وفى العالم على ما يحتمل ، فكان عدد سكانها يزيد على مليونين ، وكان لسائحيها وتجارها صلاتٌ مستمرة ببلاد العرب وإفريقية وجميع أجزاء الهند ، وكان لمصانع ديباجها ومُخْمَلها وحريرها وطيلسانها وورقها شهرةٌ فى كل مكان ، وبلغ عُمال الخشب والذهب والعاج فيها من إتقان الصنع مايَصْعُب معه التفوق عليهم، وعمالُ كجرات هم الذين لا يزالون يصنعون عُلَب الصندل المرصعة المعروفة بعُلب بمى.

وفنُّ العمارة فى كجرات ، وهو الذى نَعُدّ طِراز أحمد آباد مثالاً له ، دليلٌ بارز على اختلاف فنّ البناء الإسلامىّ فى مختلف أقسام الهند ، وتجد لمبانى أحمد آباد من الطابع الخاصّ مالا تجد مثلَه فى بُقعة أخرى من بقاع الهند لما اتّفق للعناصر

الهندوسية فيها من التفوّق ، أجلْ ، إن ما فيهـا من الأقواس والمنائر والـكتابات العربية يمنحها مظهراً إسلامياً ، بَيْدَ أنها تُمَدّ بزُخْرُفِها من طِراز المباني الجَيْنِيَّة التي وجدنا أروعَ نماذجها في جبل آبو.



١١٤ — دهلي القديمة . منظر عام لأطلال مسجد قطب الدين (برج قطب هو في وسط هذه الصورة ، وترى دقائقه في الصورة الآتية ، وتجد عن اليمين وتجاه البرج طاق علاء الدين) (ترجع مباني دهلي إلى ثلاثة أدوار مختلفة ، فأما مباني الدور الأول فهي التي شيدت قبل الفتوحات الإسلامية فلم يبق منها شيء تقريباً ، وأما مباني الدور الثاني فهي مباني الفتح الإسلامي الأول التي شيدت في أوائل القرن الثالث عشر فتظهر في هذه الصورة والصور الآتية ، وأما مباني الدور الثالث فهي مباني الدور المغولي التي شيدت في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، وهي تختلف عن السابقة ونشرنا صوراً لها في هذا الكتاب)

وإذا سألتَ عن رسم مساجد أحمد آباد العامّ وجدتَه مثلَ رسم جميع المساجد الإسلامية ، أي وجدته مؤلفاً من ساحة واسعة قائمة الزوايا تُحيط بها أروقة مسقوفة ،

فعلى جانب من هـذه الساحة تَرَى رُواقاً كبيراً مُعَدّاً للعبادة تعلوه ، على العموم ، ثلاثُ قِباب يحملها اثنا عشر عموداً ، شأنَ القِباب الجَيْنِيّة ، والقُبة الوسطى أعلى من القبتين الأخريين ، وقد تمّ هـذا العلوّ بإضافة أعمدة أعلى من الأخرى مرتين فوق مُقَدَّم الأعمدة و بتنضيد أعمدة على الجهات الثلاث الأخرى مستندة إلى السقف الذى اتُّخِذ أساساً لبقية القِباب ، و يزيد هذا الوضع ، الذى لا نشاهد مثله فى المبانى الجَيْنِيّة الأقدمِ مما فى أحمد آباد ، مقدارَ الضياء الذى يَنفُذُ فى البناء .

ولما قضت الضرورة بتوسيع أروقة الصلاة فى المساجد لم يَتِمّ ذلك بزيادة قطر قِبابها ، بل بزيادة عددها ، ومن ذلك أن جُملَت القِباب فى المسجد الكبير خمساً يَحْمِل كلّ واحدة منها اثنا عشر عموداً ، لا ثلاثاً على خط واحد ، وكل قُبة إذ كُرِّرَت ثلاث مرات غَوْراً غَدَت تلك القِباب الخمسُ خمسَ عشرةَ قُبة إذَنْ .

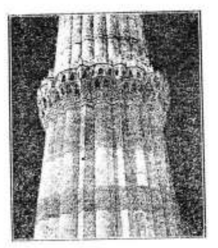
ومما يُشاهَد فى أكثر المساجد وجودُ كِواء[1] حافلة بالنقوش الهندوسية الرائعة ، وكانت هـذه الكِواء مملوءةً بالتماثيل فى المعابد الجَيْنِيّة ، فالشريعة الإسلامية إذ كانت تُحَرِّم صُوَر الآدميين وكان خُلُوّ الكِواء من شىء أمراً كريهاً رُئِىَ مَلْؤُها بشبكة هندسية .

مبانى الهنـد الوسطى . — ليس عدد مبانى البُقعة التى ندرسها الآن كثيراً ، و إنما تُعدُّ من أكثر مبانى الهند وقفاً للنظر ، ولا يختلف أكثر هذه المبانى ، كمعبد أمبرناتهة مثلاً ، عن المبانى التى درسناها ، بَيد أنك تجد بينها ما يدلّ على فنّ بناء خاصّ كمبانى إيلورا .

---

(١) الكِواء : جمع الكوة وهى الخرق فى الحائط .

وترى فى وسط الهند ، أيضاً ، معابدَ مصنوعة تحت الأرض ، ولكنها غيرُ بُدَّهية كما هو أمر معابد كارلى وأجنتا الخ . المذكورة فيما تقدم ، بل تَخُصُّ الدِّيانة البرهمية كما هو أمر معابد إليفنتا ، أوتَخُصُّ كلتا الديانتين كما هو أمر معابد إيلورا ، ومعابدُ إيلورا هذه هى من المعابد التى أدت دِراستها إلى نظريتنا التى أوضحنا بها أُفول البُدَّهية بابتلاع البرهمية لها ابتلاعاً تدريجياً .



١١٥ — دهلى القديمة . قسم من برج قطب (يدى ، بإنشاء برج قطب الدين الذى ترى منظره العام فى الصورة السابقة سنة ١١٩٩ ، ويبلغ ارتفاعه ٧٣ متراً ، ويشتمل على خمس طبقات يحيط بكل واحدة منها شرفة مشابهة للشرفة الظاهرة فى هذه الصورة)

تقوم معابد إيلورا التى ندرسها وحدَها فى هذا المطلب على جوانب جبل تُتَوِّج ذُروته قريةُ روضةَ الصغيرةُ حيث يُرى ضريح الملك أورنغ زيب ، وتقع هذه القرية فى شمال أورنغ آباد الغربى وتَبْعُد منها ٢٢ كيلو متراً .

ويبلغ عدد الأحافير التى تتألف معابد إيلورا منها ثلاثين ، ونُحِتَت هذه المعابد فى الجانب الغربىِّ من الجبل على طول كيلو مترين ، وتَجِد مدخلَ هذه المعابد ضائعاً فى فِجَاجٍ عميقة تسترها آجام وأشجار عاديّةٌ[١] ، واليوم ترى تلك المعابد والأديار ، التى عَمَرَتْها أجيال من الآدميين فتُذَكِّرنا بآثار قدماء المصريين الضخمة ، صامتةً ، فلا يُكَدِّر صمتَها سوى سائلين قليلين يسيرون وراء السياح .

---

(١) العادى : الشىء القديم .

وأُنشئت معابد إيلورا فى أدوار مختلفة ، ويرجع معبد وشوا كَرْما ، الذى هو أقدمها ، إلى سنة ٥٠٠ من الميلاد ، ولم يُنشَأ معبد كَيْلاسا الذى هو أحدثها فى زمن أحدثَ من سنة ٨٠٠ من الميلاد ، فتكون تلك المعابد قد أُنشِئَت ، إذَنْ ، فى دور دام ثلاثمئة سنة .

وعندى أن ذلك الدور ، الذى بدأ فى القرن السادس وانتهى فى القرن التاسع فشيدت فيه مبانى إيلورا ، هو الدور الذى عادت البُدَّهِيَّة فيه بالتدريج إلى البرهمية مصهورةً فيها ، فلم تلبث أن ابتلعتها بأسرها ، فى هذه المعابد أُحيط بُدَّهَة بآلهة ثانوية كثيرة مؤلفة من آلهة برهمية ومن آلهة مرشحة لمرتبة بُدَّهَة ، وذلك بدلاً من أن ينفرد بُدَّهَة وحدَه بهذه المعابد، ومن الصعب أن نُمَيِّز جميعَ هذه الآلهة مستندين إلى ما بدا لنا من تفسير مجتهدى البراهمة (البِنْدت) الخلافىّ ، غير أنه وُجِد فى هذه المعابد ما يُزِيل الشكّ ، فقد رُئِى بين نقوش ما هو بُدَّهِى منها صورةُ إلٰه السماء إندرا ، وإلاهةِ الموت كالى ، وإلاهة العِلم سَرَسْوَتى (زوجة برهما) ، وإلٰهِ الحكمة غنيشا الخ .

وهكذا نستطيع أن نشاهد فى معابد إيلورا ذلك التطور الذى تمّ فى الهند بين القرنين السادس والتاسع من الميلاد فلم يبق منه فى الهند الأصلية سوى أثر قليل وإن سَهُلَ علينا درسُه فى نيبال كما بيّنّا ذلك ، ولا تدلّ معابد إيلورا على ذلك الدور الانتقالىّ وحدَه ، بل تَدُلُّ ، أيضاً ، على مثل ما فى نيبال من أن بعض معابدها بُدَّهِيَّة تماماً وأن بعض معابدها التى أُنشئت بعد هذه المعابد البُدَّهِيَّة بزمن قصير برهمية تماماً .

وبعضُ معابد إيلورا قائمة فوق الأرض وأكثرها مصنوع تحتها على عِدَّة طبقات مستندة إلى أعمدة ضخمة منقوشة نقشاً عجيباً ، ومما يُلاحَظ أنها عاطلة من مِثل

الأقواس الهلالية التي تُرى في المعابد البُدَّهِيَّة القديمة المصنوعة تحت الأرض ، ومن النادر أن تجد فيها دَعْمُويات .

ويتطلب تعداد معابد إيلورا ودرسها مجلداً ، فاكتفينا في هذا السِّفْر بذكر أهمها، وفي هذه المعابد تُبْصِر ما لا تُبْصِره في غيرها من خُدُور وتماثيل .

وأجدرُ معابد إيلورا بالذكر معبدُ إندرا ومعبدُ كَيْلاسا ، وليس معبدُ كَيْلاسا هذا معبداً مصنوعاً تحت الأرض تماماً ، فترى القسم الأوسط منه منعزلاً فوق الأرض عن بقية الجبل ، ولكنك تجده محاطاً بعِدَّة أحافيرَ تُؤَلِّف جزءاً منه وتَنْشَب في جوانب الجبل .

ويشابه خارج معبد كَيْلاسا معابد جنوب الهند الدراويدية ، وتجد تكراراً له في الأبواب وتجد هذا المثال الابتدائيّ في مهابلي پور أيضاً .

وإذا عَدَوْت معابد مهابلي پور وجدت معبد كَيْلاسا الذي أُنْشِئ في القرن الثامن من الميلاد ، كما يلوح ، أقدمَ من جميع معابد جنوب الهند .

ويُعَدُّ هذا المعبد البرهميّ الذي صُنِع تقديساً لشيوا من المباني التي تَجَلَّى خيال متفنني الهندوس في نقوشها ، فلا يكفي مجلد واحد لتصوير هذه النقوش فاقتصرنا على نشر أهمِّها ، فهي تُمَثِّل جميع الآلهة الهندوسية وتُمَثِّل أقاصيص ديوان المهابهارتا .

وكان يَغْشَى داخل ذلك المعبد وخارجَه تصاويرُ ملونةٌ فلم يَبْقَ منها سوى أثر قليل .

ويقع معبد كَيْلاسا المصنوع من حجر واحد في باحة قائمة الزوايا تُؤَلِّف جوانبها

من حواجزَ من الجبـل نفسه ، وقد نُحِتَت فى هذه الحواجز رِدَاه ٌ تحت الأرض مُزَيَّنة بنقوش .

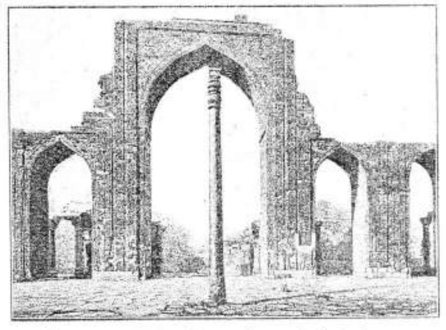
ونُحِتَ ذلك المعبـد الواقع فى وسط تلك الباحة من صخرة واحـدة ، و يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً ، وتَدْخَل تلك الباحة من رُواق مُزَيَّن بأعمدة مربعة .

وداخل ذلك المعبد مُؤَلَّف من رَدْهَة كبيرة تَدْعَمها أساطين وأعمدة مربعة ، وتحيط بها مقاصير ، ونُصِبَت حول ذلك المعبد تماثيل أسود وأفيال وحيوانات وهمية مختلفة يُخَيَّل إلى الناظر أنها حارسة له .

و يُشَاهَد بالقرب من المعبد مِسَلَّتان تَبْدُوان واضحتين فى صُوَرنا ، و يُشَاهَـد هنالك ، أيضاً ، فيلان هائلان من قطعة واحدة ، و يبدو لنا أن المهندس الذى أشرف على صنع ذلك المعبد دَارَى أقسامَ الصخر الضرورية لنحته ونحت الفيلين والمِسَلَّتين والمقاصير والجسور الجامعة بينها .

ولا أختِم كلامى عن معابد إيلورا قبل أن أقول إنه كان لها ، مع مبانى كهجورا و بيجانغر وتنبال ، أبلغُ الأثر فى نفسى ، فقـد نَسِيت ما كابدته من الجوع والتعب وليالى السُّهاد أمام هـذه العجائب ، أجَلْ ، إن معبد الـكَرْنَك فى الأقصر بمصرَ أثر رائع ، ولـكن معبد الـكَرْنَك هذا إذا كان يُخَيَّل إلينا أنه من عمـل قوم من العمالقة فإنه يلوح لنا أن معبد كَيْلَاسا ومعبد إندرا الواقعين فى إيلورا من صنع قوم من الجنّ ، فما كان لعلاء الدين ، مع فانوسه السحرىّ ، أن يُتِمّ عملًا شيطانياً كهذا ، وما كان للصُّوَر الفوتوغرافيـة أن تُبْدِيَ لنا حقيقة تلك الآثار إلاّ قليلاً ، ويجب ، لتَمَثُّلها ، أن نَتَخَيَّل كتدرائية عظيمة رائعة منحوتة فى حجر واحد مفصول عن

جبل فصلًا مصنوعاً وترى بذهنك أيدى العُمَّال ، الذين ينتسبون إلى عالَم غير عالمنا فحفروا بها جوانب تلك الهُوَّة ليَفْصِلوا ذلك الصخر الهائل ، حفروا بها أيضاً سلسلة معابدَ غائرةٍ في جوانب ذلك الجبل ، وترى تلك المبانى وحواجزها مستورة بتماثيل آلهةٍ وإلاهات وغيلان وبكلّ ما يتصوره الإنسان الواسع الخيال من الحيوان على



١١٦ ــ دهلى القديمة . أقواس مسجد قطب وعمود الملك دهاڤا المصنوع من حديد (أنشئت هذه الأقواس في أوائل القرن الثالث عشر ، ويبلغ ارتفاع أعلاها ١٦ متراً وترى أمامه عمود الملك دهاڤا المصنوع من حديد والذى هو من أندر بقايا دهلى القديمة ، ومن المحتمل أن يكون قد نصب في القرن الثالث من الميلاد)

مختلف الأوضاع ، وترى هنالك الآلهة المرهوبة الجبارة يَحْرُسها شياطين من الحجارة متوعدين للزائر فلا يدنو منها ، وترى قوماً من الغيلان مُكَشِّرين عن أنيابهم ، وترى إلاهاتٍ باسمات ساحرات باسطات لِذُرْعانِهِنّ ، وترى راقصات مثيرات

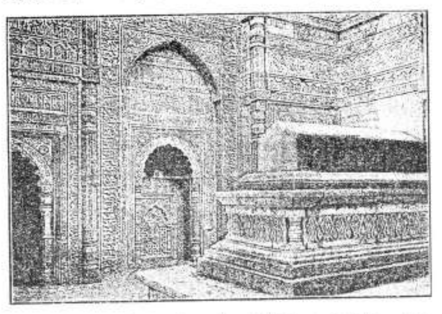
للشَّهوات ، وترى آلهةً وإلاهاتٍ متعانقةً بشدة عن غرام شديد، وترى هؤلاء القوم من الأصنام الذين يلوح أنهم قدماء قِدَمَ العــالم ، والمؤلَّفون من موجودات علوية ومن راقصات ومن جنِّيَّات ، يؤلِّفون مَوْكِباً لا آخر له منتشراً على حواجز المعابد وفيا هو منحوتٌ من المبانى فى الجبال ، وأنت كلما صَعِدْتَ وهَبَطت وتقدمت على نور مَشْعَلك وجدتَ ظِلال أولئك ضاحكةً تارةً ومُهَدِّدَةً تارةً أخرى ، فتُصاب بالدُّوار فتعتقد أنك انتقلت إلى عالم من السحر والعجائب ، وتُدْرِك ، إذ ذاك ، وجودَ فرق بين تماثيل كتدرائياتنا القوطيـــة الفاترة الجامدة وأولئك القوم المصنوعين من الحجارة على أشكال بلغت من الحياة والصدق ما تقول معه إنها تتحرَّك ، ولم يكن تاجُ محلُ القائمُ فى أغرا وحدَه هو الذى يكفى لزيارة الهنــد كما قيل ، بل إن معبد إندرا ومعبدَ كَيْلاسا يستحقان مثل هذه الزيارة أيضاً .

٤ — فنُّ البناء فى الهند الجنوبية

نجهل مصادر فنِّ البناء الهندوسىِّ فى جنوب الهند جهلَنا لمصادره فى شمالها ، فلما بَدَت أقدم آثاره فى أقدم معابد بادامى ومهابلى پورام الخ ، وذلك حوالَى القرن السادس من الميلاد ، كان قد وَصَل درجــةً من الـكمال منطوية على ماض طويل ، وليس لدينا ما نذكره عن هذا الماضى الطويل الراقد تحت أعفار القرون ، نَعَمْ ، إن ممالك جنوب الهند الـكبيرةَ ، التى كانت عواصمها ، كَمَدُورا مثلًا ، معروفةً لدى كُتّاب العالَم الإغريقىِّ اللاتينىِّ القديم، اشتملت على مبانٍ مهمة لا ريب ، بَيْــد أن الأزمنة والحروب الأهلية والغَزَوات الأجنبيةَ لم تُبْقِ فيها شيئاً فلم نَقْدر على مَلْء الهُوّة التى

تَفْصِل أبنية ما قبل التاريخ الحجرى ، الموجودةَ فى الهند كما فى أوربة ، عن المعابد العجيبة التى شِيدَت فى القرن السادس من الميلاد .

ولا نستطيع ، إذَنْ ، أن نَرْجِـع فنّ عمارة جنوب الهند الأولَ إلى غير المبانى الحديثة نِسْبِياً ، القليلةِ التى أقيمت فى القرن السادس من الميلاد كمبانى مهابلى پور



١١٧ — دهلى القديمة . ضريح الملك ألتمش ، أنشىء سنة ١٢٣٥ فى مسجد قطب . (جميع نقوش الردهة المشتملة على القبر منقورة على حجارة رملية حمر ، ويبلغ ارتفاع أعلى القوس الكبير الذى يرى فوق المحراب نحو خمسة أمتار ، وتنفصل حجارة الأقواس بعضها عن بعض قليلا فيسهل الانتباه إلى أنها مبنية من مداميك أفقية على الطريقة الهندوسية ، ويعد هذا الضريح مع الأثر المرسوم فى الصورة الآتية مثالا للمبانى التى امتزج فيها الطراز الهندوسى بالطراز العربى امتزاجاً حسناً)

وبادامى ، بَيْـد أننا لا نَجِد بين هذه المبانى والمعابد الهَرَمِيةِّ التى يعود إنشاؤها إلى القرن العاشر من الميـلاد أىّ بناء متوسط ، فتبصر هنا حَلَقَاتٍ مفقودةً فى سلسلة المبانى كما أبصرت هنالك ، أجَلْ ، إن فنّ البناء تَغَيَّر فى هـذا الدور الذى دام نحو

أربعة قرون ، غير أن المباني التي أنشئت فيه إذا كانت قد نالت ضخامة لم تنلْ كالًا ،فالحقُّ أنك ترى معابد مهابلي‌پور الأولى الصغيرةَ قد كُبِّرت كثيراً فيما بعد فاستبدلت في المعابد التي أُنشئَت مكبرةً بالأعمدة المنقوشة نقشاً بسيطاً أعمدةٌ مُعقَّدة منقوشة عليها صور للغيلان والفرسان تُمَدُّ في الغالب دون التي رأيناها في معابد إيلورا رَوْعَةً فأمكن ربطها شكلاً بآثار جنوب الهند ، وذلك عدا ما في بيجانغر على ما يحتمل.

وبين معابد جنوب الهند فروقٌ مهمة من حيث الصنع ، ولـكنها شيدَت على رسم واحد كما يظهر ، فـكانت من فصيلة واحدة ، فترى فيها ما يأتي :

يحيط بالمعبد الـكبير على الدوام إطارٌ قائم الزوايا أو عِدَّة أُطُر قائمة الزوايا ذات مركز واحد لها في جهاتهـا الأربع بابٌ هَرَمِيٌّ مجذومُ الرأس متآزِي السطوح ، فيبلغ ارتفاع هذا الباب المستور بالتماثيل ستين متراً أحياناً ، فتلك الأبواب الهَرَمِيةَّ هي التي تمتاز بها معابد جنوب الهند ، وتلك الأبواب قد تُعَدُّ معابد لضخامتها ، ومما يشاهد في الغالب تعاقب كثير من تلك الأبواب الهَرَمِيةَّ على خطّ واحد فيتألف من ذلك شارع أهرام ، ومصدر هذا الوضع ، على ما يظهر ، هو عَدُّ القوم للإطار الأول غيرَ مناسب لشهرة المعبد أو غِنَى بعض الواهبين فأنشأوا حوله بالتعاقب أُطُراً أخرى ذاتَ مركز واحد فتوسيعُهم بذلك المعبدَ الأصليَّ من غير هدمه ، فأسفر هذا الأمر الذي هو وليـد ضرورة توسيع المعبد في البَداءة عن اتخاذه دستوراً في شَيْد المعابد الجديدة فـكان ما تراه من اشتمال هذه المعابد على عِدَّة أُطُر ذات مركز واحد .

وتحتوي الاطُر الخارجية للمعابد الـكبرى على مسـاكنَ لسَدَنَتها ، وتحتوي ، أيضاً ، على أسواق الخ ، فيتألف منها مدينة مشتملة على عِدَّة آلاف من الأهلين .

وتجد فى صُحون[١] المعبد الداخلية رُواقاً أو أكثر من أعمدة ، منقوشةٍ عادةً ، أمام زُون[٢] .

ونذكر، من بين الأبنية التى تشتمل عليها المعابدُ العظيمة، الرَّدَاهَ ذواتَ الأعمدة، ومن هذه الرَّدَاه ما تحتوى الواحدة منها على ألف عمود .

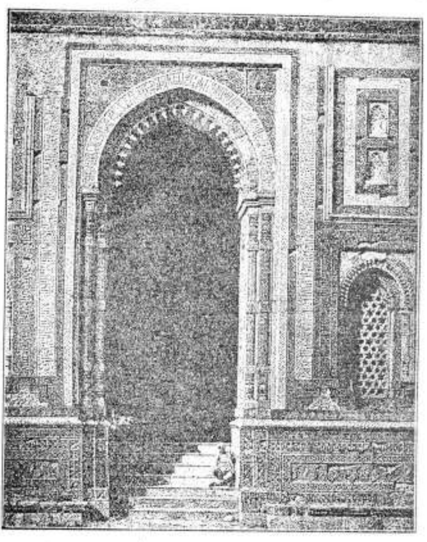
ويُرى فى إطار كلِّ معبد حوض مقدسٌ قائم الزوايا مُعَدٌّ للغسل يزيد جانبه على مئة متر فى الغالب .

ويكون زُون الآلهة التى أقيم المعبدُ تقديساً لها فى وسط أحد الصُّحُون الداخلية ، وهذا الزُّون هو بناء قائم الزوايا يعلوه هَرَم عالٍ كما فى تانجور مثلًا ، ولا يَنفُذ النور فى الزُّون إلا من الباب ، ويكون هذا الزُّون صغيراً على العموم ، ولا ضَيْرَ من صِغَره ما دام دخولُه مقصوراً على أبناء الطوائف العليا .

والزُّون هو القسم الأصلى فى كلِّ معبد من معابد جنوب الهند ، وفى سبيل الزُّون بَذَل الصُّنَّاع وصانعو التماثيل أكبر عمل ، فترى الزُّون مملوءاً من أسفله إلى أعلاه بالتماثيل الكثيرة جداً المتفاوتة القِيَم ، فترى بين هذه التماثيل ما هو بديعٌ وترى بينها ما هو شنيع ، وقد تكون هذه التماثيل من حجر ، وتكون فى الغالب من المِلاط أو الفخّار ، وعكسُ ذلك أمر أعمدة الزُّون ، فهى مصنوعةٌ من قِطَع صَوَّان واحدة ، ويجد بعض علماء الآثار الأفاضل وجهَ شَبَه بين الزُّون والأبراج القائمة أمام المعابد المصرية ، وعندى أن هذا الشَّبه سطحىٌّ ، فمن المتعذر أن تجد شبهاً جِدِّياً بينهما ، وإذا كان لابُدَّ من الإصرار على وجود شَبَه بينهما فإن مثل هذا الشَّبه يكون بين الزُّون ومعابد بابل الهَرَمِيَّة المربعة القواعد التى حَكَى عنها أسترابون فتُبصِر مثالاً

(١) الصحون : جمع الصحن وهو الساحة — (٢) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام .

صالحاً لها فى مرصد خرز آباد ، وهذا إلى أن ذلك الطِّراز ليس خاصاً بجنوب الهند وحده فتشاهد مثله بشمال الهند فى معبد بُدَّهَة غَيَا الذى يرْجِع إلى القرن الأول من الميلاد.

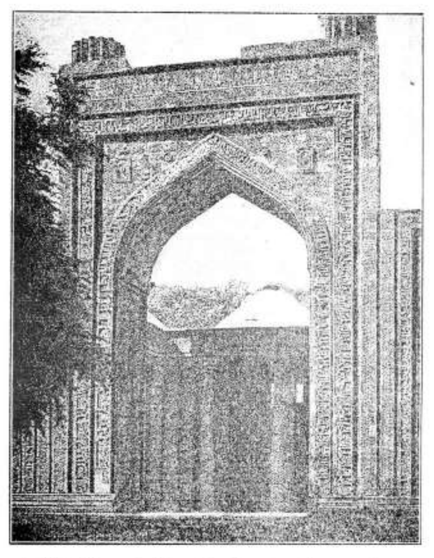


١١٨ ـ دهلى القديمة . مدخل طاق علاء الدين (أنشىء سنة ١٣١٠)
(يبلغ ارتفاعه نحو ١١ متراً)

والناظرُ حينما يبحث فى الزُّون يرى وجهَ كلِّ طبقة منه مؤلفاً من أطواق صغيرة ذات أعمدة تعلوها قُبة ويتخللها تماثيل ، فعلى هذا الطِّراز الابتدائى شِيد أقدم معابد الهند الجنوبية ، كمعابد مهابلى بورمثلاً ، ومن هذا العنصر اقتُبِس صنع الزُّون .

يكفى البيان الموجز السابق لوصف طِراز المعابد التى شِيدت فى سبعمئة سنة (بين القرن العاشر والقرن السابع عشر) فنشرنا صوراً لها فلا تجد فروقاً أساسية مهمة بينها ، ومن الممكن أن يقال ، على العموم ، إن جميع المبانى التى وُصِفت فى هذا المطلب من طِراز واحد خلا ما هو مصنوع منها تحت الأرض ، وتقوم تلك المعابد فى بُقعة جنوب الهند الممتدة من نهر كرشنا إلى النقطة القُصْوَى من شبه جزيرة الهند .

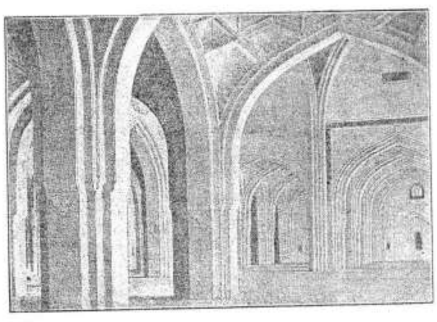
ونذكر من المعابد الشاملة للنظر التى وصفناها ما هو قائم منها فى المدن : بيجانغر ومَدورا وشرى رنغم على الخصوص ، ويبلغ معبد شرى رنغم نحو كيلو متر طولاً ، فهو أوسع معبد فى العالم على ما يحتمل ، وفى بيجانغر أطلال من كلِّ نوع ، وبيجانغر هذه كانت من أعظم عواصم الدنيا كما تشهد به أطلالها ، فغدَت اليوم برِّيّة لا يسكنها غير الضوارى ، ومن أروع ما شَعَرتُ به عند ما زرت عجائب الهند هو ما تجلى لى حينما سِرْت ذات ليلة مُقْمِرة فى شوارع هذه المدينة الميتة الواسعة اتساعَ شوارعنا والمُطرَّزة بأطلال المعابد والقصور ، ولِذَرًا هذه المعابد والقصور البادية من خلال الأدغال من الرَّوْعة ما يأخذ بمجامع القلوب ، وأشدُّ من ذلك رَوْعةُ منظر الإطار الحجرىِّ العظيم المحيط بتلك الأطلال الجليلة والذى لا بدَّ من مجاوزته قبل دخول تلك العاصمة ، هنالك خُيِّل إلىَّ أننى دخلت مدينة جبارة من صُنْع الجنِّ



١١٩ ــ أجمير : إحدى أقواس المسجد الكبير (القرن الثالث عشر من الميلاد (يبلغ ارتفاعه نحو ١٧ متراً) (طراز مسجد أجمير مطابق لطراز المبانى الإسلامية الأولى التى شيدت بدهلى فنشرنا صورها فى الصفحات السابقة)

فخَرٌ بها مَرَدَةٌ من أبناء السماء والأرض ، ومن المعابد التى تحتويها هذه المدينه أذكر معبد وتهوبا وما اشتمل عليــه من الأساطين المصنوعة كلٌ واحدة منها من حجرٍ واحد فَبَدَا هذا المعبد من عجائب الدنيا ، فمعبد وتهوبا هذا هو من أنفس ما شاده الإنسان ، وهو من الآثار الرائعة التى لا تُصْنَع مرةً أخرى .

« وتظهر ألوف الآلهة المتأملة التى تحمِل الأعمدة من مداميك المعبد إلى حنايا القِباب » .



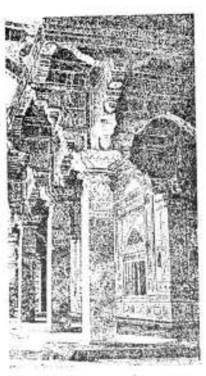
١٢٠ — بيجابور . داخل المسجد الكبير (القرن السادس عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع القوس الكبير الظاهر فى الصف الأول من هذه الصورة ثمانية أمتار ، ويبلغ طول المسجد نحو مئة متر ، أى مايعدل اتساع إحدى كتدرائياتنا الكبرى التى أنشئت فى القرون الوسطى) (بيجابور هى إحدى العواصم الكبرى الخربة الكثيرة فى الهند ، وقد شيدت مبانيها المرسومة فى هذه الصورة وفى الصور الآتية فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر حين كانت مقراً لملكة الدكن الإسلامية فبلغت دائرتها ٤٨ كيلو متراً على ماروى .)

٥ — فَنُّ البناء الهندوسيّ الإسلاميّ

كان من نتائج تَعَدُّد الممالك الإسلامية فى الهند فى مختلف الأدوار ظهورُ طُرُز معارية مختلفة باختلاف الولايات ، وسببُ هذا الاختلاف هو انتساب الفاتحين إلى عروق متباينة ووجود طِراز بناء خاص لكل ولاية استولَوْا عليها ، فأسفر انصهار هذه العناصر غير المتشابهة بعضها فى بعض عن ظهور طُرُز مختلفة يتعذر إطلاق اسم واحد عليها ، فمن يدرسْ آثار أحمد آباد ودهلى ولاهور و بيجابور الخ ، يَشْعُر بأنه أمام مبانٍ مختلفة الأصول و إن بدا الأثر الهندوسىّ فى جميعها تقريباً ، فالحقُّ أن مسلمى الهند لم يُوَفَّقوا ، كما وُفِّقوا فى مصر والأندلس ، لإبداع مبانٍ مبتكرة كجامع قايتباى فى القاهرة أو الحمراء فى غرناطة مثلاً ، والحقُّ أن العناصر الأجنبية فى الهند قد تَنَضَّد بعضها فوق بعض أو اختلط بعضها ببعض اختلاطاً محموداً يَسْهُل معه تَبَيُّن كلّ واحد منها ، والحقُّ أن اختلاف المبانى الإسلامية فى الهند باختلاف البِقاع نشأ عن اختلاف نِسَب العناصر التى تألّفتْ منها .

أدى امتزاج العناصر الأساسية الثلاثة ، الهندوسىّ والعربىّ والفارسىّ ، بعضها ببعض إلى ظهور طُرُز الهند الإسلامية ، وأما العنصرُ البيزنطىُّ فلم يَبْدُ فيها إلا فى أحوالٍ شاذة ، كما فى بيجابور ، وأما المؤثِّرات الأوربية فلم تَبْدُ إلا فى العصر المغولى ، وقد انحصر أمرها ، مع ذلك ، فى الزخارف الثانوية كترصيع رُخام وجوه البناء بالحجارة الثمينة ، وقد بدا المؤثِّر الإيطالىّ حديثاً فى الأشكال الخارجية وفى جُزْئيّات زخارف بعض المبانى ، كالتى شيدت فى لكهنئو وتانجور مثلاً ، بَيْدَ أن نتائج ذلك الضمّ كان على قِلّةٍ ودون الوسط بمراحل فلا يستحقّ الوصف ، و إذا كان فى الإشارة

إليه من فائدة فلدلالته على أن الشرق والغرب لا يمتزجان فى طرُز مبانيهما كما أنهما لا يمتزجان فى أفكارهما .



١٢١ — بيجابور ، ضريح إبراهيم رضا (أواخر القرن السادس عشر من الميلاد) (دقائق الأعمدة المحيطة بالضريح (يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى سطحها خمسة أمتار و ٤٠ سنتيمتراً)

وما نشرناه فى هذا الكتاب من الصور يُنبئ ، أحسن من الوصف ، باختلاف نتائج ضمّ تلك العناصر المعمارية ، فإذا نظرت إلى أقدم المبانى الإسلامية الهندية ، كمسجد قطب الذى أنشىء فى دهلى فى أواخر القرن الثانى عشر من الميلاد ، وجدتَ المؤثرات العربية هى السائدة لها ، ثم كانت الغلَبة للمؤثرات الفارسية فى شمال الهند الإسلامية على الأقل ، كالتى أقيم منها فى لاهور ، وكانت الغلَبة للعنصر الهندوسى فى بقاع أخرى كأحمد آباد مثلاً ، فحُقّ لنا أن نصف آثار هذه المدينة بالهندوسية إذا استثنينا أقواسها وقِبابها ومآذنها .

أقيمت أقدم المبانى الإسلامية فى الهند كمسجد قطب بدهلى والمسجد الكبير بأجمير فى أواخر القرن الثانى عشر ، وأقيمت المبانى الإسلامية الأخيرة المهمة فى أواخر القرن السابع عشر ، فتكون تلك المبانى قد شِيدت فى دور دام خمسمئة سنة .

وفى الكتب الإنكليزية تجد المؤلفين يُطْلِقون ، فى الغالب ، كلمة الطِّراز

البتهانى على طراز البناء الإسلامى فى الهند قبل العصر المغولى مقتبسين هذا الاسم من أسماء الأسر المالكة التى كان لها السلطان فى ذلك الحين ، فلا أرى من المفيد أن يُطلَق اسم خاص على طراز بناء كهذا لا يختلف عن فنّ البناء العربىّ إلا ببعض الإضافات الهندوسية ، كما يلاحَظ ذلك بسهولة فى المبانى القليلة التى انتهت إلينا من ذلك الدور .

فإذا كانت هنالك ضرورة إلى تَسْمِيات خاصة ، فلْتُطْلَق هذه التسميات على الطُرُز البارزة التى تشاهَد أمثلتها فى المدن الإسلامية : أحمد آباد و بيجابور وغور الخ.

وأما اسم الطِّراز المغولى فيجب أن يحافَظ عليه ، ويدلّ هذا الاسم على المبانى التى أنشئت فى عهد ملوك المغول ، ولا يَرْجِع أقدم مبانى هذا العهد الأولى إلى ما قبل منتصف القرن السادس عشر ، والملك أكبر هو الذى شادها، ثم سار خلفاؤه ، جهانكير وشاهجهان وأورنغ زيب ، على سُنّته فى شَيْد المبانى إلى أواخر القرن السابع عشر ، وتجد هذه المبانى فى أغرا ودهلى على الخصوص ، ولا يستنبط القارىء من تشابه مبانى هاتين المدينتين الواضح أن جميع المبانى الإسلامية التى أقيمت فى هذا الدور بالهند قد بُنِيَت على هذا الطراز ، فليُنْعِم نظره فى صور هذا الكتاب ليرى العكس .

والمبانى التى أقيمت فى الهند على الطِّراز المغولىّ هى التى تعرِفها أوربة تقريباً ، مع أنها ليست سوى قسم ضئيل مما شاده المسلمون فيها ، ونُفَسِّر ذلك باقتصار الأوربيين على زيارة مدينتين مشهورتين منذ زمن طويل وبَهْرِ مبانيهما لهم ، وإن كنا نرى فى الهند من المبانى الإسلامية ما ينافس هذه المبانى من الناحية الفنية .

وطراز البناء الذى أتى به المغول هو ، كديانتهم ، من أصل عربىّ حُوِّل حين مروره من بلاد فارس ، ومما حدث أن شاد تيمورلنك الذى ظهر قبل بابَر بمئة سنة

فى مدينة سمرقند (١٣٩٣ — ١٤٠٤) مبانى ذات طابع فارسىّ ، فمن بلاد فارس اقتبس المغول القِباب البصلية الشكل والترصيع بالخزف المطلىّ بالميناء الشائع فى لاهور والأقواسَ الحادّة والأبوابَ الفخمة التى تعلوها نصف قبة.

وأراد الملك أكبر والملك جهانكير صَهْرَ الهندوس والمسلمين فى أمة واحدة فلم يألوا جهداً فى مزج طرازَيْهم فنجَم عن ذلك أن وُسِم كثير من مبانى ذلك الدور، كمبانى فتح پورسيكرى مثلاً، بالطابع الهندوسىّ أكثر ممــا بالطابع الإسلامىّ، ثم توارت روح التسامح هــذه فى عهد شاهجهان (١٦٢٨ — ١٦٥٨) الذى أقام أغنى المبانى فى العصر المغولىّ فعادت المؤثرات الهندوســية لا تبدو فى غير بعض الجزئيّات، فصرتَ لا ترى النقوش البارزة العزيزة على متفننى الهند، فكان ما نعلم من خُلُوّ تاج محل منها واقتصار زينته الخارجية على فُسَيْفِساء هزيلة.

وترجع عناصر الفنّ التى كانت سائدة للطِّراز المغولىّ فى عهـد شاهجهان إلى استعمال الأقواس المُفَرَّضة والقِباب البصلية وترصيع الرُّخام الأبيض بالحجارة الثمينة وستر المساجد، فى بعض الأحيان، بالخزف المطلىّ بالميناء.

وقد أفل نجم الطِّراز اللَّذين لتأثير المغول بأفول نجم هؤلاء بالتدريج، فلا يَشِيد القوم مبانىَ مهمةً على حسب أصوله فى الوقت الحاضر، مع أن الطِّراز الهنـدوسىّ لا يزال محافظاً على نفوذه، ومع أن الطُّرُز الإسلامية الأخرى لا تزال باقية فى الممالك الإسلامية التى تتمتع بشىء من السلطان كدولة نظام مثلاً.

تكفى الخلاصة السابقة لتسويغ ما اتخذناه من تقسيم المبانى الإسلامية فى الهند، وعلى الباحث أن يدرس هذه المبانى فى كل مِنْطقة على حِدَة، والمبانى المهمةُ لكلّ

منطقة إذ كانت متجمعة فى عاصمتها وَجَب اتخاذ مبانى كُبْرَيات المدن أمثلةً فى البحث ، فإذا ما قيل : فن بناء لاهور وفن بناء بيجابور ، مثلاً ، دَلَّ ذلك ، بالحقيقة ، على فنّ بناء المِنطقتين الواسعتين اتساعَ ممالكنا الأوربية ، فى الغالب ، اللتين اتخذتا تَيْنِك المدينتين عاصمتين لها .

ويتجلى النفوذ الإسلامى فى جميع الهند تقريباً ، فقد وَجَدْتُه حتى فى نيبال التى لم يدخلها المسلمون قَطّ ، ووجدتُه ، أيضاً ، فى جنوب الهند التى لاتحتوى على مساجد بناها المسلمون فقط ، بل تشتمل على قصور إسلامية بناها الهندوس أيضاً كقصر مَدورا مثلاً ، وكان للنفوذ الإسلامى من الأثر البالغ فى تَشْيِيد هذه القصور ما يُخَيِّل إليك معه ، أولَ وَهْلةٍ ، أن بُناتَها من المسلمين بالحقيقة .

وإذا اتخذتَ ما قلناه آنفاً قاعدة أمكنك أن تصنف المبانى الإسلامية التى تملأ الهند كما يأتى :

ا — فن البناء الإسلامىّ قبل العصر المغولىّ (وقد أُنشئت على طِرازه مبانى دهلى القديمة ومبانى أجمير و بيجابور وغولكوندا الخ) .

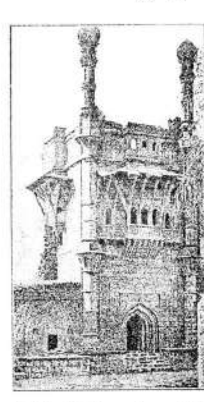
ب — فن البناء فى العصر المغولىّ (وقد أُنشئت على طِرازه مبانى أغرا ودهلى ولاهور الخ) .

ج — فن البناء الموسوم بالمؤثِّرات الإسلامية فى مختلف بقاع الهند حيثُ أكثر المبانى هندوسيةٌ (وقد أُنشئت على طِرازه المبانى الإسلامية فى غواليار ومهوبا وكهجورا ومَدورا الخ) .

ألاَ إن مبانىَ المسلمين فى الهند كثيرة إلى الغاية ، وتختلف طُرُزها بين دَور

ودُور وبين مدينة ومدينة فيتعذّر وصفها داخل الحدود التى رسمناها لهذا السِّفْر ، وقد نشرنا أهمّ صورها فى هذا الكتاب مع ذلك ، ولا يسعنى سوى إحالة الراغبين فى دراسة كلٍّ واحدة منها بالتفصيل إلى كتابى « الهند الأثرية » ، ومن هذه المبانى الإسلامية أذكر برج قطب وباب علاء الدين ومزار أكبر وقلعة أغرا وأطلال فتح بور وقصرَ ملوك المغول بدهلى وما إلى ذلك من الآثار القائمة فى كُبْريات المدن فيسهل على الباحثين أن يَصِلوا إليها ، فنجم عن هذا ذيوع صيتها فى أوربة .

٦ — فن البناء الهندى التبتى



١٢٢ — بيجابور . مهترى محل (القرن السادس عشر من الميلاد) (يبلغ ارتفاع المئذنة نحو عشرين متراً) .

تقع دولة نيبال ، كما هو معلوم ، بين سلاسل جبال همالية المتوازية التى تفصل الهند عن التبت ، ونجم عن عزلتها واستقلالها محافظتُها على عاداتها القديمة محافظةً تامة ، ومن المفيد أن يُدْرس فنُّ بنائها الذى صَعُب البحث فيه حتى الآن ، فنرى فى كثير من مبانى نيبال اختلاط العناصر الهندوسية والصينية ، وبلغت هذه العناصر فى بعض مبانى نيبال من التمازج ما أسفر عن ظهور طراز خاصٍّ جديد .

مبانى نيبال كثيرة جداً ، ففيها ما يزيد على ألفى بناء ، وترتبط طُرُز هذه

المبانى بأمثلة ثلاثة مختلفة اختلافاً جوهرياً كما نَصِفها لك :

فأما الطراز الأول بحسب القِدم فيتألف من مبانٍ كبيرة نصف كريَّة مصنوعة من الطين والآجُرّ مشابهةٍ لقبـاب الهند الوسطى كزار سانچى على الخصوص ، ولكنها ليست مُحاطَة ، كهذه القِبـاب ، بسياجات حجرية ذات نقوش ، بل هى محاطة بأرصفة مستديرة ، وتُبصِر فى كلّ جهة من جهـاتها الأربع محراباً ، وإن شئت فقل مِشكاة ذات تماثيل ، ويعلو نصفَ الكُرَة برجٌ مربع يتوَّجُه هَرَم أو مخروط ، وترى حَوْل كلّ معبد أبنية دينية صغيرة ومقاصير وتماثيل الخ .

أجَلْ ، إن تلك المعابد خاصة بالدِّيانة البُدَّهِيَّة ، بَيْد أن البرهمية والبُدَّهِيَّة بلغتا من التمازج فى نيپال ما تتلاقى معـه رموز تَيْنك الدِّيانتين فى جميع معـابدها مهما كانت الدِّيانة التى أقيمت من أجلها ، فترى فى تلك المعـابد البُدَّهِيَّة ، فى الغالب ، تماثيلَ الآلهة البرهميـة (وِشنو وغنيشا الخ) بجانب تماثيل بُدَّهَة وسابقِ تقمصاته والثالوث البُدَّهِى (بدهة ودَهرما وسنغها) .

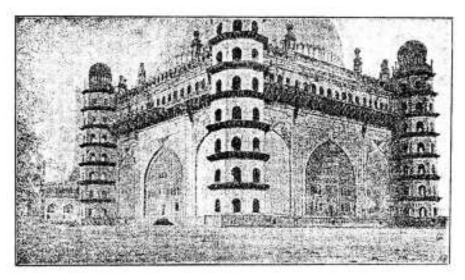
ونحن حين رأينا فى نيپال كيف تتدَرَّج البُـدَّهيَّة إلى الانصهار فى البرهميـة استنبطنا وقوع هذه الحادثة نفسِها فى بقية الهند حوالَى القرن السابع من الميلاد .

وتلك المبانى التى وصفناها ، وإن كانت أقدمَ مافى نيپال ، ليست أكثرَ مافى نيپال عدداً ، فيتألف مُعْظَم معابد نيپال من مبانٍ مصنوعة من الآجُرّ والخشب على طِراز تبتىّ صينىّ أكثر من أن يكون هندوسياً فتشتمل هذه المبانى على عِدَّة طبقات قائمة الزوايا مُتَقَبِّضَة يعلو كلّ واحدة منها سقف ، ويظهر كلّ واحد من هذه السقوف مرتفعَ الزوايا قليلاً ، كما فى المبانى الصينية ، مزيناً بعدة جلاجل ، ويبدو كلّ بنـاء أُنشىء على هذا الشكل هَرَمِىَّ الشكل ذا طابع خاص .

ويرتبط قسم السقف البارز للأمام فى بقية البناء بجسور خشبية منقوشة .

ويحيط بكلٍّ معبد شُرْفَة تحملها أعمدة خشبية محفورة حفراً دقيقاً .

ويقوم كلٌّ بنـاء على أساس حجرىٍّ ذى طبقات كثيرة متقبّض بعضها فوق بعض ويُرى على أحد وجوه كلٍّ معبد دَرَجٌ مؤدية إليه ، ويُزيِّن جوانبَ الدرج تماثيلُ للآلهة والجنّ والإنس .



١٢٣ — بيجابور . مزار السلطان محمود (أنشىء فى أوائل القرن السابع عشر) (يعد هذا المزار من أعظم مبانى العالم ، ويشتهر بأبعاده الواسعة أكثر مما بجماله وزخرفه ، ويبدو مربع الشكل فيبلغ الجانب منه ستين متراً ، ويقوم على كل واحدة من زواياه الأربع مئذنة ، وتعلوه قبة عرضها ٣٨ متراً وارتفاعها من الأرض ٦٠ متراً ، فيبدو بذلك أعلى من مسجد أياصوفية بالآستانة)

وأما الطِّراز الثالث فيتألف من معابدَ حجرية تختلف عن طِراز ذينك الطِّرازين اختلافاً تاماً ، فهى ذات طابع مبتكر ، فلا ترى للمؤثرات الصينية أثراً فيها ، أجَلْ إنك تُبْصر للمؤثرات الهندوسية عملًا فيها ، بيد أن هذه المؤثرات ليست من الأهمية

بحيث تُخْرِجها عن طابعها الخاصّ ، وهذه المباني هي الوحيدة التي نشاهد فيها عَمَل المؤثِّرات الإسلامية لِما فيها من القِباب عرضاً .

ومن المتعذر أن نربط هذه المعابدَ الأخيرة بمثالٍ واحد كما يبدو ذلك من الصُّوَر التي نشرناها ، ووصفُها المشترك هو في إنشائها على أُسُس حجرية ذات عِدّة طبقات وفي وجود تماثيلَ للحيوان والإنسان على جوانب دَرَجها كما في المعابد السابقة.

وليس للمعابد الحجرية ما للمعابد الآجُرّيّة ذات السقوف المُنَضّد بعضُها فوق بعض من المنظر الغليظ فتكلمنا عنها آنفاً ، ويمكن عَدُّ المعبد القائم أمام قصر الملك في بَتَن من أهم مباني الهند شكلاً ، ويُزَيِّن طبقاته المُتَكَمِّشَ بعضُها فوق بعض (وهــذا ما اتُّخِذ مبدأً لفن البناء في نيبال على ما يظهر) قِبابٌ ذوات منظر رائع ، ولم يَبْــدُ أثر طِراز الشمال الهندوسيّ في غير الهَرَم ذي الوجوه المستديرة الخطوط الذي يعلو هذا المعبد .

ومنَ الصعب أن نُعيِّن تاريخ معابد نيبال ، ولو تقريباً ، نَعَمْ ، يمكننا أن نقول ، بوجه عامّ ، إن مزارات نيبالَ نصفَ الكُرِيّة قديمة جداً ، أي معاصرة للقرن الثاني من الميلاد لا ريب ، وإن معابدَ نيبال الآجُرّيّة والخشبية أحدث من تلك ، أي أقيمت بعد القرن الخامس عشر ، ولكن من المتعذر تحديد تاريخ المباني التي شِيدت بين ذينك القرنين ، فظلَّ أمر هذا التاريخ مشكوكاً فيه .

وتغشى معابدَ كُبْرَيات مدن نيبال وبيوتَها وقصورها نقوشٌ وزخارفُ زاهية ، وصُنِعَت أبواب قصور نيبال من صفائحَ برونزية منقورة نَقْراً دقيقاً ، ويقوم أمام هذه الأبواب حجارة ضخمة تعلوها تماثيل ، ويتجمع أكثر تلك المباني ، في الغالب ، ضمنَ مِساحة قليلة فيتألف منها منظر رائع ، وتراني قد زُرْت أشهر مدن الشرق في

أثناء سياحاتى ، فلم أجد لمدينة فى الشرق من الأثر الجميل فى نفسى كبعض مدن نيپال ولا سيما پتن ، أجل ، إن فى الجزئيات غلطة أحياناً ، مع عدم وجود ما يستطيع أشد النقاد نطرفاً أن ينتقد به نقوش الأعمدة ، ولكنى أقول مكرراً إن المجموع طابعاً رائعاً شاملاً للمنظر .

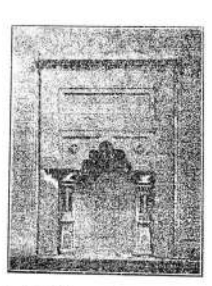
وقد نشرنا فى هذا السفر صور أشهر مبانى نيپال ، أى أشهر ما أقيم منها فى كهات ماندو وبهات غانو وپتن وپشوپتى الخ . مستندين إلى صورنا الفوتوغرافية .

٧ — فن البناء الهندوسى الحديث

رجع فن البناء ، كأكثر الفنون الهندوسية ، إلى الوراء رجوعاً سريعاً منذ تمام الفتح الإنكليزى للهند ، أى منذ نحو قرن واحد ، ولهذا الانحطاط الهائل سببان : أولهما تدرج أمراء الهند وأشرافها إلى الفقر ، فهؤلاء السادة إذ جُرِّدوا ، على الأكثر ، من دخلهم اضطروا إلى العدول عن إنشاء مثل تلك المعابد والقصور العجيبة التى هى عنوان الثراء ، ومظهر غنى البلاد فى الغالب ، وثانيهما اعتقاد الأقلين منهم ، الذين بقى لهم من المال ما يستطيعون أن يشيدوا به قصوراً ، أن تفوق الأوربيين فى السلاح يتضمن تفوقهم فى الفنون، فرأوا أن يقلدوا ما أقامه الإنكليز من الأبنية العامة الثقيلة ، فكان ما نراه من قصورهم الحديثة الشنيعة ، ومن هذا أن راجه غواليار، الذى هو من أقوى الأمراء المحليين ، قد تعامى عما أمام عينيه من مبانى الهند الرائعة فلم يجد غير إقامة قصر على طراز إحدى مبانى لندن الكريهة ، ومن هذا ، أيضاً ، أن أمير إندور بنى له قصراً على الطراز الأوربى فكان أبشع ما رأيت فى الهند مع عده إياه ، لا ريب ، أجمل ما فى عاصمته .

ومن الطبيعىّ أن يسير أغنياء الهند على تلك السُّنَّة ، ظانِّين أنهم يقيمون الدليل بذلك على بلوغهم درجة رفيعة من الحضارة وعلى نهوضهم فوق مستوى أبناء وطنهم ، فتبصرهم يُنْشِئون بيوتهم على طِراز أوربىّ سقيم ممزوج بما لا يلائمه من الزخارف الإسلامية .

وتصرفٌ فاسـدٌ كهذا يؤدى ، لاريب ، إلى انحطاط فنّ العمارة الهندوسىّ انحطاطاً تامًّا سريعاً ، وفنُّ عمارةٍ كهذا ، إذ كان لا يدوم إلا بتقدير قيمته يزول ، لاريب، إذا لم يُنْسَج على منْواله ، وليس على الباحث أن يكون نَبِيًّا ليبصر عَطَل الهند بعد جيلين أو ثلاثة أجيال من صانع ماهر قادر على إقامة بنـاء كتلك الآثار القديمة التى لا تزال تَمْلأ الهند وإن كانت أطلالها تَمَّحى فى هذه الأيام .



١٢٤ ــ غور . محراب مسجد أدينة (القرن الرابع عشر من الميلاد) (غور عاصمة قديمة مهجورة مثـل بيجانفر وكهجورا وبيجابور ، وتغير الآجام والأعشاب على مبانيها فتستولى عليها استيلاء تاماً ، ولا نرى كبير أهمية لما بقى منها (من مجموعة صور هنرى رافينشو .)

حقّاً أن انحطاط الفنّ الهندوسىّ يَرْجِع إلى ما ذكرتُه من الأسباب ، ولا أعرف غيره ، ومما يُؤَيِّد وجهة نظرى تلك هو أن أُخْرَيات العمارات الهندوسية التى بُنِيَت فى الهند قبـل استفحال النفوذ الإنـكليزى فيها تُثْبِت أن فنّ البناء لم يكن فى دور الانحطاط حين إنشائها .

وفى هذا الـكتاب نشرتُ صُوَرَ عِدَّة مبانٍ شِيدَت فى الهنـد منذ قرن ليطلع

القارئ على قيمة أُخْرَيَات عماراتها ، وأهمُّ هذه العمارات معبدُ دورغا ببنارس ومعبدُ أور بأمرتسر ومعبدُ هتهى سنغها بأحمد آباد ، أجَلْ ، إن هذه المبانى من طُرُز مختلفة أشدَّ الاختلاف ، بَيْد أنها تنطق بكمال من الصنع يتعذر مجاوزته فى أوربة ، وأحدثُ هذه المبانى هو معبد هتهى سنغها الذى شِيد فى أحمد آباد منذ أربعين سنة فترانى أشُكُّ فى وجود صانع ماهر فى الهند يستطيع أن يُنْشِئ مثلَه فى أيامنا .

هنا نختم ما أردنا قوله عن فنِّ عمارة الهند ، وهو، كما ترى، خلاصةُ ربَادِى لعالَم من المعابد والقصور الخيالية التى هى آثار جيل أَفَل ، وما أولئك الآلهة والإلاهات والشياطين ذوو الصور الرائعة المتوعدة أو المرهوبة التى تملأُ المعابد المُظْلمة ، وما تلك الأساطير والأقاصيص التى تدور حَوْلَ الملوك والأبطالِ فى المحاريب والمزارات الحافلة بالأسرار إلا شهودٌ على ماض لا نَقْدِر على بَعْثه بغيرهم .

الفصل الثالث

العلوم والفنون

---

(١) العلم الهندوسى — مصادر العلوم الهندوسية — اقتبس الهندوس علومهم من اليونان والعرب — كيف وقع ذلك — عطل الهندوس من الابتداع العلمى — معارفهم العملية — لا يجوز أن يعد تفوق أمة فى فرع من المعارف دليلا على مستواها الذهنى — (٢) الفنون الهندوسية — أهمية آثار الفن فى بعث حضارة أحد الأزمنة — يفصح رجل الفن عن احتياجات الزمن الذى يعيش فيه ومشاعره ومعتقداته — أهمية آثار الهندوس الفنية — أثر الهندوس البالغ فى تحويل الفنون التى اقتبسوها من الأمم الأخرى — نشوء الفنون فى الهند — النحت والتصوير — الفنون الصناعية — صناعة الخشب والمعادن والحجارة الثمينة ، الخ .

---

١ — العلم الهندوسىّ

لا يطمئنّ القارئ أن يجد فى هذا الكتاب ما يجده فى كتاب « حضارة العرب » من فصول كثيرة عن حال العلوم ، فالعربُ إذ نقلوا إلى الجامعات الأوربية كنز العلوم المتراكة الذى انتهى إليهم من العالم الإغريقى اللاتينى بعد أن وسّعوا دائرته بما أضافوه إليه كثيراً كان من المفيد دراسة حال العلوم عندهم فى إبّان سلطانهم ، ولا نجد مثل هذه الفائدة عند الهندوس ، فالهندوس ، خلافاً للرأى

القديم ، قد اقتبسوا معارفهم العلمية من الأمم التى كانوا ذوى علائقَ بها فلم يَعْرِفوا كيف يُسَيِّرونها إلى الأمام ، فدِراسة العلوم لدى الهندوس فى زمنٍ ما تَعْنِى دراسةً لتاريخ علوم الأمم التى كانت لهم صلات بها مما يخرجنا من نِطاق هذا السِّفر .

ويُفَسِّر ما قلناه فى فصل آخر عن مزاج الهندوس النفسىّ عدمَ إضافتهم شيئاً ذا بال إلى العلوم التى تَلَقَّوْها من الأجانب ، فالروح الهندوسية القوية فى الفلسفة والدقيقة فى الفنون عاطلةٌ من الضبط والإحكام الضروريين للبحث المُجْدِى فى العلوم ، ففى هذا سرُّ ضَعْف الروح الهندوسية فى المعارف الهندوسية ، فالحقُّ أن الروح الهندوسية إذا كانت قادرة على هضم ماوَصَل إليه غيرها من نتائج العلوم ، فإنها لا تستطيع أن تسير إلى ما هو أبعد من هذا .

والأمتان اللتان اقتبس الهندوس منهما معارفهم العلمية هما الإغريق والعرب ، وترانا نجهل كيفية انتشار العلم الإغريقىّ فى الهند ، ولكن مبانى شمال الهند الشرقى التى درسناها فى فصل آخر تُثْبِت أن الهندوس كانت لهم صِلات دائمة بإغريق بقطريان ، فمن المحتمل أن يكون العلم الاغريقىّ قد انتقل إليهم عن هذه الطريق ، فكان مانَعْلَمه من امتلاء أقدم كتب الهندوس فى الفلك ، ككتب وَراها مِيهيرا الذى عاش فى القرن السادس بأجين ، من الاصطلاحات والمراجع الإغريقية .

وأسهل من ذلك بيان الكيفية التى انتقل العلم بها إلى الهند بياناً صحيحاً ، فالعرب ، كما قلنا فى فصل سابق ، كانت لهم قبل الميلاد بزمن طويل صِلات تجارية مُنَظَّمَة بالهند ، و بواسطة العرب كان الغرب يتّصل بالشرق فى القرون القديمة ، فلما فتح أتباع محمد العالم القديم ، بعد حين ، دامت صِلَةُ إحدى الأمتين بالأخرى ،

وَرَوى مؤلفو العرب وجود كثير من علماء الهندوس فى بَلاط الخلفاء ببغداد ، ولما مرَّت الأيام فتح ورثة الخلفاء من المسلمين الهندَ تبعهم علماء فداوموا على نشر معارف العرب فيها ، ومن هؤلاء العلماء أذكر البيرونيَّ الشهير صديقَ فاتح الهند الأول محمود الغزنويّ ، فقد ساح هذا العالم فى الهند فى القرن الحادى عشر ونشر فيها علوم العرب التى كانت مزدهرة فى ذلك العصر أيما ازدهار ، فكانت تقوم على ما وَرِثه العربُ من معارف الغرب القديم وما أضافوه إليه من الاكتشافات ، فبذلك أضحى العلم الهندوسيّ لا يكون بعد القرن الحادى عشر غير علم العرب .

إذَنْ ، ليست كتب العلم الهندوسيّ ، التى تترجَّح بين كتب آريابهاتا الرياضية المؤلفة فى القرن الخامس من الميلاد وكتبِ برهماغبتا المؤلفة فى القرن السادس وما أُلِّف إلى أيامنا ، غيرَ مشتملة على سوى المعارف العلمية التى دخلت الهند بتلك الطُّرُق ، وأهمُّ تلك الكتب معروفٌ لدينا اليوم ، ونَعْرِف منها أن مؤلفيها لم يحققوا فى أىّ علم أىَّ تقدم يُذْكَر ، وما كان يدور حول قِدَم علم الفلك الهندوسى ودقته من الأفكار قد أُهمل تجاه الدِّراسات التامة فأصبحت هذه الأفكار غير جديرة بعناية أحد .

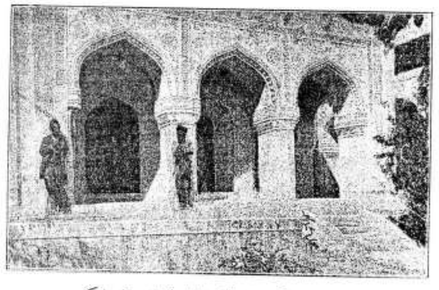
ولا تبدو القضايا العلمية الجديدة القليلة جداً ، التى تُرَى فى كتب الهندوس ، إلا على شكل لَمَحات مُبهمة عاطلة من أىّ برهان ، ومن ذلك أن العالم الفلكىّ آريابهاتا ذكر فى القرن الخامس ، فى بضعة أسطر ، حركةَ الأرض اليومية حول محورها من غير أن يأتى بدليل ، ومن ذلك أن بهاسكراجاريه جاء فى القرن الثانى عشر ، كما يظهر ، برأى مُبْهم حول حساب الكمية الصغرى من غير أن ينتهىَ إلى شىء .

ومما تقدم ترى أنه يجب ألاَّ يُعْزَى إلى الهندوس، على العموم، أيُّ إبداع فى حقل العلوم، والهندوس، إذ لم نَقْدِر على إسناد أىّ شىء أساسىّ إليهم، نرى من غير المفيد أن نتكلم عن كتبهم العلميــة التى لا نبصر فيها شيئاً لم نَجِده فى كتب اليونان والعرب.

وضَعْف قدماء الهندوس فى العلوم النظرية لم يمنعهم، مع ذلك، من أن يكونوا ذوى معارف عملية على شىء من الرُّقِىّ، وذلك كما يبدو من فن عمارتهم القديم ومن فنونهم الصناعية، فالهندوس كانوا يَعْرِفون صنع الزجاج والدباغة والتقطير واستخراج المعادن وصنع الفولاذ وتحضير بعض الأملاح المعدنية، بَيْدَ أن هذه المعارف العملية، التى هى وليدة التَّجْرِبة والتى نَعُدُّ مصدر غير واحد منها أجنبياً، ظلّت بعيــدة من ميدان النظريات والمبادئ العامة بُعْداً لا تستحق معه أن تسمى بالعلم، أَجَلْ، إن التجربة قد تُعَلِّم الصبىّ اســتعمال العصا فى إزاحة حجر واسـتعمال مِقْذَفَيْن فى دفع زَوْرَق واســتعمال بَكَرَة فى رفع الأثقال، غير أن هذا الصبىَّ لا يَصِل إلى مرتبة المعارف العلمية إلا حين يَعلَم أن العصا والمِقْذَف والبَكَرَة تطبيقاتٌ لمبدأ واحد.

وما أبناه من الأحكام القاسية العادلة فى علم الهندوس وآدابهم غيرُ ما أبناه فى فنّ عمارتهم وما نقوله، بعــد قليل، عن فنونهم الأخرى، ولا يعترى القارئ العالم بروح الأفراد والأمم دَهَشٌ من ذلك، فوجود أمة تَفْضُــل جميعَ الأمم فى جميع فروع المعارف البشرية لا تراه فى غير كتب التاريخ وخيال الجماهير، وضلالٌ كهذا مما يدلّ عليه الاختبار الدقيق، ولامِراء فى أن الأمة، كالفرد، تكون بحسب مزاجها النفسىّ متفوقةً فى فرع من المعــارف البشرية، على أن تكون متأخرة فى

الفروع الأخرى ، ولا تجد أفضلية جامعة لكل فرع ، وغيرُ كثيرٍ ما يبدو هذا في الحقل الذهني فَتَقْدِر على ربط فروعه في سلسلة واحدة ، نَعَمْ إنني أرى تفوق ذوات الثُّدِيّ على الأسماك لِما أجده من كون جهازها العصبي أرقى من جهاز الأسماك العصبي ، ولكنني إذا ما قايست بين فيدياس ونيوتن وديكارت وقيصر لم أجد وسيلة لإثبات أيهم أفضل من الآخرين ، فالتفوق الفني مستقل عن التفوق العلمي ، وكثيراً ما يناقضه ، وهو يتطلب ، بالحقيقة ، طرازَ تفكير وإحساس خاصًّا وطُرُزَ



١٢٥ — غولكوندا . دقائق زخرف في مقدم مزار ملكي

نظر إلى الحياة والأمور خاصَّة ، فيَنْدُر أن يجتمع كلا التفوقين ، إذَنْ ، في أمة واحدة ، فالعالم يُحَلِّل الحوادث ويسعى في رُؤْيَة الأشياء كما هي غيرَ مبالٍ بجمالها وقُبْحها ، وعكسُ ذلك أمر المتفنن والشاعر اللذين يَجِدّان في تزيين الأشياء وإبدائها بعواطفهم على غير ما هي أو على ما هي في أحوال شاذَّة ، وإلا عاد المتفنن لا يكون

متفنناً وعاد الشاعر لا يكون شاعراً ، حقاً أننا لا نَعْلَمُ أمةً وَصَلَت إلى مثل ما وَصَل إليه الأوربيون من الرقيّ العلميّ في القرن التاسع عشر ، ولكن مما لا ريب فيه أن كثيراً من الأمم ، فضلاً عن الإغريق ، بلغت درجة من الفن أرفعَ من التي وَصَل إليها الأوربيون بمراحل ، فليس عصر البخار والكهرباء بالعصر الذي تَبْلُغ فيه الفنون ذُروتها .

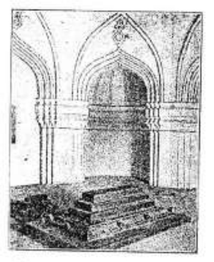
إذَنْ، يجب ألاَّ يُستنبط مما قلناه أيَّة نتيجة لمصلحة الهندوس أو لغير مصلحتهم ، فليس بتقدمهم الفنيّ وحدَه أو بتأخرهم العلميّ وحدَه ما يمكن الحكم في أمرهم .

٢ — الفنون الهندوسية

خصصنا عِدّةَ صَفَحات من كتابنا « حضارة العرب » لإثبات أهمية الآثار الفنية في بعث حضارة أحد الأدوار ، فقلنا فيه إن المتفنن والكاتب لا يصنعان غير الإفصاح عن مشاعر الزمن الذي يعيشون فيه واحتياجاته ومعتقداته على شكل منظور فكان ما انتهى إلينا من آثار أحد الأجيال الأدبية والفنية أحسنَ صفحات التاريخ ، ومما ذكرناه هنالك أن استقلال المتفنن والكاتب ليس في غير الظواهر ، وأنهما مُكَبَّلان ، في الحقيقة ، بقيود من المؤثِّرات والأفكار والمعتقدات التي يتألف منها ما يسمى روحَ العصر القوية التي لا يستطيع أكثر النــاس حرية أن يتخلص من سلطانها غير الشعوريّ ، وأنه إذا كان لكلِّ جيل آدابُه وفنونه فلأن له احتياجاتِه ومعتقداتِه التي تُعْرِب عنها ، ومما ذكرناه ، أيضاً ، أن فنون أحد العروق إذ كانت ، كنُظُمه ، وليدةَ مزاجه النفسيّ فإن من المتعذر على عرق آخر أن ينتحلها من غير أن يُحَوِّلها ، وأن

فنّ العمارة العربيّ لم يتحول فى الهند وحدّها ، بل تحول فى مختلف البلدان التى فتحها المسلمون فكان هذا الفنّ أحسنَ مثال على هذه المطابقات .

ثم دَرَسْنا فى كتابنا « حضارة العرب » مزاجَ أحد العروق الفنىّ فوجدنا أنه يقوم على السرعة التى يضع بها طابعه الخاصّ على الفنون السابقة التى ينتحلها منذ دخوله ميدان الحضارة ، ومما ذكرناه هنالك أن بعض الشعوب تقتبس من مختلف الجهات مايلائم احتياجاتها من غير أن تضيف إليه شيئاً جديداً وأن شعوباً أخرى تَمْزُج العناصر الأجنبية بما يفيض منها فتَسِمُ هذا كله بطابعها الخاصّ وَسْماً لا يكشف تلك العناصر الأجنبيةَ معه غيرُ عالم راق ، وذلك كما اتفق للإغريق الذين اقتبسوا من الآشوريين والمصريين فنونهم ، وكما اتفق للعرب الذين هضموا الحضارة اليونانية اللاتينية ، وغيرُ ذلك أمر الترك وغيرهم من الشعوب العاطلة من العبقرية الفنية ، وإيضاحاً لذلك نقول إنه إذا ما قيس أقدم مساجد القاهرة ، كمسجد عمرو بن العاص ، بآخرها ، كمسجد قايتباى ، ظهرت قدرة شعب ، كالعرب ذوى الاستعداد الفنى ، على تحويل الفنون التى اقتبسها من شعب آخر ، وإنه إذا ما قيست المساجد التى أقامها الترك فى الآستانة بغيرها من المبانى البيزنطية وُجِد أنها نُسِخَت بدناءة من كنيسة أياصوفية مع إضافة بعض العناصر الأجنبية إليها إضافة تَدُلّ على عَجْز الترك عن التحويل .


١٢٦ — غولكندا . داخل ضريح ملكى

وقد رأينا أن الهند كانت محلاً لاستيلاء مختلف الفاتحين ، فلنا أن نَجِد فى فنون

الهند عِدَّة عواملَ أجنبيةٍ ، بيد أن الهندوس كانوا من الدُّهاة ما قَدَروا به على جعل ما اقتبسوه ذا طابع هندوسيّ بسرعة ، وتناول دهاء الهندوس ، أيضاً ، العمارة حيث يصعُب إخفاء ماهو مستعار فيها ، فبدا أثره واضحاً فيها ، فلم يَلْبَث العمود الإغريقيُّ الذى اقتبسه متفننو الهندوس مثلاً أن زالت عنه صفته الإغريقية متحولاً إلى عمود هندوسيّ ، والهندوس إذا ما وضعتَ بين أيدى متفننيهم أيةَ أداة فنية أوربيــة أبصرتم هؤلاء المتفننين يُجَرِّدونها من صفتها الغربية بتجسيم بعض أجزائها وزيادة زخارف بعضها الآخر ، مع الرِّضى بشكلها العام على ما يحتمل .

وما اقتبسه الهندوس من العناصر الأجنبية فى فنّ البناء فقليلٌ إلى الغاية أو محدودُ المكان على الأقل كما رأينا ، وما اقتبسوه منهــا فى الفنون الأخرى فعظيمٌ جداً ، ولكنّ جميع ذلك لم يَلْبَث أن تَغَيَّرَ بما حَوَّلوه به فأصبح تمييزه متعذراً .

وإذا سألتَ عن مبدأ الزُّخْرُف الهنــدوسيّ العامّ رأيته يتَّصِف بزيادة المبالغة وفرط الغُلُوّ فى الجزئيَّات التى هى أبرز ما تشاهده فى آثارهم الأدبية والدينية والفلسفية ، والمرء إذا ما درس فنون الهندوس على الخصوص أدرك درجة علائق آثار أحد العروق الشاخصة بمزاجه النفسيّ وأيقن أنهــا أوضح لسان لمن يستطيع أن يُفَسِّرها ، فالحقُّ أن الهندوس لو غابوا عن التاريخ كالآشوريين لكَفَت نقوش معابدهم البارزةُ وآثارهم الفنية وتماثيلهم لإطلاعنــا على ماضيهم كما نَعرِفه اليوم ، وأنت تَعلَم أننــا توَصَّلنا ، بدراسة التماثيل والمعابد ، إلى معرفة تاريخ البُدّهية معرفةً أصحّ ممــا ورد فى الكتب .

ظلَّت الهند أغنى بلاد العالم آلافاً من السنين ، وازدهرت الفنون فيها على الدوام مهما كان نوعُ الفتن التى حَرَّكتها ، وما فتِئَت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ

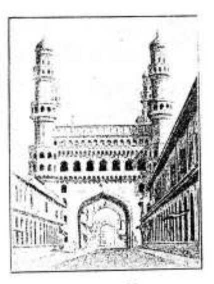
عن أدوات الهند الفنية وحليّها ونسائجها حتى صار من الممكن أن يقال إنها استنزفت مال الدنيا فى ألوف السنين ، أجَلْ ، إن الثَّوْرات وتبديلَ الأسَر المالكة مما كان يؤدى إلى انتقال الثَّرَوات بين حين وحين ، بيد أن هذه الثَّرَوات كانت تبقى فى الهند فيستعملها مالكوها الجُدُد ، كأسلافهم ، فى شَيْد المبانى والقصور واقتناء النفائس وتشجيع الفنون التى هى من أغنى مصادر البلاد ، وقد رأينا فى الفصل الذى خَصَّصْناه للبحث فى تاريخ المغازى الإسلامية الأولى درجة غِنَى الهند العظيمة ودرجة وَقْف هذا الغِنَى لأنظار الفاتحين .

واليوم صارت بلاد الهند أفقرَ بلاد العالم بعد أن كانت أغناها ، و بلادُ الهند قد هَزَلَت بعد أن خضعت منذ قرن لنظام مؤدّ إلى امتصاصها ، و بلادُ الهند قد أخذت تستورد السِّلَع من برمنغم ومانچستر وغيرها من المدن الإنكليزية بعد أن كانت تملأُ العالم بمنتجاتها ، والهندوسىُّ ، الذى أضحى عاجزاً عن الوقوف أمام ما تنتجه الآلات الصناعية الأوربية ، طَفِق يَعْدِل بالتدريج عن فنونه القديمة المهد داخلاً زمرة الأُجَراء والزُّرّاع .

وقد بيَّنَّا أن فنّ البناء شَرَع يغيب عن الهند منذ رسوخ الإنكليز فيها ، وسيكون مصير أكثر الفنون الأخرى مثل ذلك بعد زمن قليل على الرغم من تشجيع بعض ذوى النفوس النَّيِّرَة ، وما انفكَّ كبراء الأمراء المحليين يفتقرون فلا يستطيعون أن يحثُّوا على التمسك بتلك الفنون ، وذلك فضلاً عن تملقهم لسادة الهند الجُدُد باقتنائهم ما تُنتِجه إنكلترة ، والسائح الأوربىّ ، الذى يدخل قصور الهندوس الغنية ، كقصر مهارنا بأوديبور ، يَقِف مشدوهاً حينما يشاهد فيها أسقاطَ الأمتعة الرخيصة الكريهة التى تخرُج من الأسواق الإنكليزية بجانب عجائب الهندوس الفنية .

ولْنَدَعِ الآن تلك القواعد الكُلِّيَّة الضرورية لِتَفَهُّم الفنون الهندوسية باحثين في أهمها باختصار :

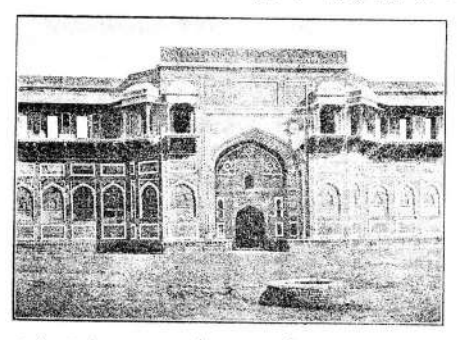
النحت . — لا نجد أمةً ، كالهندوس ، قد اتخذت النحت أداة للزينة ، فما في معابد الهندوس ومزاراتهم من التماثيل والنقوش البارزة يُعَدُّ بالألوف ، ويَحارُ المرء تجاه سكوت الكتب الباحثة في فنون الهندوس عن الوثائق الخاصة بالنحت ، ونقصٌ كهذا مما أشار إليه فيرغوسن ، منذ زمن طويل ، من غير أن يفكر في تلافيه ، ولا نستطيع أن نَطَّلع على النحت لدى الهندوس بما في بعض كتب الأساطير الهندوسية من الصور الرديئة المطبوعة بألواح الحجارة ، والذي يظهر أن صانعي تلك الصور اختاروا أردأ الأمثلة فنَجَمَ عن ذلك اعتقاد الأوربيين، على غير حق ، أن النحت الهندوسي متأخر



١٢٧ — حيدرآباد . شهر منار والشارع الكبير (لا يكاد تاريخ وجود حيدرآباد يزيد على ثلاثة قرون ، وتبدو مدينة الهند هذه ذات طابع القرون الوسطى الإسلامي إلى أبعد حد مع ذلك ، وتشرف هذه المدينة ، وهي التي أنشئت في أوائل القرن السابع عشر ، على شارعها الكبير ، ويتألف من حناياها قوس نصر مطلة على جميع الشارع ، ويبلغ ارتفاع الحنية الكبرى ١٥ متراً ، ويبلغ ارتفاع كل واحدة من المناور ٥٦ متراً)

إلى الغاية ، فأطمعُ ، والحالة هذه ، أن يبدو للقارئ من صور التماثيل التي نشرناها في هذا الكتاب خَطَلُ ذلك الاعتقاد ، فقد وجدتُ ، بجانب ما في بهُوونيشْوَر وسانجي وإيلورا وأجنتا وبادامي وكهجورا وكُنبها كونَم الخ . من آثار الفن الرديئة، آثاراً فنية رائعة لا يقدر رجال الفنّ بأوربة على إنكار أهميتها ، وما في أوديغيري

وبهارت وسانچى ومهابلى پور من النقوش البارزة التى نشرناها فى هـذا الـكتاب يُعَدُّ فى كل بلد من أرقى الآثار لا ريب .



١٢٨ ـ أغرا . مقدم القصر الأحمر فى القلعة (تبدأ بهذه الصورة صور مبانى العصر المغولى أى مبانى الهند الإسلامية منذ القرن السادس عشر ، ويعزو بعض المؤلفين إنشاء القصر الأحمر إلى الملك جهانكير ، ويرى كثيرهم أن هذا القصر أقدم من زمن ذلك الملك بقرن واحد ، ويلوح لنا أن هذا القصر هو أقدم مبانى المغول بأغرا ، ونرى أنه شيد على حسب النماذج الهندوسية التى هى أقدم منه ، فهو لا يختلف عنها إلا بما أضيف إليه من الأقواس الفارسية .)

وإذا نظرتَ إلى تلك التماثيل من الناحيـة التشريحيـة وجدتها غير مُرْضِية وأبصرت فيها الأدلة على روح المغالاة العزيزة على الهندوس فترى الصدور والأوراك فى تماثيل النساء نامية نموًّا لا تشاهد مثله فى الطبيعة ، وترى الآلهـة ذات الأذرع الأربع مما يَـكْرَهُه الأوربىّ ، غير أن أكثر هذه الصور ذوات حَيَوِيّة شاملة للنظر ، فهى ، من هذه الناحية ، على خـلاف تماثيلنا المتصلبة الكئيبة المصنوعة فى القرون

الوسطى وعلى خلاف أكثر ما فى مصر ، وفى عالم الآلهة والأبطال والإلاهات التى تملأ المعابد أكثرُ الأطوار حياةً والأوضاع تنوعاً ، فيُخيَّل إلى الناظر إليها أنها توشك أن تنزل من قواعدها لتتقدم نحوه ، نَعَمْ ، إن المِنْقاش الإغريقيّ أدقّ وأضبط ، ولكنه ، فى الغالب ، أبرد .

ومن غير المفيد أن نُسْهِب فى القول عن التماثيل ، فعندى أن عَرْض صورة صادقة لها أفضل مما يقوم به نَقَدَةُ الفن ، فلعلّ القارئ الذى ينظر إلى صُوَر التماثيل التى نشرناها فى هذا الكتاب يصبح ذا رأى صائب فى الموضوع .

والباحث حينما يدرس صُوَر التماثيل التى اشتمل عليها هذا السِّفْر ويُدَقِّق فى التواريخ التى ذُكِرَت تحتها يرى ، لا ريب ، أن قيمة هذه التماثيل ليست بحسب أزمنة صنعها ، فبينما يَشْعُر برَوْعَة أقدمها ، أى برَوْعَة التى أقيم منها فى بهارت وسانجى منذ ألفى سنة تقريباً ، يرى رداءة ما أقيم منها فى جبل آبو فى القرن العاشر وحسنَ ما أقيم منها فى كهجورا فى القرن العاشر أيضاً ، وفيما أقيم منها فى معابد جنوب الهند حديثاً ما هو جميل وما هو كريه ، فالحقّ أنك لا تجد أثراً ظاهراً للتطور فى فنون الهند كما أنك لا تجد أثراً ظاهراً للتطور فى آدابها .

التصوير . — تَنْدُر التصاوير القديمة فى الهند مع كثرة الآثار القديمة المنحوتة فيها ، ولا تجد من التصاوير فى الهند غيرَ ما هو على حيطان معابد أجنتا التى أُنْشِئت تحت الأرض فى القرن الخامس من الميلاد[1] ، ولا تَناظُرَ فى هذه التصاوير وإن

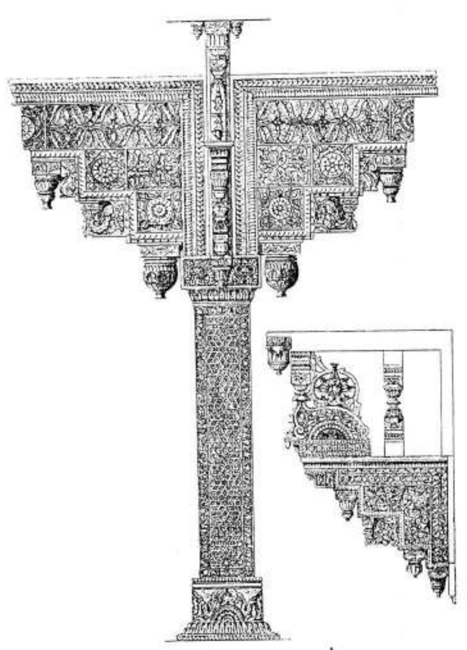
---

(١) لم تنقلت هذه التصاوير الممتازة المرسومة على الجدران من يد المرممين المحترفين مع تحديها الزمن ، فما عليه هؤلاء المرممون من قلة الحذق فى طلائها أسفر عن إتلاف لم تسفر عن مثله عشرة قرون ، فلما زرتها وجدت الطلاء يتقشر من كل ناحية جاذباً التصوير معه فرأيت أجزاء هذا التصوير تتراكم على الأرض .

أتقِنَ رسمها وكانت تُشِعُّ حياة كما هو ظاهر من الصور التي نشرناها لها ، وهذه التصاوير أفضل من التصاوير البيزنطية الباردة ، ولا شكَّ في أنه لم يكن في أوربة حين صنعها رسّام قادر على وضع مثلها .

ومن دواعي الأسف أن ضاعت التصاوير التي رُسِمَت في تاريخ متأخر ، وما في أقدم المخطوطات ، التي لا تَرْجِع إلى ما قبل المغازي الإسلامية ، من التصاوير لا يُجيز لنا أن نفترض أن الهندوس أصبحوا أرقى من أسلافهم بعد زمن ، وتخرّج الهندوس في العصر المغولي على رسّامي الفُرس فكان ما رسموه ابتدائياً عاطلاً من التناظر والانسجام مع ما فيه من دقة ، فالحقُّ أن الهند بتصاويرها وآدابها ظلَّت في حال من التطور مماثلٍ لِما كانت عليه أوربة في القرون الوسطى .

الفنون الصناعية (صنع الخشب والمعادن والحجارة الثمينة ، الخ) . — يُقْصَد بكلمة « الفنون الجميلة » ، على العموم ، فنُّ التصوير وفنُّ النحت وفنُّ العمارة ، ويُقْصَد بكلمة « الفنون الصناعية » بعضُ الصنائع ذاتِ الفائدة العامّة كالصِّياغة والنِّجارة والترصيع وما إلى ذلك من المِهَن التي تقوم على بعض المناهج الآلية ، بَيْدَ أن هذا التصنيف إذا كان ملائماً لِما في الغرب الذي يتدرَّج إلى العمل الآليّ فإنه ليس كذلك بالنسبة إلى صنائع الشرق التي تقوم على حِذْق العامل ، فما لا جدال فيه أن الفنّ مستقلٌّ عن تطبيقاته ، فتراني أعلم أن صنع إناء مُرَصَّع أو مِقْبَض خِنْجَر قد يتطلب من الفنّ والخيال ، مثلاً ، أكثر مما يتطلبه إنشاء بناء ذي خمس طبقات أو إنشاء محطة خطّ حديديّ ، فإذا اتخذتُ كلمة « الفنون الصِّناعية » عنواناً للفنون الحقيقية فلِمُجاراة التقسيمات التي اصْطُلِح عليها .



١٢٩ — أغرا . دقائق عمود حجري منقوش في القصر السابق

وما فى المُتْحَف الهندىّ بلنــدن من الآثار يجعل دِراسة الفنون الصناعيــة الهندوسية أمراً سهلاً ، و بلغت دِراسة هـذه الآثار من الكمال ما لا يُفيد معـه تفصيل موضوعٍ قتَله بِرْد وُود وأُجفالقى وكيلينغ وغيرهم من العلماء بحثاً وتمحيصاً، فنحن ، إذ نحيــل القارئ إلى كتب هؤلاء للوقوف على وصف تلك الآثار وصفاً صناعياً ، نقتصر فى هذا الـكتاب على البيان الإجمالىّ مُتمِّين له بِصُور مقتبسة مما فى المُتحَف الهندىّ ومما جلبناه فى أثناء سياحتنا فى الهند من الأدوات[1] .

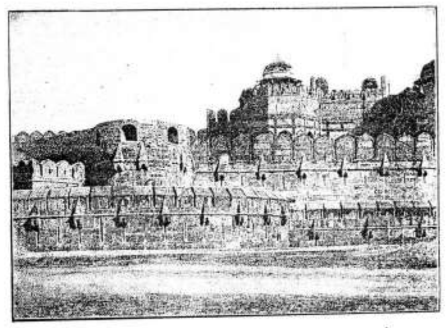
ومن أ كثر صِناعات الهنـد استعمالاً منذ أقدم الأزمان أذكر صِناعة المعادن فأضعها فى الصف الأول ، وعلى ما أدّت إليه الحروب والمغازى الـكثيرة التى كانت الهند مسرحاً لها ، لا ريب ، من نَدْرَة الأدوات القديمة لا نزال نملك من هـذه الأدوات بعض ما صُنِـع من المعدن قبيل الميلاد ، كالصُّندوق البُدِّهى الذى وُجِد داخل قُبة بُدِّهيّة بوادى كابُل مع نقود يُسْتَدلّ منها أنه أُنشِىء حوالَىْ منتصف القرن الأول قبل ظهور المسيح فنشرنا صورته فى هذا الـكتاب ، فهذا الصُّندوق قد صُنع، كأدوات تلك البُقعة ، على حسب الفنّ اليونانىّ الهنـدوسىّ الذى أوضحنا أصوله فى فصل آخر .

وحازت البِقاع المجاورة لـكابُل ، كـكشمير والپنجاب، قَصَب السَّبْق فى صِناعة الأدوات الذهبية والفِضية كما تدلّ عليـه النماذج التى نشرنا صُوَرها فى هذا السِّفْر ، وفى الهند يصنع القوم أدواتِ الذهب والفِضة والنحاس والبرونز بما يقضى بالعجب ، وفى الهند بعضُ المناطق ، كتانجور فى جنوب الهنـد ، اشتهر بصِناعة البرونز المُرَصَّع بالنحاس الأحمر والفِضة فنشرنا نَموذَجاً مُلَوَّناً لها .

---

(١) أردنا ألا نقطع سلسلة صور المبانى فوضعنا صور الأدوات الفنية بعدها .

والقومُ فى الهنـد ، إذ كانوا لا يستعملون القاشانىّ ولا الخزفَ المطلىّ بالميناء فى أمورهم المنزلية راغبين فى البرونز والنحاس ، تجِد صِناعة هذين المعدنين عندهم راقية، فتُبْصِر حُسْناً ، أحياناً ، فى بعض الآنية المستديرة المُخَصّرة فى أعلاها فتَصْلُح لحمل الماء وحفظه ، وما صُنِـع من هذه الآنية قديماً خيرٌ مما يُصْنَع اليوم فتراه اليوم نادراً إلى الغاية ، وفى المُتْحَف الهندىّ بلندن من هذه الأوانى ما يَرْجِـع تاريخه إلى القرن الثانى من الميلاد فصَدَر عن كولو مشتملاً على أطوار من حياة بُدّهة .



١٣٠ ــ أغرا . منظر القلعة المنوالية الخارجى (بدأ الملك أكبر إنشائها فى سنة ١٥٧١)

ولم يقتصر حِذْق الهنـدوس على صِناعة الذهب والنحاس والبرونز وحدَها ، بل كانوا ماهرين فى صِناعة الحديد أيضاً ، وذلك كما يظهر من العَمُود الحديدى الشهير الذى أمر بصنعه الملك دِهاوا فيُرَى الآن فى مسجد قطب القديم بدهلى ، فهذا العمود

قد أنشىء فى القرن الرابع من الميلاد ، ولم يستطع الأوربيون أن يصنعوا ما هو بضخامته إلا منذ زمن قريب بفضل ما انتهوا إليه من الوسائل الكثيرة التعقيد .

وصناعة ترصيع المعادن المعروفة بصناعة التكفيت ، وصناعة تلبيس المعادن تلبيساً جزئياً أو ترصيعها بالميناء الكثيف أو الشفاف(١) مما زاولته الهند منذ زمن طويل بإتقان لم يوفق الأوربيون لمثله قط .

وصناعة الحلي فى الهند ، وإن لم تنتج ما يلائم الذوق الأوربي ، تساوى بدقتها أهم ما يصنع فى أوربة لا ريب .

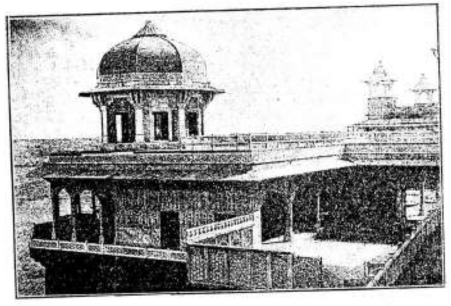
ويصنع الهندوس الزجاج وينحتون الحجارة الكريمة ، وفاق الأوربيون الهندوس فى ذلك ، لا فى صناعة العاج والخشب المرصع .

وتعد الأسلحة الفولاذية من أهم ما تنتجه الصناعة الهندوسية ، لا من حيث غنى زخرفها وجمال ترصيعها وحدها ، بل من حيث نوع فولاذها الذى طبقت شهرته القرون القديمة بأجمعها أيضاً ، وعند بردوود أن نصال دمشق الدائمة الصيت كانت تصنع من الفولاذ الهندوسي ، وامتدح كتاب الإغريق فولاذ الهند ، وكان يستحصل أجوده بالحديد المغنط .

ولم يلبث الهندوس أن انتحلوا جميع الصنائع التى عرفتها الأمم الفاتحة للهند فأتت بها من بلاد فارس أو من أوربة فحولوها كما أشرت إلى ذلك آنفاً ، ولا يزال القوم

(١) تألف من الأدوات المعدنية المكفتة أوالمطلية بالميناء ، ومن الصناديق الخشبية المحفورة ولاسيما صندوق ميسور الذى استوحى صانعو وجوهه تماثيل معبد هلابيد أهم الأدوات التى عرضت فى ساوث كنسينغتن سنة ١٨٨٦ .

يزاولون فى أغرا صناعة ترصيع الرخام الأبيض ، التى هى من أصل إيطالى ، بالحجارة الثمينة كالزبرجد والفيرُوز واليَشْب والعقيق والجَمَسْت واللازَوَرْد الخ . وفى أغرا بلغت هـذه الصِّناعة درجة رفيعة أيام ملوك المغول ، فكان هؤلاء الملوك يُلبِسون قصورهم تلك الزخارف ، ويمكن القارىء أن يدرك تأثير ذلك فى النفس من صورة داخل قصر ملوك المغول بدهلى .



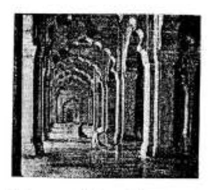
١٣١ — أغرا . قبة القصر المغولى الرخامية فى داخل القلعة (القرن السادس عشر من الميلاد)

ولا تزال الهنـد تصنع النُّسُج الحريرية والبُسُط والشالات بإتقان لم يتفق مثله للغرب إلا بمشقة ، بَيْد أن تقليد الأور بيين لهذه المنتجات الفاخرة و بيْعَهم ما يُقلِّدُونه بثمن بَخْس مما يُنْذِر بأفولها فى وقت قصير .

ومع أن القوم يمارسون صناعة الخَزَف فى كلّ مكان بالهند فإنهم دون الأور بيين فيها ، وتجد ، مع ذلك ، رَوْعَةً فى كثير من مصنوعاتهم الخزفية الملونة .

وذاع فنُّ ستر المباني بالزخرفِ المطليّ بالميناء في شمال الهنــد الغربي منذ الفتوح الإسلامية ، وأصلُ هذا الفن فارسيّ كما تشهد به أطلال أقدم القصور ببلاد فارس ، وقد استُبْدل طَلْيُ الجصّ بهــذا الفن في الوقت الحاضر كما تشهد بذلك الضرائحُ الملكية المصرية في غولكوندا مثلاً ، وليس في طِراز الزينة هذا ماهو متين مع أن الخزف المطليّ بالميناء لا يَبْقى ، وما تراه في جميع الشرق من سَــتْر المباني بالخزَف المطليّ بالميناء ، كما في جامع عمرَ بالقدس و بعض الأبنية بلاهور وقصر غواليار الخ ، من أروع ما يستوقف النظر ، فالمرء إذا ما أبصر من بعيد مُقدَّمَ تلك المباني المختلفةَ الألوان كقَوْس قُزَح ظَنّ أنه أمام قصر خياليّ شاده الجنّ ، ولا شيء يدل على فساد تربيتنا المدرسية التقليدية أكثرُ من عَطَلنا من مهندس أوربيّ يحاول اقتباس أسلوب الزُّخرُف العجيب هذا في قصر من قصور الغرب .

هنا نَختِم بحثنا في طِراز بناء الهندوس وسائر فنونهم ، فهذه الفنون ، التي نَبَتَت في شعب من الشعراء والمتفننين قويّ الخيال والمشاعر ضعيف العقل ، أسْفَرَت ، ذاتَ حينٍ كما في منام سحرى ، عن عالَم من القصائد العظيمة والنفائس الباهرة والخيالات الرائعة .



١٣٢ — أغرا . داخــل مسجد اللؤلؤ (أنشئ سنة ١٦٤٨) (يبلغ ارتفاع العمود إلى أســفل التاج نحو ثلاثة أمتــار و ٦٠ سنتيمتراً) (وجميع داخل المسجد من الرخام الأبيض ، وفيه مكتوب « لم ير مثله بناء منذ بدء العالم »)

لن يعود الإنسان إلى صنع مثل تلك الآثار العجيبة التي هي وليدةُ ماضٍ يتوارى

مقداراً فقداراً فى ضَبَاب الأجيال ، فيجب علينا أن نحتفظ ببعضها على الأقل ، و إن تنازعَ الجيـلِ الحاضر المادىّ فى سبيل الحياة تنازعاً قاسياً لا يترك للإنسان مجالاً يَرْجِـع به بصرَه إلى تاريخ أجداده فى بعض الأحيان ، فلْنَتعلم كيف نحترم هـذا التاريخ ، فتلك الضرائح والمحاريب الصامتة فى الوقت الحاضر وتلك التماثيل الطاعنة فى السِّنّ وتلك النقوش البارزة الصائرة إلى الخراب فيـكسرها المهندس بمِعْوله مستخفاً ليملأ الخنادقَ فيمدّ عليها خطاً حديدياً هى وثائقُ ماضٍ صدرنا عنه ولا نلبَث أن نَصِير إليه .

الباب السادس

الهند الحديثة

المعتقدات والنظم والطبائع والعادات



الفَصْلُ الأوّل

مِزاجُ الهِنْدُوسِ النَّفسِى

كيف يمكننا أن ننفذ فى مزاج الهندوس النفسى — فائدة البحث فى الأمثال والقصص الشعبية — هذه الآثار هى صدى تجربة الشعب — (١) القدر — مذهب الهندوس في القدر — (٢) الخلق — ثباته عند الهندوس — (٣) الحياة والهرم والموت — (٤) عوامل سير الإنسان — ترجع هذه العوامل إلى الخوف والطمع والجوع والحب — (٥) النساء — قسوة كتب الهندوس على النساء — خبثهن وعدم ثباتهن — (٦) العلم والجهل — الهندوس يضعون العلم فوق كل شىء — احتقارهم للجهل — (٧) الغنى والفقر — أهمية الغنى — الموت عند الهندوسى خير من الفقر — (٨) السلوك الواجب فى مختلف أحوال الحياة — مبادىء الأخلاق العامة — نتائج الفضائل والرذائل — سلوك الإنسان نحو الناس — كيف يتودد إليهم — فائدة المداهنة والاحتراز — الصلات ونتائجها — (٩) السياسة — سلوك الملوك نحو رعاياهم — وزراؤهم وعمالهم — وسائل انتصارهم على أعدائهم — (١٠) مصدر الاختلاف بين تعاليم الكتب الهندوسية وتعاليم الكتب الأوربية — الأدب عند الهندوس مستقل عن الديانة — العلائق بين الديانة والأدب فى أوربة .

رسمنا ، فى الفصل الذى خصصناه من هذا السِّفْر للبحث فى صفات أهمّ عروق الهند الخُلقية والعقلية المشتركة ، خطوطَ أخلاق الهندوس التى نشأت عن وَحدة البيئات والنُّظُم والمعتقدات ، و بيّنّا فى الفصول التى درسنا فيها تاريخ الحضارة نُضْجَ هذه النُّظُم والمعتقدات البطىء فى غضون الأجيال .

والآن نتقدم فى التحليل لِتَفَهُّم مزاج الهندوس النفسىّ فندرس الهندوسىَّ فى

مختلف أحوال حياته وفى تفكيره حَوْلَ أحد المواضيع وفى نظره إلى الحياة وفى مبادئ سيره ، وإن شئت فَقُلْ باطنه .

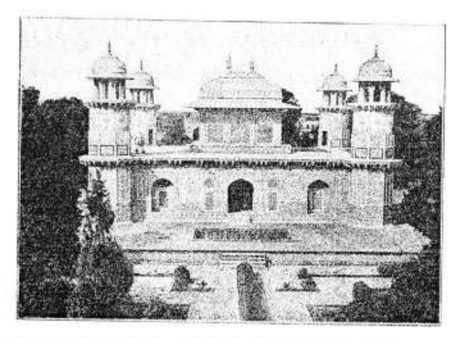
والحقُّ أن ذلك الباطن يبدو لنا من دِراسة الطبائع والنُّظُم والعادات ، بَيْدَ أن الهندوسيَّ دَوَّن فى كتبه منذ زمن طويل نتائج تجارِبه فى الحياة ، والحقُّ أن أخلاق الشعب تتجلى فى جميع آثاره ، بَيْدَ أنه يجب البحث عنها فى آثاره الأدبية على الخصوص .

وهذا القول لا يؤدى ، مع ذلك ، إلى الهدف الذى نسعى إليه الآن ، فالآثار الدينية والفلسفية تَصْدُر ، على العموم ، عن مؤلفين تَعَوَّدُوا العيشَ فى عالم خيالىّ بعيد من العالم الحقيقى ، أَجَلْ ، إن القصائد الحماسية الكبرى وليدةُ الهَوَى الخالص الذى نَبَتَ فى الأدمغة الهائجة المُرَدَّدة لصدى الأزمنة الناشئة فيها ، ولكنْ مع كبيرِ تحريفٍ ، ما أبدت لنا أشخاصاً مُغَالين فى مشاعرهم وأعمالهم ، وحَقًّا أن من الممكن أن يُستنبَطَ منها الشىء الكثير أحياناً ، ما دام الشاعر لسانَ العالَم الذى يحيط به ، ولكنْ على أن يكون ذلك مع تحفُّظ كبير .

ومن حسن الحظ أن بَقِيَ لدينا مصدرُ معارفَ خيرٌ من ذلك مُعَبِّرٌ عن أعمال الجماعة التى ظهر منها ، وأقصِد بذلك الأمثال القومية والأقاصيص الشعبية ، وليس من غيرِ سببٍ أن قيل إن الأمثال هى صَدَى تجاربِ إحدى الأمم ، فالأمثال تُعَبِّرُ بإيجازها وتَحَلُّلِها القاسى عن أخلاق العرق الذى نشأت عنه وعن طبائعه وأفكاره ، والأمثال تُكَرَّرُ فى كلّ مكان لملاءمتها لروح أبناء هذا العرق .

وللشعب الهندوسيّ القِدْحُ المُعَلَّى فى هذا النوع من الآداب ، فتجِد فى أساطير الهندوس وأقاصيصهم الشىء الكثير من الأمثال ، ولا تجِد فى أمثال الهندوس

مثل ما نُعاب به آثارهم الأدبية الأخرى من التَّرَدُّد والغموض ، وكيف تكون هذه الأمثال مبهمةً مذبذبة وهى تُعَبِّر عن الأفكار العامة تعبيراً شعبياً ؟ والأمثالُ لن تكون شعبية إلا إذا كانت واضحة موجزة معاً ، والأمثالُ لن تصبح أمثالاً إلا بعد أن تُحقِّق ألفَ مرةٍ وتتداولها الألسنُ طويلَ زمنٍ فتستقرّ على وجه مُعَيَّن .



١٣٣ ـ أغرا . مزار اعتماد الدولة (تم بناء هذا الأثر سنة ١٦٢٢ ، وأنشئ من الرخام الأبيض المرصع بالحجارة الثمينة ، ويبلغ ارتفاع مناوره نحو خمسة عشر متراً ، ولا يمكن قياسه بتاج محل من حيث أبعاده ، ونرى أنه يفوقه ببدع أشكاله وذوق زخرفه) .

إذَنْ ، نَتَّخِذ الأمثال دليلاً لنا فى دِراسة الروح الهندوسية ، ولن يَعْدِل هـــذه الأمثالَ مايَدُور حول هذه الروح من المباحث ، فالباحث مهما يكن حُرّاً لا ينظر إلى الأمور إلا من خِلال الأفكار التى ثبتت فيه بفعل البيئة والوِراثة والتربية .

ويقوم عملنا على اقتطاف ما يدور، كثيراً، حول موضوعات الحيـاة المعتادة، وعواملِ السَّيْر فى مختلف الأحوال، ومبادىء الأخلاق والسياسة الخ. وذلك من كتب الهندوس، ولا سيما من اليَنْچ تَنْترا والهِتوپَدِيشا، ثم تصنيفِ ذلك فى مطالبَ خاصة، ونحن لم نقتطف من ديوان مهابهارتا الحماسىّ والـكتب الدينيـة والاجتماعية كالويدا ومانوَا دَهرماشاسْترا الخ. غيرَ ما يَقرُب من الآراء الشعبية التى جاءت فى اليَنْچ تَنْترا والهِتوپَدِيشا فيُثْبِت قِدَم الآراء التى قيلت فى بعض الموضوعات، ومن هذا أن الأمثال الغريبة التى وردت فى اليَنْچ تَنْترا حول النساء أيَّدَتها تأملات المشترع الرزين مَنُو فى دُسْتُوره الدينىّ الذى ظلَّ شريعة الهند العليا عِدَّة قرون فَدَلَّ ذلك على أن تلك الأمثال شعبية، فالحقُّ أن إحدى الحقائق إذا ما صيغت فى قالَبِ مَثَلٍ أو حـكمة أمكننا أن نَجْزِم بأنها نَضِجت فى أجيال كثيرة.

وقد اقتصرنا على ما تقدم ليـكون مقدمةً للمختارات التى نَرَى تَجَلِّىَ الروح الهندوسية فيها، وقد صَنَّفْنا هذه المختارات فى المطالب الآتية :

المصير — الخُلُق — الحياة والهرم والموت — عوامل سَيْرِ الإنسان — النساء — العلم والجهل — الغِنَى والفقر — السلوك الواجب فى مختلف أحوال الحياة — مبادئُ الآداب العامة — السياسة.

١ — القـــدر

إذا جاوزتَ بِضْـع دَرَجات من دوائر الطول وجدتَ جميع الشرقيين من القائلين بالقَدَر، وهذه الجَبْرِيَّة مستقلةٌ عن دِيانة الشرقيين ما دمتَ ترى بينهم أمماً

تدين بمختلف الأديان كالنصرانية والإسلام والهندوسية الخ . وهذه الجبرية ، وإن لم تُدَوَّن فى العقائد الدينية على الدوام ، تُبْصِرُها مطبوعة فى النفوس ، والشرقيون جميعهم مُشْبَعون من المعتقد القائل إن الحوادث تسير على سُنَن ثابتة لا تنفع أمامها إرادة الإنسان ، فإذا سِرْتَ من الروسى الذى ينحنى أمام القَدَر قائلاً : «ما العمل ؟» فالمسلم الذى ينحنى أمام القَدَر أيضاً فيقول : « هذا مكتوب ! » فوَصَلْتَ إلى الهندوسى القائل : « لا يأتى ما لا يجب أن يأتى ، ويأتى ما يجب أن يأتى » وجدتَ جميع الشرقيين يَعُدُّون القدر سيداً مهيمناً ناظماً لأعمال الناس بحكم الضرورة ، وإليك أهمّ ماوَرَد فى كتب الهندوس عن ذلك المذهب من النصوص التى لا تُبْطِل حركتَهم كما أن جبريّة العرب لم تَحُلْ دون فتحهم للعالم القديم .

« لا يأتى ما لا يجب أن يأتى ، ويأتى ما يجب أن يأتى ، فى هذا تِرْياق سموم الهموم ، فلماذا لا نستعمله ! » (هِتُوبَدِيشا)

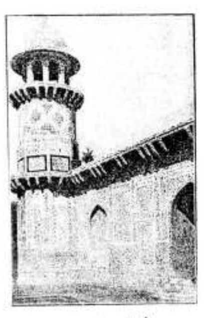
« كَتَب القدرُ على جباهنا سطراً من حروف ، فلن يَقْدِر أذكى العلماء أن يمحوه » (پَنْچ تَنْترا)

« قد يسقُط الإنسان من فوق جبل ويَغْرَق فى بحر ، ويرتمى فى نار، ويُلاعِب الأفاعى ، ولكنه لن يموت قبل أجله » (هِتُوبَدِيشا)

«النجاح فى الأعمال منوط بما يأمر به القَدَر ، وهذه الأعمال إذ نُظِّمَت بأفعال الناس فى حَيَوَاتِهم السابقة وبسلوكهم الراهن وأوامرُ القَدَر إذ كانت سِرًّا وَجَب على الإنسان أن يعتمد على وسائله فى السير . » (مَنُو)

« على الإنسان ألا يَكُفّ عن العمل ولو فَكَّر فى القَدَر ، فلن تَسْتخرِج سِيْرجاً من سِمْسِمَة بغير عمل » (هتوپديشا)

٢ — الخُلق



١٣٤ — أغرا ، دقائق زخرف إحدى منأور البناء السابق (يبلغ ارتفاع المنارة نحو ١٥ متراً)

قوةُ المُيُول الطبيعية التي ينْجُم عنها ثبات الخُلق سهلةُ الإدراك فلم تَغِب عن بال الهندوس ، فهى تنتقل إلى الإنسان بالوراثة فيأتى بها عند ولادته ، ولا تُؤدّى البيئة التى يعيش فيها الإنسان إلى تعديل مظاهر خُلقه ، ولا تَجِد اليومَ ما يستلزم التغيير فى ملاحظات الهندوس الآتية عن الخُلق إلا القليل :

« لا يُغَيِّر الأمر الطبيعيُّ بالمَشْوَرة ، فالماء الحارُّ يعود بارداً » (بَنْچ تَنْتَرا)

« لو أصبحت النار باردة وصار القمر مُحْرِقاً لأمكن تبديلُ طبيعة الناس فى هذه الدنيا » (بنچ تنترا)

« يجب اختبارُ المُيُول الطبيعية وحدَها ، لا الصفاتِ الأخرى ، فالواقع أن الطبيعيَّ يَغْلِب غيره من الصفات ويتبوأ مكانه فى الرأس » (هِتُوپَدِيشا)

« يَصْعُب على الإنسان أن يَتَغَلَّب على غريزته الطبيعية ، فلن تستطيع أن تَحُول دون قَرْض الكلب للأحذية ولو جعلته مَلِكاً . » (هِتُوپَدِيشا)

« يَدُلُّ فُقْدان العواطف النبيلة وغِلْظَة القول والقسوة ونسيان الواجبات على رجل وُلِد من أمّ جديرة بالاحتقار » (مَنُو)

« يَرِثُ الإنسان الذى هو من أصل ساقط طبيعتَه السيئة عن أبيه أو عن أمه أو عن كليهما ، فلن يستطيع إنسان كَتْم أصلِه . » (مَنُو)

٣ — الحياة والهَرَم والموت

يشتمل هـذا المطلب على آراء عامة فى الحياة وإدراك السعادة والهَرَم والموت ، وبعضُ هـذه التأملات قاتمٌ ، ولكن الحياة ، كما يبدو ، قد صُوِّرَت فيها تصويراً حقيقياً بعيداً من التفاؤل والتشاؤم فجُعِلَت أمراً لا يُستفاد منـه غيرَ ثانية ، فيَجْدُر بالإنسان أن يُسْرِع فى التمتع به ، والحياةُ على مافيها من البُطْلان تُؤَلِّف النعيمَ الأعلى الذى يرى حكماء الهندوس أن يُضَحَّى بكلِّ شىء فى سبيله .

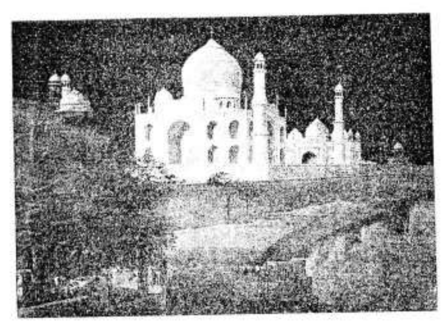
« يكون قارئاً لكلِّ شىء عالِما بكلِّ شىء ممارساً كلَّ شىء من يرغب عن الرغائب ويعيش بلا أمل » (هِتُوبَدِيشا) .

« من لم يحزنْ فى الضَّرَّاء ، ولايفرحْ فى السَّرَّاء ، ولايَخَفْ فى البأساء كان تِلْكَ العوالم الثلاثة ، فقلما تَلِد أمٌّ ولداً كهذا .

« الشبابُ والجمال والحياة والثَّراء والقوة والاجتماع بالأحباب أمورٌ زائلة ، فيجب ألّا تُزْعِج روح العاقل » (هِتُوبَدِيشا) .

« يجب على العاقل أن يُفَكِّر فى العـلم والغِنَى كما لو كان غيْرَ مُعَرَّض للهرم والموت ، وعليه أن يمارس الفضيلة كما لو كان الموت مُمْسِكاً بشعوره » (هِتُوبَدِيشا) .

« من ذا الذى لا يظهر طويلًا إذا نظر إلى تحته ، فالذين ينظرون إلى فوقهم فقراء على الدوام » (هِتُوپَدِيشا) .



١٣٥ — أغرا . تاج محل . (بدأ الملك شاهجهان بإنشاء هذا الأثر المبنى من الرخام الأبيض المرصع بالفسيفساء حوالى سنة ١٦٣٠ ، وذلك ليكون ضريحاً لإحدى نسائه ، وقام ببنائه عشرون ألف عامل فى ١٧ سنة ، وعد أجمل مبانى الهند ، وأرى أنه بولغ فى شهرته ، فشكله على الطراز الفارسى مع قليل من الزخرف الهندوسى ، وهذا إلى أنك تجد شبهاً بينه وبين المبانى السابقة كزار همايون الذى نشرنا صورته « رقم ١٤٥ »)

« تشرب الأفاعى الهواء وهى غير ضعيفة ، وتأكلُ الفيول البرِّيَّة الكلأَ اليابس فتصبح قوية ، ويعيش أكابر الزُّهَّاد بالجذور والفواكه ، فالقناعة أعظم ثَرْوَة للإنسان » (پَنْچ تَنْتَرا) .

« مَثَلُ من يقضى أيامه غيرَ متمتع بماله وغيرَ مُنْعِم بشىء على الآخرين كمَثَل

الـكِير[١] ، فهو يتنفس من غير أن يعيش » (هِتُوبَدِيشا) .

« ماهى الفضيلة ؟ هى الشعور مع جميع المخلوقات ، وما هى السعادة ؟ هى الصحة عند أهل الدنيا ، وما هى المَحَبَّة ؟ هى الإحساس الصادق الطبيعىّ ، وما هى المعرفة ؟ هى الإدراك » (هِتُوبَدِيشا) .

« العقلاء لا يَبْكون ما هَلَكَ ولا ما مات ولا ما ضاع ، فبهذا يختلفون عن المجانين » (پَنْچ تَنْترا) .

« لِيُتْرَكْ الفردُ للأُسرة ، والأسرةُ للقرية ، والقريةُ للبلد ، والأرضُ لنفسها » (پَنْچ تَنْترا) .

« على العاقل أن يحافظ على حياته ولو فى مقابل ولده وزوجه ، فالأحياء إذا ما صانوا حياتهم وَجَدوا كلّ شىء » (پَنْچ تَنْترا) .

« أيبقى ما يُنْتَحب من أجله إذا عاد الجسم المُرَكَّب من خمسة عناصر إلى البِنچتوَم[٢] ودخل المكان الذى خَرَج منه ؟ » (هِتُوبَدِيشا) .

٤ — عواملُ سير الإنسان

ليس عند حكماء الهندوس رأىٌ عالٍ فى عوامل سير الإنسان ، فالخوف والطمع والجوع والحبّ أهمّ تلك العوامل ، والغَلَبَة للخوف بين تلك العوامل ، فلذلك كانت العقوبة لدى مَنُو النّاظمةَ العُليا لكلّ مجتمع والقادرةَ على مَنْع الإنسان من الانحراف عن الواجب .

---

(١) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

(٢) البنچتوم : هى الأرض والماء والضياء والهواء والسماء (المترجم)

« العقابُ مهيمنٌ على البشر ، فمن الصعب أن تجد رجلاً فاضلاً بطبيعته ، فبالخوف من العقاب يمكن العالمَ أن يتمتّع بأطايب النعم » (منُو) .

« لا يُبْدى الإنسان محبة ولا عناية تجاه الآخر إلّا خوفاً أو طمعاً أو سيراً وراء عامل خاصّ » (پَنْچ تَنْترا) .

« تهجُر الطيور الشجرة التى نفدت أثمارها ، وتهجر الكَرَاكِيُّ الغديرَ الذى جفَّ ماؤه ، ويهجر النحلُ الأزهارَ الذابلة ، وتهجر الظباء طرفَ الغابة المحترقة ، ويهجر النُّدَماء الرجلَ الفقير، ويهجر الخدَمُ الملكَ المخلوع، فكُلُّكم طُلَّاب صَيْد» (پَنْچ تَنْترا) .

« الريح تصاحب النــار التى تحْرُقُ الغاب ، والريح تُطفِىء المِصْباح ، فمن يُصادِقُ الضعيف ؟ » (پَنْچ تَنْترا) .

« الإنسان لا يُحبُّ الآخر إلّا طمعاً فى نفع منه ، والآلهة لا تستجيب إلا بسبب ما يُقرَّب إليها من القرابين » (پَنْچ تَنْترا) .

« تدوم المودة بدوام الهِبات ، فالعِجْلُ يهجر أمَّه إذا نفِـد لبَنُها » (پَنْچ تَنْترا) .

« الإنسان ليس خادم الإنسان ، بل خادمَ المال ، فالمرء يكون وجيهاً أو غيرَ محترم بحسب غناه أو فقره » (هِتُوپَدِيشا) .

« الإنسانُ إذا كذب أو مجَّد من لا يستحق التمجيد أو هاجر إلى بلد أجنبىٍّ فإنه يفعل ذلك فى سبيل بطنه » (پَنْچ تَنْترا) .

« يسيطر الإنسان فى هذه الدنيا على جميع أفعاله ما لم تَسْحَر لُبَّه امرأة بكلامها » (بَنْشِج تَنْترا) .

« يصبح العقلاء والأبطال فى المعارك من البائسين أمام المرأة » (بَنْشِج تَنْترا) .

« يرى المرء ، الذى تُسَيِّره المرأة بكلامها ، غيرَ الجائز جائزاً والصعبَ سهلاً وغيرَ السائغ سائغاً » (بَنْشِج تَنْترا) .

٥ — النساء

لا تجد كتاباً أقسى على النساء من كتب الهندوس ، والهندوس لا يختلفون عن بقية الشرقيين فى النظر إليهن ، فالنساء عندهم مخلوقات ناعمات ، ولكنهن متأخرات متقلبات يجب حَجْبُهُنّ لنيل وفائهن ، وما صَدَر عن المشترع الرزين مَنُو ، الذى تسود شريعته الهند منذ ألفى سنة فنقلنا بعضه مع بعض ما صَدَر عن علماء كثيرين ظهروا بعده بمدّة قرون ، يُثبت عدم تبدُّل رأى الهندوس فى ذلك أصلًا » .

« مَنُو جعل قِسْمَة النساء فى حُبِّهِن لفراشهنّ ومقعدهنّ وزينتهن وفى هواهنّ وغضبهنّ وسَيِّئ ميولهنّ ورغبتهنّ فى الشرّ والدَّعارة » (مَنُو) .

« النساءُ ذوات طبيعة متقلبة تقلُّبَ أمواج البحر ، وللنساء مشاعر مذبذبةٌ لا تدوم أكثر من ساعة كسُحُب الشَّفَق ، فإذا ما قَضَيْن أوطارَهُنّ نَبَذْن الرجل الذى يصبح غيرَ نافع لهن نَبْذَ اللاك[1] بعد عصره » (بَنْشِج تَنْترا) .

« النساء يُكَلِّمْن رجلاً وينظرن إلى رجل آخر مضطربات ويُفَكِّرن فى رجل ثالث ماثل فى خَلَدِهِنّ ، فمن ذا الذى يُحِبّه النساء إذَنْ ؟ » (بَنْشِج تَنْترا) .

---

(١) اللك ، نقل نبات اللك ، وهو نبات يتخذون منه صمغاً .

« النساء متقلبات على الدوام ، ولا تَسْتَثْنِ منهنّ نسوة الآلهة ، فطُوبى لمن يُحْسِن حَجْب نسائه ، فالمرأة إذا كانت طاهرة فلرغبة الرجل عنها ، لا لحيائها وعَفافها وفضلها ووَجلها » (هِتُوپَدِيشا) .

« يتساوى المجنون والسرطان والنِّيلَج[1] والسِّكُور[2] والمرأة عناداً » (پَنْج تَنْترا) .

« لا تُنَال النساء بالعطايا ولا بالرعاية ولا بالإخلاص ولا بالعناية ولا بالقوة ولا بالمبادىء ، فالنساء مخلوقاتٌ جامحات » (پَنْج تَنْترا) .

« النساء كالبقرة التى تبحث عن الكلأ الجديد فى الغابة ، فالجديد ، الجديدُ ، هو ما يرغبن فيه » (هِتُوپَدِيشا) .

« حبُّ المرأة ينطفئُ بسرعة كوَميض البَرْق ، فالمرأة تتكلف حُبَّك مع تفكيرها فى غيرك ، والمرأة تَضُمُّك بين ذراعيها مع لَهَفِها على منافس لك على ما يحتمل ، ولِمَ تُريد مقاومة الطبيعة ؟ فالسِّدْرَة لا تُزْهِر فوق ذُروة الجبل ، والبغلة لا تَحْمِل أثقال الحصان ، والشعيرة لا تُنْبِت أُرُزّة ، فلن تجد الفضيلة فى روح المرأة » (سُدْهارْكا) .

« تَهْوَى المرأة الفاجرة رجلاً آخر على الدوام وتَرضى بذلك ، فلا تبالى فى سبيل هواها بسقوط الأُسرة ولا بعَذْل الناس ولا بالسِّجْن ولا بالمخاطرة بالحياة » (پَنْج تَنْترا) .

---

(١) النيلج : شىء يتخذ من نبات العظلم بأن يغسل ورق العظلم بالماء فيجلو ما عليه من الزرقة ويترك الماء فيرسب النيلج أسفله كالطين فيصب الماء عنه ويجفف — (٢) السكور : الكثير السكر.

« ما فى قلوب النساء لا يَجْرِى على ألسنتهن ، وما يجرى على ألسنتهن لا يسرى إلى الخارج ، فما فى الخارج ليس من صنعهنّ » (پَنْچ تَنْترا) .

« يصير المنزل إلى الخراب إذا كان أمره بيد امرأة ، أو وُجِد فيه مُقَامِر ، أو كان آمره صبياً » (پَنْچ تَنْترا) .

« على المرء أن يُقْلع عن الحبّ ، فإذا لم يُقْلع عنه وَجَب عليه أن يَقْصره على زوجته ، فهى وحدَها التى تستطيع أن تَشْفيه » (هِتُوپَدِيشا) .

« المرأة هى زوبعة الرِّيَب و بُؤْرَة السَّفَه ومدينة التَّهَوُّر ومستودع الذنوب و بيت الخِداع وحقل الظنون وزنبيل الطلاسم ، والمرأة هى السدُّ الذى لا يَنْفُذ منه أكابر الناس وذوو الدِّراية منهم ، والمرأة هى السُّمُّ الممزوج بالدَّلوك[1] ، فمن خَلَقها فى الدنيا لزوال الفضيلة ؟ » (پَنْچ تَنْترا) .

« يجب على الزوج العالم بخُلُق المرأة التى فَطَرها عليـه ربُّ الخَلْق حين برأ الكَوْن أن يراقبها مراقبةً وثيقة » (مَنُو) .

٦ — العلم والجهل

الهندوسُ يَضَعون العلم فوق الغِنَى والجهلَ تحتَ الفقر ، وليس فى العالَم أمةٌ قَدَّرت العِلم كالهندوس ، وتقدير الهندوس للعلم كان ، أيضاً ، فى زمن لم يكن الغربيون فيه غير برابرة ، وسيرى القارىء من التأملات الآتية أن الهندوس يَقْدِرون على تمييز الذكاء من العِلم المُكتسب ، فالعلم المقرون بالذكاء عند الهندوس هو طِلَّسْم سحرىٌّ يساعد الإنسان على القيام بأى عمل ، والمَلِكُ عندهم لا يساوى الحكيم .

---

(١) الدلوك : ما يتدلك به من طيب أو دواء .

« العلمُ أجمل زينة للإنسان لا ريب ، العلمُ كنزٌ خَفِيٌ ، العلمُ صديق رفيق فى الرِّحلات ، العلم منبع لا يَنْضُب مَعِينه ، العلمُ وسيلة المجد ورَوْنَق المجالس ، العلمُ هو العَيْن العليا ، العلمُ يُهَيِّىء لنا سُبُل الحياة فى الدنيا ، فلولا العلم لـكان الإنسان من البهائم » (هِتُوبَدِيشا) .

« العلمُ أطيب النِّعَم ، فلا يمكن نَزْعه من إنسان ولا شراؤه منـه ، فهو كَنْز لا يَفْنَى » (هِتُوبَدِيشا) .



١٣٦ — أغرا . ضريح الملكة فى داخل تاج محل

« الحكمة والملـكة غير متساويتين، فالملك إذا كان محترماً فى بلده فإن العالِم مُبَجَّل فى كل مكان » (پَنج تَنترا)

« العالِمُ يتصف بكل المحاسن ، وليس فى الجاهل سوى المساوىء ، فالعالم خير من عدة ألوف من الجهّال » (هِتُوبَدِيشا)

« لا ينال الإنسان العلم والثراء والفن نيلاً تاماً إلا إذا ساح فى الأرض مسروراً » (پَنج تَنترا) .

« الذكاء خير من العلم وفوق العلم، فمن كان غيرَ ذكىّ هَلَكَ » (پَنج تَنترا)

« ما هى فائدة المرء من العلم إذا كان عاطلاً من الذكاء ؟ وما هى فائدة المرء من المرآة إذا كان عطلاً من العينين ؟ » (هِتُوبَدِيشا)

« السهم الذى يَرْميه النَّبَّال يقتل رجلاً واحداً أولا يقتـله ، وأما ذكاء الحكيم فإنه يهدم بلداً مع رئيسه إذا ما أُطلق » (پَنْچ تَنْترا)

« أعظم الفقر فى قِلّة العلم . » (پَنْچ تَنْترا)

« الجاهل يهاجمه كلَّ يوم ألفُ غَمٍّ ومئةُ خَوْف ، ولا يهاجم الحكيمَ شىء من ذلك . » (هتوپديشا)

« لا يَلمع الجاهـل فى مجلس إلاَّ بثَوْبه ، ولا يلمع الجاهل إلا إذا امتنع عن الكلام . » (هِتُوپَدِيشا)

« خيرٌ لك أن تكون ذا ولد عالم من أن تكون ذا مئة ولد جاهل ، فالقمر وحده يكفى لتبديد الظلام مع أن الكواكب فى مجموعها لا تستطيع ذلك . » (هِتُوپَدِيشا)

« يَصِـل ذوو المحاسن إلى النور بمحاسنهم من غير نظر إلى أنسابهم . » (پَنْچ تَنْترا)

٧ — الغِنَى والفقر

من الصعب أن تَتّهم الهنـدوس بالمَلَق فى كتبهم ، فهم لا يعلنون احتقارهم للثَّروات ، كما جاء فى كتب الغربيين منذ القديم ، قولاً لا فعلاً ، فإذا عَدَوْت العلمَ الذى يضعونه فوق كلِّ شىء ، وجدتَ نَيْل الغِنَى غاية الحياة عند حكمائهم ، وهم يَمْقتون الفقر ويَرَوْن الموت أفضل منه ، وتبدو آراؤهم هذه مبالغاً فيها ، لا ريب ، إذا ما طُبِّقَت على حضارتنا الغربية ، مع أنها غيرُ ذلك فى العالم الذى ظهرت فيه ،

فأحوال المعايش لدى أمم الهند جعلتها لا تَعرِف غيرَ أقصى البؤس وأقصى الغِنَى ، وبلغ ما بين الفقر والغِنَى من التناقض مبلغاً لا أمل للفقير معــه أن يتخلص من فقره .

ويَهَب الغِنَى الحريةَ ويؤدى الفقر إلى العبودية ، وســترى من التأملات والنصائح التى ينطوى عليها هذا المطلب أن الهندوس ، على ما كان من استعبادهم فى كلّ وقت ، رأوْا مساوىْ العبودية ، فهــذه المساوىْ ، على الخصوص ، هى التى أوْحَت إليهم مقتاً شديداً للفقر .

« يرى بعض العقلاء أن المُلْك يقوم على الفضيلة والغِنَى ، ويرى آخرون أنه يقوم على اللذة والغــنَى ، ويرى بعضٌ آخرُ أنه يقوم على الفضيــلة وحدَها ، ويرى بعضٌ رابع أنه يقوم على الغِنَى ، غير أن النعيم يَتِمّ باجتماع هــذه الأمور الثلاثة . » (مَنُو)

١٣٧ — سكندرا . دقائق زخرف مدخل الحدائق القائم فيها مزار الملك أكبر ، وهذا المدخل مصنوع من حجارة حمر مستورة بفسيفساء رخامية ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ١٦١٣ ، ويبلغ ارتفاعه ٢٢ متراً .

« لا يَدَّخِر المرء وُسْعاً فى نَيْل الثَّراء ، فعلى العاقل ألا يَبْذُل جهوداً إلاّ للوصول إليه . » (پَنْچ تَنْترا)

« من كان غنياً كان ذا أصدقاء ، من كان غنياً كان ذا أقرباء ، من كان غنياً كان رجلاً فى الدنيا ، من كان غنياً عاش حقاً . » (پَنْچ تَنْترا)

« يبدو العدوُّ ، فى هـــذه الدنيا ، للأغنياء قريباً ، و يبدو القريب ، فيها ، للفقراء عدواً .

« من شأن الغِنَى أن يجعـل محترماً من هو غير جدير بالاحترام ، وأن يجعل مرغو باً فيه من يجب اجتنابه ، وأن يُمْدَح من لايستحقّ المدح . » (پنج تنترا)

« يُعَدُّ الشَّيب من الشُّبَّان إذا كانوا من الأغنياء ، و يُعَدُّ الشُّبَّان من الشِّيب إذا كانوا من الفقراء . » (پنج تنترا)

« من كان غيرَ غَنِيّ فى هذه الدنيا لم يكن رجلاً إلا بالاسم » (پنج تنترا)

« يتوارى شرف الإنسان وفخره وعلمه وجماله وذكاؤه إذا خَسِر ثروته .

« قد يقال إن الرجل سليم الحواسّ ، فهذا قولٌ فارغ ، وقد يقال إنه سـليم العقل، فهذا كلام فارغ أيضاً ، فالرجل ينقلب إلى رجل آخر فوراً إذا أضاع ثروته. » (هِتُوپَدِيشا)

« فَقْر الناس هو العَدَم المُجَسَّم ، هو بُؤْرَة الشرور ، هو ضَرْبٌ من الموت . » (پنج تنترا)

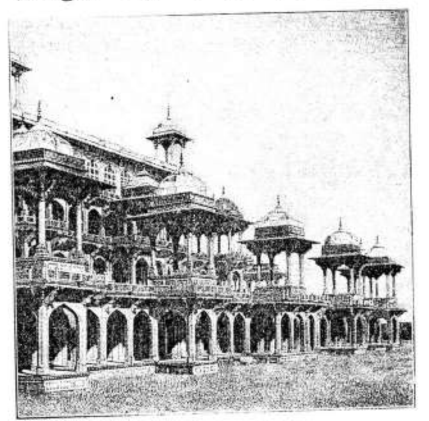
« قد تحتـاج إلى الصَّلْصال إذا كان خالصاً ، ولـكن الفقير لا ينفع لشىء فى هذه الدنيا » (پنج تنترا)

« يجب أن تخشى الفقر ، فهو عنوان العجز ، فلا يُعَدّ الفقـير إلاّ كلباً ولو قام بأحسن خدمة . » (پَنْج تَنْترا)

« لا تلمع صفات الرجل الطيب إذا كان فقيراً ، فالثروة هى التى تُنير الصفات كما تنير الشمس كلّ موجود . » (پنج تنترا)

« يتلاشى ذكاء الرجل المُعْسِر، مهما كان قوياً، في همّه الدائم من أجل القُوت والثوب .

« ولم يَلْبَث بيت الغنيّ الأنيق أن يصبح سَمِجاً إذا ما أعْسَر، فيبدو كالسماء بلا نجوم وكالحوض الذى جَفّ ماؤه وكالمقبرة الكريهة » (پَنْچ تَنْتْرا)



١٣٨ ـ سكندرا . مزار الملك أكبر بالهند

(لهذا البناء الذى هو على شكل أرصفة منضدة وضع خاص ، فنرجح أنه مشتق من طراز هندوسى سابق ، فلا نرى له شبيهاً فى غير پنج محل بفتح پور)

« يَفْقِدُ الرجل مقامه إذا افتقر ، ويغدو غير شريف إذا فقد منزلته ، ويصبح محتقراً إذا فَقَدَ شرفه ، ويَقِلّ عزمه إذا احْتُقِر ، ويقنط إذا قلّ عزمه ، ويَخْسَر عقله

إذا قَنِط، ويَهلِك إذا خَسِر عقله ، آه ، من الفقر الذى هو مصـــدر كلّ شرّ ! »
(هِتوِبَدِيشا)

« يموت الرجل العاقل غير مُتوجِّع ، بَيْـد أنه لا يرضى بالفقر ، فالنار ، وإن أمكنها أن تنطفىء ، لا يمكنها أن تَبْرُد . » (هتوبديشا)

« قيل إن الرأيَ تفضيـلُ الفقر على الموت عند التخيير بينهما ، مع أن الموت يوجب ألمًا خفيفاً والفقر يوجب ألماً ثقيلاً » (هتوبديشا)

« لا خير فى الحياة بغير استقلال ، فماذا تـكون الحياة عند التابعين لغيرهم إن لم تـكن موتاً ؟ » (هتوبديشا)

« لَأن يعيش المرء فى غابة ، أو أن يكون سائلاً ، أو أن يَـكْسِب عيشَه من حَمْلِه الأثقال ، أو أن يَمْرَض خيرٌ من أن ينال الغِنَى مع استعباد » (پَنْچ تَنْترا)

٨ — السلوك الواجب فى مختلف أحوال الحياة

نجمع فى هذا المطلب ونُقَسِّم بعض النصائح العملية حَوْل سلوك الإنسان فى الحياة ونتائج الفضائل والرذائل وحَوْل واجباته نحو أقرانه وما يجب عمـــله للتوفيق بين الناس ، وأنفعُ الصفات التى أُوصِيَ بها هى : البصيرة والاحتراز والثبات والاعتدال فى الرغائب ، وعُدّ الغضب أمراً حقـيراً لعدم فائدته ، وعُدَّت المداهنـة أمراً حسناً لفائدتها ، فمن هنا ترى أن الآداب الهندوسية نفعيةٌ إلى الغاية .

ونذكر مبادئُ الآداب العامة قبل النصائح التى تُطَبَّق على مختلف أحوال الحياة ، وتشابه هذه النصائح ما جاء فى كتب النصارى ، ولا سيما ما يدور حَوْلَ الحِـكْمَة

القائلة : لا تُعامِل الناسَ بغير ما تُحِبُّ أن يعاملوك به ، ولكننا لن نسهب كثيراً في بيانها ، فالذي يجب أن يُعْرَف هو ما يحافظ عليه الناس ، لا القواعدُ الأخلاقية التي تقول بها الكتب ، والفرق بين كلا الأمرين واضح ، وما نذكره في هذا المطلب من المقتطفات يكفي لِتِبْيان الأخلاق العملية عند الهندوس .

مبادئُ الآداب العامة

« أنصتوا لروح الفضيلة ، فإذا أنصتم ففكِّروا ، فلا تعاملوا غيركم بغير ما تُحِبُّون أن يعاملوكم به . » (پنچ تنترا)

« ينظر من لهم قلوبٌ نبيلة إلى نساء غيرهم كما ينظرون إلى أمهاتهم ، وينظرون إلى أموال غيرهم كما ينظرون إلى المَدَر[1] ، وينظرون إلى المخلوقات كما ينظرون إلى أنفسهم » (پَنْج تَنْترا)

« يمكن الناسَ أن يستعدُّوا بسهولة لوعظ الآخرين ، وأما ممارسة الفضيلة فلا يقوم بها سوى خِيار الناس » (هِتُو پَدِيشا) .

« يرى بعضهم أن الحكمة في اللسان كما عند البَبَّغاء ، ويراها بعض آخرُ في القلب كما عند البُكْم ، ويراها آخرون في القلب واللسان معاً » (پَنْج تنترا) .

« اللئيم يتبعه عمله ولو سار من ألف طريق ، والكريم يتبعه عمله ولو سار من ألف طريق أيضاً » (پنج تنترا) .

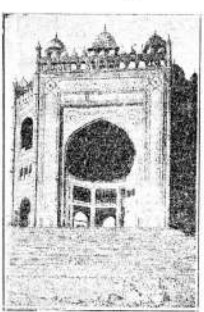
« يُؤْتِي كل عمل من أعمال الفكر أو اللسان أو البدن ثمرةً طيبة أو ثمرة خبيثة بحسب ما يكون خبيثاً أو طيباً ، وتنشأ أحوال الناس عن أعمالهم » (مَنُو) .

---

(١) المدر : الطين العلك الذي لا يخالطه رمل .

« قيمة الإنسان ، مهما كان أصله وطائفته ، بإخلاصه وضبطه لحواسه وزهده وإحسانه وكَفّه الأذى عن غيره وقيامه بالواجب قياماً دائماً » (مهابهارتا).

« من يزرع الدُّخْن⁽١⁾ يَحْصُد الدُّخْن ، ومن يزرع الشَّرّ يَحْصُد الشَّرّ » (مَثَل تَمُولِيّ).



١٣٩ ـ فتح پور . مدخل المسجد الكبير (يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠ متراً) (لا نجد ما كنا في فتح پور التي أراد ملوك المغول إنشاءها في غاية في القرن السادس عشر فاتخذوها عاصمة لدولتهم ، وتبدو قصورها المبنية من الحجارة الحمر سليمة ، ويعد المسجد الذي تدل هذه الصورة على مدخله من أوسع مباني العالم ، فيبلغ طوله ١٦٨ متراً ويبلغ عرضه ١٤٣ متراً ، فإذا ما استثنيت هذا البناء وجدت جميع مباني فتح پور قائمة على الطراز الهندوسي الخالص تقريباً)

« الأثمار التي يقتطفها الناس من شجرة خطيئاتهم هي المرض والكرب والغمّ والرِّقّ والبؤس» (هِتُوپَدِيشا).

« حَبِط عمل الأفاعي والأشرار واللصوص ، ولولا هذا ما وُجِد العالم » (پنج تنترا).

الحذَر والاحتراز

« يجب على الرجل العاقل الراغب في الغِنَى وطول العمر والسعادة ألا يَثِق بإنسان » (پنج تنترا).

« الضعفاء إذا ما حَذِروا لم يقتلهم الأقوياء ، والأقوياء إذا ما وَثِقوا قتلهم الضعفاء » (پنج تنترا).

« على المرء ألا يَثِق بعدوّ مقهور ولو صار صديقاً » (پنج تنترا).

« على العاقل ألا يُطْلِع أحداً على

(١) الدخن : نبات حبه صغير أملس .

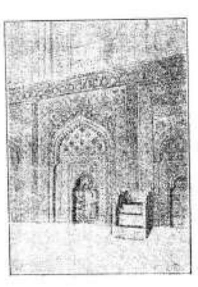
غِناه مهما كان ضئيلا ، فالغِنَى يُحَرِّك قلب العابد » (پنج تنترا) .

« الاستعانة بالقوىّ فى القتال يؤدى إلى موت الضعيف ، فالقوىّ يَظَلّ سـليماً كالحجر الذى يَـكْسر الفَخَّار » (پنج تنترا) .

« مَن تدخل فيما لايَعْنيه بحث عن هلاك نفسه بنفسه كالقرد الذى يقتلع زاويةً » (پنج تنترا) .

« على العاقل ألا يُضَحِّىَ بالـكثير من أجل القليل ، فمن الحـكمة أن يحفظ المرء الـكثير بالقليل » (پنج تنترا) .

« من يترك الأكيد من أجـل غير الأكيد يَخْسَر الأكيد وغير الأكيد » (هِتُوپَدِيشا) .



١٤٠ — فتح پور . محراب المسجد السابق (يبلغ ارتفاع قسم البناء الظاهر فى الصورة نحو تسعة أمتار)

« أربعـة أبواب تؤدى إلى الموت : العمل السيىء ومعاداة القريب ومنافسـة الأقوى والاعتماد على المرأة» (هِتُوپَدِيشا).

« العاقل من يتكلم عند ما يسأل عن حقه ، فالمتكلم بلاسؤال كالباكى فى الغاب» (پَنْـج تَنْـترا) .

« الأحمق الذى يخاطب صَيَّاداً يبذل جُهْداً غيرَ مجدٍ أو الذى يخاطب جاهـلاً شَقِيًّا يَلْحَقه عار » (پنج تنترا) .

« يندمل جُرْح من يصيبه سهم ويلتئم

جُرْح يُحْدِثه سيف ، بَيْدَ أن كلمةً مؤذيةً تثير عوامل الحقد فلا يبرأ جُرْح أوجبه قول » (پنج تنترا) .

الحلم والصبر

« من كان حاذقاً فى أمور الدنيا وجب عليه أن يعالج هــذه الأمور بحلم ، فلا خسران فى عمل تمَّ بحلم » (پنج تنترا) .

« الاتحاد أجمل شىء للناس ، ولا سيما مع الصديق ، فالأُرُزُّ إذا ما جَرَّدته من قشره لا ينْبُت » (پنج تنترا) .

« اجتماع الأشياء الصغيرة يؤدى إلى نتائج كبيرة ، فالليف المفتول يُقيِّد الفيل الهائج » (هِتُوپَدِيشا) .

كيف يتَوَدَّد الإنسان إلى الناس .

« يجب أن تعامل النــاس على حسب أخلاقهم ، فالعاقل إذا ما ألَمَّ بأفكار الآخرين حَكَمهم من فَوْرِه » (پَنْج تَنْترا)

« يجب على المرء أن يتَوَدَّد إلى البخيل بالمــال و إلى الشديد بالخضوع و إلى الجاهل بالحلم و إلى المتعلم بخلوص النية . » (پنج تنترا)

« يمكن المرء أن يتَوَدَّد إلى الصديق بنبيل العواطف و إلى الأبوين بالاحترام و إلى النساء والخَدَم بالهدايا والرِّعاية و إلى بقية الناس باللباقة . » (هِتُوپَدِيشا)

المداهنــة وسلامة الطوية

« سلامة الطَّوِيَّة أمر طيب لدى الزُّهَّاد المتبتلين إلى التأمل ، ولـكنها غير ذلك

عند الراغبين فى الثّرّاء والزُّلفى لدى الملوك على الخصوص » (پنج تَنْترا)

« لا يعيش الرجل الذى يكون صريحاً لدى النساء والعدو والصديق الخبيث .



١٤١ — فتح پور . منظر پنج محل
(يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً)

« يَرْتَدُّ الكَبْشُ لكى يَهْجُم ، ويَتَكَمَّشُ الأسد لكى يَثِبَ ، فالعقلاء إذ يتناجَوْن ويَكْظِمُون غيظهم يحتملون كلّ شيء عند إنعام النظر » (هِتُوپَدِيشا)

« لا يلبَث العاقل الذى يعرف خُلُق رجل عند المصاقبة أن يَسُوده . » (هِتُوپَدِيشا) .

الشجاعة والثبات

« عدم البدء أُولَى علائم الذكاء ، وإنهاء ما بُدِئ به ثانيةُ علائم الذكاء »
(پَنج تَنترا)

« النجاح بالأعمال ، لا بالآمال ، فالظباء لا تدخل فَم الأسد النائم »
(پَنج تَنترا)

« ما هو الحِمْل الثقيل لدى الأقوياء ؟ ما هى المسافة البعيدة لدى ذوى الإقدام ؟ ما هو البلد الغريب لدى المتعلمين ؟ من هو عَدُوُّ الحليم ؟ » (پَنج تَنترا)

« الرجل الثابت يَمْلو الآخرين فيصير مُحْتَرَماً ولو لم يكن غنيّاً ، والرجل الضعيف يُحْتقَر مهما كانت ثروته » (پَنج تَنترا)

« من يَقَع فى بؤس فيَكْتَفِ بالتَّوَجُّع لا يصنعْ غير زيادة بؤسه من غير وقوف عند حدّ » (پَنج تَنْترا)

الغضب

« الفيل ، مع عظيم قوته ، لا يغضب إذا لسعته نحلة باحثة عما فى صُدْغيه من الشراب ، فالقوى لا يغضب إلا إذا كان تجاه قوة تعدل قوته . » (پنج تنترا)

« غضب الضعفاء سبب تعسهم ، فالإناء الملتهب يحرق جوانبه . » (پنج تنترا)

« لما ذا يغضب الرجل العاجز عن إيقاع الأذى ، فالحمصة تثب من غير أن تكسر المقلاة التى تحمص فيها » (پنج تنترا)

« إذا نبح الكلب على جبل فأيهما يألم ، الجبل أم الكلب ؟ » (مَثَلٌ تمولىٌّ)

الحسد

« العلماء يمقتهم الجهلاء ، والأغنياء يمقتهم الفقراء ، والأتقياء يمقتهم الملاحدة ، والنساء الفاضلات تمقتهن النساء الفاجرات . » (پنج تنترا)

تحرى الصلات ونتائجها

« على المرء ألا يكون ذا صلة بمن لا يعرف قوته ولا أسرته ولا سيرته » (پنج تنترا) .

« قد تكون صداقة ونسب بين من تساويا ثروة وعرقاً ، لا بين قوى وضعيف » (پنج تنترا) .

« تكون الصداقة والألفة بين من تساووا ثروة وتربية ، لا بين من تبوأ مكاناً عليّاً ومن تبوأ مكاناً دنيّاً » (المهابهارتا) .

« الأحمق الذى يتخذ صديقاً فوقه درجة أو دونه مرتبة يسخر الناس منه » (پنج تنترا) .

« يجب على العقلاء أن يتّخِذوا لأنفسهم أصدقاء خُلَصاء ليُنْقِذوا أنفسهم من الشقاء ، فمن ليس له أحِبّاء لا يتغلب على البأساء » (پنچ تنترا) .

« حَتّى الشيطان يحتاج إلى خُلّان » (مَثَلٌ تَمُولِيٌّ) .

« لا رجل فى الدنيا أسعد ممن يحادث صديقاً و يساكن صديقاً و يذاكر صديقاً » (هِتُوپَدِيشا) .

« الظِّباء تبحث عن الظِّباء والأبقار تبحث عن الأبقار والأفراس تبحث عن الأفراس والأغبياء يبحثون عن الأغبياء والعقلاء يبحثون عن العقلاء ، فالصداقة تقوم على تشابه المحاسن والمعايب » (پنچ تنترا) .

« مَنْ يُقَدِّر الفضلَ يُحِبُّ صاحبَ الفَضْل ومن هو عاطلٌ من الفَضْل لا يُحِبُّ صاحب الفَضْل » (هِتُوپَدِيشا) .

« معاشرة الأشرار تُغَيِّر الأبرار ، فترى الفضلاء يجتنبون الخبثاء » (هِتُوپَدِيشا)

« يخسر الإنسان ذكاءه بمعاشرته من هم دونه ، فإذا عاشر أشباهه بَقِيَ مساوياً لهم ، و إذا عاشر من هم أفضل منه سار إلى الفضل » (هِتُوپَدِيشا) .

« يكون الحصان أو السلاح أو الكتاب أو الكلام أو المرأة أو الرجل طيباً أو خبيثاً بحسب المرء الذى يلاقيه . » (پنچ تنترا)

« لا تَعْرِفُ من الماء الذى يُصَبُّ على الحديد الحامى إلا الاسم ، فإذا استقرَّ الماء على وَرَق السِّدْر النّمع كاللؤلؤ ، و إذا سقط الماء على صَدَف تحت كوكبِ سَوَاتى تَحَوَّل إلى دُرّ ، فالحقُّ أن الطبائع الكريمة والمتوسطة والخسيسة تكون على حسب المجتمع الذى يُلازَم . » (پنچ تنترا)

٩ — السياسة

تَجِد فى كتب الهندوس إيضاحاً كاشفاً عن المبادىء الشعبية فى سياسة الناس وسلوك الملوك وواجباتهم ، ونقتصر على اقتطاف بعض مختارات منها فنرى أنها مما لا يَذمُّه مكيافيللى .

« تبدأ السياسة بالحلم وتنتهى بالعقاب » (پَنْج تَنترا) .

« إذا كان الملك لا يجازى من يستحقون الجزاء شَوَى الأقوياء الضعفاء كما يُشْوَى السمكُ على المِنْضاج[١] » (مَنُو) .

« لا يُحْتَرم من لا يَسْتَبِدّ ، فالناس يهابون الأفاعى أكثر من مُبيد الأفاعى غَرُودَا » (پنج تنترا) .

« يَخْسَر الملك الذى يَتَمَلَّقه طبيبه وأستاذه ووزيره صحتَه ومقامه الدينىّ وثروته » (هِتُوپَدِيشا) .

« إذا عهدتم بالسلطة إلى رجل خَدَمكم لم يُفَكِّر هذا الرجل فى العَيْب بكم ، فوزيرٌ كهذا يَشِيد بخِدَمه ويَمْزُجها بأمور الدولة » (هِتُوپَدِيشا) .

« يجب عدم إغناء الوزير مهما كان ، فقد قال الحكماء : الغِنَى يُغَيِّر أخلاق الإنسان » (هتوپديشا) .

« إذا ما ضُغِط الوزراء استفرغوا جوهرَ المَلِك ، فالوزراء كالدماميل ، فعلى ملوك الأرض أن يُؤْلِموا وزراءهم على الدوام ، أيُستَخْرج ماء ثَوْب الحَمَّام من يَعْصِره مرةً واحدة » (هِتُوپَدِيشا) .

---

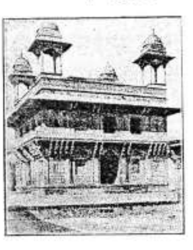
(١) المنضاج : السفود ، وهو حديدة يشوى عليها اللحم .

« قُتِل من لم يَقتل العامل الذى هو مثله ثَرَاء وقوة وذكاء وحزماً وسلطاناً » (هِتُوبَدِيشا) .

« يجب أن يكون سلوك الأمير الملكىّ والوزيرِ الأول وكاهنِ آل البيت والحاجبِ تجاه الملكة وأمّ الملك كسلوك الملك » (پَنج تنترا) .

« يجب على الأمير الحاذق فى السياسة أن يكون كالسُّلَحفاة التى تختفى بين طبقتيها العَظْمِيَّتَيْن فتقاوم بذلك صدمة عَدُوِّها ، فإذا ما لاحت الفرصة نَهَض كالحية المرهوبة » (هِتُوبَدِيشا) .

« يجب على الأمير ، ليَظْفَر بأعدائه ، أن يلجأ إلى التوفيق والفساد والتفريق معاً أو على انفراد ، وليَجْتَنِبْ قهرهم بالسلاح » (هِتُوبَدِيشا) .



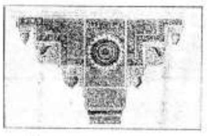
١٤٢ — فتح پور . خاص محل (يبلغ مجموع ارتفاع القصر من فوق الرصيف المبنى عليه إلى أعلى القباب ١٧ متراً)

لا يُقْهَر العدوّ بالسلاح كما يقهر بالحيلة ، فالمحتال لا يَغْلبه الأبطال مهما كان قصيراً » (پنج تنترا) .

لا مشيرَ أحسن من وارث عرش فى بَذْر الفساد بين الأعداء ، فعلى الأمير ألا يألُوَ جُهْداً فى رفع وارث عَدُوِّه » (هِتُوبَدِيشا) .

« يجب على من يَعْرِف قواعد السلوك الثلاث التى يجب اتباعها ، وهى : الفضيلة والمنفعة والرغبة ، ألا يكون عظيم الرحمة ، فلن يستطيع متسامح أن يحافظ على ما فى يده » (هتوبديشا) .

«وجب قتل العدو الضعيف قبل أن يصبح قوياً ، فالعدوُّ الضعيف إذا ما تقوَّى صَعُب قهره » (بنج تنترا) .



١٤٣ — فتح پور ، دقائق القدم الأعلى من عمود فى قصر الملكة بيربل

« يجب ألا يُحالَف العـدوّ ، ولو بأوثق العهود ، فالماء يُطفِىء النار مهما كان حارًّا » (هتوبديشا) .

« الأعداء الذين يُقتَلون بالسلاح ليسوا بالقَتْلى ، فقتْلى الأعداء هم الذين يُقتَلون بالحِكمة ، فالسلاح لا يَقتُل سوى البَدَن ، والحكمةُ تَقتل الأسرة والثروة والشُّهرة » (بنج تنترا) .

« تقوم الحرب على أمور ثلاثة : الأرض والصديق والذهب ، فعلى من لا يملك واحداً منها ألا يُوقِد حرباً » (بنج تنترا) .

« جيش صغير مُؤلَّف من جنود مُدَرَّبين خير من جيش عظيم مؤلف من أخلاط غير مُدَرَّبين ، فأرذل الجنود يُغلَبون ويُوجِبون هزيمة الشُّجعان فى الميدان » (هتوبديشا) .

« إذا ما نَشِبت الحرب وجب على الأمير أن يكون صارماً حتى تجاه من يُحبّهم حُبَّه لنفسه ومن يُحافظ عليهم ومن يرعاهم بعين عنايته » (بنج تنترا) .

١٠ — مصدر الاختلاف بين تعاليم الكتب الهندوسية وتعاليم الكتب الأوربية

سوف يقف القارئ ، الذى يطالع هذه الحِكَم بعد تلك الفصول التى كان للدين أبرزُ مكان فيها ، مشدوهاً أمام تناقض آراء الهندوسىّ فى اللاهوت والآداب ، فى

اللاهوت ترى تَجَلِّيَ خيـال الهندوسيّ تجلياً مُشَوَّشاً مُفْرِطاً ، وفى آدابه ترى ثمرة الحسّ العمليّ بأدقّ معنى و بأ كثره إيجاباً .

فبينا تُبْصِر السلطان لأخيلة أحبار الهنـد وشعرائها فى الحقول الوهمية ، فيفتح هؤلاء أبواباً لمستقبل أسْطُوريّ فيَعُدُّون كيان الإنسان كخردلة فى عالم الزمان فيضعون درجة من الـكمال لا تكاد تُبلغ إلا بألوف مُؤَلَّفة من التحولات التى تقع فى ألوف من القرون ، تَجِد علماء الأخلاق فى الهند يقولون بتمتع الإنسان بالحياة قبل كلّ شيء ويَرَوْن أن يُزِيل عنه كلّ هَمّ يُضْنيه وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها الطيبة وأن يبحث عن الغِنَى وألا يكون ساذجاً وأن يَحْذر النساء لأنهن أخطر الشرور بما يُوقِدْنه فى الأفئدة من نارِ الحبّ .

يَبْدو تَحَلُّل تعاليم الهندوس الخُلُقِيُّ مؤذياً لمشاعرنا ، ولـكن لا تَمَسّ قيام هذه التعاليم على تَفَهُّم الحياة تَفَهُّماً منطقياً ، فنحن ، وإن كنا نقول بمبادىء خُلقية سامية لا نُطَبِّقُ ، عند العمل ، سوى حِكَمٍ كتلك الحِـكَم الهندوسية .

وهذا التناقض الذى يبدو جَلِيّاً عندنا يُرَى مثلُه لدى الهندوس ، ولـكن العروق والبيئات والأزمنة جعلت هذا التناقض يظهر فى الهند بين الدين والآداب وجعلتـه يظهر فى أوربة بين الآداب المُدَوَّنة وأعمال الحياة العادية .

وإذا بحثت عن التناقض بين الذى نُعَلِّمه والذى نُطَبِّقه فيَنْفِر منه الشرقيون الذين يدرسون أمور أوربة وَجَدْته ناشـئاً عن مبادئنا الخُلقية ، وبيان الأمر أن الدين فى عصور الإيمـان كان مرتبطاً فى الآداب ارتباطاً وثيقاً فلم تَعُدّ الآداب فيها سوى تعاليمَ إلهية خالصة ، فلما تلاشت المعتقدات بَقِيَت الآداب سليمة مِثَالِيَّة ، أى أسمى مما يَقْدِر الإنسان على تحقيقه ، ولما زالت عنها صفتها الإلهية ، بذلك ، تَجَلَّى

البَوْن واضحاً بين الذى نُطَبِّقه والذى نشير إليه باسم الناس ، لا باسم الله .

والدين منفصل عن الآداب عند الهندوس فى كلّ زمن كما كان منفصلاً عند الإغريق والرومان ، أَجَلْ ، إن التعاليم الدينية تَنْفُذ ، كما قلنا ، جميعَ أعمال الحياة عند الهندوس لاريب ، غير أن هذه التعاليم القاطعة الخاصة بالطقوس والحجّ والصَّلَوات والقرابين الخ ، أى بسَيْر الإنسان نحو الآلهة ، لا تُبالى بسلوك الناس بعضهم نحو بعض ، فلم تقم الآداب الهندوسية على غير أساس العادة التى هى وليدة التجربة الناشئة عن مقتضيات الحياة ، وبينما تُبْصِر مَثَل الهندوس الأعلى قد ظلّ ضمن دائرة خارجة عن هذه الدنيا عامرة بموجودات قادرة على كل شىء غير مبالية بسوى واجبات الناس نحوَها ، لا بواجبات الناس بعضهم نحوَ بعض ، تُبصِر الحياة بادية للهندوس كما هى بخيرها وشرِّها ، فليست الأرض التى يَسْكنها الهندوسىّ ، بالحقيقة ، إلاّ جُثْوة تراب زائلة إذا ما قيست بالمساوف الساطعة اللامعة العامرة بالآلهة المرهوبة التى يراها بخياله عندما يطأ معابده أو يُقلِّب صَفَحات كُتُبه المقدسة .



١٤٤ — فتح پور . عمود مصنوع من الصوان المنقوش ويعرف بعرش الملك أكبر ويقوم فى ردهة استقبال الملك

وما بين سلوك الإنسان وآماله من التناقض يبدو ، إذَنْ ، عند الهندوسىّ كما يبدو عند الأوربىّ ، وإذا كان هذا التناقض أكثر وضوحاً عندنا فلأن

دائرتى مَثَلِ الهندوسىّ الأعلى ومَثَلِ الأوربىّ الأعلى مختلفتان ، ولو نظرتَ إلى ذينك المَثَلَيْن الأعْلَيَيْن من الناحية الفلسفية لوجدتَ أساسهما واحداً مع ذلك ، فأملُ السعادة الخلاّب البعيد الذى يسعى البشر لتحقيقه منذ قرون والذى تَعْرِضه على أعيننا مهامايا الخادعة ، أو الغَوَايَةُ الكُبرى ، هو العامل الحقيقىّ لجميع أفعالنا ولا حياةَ لنا بغيره ، فليس تأسيس الديّانات و إقامة الدول و إيقاد الحروب والثوّرات وفتح البلدان وكلُّ ما يُسَجِّل التاريخ سَيْره ، عند الفيلسوف ، إلا قِصَصاً لحوادثَ أتمها الإنسان سعياً وراء مَثَلٍ عالٍ دينىّ فى دَوْرٍ، وسياسىٍّ أو اجتماعى فى دور آخر، ومما لا ريب فيه أن المَثَل الأعلى الواجبَ الوجودِ والسيدَ المسيطر على أعمالنا والطَّيْفَ القادر على كلّ شىء يُغَيِّر مواضعه هنا وهنالك على الدوام ، ولكنه لن يزول إلا بزوال آخر إنسان ، ونحن ، مهما نَبْلُغ من درجات الشكّ ، لن نَغفُل عنه طَرْفَةَ عَيْن من غير أن نحكم على أنفسنا بالموت حالاً .

الفصل الثانى

ديانات الهند الحاضرة

آراء الأوربيين الحاضرة فى ديانات الهند ــ وجه الخطأ فيها ــ الفروق العظيمة بين مبادئ الهندوس ومبادئ الأوربيين الدينية ــ (١) الثالوث الهندوسى : برهما ووشنو وشيوا ــ لاهوتية هذا الثالوث ــ (٢) الشيوائية ــ قدم شيوا ــ رموزه ــ عبادته ــ (٣) الوشنوية ــ قدم وشنو ــ رموزه ــ تقمصاته ــ (٤) تنوع ديانات الهند ــ تحولاتها المستمرة ــ ينطوى اسم البرهمية الجديدة على مختلف المعتقدات ــ وصف هذه المعتقدات المشترك ــ كيف تؤسس المذاهب ــ (٥) أشكال ديانات الهندوس الخارجية ــ تقيد الهندوس بالشكليات فى أمورهم الدينية ــ التوبة والتقشف وتلاوة الكتب المقدسة والصلوات والحج والفرائض ــ (٦) الجينية ــ أصولها ونشوءها ــ مشابهتها للبدهية ــ (٧) مبادئ جميع أديان الهند العامة ــ الويدية والبرهمية والبرهمية الجديدة هى ديانة واحدة تتفرع منها البدهية والجينية ــ المبادئ المشتركة بين جميع ديانات الهند ــ (٨) الإسلام فى الهند ــ أهمية الإسلام فى الهند ــ فى الهند خمسون مليوناً مسلماً ــ كيف تحول الإسلام فى الهند ــ اقتباساته من أديان الهند الأخرى ــ نمو الإسلام المستمر فى الهند ــ (٩) تأثير الدين فى الأخلاق عند الهندوس ــ فصل الدين عن الآداب عند الهندوس ــ إذا نظرنا إلى الهندوس من الناحية الأوربية وجدناهم أكثر الأمم تديناً وأقلها آداباً ــ لا تبالى آلهة الهند بغير واجبات الناس نحوها ، لا بواجب بعضهم نحو بعض ــ تقوم التعاليم الدينية الأساسية لدى الهندوس على استمالة الآلهة بالعبادة ونقاء الطائفة ــ الأهمية القليلة لبعض الجرائم فى الهند ــ روح المحبة هى العنصر الأدبى الذى نفذ فى الهندوسى بفضل البدهية ــ صفات الهندوسى بسجيته لا بآدابه .

لم تؤدّ الجهود العلمية الحديثة إلا إلى إذاعة مختلّ الآراء حول ديانات الهند ،

ورأينا ، حين البحث فى البُدَّهية ، درجةَ اختلاف هذه الدِّيانات فى الحقيقة عما ورد فى الكتب ، وتفقد تعاريفنا الأوربية الصريحة المضبوطة قيمتها إذا أريد تطبيقها على تلك المعتقدات المتحولة على الدوام والتى نَبَتت فى الهند ولا تزال تَنبُتُ فى الهند فلم تَدُلَّ تسميتها بأسماء مشتركة على غير تشابه ظاهرى ، وتتحد المعتقدات المتناقضة فى نفوس الهندوس المذبذبة الخيالية البعيدة من المنطق اتحاداً لا نفهم أمره أبداً ، ويَسْجُد الهندوسىّ الذى يكتب ، مُعْتَقِداً ، تأملاتٍ فى الزندقة المتطرفة، أمام ألوف الآلهة الغريبة الغليظة المرهوبة أو يُقَبِّل باحترام أثر قَدَم بُدَّهَة وِوشنو ، ولا يقتصر أمر الأديان فى الهند على تواقها ، بل تَجِد بعضَ العقائد المتناقضة بجانب بعضٍ فى الدين الواحد ، ونحن إذ ندرس فى الهنـد نفسها شعائر أديانها نُدْرِك تلك المتناقضات الغريبةَ علينا واختلافَ معنى كلة « الديانة » عند الهندوسىّ وعند الأوربىّ .

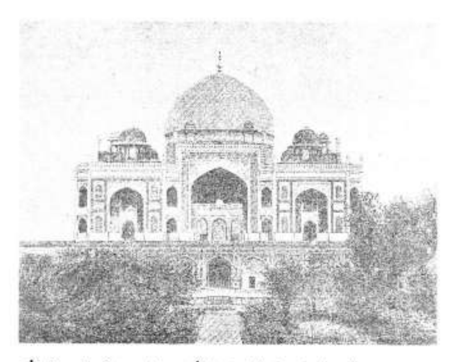
وتُشْتَقّ الديانات السائدة للهندوس فى الوقت الحـاضر ، نظريًّا ، من الديانات التى كان يعمل بها فى زمن الويدا وفى زمن مَنُو ما دامت تعترف بسلطان الكتب القديمة المقدسة ، ولكنك تجد فرقاً بين الديانة الموصوفة فى الفصول السابقة باسم الويديَّة والبرهمية والديانة الجديدة المعروفة بالبرهمية الجديدة أو الهندوسية التى ظهرت فى القرون الأولى بعـد المسيح فقامت مقام البُدَّهِيَّة مقداراً فمقداراً بابتلاعها إياها ، والبرهميةُ الجديدة هذه هى التى ندرسها فيما بعد .

١ ـ الثالوثُ الهندوسىُّ

تُقَسَّمُ المذاهب الكثيرة التى تتألف البرهمية الجديدة أو الهندوسية من مجموعها إلى دِيانتين سائدتين : ديانة شِيوا ودِيانة وِشْنو ، ويتألف الثالوثُ الهنـدوسىُّ من

هذين الإلٰهين الكبيرين اللذين يُقدِّس لهما الهندوسيُّ التقى مع برهما العظيم .

ومع أن برهما أقوى هذه الآلهة الثلاثة فإنه ليس له عُبّادٌ خصوصيون ، ولا تكاد تجد فى الهند معبداً خاصاً به ، وسببُ ذلك هو أن الدين لدى الهندوسى تصوريٌّ ماديّ ، فبينما تَعْمُر رموزُ شِيوا وتقمصاتُ وِشنو المعابدَ بالأشكال والصور لم يُمَثَّل برهما تمثيلاً ظاهراً ، بل يَظَلُّ برهما هذا الروحَ الكبرى التى تُلْمَس فتَهَب الحياة لجميع الخلق فيطمع الهندوسى أن يَفْنَى فيها .



١٤٥ ــ دهلى . العصر المغولى، مزار الملك همايون (أنشىء سنة ١٥٥٥) ، (بنى هذا الأثر من حجارة حمر مرصعة بالرخام الأبيض على رصف تبلغ جوانبه ٨٨ متراً)

ولكلٍّ إلٰه فى الثالوث الهندوسى نصيبهُ فى أمر العالم ، فأما برهما فهو البارىء ، وأما وِشنو فهو الحافظ ، وأما شِيوا فهو المُبيد ، ومع مناقضة شأن شِيوا الشأن الإلٰهَين

الآخرين فإن هـــذا لم يكن فى الحقيقة ، فليس فى الفلسفة الهندوسية موتٌ بالمعنى الصحيح ، فالإبادة والتحول فيهـا مترادفان ، فصورةُ الـكَوْن فيهما تتحول بلا انقطاع من غير أن تَفْنَى عناصرُها ، فشِيوا العظيم هو الذى يقوم بهذه التحولات، وهو ، لذلك ، مُنْعِمٌ كالإلهين الآخرينْ ، وهو ، لذلك ، ظهيرُهما الواجب الوجود .

ونحن ، حين نُنْعِم النظر فى شِيوا المرهوبِ ، إلهِ الإبادة والتحول الذى كانت تُقرَّب إليه الضحايا الدامية ، والقرابينُ البشرية أحياناً ، كما تُقرَّب إلى زوجته كالى، ندرك أنه أقدم مَنْ عَبَدَه الهنـــدوس وأنه يَظَلّ الإلهَ الراجح فى الثالوث البرهمىّ على ما يحتمل .

ولا تَجِد ، كالهنــدوس ، قوماً فَطِنوا إلى ما هو نِسبىٌّ وهمىٌّ متحول فى ظاهر الأشياء ، فعند الهنـــدوسى أن الذى يدركه الإنسان من الـكون ليس إلا مهامايا أو وَهْماً كبيراً ، والإنسانُ لا يُدْرِك جوهر الأشـياء أبداً ، وما يَشْعُر به من الطبيعة هو سلسلة التطورات التى لا أول لها ولا آخر ، وفى تعاقب العلل والمعلولات السَّرْمَدِىّ ذلك يُبْعَث الأموات ويموتون بعـد أن يُبْعَثوا ، ولـكن الموت والبعث هذين من الظواهر، وهما مظاهر لمجهول ثابت جوهراً مُتَحَوِّلٍ صورةً .

وقد أبصر الهندوس ، منذ قرون ، المهامايا ، ذلك الوهمَ الأبدىّ الذى يخدع عيوننا ويُقيِّد قلوبنا أو يُحْزِنها والذى يُخْفى حقيقةً يتعذر على الإنسان أن يَلْمُسها ، وعرَف الهندوس كيف يدركونه ويَعْرِفونه فى زمن اعتقد فلاسفة الغرب فيــه أنهم لَمَسوا المطلقَ ، فهنالك عظمة الفـكر الهندوسى البرهمى أو البدهى .

والشعب لم يبال ، مع ذلك ، بتلك التأملات الفلسفية الصادرة عن قليـل من

المفكرين كما قلنا ذلك حينما درسنا البُدهية ، فبَدَت هذه المُجَرَّدات التى لا تُدْرَك هَيُولِيَّةً لدى الشعب على الدوام .

٢ — الشِّيوَائِيَّة

شِيوا هو إله الإبادة ، وإن شئت فقل إله التحول ، هو إله الحياة والموت ، هو الإله الذى يُعَدّ عضوُ التوليد من صفاته الرمزية فتُقَرَّب له القرابين مع ذلك ، هو إله الجوهر الأصلى الذى تصدر عنه الموجودات والموتُ الذى يَحُلُّها ، هو إله الهندِ الحقيقيّ ومبدع عبقرية عرقها .

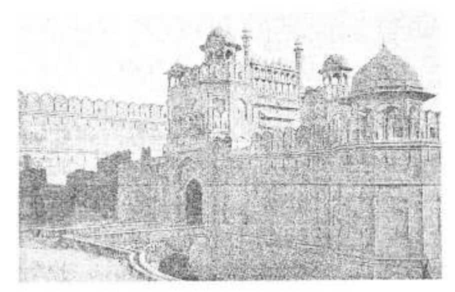
والإله شِيوا هو أقدم آلهة البرهمية الجديدة ، ويمكن عَدُّه متحداً هو والإله رودرا الذى ذُكِر فى الأغانى الآرية ، أى بإله الرياح الذى يأتى بالمطر وخِصْب الأرض ، ثم خُلِط بالإله أغْنِى ، وكان قدماء الآريين يَعُدُّون النار أصل الحياة التى تسرى فى جميع الموجودات فتَهَب لها الحياة فيعبدونها بحرارة ، وكان الآريون أولئك يَعُدُّون النار مُبِيدَة أو مُحَوِّلَة فيَرَوْن إبادتَها المادة تؤدى إلى تناسخاتٍ بعيدة الغَوْر .

وانتقل شأن الإله أغنى وصفاته إلى شِيوا فى البرهمية ، وظاهرةُ هذا الإله ذى الاسم الجديد وشعائرُ دينه مما ذكره ميغاستين فى القرون القديمة فشَبَّهه بديونيزوس الإغريق ، واتخذ القومُ رمزَ شِيوا ، وهو عضو التوليد ، حوالَىْ بدء التاريخ الميلادى لا ريب ، فلما قام محمود الغزنوى بمغازيه فى القرن الحادى عشر كان يوجد اثنا عشر معبداً مشهوراً لتقديس هذا الرمز .

وجُهَّال القوم إذ أُشْرِبوا حبَّ الوثنية بالتدريج جعلوا مما هو رمزٌ إلهاً حقيقياً ، فظهر المذهب القضيبىُّ الذى اتخذَ عبادةَ شِيوا فى صورة عضو التوليد موضوعاً له ،

فترى جميع معابدهم مملوءةً بهذا الرمز ، ويحملون عليهم تصاويرَ صغيرةً له من ذهب أو فضة على الدوام ، فيُقبّلونها بين حين وحين مُصلّين لها .

وكان مؤسس هذا المذهب بِسْوَا يعيش فى القرن الثانى عشر فيقول بإلغاء نظام الطوائف فنال نفوذاً كبيراً ، ثم تلاشت مبادئه بموته ، ولكنه ابتدع مذهباً قائماً على الذكُورَة متخذاً عضو التوليد إلهاً فظلّ هذا المذهبُ سائداً للدراويد فى ميسور ونظام وجميع جنوب الهند .



١٤٦ — دهلى . العصر المغولى ، مدخل قصر ملوك المغول (بدىء بإنشائه سنة ١٦٣٨)

ولم يلبث رمزُ عضو الاستيلاد فى النساء أن بدا فى تلك المعابد بجانب رمز عضو التوليد فى الذكور فصار الشيوائيون يُصلّون له ، ويمثل هذا الرمز زوجة شِيوا ، پَارْوَتى أو كالى ، أى إلاهة الحياة والموت والأمّ التى خرج العالم منها وإليها مَرَدُّه .

ولا تجد عبادة أدت إلى مناظرَ مخالفةٍ للذوق والأدب كعبادة كالى الهائلة .

وَسُرْعان ما أصبحت تلك العبادة مألوفة لدى أشد قبائل الهند جَلَفاً فاختلطت بعبادة إلاهة سكان البلاد الأصليين الزنوج الوحشية المُضَرَّجة ، وفى سبيل تمجيد هذه الإلاهة امتزجت الدَّعَارة بالقسوة فأريقت على مذابح معابدها دماء الضحايا البشرية الأخيرةُ التى أُبْطِل تقريبها فى الزمن الأخير إلى الأبد لدى الأهالى البراهمة ، ولا يزال يُرَى فى معابدها من الفَحْشاء والمُنْكر والدَّعارة ما يستحيل وصفه ، وأظهر ما يكون ذلك فى المعابد التى يتردَّد إليها الشِّيوائيون أصحابُ اليد اليسرى .

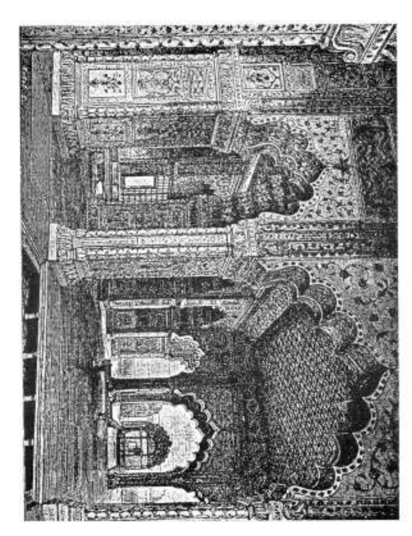
٣ — الوِشْنَوِيَّة

ليس الإله الأعلى وِشنو ، إلهُ الهندوس البراهمة الذين ليسوا من أتباع شِيوا ، قديماً قِدَم هذا الإله المنافس المرهوب ، ولوِشنو ذِكرٌ غالب فى كتب الويدا مع ذلك ، وعنه حَدَّث ميغاستين فشَبَّهه بهرقليس الإغريق .

ويجيب وِشنو عن احتياجات القلب الأبدية على حين يخاطب شِيوا الذكاء فيُعَدّ شِيوا هذا عنوانَ عبقرية الهندوسىّ فى تَفَهُّم الكون ، ووِشنو ذلك هو إله الحبّ والإيمان ، ويتطلب أتباع شِيوا عملاً لنيل النجاة وقهر الشَّهوات والتَّبَتُّل إلى شديد العبادات ، ومن أتباع شِيوا ، أوكالى ، تجد الزُّهّاد الحقيقيين مع ما تراه من السَّفَه فى أعياده .

وديانة وِشنو ، كديانة شِيوا ، لم تبقَ روحية رمزية ، والهندوسُ يرغبون فى الصور المنظورة ليعبدوها أكثر من أىّ شعب آخر ، فلم تُجْدِ نفعاً جهودُ المصلحين فى تفسير أديان الهندوس بما يلائم التوحيد ، فلا يزال الهندوس كما فى العصر الويدىّ يجدون فى كلّ شئ ما يعبدون فيَرَوْن موضوعَ عبادةٍ فيما لا يدركون فيَرْهَبون .

ولم تَخْبَط مجهودات براهمة الهندوس ومفكريهم فى ابتداع مذهب توحيدىّ فقط ، بل حَبِطَت ، أيضاً ، فى جمع هذا الاحتياج الدائم إلى العبادة فى إلهين كبيرين أو ثلاثة آلهة كبيرة ، أَجَلْ ، إن الشعب الهندوسىّ استمع لوعظ هؤلاء المفكرين ، ورَضِى بمذاهبهم طائعاً ، ولكن هذه المذاهب لم تلبث ، بعد أن نَفَذَت فيه ،



١٤٧ — دهلى ، ردهة الاستقبال فى قصر ملوك المغول .

أن تحولت وكثُرت وانقسمت واكتسبت مظاهرَ واكْتَسَت بألوان وحياة أى تجسَّدت .

وِوشنو هو إله واحد لدى الهندوس لا ريب ، بَيْد أن هـذا الإله اكتسب صُوَراً مختلفة يَتَعَذَّر تعريفها وعَدُّها ، فترى بين هذه الصُّوَر صُوَراً للفيلان والأبطال والإنسان والحيوان فضلاً عن كوكب الشمس الكريم القادر الذى اختلط به وِشنو منذ أقدم العصور .

وتُمثِّل تلك التَّقَمُّصاتُ ، المعروفةُ بأوتار وِشنو ، آلهةً كثيرة خاصة يُعْبَد كلٌّ واحد منها ، على الخصوص ، بحسب المكان والجيل والمقام الاجتماعىّ ، وتَرْجِع التقمُّصات الأساسية التى ذُكِرت فى الكتب المقدسة المعروفة فيُقدِّس لها الوِشنويون إلى عشرة فقط ، وأما التقمصات الأخرى فلا تَعْرِف قاعدة ولا حـداً لما يُولَد منها فى كلِّ يوم .

من أجل ذلك تُمْكِن دعوة الهندوس إلى عبادة أىِّ إله من غير خوف مهما كان هذا الإله رفيعاً أو غليظاً ، فالهندوس لايقاومون الداعىَ لما ظهر من أنهم أكثر شعوب الأرض تسامحاً ، ومن المحتمل أن يرْضَوْا عنه من غير صعوبة فيجعلوا منه فى الحال واحداً من تقمُّصات وِشنو .

ومن ذلك أنك ترى جهود مبشرى النصارى غيرَ مُجْدِية فى الهند ، فلم يلبث المسيح ، الذى لاتَبْعُد قِصته عن قِصة كِرشنا ، أن صار واحداً من تَقَمُّصات وِشنو ، فيُجيب الهندوس عن أدلة المبشرين بأنه ليس لدى المبشرين ما يتعلمونه ما دام الهندوس نصارى أكثر من النصارى ، ومن ذلك أن عَدَّ بعض الهندوس

ولىّ عهد إنكلترة من تقمُّصات وِشنو حينما زار بلاد الهند وأُحيط بضروب العظمة والجلال .

واثنان من تقمُّصات وشنو شعبيان فى الهند ، وهما يُعرفان براما وكِرشنا .

ولا نستطيع أن نُعيِّن تاريخاً صحيحاً لوضع ديوان الرامايَنا وديوان المهابهارتا اللذين مُجِّدَت فيهما أعمال ذينك البطلين راما وكِرشنا ، وأمرُ هذين الديوانين عند الهندوس مشابهٌ لأمر دواوين هوميروس عند الإغريق ، فهما مدار فخر الهندوس الأدبى ، وهما مصدر إلهام لا ينضُب لدى شعرائهم ، وهما منبع أساطيرَ لدى جماهيرهم المُولَعة بالخرافات .

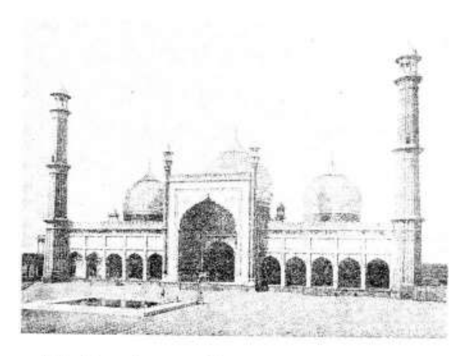
ووُضِع ذانك الديوانان المشهوران وعُدِّلا وزِيدا فى قرون ، فكانا موجودَيْن حينما مَجَّد الشعب بطلَيْه المنصورَيْن العظيمَيْن راما وكِرشنا فجَعَل منهما تقمُّصَيْن لوِشنو .

وليس مجد انتصارات ذينك البطلين (راما وكِرشنا) ، وحدَه ، هو ما أُعجِب به الهندوس بل أُعجِبوا ، أيضاً ، بما اتصفا به من الحلم والعاطفة والحبّ ، ولم ينشَب الحنان الحافل بالأسرار الذى كانت الأفئدة تهفُو به نحوَ وِشنو أن انقلب إلى حبٍّ بشرىٍّ حِسِّىٍّ حارٍّ قائم على الشهوة فى الغالب ، وذلك حينما أصبح موضوعَه صورتا ذينك البطلين (راما وكِرشنا) اللتان تُشعَّان حياةً .

وفى شخص راما يُمجَّد فاتح الهند وسيلان والغالبُ الذى تمَّ بفضله انتصار العرق الآرىّ ، ولكنه زوجُ سيتا قبل كل شىء ، وهذان الزوجان المخلصان العاشقان هما ، فى الوقت نفسه ، شِيوا وزوجتُه إلاهةُ الجمال لَكْشمى ، وما كانت عليه سيتا

من التّمس والوفاء وما أوحت به إلى راما من الحب الشديد مشاعرُ قويةٌ خَصِبَة أورثت الهند لِيناً ورِقّةً منذ قرون .

وإليك ما قاله فى هـذا الموضوع الكاتب الهندوسىّ والمفكر الحرّ السيد ملبارى فى كتاب نشره حديثاً بعنوان « كجرات وأهلها » فاستشهدنا به فى فصل آخر :



١٤٨ ــ دهلى . العصر المغولى ، صحن المسجد الكبير (عرض : نحو ٦٢ متراً ، ارتفاع المئذنة : ٤٠ متراً) (أنهى سنة ١٦٥٨)

« طُوبَى لذلك الشعب الذى اتّخَذ راما وسيتا مثلاً عالياً له ، طُوبَى لذلك البلد الذى يدفع ضريبة الإخلاص والتقديس لذينك الزوجين المنقطعى النظير ، ترى الصانع

الهَرِم الفَظّ وزوجته الساذجة الجاهلة وابنته الفتاة العَذْبة المِثالية يَسْكُبون دموع الوفاء حينما يتلو الكاهن ما تيسّر من الكتاب المقدس ، فطُوبى ، ثلاث مراتٍ ، لمن قَدَر ، وهو رجل ، على الارتقاء إلى مرتبة الوحي الإلهيّ فأبدع موجودين من الظَّرْف الرفيع . »

وتُعَبِّر الرامايَنا تعبيراً عالياً عن مَسَارّ الأسرة التي أتت في المرتبة الأولى لدى الآريين على الدوام ، فتجد في كِرشنا العاشقَ الكاملَ الغاوي الملتهب منذ صباه غراماً ببنات الهَوَى الكثيرات ففتن جميع النساء فكان ، مع راما الجميل ، أكثرَ أبطال الهند حُظْوَةً لدى الشعب .

وليست أسطورة كِرشنا الصبيّ بعيدة من أسطورة يسوع ، فكِرشنا هذا عزيز على جميع الأمهات الهندوسيات عِزّةَ يسوعَ الطفلِ على أمهات النصارى ، وما يأتيه النِّسْوة النواسك والبنات والأرامل من عبادة ذلك الإله العاشق عبادةً حارّة حافلة بالأسرار هو كعبادة نِسْوَة الغرب ، في الغالب ، لزوجهن السماويّ يسوعَ المصلوب .

وما في ديانة وِشنو من الغرام يأتي في الهند ذاتِ الجوّ المحرق وذاتِ السكان الملتهبي المزاج بنتائجَ مخالفةٍ للآداب الأوربية .

ونجد في كجرات ، على الخصوص ، بعضَ المذاهب القائلة بعبادة كِرشنا فيُدْعَى كُهّانُها بالمهاراجوات ، فمن أقصى آمال النساء هنالك أن يُصْبِحن عاشقاتٍ لكِرشنا أي لممثليه أولئك الكُهّان الذين يبيعون قضاء الأوطار بأعلى الأسعار ، فاسمع ما قاله في ذلك الكاتب الهندوسي السيد ملباري الذي ذكرته غيرَ مرة :

« قد يرى الأوربيون أن المهاراجوية خرافةٌ شائنة أو طريقة شهوانية ساقطة، بيْدَ أن ألوف الأُسَر الهندوسية ستظلّ رازحةً تحت نِيرها البهيميّ ما بقي هذا النّير مستتراً تحت رائحة الطُّهْر » .

٤ — تنوع دِيانات الهند وتحولاتُها المستمرة



١٤٩ — دهلي . العصر المغولي ، مزار صفدرجنك بالقرب من دهلي (هذا الأثر الذي أُنشيء سنة ١٧٥٤ هو آخر المباني المهمة التي أُقيمت في العصر المغولي ، وهو مبني من حجارة حمر مرصّعة بالرخام الأبيض) (يبلغ عرض هذا المزار ثلاثين متراً)

رسمنا خطوط دِيانة وِشنو ودِيانة شِيوا ، وأشرنا إلى العقيدة القائلة بالثالوث المؤلف من هذين الإلٰهين ومن برهما فبدَت أساساً لجميع المعتقدات .

ومن المتعذر أن نَصِف للقارئ جميع دِيانات الهند التي لا تكاد تحصى وأن نَصِف ما يعتور هذه الدِّيانات من التحول الدائم ، فليس بين هذه الدِّيانات ما هو ثابت ، وكلٌّ واحدة منها ترْجِع إلى أقدم القرون فتجدُ مصدرها في كتب الوِيدا ، نَعَمْ ، يجمعها اسم البرهمية الجديدة أو الهندوسية المشترك ، ولكنها بلغت من كثرة العدد والتنوع ما تُشبَّه بورق الشجر في غابة كبيرة ، وتميل كلُّها إلى التوحيد، ولا سيا أنها تشتمل على ألوف الآلهة وعلى أصنام حجرية وخشبية ، في الغالب ، ممثلةً لأغاظ الأدوات ، ويُشتقّ من كل واحدة منها أفكارٌ فلسفية تورث العجب

بِغَوْرِها البعيد ، كما أنك ترى فى كلٍّ واحدة منها أسخفَ الخرافات .

وإذا أردنا أن نلخصها فى مجموعها ببضع كلمات قلنا إنها تقوم على الآلهة البرهمية القديمة المؤلفة من قُوَى الطبيعة التى ألَّهَتْها كتب الويدا وشَخَّصها البراهمة، ثم جاءت البُدَّهِيَّة فألانت هذه الآلهة المزعجة الحاقدة القاسية وجعلتها رحيمة ، وتجد تأثير البُدَّهِيَّة ظاهراً فى جميع فروع البرهمية الجديدة لِما يَبْدو من تَسَرُّب روحها ذاتِ المحبة والرأفة فى كلٍّ مكان ، وضاعت البُدَّهِيَّة ، التى هى بشريةٌ بما تأمر به من المحبة والتى هى فوق البشرية بفلسفتها المجردة ، بأحد الأمرين وانتصرت بالأمر الآخر ، فحافظ بُدَّهَة على ألوهيته بين الآلهة الكثيرة التى تملأ المعابد مع تحوله إلى واحد من تَقَمُّصات وِشنو .

ويمكننا أن نستخلص من اختلاط المذاهب والآلهة ذلك ثلاثةَ خطوط أو أربعةَ خطوط أساسية عن عبقرية الهند الدينية ، وهذه الخطوط تدور حول كيفية تصور العالم وميل الروح إلى التوحيد وميلِ الخيال إلى



١٥٠ — دهلى (العصر المغولى) . ضريح من الرخام الأبيض فى داخل المزار السابق

الإشراك والتسامح المطلق والإخاء بين العقائد المتناقضة ، ألم يكن هذا التنوع الذى لاحَدَّ له تُراثَ قدماء الآريين ونتيجةَ ذهنية هذا العرق الذى يُؤثّر فيه منظر الطبيعة الدائمُ التحولِ والمملوء عظمةً وتبايناً ؟ .

ولا تجِد فى لغات الغرب الباردة المُتَّزِنة التى تُوصَف بها الآفاق الرائعة القائمة المُمِلَّة ، فى الغالب ، غيرَ ثلاثة نعوت أو أربعة نعوت صالحة لتعريف لون السماء

وشكل السحاب وحركة عين الماء ، حتى إن هوميروسَ نفسَه دلَّ بكلمة واحدة على نشاط أشيل أو جلالة جوبيتر (المشترى) فلم يتحول عن هذه الكلمة بجانب اسم كلِّ إله أو بطلٍ مصوراً له بمنظر واحد على الدوام .

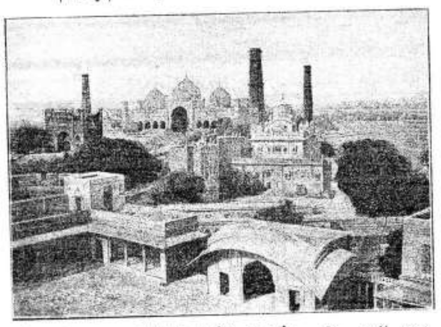
وغيرُ ذلك أمر الويدا ، فلا ترى فى كتب الويدا سحاباً واحداً ، بل ترى فيها ألوف السُّحُب من كلِّ الألوان والأشكال المتحركة أو الثابتة بحسب ما تبدو للشاعر فى السماء بالحقيقة ، وفى الويدا ، كما فى الطبيعة ، تقلبٌ فى لَهَب أغنى وأمواج سوما وجَرْى الرياح وألوان الشَّفَق والفجر والآلهة الكثيرة مادام كلُّ شىء إلهاً ، وتبصر مثل هذه الكثرة فى البرهمية الجديدة ما انقلبت مظاهرُ قُوَى الكون إلى آلهة هيولية .

وحينما يتمثَّل الهندوسىُّ المؤمن إلهَهُ على وجه من وجوهه وصفة من صفاته يكون قد ألِف بذلك مذهباً ، ولا يحتاج تأسيس مذهب إلى مؤسس برهمىّ ، ما أصبح أناس من الطبقات الدنيا من المصلحين فى بعض الأحيان ، فلا يكاد الحَبْر يجمع حولَه بعض المُريدين حتى يصيرَ زعيماً مرشداً ، وإذا لم يُقَيَّض لهذا الحَبْر أن يُفَسِّر مذهبه الخالص قام خلفاؤه المرشدون مقامه فى ذلك ، وقد يصير المرء مرشداً بالوراثة أو بالاستعداد ، ويكون المرشد فى الغالب من غير طائفة الكُهَّان ، ويبدو المرشد مُلْهَماً من الله فيتفق له نفوذٌ عظيم .

ونَعُدُّ مؤسسَ مذهب السِّك نانَك من أشهر زعماء الهند المرشدين وأجدرِهم بالذكر فى تاريخها ، فَنَانَكُ هذا وُلِد بالقرب من لاهور فى أواخر القرن الخامس عشر ، فخُيِّل إليــه أن يقيم دِيانةً قائمة على التوحيد جامعة للمسلمين والهندوس ، فكان له الأتباع من الجات التورانيين المقيمين بوادى السِّند .

داوم ذلك المذهب على الازدهار خلافاً لِما يحدث عادةً ، فلم يَمْضِ قرنان على

وفاة مؤسسه حتى نَظَّمه المرشد غووند سنغ تنظيماً عسكرياً فانقلب المذهب إلى شعب جسور غدا نذيرَ سوء على المغول و بدا مقاتلاً قوياً تجاه الإنكليز زمناً طويلاً ، ومما قلناه فى فصل سابق أن السِّك أضحَوْا عرقاً حقيقياً من أجمل عروق الهند بفضل ما قاموا به منذ البَدَاءة من الرياضات البدنية و بفضل تزاوجهم فيما بينهم .

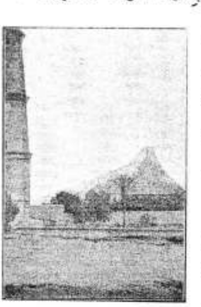


١٥١ — لاهور . منظر مسجد أورنغ زيب (أقيم فى القرن السابع عشر) ومنظر مزار رنجيت سنغها (أقيم فى القرن التاسع عشر) (التقطت هذه الصورة من أعلى القلعة)

أوردنا مثال السِّك لإثبات ما قد يُسْفِر عنه تأسيس المذاهب الدينية فى الهند من النتائج ، أجَلْ ، إن قليلاً من المذاهب يَصِل إلى ما انتهى إليه مذهب السِّك من الأهمية ، غير أنه عَقَب جميعَ هذه المذاهب قيامُ طوائفَ جديدةٍ لا يتزاوج أفرادها إلا فيما بينهم عادِّين جميع سكان الهند أجانبَ عنهم كالأوربيين ، والحقُّ أن هنالك أسباباً كثيرة تحول دون انصهار شعوب الهند فى أمة واحدة ذات يوم ، وانقسامُ أهل الهند إلى طوائف يكفى وحدَه لمنع حدوث هذا الانصهار .

ونذكر دِيانات سكان الهنـد الأصليين بجانب الدّيانات الـكثيرة التى جُمِعَت تحت اسم البرهمية الجديدة ، وقد قلنا بضع كلمات عن تلك الدّيانات فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى العروق ، ومن أظهر ما فى تلك الدّيانات عبادةُ جِنِّ الهواء وعبادةُ الحيوانات المؤذية كالأفاعى والأنمار ، ومما رأيناه فى نِلْغيرى وجودُ أقوام من الرُّعاة ، نذكر منهم البداغا والتودا على الخصوص ، يتخذون من أبقارهم وثيرانهم آلهةً ومن رُعاتهم كُهّاناً .

وقد أثَّرت تلك الدّيانات الوثنية فى البراهمة أنفسهم ، ومن ذلك الشأنُ الـكبير الذى تراه لعبادة الحيوانات فى جميع دِيانات الهند على الإطلاق ، والأفْعَى والبقرة أكثر هذه الحيوانات محلاً للاحترام ، فلا تَجِد فى الهند قوماً لا يُقَدِّسون لهما .



١٥٢ ــ لاهور. مزار رنجيت سنغها ومئذنة لمسجد أورنك زيب

وذبحُ البقرة أو قتلُ الحيَّـة من أفظع الجرائم عند بُدّهِيِّى نيپال وبراهمـة وادى الگَنْج ووحوش غوندوانا ، فترى صورة الأفْعَى بجانب تماثيل الآلهة فى جميع المعابد ، وترى الثعبان والقرد خاصَّيْن بِوِشنو ، كما أن البقرة والثور خاصان بِشيوا .

ويُعْبَد الإلٰه الشمس فى الهند منـذ القديم ، وتُمْزَج عبادته بجميع دِياناتها ، وكان الآريون يتقربون إليه بالأدْعِيَة والصلوات ، فشادوا بذكره فى أروع الأقوال ، وشَخَّصه

حَفَدتهم فى وِشنو كما رأينـا ، وتجِد من الآريين والدراويد والسكان الأصليين من يَدعون الإلهَ الشمسَ رأساً من غير أن يُشَخِّصوه .

٥ — أشكالُ دِيانات الهندوس الخارجية

يُحِبُّ الهندوس الصورَ والملائم الخارجية ، فهم شَكْلِيُّون فى ممارسة أديانهم مهما كان نوعها ، وتجِد معابدهم مملوءة بالرموز التى تشير إلى عضو التوليد وعضو الاستيلاد ، و بلغوا من الغُلَوَاء فى ذلك ما ترى أعمدة أشوكا حافلة معه برموز عضو التوليد ، وهم يَجِدون فى كلّ أسطوانة أو سارية أداة للاحترام والتقديس .

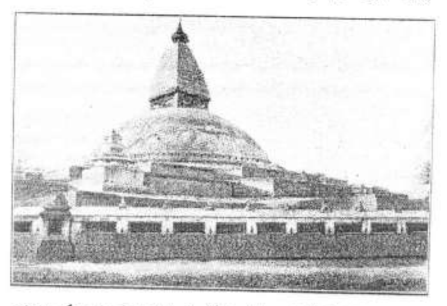
ومما يَجْلِب الثواب عنـد الهندوس النذورُ والتوبة والتقشف وتلاوة الكتب المقدسة والأورادُ والصلوات والحجُّ ، فيقومون بهذه الواجبـات خير قيام ، ولا ترى قوماً ، كالهندوس ، يتَشَدَّدون فى ممارسة الفروض الدينية .



١٥٣ — لاهور . مدخل رواق فى قصر المرايا (يرجع أقدم أجزاء قصر لاهور إلى عهد الملك أكبر وهى الآن صائرة إلى الخراب ، وقد بنى مدخل الرواق الظاهر فى هذه الصورة حينما كان رنجيت سنغها ملك لاهور)

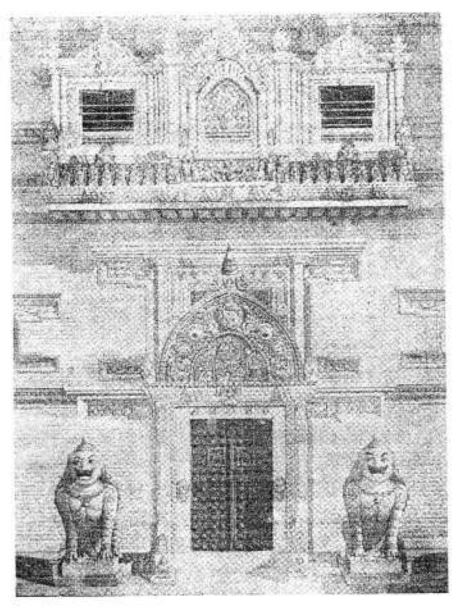
والرِّغويدا أكثر الكتب دِراسةً من قِبَل البراهمة والمؤمنين ، وينال من يتلوه ثواباً عظيماً ، وللغة السَّنْسكرتية التى كُتِب بها شأن كبير لدى الهندوس كشأن اللاتينيـة لدى الـكاثوليك وشأن العبرية لدى بنى إسرائيل ، ولا بُدَّ للأدعية عند الهندوس

من أن تُحفظ وتُكرَّر عن ظهر القلب عِدَّةَ مرات ، فتراهم يستعينون على ذلك بالسُّبُحات ، واستُعمِلَت النواقيسُ في المعابد البُدْهِيَّة على الخصوص ، ثم استُبدلت الأقراص النحاسية بها في المعابد البرهمية على العموم ، وكانت القرابين كثيرة فيما مضى فتألف منها أهمّ الشعائر الدينية ، ثم فَقَدت اليوم شيئاً كبيراً من سابق شأنها ، وما كان لِيُوضَع على مذبح وِشنو غيرُ الأزهار والأثمار ، مع أن القرابين الدامية ، ومنها القرابين البشرية في بعض الأحيان ، كانت تُقرَّب إلى شِيوا .



١٥٤ ــ بدهة ناتهه (نيبال) . منظر المعبد الكبير (يبلغ ارتفاعه نحو ٤٢ متراً ويبلغ قطره نحو ٩٠ متراً) (انظر إلى المطالب الخاص بفن البناء الهندى التبتى من فصل فن البناء للوقوف على تاريخ إقامة مبانى نيبال)

وكان للكهنة أهمية كبيرة ، وكانوا أعظمَ ثقافةً مما هم عليه في أيامنا ، وكانوا يفسرون للمؤمنين نصوصَ الكتب المقدسة الغامضة مجاناً ، وكانوا يمارسون في معابدهم الرائعة الطقوسَ ويُقرِّبون القرابين باحتفال عظيم .



١٥٥ ـ پتن (نيبال) . باب قصر الملك (مصنوع من البرونز)

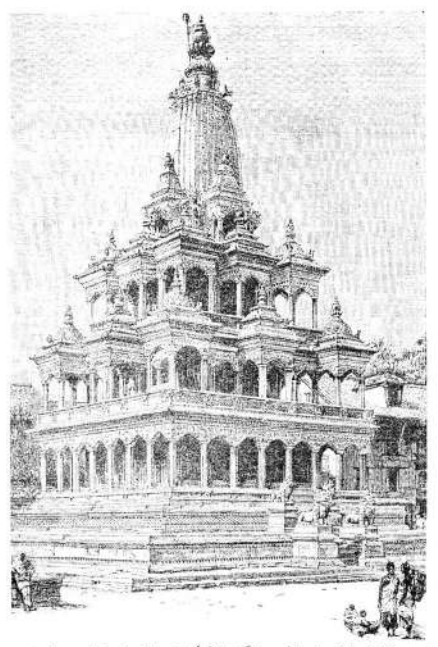
وكانت مظاهرُ الأُبَّهة في بعض المعابد المشهورة بالهند بادية ، وكانت أيام الأعياد الدينية تَتِمّ رائعةً ، ولا يزال الحجيج الذين يزورون بنارس وجَكَن ناتهه ومعابدَ جنوب الهند الكبيرةَ يُعَدُّون بمئات الألوف في كل سنة ، وداخلُ هـذه المعابد ، ولا سيما داخل ما هو قائم منها في جنوب الهنـد ، رائعٌ إلى الغاية ، وهو يُحَرِّك نفوس المؤمنين الذين يأتون من أقاصي البلاد تحريكَ احترامٍ ووَجَلٍ ليَضرَعوا إلى الآلهة المرهوبة .

وأماكن الحجّ الشهيرة مشتركةٌ ، في الغـالب ، بين الدِّيانتين الكبيرتين : الوِشنوية والشِّيوائية ، فيختلط أتبـاع تينك الدِّيانتين بعضهم ببعض في المواسم ، وغير قليل أن يحضر المسلمون هـذه المواسم عن تقوى ، لا للاستطلاع فقط ، فيُعَظِّم الجمهور بهم .

ولا مكان للحجّ في الهند أشهرُ من جَكَن ناتهه أو يوري الواقعةِ على شاطىء أوريسة ، ولا مكانَ في الهند يتجلّى فيه الإخاء بين أديان الهنـد واختلافها كذلك المكان الذي يُمَثِّل جميعَها فيـه ، فالهندوسيّ ، مهما كان دينه ، ومهما كان بُعْد البلد الذي يسكنه ، ومهما كانت مصاعب الرِّحلة ، لا يألو جُهْداً في زيارة جَكَن ناتهه مرةً واحدة في عمره .

ويقاسمُ وِشنو الكئيبَ المشؤومَ شِيوا عبادةَ الجمهور الذي يبلغ بتقواه الهائجة درجةَ الهذيان ويُسَيِّر الجمهورُ مركبَه أي معبدَه الدوّار ، وبلغ بعض متعصبي الجموع من الحماسة في غابر الأزمنة الابتدائية ما كانوا يُلْقُون به أنفسهم تحت عَجَله فَرِحين .

وفي الهند أماكنُ حَجّ كثيرةٌ أقلُّ أهميةً من بنارس وجَكَن ناتهه على العموم ، وتُعَدُّ ضِفاف نهر الغَنْج مقدسةً من منبعه إلى مَصَبِّه فيأتي المؤمنون إلى زيارتها من



١٠٦ ـ بتن (نيبال) . المعبد الحجرى الكبير القائم أمام قصر الملك (هذا المعبد هو الذى ترى قبابه في الصورة التي رقمها ٧ ، فهذا المعبد هو ، بالحقيقة ، من أكثر مبانى الهند بداعة ، وقد التقطنا جميع صور هذا الجزء من كتابنا بأنفسنا لتزيين ما نشرناه في مجلة « حول العالم » من أنباء رحلتنا في نيبال)

أقاصى البلاد ، وتُعَدُّ مياه الغَنْج مقدسة أيضاً فتُنْقَل بين مكان وآخر فى الهند بِأُجَر عالية ، ولا تخلو قصور بعض الراجوات من مقادير منها للغُسْل .

ذ كرنا فى وصفنا لطبيعة بلاد الهند ، وذلك حين البحث فى أنهارها ، أن الهندوس يَعُدُّون جميع مجارى المياه مقدسة ، ولا نهرَ فى الهنـد ، مع ذلك ، يَقْرُب من نهر الغَنْج تقديساً ، وتَرْجِع عبادة الينابيع والسُّحُب والرياح الموسمية فى الهند إلى أقدم العصور ، ومن الطبيعى أن يقوم الهندوس بهذه العبادة فى بلد الجفاف حيث يَجْلِب الماء معه الحياةَ وحيث يموت سكانٌ كثيرون حين يَقِل الماء .

٦ — الجَيْنِيَّة

خَصَّصْنا فى هذا الفصل مطلباً للجَيْنِيَّة التى تزعم أنها دِيانة مستقلة عن البُدَّهِيَّة والبرهمية و إن كان هذا الزعم لا يقوم على أساس صحيح .

فالحَقُّ أن الجَيْنِيَّة مشتقةٌ من تينك الدِّيانتين معاً ، فلها فلسفة البُدَّهية وطقوسُها وأساطيرها و إن فُصِلَت عنها منذ القديم فعاشت بعدها بسبب ما تَنَزَّلت عنه للبرهمية من الامتيازات .

ونجهل تاريخ الجَيْنِيَّة ونشوءها تماماً ، ونرى ، مع ذلك ، أنها مَثَّلَت دوراً مهماً فى أحد العصور ، ودليلنا على ذلك أن المعابد الجَيْنِيَّة التى شِيدَت فى القرن العاشر من الميلاد تُعَدّ من أجدر مبانى الهند بالذكر ، ونَجِد قبل إقامة هذه المعابد العجيبة آثاراً للدِّيانة الجَيْنِيَّة فى كتابات ميسور التى خُطَّت فى القرن الخامس من الميـلاد وفى مراسيم أشوكا التى ورد فيها ذكر لواحد من مذهبيها الكبيرين ، والجَيْنِيَّة هذه كانت دِيانة الدَّكَن فى زمن الحاجّ الصينىّ هيوين سانغ .

والجَيْنِيَّة قديمةٌ قِدَمَ البُدِّهِيَّةِ تقريباً ، ويجب عَدُّها فرعاً من البُدِّهِيَّة إلى أن يقوم دليل على خلاف هذا ، ولا شيء يدلُّ على أنها أقدم من البُدِّهِيَّة كما يزعم أتباعها .

ويعتقد الجَيْنِيُّون ، كالبُدِّهِيِّين، أزلية العالم، ويُنكِرون ، مثلَهم ، كلَّ خالق، ويختلفون عنهم في كيفية النظر إلى النِّروانا التي هي عندهم جَنَّةٌ حقيقية أو سعادة تَحظَى بها روح الإنسان ، لا فَنَاء .

ويرى الجَيْنِيُّون ، كالبُدِّهِيِّين ، أن النِّروَانا تُبلَغ بعد مجاوزة سلسلة من الكَيْنُونات تتدرج حلقاتها إلى الكمال حتى تنتهي إلى جَيْنًا الذي هو آخرها فيبدو لنا أنه متحد ببُدَّهَة ذاتاً .

والجَيْنِيُّون ، كالبُدِّهِيِّين الذين يقولون بِعِدَّةِ بُدَّهات بجانب شا كيهموني ، يَرَوْنَ جَيْنَاوات بجانب جَيْنًا على أن عددهم بلغ أربعة وعشرين جَيْنًا ، فهؤلاء (الـ ٢٤ جَيْنًا) هم آلهة الجَيْنِيَّة العليا .

ويرى الجَيْنِيُّون آلهةً وإلاهات ثانويةً بجانب أولئك الجَيْنَاوَات الذين بلغوا تلك المرتبة بتكامل متلاحق نابذين أثقال الحياة ، وتقول الجَيْنِيَّة ، من جهة العمل ، بتعدد الآلهة كالبرهمية ، فكان لِلجَيْنِيَّة مثلُ نصيب البُدِّهِيَّة من هذه الناحية، فهي مع قيامها نظريًا على الإلحاد كالبُدِّهِيَّة ، وذلك من ناحية التأملات الفلسفية ، لم تلبث أن استحوذت عليها آلهة ما ابتلعته من الأديان إلى حين .

ولم تَستطِع الجَيْنِيَّة أن تعيش على وِئام مع البرهمية التي هي دِيانة الهند القديمة بسبب اعترافها بالآلهة البرهمية فقط ، بل لإعلانها أيضاً نظام الطوائف الذي دحضته

البُدّهيةَ روحياً إن لم يكن زمنياً ، فلم يكن البراهمة ليقاتلوا ديانة تعترف بمقامهم القديم وتقول بأن من أهمّ الواجبات احترامَهم المطلق .

وطقوس الجَيْنِيةّ وأساطيرها نسخةٌ من طقوس البُدّهيةّ وأساطيرها ، فجَيْنا الأعلى مطابقٌ لآدى بُدّهَة الذى تقول به بُدّهيةُ نيبال ، وهنالك موافقة بينه و بين شا كيه مونى ولادةً وحياةً وظهوراً وأمراً ونَهْياً ، فهما متحدان ذاتاً ومعنًى و إن اختلفا اسماً .

والاعـتراف والنواقيس والحجّ مما تجده فى كلتا الديانتين ، وللرهبانية شأنٌ واحد فى هاتين الديانتين .

وللجَيْنِيةّ ، كما للبُدّهيةّ ، كتبها الدينية ، وهى ، مثـلُ البُدّهيةّ ، ترفض عدّ الويدا حُجّةً .

ولا تَجد ديانة تَعْتَدّ بالمعابد اعتدادَ الجَيْنِيةّ ، ولا تَجد ديانة شادت من المعابد الـكبيرة الغالية أعظم مما شادته الجَيْنِيةّ ، فالحقّ أن معابد كهجورا وجبل آبو الجَيْنِيةّ هى عجائب فنّ البناء فى الهند ، والحقّ أنه يُخَيَّلُ إلى الناظر فى أروقتها شبهِ المظلمة اهتزازَ قومٍ من الخلائق الغريبة المنقوشة على الحجر يُشِعّون حياةً ويكتنفون أحد الجَيْناوَات البادى هادئاً رزيناً متربعاً فى جلوسه على العموم، والحقّ أنك إذا عدَوْت الرموزَ التى تُميّزُ الجَيْناوات الأربعة والعشرين بعضهم من بعض اعتقدتَ وجود جَيْنا واحدٍ مَا مُثّل أولئك الجَيْناوَات عُراةً ذوى ملامحَ واحدة .

ورُسِمت على صدور الجَيْناوات وحولَ أعناقهم خطوطٌ مختلفة ، ونُقِشَت فى أكُفِّهم وتحت أخامصهم[1] إشاراتٌ خاصة على شكل السِّدْر أو الدولاب اللذين

---

(١) الأخامص: جمع الأخمص ، وهو مالا يصيب الأرض من باطن القدم ، وربما يراد به القدم كلها.

هما رمز دَهرما البُدّهيّ ، أى الشريعة والحياة .

وترى للجَيْنِيَّة أتباعاً كثيرين فى الهند ، وتبدو الجينيةُ مزدهرة فى الـكجرات وفى جميع شبه جزيرة كاتهياوار تقريباً .

٧ — مبادئُ جميع أديان الهند العامة

يَنْطَبِق وصفُنا الوجيز لديانات الهنـد على جميع الدور الذى دام من زمن بعث البرهمية الجديدة إلى أيامنا ، ولم تتغير طقوس هذا الدور منذ ألف سنة .

ويجب أن تطبق روح الوَحـدة ، التى لاحت لنا من خِلال تلك التموجات والاختلافات ، على جميع أدوار الدِّيانات فى الهند إذا ما وُفِّقنا لجعل القارئ يَلْمُسها ، فليست الويدية والبرهمية والبرهمية الجديدة ، بالحقيقة ، إلا ديانةً واحدةً تُعد البُدهية والجَيْنِيَّة فرعين لها .

ترى جميعُ أديان الهند أن الحياة شرٌّ ، وأن المادة مظهر حطيط لمبدأ الحياة ، وأن الطبيعة سلسلة تطورات دائمة ، وأن الآلهة والنـاس ظواهر باطلة ومظاهر وهمية للأصل الأعلى ، أى لبرهما العظيم ، وأن هذا الأصل الأعلى هو الله الواحد الذى يَهَب الحياة لجميع الموجودات وإليه يَصْعَد جميع الأديان ، سواء عليك أدعوته بأَغْنِى أم دعوته ببرهما أم ببُدّهة ، وأن الأجـداد والحيوانات وقُوَى الطبيعة والجنّ والغيلان والأبطال الذين يَتَقَمَّصهم لا يلبثون أن يصبحوا موضوعاتِ عبادة ثم أصناماً للجماهير، وأن الروح الخالدة تنتقل من موجود إلى موجود حتى تَفْنَى فى الأصل الأعلى ، وأن أفعال الإنسان فى هذه الدنيا تُقَرِّر أحوال كِيانه القادم .

ويَشْعُر القارئ بالفروق التى يُمَيِّز بهـا بين فروع الدِّيانة الهندوسية الثلاثة الـكبرى القديمة والحـديثة حينما يتمثّل الويديةَ وقُرْبَها من دين الطبيعة الفطرىّ ،

والبرهمية ومجرداتها وحقدها وشؤمها ، والبرهمية الجديدة وتشربها روح المحبة التى أسفر عنها الإصلاح البُدّهىّ ، وأما الشكليات فقد تغيرت ولا تزال تتغير ، فلم ينفكّ خيال الهندوس الخصيب ، الذى زادها كثيراً ، عن نشاطه فيُعَدّلها بلا انقطاع .



١٥٧ — بتن (نيبال) . عمود من الخشب المحفور فى أحد البيوت

٨ — الإسلام فى الهند

لدين محمد أتباعٌ كثيرون فى الهند ، فقد بلغ عددهم فيها خمسين مليوناً ، أى خُمس سكانها ، ولا يزال هـذا العدد يزيد بمن يعتنقون الإسلام فى كلّ يوم .

ولا شىء أسهل على الهنـدوسى من انتحال دين جـديد مع محافظته على دينه القديم فى الغالب ، فالهندوسىُّ مستعدٌّ بطبيعته لاعتقاد كل شىء ، والهندوسىُّ إذا ما رضى بآلهة جديدة لا يتضمن ذلك ، على العموم ، أنه ترك الآلهة القديمة ، وإنما يؤدى ذلك إلى زيادة عدد آلهته ، ويعمـل الهندوسى تارةً بأوامر آلهـةٍ وتارةً بأوامرِ آلهةٍ أخرى ، وذلك على حسب ما تمليه عليه حرفته أو طِراز عَيْشه أو إحدى المصادفات .

وكلما صَعِدْتَ فى سُلَّم الطبقات الاجتماعية وجدت الفروق واضحة ، فترى بين من هم على شيء من الثقافة مسلمين حقيقيين وبراهمة حقيقيين ، ولكنك إذا ما هَبَطْتَ إلى الشعب وجدت اختلاط تينك الديانتين فى بعض المرات اختلاطاً تاماً ، فتُبْصر محمداً والأولياء المسلمين آلهةً لها ما لآلهة الهندوس من الصفات ، وما أكثر ما تتبادل تانك الديانتان الطقوسَ جامعةً لأتباع مختلف المعتقدات أحياناً .

فانظُر إلى بُوهرا الكجرات الذين هم من الشِّيعة المسلمين والذين هم من سلالة قدماء الهندوس ، لا من سلالة قدماء المسلمين ، تَجِدْهم لا يعملون بتعاليم محمد إلا قليلاً ، وتشابه طقوسُهم بعضَ الطقوس الهندوسية مشابهةً تامة .

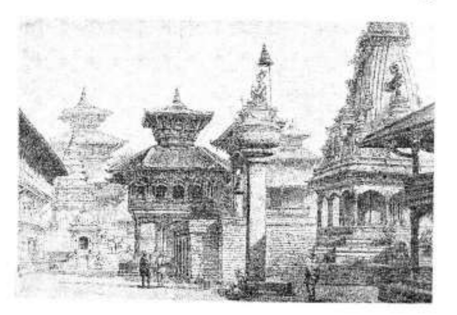
وأهلُ السنة ، الذين تتألف منهم أكثرية المسلمين فى الهند فيَعُدُّون أنفسهم على الإيمان الصحيح ، يزدرون الشِّيعة ، وما بين هاتين الفرقتين الإسلاميتين من الاختلاف فأكثر مما بينهما وبين الهندوس ، وهذا إلى أنك تشاهد انقسامهما إلى فرق صغيرة كثيرة .

وقولُ الإسلام بالمساواة من أهمِّ الأسباب فى تقدمه السريع ، فالحرص والرغبة فى رفع النِّير الثقيل عن الكواهل ممـــا يَدْعُ ملايينَ الناس إلى اعتناق دين النبيِّ طائعين مسرورين .

بَيْـد أن الدين الذى جاء به محمـد بسيطٌ عند قوم تعَوَّدوا عبادة آلهة كثيرة جداً ، فلذلك لم تنجح جميع الجهود التى بُذِلَت لحمل الهندوس على التوحيـد ، بل أدَّت إلى إضافة إلهٍ جديد إلى الآلهة التى كانوا يَعْبُدونهـا ، فالحقّ أن كثيراً من الهندوس المسلمين يؤَلِّهون محمداً ، ثم أخذوا يؤَلِّهون صِهْرَه عَليًّا ، وأن أبناء طبقات المسلمين الدنيا يؤَلِّهون كثيراً من الأولياء ، فيَخْلِطونهم بالآلهة البرهمية القديمة .

وخَلْطٌ بين المتقدات كهذا الخلط المُؤَدّى إلى أسخف الخرافات وإلى الوثنية ، أحياناً ، مما أوجب ظهور مصلحين لتطهير العقائد العامة وتحويلها إلى توحيد راق .

ذلك أمر كبير الذى ظهر فى القرن الخامس عشر فثار على القرآن والوِيدا فجَدَّ فى إقامة دِيانة روحية واحدة مقامهما ، وذلك أمرُ نَانَك مؤسس مذهب السِّك ، وذلك أمرُ رام مُوهَن رَاى الذى مارس دِيانة مقتبسة من النصرانية والإسلام والبرهمية ، وذلك أمرُ الملك أكبر المرتاب الذى خُيِّل إليه صَهْرُ دِيانات الشعوب التى كان يَمْلِكها .



١٥٨ — بهات غاوْن (نبال) . ميدان قصر الملك

نَعَمْ ، جَمَع أولئك المصلحون بعض الأنصار حولهم ، غير أن نجاحهم كان محدوداً على الدوام ، وهم لم يُوَفَّقوا ، فى الحقيقة ، إلا لزيادة أديان الهند عما كانت عليه من قبل .

و بدا الإســلام كما يزاوله القوم فى الهند ، متموجاً متحولًا على حسب الطابع الذى يتجلى فى جميع معتقدات الهندوسى الدينية ، ولم يُوَفَّق الإسلام لنشر المساواة بين جميع الناس فى البقاع الهندية التى يهيمن عليها فـكانت سبب دخول النـاس فيه أفواجاً ، فالمسلمون فى الهند يعرفون نظام الطوائف عملياً إن لم يَعْرِفوه نظريًّا .

واقتبس الإســلام فى الهند من البُدَّهِيَّة ومن البرهمية ، فمن ذلك أن جميع المسلمين يمارسون عبادة الذخائر العزيزة على البُدَّهِيِّين ، فترى عندهم شَعَرَاتٍ من لِحْيَة النبىّ كما ترى عنـد البُدَّهِيِّين شَعَرَاتٍ من شَاكِيه مونى ، ومن ذلك أن أتباع الدِّيانات الثلاث يُقَدِّسون لبعض آثار الأقدام بحسب ما يَرَوْنها لِقَدَم برهما أو بُدَّهَة أو محمد .

والخلاصةُ أن الإســلام عانى نفوذ أديان الهند القديمة أكثر من أن يُعَدَّلها ، وأنه ظلّ منتشراً فى وادى الغَنْج وفى كجرات على الخصوص ، وأن له أتبـاعاً كثيرين فى الدَّكَن ، وأنه لا يكاد يُفَرَّق عن البرهمية عند الدراويد فى الدَّكَن .

ولـكن المسجد الصامت العارى يُفْتَح فى جميع مدن الهند بجانب المعبد المملوء بالأصنام ، وكلما تَقَدَّمت الحضارة وتَنَوَّر النـاس زاد عدد المسلمين فيسفر عن لِين تعصب الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإله واحد فى ذلك القطر المملوء بالخرافات انحناء النفوس بالتدريج أمام جلال الله وعظمته .

حَقًّا أن فَتْح الإســلام للهند لَمَّا يَتِمّ ، وهو سائرٌ ، صامتاً بطيئاً ، على طريقه فلم يَقِف تَقَدُّمه سلطانُ إنكلترة النصرانية .

٩ — تأثيرُ الدين فى الأخلاق عند الهندوس

أشرنا فى الفصل الذى درسنا فيه مزاج الهندوس النفسىّ إلى الهُوَّة بين الدِّيانة والآداب عندهم ، وترانا نؤكد هـذا الأمر الذى يَعْسُر على الأوربيين إدراكه ، فالآداب ، أى قواعد السلوك عند الأوربيين اشْتُقَّت من الدِّيانة رأساً منذ قرون ، وبلغت الآداب من الارتباط فى المبادئ الدينيـة مبلغاً لا نـكاد نُبْصِر معه انفصالها عنها .

واستقلال الدِّيانة عن الآداب عند الهندوسىّ تامٌّ تقريباً ، وقيل عن الهندوسىّ ، بحقّ ، إنه كان أشدّ الأمم تديناً ، وإذا ما نُظِر إليه من الناحية الأوربية وُجِد ، بحقّ ، أقلّ الأمم آداباً على ما يحتمل .

أجَلْ ، إن نَيْل الحُظْوَة لدى الآلهة والتَّوَدُّد إليهما هما الغاية التى يسعى إليها الهندوسىّ فى أدقّ أعماله ، فلا تَغيب هذه الغاية عن عَيْنَيْه ثانية ، ولـكن العَجَب يعترى الباحث إذا عَلِم أن ما قيل له هو : أن الآلهة أقلّ العالَم اكتراثاً لصدق علائقه بالناس ولنَقَاء حياته وإخلاصه فى القول والعمل ، وأن تلك الآلهة القادرةَ على كلّ شىء أقلُّ الموجودات غَضَباً من أجل سَرِقته لمال جاره أو قتله لولده .

ويصبح الهندوسىّ عُرْضَة لانتقام الآلهة الشديد إذا تَرَكَ الصلاة أو الدعاء أو تلاوة الـكتب المقدسة أو لم يَحْضُر الاحتفالات الدينية أو ذبحَ بقرةً أو لم يَقُم بواجب الطهارة أو لم يَغْسِل يديه قبل الطعام أو لم يَغْسِل فَمَه بعده .

تلك هى الذنوب التى تُثِير سُخْطَ الآلهة ، وإذا نظرت إلى الشعائر الدقيقـة الـكثيرة التى يقوم بها الهندوسىّ فى أدقّ شؤون حياته وجدتَها قد وُضِعت لتمجيد

القُوَى السماوية ودفعِ غضبها ونيل بركتها وأن الهندوسيّ يرى صدورها عن الآلهة وأنها تشابه وَصَايا موسى عند النصارى وإن كان ستٌّ من هذه الوصايا من الآداب .

وقد كُرِّرَت الوصية : « أكْرِمْ أباك وأمّك ، لا تَقْتُلْ ، لا تَزْنِ ، لا تَسْرِقْ » تكراراً متصلاً باسم الله فيَعُدّ بعض الأوربيين عزوَها إلى الإنسان كفراً ، ولا تطالب الآلهة الهندوسَ بشيء من ذلك ، وهى تطالبهم بالقرابين والحجّ والتوبة والصلاة والقيام بمناسك الشعائر فى كلّ حين ، وأما غيرُ هذا فمن الأمور المادية النفعية العملية التى هى من شأن الإنسان وحدَه ، فلا تبالى الآلهة بها أبداً .

وكيف يروق أدبُ الحياة الآلهةَ التى هى عنوان قِلَّة الأدب ؟ لقد استهْزِئَ بجوبيتر (المشترى) الإغريقى الفاجر ، وبمِرْكُور (عطارد) اللصّ وبفِينُوس (الزهرة) البَغِىّ فلم تُطَالِب هذه الآلهة الإغريقية عبادَها بالأدب أيضاً ، فالحقُّ أن الأدب عند الإغريق ظلّ منفصلاً عن الدين أيضاً ، والحقُّ أن الآلهة عند الهندوس لم تُبَال بالطُّهْر والعَفَاف كما أن سكان الأولمبيا الإغريقية (الآلهة اليونانية) لم يبالُوا بهما .

وهنالك صنفان من الواجبات يسيطران على حياة الهندوسىّ وهما : الأوامرُ الدينية ، أى أمور العبادة ، والطهاراتُ التى هى من الواجبات الدينية مع أن لها مصدراً آخر ، فأما الصنف الأول فقد نشأ عن ضرورة التَّوَدُّد إلى الآلهة الهائلة القادرة على إثارة الأعاصير وإصابة الناس بضروب الجَدْب والأَوْبِئَة ، وأما الصنف الثانى فمصدره ضرورة التطهر من أناس من الطوائف الدنيا وقع عَرَضاً .

فمن مراعاة ذينك الصنفين الأساسيين (وهما استعطاف الآلهة بالعبادة وتوكيد

نَقَاوَة الطائفة) تتألف قواعد الآداب لدى الهندوس تقريباً وما فى شرائع مَنُو من القواعد فيُرَدُّ إلى ذينك الصنفين ، وما تراه فى الغرب من الواجبات الأدبية فصادرٌ عن الدين مع أنه لا علاقة له بالدين فى الهند .

وارْجِع البصرَ إلى شرائع مَنُو تجِدْ أن مخالفة أتفه الشعائر يُعَدّ لدى الهندوسىّ جرماً عظيماً لا يُكَفَّر عنه إلا بضروب التعذيب وبالقتل فى الغالب ، وأنه يمكن السارقَ والقاتلَ أن يُكفِّرا عما اقترفا بالتوبة والاستغفار .

وإذا عَدَوْت زِناء الأزواج الذى يُهَدِّد كِيان الاسَر والعرق تهديداً عظيماً رأيتَ جميع الذنوب الحسية قليلةَ الخطر لدى الهندوس ، فما يمارسه الهندوس من العبادات الشهوانية يَدْعُهم إلى التَّحلُّل دَعًّا ، ولا ينقلب الغرام إلى جرم إلا إذا كانت الطائفة الدنيا محلَّه .

ويَتَوَقَّف جرم القتل على صنف المَجْنِىّ عليه ، فإذا كان المجنىُّ عليه بقرةً أو برهمياً كان الجرم عظيماً ، ويكون الجرم من الصغائر فى أية حالة أخرى ، وترى أنواعاً للقتل لا تُعَدّ من الآثام كقتل البنات .

وليست آداب الهندوسى ضعيفة فقط ، بل إن ماليديه منها خاصٌّ بالذين يُولَدُون مرتين ، فما على الشُّودْرِىّ سوى الخضوع المطلق .

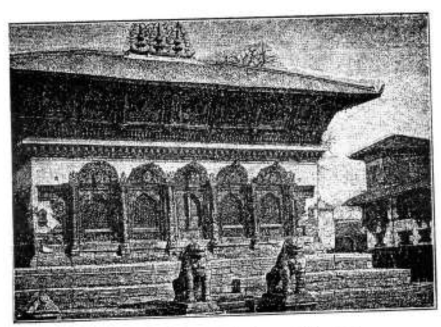
قال الأُسقف إيبر : « يجب على الشُّودْرِىّ أن يجتنب الذنوب الآتية : ذبحَ بقرة وإساءةَ برهمىّ وتركَ إحدى الشعائر التافهة التى تُستعطف بها الآلهة كما يُفترض » .

وتختلف تلك الآداب الهزيلة بحسب الطوائف ، وهى تَعُدّ الذنوب من الكبائر

أو الصغائر على حسب طبقة الجانى أو المَجْنِيِّ عليه ، وهى لا تُقاس بأهمية الدين الذى يستوعب الروح و يستغرق أدقَّ أعمال الحياة .

« فالهندوسيُّ يسير ويجلس ويشرب ويأكل ويعمل وينام دِينِيًّا » .

هذا ما قاله هندوسيٌّ ، وهو قول واقعيّ ، فالهندوسيُّ لا يَسِيحُ ولا يبدأ بالطعام ولا يلاقى صديقاً ولا ينام من غير أن يعوذ بالآلهة، والهندوسيُّ لا يَخِيط ثوباً ولا يَلْبَس حُلِيًّا إلا بوحى دينىّ، والهندوسىّ يسكُن ، لذلك ، قطراً يُعَدّ أكثر أقطار العالم شعائرَ وعبادات .



١٥٩ — كهات مندو (نيبال) معبد من آجر وخشب منقور

والعنصر الأدبيّ الوحيد الذى نَفَذَ طبيعةَ الهندوسيّ هو روح المحبة البُدّهِيَّة ، وتسرَّبت هذه الروح فى صميم الشريعة الشديدة التى وُضِعَت إرضاء للآلهة الوهمية

القاسية ، لا من أجل صلاح الناس ، فألا نها وأضافت إلى تعاليمها الجافية الثقيلة مبادئ محبة وكرم ، فالحق أن العصر البُدّهِيّ هو أكثر أعصر الهند أخلاقاً ، ولا يزال تأثيره الطيب بادياً حتى اليوم .

وما تحلّى به الهندوسيّ من الصفات ، كالحلم والوفاء للسادة وحبّ الأسرة وروح التسامح العجيبة ، فمن مقتضيات سَجِيّته ، لا من مقتضيات آدابه ، وأكثرُ صفاته تلك هي ، مع ذلك ، منفعلةٌ غيرُ فاعلة ، فالهندوسي يَعْرِف كيف يُطيع ، ولا يبدو حسناً إلا حين خضوعه لسيدٍ ، وهو إذا ما ساس ظهر ظالماً مستبداً جباراً ، ولا تَجِد في الهندوسيّ صفة يمكن أن يقال إنها ثمرةُ أدبٍ دينيّ أينعت مع القرون ، ولم ينشأ الأدب في الهند مع أن للدين سلطاناً عظيماً فيها على الدوام .

فالهندوسيّ ، إذَنْ ، رجل دين ، لا رجل أدب ، وقد تَعَوّد الخضوع والانقياد إما فُطِر عليه من الأخلاق الهيّنة التي اقتضاها الاستعباد الطويل وجوّ بلاده المُبْطِلُ للنشاط ، ولو كان شعورُ الهندوسيّ الأدبيُّ رادعَه لكان من أقسى شعوب الأرض طِراً وأشدّها خطراً ، ولكنك تَجِد سرّ عدم أذِيّته في سَجِيّته .

الفصل الثالث

النظم والطبائع والعادات

(١) القرية والتملك — القرية في الهند وحدة سياسية لا يعلوها سوى الدولة — القرية وحدها هي وطن الهندوسي — نظام القرية — الشركة في الأموال — اختلاف نظام الأملاك في مختلف أجزاء الهند — (٢) الأسرة — حال المرأة في الهند — القرية عشيرة أو أسرة مشتركة — سلطان رب العائلة المطلق — انقياد المرأة — الزواج — عادة انتحار الأيامى — الأولاد — احترام الأم — (٣) نظام الطوائف — نظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نظم الهند السياسية منذ ألفي سنة — نشأ هذا النظام عن ضرورات عرقية — أسباب دوام هذا النظام — كيف يحسر الإنسان طائفته — في دستور الهند الطائفي سر خضوع الهندوسي لسادة من الأوربيين — سلطان نظام الطوائف في الهند — نظام الطوائف مما قال به جميع الفاتحين ومنهم الإنكليز — الطائفة الإنكليزية — هذه الطائفة محكمة إحكام الطوائف الأخرى — (٤) الحقوق والعادات — أطوار الحقوق الفطرية في الهند — العادات المحلية والتعاليم الدينية هي أساس هذه الحقوق — لا يتصور الهندوسي وجود شريعة واحدة للجميع — مايلاقيه أولياء الأمور الإنكليز من المصاعب — عادات الهندوس في المواريث — (٥) الزراعة — الهند قطر زراعي على الخصوص — مصادر الزراع — الفقر وزيادة السكان — (٦) العامل الهندوسي — حال هذا العامل الاجتماعية أفضل من حال العامل الأوربي — حذقه الفني ومهارته اليدوية — (٧) حياة الهندوس العامة والخاصة — أبهة الطبقات الغنية — بساطة الحياة الخاصة لدى جميع الطبقات — المساكن — الولائم — الاستقبالات — الأزياء — المدن والقرى — الأعياد والحج — تربية الأولاد — النكاح — المآتم — الراقصات — استقبال ملوك الهند للأجانب .

١ — القرية والتملك

بدَت القرية ، منذ أقدم عصور الهنـــد ، جماعة سياسيةً منظَّمة تامةَ الوَحدة لا يعلوها سوى الدولة .

فالحقُّ أن القرية هي وطن الهندوسيِّ ، فني القرية تتجلى مقتضيات الاجتماع ، ففيها يجد الهندوسيُّ الحكومةَ الأبوية الحامية له ، والقاضيَ الذي يرُد عليـه حقَّه ، والـكاهنَ الذي يُوَجِّه روحه ، والطبيبَ الذي يداوي جسمه ، والشاعرَ الذي يَسْحر فؤاده ، والراقصـةَ التي تَفْتِنُ عَيْنَيْه ، وأبناء عشيرته الذين يلتفون حوله كأسرة هو ابنها .

وما يَبْغِي الهندوسيُّ من الوطن الـكبير المصنوع الذي أريد إنشاؤه له ؟ لا ينتظر الهندوسي شيئاً من هذا الوطن الـكبير فلا يعترف به ، وكل ما يَعْلَمُهُ عنــه هو أنه يُثْقِلُ كاهله بالضرائب ، ومهما كان أصل الفاتح الذي أسَّسَ هـذا الوطن الـكبير بقوة السلاح ، فإن هذا الفاتح ، مسلماً كان أو نصرانيا أو أهليًا ، لم يظهر إلاّ متشدداً في جمع الضرائب ، فلا يبالي الفلاح بجنس هـــذا الفاتح ما أُلزم بالانقياد له ودفع الأتاوى[١] إليه على الدوام .

حقًّا أن ثَوْراتٍ نَشِبَت وحروباً اشتعلت ودولاً شِيدَت وممالكَ انهارت من غير أن يكترث الفلاّح الهندوسيُّ لذلك كلِّه ، وما كان سادته الذين تَوَلَّوْا أمره بالتتابع ليطالبوه بسوى المال غير متعرضين لعاداته المتأصلة ، فظل كما كان منذ ثلاثة آلاف سنة ، ولا تزال القرية الهندوسية صورةً لما كان عليـــه المجتمع الآريُّ الفطريُّ ، ويمكننا أن نَتَمَثَّل بها حالَ جميع المجتمعات في أدوارها الأولى .

(١) الأتاوى : جمع الإتاوة وهي الخراج .

ولا يَذهَب القارئ إلى أن القرية فى الهند هى مجموعة منازل فقط ، بل تشتمل ، أيضاً ، على الأراضى التى تحيط بها فيملكها سكانها .

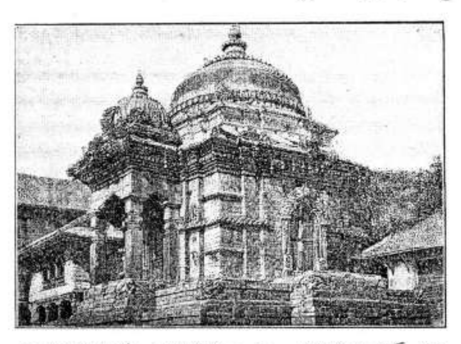
وتلك الأراضى مُشاعة ، ويسبق الشيوعُ التملكَ الشخصىَّ فى جميع العالم كما هو معلوم ، ولكن جميع المجتمعات بينما تتدرج إلى مبدأ التملك الشخصى ترى المجتمع الهندوسى لا يزال وَفِيًّا للطِّراز الآخر ، ومن الغريب أن تُبْصِر المجتمع الهندوسى ، فى كل زمن ، يسعى فى ردّ كل مُلْك شخصى إلى المُشَاع خلافاً لما تسير إليه بقية الأمم .

وإذا حدث أن شخصاً استطاع أن ينال الغِنَى بمواهبه وَجَدَت الجماعة التى ظهر منها أن من الطبيعى أن تطالب بمقاسمته ما اكتسب ، فرُفِعَت فى الهند قضايا شاملة للنظر حول ذلك ، فوَجَد قُضَاة الإنكليز عناء كبيراً فى الحكم المدعى عليه الغَنِىّ بثمرة عمله أحياناً ، وما كانوا ليَصِلوا إلى نتيجة كهذه إلا حين ثبوت عدم مساعدة الجماعة على نيله الثَّراء بما حَبَتْه به من التربية ، وإلا لم يُوجَد ما يمنع من ردّ أمواله إلى الجماعة .

وإذا وُلِد ولد فى الهند كان له حق فى مال أبويه منذ ولادته ، وقد ظُنَّ أن هذا يُؤَدِّى إلى نظام التملك الفردى ، مع أن الأمر غيرُ ذلك ، فالقسمة لا تَحْدث فعلاً ، فالولدُ لا يفكر فى هذا حين يبلغ سنّ الرشد فيصبح قادراً على المطالبة بماله ، بل يكتفى بنصيبه فى الدخل ، فمن هنا ترى أن المُشَاع هو مَرَدُّ التملك الفردى على الدوام .

وشيوع الأموال مزدوجٌ فيُنظَر إليه من ناحية الأسرة أو ناحية القرية .

نشأ مُشَاعِ القرية عن الأُسرة ، وما كانت القرية غيرَ أُسرة كبيرة ، وهذا التعريف صحيح فى غير حال ، فأهل القرية إذ كانوا أبناء لجدّ واحد فإنه يتألّف من مجموعهم عشيرة حقيقية ، ومما يقع أحياناً أن تؤلّف العشيرة من ثلاث أُسَر أو أكثر وأن يكون بابها مفتوحاً للغرباء ، ومما يحدث فى الغالب أن تكون الصِّلة العائلية وهميةً مع الاعتراف بها والاستناد إليها .



١٦٠ ـ كهات مندو (نيبال) . معبد من حجر (هذا المعبد من مبانى نيبال النادرة التى ترى فيها مسحة من المؤثرات الإسلامية كالقباب)

والأمرُ مهما يكن فإن الزمرة تنقسم إلى أُسَر مختلفة ويكون لكلٍّ واحدة منها منزلٌ وأرض لتزرعها ، وما عند الاسرة من منقولات ، كالمواشى وآلات الزراعة الخ ، وما يعود على الأُسرة من دَخْل المُشَاع فمشتركٌ بين أفراد الأُسرة : الأبِ والأمِّ والأولادِ ، فهذا هو الشيوع المنزلىّ .

ومن ناحيــة أخرى تُبصر أراضىَ القرية خاصةً بأهلها فيزرعونها بالاشتراك ويقتسمون ما تنتجه فيما بينهم ، فهذا هو الشيوع الاجتماعى .

وإذا تمَّ الحصاد جُعِل الزرع المحصود أكداساً أكداساً فخُصَّت الدولة بالكُدْس الكبير ، فبهذا ينتهى واجب الهندوسىّ نحو ما سُمِّى على غير حقّ وطنَه ، فيعود غيرَ مَدِين له بشىء وغيرَ منتظر منه شيئاً .

وبعد أن تَظفَر الدولة بحِصَّة الأسد يكافأُ موظفو القرية فيُخَصُّ عميدُها بكُدْس كبير ويُخَصّ البرهمىُّ بكُدْس آخرَ ويُخَصّ كلٌّ من الخفير والسَّقَّاء والحلّاق والخزّاف والنجّار والحدّاد والغسّال والسكّاف والفَلَكِىّ والطبيب والشاعر والراقصة بكُدْس أصغر .

تقوم القرية بمعايش أولئك الموظفين وغيرهم ، ويزيد عدد هؤلاء بنسبة اتساع القرية وغناها ، وينتسب كلٌّ واحد منهم ، على حسب وظيفته ، إلى طائفة خاصَّة ويَجْتَنِب الزواج بغير بنات طائفته والأكل مع آخر من طائفة أخرى ، بَيْدَ أنَّ حواجزَ قاسيةً كهذه لا تؤدى إلى تنافس أو خصام بين أهل القرية ، فهؤلاء إذ يعتقدون أنهم من أصل واحد يَشْعُرون بأنهم إخوة ، فترى روحَ المساواة سائدة لهم ، ولا تجِد من يقومون بالوظائف الخسيسة غَضاضَةً فيما يقومون به ما حَظُوا برِعاية أبناء عشيرتهم .

وبعد أن ينال الموظفون حِصَصهم من الغَلَّة يُقَسَّم ما بَقِىَ منها بين جميع الأسر، وليس كبيراً نصيبُ كلّ أسرة ، فالفلاح الهندوسىُّ مُثْقَلٌ بالضرائب ، فهو يكون سعيداً إذا ما نال ، بعد الذى يؤدِّى ، ما يكفى أسرته ، وما يشترى به بِذاراً

للزرع فى العام القادم ، وفى البنغال تَعُدُّ الأسرة سعيدة إذا نالت ما يَعْدِل خمسةَ دوانق أو ستة دوانق مُياوَمَةً .

وحينما يَكُنْ أمر المُشاع منتظماً يَنَل الفلاح العَوْن من بنى قومه وقت الضِّيق ، فلا يقاسى أَلَم المجاعة إلا إذا كانت عامة .

ويسوس كلَّ قرية عميدٌ منتخب يساعده مجلس كان يُؤَلَّف من خمسة أعضاء فأضحى يُؤَلَّف من أعضاء أكثرَ عدداً ، ويدير شؤون كل قرية الموظفون الأوَّلون المذكورون .

وبلغ نظام القرية التقليدىُّ من النفوذ فى النفوس ما لم يَقْدِر معه مَلِكٌ على تبديله ، واحترم جميع الفاتحين الذين دَوَّخوا الهندَ نظامَ القرية فلم يتعرَّضوا لاستقلالها ، وللفاتحين فوائد فى ذلك ، فوَلِىُّ الأمر لم يكن ليبالى بغير جِبايَة الخراج المُجْدِى بانتظام ، وما كان ليَجِد خيراً من مجالس القرى المسؤولة عن سكانها فى مساعدته على هذه الجباية .

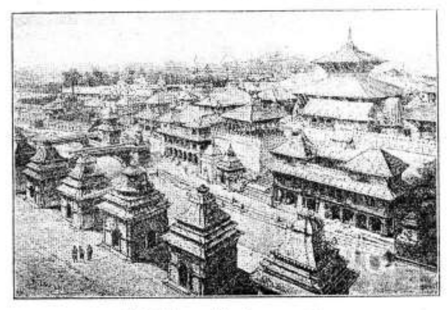
وهَيْهاتَ أن تكون جميع قُرَى الهند على ذلك النظام ، ففى الهند المترامية الأطراف عروقٌ كثيرة مختلفة لا يَثْبُت معها أىُّ نظام ، فالواقع أنك تجد فى الهند جميع أطوار التملك المعروفة التى تتَرَجَّح بين شُيوع الأموال المطلق وحقِّ الفرد المطلق فى التملك .

وإذ كانت طُرُز جِباية الضرائب عنوانَ أنواع التملك فى الهند فإننا نذكر باختصار الطُّرُزَ الخمسة التى تَجْبِيها الحكومة الإنكليزية بها فى مختلف أقسام الهند .

انتحل الانكليز المبدأَ الإسلامىَّ القائل إن رَقَبَة الأراضى لوَلِىِّ الأمر وإن مايدفعه الرعايا إليه ليس ضريبة عنها ، بل دخلاً كالذى يؤديه المزارعون إلى مالكيها .

تُقَسَّم جميع الأراضى فى البنغال بين عدد كبير من المُلَّاك (زميندار) الذين هم نوعٌ من الزُّرَّاع العامون فيؤاجرونها من الفلاحين على أن يَظَلّوا مسؤولين عن الضريبة تجاه الدولة .

والنظام فى أودَهة مثلُه فى البنغال تقريباً ، وذلك مع ملاحظة أن الحكومة فى البنغال تتوسط بين المُلاك (زميندار) والفلاحين حفظاً للفلاحين من كلِّ جَوْر واستبداد ، وأن الفلاحين فى أودهة يَبْقَوْن تحت رحمة كِبار المالكين .



١٦١ — پشپق (نيبال) . منظر المدينة العام

ونجَم دوام هـذا الفرق مع الفروق التى نَراها فى الولايات الأخرى عن سير الحكومة البريطانية على مبدأ « بقاء ما كان على ما كان » فتركت الأمور على ما كانت عليه بعد الانقلابات التى عَقَبَت سقوط الدولة المغولية ، أى إنها لم تتَصدَّ للمُلَّاك (زميندار) الذين كانوا من سُعَداء الأفّاقين فأقطعوا الإقطاعات بسبب الفِتَن والحروب .

و إنكلترة حين أقرّت مبدأ التملك الوراثى فاعترفت لأولئك المُلّاك بما يتصرفون فيه من الأراضى ظنّت أنها تقيم أرستوقراطية زراعية مخلصة لسلطانها حريصةً على تحسين ما هو قبضتها ، ولكنها رأت ما خيّب ظنّها ، فلم يكن الفلّاح عُرْضَة للظلم والبؤس زاهداً عن فلاح الزراعة فى مكان مثله فى البنغال وأوده ، ففى هاتين المنطقتين يعمل الفلاح من أجل سادة قُساة غِلاظ صُلفاء أخلياء، لا من أجل نفسه .

والحالُ فى البَنْجاب غيرُ ذلك ، ففيها تزدهر مُشاعات القُرى ، وفيها تَجْبى الحكومةُ الانكليزية الخراجَ من عُمَدائها رأساً ، وفيها يكون الفلاحون طُلقاء سُعَداء أرباباً لأراضيهم غيورين عاملين فى إثبات حقوقهم أقصى ما ينالونه منها .

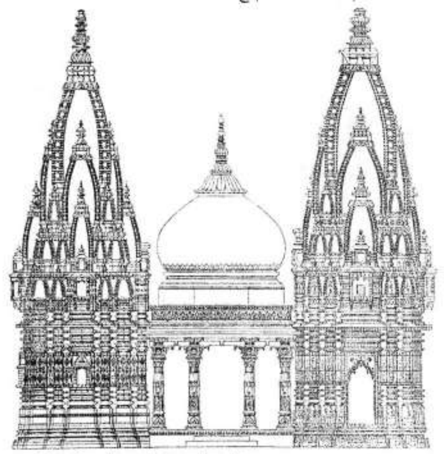
وفى الولايات الغربية والمتوسطة تجد ، تارةً ، مالكين وارثين يَقبِضون أجْراً من الفلاحين ويدفعون الضريبة إلى الدولة آخذين الفرق لأنفسهم ، وتجد ، تارةً ، مُلّاكاً كِباراً ومُلّاكاً صِغاراً تُفرَض الضرائب عليهم رأساً .

ويؤدى كلّ واحد فى الدّكن خَراجاً إلى الدولة بنفسه قابلاً للتعديل زيادةً ونقصاناً بعد انقضاء سنوات فى كلّ مرة .

والدّكن ، على ما هى عليــه من قلة الغِنَى وَضَعْفَ الخِصْب إذا ما قيست بالهندوستان ، ذاتُ سكان سُعَداء أكثر من سواهم على ما يحتمل ، أجَلْ ، إن الدّكّن تَعرِف نظام القرية المستقلة ذات الأراضى المُشَاعة ، ولكن أمرها غيرُه فى البِنْجاب ، فحقولها تُقسَّم بين سكانها فى أدوار معينة .

ولكلّ أسرة مقسَمُها التامّ فى الأراضى ، ويزيد هذا المَقْسَم ويَنْقُص تبعاً لنشاط العمال وإهمالهم ، ويستطيع ربّ الأسرة أن يبيع أرضه من غير أن يَظْفَر

بموافقة الجماعة ، فلا ترى مثل هذا فى المُشَاع الحقيقىّ ، ومن شأن التقسيم بين حين وحين أن يُساوِىَ بين الثَّرَوات وأن يُذَكِّر الفلاحين بأنهم أبناء أسرة واحدة مبدأً على الأقل وأنهم متضامنون بعضُهم مع بعض .



١٦٢ — بنارس . معبد ويشويشور القائم على طراز البناء الحديث بالهند ، كما جاء فى رسم لبرنسبس . (أقيمت جميع المبانى الظاهرة فى هذه الصورة والصور الآتية فى القرن الماضى وفى النصف الأول من القرن الحاضر)

وغايةُ القول أن الوُسَطاء بين الفَلَّاح والحكومة هم سبب بؤسه فى الغالب ، لا الغُلُوّ فى فَرْض الضرائب وحدَه ، فحيثما يَتَّصِل الفَلَّاح بالحكومة رأساً إما بصفته

الفردية أم بصفته الشُّيُوعِيَّة تَجِدْه نشيطاً ناجحاً راضياً ، مع فقره ، بما قُسِم له تقريباً .

وإنه لمنظر يُعْجِب السائحَ ، حَقًّا ، ذلك الذي يبدو له حينما يجوب قُرَى البنجاب أو هِضاب الدَّكَن الجافيـة ، ففيها تَجِد المعابد الـكثيرة والأشجار المقدسة والهياكل القائمة على جوانب الطُّرُق شاهـدةً على تَقْوَى ذلك الشعب الخُرَافِيِّ الساذج ، وفيها يُبْصِر دوائر البلدية البسيطة، المؤلفة من سقوف تُمْسِكُها أعمـدة ، تَنْطِق بالحرية فى صورة خضوع منذ ثلاثة آلاف سـنة ، وفيها يشاهد سكاناً ناعمين هادئين فَرِحين لابسين ثياباً زاهيـة مع اختصارها يَمِيدُون فى الأَزِقَّة الضَّيِّقة ذوات الحِيَـاط الخشبية مُحْدِقين بالغريب ، مع قليل إزعاج وعدم اعتداء .



١٦٣ ـ بنارس . معبد دورغا القائم على طراز البناء الحديث فى الهند

والأمرُ غيرُ ذلك فى ولاية أوريسة المُضطهَدة الفقيرة ، حتى فى وادى الغَنْج الغَنِىِّ حيث ينال القوم من الحقول كنوزاً لا تكون لهم .

٢ — الأُسرة ، حال المرأة فى الهند

نظام الأُسرة هو أول ما يَجِب البحث فيـه إذا أريد الاطلاع على المجتمع الهندوسى .

فالأُسرة هى مثال القرية والأساس الذى تقوم عليه ، وتُؤلِّف الدولة رأساً من تَجَمُّع القُرَى كما رأينا .

والقرية الكاملة هى عشيرة أو أُسرة مشتركة .

وفى الأُسرة المشتركة لا يملك أحد لنفسه شيئاً خاصاً ، فالمنقولات وغير المنقولات فيها ملك شائع ، فلا يستطيع أىّ فريق منها أن يبيعه من غير موافقة الجميع ، وربّ الأُسرة هو الذى يُدِير شؤون الثروة ويتمتع فيهـا بسلطان أدبىّ مطلق ، فإذا مات خَلَفَهُ ابنُه البكر من غير اقتسام للأموال فيُطِيعه الجميع كسابق إطاعتهم لأبيه ، فإذا انقضت بضعة أجيال تَحَوَّلَت الأُسرة إلى عشيرة على أن يكون زعيمَها أسنُّ واحد فى أسنّ فروعها .

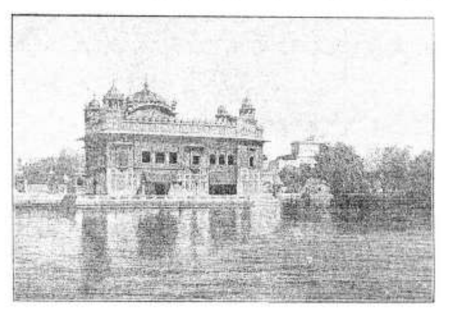
ومن النادر أن يظهر عامل انقسام أو انحلال فى الأُسرة بعد أن تتسع ، هـذا ما فصلناه حينما درسنا العشيرة الراجپوتية وذكرنا ، عند الكلام فى التملك ، الحالَ التى تُقَسَّم فيها أموال الأب بين أولاده بعد موته .

وهذا ما هو شائع فى الوقت الحاضر تقريباً ، فى المجتمع الهندوسىّ مَيْل إلى زيادة شأن الفرد وتقليل شأن الأُسرة .

وإننى ، بعد تلك الكُلِّيَّات ، أدرس فى هذا المطلب أمرَ الأُسرة أى الأبِ والأمّ والأولاد فأقول :

إن سلطان ربّ الأُسرة فى الهند مطلقٌ كما كان فى رومة ، وإذا كان الأب لا يَصِل بسلطانه إلى ما يمارس به حَقّ الحياة والموت فلما فُطِر عليه الهندوسىّ من الحِلْم ، وفى الهند تَعُدُّ المرأةُ بعلَها قوّاماً ممثلاً للآلهة فى الأرض ، وفى الهند تَبْلُغ

المرأة من احترام زوجها مالا تَذْكُر معه اسمه ، والمرأة ، إذا كانت حديثة عهد بالزواج استبدلت باسم زوجها لفظاً عَرَضِيًّا ، وإذا أصبحت أُمًّا كَنَّت زوجها باسم ابنها البِكر مُضافاً إلى كلمة « أبي » فتقول : « أبا فلان » مثلاً .



١٦٤ ــ أمرت سر . معبد الذهب القائم على طراز البناء الحديث فى الهند بحيرة الخلود

وللزوج سلطان مطلق ، ومع أن المرأة لا تختاره ، ما عُدَّت خطيبته منذ طفولتها ، لا تكون الرابطة الزوجية بينهما ثقيلة ، فالزوجان الهندوسيان مُتَحابَّان ، وإذا ظهر من الزوج عدم اكتراث لزوجته أمام الجمهور تبَعاً للتقاليد فإنه يبدو فى البيت حليماً نحوها على العموم ، فيسهل عليها أن تُؤثِّر فيه ، وقلما يَضْرِبها أو يُؤذيها بالقول السَّيِّئ .

والمرأة الهندوسية جاهلة جداً ، ويرى الهندوس بقاءها جاهلة فِراراً من العار

والفضيحة لِما يجدون فى تَعَلُّمها من معانى تقليد الرجال سفاهةً وظهورها كبنات الهَوَى أوضاعاً ، وفى هذا سِرّ ما يلاقيه سادة الهند فى الوقت الحاضر من المصاعب فى اجتذاب المرأة إلى المدارس .

ويُعَدّ الأولاد خاطبين منذ طفولتهم ، وتتزوج الفَتَيات فى السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من أعمارهن على العموم ، ولا كيان للمرأة الهندوسية بلا زواج ، فلا تكاد تُولَد حتى يختار أبواها لها من يكون وليّ أمرها ، فهى إذا ما ترعرعت فَمِنْ أجله ، وهو إذا ما كان فظيعاً شنيعاً فَظّاً غليظاً فَضَّلت البقاء مُلْكَه على أن تظلّ عَزْباء أو أن تَخْسَره .

وتُعَدُّ المرأة العَزْباء ، والمرأة الأَيِّم على الخصوص ، منبوذتين من المجتمع الهندوسيّ ، ومن الأَيامَى الفتاةُ التى تَفْقِد عروسها فى أوائل عمرها ، وفَتَىً مثل هذا لا يمكن رَتْقه ، فتهبط المرأة المنبوذة إلى ما دون سِفْلَة القوم .

قال السيد ملبارى : « موتُ الزوج الهندوسيّ قاصمٌ لظهر زوجته ، فلا قيام لها بعده ، فالمرأة الهندوسية إذا آمت[1] ظَلّت حاَدًّا ما دامت حَيَّة ، وعادت لا تُعامَل كإنسان ، وعُدَّ نظرها مصدراً لكلّ شؤم ، وعُدّت مُدَنِّسة لكلّ ما تَمَسُّه ، فهى إذ تغدو بوفاة بعلها محتقرة منبوذة تبدو الحياة لها عِبْئاً ثقيلاً ، فلا يبقى أمامها سوى سبيل الفسق أو العيش بائسة منزوية ، والفتاةُ الأَيِّم هى التى قَصَدتُها بقولى ، وغيرُ حالها حالُ المرأة التى لها قُرّةُ عَيْنٍ بأولادها ، فهى لا تكون عُرْضَة لسخافات طائفتها » .

---

(١) آمت : فقدت زوجها .

والآن نُدْرِكُ سرّ إخلاص المرأة الهندوسية لزوجها بما يُورِث العجب ، فتأصّل هذا الإخلاص بتعاقب القرون حتى أصبح غريزة ثابتة فيها ، وبهذا نفسر دوام عادة حرق المرأة لنفسها فوق جُثّة زوجهـا ، إن لم يكن سببها ، فـكان على المرأة الأيِّم أن تختار ما ينتظرها من السعادة والفلاح بِلَحاقها زوجَها باسلةً أو ماينتظرها من البؤس والشقاء ببقائها حَيّة فوق أديم الأرض ، فلم تتردد فى سلوك أشرف النَّجْدَيْن، فـكانت ، وهى السـاذجة الهائجـة ، تقضى نَحْبَها بين الدموع والحماسة والهُتاف والأدعية والتحية والنشائد الداوية .

ولما حَظَرت الحـكومة الإنكليزية تلك العادة قاومت النساء هذا الحظرَ فداوَمْن على القيام بها طويلَ زمنٍ مُخبِطاتٍ كلّ مراقبة ، والنسوةُ هُنّ اللائى مَنَعْن إلغاء تلك العادة فى نيبال على الرغم من الوزير الحازم جنك بهادُر .

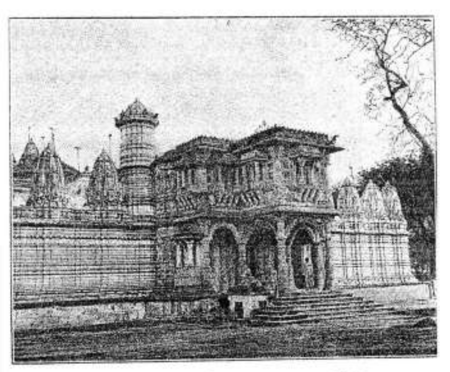
ومما يوضح هذا التعصبَ ما رَسَخ فى النفوس الجاهلة الساذجة من المعتقدات منذ قرون وما يُنْتَظَر من الحياة البائسة الشائنة ، فالإيمـان الدينىُّ وحدَه هو الذى يأتى تلك المعجزات ، وهو فى المرأة الهندوسـية ليس بأقلّ مما فى الشهداء الذين اعتقدوا لقاء الله وراء لَهَب النار .

ومن المتعذر بيانُ الزمن الذى ظَهَرت فيه عادة الحرق تلك ، ولا نَصّ عليها فى شريعة مَنُو وكتبِ الويدا وإن أخطأ الـكُهّان فرأَوْا بعد زمن طويل أن لهـا أثراً فى أُنْشودة مقدسة أساءوا تفسيرها ، فتلك العادة أقدم من الميلاد ، فقد روى وجودَها اليونان ، لأول مرة ، قبل ظهور المسيح بثلاثمئة سنة .

أَجَلْ ، إن تلك العـادة زالت فى أيامنا عن الهند ، خلا نيبالَ ، بَيْدَ أن من الصعب أن يقال إن للنساء مَغْنَماً من وراء ذلك ، فحال الأرامن ، كما قلنا ، يُرْثَى

لها ، فمن أتيح لهنّ الزواج مرةً ثانية قليلاتٌ ، ويُنْظَر إليهن شَزْراً في كلّ مكان ، ولا سيما أن المبدأ القائل بأن المرأة قد تكون مُلْك رجال كثيرين مما نَبَذه الهندوس منذ قرون .

ونَما مبدأُ تعدد الزوجات الذي قالت به الشرائع الهندوسية بعد المغازي الإسلامية ، وحُجِبَت المرأة منذ هذه المغازي في دوائر حريم الأغنياء على الأقل ، وتَعَوَّدْن الخروجَ مُبَرْقَعات .



١٦٥ ــ أحمد آباد . معبد هتهي سنغها القائم على طراز البناء الحديث في الهند

وإن مبدأ تعدد الزوجات ، الذي يَرْجِع إليه الأغنياء كامل بهجة وسرور ، لا يمارسه الفقراء إلا كسلاً وبخلاً ، فابن الطبقة الدنيا يقتصر ، في الغالب ، على

زوجة واحدة ، فإذا حدث أن كانت له غيرُ زوجة فلكى يَحْمِلن على العمل وكَسْب عيش الأسرة، فاللاتى يرضَيْن بذلك لا يكنّ إلا من الطوائف الدنيا على العموم ، فيَرَيْن من القَدْر الدَّنىّ أن يسترن حالهُنّ بالزواج .

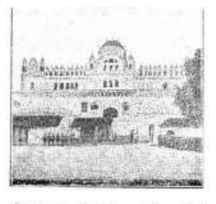
ومن نتائج تعدد الزوجات أن يُسَمَّى الأولاد بأسماء أمهاتهم تمييزاً لبعضهم من بعض ، وكانت هذه العادة ، الشائعةُ بين الشعوب القائلة بتعدد الأزواج من الذكور أيضاً ، عامةً فى الهند القديمة .

ولا تُمَثّل المرأة أىّ دَوْر ، وهى لا تصبح ذات شأن إلا بعد أن تصير أُمًّا ، فحينئذ تُحْتَرَم ولو ترَمَّلَت ، فما تناله من احترام أولادها وعطفهم فلا حَدَّ له ، فإذا ماشابَت وهَرِمَت رأت نفسها محاطةً بجيل من الأبناء والحَفَدَة لها عليه سلطانٌ لا جدال فيه .

وليذكر ، من يَرْغَب فى استجلاء الأسرة فى الهند ، أنها غيرُ مقصورة على أفرادها الحقيقيين ، فهى تجْمَع،فى عُرْوَةٍ لا انفِصام لها، جَمْعَ الأجداد وحَفَدَتهم فيُفْتَرَض بالذهن على الأقل وجودُهم فى كلّ عيد ويُشْرَب نَخْبُهم عند كلّ وليمة ، و بينما يكون المدعوون غارقين فى الفَرَح ينهضون ليَشْعُروا بتموج روح قدماء الآريين حولهم راجين حياةً طيبة لهؤلاء المجهولين الذين يَرَوْن فضلهم عليهم فى وِلادتهم فكانوا الحلقةَ الراهنة لسلسلة أفكارهم ومشاعرهم التى نُسِجَت فى غضون القرون .

٣ — نظام الطوائف

نظام الطوائف هو حَجَر الزاوية لجميع نُظُم الهند الاجتماعية منذ ألفي سنة ، ولهذا النظام من الأهمية العظيمة التي أُنكِرَت ، على العموم ، في أوربة وفي مستعمرات الهند التي يَملكها أوربيون ، ما أرى معه من المفيد دِراسة أصوله ونشوئه ونتائجه باختصار ، وهذا النظام هو الذي استطاعت بفضله شِرْذِمة من الأوربيين أن تُخضع ٢٥٠ مليوناً من البشر لحكمها الشديد إخضاعاً يَشْمَل نظر كلّ باحث ومؤرخ .



١٦٦ — چهتربور ، مقدم قصر الراجه القائم على طراز البناء الحديث في الهند

يَرْجع نظام الطوائف في الهند إلى ما قبل ألفَيْ سنة ، ومما لا ريب فيه أنه نشأ عن مراعاة سُنَن الوراثة المقدرة ، فلما أوْغَل الفاتحون البيضُ ، الذين نُسَمِّيهم بآرِيِي الهند ، وجدوا أنفسهم بجانب من قهروهم من التورانيين والسُود المتوحشين ، وهؤلاء الفاتحون كانوا من شِباه الرُعاة وشِباه الحضَريين الخاضعين لزعماء لم يَعْدِل سلطانَهم سوى نفوذ الكُهَّان الذين فُوِّض إليهم اجتلاب حماية الآلهة ، وقد أسفرت أعمالهم عن انقسامهم إلى ثلاث طوائف بحكم الطبيعة ، أي إلى طائفة البراهمة أو الكُهَّان وطائفة الأكشترية أو المحاربين ، وطائفة الويشية أو الزراع والصناع ، وهذه الطبقة الأخيرة هي من ذُرِّيَّة الغُزاة الذين فتحوا الهند قبل الآريين على ما يحتمل فتكلمنا عنهم في فصل سابق .



١٦٧ ـ كلكتة : الزون القائم على طراز البناء الحديث فى الهند . (نختم بهذه الصورة الصور التى خصصناها لمبانى الهند ، وأما الصور الآتية فهى خاصة بأدوات فنية)

ومن ثَمَّ ترى مشابهة ذلك التقسيم لطوائفنا الثلاث القديمة : الإكليروس والأشراف والطبقة الثالثة ، وترى دون تلك الطبقات الثلاث المختارة أهلَ الهند الأصليين الذين عُرفوا بالشودرا فكان يتألف منهم ثلاثة أرباع السكان .

لم تلبث التجربة أن أثبتت ما قد يُسْفِر عن امتزاج عرقٍ راقٍ بالعروق الدنيا فنهَت التعاليم الدينية عنه ، فقال مشترع الهندوس القديم الحكيم مَنُو : « لا تلبث كل بُقعة يَنْشأ فيها أناس من عروق متوالدة أن يَعمَّها الخراب وأن يضمحلّ سكانها . » ، فهذا نصٌّ شديد لا ريب ، ولكن من المكابرة إنكار صحته ، فلم تَعتمّ الأمم العليا ، التى اختلطت بعرق منحطٍّ ، أن هانت وذلَّت أو فَنِيَت فيه ، فما عليك إلا أن تنظر إلى حال الإسبان فى أمريكة والبرتغاليين فى الهند ، مثلاً ، لتَعْلَم النتائج السيئة التى نجمَتْ عن تلك الامتزاجات ، فترى حَفَدَة أفّاق البرتغال الفُخُر الذين دوَّخوا قسماً من الهند فيما مضى لا يقومون اليوم بغير أعمال الخَدَم والأُجَراء فيها ، وترى اسم عرقهم لا يدل اليوم فيها على غير معنى الصَّغار والنذالة .

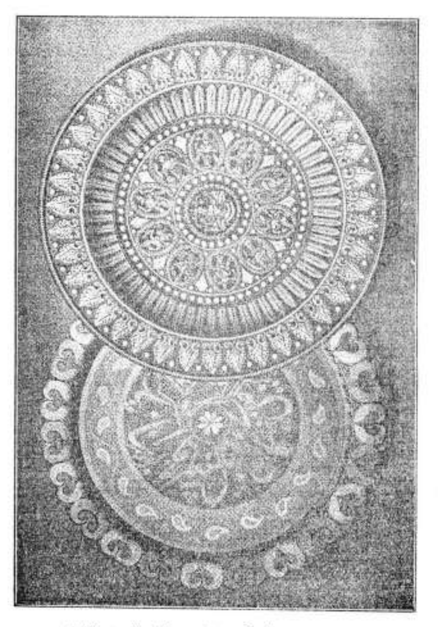
أدركت شريعة مَنُو التى هى دستور الهند منذ قرون كثيرة ، كجميع الشرائع ، تلك الحقيقةَ العِرْقيَّة التى هى وليدة تجاربَ طويلةٍ سابقة فلم تَغفُل عن ضمان نقاء الدم ففرضت عقوبات شديدةً لمنع كل توالد بين الطبقات العليا ، و بين هذه الطبقات

وطبقة الشودرا على الخصوص ، ولم ترَ تلك الشريعة وسيلةً من وسائل التهديد الشديد إلا اتخذتها لبلوغ ذلك .

غير أن الضرورات الطبيعية لم تَنْشَب أن تَمّ لها ، بتعاقب القرون ، الفوزُ على تلك المحظورات المرهوبة ، فالمرأة فِتنتُها على الدوام ، مهما كانت الطائفة التي تنتسب إليها منحطةً ، فكان ما نَقْطَع به من التوالد على الرغم من شريعة مَنُو ، فلا يحتاج الباحث إلى اجتياب الهند في زمن طويل للاطلاع على توالد جميع عروقها فيما بينهم ، فعدد بيضِ الهند الذين يمكنهم أن يَدَّعُوا نَقاوة دمهم قليلٌ إلى الغاية ، فعادت كلمة « الطائفة » غير مرادفة لكلمة « اللون » كما كانت في لغة السَّنسكرت ، فكان ما نرى من عدم وجود سبب لبقاء كلمة « الطائفة » إذا أريدت الدلالة بها على المعنى العرقيّ .

حقًّا أن مدلول تقسيمات الطوائف القديمة زال منذ زمن طويل ، فحلّتْ محلّها تقسيماتٌ جديدة غيرُ قائمة على اختلاف العروق ، وهذا مع استثناء البراهمة الذين لا يزالون هم وغيرهم أقلَّ السكان توالداً .

وبينَ الأسباب الحديثة التي أدت إلى تمسك القوم بنظام الطوائف لا يزال ناموس الوراثة نافذ الحكم ممثلاً لدور أساسي ، فالأهليات ، عندالهندوسيّ ، وراثية حتماً ، فعلى الابن أن يتخذ مِهْنَة أبيه حتماً ، والهندوسُ إذ رأوْا أن المِهَن أمورٌ وراثية أسفر ذلك عن ظهور طوائفَ عندهم بعدد المِهَن نفسها ، فكل مِهْنة جديدة في الهند تقتضي ، بالحقيقة ، نشوء طائفة لها ، فكان ما نرى من ألوف الطوائف في الهند ، وكان ما نعلمه من أن الأوربي الذي يسكن الهند لا يلبث أن يرى كثرةَ هذه الطوائف عند نظره إلى تنوع الأشخاص الكثيرين الذين يُضْطَرّ إلى استخدامهم فيها.



١٦٨ — (١) طبق معدنى مكفت بالميناء على الطراز الهندوسى الإسلامى
(٢) تانجور . طبق هندوسى من النحاس الأحمر مكفت بالبرونز والفضة (من مجموعة المؤلف)

وتضاف المناصب السياسية والمعتقدات الدينية المختلفة إلى السبب العرق الضعيف والسبب المِهَنِيّ القويّ ، المذكورين ، في تكوين الطوائف .

وقد تُعَدُّ الطوائف التي نشأت عن الوظائف السياسية من فصيلة الطوائف المِهنيةَّ ، ولكن الطوائف التي نشأت عن اختلاف المعتقدات الدينية لا ترتبط في واحد من تلك الأسباب بصلة ، وقد تؤدي مطالعة الكتب إلى تقسيم الهند ، نظريًّا ، إلى دِيانتين كبيرتين أو ثلاث دِيانات كبيرة فقط ، ولكن عدد دِياناتها يبلغ الألوف عمليًّا ، ففي الهند آلهة جديدة تُحْسَبُ تَقَمُّصَاتٍ لآلهة قديمة فتحيا وتموت كل يوم ، فيُؤَلِّفُ عُبَّادها ، من فَوْرِهم ، طائفةً جديدة متشددة في أحكامها كبقية الطوائف .

وهنالك سِمَتان أساسيتان تتميز بهما كل واحدة من الطوائف ، ويختلف بهما أفراد كلّ طائفة عن أفراد الطوائف الأخرى ، فالأولى هي أن أبناء الطائفة الواحدة لا يُطاعمون غيرهم ، والثانية أن بعضهم لا يتزوج إلاَّ ببعض .

تانِك السِّمَتان متساويتان أهميةً ، وقد تَجدون مئاتٍ من براهمة الهند الموظفين في دوائر البريد وفي إدارة الخطوط الحديدية لا يزيد راتب الواحد منهم على خمسة وعشرين فرنكاً في كل شهر ، وقد تَجِدون بين البراهمة من هم من السائلين ، بَيْدَ أن ذلك الموظف أو ذلك السائل يُفضِّل الموت على الجلوس حول مائدة نائب الملك في الهند ، وإذا حدث أن كان أقوى راجوات الهند من الطوائف الدنيا (ومن الممكن أن يصبح أحد أبناء الطوائف الدنيا ملكاً كراجه غواليار مثلاً) فلَقِي ذلك البرهميَّ فإنه ينزل عن فيله ، في الغالب ، ليُسَلِّم عليه .

وصفة البرهمىّ وراثية فى الهند كصفة الشريف فى أوربة ، وهـذه الصفة غير مرادفة لصـفة الـكاهن كما يُظَنّ فى الغـالب ، لأن الـكُهّان من البراهمة ، فالبرهمىّ يولد كما يولد الدوك ، وكان للقب البرهمىّ ، الذى أضاع كثيراً من قيمته فى أيامنا ، كبيرُ أهمية فيما مضى ، فلم تـكن صفة المُلْك كافية ليأمُل بها صاحبها أن يتزوج بفتـاة برهمية ، فى رواية شَـكُن تلاَ التى وضعها كالى داسا حوالَى القرن الخامس من الميـلاد تجد أن دُشْ يَنْتَه مَلِكَ هَستى نابور لقِىَ شَـكُنْ تلاَ فسأل مذعوراً هل هى من طائفة البراهمة أولا، لما فى انتسابها إلى هذه الطائفة من حَظْر زواجه بها .

وليس لنظام الطوائف مُؤَيِّد قانونى فى العهد الإنـكليزى ، ولـكن التقاليد التى رَسَخَت فى النفوس لا تحتاج إلى المُؤَيِّدات الرسميـة ، فتقاليد كتلك غَدَت من الوَعْى الباطن فعُدَّت جزءاً من التُّراث الذى يولد مع الإنسان فلا يَقْدِر الإنسان على مقاتلته ، فالهندوسىّ يُفَضِّل الموت على انتهاك حُرْمَة مبادىء طائفته .

وكان من عوامل ارتباك حكومة الهند ، حينما فـكرت فى إرسال كتائبَ هندية إلى السودان ، أن جَهَّزَت كل فرقة بميرَة وأجْهِزَة خاصة ليَتَسَنَّى لأفراد كل طائفة إعدادُ طعامهم على انفراد واـكيلا يأكل بعضهم مع بعض ، وقد كنتُ آنسُ فى الهند فَذَلَّتْنى مطالعة الصحف على درجة ذلك الارتباك لما يُؤَدى إليـه أقلُّ غَفْلة فى ذلك الأمر الأساسى من أسوأ العواقب ، فغفلةٌ مثل هـذه كانت عاملاً فى ثورة السپاهى التى كادت تَدُكُّ الإمبراطورية البريطانية الواسعة .

وقد يَخْسَر الهندوسىّ طائفته لأسباب كثيرة لا فائدة من ذكرها هنا ، ومن أشدّها أن يَقْبَل طعاماً أو ماء من ابن طائفة أخرى .

ولاشيء أعظم إيلاماً على الهندوسيّ من فَقْدِه لطائفته ، فليس حِرْمُ البابا للإنسان فى القرون الوسطى وحكمُ القضاء بعقوبة شائنة على أوربيّ فى الوقت الحاضر أشدّ وطأً من ذلك ، ففَقْدُ الهندوسيّ لطائفته يعنى فَقْداً لأبويه وأصدقائه وثروته ، فكلٌّ واحد يُعْرِض عنه نائياً رافضاً كلَّ صلة به ، فيدخل إذ ذاك فى زمرة المنبوذين الذين يقومون بأخسّ الأعمال .



١٦٩ ــ إناء ذخائر بدهى مصنوع من الذهب فى القرن الثانى قبل الميلاد (صور الأدوات الفنية المنشورة فى هذا القسم من الكتاب مأخوذة من مجموعة المتحف الهندى بلندن ومستعارة من مستر بيرد وود)

ولنبحث الآن فى نتائج ذلك النظام المتين الاجتماعية والسياسية فنقول : إن الطائفة هى وَحْدَة الهندوسى الاجتماعية ، فلا عالم خارجها فى نظره ، ويَفصِل الهندوسيّ عن غير طائفته هُوّةٌ أعمق من التى تَفْصل بين الأوربيين المختلفى الجنسيات ، فهؤلاء الأوربيون يستطيعون أن يتناكحوا مع أن أبناء مختلف الطوائف لا يَقدِرون على ذلك ، فيَنْجُم عن هذا وجود زُمَرٍ فى القرية الواحدة بعدد طوائفها .

ونظامٌ كذلك مما يتعذر معه اجتماع الكلمة ضدّ الأجنبى ، وقد أدرك الإنكليز هذا جيِّداً فاتخذوا من التدابير ما يحول دون نشوب أية ثورة عسكرية ، وذلك بأن ألّفوا كتائبهم من أناس منتسبين إلى طوائفَ مختلفة مما لم يفعلوه قبل ذلك ، فما بين أبناء هذه الطوائف من التنافس يكفى وحدَه لجعل كل فتنة عامة أمراً مستحيلاً .

ونظامُ الهند الطائفيّ يفسر لنا ما يستغرب به الأوربيّ من خضوع مئتى مليون من

الآدميين لستين ألفاً من الأجانب المكروهين غيرَ محتجين ، فالحق أن نظام الطوائف هو الذى منع الهندوس من أن تكون لهم منافع مشتركة ومن أن يتّحِدوا سعياً وراء هدف واحد ومن أن يؤلفوا أمة واحدة ، فإذا أضفتَ إلى اختلاف الطوائف اختلافَ العروق القاطنة فى تلك الإمبراطورية الواسعة علمتَ أن ما يَجِب على كل فاتح أن يصنعه هو أن يتعهد ما بين هذه العروق من المنافسات وأن يَعْزِل قُوَى بعضِها عن بعض ، وما هى المصلحة المشتركة التى تكون بين أناس ذلك مَدَى اختلافِهم ؟ وماذا يَرَوْن من حَرَج فى سيد يحترم نُظُمهم الأساسية ؟ أَلَا إن وطن الهندوسى الوحيدَ هو طائفته ، ولا شىء غيرُها ، فبلدُه ليس له وحدَه ، فلم يُفكِّر ، لذلك ، فى وَحدته ، والإنكليز ، حين يراعون نظام الطوائف فى الهند بدقة ، يعلمون أن فيه سرَّ سلطانهم المكين ، فلا يصنعون ما يُضعضعه كما نصنع فى بقايا ممتلكاتنا كبونديشيرى مثلاً ، وتراءى فى بدء سياحتى فى الهند ، وذلك حينما كنت غير قادر على النظر إلى الأمور من خلال أفكار الهندوسى ، قد فَسَّرْت لهندىّ ذكى من الطبقة الدنيا معنى الجمهورية وأوضحت له الفوائد التى يجتنيها من العيش فى بلد يتساوى فيه جميع الناس ويَأْمُلُ فيه ابنُ العامل أن يَصِل إلى أعلى المناصب ، بَيْدَ أن هذا الهندى ، الذى هو من أتباع شِيوا ، فكَّر ثانيةً فهزّ رأسه مُستخفّاً مستنتجاً من كلامى أن من البؤس والشقاء أن يعيش الإنسان فى بلد عاطل من نظام الطوائف ومن النُّبَلاء ، فالحقُّ أن مما يَصْعُب على الفرنسى أن يدرك أن نُظُماً يراها طيبة، لملاءمتها احتياجاته ، لا تَصْلُح لأمم ذوات احتياجات مخالفة لها ، والحقُّ أنه يَصْعُب اقتناع السمك بأن التنفس فى الهواء أمرٌ طيب لصلاحه للإنسان .

وفى الهند بلغ سلطان نظام الطوائف الراسخ فى النفوس بفصل التقاليد والعادة من القوة ما أذعن معه الفاتحون لحكمه ، فقال به المسلمون عملاً بعض القول مع مخالفته للشريعة الإسلامية ، وانتحله الإنكليز انتحالاً لا يتمثله سوى الذين طافوا فى الهند ، أجَلْ ، إنه غيرُ مُدَوَّن فى قوانين الإنكليز ، غير أنه يتألف من مجتمعهم فى الهند طائفة أشد إحكاماً من جميع الطوائف الأخرى ، فالإنكليز ، كأبناء الطوائف الأخرى ، لا يأكلون مع غيرهم ولا يتزوج بعضهم إلا ببعض ، ولا يزال الزمان الذى يتزوج فيه الإنكليز ببنات الهند بعيداً ، فإذا حدث أن تزوج إنكليزى بهندوسية ، وهذا لا يقع إلا نادراً جداً ، أُخرِج من حظيرة طائفته وأُغلِقت أمامه جميع الأبواب ، ويرى الجندىُّ الإنكليزىّ البسيط أنمن الصَّغار أن يتزوج هندوسية، فما حدث أن تَغَدَّيْت ، ذات يوم ، مع ضابط بريطانىّ ببنارس فسألته : « أتأذنون لأحد جنودكم فى الزواج بهندوسية ؟ » فأجابنى قائلاً : « لا أَقْدِر على منعه ، لا ريب ، ما دام القانون لم يُحَرِّم ذلك ، ولكننى أشكّ فى وجود واحد من جنودى يُفكّر فى مثل ذلك » .

ولا يرجع انفصال الفاتحين الجُدُد انفصالاً تاماً عن أولئك المغلوبين إلى أمد طويل ، فما كان تناكح الشعبين أمراً نادراً إلى وقت قريب جداً ، وقد أسفر هذا التزاوج عن وِلادة أناس جامعين لعيوب الهندوس خالين من صفات الإنكليز ، فتراهم قوماً عاطلين من التقاليد والتاريخ والآداب فبدَوْا محلاً لازدراء كلا الشعبَيْن اللذيْن خرجوا منهما وسبباً لقلق أولياء الأمور فى الهند .

وأدرك قدماء الآريين مخاطرَ مثلِ ذلك التناكح ، فكان ما تعلم من وضعهم لنظام الطوائف ، ثم أدرك الإنكليز ذلك ، فكان ما تعلم من فصلهم ما بين القوم

الغالبين والقوم المغلوبين تبعاً لضرورات عِرْقِيّة وإدراكاً لِما بين العرقيْن المتصاقبيْن من الاختلاف مع عدم تدوين ذلك فى قوانينهم ، وكان ما تعلم من إقامتهم بين القومين من الهُوِىِّ العميقة مايتعذر مجاوزته،



١٧٠ - إناء من البرونز مكفت بالفضة
(حيدر آباد)

فالإنكليز يُنْشِئون فى كلّ مدينة بالهند حَيّاً نائياً لأنفسهم فلا يغادرونه إلى المدينة الأصلية إلا فى أحوال شاذة ، ونشاهد مثل هذا الفصل بين الأوربيين وأبناء الهند فى الخطوط الحديدية أيضاً ، فتُبْصِر للإنكليز مركباتٍ خاصةً ، وتُبْصِر لهم فى المحطات مطاعمَ ومقاعد خاصة ، نَعَمْ ، لم يُوضَع نظام يُحَرِّم على الغَنِىّ من أبناء الهند السفر فى مركبة الدرجة الأولى الخاصة بالأوربيين ، غير أنه لا يجازف بذلك إلا قليلاً ، فإذا ما جازف أسيوىّ قبوله فَيُضْطَرّ إلى النزول فى أقرب محطة ، والضباط هم أشدُّ الإنكليز شراسة من هذه الناحية ، فهؤلاء الضباط ، وإن كانوا من أعظم من رأيتُ أنساً وأدباً إذا ما خاطبوا أوربياً ، لا يلبثون أن ينقلبوا إلى قُساة غِلاظ إذا ما كَلَّمُوا شخصاً من أبناء الهند مهما كان مقامه ، وعلى ما تراه من حقّ أبناء الهند ، كالإنكليز ، فى تَسَنُّم أعلى المناصب القضائية على الخصوص وعلى ما تراه من وصول بعضهم إلى ذلك لا تجد صلاتهم

بالإنكليز فى غير الأمور الرسمية ، وأما أبواب المجتمع الإنكليزىّ فى الهند فَمُوصَدة دونهم تماماً .

ومُوَلَّدو الأور بيين والهندوس هم أكثر من تدور الخرافة الطائفية حولهم ، فمع أنك تجد تجاراً أو أغنياء من مُوَلَّدى البرتغاليين والهندوس يُقبَلون فى رِدَاه باريس بقبول حَسَن لا يأذن الإنكليزىّ لأمثالهم فى الهند فى الجلوس أمامه أو فى الأكل على مائدة معه ، وذلك خارجَ كُبْرَيات المدن التى هى على شىء من التفرنج .

ولستُ بالذى يَبْحَث هنا فى عَدْل مثل ذلك النظام أو جَوْره ، فمن الحَذَر أن يُقتَصر على عرض الأمور كما تُرَى ، ومن الخطأ أن يُؤْتَى بأحكام سطحية مختلة نظرية فى نُظُم ثَبَت أمرها مع القرون ، فقد كُتِب لهذه النُّظُم البقاء مع ما اشتعل من الفِتَن والثورات، وهى من القوة العظيمة ما انتحلها معه شعب من أرقى شعوب العالم تمدناً مع مَقْته لها فى كُتُبه ، ومن أجزل الفوائد التى اتَّفَقَت لنا من رِحلاتنا أن عَلِمْنا أن الأمم لا تختار نُظُمها ، بل تعانى النُّظُم التى فرضَتها عليها عوامل العروق والبيئات ، فالإنسان إذ ليس له أن يختار نُظُمه كانت هذه النُّظُم أقوى من عزائمه .

٤ — الحقوق والعادات

ظلّت الهند مظهر الحضارة الفطرىّ من الناحية الحقوقية ومن نواحٍ أخرى كثيرة فلا تزال تعاليم كتبها الدينية التى يُفَسِّرها كَهَنَتها و يُعَدِّلونها بالتدريج وعاداتُها المحلية وحدَها مصدرَ قوانينها ، ولم يحاول أحد من قاهريها أن يستبدل بهذه المُقَوِّمات دستوراً جديداً ، فلم يَتَصَدَّ أشد هؤلاء ظلماً وأكثرهم رأفة للمبادئ التى كان يخضع

لها رعاياهم من الهندوس ، ولم يفكروا فى غير أمر واحد وهو : جباية الضرائب .

وإن أقصى ما يؤدى إلى المركزية فتسير إليه مجتمعات الغرب فى الوقت الحاضر هو أن يضع مشترع قانوناً واحداً يخضع لأحكامه أبناء بلد واحد فلا تُراعَى فيه أمور الطبقات ولا الثروات ولا الجهات .



١٧١ ـ إبريق محزم مموه بالذهب (كشمير)

وَضْعُ الدولة قوانينَ واحدةً للجميع هو مبدأ حديث جداً ، فهو ، إذا ما أمكن إرجاعه إلى الدولة الرومانية نظريًّا ، لم يَبْدُ فى حقل العمل إلا حديثاً ، وقد اشتعلت الثورة الفرنسية من أجل ذلك المبدأ من بعض الوجوه ، ونحن إذا كنا نرى ازدهاره فى فرنسة ، معتقدين أن أمر الاشتراع من شأن الدولة ، يجب أن نقف عند هذا الحدّ ما أبصرنا عدمَ انتحال ذلك المبدأ فى كلّ مكان .

فلا تزال العادات المحليـة مُحْكَمة فى إنكلترة وألمانية وروسية ، ونحن نشاهد زيادة قوة العادات كلما ابتعدنا عن مراكز الحضارة الأساسية .

والعادات ، إذ كانت تستند إلى طُرُز المعايش الخاصة والمعتقدات القديمة المُتأصِّلة واختلاف الجماعات البشرية الكثيرة فتنشأ ببطوء ، لا يمكن تقويضها فى يوم واحد بمرسوم أو بأمر يصدر عن مجلس نواب، وَضَلَّ من قال غير هذا من الفاتحين والمصلحين، فلم تَلْبَث نظمهم التى وضعوها أن انهارت عند أول صدمة .

بَيْدَ أن هذا العَمَى مرضٌ نفسيٌّ حديث في الحقيقة ، فلم يكن أقوى المتغلبين في غابر القرون ليصابوا به ، فإذا كانت المركزية المطلقة وهماً خَطِراً على الدول الضيقة التي لا تَجِد فيهـا سوى طُرُزِ معايشَ واحدة ولا تُبْصِر فيها سوى عِرْق متجانس تقريباً فـكيف يكون أمرها في الدول الواسعة كدولة الرومان أو دولة المغول ؟ وكيف يكون أمرها في بلد كالهند حيث ترى كثيرَ العروق والأديان والأجواء وما إلى ذلك من المُؤَثِّرات المختلفة المتجاورة ؟

والإنـكليز الفاتحون ، وهم أشـبه أمم الوقت الحاضر بالرومان ، قد انتحلوا في الشرق سياسة قائمة على احترام العادات المحلية القديمة فسيُضْطَرُّون إلى الرجوع إليها في قسم مهم من إمبراطوريتهم في الغرب على ما يحتمـل ، والإنـكليز هؤلاء قد أدركوا أن ما وَطَّدَته القرون لا يتحول إلاَّ مع القرون وأن الفوضى والخراب مما يَعُمُّ بلاداً تـكون محل نَزَوات الخياليين والمشترعين فـكان أمر الإنـكليز في ذلك ، من حيث النتيجةُ ، كأمر قدماء الملوك الذين كانوا يدركون بغريزتهم ذلك من غير دليل لا ريب .

وسار الإنـكليز على نَهْج ملوك المغول المستبدين فلا يطالبون بسوى دفع الضرائب بانتظام ، فإذا عَدَوْت النظام المالي وجـدت الإنـكليز قد تركوا للهنـد شرائعها ، وإن شئت فَقُل عاداتها الدينية على حسب تفسير البراهمة ، فلا ترى للمحاكم الأوربية فيها عملاً غير تنفيذ هذه الشرائع .

ولا مَعْدِلَ عن الاعتراف بأن ذلك التنفيـذ غير سهل على قُضاة الإنـكليز ، فالشرائع الهندوسية مُعَقَّدَة تعقيدَ المذاهب الدينية التي تُشْتَق منها ، فهي تختلف بين

ولاية وولاية ، و بين قرية وقرية ، فالحقّ أن الهند ظلت مواظبة على النظام الرّعائيّ فتجد مجلساً منتخباً يمارس السلطة الاشتراعية فى كل بَلَدِيَّة صغيرة فتبصر من خلال هذا مهدَ النَّدوات المترجحة بين مجلس الشيوخ الرومانى و برلماناتنا مما تراه فى جميع المجتمعات ذات الأصل الآرىّ .

ولـكن برلماناتنا تَسُنّ القوانين ، ولا يصنع ذلك المجلس المنتخب غير احترام النُّظُم التى نَضِجَت نَضَجاً بطيئاً بفعل الدين والعادة ، وترى نظام الهند فى دوره الأول، أى كما وضعه آباء الأُسرة الوِيدية حينما كانوا يجتمعون لحفظ الأمْن ونَفْع القرية ، وسار ذلك النظام منذ ذلك الزمن ، ومن السهل تعيين مراحله فى غضون التاريخ ، ما دام ذلك المجلس الآرىّ المنتخب لا يَضَع قانوناً فى القرن الواحد مع أن مجلس النواب يَسُنُّ عِدّة قوانين فى يوم واحد فى الغالب .

ولا نُفَصِّل العقوباتِ التى تُفْرَض على مقترفى الجنايات والجُنَح ، و إنما نقول إن الحكومة الإنـكليزية تجازى القاتل بالقتـل والسارق بالسجن مع صَرَامة ، وعندما يكون الجُرْم عظيماً يُضْطر القُضَاة إلى مجاوزة الرأى العام الذى هو أقل منهم شِدّة فى الغالب ، ومما رأيناه حينما بحثنا فى آداب الهندوسىّ أن بعض الصغائر عنده تـكون ، أحياناً ، أجدر باللَّوْم من الاحتيال أو الغَصْب ، ومن العقوبات التى نَعُدّها شائنة مالا يَشِين فى الهنـد ، فإذا خَرَج الرجل من السجن لم يُنْظَر إليه شَزْراً ، بل يَعُدّه أبناء وطنه ضحية إذا كان الأجنبىّ الغالب هو الذى حكم بسجنه رأساً .

و إذا استثنينا العقوبات الشديدةَ التى يقتضى الأمن العامّ فرضها وَجَدْنا للعادات فى الهند شأناً كالذى كان لها منذ عِدّة قرون ، وأهمّ هـذه العادات ما هو خاصّ

بالمواريث و بالتملك ، والمواريثُ والتملك أشد الأمور تعقيداً واختلافاً بين ولاية وولاية، وسنذكر من العادات الشاملة ما يتعلق بالمواريث .

لا يَعرِف الهندوسيّ الإيصاء ، فليس للهندوسيّ بعد موته أيّ سلطان على الأحياء، فما ذكرناه أن التملك فى الهند لا يكون فَرْدِيًّا إلا نادراً وأن الأملاك تكون للقرية فيها إن لم تكن للاسرة ، فإذا كان الهندوسيّ عاجزاً عن التصرف فى أثناء حياته بما يَمْلِك كما يريد فكيف يتصرف فيه بعد وفاته ؟

ليس الأب إلاّ مديراً لأموال أولاده فى الحقيقة ، فإذا مات بَقِى ما كان على ما كان ، فإذا أراد الأولاد القِسْمَةَ أخذ كلّ واحد منهم حِصّته ليؤسِّس أسرة، و إلاّ ظل الابن الأكبر مديراً للأموال قائماً مقام أبيه المتوفَّى .

والأولاد الذكور هم الذين يقتسمون تلك الأموال ، وأما المرأة فى الهند فلا تَمْلِك غير هِبات الأبوين والأصدقاء حين الزواج ، وليس للزوج حق فيما مَلَكَته الزوجة ، ولا يستطيع أن يَبيعه من أحدٍ إلا برضاها .

و إذا مات الرجل غيرَ ذى أولاد من الذكور وَرِثَته زوجته ما دامت فى قَيْد الحياة فقط .



١٧٢ — صندوق مزين بالمينا (راجبوتانا)

ولاطائل فى تفصيل شَبَكة الاشتراع الهندوسيّ المُعَقَّدة المُتحوِّلة ، والاشتراعُ الهندوسيّ إذ قام على العادة وحدها كانت الشريعة الهندوسية سبب ارتباك للقُضاة الذين يقومون بتنفيذها ، و يزيد هذا الارتباك عند ما يكون الخصوم من ولايات ذات عادات مختلفة ، وقد نشأ عن وسائل النقل

السريعة زوال الحواجز بين هذه الولايات ، فيَجْمُل بوُلاة الأمور أن يفكروا فى وَضْع قانون واحد شامل لجميع المسائل التى تقتضيها المصلحة العامة ، وهذا ما يَشْغَل بالَ الإدارة الإنكليزية فى الهند فى الوقت الحاضر كما علمنا .

٥ — الزراعة

أثبتنا فى فصل « البيئات » أن الهند بلد زراعىّ قبل كلّ شىء ، وأن عَطَلَها من الوَقود ، على الخصوص ، يحول دون تَحَوُّلها إلى بلد صِناعى .

إذَنْ ، تتألف أكثرية الهندوس من الزُّرّاع ، أى من الفقراء الذين يعيش الواحد منهم مُيَاوَمةً ببضعة دوانق يختطفها من بيت المال أو المرابين الذين هم أشدّ ظلماً من بيت المال فلا يَجِدون وسيلةً للاغتناء أفضل من أكل الربا .

ومما زاد الفقرَ فى الهند زيادةُ سكانها بسبب عدم وقوع الهندوسىّ فى بُؤس مُطْبِق ، فأضحى أهالى الهند فى أقلّ من قرن ضِعْفى ما كانوا عليه ، وشعبٌ يزيد أفراده كهؤلاء من غير أن يكون مالكاً لأراض واسعة يَزْرَعها ، كما يَمْلِك أهلُ الولايات المتحدة الأمريكية ، لا يغتنى أبداً ، فإذا ما نال ثَرَاء فى أحوال شاذّة فلأَجَل محدود ، فلذلك نقول إن سكان الهند ، على الخصوص ، يزيدون بسرعة على وسائل معايشهم .

ومن حسن حظّ الهندوسىّ أن كان من قِلّة الاحتياجات ما يبدو به أقلّ بُؤساً من ابن الطبقة الأوربية المماثلة لطبقته ، فلم أسمع أن هندوسياً أُمّيّاً يتوجّع من سوء طالعه ، فلو كان عنده ربع ما عند الأوربىّ من الاحتياجات لتعذر عيشه ، فإذا ما قُيِّض للإنكليز أن يجعلوا فيه مثل هذه الاحتياجات بفعل ما يَتَلَقَّنه من أصول

تربيتهم رأى الحياة أمراً لا يطاق كما يراها الأوربيّ الذى يُحَدَّد دَخْلُه اليوميُّ بثلاثين دانقاً أو أربعين دانقاً مثلاً .

حَقّاً أن الهندوسيّ ، الذى هو أخلى النــاس هَمّاً ، إذا ما كان له كُوخٌ من مَوْص[1] يأوى إليــه ونال قطعتى نسيج لَيَلُفَّ إحداهما حول رأسه ويَلُفَّ الأخرى حول كُلَيْتَيْه ونال حُفْنة أرُزّ فى كلّ يوم غدا مطمئناً غيرَ حاسد أحداً .

ولا يألم الهندوسيّ إلا عند المجاعة ، ولا يلبث أن يموت جوعاً عند ارتفاع أثمان الحبوب ، وتسيطر غَفْلَته الطبيعية على حاله ، فهو يَصْرِف ما يَكْسِبه يوماً فيوماً فلا يقتصد ما يمكنه وقت اليسر ، فينفق ما يزيد على احتياجه فى ابتياع الأسْورة والقلائد وفى إقامة الولائم .



١٧٣ — إناء من البرونز مكفت بالنحاس (تانجور)

ذلك حال الهنـدوسيّ فى كلّ زمن وفى عهد جميع الفاتحين ، ومن عدم الإنصاف عَذْلُ سادة الهند على حال الهندوسيّ مهما كان العِرْق الذى ينتسبون إليه ، فالسُّنَن الطبيعية ، التى قَضَت على الهندوس بأن يزيدوا نفوساً بسرعة لا مثيل لها فى العالم وبأن يزرعوا فى سبيل الآخرين أرضاً لا نظير لخِصْبها فيموتوا فوقها جوعاً فى الغالب ، مما لا رادَّ لحُكْمه ، فهى أقوى من سلطان المتغلبين أنفسهم ولا ينفع لومها .

---

(١) الموص : التبن .

ويقتصر شأن الغالبين على تخفيف شِدَّة تلك السُّنن المُقَدَّرة على المغلوبين إذا كانوا من الكُرَماء المُنَوَّرين ، والحكومة البريطانية بَدَت خيراً من غيرها فى هذا الأمر ، فالحقُّ أن الهندوس أنعم حالاً وأهدأ بالاً فى العهد الإنكليزى مما كانوا عليه فى أىِّ زمن .

٦ — العامل الهندوسى

يُمَثِّل العامل الهندوسى ، بفضل نظام القُرَى القديم والطوائف المِهَنِيَّة ، دوراً غير الذى يمثله العامل الأوربىّ فى الغرب ، فالعامل الهندوسىّ ، سواء أكان فى قريته أم فى طائفته المِهَنِيَّة ، مكانُه الذى وَرِثه أباً عن جَدّ منذ قرون ، ويجهل العامل الهندوسىّ ما عَرَفَته شعوب الغرب من تنازع البقاء ومن العمل القاسى فى المصانع ومن البطالة وما إلى ذلك من ضروب البؤس التى نجدها فى حضارتنا ، وليس العامل الهندوسىّ بَدَوِيًّا كالعامل الأوربىِّ الذى لا تُبْصِر له وطناً ولا أسرة فيبدو عدواً هائلاً للمجتمع الذى يَعْمَل فيه ، فالحقُّ أن العامل الهندوسىّ لا يَكْسِب مُياوَمَةً أكثر من اثنى عشر دانقاً إلا نادراً ، ولكنه إذ كان عاطلاً من احتياجات الأمم المتمدنة المصنوعة فإنه يكتفى بهذا المبلغ الزهيد ، والحقّ أن أجرة العامل الأوربىِّ تزيد على أجرة العامل الهندوسىِّ عشر مرات ، ولكن احتياجات ذلك إذ كانت أكثر من احتياجات هذا بدرجات فإنه يبدو بائساً فى الغالب .

ولا يتمُّ تخرُّج العامل الهندوسىّ فى المصنع أو المدرسة أو الكُتّب ، فالمِهَن فى الهند أمر وِراثى ، فهى تنتقل من الأب إلى الابن منذ أقدم الأزمنة ، وفى القرية

التي هي عنصر المجتمع الهندوسيّ الأساسيّ يُصْنَع كلّ ما هو ضروريّ وكماليّ ، ولا تجد قرية عاطلة من خَزّاف أو نحّاس أو صائغ انتقلت إليه مهنته من أجداده منذ زمن مَنُو .

وتتألف طائفة من عُمّال كلّ مهنة في المدن الكبيرة ويتألف من كل مهنة عالَمٌ صغير له عريف ورائس ، كمهنة ناقشي العاج وصانعي الأسلحة والعطّارين والدهّانين والزجّاجين والخزّافين الخ .

ويقضي السائح ، الذي يجوب مدن الهند وقراها فيزورأ كواخ العمال ، العجبَ من حذق هؤلاء العمال ومن قلّة عدد الآلات التي يستعملونها في إنجاز أيّ عمل ، فيقطع السائح بأن عمال الأوربيين الذين يفوقون عمال الهندوس قليلون إلى الغاية وبأنهم يعجزون ، مع ذلك ، عن إنتاج مصنوعات مُتقنة بمثل تلك الآلات ، فحذقٌ كذلك هو نتيجة استعداد وراثي لا يُغْني عنه أيُّ تخرّج ، نَعَمْ ، قد يصنع العامل الأوربيّ أدواتٍ أفضل مما يصنعه الهندوسيّ مستعيناً بآلات ميكانيكية ، ولكنّ من فَرْط التساهل أن نساوي العامل الأوربيّ بالعامل الهندوسيّ ، والعاملُ الأوربيُّ هو مَن حَطّ الاختصاص قيمته الذهنية على عكس العامل الهندوسيّ .

٧ — حياة الهندوس العامة والخاصة

تكلمنا في الفصل الذي خصصناه للبحث في العروق عن طبائع سكان الهند وعاداتهم المختلفة ، فنقتصر في هذا المطلب على قول بضع كلمات عما يشترك فيه أكثر الهندوس من الطبائع والعادات .



تَجِد كبيرَ أُبَّهَةٍ وَرَوْعة وعظمة فى مظاهر حياة الهندوس العامة كاستقبالاتهم وأعيادهم الدينية وعَرْض جنودهم ومواكبهم فتألّف منها موضوع ألف قصة عجيبة لخيالاتنا الغربيـة ، وأما حياتهم الخاصة فبسيطة إلى الغاية .

١٧٤ - إبريق شاى يظن أنه صنع فى نيبال

وما لدى الغَنِىّ من الطعام والمأوى والعادات لا يختلف كثيراً عما لدى الفقير ، فيتألف طعام كليهما من الخُضَر والزيت أو السمن ومن التوابل والماء الخالص ، وكلاهما يأكل بأصابعه جالساً القُرْفُصاء على الأرض ، وما بينهما من الفرق فيتجلى فقط فى نوع البُسُط والفِراش والتُّحَج ، وتتألف أوانيهما من أطباق مصنوعة من ورق للّوْز ، وتَجِد عند الطبقات الدنيا من الأوانى الخَزَفيّة أو المعدنية ما لا تَجِده عند الطبقات العليا ، وسببُ ذلك أن ابن الطبقة العليا يخشى أن تكون هذه الأوانى مما استعمله شُوذْرِىّ أو منبوذ فلا يرى ، للخروج من هذا الاحتمال ، غير استعمال الأوانى المصنوعة من ورق الأشجار فتَتْلَف بعد استعمالها حالاً ، وهذا ما لا يخشاه ابن الطبقة الدنيا فيكتفى بغسل أوعيته تلك غسلاً حسناً .

وليس فى بيت التاجر الغنىّ ما يُمَيِّزُه من كوخ الفقير من الأثاث ، فكلا المنزلين عاطل منه ، وما فيهما من ظَرْف فمقصور على زينة الجُدُر المنقوشة المُرَصَّعة أحياناً وغِنَى الستائر الحريرية والزَّرَابِىّ المبسوطة على الأرض والوسائد التى يُجْلَسُ عليها أو يُسْتَنَدُ إليها .

وأظهر ما تبدو نعمة الغنىّ من أهل الهند فى المنازل الواسعة العالية وما يحيط بها من الحدائق ، وفى خرير المياه الجارية إلى الحيـاض ، وفى الثياب الفاخرة والحُلِىّ

الثقيلة الثمينة ، والزهدُ فى الطعام أمرٌ شامل لأهل الهنـد ، وما يمارسه أهل الهند كل يوم من الطقوس الدينية يجعل حياتهم واحدة مهما كانت الطبقات الاجتماعيـة التى ينتسبون إليها ، وتقوم هذه الطقوس ، على الخصوص ، على الغسل والصلوات صباحاً وظُهْراً ومَساء ، ولا سيما قُبَيْل الأكل أو بعده حالاً .



١٧٥ ــ إناء من فضة مموه بالميناء
(العصر المغولى)

والهندوسىُّ لا يبـدأ بعمل ولا يدنو من صديق ولا يُفَـكِّر فى نوم من غير أن يعوذ بالآلهة ، وهو ، لـكيلا يَغْفُل عن واحد من أدعيته الـكثيرة ، يستعين بسُبْحَة كالمسلمين والـكاثوليك ، وهو يكتفى ، فى الغالب ، بذكر أسماء آلهته المختلفة .

ووصفُ حياة الهندوسىِّ العامة أسهلُ من وصف دقائق حياته الخاصة ، وعِلَّة هذا ما فُطِر عليه من الغَيْرَة المانعة من اطِّلاع الأجنبى على سرائر بيته ، والهندوسىُّ ، مع ذلك ، مِضْيافٌ ذو أدب جَمّ .

ونساء الهندوسىِّ تظل بعيدات من أنظار الزائرين ، ومن الإهانة لربِّ المنزل أن يُسْأَل عنهن .

وإذا ما تَزاور الهندوس بَدَوْا أبسطَ أُلفَةً مع مراعاة أشدِّ قواعد الحِشْمة ، وتُعَدّ مقامات الناس ، ولا سيما مكان كلٍّ واحد

منهم فى رَدْهة الاستقبال ، من أعظم ما يلاحظه الهندوس ، فإذا ما حضر راجه أو أمير من البيت المالك جلس تحت مِظَلّة منصوبة فى صَدْر الرَّدْهة المقابل للباب ، ويصطفّ الآخرون على طول الرَّدْهة على أن يكون أقلُّهم منزلة بالقرب من الباب ، ويجلِس الجميع على بُسُط أو على وسائد .



١٧٦ — شمعدان من البرونز (مدورا)

ومن يستقبلُ الزائرين هو الذى يشير عليهم بالانصراف ، وذلك بإيمائه قولاً أو عملاً مصطلحاً عليه كأن يسأل مثلاً : هل يحظى بزيارتهم مرة أخرى ؟ أو كأن يَعرِض عليهم تَنبُلاً[1] أو جُلّاباً[2] .

ويَلبَس هندوس الشمال ثياباً بحسب الزىّ الإسلامى على العموم ، ويحافظ هندوس الوسط والجنوب على الزّىّ التقليدىّ المؤلف من قطعة نسيج تُلَفُّ حول الكُلْيتَيْن وقطعةِ نسيج أخرى تُلَفُّ حَوْل الرأس ، وتَلبَس المرأة نسيجاً فَضْفَاضاً (سَارِى) يحيط بساقيها ويُرَدُّ أحياناً إلى ما فوق رأسها فيستر وجهها ، وتَلبَس المرأة أيضاً صُدْرَةً قصيرةً لا تستر خصرها ، ولا يَلبَس الهندوس أحذية ، بل يَلبَسون بوابيجَ مَعْقوفةَ الطَّرَف حينما يكونون خارج بيوتهم فيخلعونها فى العَتَبات ، فالهندوس حُفَاةٌ فى منازلهم .

---

(١) التنبل : نبات من الهند يمضغ ورقه — (٢) الجلاب: ماء الورد (معرب)

ومنظر قُرَى الهندوس حسن رائع ، ويُؤلّف أكثر بيوتهم من طبقة واحدة ، وتُصنَع جُدُر هذه المنازل من سِيقان الخَيْزُران كما فى البنغال ، ومن الطين مع سقوف من القِرْمِيد كما فى الهندوستان أو سقوفٍ من الصّلْصال المرصوف كما فى الدَّكَن ، وتكاد تجد معبداً صغيراً فى كلّ خطوة ، وتقوم فى وسط القرية دائرة البلدية المصنوعة فى الغالب من سَقْف قائم على أعمدة ومن ميدان ذى شجر ظليل ، ويُرَى فى القرية حىٌّ منفصل خاصٌّ بالمنبوذين ، ويجتنب الهندوس لَمْسَهم بدقة من غير إيذاء ، ويقرُب حال المنبوذين هؤلاء من حال السائلين فى أوربة .

والطرق فى كُبْرَيات مُدُن الهند ضيقة ومزدحمة ويسير فيها جمهور أنمر[1] على الدوام ، ويجوبها الأغنياء فى هوادجَ يتبعها حَمَلَةٌ متناوبون وتُوضَع السّلع على مصاطب الحوانيت فيدفع المشترون الثمن من غير أن يدخلوا هذه الحوانيت المُفتَّحة الأبواب ، وتبدو سوق التجار أكثرَ أماكن المدينة حركةً وتَغَصُّ المعابد بالجمهور أيضاً ، مثلما تَغَصُّ أطراف حِياض الغسل .

ولكلِّ معبد حَوْض مقدس يَغْطِس الرجال والنساء والأولاد فى مائه القذر فى الغالب .

وماء نهر الغَنْج نفسُه هو الماء المُقدَّس فى المدن القائمة على ضِفافه ، ويُنزَل إلى هذا النهر من دَرَج عالية على الدوام ، لِما يطرأ على مستواه من التحول ، وتَغَصُّ تلك الضِّفاف بالحجيج فى الأعياد الدينية ، وتبدو رائعة فى الليل بساحر الأنوار ، ولا شىء

---

(١) الأنمر : ما فيه بقعة بيضاء وأخرى سوداء .

أجملُ من نهر الغَنْج الجليل حين تنعكس عليه أنوار النيران التي تُوقَد على أرْصِفَة القصور والمراق القائمة على ضفافه ، ويسطع بعض هذه الأنوار فوق الصَّوارى[1] فيُخَيَّل إلى الناظر أنها تناطح الكواكب .

وزينةٌ كتلك مما يَرُوق الهندوسَ ، ومما يزيد أعيادَ الهندوس رَوْعَة ازدحامُ الجماهير التي تجتمع فيها وضروبُ الأُبَّهَة التي تتجَلَّى فيها ، أجَلْ ، إنك تشاهد أعياداً لكل مدينة ولكل طائفة ولكل مذهب ، بيد أن هنالك أعياداً كبيرةً عامة تلتقى فيها جميع الأديان .

وللحجّ والأسواق فضلُ جَمْع مختلف الشعوب فى صعيد واحد ، والتجار يتبعون الحجاج فيزيدونهم عدداً ، ولا تُفتَح سوقٌ قبل البدء بتمجيد الآلهة .

وأولادُ الهندوس ، وهم من الأذكياء الحسان على العموم ، يترعرعون طُلَقاء ، فيلْعَب أبناء الفقراء ويَرْتَعون فى الطُّرُق والحقول عُرَاةً ، ويتخَرَّج أبناء الأغنياء على البراهمة المرتبطين فى بيوت والديهم كَمُؤَدِّبين ، وقليلٌ من هؤلاء الأبناء من يذهبون إلى المدارس مع ما تَبْذله الحكومة الإنكليزية من الجهود ، فإذا ما بلغ الواحد منهم السنة العاشرة أو السنة الثانية عشرة من عمره تَزَوَّج .

والنساء يَمشِن مُقَيَّدَاتٍ كما ذكرنا ، فإذا خَرَجْن مع زوجهنَّ ابتعدن عنه بضع خطوات ، وإذا سافَرْن معه فى القطار تَبَوَّأن مقاعدَ فى مركبة الدرجة الثالثة مع أنه يَتَبَوَّأ مقعداً فى مركبة الدرجة الثانية فى الغالب ، وهنَّ لا يأكلن إلا بعده ، ويَخْدِمْنه فى أثناء طعامه .

---

(١) الصوارى : جمع الصارى وهو عمود يركز فى وسط السفينة يعلق به الشراع .

ويحرق براهمة الهندوس موتاهم إذا زادت أعمارهم على سبع سنوات ، وإلا دفنوهم على العموم .

ويكون المَوْقِد حُفْرة قليلة العُمْق ، فإذا كان الميت غنياً مُلِئَت هـذه الحُفْرَة بحُطَيْبات من خشب الصَّنْدَل وزِبْل البقر المُجَفَّف الذى يُعَدُّ وَقُوداً مقدساً فى الهند ، ثم تُسْتَرُ الجُثَّة وجميع المَوْقِد بطبقة رقيقة من الطين الرَّطْب ويُحْرَق الوَقيد قبل إغلاق جميع المَوْقِد ، فإذا ما تم الحرق فى خمس ساعات أو ست ساعات وحَلَّ الغد جَمَع الأقارب عِظَام الميت المحروقة ورَمَوْها فى بحر أو نهر .

والهندوس مفرطون فى إظهار سَرَّائِهم وفى إظهار ضَرَّائِهم ، وهم ذوو جَـذَل بطبيعتهم ، وهم محبون للاحتفالات والألعاب والملاذّ العامة ، وهم ، مع زهدهم عادةً ، يقيمون أفخر الولائم فى بعض الأحوال ، والزواج أهمّ عيد عند الأسرة الهندوسية ، ففى سبيل الزواج لا يَعْرِف الهندوس للإنفاق حـدوداً ، فيُخَرِّب فقراؤهم بيوتهم بأيديهم فى حَفَلات الزواج فيُثْقِلون كواهلهم بالديون من أجْـل دعوة جيرانهم إلى الولائم التقليدية .

وإذا سألت عن أمر الأغنياء فى الهند علمت أن أفراحهم تقْتَرِن برقص الراقصات وبالصيد على ظهور الفُيُول ، ومن أروع المناظر لدى الهُوَاة والمتفننين مواكب أمراء الهند للصيد حيث يَرَوْن فُيُولهم ذات الرَّخُوت[1] الزاهية وجيادهم ذات السُّروج الرائعة وكتائبَ خَدَمهم ذوى الثياب الساطعة .

وتُعَدُّ الراقصات ركناً فى جميع احتفالات الهنـدوس الدينية والمدنية ، وليست الفَتَيات الفقيرات ، المتوسطات الظَّرْف الرديئات الثيابِ الراقصات فى بيوت الأغنياء

---

(١) الرخت : السرج .

أو فى رداء الفنادق أمام الأجانب طمعاً فى أجر زهيد ، باللائى يتمثل الأوربىُّ بهنّ تلك الفاتنات المُدَّثِّرات بالشفوف الرقيقة واللابساتِ حُلِيًّا ساطعة واللائى يَقُمْن بالتمثيل الصامت المتموج الحافل بالأسرار فى المعبد بجنوب الهند واللائى يكون رقصهن أمام الآلهة أهمَّ عمل يَقُمْن به .

وأمراء الهندوس مُكرِمون للضيوف ، ولاسيما إذا كان الضيف مُوصًى به ، ولاأرانى خاتماً لهذا البحث الخاطف قبل أن أورد مالاقيته فى بَلاط بهوبالَ مثالاً على ذلك :

تَملِك مملكةَ بهوبال الصغيرة فى الوقت الحاضر مَلِكةٌ ، فلما عَلِمَتْ هذه الملِكة بقدومى أرسلت إلىَّ عربة من بَلاطها فبلغتُ بها أحد قصورها حيث استقبلنى خَدَمٌ كثيرون حاملون سِلالاً مملوءة فواكه وأزهاراً ، وكان على رأس الجميع وزير ليُبَلِّغنى أطيب تمنيات الملِكة .

١٧٧ ــ إناء معدنى مموه بالميناء (البنجاب)

فما كِدْت أدخل القصر حتى دَنا منى ضابط القصر قائلاً :

«تُرَحِّب الملِكةَ بكَ أيها السَّرِىُّ الأجنبىّ راجيةً أن تُعرِب عما تَرْغَب فيه» .

فأبديت رغبتى فى تناول العَشاء ، فبَدَت إشارةٌ فرُفِع حِجابٌ فرأيت فى الرَّدْهة المجاورة مائدة مُنَسَّقة على الطريقة الأوربية مشتملةً على شماعد وآنيةٍ من

بِلَّوْر وفضة يحيط بها خَدَمٌ لابسون ثياباً مختلفة الألوان واقفون صامتون كتماثيل من برونز مزملةٍ بحرير .

ولم أكد أجلس حتى سمعت صوت جَرَس فى الخارج فقيل لى إن هذا كان لأن المِلكة لم تَرَ أن تنام قبل أن أسأل عما أرغب فيه مرة أخرى .

فسألت أن يرافقنى حَرَسٌ إلى سانچى فى الغد ، فلما حلَّ الصباح وجدت الفيول والفرسان ينتظروننى أمام الباب ، ولما وَصَلْت إلى سانچى وجدت خَيْمَةً مُعَدَّةً لى مشتملةً على سُرُر مُغَطَّاة بِنُسُج من حرير وعلى دقائق القِرَى الشرقىّ .

وتمَّ لى مثل ذلك الاستقبال الرائع من قِبَل الوصىّ على عرش جِهَنْگِيرْبُور الذى أمر بأن يُنْصَب لى فى البَرِّيَّة بكهجورا خيمةٌ حاوية جميع وسائل الراحة الأوربية ، فلما رَجَعْت من ذلك البلد القديم المهجور فى الوقت الحاضر حضر لتحيتى ذلك الوصىّ على العرش مُحاطاً بوزراء البلاط وأمرائه بعيداً بضعة أميال من عاصمته .



١٧٨ — إناء خزفى مطلى (سندها)

حَقّاً أن ذلك القِرَى ينقلب إلى زَعْج الأجنبىّ إذا أمر الراجوات بضرب المدافع إيذاناً بوصول أجنبىّ إلى عواصمهم ، ولكنّ الخَطْب يهون على السائح إذا أراد الوقوف على الأُبَّهة الآسيوية وعلى المواكب السائرة والجماعات ذوات الثياب الزاهرة ، فالسائح الذى يُكْرَم بمثل ذلك يظلّ شاكراً لمن احتفى به فيذْكُر له ذلك .

وليست تلك المناظر الزاهية مُتْعَةً للعيون والخيالات فقط ، فالناقدُ والمؤرخُ يَجِدان فيها ، أيضاً ، مثل ما يَجِده المتفنن .

والسائح إذا دخل حيدر آباد على ظهر فيل فشاهد حَوْلَه حَرَس نظام ذى الأوضاع الرائعة أبصر صورة صادقة عن عاصمة كبيرة فى أيام سلطان الإسلام .

وحيدر آباد ، عاصمةُ ممالك نظام ، هى المدينة الهندية التى حافظت على مظهر القرون الخالية وعظمةِ بَلاطات الشرق القديمة ، وقد تُقَاس بمدن العهد الإقطاعى فى أوربة وإن لم يكن للشرق عهدٌ بالإقطاع الحقيقىّ ، فالباحث حينما يرى أمراء نِظام أصحابَ جيوشٍ يدخلون بها عاصمةَ المَلِك فى بعض الأحيان يتمثّل له ما كان يقوم به الأرمانياك والبورغون من القتال فى شوارع باريس .

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الإدارة الإنجليزيَّة

مستقبلُ الهند

---

(١) الإدارة الإنكليزية — مبادئ إدارة الإنكليز في مستعمراتهم — حكومة الهند قبل ثورة السپاهي — إدارة الهند الحاضرة — تقسيمات إدارية — سلطة الحكام ونائبيهم — موظفو الإنكليز ورواتبهم — استعدادهم الكبير — يدير الهندوس أمور بلادهم الثانوية — بساطة الإدارة الإنكليزية — الجيش — المالية — التجارة — وسائل النقل — دول الهند المستقلة — (٢) التربية الإنكليزية في الهند — أهمية التربية — تأثير التربية الأوربية السيئ في الهندوس — المثقف الهندوسي — عقله وأدبه — عدم اتزانه — (٣) مستقبل الهند — مسألة مستقبل الهند تتضمن نتائج اصطراع الشرق والغرب — يمكن الهند أن تغير سادتها ، غير أنه محكوم عليها بالخضوع للفاتحين من الأجانب — الأخطار التي تهدد سلطان الإنكليز في الهند — أهمية ما تتمخض عنه المنازعات الصناعية في الهند وفي بقية الشرق — نتائج هذه المنازعات الخطرة على أوربة — ما قد تسفر عنه من خفض أجور العمال في أوربة — لماذا لا يؤدي الأدب الأوربي الراهن إلى تبين مخرج ملائم لأوربة في التنازع الصناعي القادم بين الشرق والغرب

---

١ — الإدارة الإنكليزية

أقامت أمم كثيرة مستعمرات ، وحافظت أمم قليلة على ما أنشأت ، وعرفت إنكلترة كيف تحافظ على مستعمراتها على العموم ، فكان هذا سبب نَيلها مغانمَ عظيمة ، فلذلك نرى من المفيد جداً أن نَعلَمَ كيف تمتلكها .

ودرس الموضوع فى مجموعه واسع مااختلف نظام الإنكليز الاستعمارىّ باختلاف المستعمرات ، فمن المستعمرات الإنكليزية ما هو مستقل استقلالًا تامًّا تقريبًا كأستراليا التى لم يكن سلطان الإنكليز فيها إلا اسميًّا ، ومنها ما للإنكليز فيه حكام ذوو سلطان مطلق كالهند ، فنرى بين هذين الصنفين من المستعمرات مجالًا لتطبيق مختلف النظُم .

والنظام الذى ندرسه فى هذا الفصل خاصٌّ بالهند ، فسنذكر فيه خطوط ذلك النظام الذى استطاع به ألف من الموظفين وجيش صغير من الأوربيين (لا يكاد يزيد على الجيش الفرنسى المرابط فى الجزائر لحكم ثلاثة ملايين من المسلمين) أن يُخضعوا به أكثر من مئتى مليون من الآدميين ، أى أكبر إمبراطورية فى العالم بعد الصين .

ليس من السهل استخلاص المبادىء العامة التى سار عليها الإنكليز فى تأسيس إمبراطورية الهند الاستعمارية وما إليها من المستعمرات ، وهذه المبادىء العامة هى من قواعد السلوك التى ترغب الأمم ، كالأفراد ، فى العمل بها عملاً لاشعوريًّا فى بعض الأحيان من غير أن يُوحَى بها فى الكتب ، ونحن ، إذ بحثنا فى الإدارة الإنكليزية بالهند وفى تاريخها بحثًا دقيقًا أمكننا أن نستخرج تلك المبادىء كما يأتى :

١ — يجب أن يكون فتح إحدى المستعمرات تجاريًّا قبل فتحها حربيًّا ، فالتجار ، وحدهم ، يستطيعون أن يُثبتوا ، برواج أسواقهم ، وجودَ نفع بالغ فى الاستيلاء على بلد ، فإذا ما فعلوا ذلك دُوِّخ ذلك البلد عند القدرة على قهره عسكريًّا ، وإلا فتِح بالحيل والدسائس .

٢ — يجب أن يَتِمّ قهر البلد الذى يراد فتحه بمال هذا البلد وبجنوده ، فعلى الأوربىّ الغازى أن يقتصر على إدارة شؤون هذا الفتح ، وقد رأينا كيف أن هـذا

المبدأ الأساسىّ قد طُبِّق فى فتح الهند فاستطاع الإنكليز، بتدخلهم فى منازعات أمراء الهند، أن يستولوا به على جميع الهنـد من غير أن يتكبدوا نفقة أو ضَياعاً فى الرجال إلا قليلاً جداً.

٣ — يجب أن تُستغلّ المستعمرة استغلالاً تاماً فى سبيل الأمة الغازية الفاتحة وحدَها ما دامت عاجزة عن رفع نيرِ هذه الأمة الأجنبية عنهـا كما رُفِع عن أمريكة وأوسترالية.

٤ — يجب ألا تُمَسّ نُظُم المستعمرة وعاداتها ومعتقداتها إذا ما أُرِيد استغلالها اقتصادياً من غير أن يرفع سكانهـا راية العصيان، وذلك بأن تُترك لهم إدارتهم وقُضاتهم مع إشراف شِرْذِمَةٍ من الأوربيين لا يألون جُهْداً فى الوصول إلى المقصدين: حفظِ الأمْن وجبايةِ أقصى ما يمكن من

١٧٩ — عقد من فضة (سندها)

الضرائب، وتُبْصِر من لقب « الجباة » الذى يطلق فى الهنـد على أكابر موظفى الإدارة الإنكليزية هدفَ الإنكليز من استعمارهم للهند.

٥ — يجب ألّا يتوالد الغالبون والمغلوبون أبداً، ما دامت التجارب المكررة منذ القديم قد دلّت على أن توالد الشعوب العليا والشعوب الدنيا فى المستعمرات يؤدى إلى انحطاط الشعب المهيمن أخلاقاً وعقلاً ثم إلى خروج مستعمرته من يده فى أقرب

وقت كما أصاب البرتغاليين فى الهند والإسبانَ فى أمريكة ، وقد رأينا فى المطالب الذى درسنا فيه أمر الطوائف كيف أن الإنكليز عَضُّوا على هذا المبدأ بالنواجذ .

ولا مِراء فى أن المبدأ القائل باستغلال المستعمرة فى سبيل الأمة الغالبة وحدَها صَعْبُ التطبيق ، فإذا ما جاوزت هذه الأمة الحدود فأساءت التصرف أصبح سلطانها لا يُطاق فثار عليها الشعب المقهور ، فتَبَيُّنُ هذه الحدود ليس من السهولة بالذى يُظَنُّ ، فقد التبس الأمر على الإنكليز مع روحهم العملية الممتازة ، فكادوا يخسرون الهند لمجاوزتهم تلك الحدود .

ظلت حكومة الهند الإنكليزية قبل ثورة السِّپاهى منذ ثلاثين سنة تَستغلّ مئتى مليون من الآدميين بواسطة شركة تجارية اتخذت عِصاباتٍ من الإنكليز المرتزقين حاميةً لها فلم يستفِدْ من هذا الاستغلال سوى هؤلاء الإنكليز الذين فُوِّض إليهم أمرُ إدارة الهند ، فلم ينَلْ مساهمو تلك الشركة ربحاً ذا بال ما كان همُّ كل موظف إنكليزى من هؤلاء ، صغيراً كان أو كبيراً ، أن يغتنى بسرعة ، فبحث البرلمان الإنكليزى فى فضائح هؤلاء الموظفين الإنكليز المالية فى الهند ، فلما عَمّ الجوْر والطُّغيان وقفت الأعمال العامة فأُهمِلت الطرق والحِياض والقنَوات الخ . إهمالًا تاماً .

١٨٠ — حلية من فضة على شكل شبكة (أوربية)

دَلّت ثورة السِّپاهى الدامية ، التى كادت تؤدى إلى خروج الهند من أيدى الانكليز ، على ما فى تلك الحكومة من الأخطار ، فلم تكد تلك الثورة تُطْفَأ حتى غُيِّرت تلك الحكومة تغييراً أساسياً ، فقد نُشِر فى سنة ١٨٥٨ المرسومُ المعروف بـ « مرسوم الحكومة الرشيدة فى الهند » فنُزِعت به حكومةُ الهند من تلك الشركة التجارية وأُسْنِدت إلى المليكة ، وعُيِّن وزير للهند وأضيف إليه مجلس مؤلف من أعضاء أقاموا بالهند عشر سنوات على الأقل ، وقُسِّمت الهند إلى ولايات يرئسها نائب ملك على أن يساعده مجلس تنفيذىّ يُعَيِّنه صاحب التاج ومجلسٌ اشتراعىّ يُعَيِّنه نائب الملك هذا ، فاليوم ترى الهند مقسومة إلى الولايات الثمانى : (البنغال ، والمناطق الشمالية الغربية ، والپنجاب ، والمناطق الوسطى ، ومدراس ، وبَمْبى ، وأسام ، وبرمانية) ، لا إلى ثلاث رياسات كما قيل على العموم، وترى على رأس أهمّ هذه الولايات موظفين مستقلين لا يتلقَّوْن من نائب الملك أوامر فى غير أمور الجيش والمالية ، حتى إن حاكمَىْ بَمْبى ومدراس يتصلان بالتاج رأساً ، أى من غير طريق نائب الملك ، فتجدُ لكلٍّ واحد منهما مجلساً اشتراعياً ومديرين .

وتُقَسَّم كلُّ ولاية إلى مديريات يدير شؤونها موظف تنفيذىّ يدعى بـ « الحاكم الجابى » أو « النائب المُفَوَّض » ، وتكون السلطات الإدارية والقضائية فى يد واحدة أو منفصلاً بعضها عن بعض بحسب حضارة كلِّ مِنطقة ، واليوم يكاد بعض هذه السلطات يكون مفصولاً عن بعض فى كلِّ مكان .

ويبلغ أهل كلّ مديرية ، وهى ما تَعْدِل المديرية الفرنسية ، مليوناً فى الغالب ، ولا يزيد عدد موظفى الإنكليز المدنيين فى الهند بأسْرها على ألف ، ويرتبط هؤلاء فى إدارة « الخدمة المدنية » ، فبهؤلاء يحكم الانكليز مئتى مليون من بنى الإنسان .

ويُعتنى باختيار هؤلاء الموظفين ، فيتألف من مجموعهم طبقة راقية لا تملك أمة مثلها ، وقد اتصلتُ بغير واحد من هؤلاء فقضيت العجب من أخلاقهم وقوة تمييزهم فضلاً عن ذكائهم وقوة معارفهم ، فهم يديرون شؤون الهند بحكمة وإخلاص .

وتُجزل الحكومة الإنكليزية رواتب موظفيها فى الهند مع تدقيق فى أمر تعيينهم ، وقد كان هذا التعيين يتمّ بالخِيار فيقوم الابن مقام أبيه فى إدارة الهند كما كان يُرى، وأما اليوم فيتمّ التعيين للوظائف بالمسابقات فيُجتنَب ، بذلك ، بعض المساوئ ، غير أن الخُلق والنشاط الضروريين فى مزاولة تلك الوظائف ليسا مما يُقدَّر بالامتحانات كما أصاب السر ريشاد تمبل فى قوله .

وليس قبول المرشحين فى تلك الوظائف بالأمر السهل ، فبعد أن يُمتَحن المرشح فيما يُثبت به تعليمه ومعرفته التامة للهندوستانية (لأن الإدارة الإنكليزية لا ترضى بأن يُحكَم قوم من غير أن تُعرَف لغتهم) لا بدّ من مجاوزته بعض المراحل التى تنكشف بها أهليته ، فيدخل إذ ذاك دائرة « الخدمة المدنية » براتب يترجح بين ٩٠٠٠ فرنك و١٧٠٠٠ فرنك على حسب الفرع الذى رُئى استعداده له ، فإذا مرّت عليه أربع سنوات ترجّح راتبه بين ٢٢٠٠٠ فرنك و٣٠٠٠٠ فرنك ، وإذا مرّت عليه ثمانى سنوات ، أى حينما يكون حوالَى الثلاثين سنة من عمره ، كان له أن يأمُل نَيْل ٥٠٠٠٠ فرنك راتباً ، فيسير من هذه الدرجة إلى أن ينال ١٠٠٠٠٠ فرنك ، أو أكثر، راتباً ، وهذا مع نَيْله تعويضاً إذا ما تعلم لغة جديدة ، ولا سيما العربية أو الفارسية أو السنسكرتية فى غضون ذلك .

وبعد أن يَمضى على الموظف البريطانى المرتبط فى إدارة « الخِدْمة المدنية » ٢٢ سنةً ، أى إذا ما كان فى الأربعين من عمره ، حُقّ له أن يعود إلى إنكلترة براتب

تقاعد سنوىّ يترجح بين ١٥٠٠٠ فرنكٍ و ٢٥٠٠٠ فرنك[1] .

وتجد تحت موظفى الإنكليز أولئك مئاتِ الألوف من موظفى الهندوس الثانويين الذين يَنْدُر أن يزيد الراتب الشهرى لكلٍّ واحد منهم على خمسين فرنكا ، أى على هذا المبلغ الكثير على الهندوسىّ ، فبهؤلاء وحدَهم يتصل الجمهور الهندوسىّ ، فهؤلاء إذ كانوا مطلعين على احتياجات ذلك الجمهور وأفكاره ونُظُمه المختلفة باختلاف الولايات بَدَوْا قادرين على القيام بما فُوِّض إليهم ، فتُدار كل ولاية وكل مديرية بحسب عاداتها القديمة .



١٨١ ـ سارية سرير مدهون باللك (سندها)

ترَى ، من ذلك ، درجة كمال تلك الإدارة وبساطتها ، وبينما تشاهد الأمم الأخرى تُرْسِل إلى مستعمراتها الواقعة فيما وراء البحار جحافل من الموظفين المتفاوتى الدرجات الجاهلين للغة وطنهم الموقت ومبادئه وطبائعه وعاداته فلا يصدر عنهم غيرُ مَسِّ مشاعر من يحيطون بهم تَسْتَخْدم الحكومة الإنكليزية فى إدارة مستعمراتها موظفين أهليين وقضاةً محليين تحترم بهم شرائع هذه المستعمرات وعاداتها ، وما يناله أكابر الموظفين من رواتب ضخمة مما يَحُول دون ارتشائهم فيَبْذِلون ذكاءهم

(١) رواتب الضباط أقل من رواتب موظفى « الخدمة المدنية » ، فالترقى فى الجيش إذ كان يتم بسرعة فإن الجيش يكون لديه من يحتاج إليهم من المرشحين بدرجة الكفاية ، ورواتب موظفى الجيش أعلى مما فى أوربة مع ذلك ، فراتب العريف فى الجيش ١٥٠٠ فرنك، وراتب الملازم ٦٠٠٠ فرنك ، وراتب قائد المئة ٢٠٠٠٠ فرنك ، وراتب القائد ٣٠٠٠٠ فرنك ، ويكون راتب أمير اللواء مترجحاً ، فقد يزيد عن ١٠٠٠٠٠ فرنك إذا كان أمير اللواء مندوباً أو مقيما ، ومن ذلك حال أمير اللواء الذى هو مندوب فى راجبوتانا فى الوقت الحاضر .

فى سبيل الأعمال التى وُكِلَتْ إليهم ، ومن هؤلاء الموظفين المرتبطين فى « الإدارة المدنية » من أقاموا بالولاية الواحدة عشرين سنة فعرَفوها معرفة تامة .

ويمكننا انتقاد نظام يترك الأمم المقهورة حرة فى نُظُمها وعاداتها إذا ما نظرنا إلى الأمر من حيث المبدأ القائل إن شأن الأمم العليا هو فى فَرْض ما نسميه نِعَم الحضارة على الأمم الدنيا ، وترانى ، مع ذلك ، غيرَ معتقد صواب هذا المبدأ النظريّ غيرِ الصالح لبقاء المستعمرة قبضةَ الأمة التى أقامتها، أجَل،

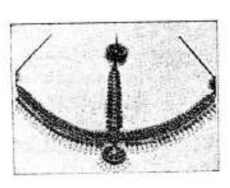
١٨٢ ــ حلية من ذهب (بمبى)

إننا نظن أننا نصنع خيراً إذا منحنا ما بَقِيَ لنا من المستعمرات فى الهند نُظُمَنا الجمهورية كالمساواة والانتخاب العام الخ ، بَيْدَ أنه يجب على من يُعْجَبون بهذا النظام الاستعمارى ألاّ يأسفوا على أننا أضعنا الهند فى عهد لويس الخامس عشر ، وذلك لأن تطبيق مبادئنا العظيمة على الهند كان يؤدى إلى خُسْرِنا لها بسرعة لا مَحالة ، فضلاً عن وقوعها فى فوضى دامية كبيرة .

ولا شيء أقضى لعَجب السائح الذى يَصِل إلى پونديچيرى بعد أن يزور الهند من المقابلة بين قلة احترام الهندوس للأوربيين فى هذه المستعمرة الفرنسية واحترامهم العميق للأوربيين فى الهند الخاضعة لسلطان إنكلترة ، فنحن نرى من المعروف الطيب أن نُنْعِم بنُظُمنا الراقية الحديثة على المشابهين لأبناء القرون الوسطى ، والهندوس يَرَوْن أننا لم نصنع ذلك إلا لأننا نخشاهم ، فنَفْقِد ، بذلك ، نفوذنا لديهم ، فلنحتفظ

بمبادئنا فى المساواة إذا لم نستطع العيش بدونهـا ، ولكن لنَكُفَّ عن تأسيس المستعمرات ما تمسكنا بتلك المبادئ .

ونَتَمَثَّل النتائج التى أسفرت عنهـا الإدارة الانكليزية الجديدة فتوقفت عليها مقادير الهند منذ ثلاثين سنة مستعينين بالإحصاءات الرسمية ، فبفضل تلك الإدارة سُتِرت الهند بالخطوط الحديدية والقَنَوات وأسلاك البرق والأشغال العامة فأضحت أنجح مستعمرة ملكتها أمة ، ومن النظر فى بعض الأرقام نتَمَثَّل حال هـذه الإمبراطورية العظيمة بسهولة .



١٨٣ — حلى (ترى چنايل)

يخضع للإنكليز مئتا مليون من الأهالى ، فإذا أضفت إلى هذا العدد سكان ممالك الهند الأهلية البالغ عددهم ستين مليوناً كان المجموع ٢٦٠ مليوناً ، ولا تكاد تَجِد نصف مليون من هؤلاء نتيجةً لتوالد الهندوس والأوربيين ، ويرجع هذا التوالد ، على الأكثر ، إلى زمن كان الإنكليز والهندوس فيـه على اتفاق أكثر مما هم عليه الآن .

والجيش الإنكليزى فى الهند مؤلف من ٦٥٠٠٠ جندى فقط ، وتَجِد بجانبه جيشاً من الهندوس مؤلفاً من ١٢٧٠٠٠ جندىّ ، ويقود هـذا الجيش ضباط من الإنكليز .

ويبلغ دخل بيت المال فى الهند ملياراً و ٧٠٠ مليون ، ويُجْبَى ٥٦٥ مليوناً من

هذا المبلغ من الخَرَاج و ١٣٠ مليوناً من الأفيون و ١٥٥ مليوناً من الملح .

وتترجح نفقات الجيش ، بحسب السنين ، بين ٤٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون ، وتَبْلغ نفقات الإدارة المدنية ٢٧٥ مليوناً ، وتبلغ نفقات الأشغال العامة ٣٧٥ مليوناً ، وتَبْلغ الديون العامة أربعة مليارات ، ومن هذه المليارات الأربعة مليار واحد أُنفِق لقمع ثورة السپاهى ، ومنها ٥٤٠ مليوناً أُنفِقَ فى محاربة الأفغان الأخيرة .

وتتألف الأشغال العامة الكبرى من الخطوط الحديدية والقَنَوات على الخصوص، وفى الهند أكثر من ٢٠٠٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ، ونحوُ هذا المقدار من القَنَوات .

وتُقَدَّر موازنة الهند التجارية فى الوقت الحاضر بثلاثة مليارات ، فتبلغ الصادرات ١٧٠٠ مليون ، وتبلغ الواردات ١٣٠٠ مليون ، وأخذت صادرات الهند تزيد على وارداتها منذ سنين ، فانتهت هذه الزيادة إلى ٤٠٠ مليون فى الوقت الحاضر ، ومعظمُ هذه الزيادة هو ما يجب على الهند أن تدفعه من النقود إلى إنكلترة فى مقابل إدارتها ، ويمكن عَدّ هذا المبلغ ضرباً من الجِزْية الخطِرة على كِيان الهند الاقتصاديّ .

والقطن والأفيون (٢٧٥ مليوناً) والأرز والبُرّ أهمُّ صادرات الهند ، والنسائج القطنية أهم ما تستورده الهند .

والهندُ تستورد النسائجَ القطنية (٦٥٠ مليوناً) من إنكلترة ما دامت مصانع الهند الابتدائية لا تَقْدِر على مزاحمة المصانع الإنكليزية ، وأخذت مصانع الهند تَصْنَع ، مع ذلك ، مقادير كبيرة من النسُج القطنية فتبيعه من الصين وشواطئ إفريقية الشرقية وجزيرة العرب .

والصين و إنكلترة أهمُّ البلدان استيراداً من الهند ، ومرفأُ هونغ كونغ أهمُّ مكان لهذا الاستيراد .



١٨٤ — سوار من فضة (البنغال)

وتُنْقَل صادرات الهند بحراً في ١٢٠٠٠ سفينة أو ١٣٠٠٠ سفينة تَقْصِد موانئ الهند ، ويَرفع ٨٣ في المئة من هذه السفن المترددةِ إلى مرافئ الهند أعلاماً إنكليزية .

وإذا كان رَخاء الأمة بحسب سرعة مواليدها ، وهذا ما أجادل فيه ، كانت الهند أرغد عيشاً من أيِّ بلد في العالم لِما اتفق لها ما لم يتفق لغيرها من زيادة المواليد ، فالهند التي قُدِّر سكانها بمئة مليون في سنة ١٨٠٠ صارت تشتمل على مئتي مليون من الأهالي في سنة ١٨٧١ ، ومما حدث أن بلغت الزيادة في عشر سنين ، أي بين السنتين ١٨٧١ و١٨٨١ ، اثني عشر مليوناً مع ما انتاب الهند من المجاعات والأوبئة التي تُهْلِك ملايين الناس فيها بأوقات معينة ، وفي هذه الزيادة ما يُسَرُّ منه بعض الاقتصاديين لو لم يَزْعُم اقتصاديون آخرون أن الأمم الفقيرة وحدها هي التي تتكاثر كالأرانب إذا عَدَوْتَ البلدانَ التي تحتوي على أرض واسعة غير عامرة كأمريكة .

ويقطن أولئك الأهالي ، البائسون القانعون على العموم بما قُسِم لهم ، في الأرياف على الخصوص ، وليس في كلِّ قرية من نصف قُرى الهند أكثرُ من مئتي نفس ، ومن النادر أن ترى تجمعات كبيرة في الهند ، فلا تجِد فيها أكثر من خمسين مدينة تحتوي الواحدة منها ما يزيد على خمسين ألف نفس .

وإذا عَدَوْتَ مثتى المليون الذين يحكمهم الإنكليز رأساً رأيتَ في الهند ستين مليوناً من الأهالى يقيمون بممالك يرئسها ملوك مستقلون يراقبهم الإنكليز فى صِلاتهم السياسية ، وأراضى هذه الممالك أهمُّ من سكانها لبلوغها خُمْسَى أراضى الهند ، ويُقدَّر دَخْل هذه الممالك بأربعمئة مليون، وتشتمل جيوشها على ٣٥٠٠٠٠ جندى و ٤٠٠٠ مِدْفَع ، وتتفاوت هـذه الممالك اتساعاً ، فبينا ترى منها ممالك كمملكة نظام التى تَعْدِل إيطالية مساحةً مع تسعة ملايين من السكان وثلاثين مليوناً من الدخل ، تجِد منها ممالكَ كمملكة كاتهياوار المؤلفة من قرية واحدة يَمْلِكها أحد الراجوات ، وترى فى بعض الولايات ، كبرار ، أناساً يلقبون براجه تلقيباً شَرَفِيًّا كما يُلقَّب بعض الناس فى أوربة بدوك أو ببارون .

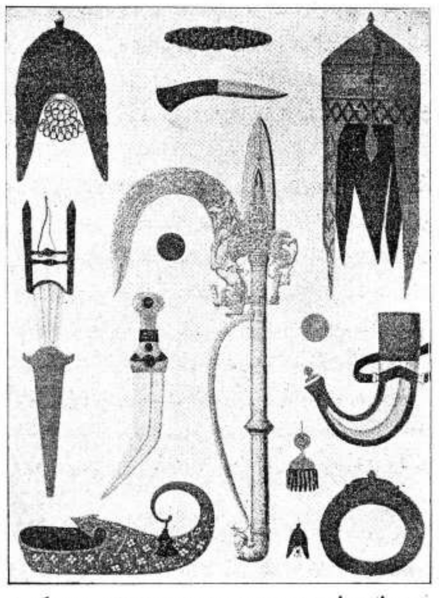
يتمتَّع ملوك تلك الممالك بسلطة مطلقة فى تدبير شؤون رعاياهم ، ولم تتقيد سلطة أولئك الملوك إلَّا بمعاهدتهم لإنكلترة على ألا يَشْهَر بعضهم حرباً على بعضٍ وألا يتبادلوا السفراء وألا يَقْبَلوا أوربياً فى بلادهم من غير أن تأذن الحكومة البريطانية فى ذلك ، ويقيم بعاصمة كلِّ مملكة مهمة من تلك الممالك سفير إنكليزىٌّ لا تَعْدو وظائفه دائرة الشؤون الدبلوماسية ولا يتدخَّل فى الأمور الإدارية إلا فى أحوال شاذة ، وبعضُ تلك الممالك يُعْطى إنكلترة جزية وبعضها لا يُعْطى شيئاً ، وإذا عَدَوْتَ بضع ممالك منها وَجَدْتَها حديثة وتقوم بأمورها أُسر مالكة بدأ سلطانها بعد سقوط دولة المغول .

٢ – التربية الإنكليزية فى الهند

إن من أكثر المواضيع ، التى توحى بها الهند الحاضرة إلى الباحث ، طرافةً وأقلّها وَقفاً للنظر حتى الآن هو ما يُؤدّى إليه تطبيق تربية ملائمة لشعب راقٍ على شعب متأخر كالهندوس ، وليس فى التاريخ ، على ما أعتقد ، تَجْرِبةٌ تمّت على مقياس واسع فى ذلك كالتى تتمّ فى أيامنا ، ومما يفيد الأمم الراغبة فى إنشاء مستعمرات وفى المحافظة على ما فى يدها ، على الخصوص ، أن تَطّلِع على نتائج هذه التجربة .

تُعَدّ الهند الحاضرة عنوان ما كانت عليه الحال فى القرون الوسطى ، فتطبيقُ أصول التربية الحديثة عليها هو كتطبيق هذه الأصول على أمم القرون الوسطى أن لو كانت موجودة فى الوقت الحاضر ، أى كوصل ما بين هذين العالمَين اللذَين تَفصِل بينهما هُوّى عميقةٌ لِما بينهما من اختلاف فى المشاعر والأفكار والاحتياجات والمعتقدات ، والحقُّ أن هنالك وجهَ شَبَه بين علم الاجتماع والتاريخ الطبيعىّ فى أن الروح ، كالجسم ، لا تستطيع أن ترتقى من طور ابتدائىّ إلى طور راقٍ من غير أن تجاوز ما بين هذين الطورين من الأطوار الوسطى ، والحقُّ أن شأن التربية كشأن النُّظُم ، فما لاءم منها احتياجات أمة لا يلائم احتياجات أمة أخرى .

أثّر صُراخ مبشرى البروتستان ومحبى الإنسانية فى الإنكليز المحتاجين إلى موظفين من الدرجة الثانية فما دونها لإدارة الشؤون العامة فى الهند ، فعقَد الإنكليز النية على فتح مدارسَ لإعداد مثل هؤلاء الموظفين ، ومن الطبيعى أن كان التعليم الذى يناله هؤلاء ملائماً لِما فى برامج المدارس الابتدائية بأوربة وأن كان الإنكليز يقومون به .



١٨٥ ــ أسلحة وأدوات هندوسية مختلفة ، حلى ، خوذة مغولية ، كلاب حديدى مكفت ، يستعمل لسوق الفيلة ، حذاء مزين باللآلئ لأمير مسلم هندى

والهندوس هم الذين يتلقَّوْن ذلك التعليم بمقدار كبير منذ ثلاثين سنة ، فأسفر ذلك عن ظهور طبقة خاصة شاملة لمئات الألوف من المُثقَّفين فى الوقت الحاضر .

والمُثقَّف الهندوسىّ الذى هو من تلك الطبقة طابع عقلىّ خلقىّ خاصّ ، ويمكن درس أمره كعرقٍ ذى وصف معين ، ولا شىء كهذا الدرس يثبت خطر التربية الحديثة عندما يُنْعَم بها على أدْمغة غير مستعدة لتلقيها ، وهذه التربية هى التى تُمَدّ فى الوقت الحاضر تِرْياقاً عاماً .

ولا نرى ما هو أفضل من وصف المُثقَّف الهندوسى بالذى فقد اتِّزانه عقلاً وخُلقاً ، فما حُشِر فى دماغه من الكلمات يُثير عنده من الأفكار الغريبة ما يَعْجِز عن إدراكه ، وإذا ما نُظِر إلى التعريف الذى لا قيمة له لدى العاجز عن إدراك ما يثيره من الأفكار أو ما يماثلها عُدَّ ذلك المثقَّف المسكين بالنسبة إلى العالَم الجديد الذى نقلته تربيته المصنوعة إليه كالأعمى الذى يُحْمل على معرفة الألوان بوصفها له بألفاظ ، ولا شىء يَعْدِل عدمَ ارتباط أفكاره غيرُ هَوَسه المستعصى فى الكلام بلا هدوء وبلا تعقل ، فإذا وُجِد فى إحدى المحطات ولَقِىَ أوربياً سأله بوقار ، ومن غير أن ينتظر جواباً ، عن ترجيحه شكسبير على يونس التيرانى وعن اصطياد مليكة إنكلترة للنمر وعن الروبيات التى يكسِبها العالِم الأوربى فى كل سنة وعن المِهْنة التى يرغب فى تدريب أولاده عليها .

ولا أمرَ يُثير الدَّهَش أكثرُ من عدم ارتباط أفكار المثقف الهندوسى ، فليس وِشنو وشيوا وجوبيتر والتوراة وولىُّ عهد إنكلترة وأبطال الإغريق والرومان والجمهورياتُ القديمة والممالك الحديثة إلا أشياء ترقص فى رأسه رقصَ الساراباند فى سَواء الجحيم ، وهو يعتقد أن مليكة إنكلترة ووزيرها الأول وولىَّ عهدها ثالوثٌ

مشابه لثالوث برهما ووشنو وشيوا ، وهو يُفسّر ما علمه من المبادىء الحديثة على حسب مبادىء عرقه الموروثة التى لا ينتهى إلا إليها ، والتى لا يستخفّ إلا بها ، مع ذلك ، وَفْقَ الهُوِىّ التى أغرقته فيها تربيته الإنكليزية ، قال العالم الإنكليزى المعتدل الأستاذ مونيه وليامز :

« لم يَرُقْنى ما أسفرت عنه تربيتنا التى نُطَبِّقها على الهندوس من النتائج ، فقد وجدتُ بين هؤلاء متعلمين قليلين جداً ، ووجدت بينهم كثيرين من شباه المتعلمين، ووجدت معظمهم ناقصى التعليم فاقدى الاتزان ، أَجَلْ ، قد يَقْدِر مثقفو الهندوس على القراءة الكثيرة ، ولكنه لا حاصلَ لِما يُفكِّرون فيه .

« هم ثَرْثارون ، ويُخَيِّل إلى الناظر أنهم يَقْذِفون من أفواههم كلاماً لم يَهْضِموا معانيه ، ويدلّ كلامهم وحركاتهم على أنهم من القاصرين ، ويُهْمِلون لغتهم ويزدرون آدابهم وفلسفتهم ودينهم من غير أن يكتسبوا شيئاً من صفات الأوربيين ، ويَصُوّبون إلينا ما يقتبسونه منا غير شاكرين ، وهكذا ينتقمون منا لِما أصابهم من الانحطاط بسبب تربيتنا » .

وليس ما أصابت به التربية الأوربية الهندوسىَّ المثقف من انحطاط الخُلق بأقل مما أصابته به من انحطاط الذكاء ، وإننى قبل أن أبحث فى هذه الناحية أذكر ما قاله عن أحوال الهندوسىّ المثقف السيدُ ملبارى الذى ظهر فوق مستوى بنى قومه الهندوس فكان كتابه الصغير النفيس عن كجرات نافعاً لى فى غير موضع ، فإليك قول السيد ملبارى عن نفسه وعن صديقه الذى اشترك معه فى إصدار جريدة ، وإصدارُ الجرائد مما يَصْبو إليه مُثَقَّفو الهندوس ، وفيما تتمتع به الصّحافة من الحرية ما يشبع هومَهم :

«لم يَقِف جهلنا وصَلَفنا عند حدّ ولكن ، ألم يكن من الفاخر أن يُنتقَد أكرم رجال الإمبراطورية وأن يُسْخَر منهم ؟ كتب صديق (ب) كلمة عن معركة بلاونة ذات يوم فسألني عن الباب العالى ، فأجبته بأن الباب العالى هو زوجة سلطان الترك المُفضَّلة ، فأنبأني صديق (ب) بأنه كان يَظُنّ أن الباب العالى هو خديو مصر عند الأوربيين ، فمِثْلُ هذا كان يَتّفِق لنا فى الغالب فنُحَمَّل جريدتَنا أوزاراً مضاعفة ، فلما عَلِمْنا فى الغد وجهَ الخطأ لَعَن كلٌّ منا صاحبَه » .

يُضاف إلى ذلك الارتباكِ الفكريّ الهائل لدى الهندىّ المثقف تجريدُ التربية الأوربية إياه من أىّ خُلُق ، فما كان يستند إليه فى سَيْره من الأُسُس الدينية المتينة قد زال إلى غير رجعة ، فهو قد خَسِر إيمان آبائه من غير أن يستبدل به مبادىء سَيْر الأوربىّ ، فانحصر صدقه فى مراعاة قواعد الأخلاق العامة التى يَحْمِله الشُّرْطِىّ عليها .

واضطرُّ الإنكليز إلى اتخاذ أدقّ ضروب الحذَر ومالا حدّ له من الرَّقابة ليحولوا دون اختلاس مُثقَّفى الهندوس ، ولا شىء أدعى للخوف من دوائر البريد والنقل فى الهند ، فلا نصيبَ لكتاب يُظَنّ أنه مشتمل على أوراق ذات قيمة لثِقَل وزنه بأن يَصِل إلى المرسل إليه ما لم تكن قيمته مضمونة ، وقد عانيت الشىء الكثير حين سياحتى فى بلاد الهند من أجل صناديق المحتوية على أدواتى العلمية ، فقد كان مُثقَّفو الهندوس الموظفون فى الخطوط الحديدية يظنونها مملوءةً بالروبيات لثِقَلها فيكسرون أقفالها ، فاضطرِرْت إلى حفظ أدواتى تلك فى ظروف معدنية مُحْكَمة اللَّحْم ووضعِ هذه الظروف ، المكتوب عليها أنها شاملة لمتفجرات ، فى صناديق خشبية ، فأدى ذلك إلى زُهْد أولئك الموظفين عنها حَذَرَ الخطر .

وذلك الموظف الهندوسيّ المثقف النَّذْل أمام سادته الإنكليز ذو عُتُوٍّ تجاه بني قومه من أصحاب المصالح ، وأولئك الموظفون هم المديرون الحقيقيون للهند ماداموا عُمّالاً في الإدارة الإنكليزية ، وما كانوا ليَرْضَوْا بذلك ، فتراهم يحلُمون بحكم الهند في سبيل مآربهم الشخصية .

ذلك هو هدفهم الدائم ، وإذا خلا ثلاثة أو أربعة بعضهم إلى بعض لم يبحثوا في غيره ، ثم يحتدم الجدل بينهم فلا يتناوبون القول بل يتكلمون معاً ، وهم إذا ما سكتوا فلأنهم يَشْعُرون بحُظًا أوربيّ ، وهذا الأوربيّ إذا ما دَنا تفرقوا هنا وهنالك مُتَنهِّدين ، وما أشدّ اشمئزازي حين مقابلتي بين نذالة الموظف الهندوسيّ المثقف تجاه الأوربي وتَصْعِير[1] خَدِّه لأبناء أمته ، فالجهلُ أحبُّ إليَّ من تلك الدناءة والوقاحة .

والإنكليز يَعْرِفون أولئك المثقفين جيداً ، فيعاملونهم بجَفاء وغِلْظَة لا يُقِرُّهم السائح الأجنبيّ عليهما أولَ وَهْلَة ، واللغة التي يكلمهم الإنكليز بها هي لغة السِّياط التي يلجأون إليها حين لا ينفع الوعيد والتهديد ، والسائح إذا ما أقام بالهند بضعة أيام لم يلبَث أن يعترف بأن تلك وسيلة لابدّ منها لحمل أولئك المنحطين على التزام جانب الحِشْمَة والابتعاد عن ضروب الوقاحة ، ومن النادر أن يسمح إنكليزيٌّ لهندوسيّ من ذلك الطِّراز بأن يَرْكَب معه في حُجَيْرَة واحدة من حُجَيْرات مركبات القِطار مع أن هذا من أقصى آمال الهندوسيّ ، وقد اعتراني الدَّهَش من هذه الشدة في البَداءة ، فما حدث أن رَكِب هندوسيٌّ من أولئك في المركبة التي كنت فيها فأَنِس إلى قبولي

(١) صعر خده : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبراً .

إياه بلطف فعَنّ له أن يَدُلّني على مركزه الاجتماعى فأسند رجليه إلى ظَهر الصُّفّة بما يحاذى مستوى رأسه ثم أشعل سيغاراً كبيراً و بَصَق على سقف المركبة وزجاجها ، ولم يكن ليَقْطَع ما يفعل إلا ليسألنى بأسخف الأسئلة عن مقامى الاجتماعىّ ووسائل عيشى ونفقاتى وما إلى ذلك من الأمور التى جعلت البقاء فى حُجَيْرتى أمراً لا يُطاق، فلما بلغنا أقرب محطة رَكِب إنـكليزىّ فى حُجَيْرتى تلك فصمت ذلك الهنـدوسىّ وتَـكَمَّش عالماً ما ينتظره ، فأمسكه الإنكليزىّ من أذنه وطرده من مركبتنا قائلاً له : اخرُجْ !

وليس من الصعب إخضاع تلك الزمرة من مثقفى الهندوس المتوترى الأعصاب الجُبناء كالهِرَر ، والذين عَدَل الإنـكليز عن استخدامهم كوَقّادين أو ميكانيكيين أو سائقين لِما رَأَوْه من وثوبهـم من القاطرات عند الخطر وفرارهم فى الحقول طلباً للنجاة ، والخطر إذا ما بدا فى خطّ حديدىّ وُجِد موظفو المحطات المجاورة بعد زمن، لا ريب ، متسلقين للأشجـــار أو مختبئين فى المغاور أو متـكدسين فى الغُرَف متحسرين قانطين .

ذلك هو أثر التربية الأوربية فى شعب غير ناضج ، ويمكن تقدير ذلك بأحسن مما تقدم عند المقايسة بين أولئك المثقفين ومن تخرّج فى المدارس المحلية الخالصة ، فهؤلاء يظهرون مُتَّزِنين مُهَذَّبين محترَمين جـديرين بأن يَتَبَوّأوا مقـاعدَ فى أرقى مجالس أوربة العلمية على خلاف أولئك المثقفين الوُقّح الأنذال .

وترى الإدارة الإنـكليزية مضطرة إلى استخدام أولئك المثقفين مع احتقارها لهم لِما يتعـذر عليها من أن تجِد أوربياً يرضى براتب مثـــل رواتبهم ، والإدارة

الإنكليزية إذا ما احتملتهم فلأنهم شرٌّ لابُدَّ منه ، وهذا مع علمها التام درجةَ عداوتهم الكبيرة لها .

ولا أجِد مايَشْمَل النظر أكثرَ من تحويل التربية الأوربية الهندوسَ الموصوفين بالدَّعة فيا مضى إلى أعداء أشداء للبريطان ، ويمكن تَمَثُّل ما وَصَل إليه حقدهم على البريطان من الحملات التى تُوَجِّهها الجرائد المحلية إليهم كلَّ يوم ، وإذ إن رأى الأجنبى فى هذه المسألة يكون مَوْطِن شبهة بحكم الطبيعة ، وإذ إن الشواهد التى يمكننى الاستناد إليها تأييداً لدعواى هذه لا تكون مقبولة إلا بكثرتها فإننى استشهد ، مُرَجِّحاً ، بالأستاذ مونيه وليامز الذى يَعُدُّ أبناء وطنه الإنكليز أحكامَه صائبة جداً فى أمر الهند ، فاسمع ما قاله فى الطبعة الثالثة من كتابه : « الهند الحديثة » :

« يؤسفنى أن أقول إن رِحلاتى فى الهند أثبتت لى وجودَ هُوَّة بين الإنكليز والهندوس تُصْبِح مجاوزتها بعد ثورة السپاهى متعذرة شيئاً فشيئاً ، وأعمقُ من تلك الهُوَّةُ الموجودةُ بين الشعبين فى جنوب الهند » .

وقد لاحظ ذلك الأستاذ أن الهندوس المثقفين يُوَجِّهون إلى الأوربيين تعبيراً مشابهاً لتعبير البرابرة ، وأن هذا التعبير لا يكفى للإعراب عن حقدهم الهائل على سادة الهند فقال :

« رأيت أن استخفاف أولئك بحضارتنا وبنا كاستخفاف أجدادهم بالوحوش الفطريين ، مع ما لدينا من أسلاك البرق والخطوط الحديدية ، فهم يعتقدون تفوقهم علينا خلقاً وديناً وعقلاً » .

واليومَ أخذ ذوو البصائر من الإنكليز يدركون مخاطر التربية الأوربية ، فإليك

ماقاله أحد حكام الهند سِير الفرد ليل فى كتابه : «مباحثُ فى طبائع الشرق الأقصى الدينية والاجتماعية » :

« ظاهرةُ الوضع الحاضر فى الهند هو أننا نَنْشُر نظريات الحقوق السياسية وبذورَ النُّظُم التمثيلية بين شعب كان يملكه سادة غيرُ مسؤولين فى غضون القرون ، والهندُ ، كما تعلم ، بلدٌ لم يكن له عهد بالحريات المحلية وبعادات الاستقلال منذ زمن طويل أو بلد لم يعرفها قط ، وفى الهند ، حيث لم يتقدم العلم فى وقت إلى أبعدَ مما كان عليه فى أوربة فى القرون الوسطى ، نُطَبِّق أصول التربية الحديثة .

« ومن البديهىّ أن يُؤمن بالتربية فلاسفةُ السياسة ، كعلماء الاقتصاد فى فرنسة وميل وستيوارت ميل فى إنكلترة ، وأن يقولوا إنها تقوم بدور المُسَكِّن المُلَطِّف عند الفَوَران الاجتماعى والانقلاب الثورىّ ، أو إنها تمنع الشعب من التطاول إلى الوظائف السياسية التى لم يتعود ممارستها ، ونحن نقول إن التربية العامة إذا وُضِعَت فى غير محلها كانت سبب اضطراب فى بعض الطبقات وعاملَ انحلال فى النظام الاجتماعى القديم ، وذلك كما يُرَى فى الهند التى تقوم الحكومة فيها بنشر التعليم العامّ مستعينةً بمعلمين من الأجانب الذين يُوَجِّهون هَمَّهم إلى بذر أحدث النظريات العلمية والسياسية بين شعب لم تُؤَهِّله عاداته وثقافته السابقة لتَلَقِّى هذه النظريات وإلى إدخال تربية عصرية خالصة إلى شعب قام كلُّ تعليم فيه على الدين منذ أقدم الأزمنة » .

اتّسع نطاق مثقفى الهندوس أولئك ، على الخصوص ، فى زمن نائب الملك الذى حَكَم الهند قبل حاكمها العام الحاضر ، فنائب الملك ذلك إذ كان مسيحياً مؤمناً قائلا إن الناس يُولَدون إخوةً متساوين حقوقاً وذكاء وإن من الممكن تحويلَ مثقفى

الهندوس إلى أوربيين بين عَشِيَّة وضُحاها نال أولئك المثقفون حُظْوَةً لديه ، فما كان أسوأ عَدُوّ يجلس على عرش الهند ليُسيء إلى إنكلترة بهذا المقدار ، فأولئك المثقفون الذين أصبح لهم بعض الحقوق النظرية بذلك أخذوا يملأون الصحف المحلية بأعنف الحَمَلات وأشدّ الشكايات ، فالحقُّ أن روسية لو بلغت حدود الهند وفازت بشيء لوَجَدت المثقف الهندوسيّ حاضراً لرفع راية العصيان فى سبيلها ، والحقُّ أن ذلك المثقف المُسْتَحِرّ ضدّ السلطة الإنكليزية هو كالأَرَضَة الخفيَّة التى تَقْرِض أسفلَ التمثال الهائل .

أسهبتُ قليلاً فى بيان نتائج التربية الإنكليزية فى الهند ، وعلةُ ذلك أنك لا تجد فى التاريخ مثالًا أوضحَ من مثال الهند فى إثبات الخطر الذى يَنْجُم عن مَنْح أمة تربيةً غيرَ ملائمة لمزاجها النفسى ، فقد أدّى تطبيق التربية الأوربية على الهندوسىّ إلى تقويض ثقافته السابقة التى تمّت له مع الزمن وإلى إحداث ما لم يَعْرِفه من الاحتياجات من غير أن تَمُنّ عليه بوسائلِ قضائه ، وإلى جعله بائساً عدواً لمن طبَّقوها عليه ، حقّاً أن الهندوسىّ المثقف يألَم بمرارة من سوء حاله ، وحقّاً أن له فى الحوادث القادمة ما يَقْدِر به على الانتقام فعلاً لا قولًا ، فيَتِمُّ على يده زوال السلطة التى رَبَّتْه .

٣ — مستقبلُ الهند

ليست مسألة مستقبل الهند هى مسألة مستقبل السلطة الإنكليزية فيها فقط ، بل نُبْصِر لهذه المسألة ، أيضاً ، أفقاً أبعد مدى من ذلك ، فعلى الأمر تتوقف نتائج الصِّراع بين الشرق والغرب اللذيْن يَفْصِل أحدَهما عن الآخر هُوَّةٌ عميقة ، وإننى

قبل أن أتكلم فى هــذه المسألة فى مجموعها أقول بضع كلمات حَوْل مستقبل سلطان الإنكليز الممكن فى الهند .

يرى القارىء المطلع على أحوال الهند الحاضرة ، كما بيَّنَّاها فى هــذا الكتاب ، أن أمل الهندوسىّ فى حكم نفسه بنفسه ضعيف جداً وأنه قُدِّر عليه أن يكون قَبْضَة الفاتحين من الأجانب .

يَعْجِز الهندوس عن تأليف أمة واحــدة عَجْزَ الأوربيين عن ذلك ، وتنتسب شعوب الهند إلى عروق مختلفة ذاتِ مصالحَ متباينة فلا يستطيع الهندوس أن يكونوا إلباً[1] واحداً على الأجنبى المسيطر ، ولنفترض إمكان اتحاد شعوب الهند فى الوقت المناسب لطرد عدوّها المشترك ، فإذا تمّ لها ذلك لم تلبث أن تتقاتل بعــد انتصارها مثل ما وقع عند انهيار دولة المغول حين عَمَّت الفوضى بلاد الهند ، فيهتبل غزاةٌ من الأجانب فُرْصة ذلك ، فيفتحون الهند بتسليط بعض أهاليهــا على بعض كما فعل فاتحوها فى كلّ زمن مضى ، ولذلك أرى أن كلّ ما يمكن الهندَ أن تطمع فيــه هو أن تستبدل بسادتها سادةً آخرين ، فلعلها تصبح أحسن حالاً ، وهــذا ما أشكُّ فيه .

وشَبَح سلطان الروس هو الذى يبدو فى الوقت الحاضر على الأقل ، فلم تَتَوان روسية فى التقدم إلى الهند ، وقد لا يمضى زمن قصير حتى تكونَ على أبوابها ، فيعود إلى مَمَرّ كابُل ، الذى عَبَره الفاتحون فى كلّ حين ، سابقُ شأنه .

يَحِيق الخطر بسادة الهند الحاليين ، ولن يستطيعوا تداركه إلا بصالح الإدارة ،

---

(١) الإلب : القوم تجمعهم عداوة واحد فيقال : « هم على إلب واحد »

ومن حسن السياسة أن يستميلوا آلهة الهند بأن يدافعوا عن منافع الهند الدينية لِما لهذه المنافع من الشأن الأول فيها وأن يناضلوا عن التقاليد والعادات القديمة لِوَلُوع الهندوس بمُقَوِّمات ماضيهم ، ومن حسن السياسة ألّا يضعضعوا الإيمان القديم وألا يَبْذُروا روح الجَدَل والشكّ بنشرهم أصول التربية الغربية بدون تبَصُّر ، فلو كان للهندوس فوائدُ حقيقية من هـذه التربية لقلنا إن حبّ الإنسانية لدى الإنكليز تَغَلّب على مصالحهم الخاصة ، ولـكن الواقعَ غيرُ ذلك ، فلم تُؤَدّ التربية الغربية إلا إلى سُخْط الهندوسيّ على سوء حظه وارتباك فى أخلاقه وما إلى هذا مما يجعله نصيراً لـكلّ فاتح مهما كان أمره .

ولم يَبْدُ من ذلك الشرّ غـيرُ أوّله ، ولم يُصَب به سوى بضعة آلاف ، وأما الملايين من إخوان هؤلاء فلا يزالون واهمين فى أنه لم يُبَدَّل من الأمور سوى اسم السلطة العليا ، والسلطة العليا هى التى عَانَوْا حكمها فى غضون القرون فأيقنوا أنهـا أمر لا رادَّ له فعَدَوْا غير مكترثين له .

وما هو الداء الشديد المفقود الذى تبحث عنه عروق الهنـد المُسِنّة حينما تَبْلُغ الأزمة التى تتدرج إليها ذُرْوَةَ حِدَّتها فتصبح أمراً لا يطاق ؟ أتسفر عن بعث إسلامى كما يَتَنَبّأ به بعضهم ، والإسلام يسير قُدُماً فى الهند ؟ أم إن دولة أوربية أخرى تغتنم فرصة ما يُقْتَرف من الأغاليط ، فتبدو ، كما يدلّ عليه كلُّ شىء ، المنقذَ الذى تنتظره النفوس المضطرِمَة الضالّة التى لا دليل لها ؟ لا يستطيع أحد أن يُنْبِىء ، لا ريب ، بما قد يحدث فى القريب العاجل ، وإنما الذى لا شكّ فيه هو أن معنى الاستقلال الحقيقىّ سيظلُّ خافياً على الهند عِدّةَ قرون أخرى ، فالهند إذ تَعَوَّدت الخضوع

لسادة من الأجانب منذ زمن طويل كُتِب عليها أن تكابد رنير الأوربيين مرةً أخرى إلى أن تصبح آلة بيد عرق آسيوىٍّ مرهوب ، فحينئذ يصبح هؤلاء المغلوبون منذ القديم غالبين لنا ، على ما يحتمل ، مستعينين بإخوانهم من أبناء الشرق الذين يقومون مقامنا فى قيادة البشر تبعاً للسنة الحديدية القائلة بسلطان الأقوى فتهيمن على مقادير الأمم .

ومقامٌ كذلك ستناله أمم الشرق بغير قوة المدافع مع ذلك ، فلابدّ من تغيير نوع الأسلحة بسبب تطور الصِّناعة الحديثة ، فلا تلبث ميادين القتال أن تنقلب إلى أسواق للسلع ، فهذه الأسواق ، وإن كانت فى الظاهر أقلّ سفكاً للدماء من ميادين القتال ، أشدُّ منها هولاً ، وبيان الأمر أن البشرية التى اتخذت الكهرباء والبخار دليلين لها ستدخل دوراً حديدياً يكون الصراع فيه من أجل الحياة قاسياً جداً فلا يَترُك للرحمة مجالاً ، وقديماً قال العرب : « لا يَنبُت العُشب على أرض يطأها الترك » ، والعُشب قد يَنْبُت فى الأماكن التى ستشهد ذلك الصراع ولكنه سيكون من النادر أن تكون تلك الأماكن هى التى سَيَرْعَى الغالبون مواشيَهم فيها .

هنا نَصِل إلى تعميم المسألة التى أشرنا إليها آنفاً فتدلّ على أن مسألة مستقبل الهند أبعد مدى مما نتصوره أول وَهْلَة ، فعلى هذه المسألة يتوقف مستقبل أوربة فى الحقيقة ، فلْنَدْرُس هذه المسألة الهائلة .

ظَلَّت الهند ، منذ أكثر من ألفَىْ سنة ، موضعَ طمع كبير لجميع الأمم التى عَلِمَت أخبار عجائبها ، وانتقلت الهند من سيد إلى سيد على الرغم من الحواجز التى تحميها ، ولم يَحُل ما مُنِيَت به الهند من ضروب المغازى والفتوح دون بقائها على ما

هى عليه فى كل حين ، وتشابه الهنـد أرض الفراعنة الحافلة بالأسرار فى ازدرادها لقاهريها .

بيد أن الهند لم تَعرِف لها سادة من غير الشرقيين إلى أواخر القرن الماضى ، فلما فتحها الأوربيون وَجَدت نفسَها ، لأول مرة ، أمام شعوب تختلف عن شعوبها أشدّ الاختلاف ، فيَتَعذَّر عليها أن تبتلعها ، ولم يَعرِف التاريخ منذ أقدم الأزمان تواجه عنصرين ذلك مدى اختلافهما فى أرض واحدة مع كثافة جموع .

١٨٦ — قطعة من تصوير هندوسى فى القرن الخامس على جدار بأجنتا ، وتمثل هذه الصورة محاولة العفاريت أن يغووا بدهـة (يمكن النـاظر أن يتمثل حال التصوير الهندوسى منذ ١٣٠٠ سنة من هذه الصورة مع ما أصاب تصاوير الجدر بأجنتا من التلف)

إنـكلترة هى عنوان العالَم الغربىّ بحضارته المُعقَّدة وتقدمه على نسبة هندسية وسَيْرِه سريعاً إلى مستقبل مجهول متذرعاً بما لديه من القُوَى الجديدة ، والهند هى عنوان العالَم الشرقىّ الثابت الخيال والناظرِ إلى المـاضى ، لا إلى المستقبل ، مستوحياً أفـكار الأجداد والآلهة بلا انقطاع .

ويتوقف مصير الهنـد على نتيجة الصِّراع الراهن بين الشرق والغرب ، ولا يزال القتال فى مرحلته الأولى مع تواجه ذينك العـالمين غيرَ مرة فى الميدان ، وليس دَحْر العرب من فرنسة ومن إسـبانية ومهاجمةُ العرب فى عُقْر دارهم أيام الحروب الصليبية الهائلة وتدويخُ إنـكلترة للهند وسدُّ الصين المنيعُ الذى صَدَّعَته المدافع إلا أنباء حرب بدأت منذ قرون ، غير أن هذه الأنباء لم تـكن ، بالحقيقة ، سوى أخبار مناوشات بسيطة إذا ما قيست بالصِّراع

المرهوب الذى تسفر عنه طرُق المعايش الحديثة الناشئة عن مبتكرات العلوم فى الوقت الحاضر بحكم الضرورة .

أدت سرعة وسائل النقل التى نجَمَت عن البخار والكهرباء إلى تقريب المسافات فأوجبت اتصال بعض أمم الأرض ببعض اتصالًا وثيقاً ، فعاد النهران اللذان اقتسما مجرى الروح البشرية (أى النهرُ الشرقىّ الكبير الهادى، العميق الجليل البطىء والسيلُ الغربىّ الصائل السريع) لا يَجْريان فى أودية مختلفة ، أَجَلْ ، إن التوازن بين المَجْرَيَيْن ، اللذين اختلطت مياههما ، سيقع ذات يوم فى ذينك العالمين ، ولكنك إذا بحثت فى كيفية حدوث هذه التسوية المحتملة لم تَنْشَب أن تعترف بأنها لن تكون على ما فيه خير الغرب .

وإذا جاز لنا أن ندرك النتائج من العلامات الراهنة التى تزيد كلّ يوم قلنا إن النتيجة الأولى لاقتراب ذينك العالَمين بفعل البخار والكهرباء هى تَساوِى قِيَم السلع الصناعية والزراعية ، ومن ثَمّ تَساوى أجور العمالِ فى الدنيا قاطبةً ، ومن الطبيعىّ أن يُحَدَّد مُعَدَّل هذه الأجور بحسب ما يناله عمال الأمم الأقلّ احتياجاً والأرخص إنتاجاً ، والشرقيون الذين يتألف منهم مُعْظَم البشر إذ إنهم أكثر الناس زهداً وقناعةً يكونون بحكم الضرورة الناظمين للأجور فى مزاحمة كتلك ، ومن ثَمّ يكونون أكثر الفريقَيْن استفادة من ذلك الاقتراب ، نَعَمْ ، قد ترتفع أجورهم عن المستوى الأدنى بنسبة نفقات النقل الضئيلة ، ولكن ما يطرأ على أجور عمال الأوربيين من الهبوط سيكون عظيماً جداً لا محالة .

ولا يحتاج الباحث إلى نظر ثاقب ليَتَبَيَّن فى الأفق علائمَ الصِّراع بين عالَمين ، لا أمتين ، فيؤدى هذا الصِّراع إلى أشدّ النتائج هَوْلًا ، فها هو ذا قمحُ الهند يُباع

فى أوربة بأرخص من حبوبنا فيورث زراع فرنسة بُؤْساً وقنوطا[1] ، وقد أخذ زُرَّاع أوربة يُفَكِّرون فى ترك الصِّراع مع ما يجدونه من نُظُم الحماية العاجزة ، وما أكثرَ الحقولَ التى لم تَجِد لهـا مزارعين يقومون بزراعتها فى مقابل تأديتهم الضرائب المفروضة عليها ، وماذا يحدث حينما تتوارى صِناعة الغرب أمام أمم تستعين فى صِناعتها بما لدينا من الآلات فتُنْتِج سلعاً أرخص مما ننتجه عشرين مرة ؟ سيرى المُعَدِّن ، الذى تَعَوَّد إنفاق خمسة فرنكات أو ستة فرنكات مُيَاوَمَةً فيُهَدِّد البنيان الاجتماعى بالهدم لأن أجرته اليومية لا تزيد على ثلاثة فرنكات أو أربعة فرنكات ، استيرادَ أرباب الصِّناعة من الصين الفحمَ الحجرىَّ الذى يستخرجه عمال يَعُدُّون أنفسَهم من السُّعَدَاء إذا ما نال الواحد منهم أجرة يومية تَتَرَجَّح بين خمسة دوانقَ وستةِ دوانق ، وقد يأتى زمن على العامل ، الذى يُضْرِب من أجل رفع أجرته ، لا يَجِد فيه مصنعاً يعمل فيه لِما تحتاج إليه مصانع الشرق الأقصى المُجَهَّزة بمثل آلاتنا من ذلك الفحم الحجرى والتى يقوم بشؤونها عمال تَقِلّ أجرة الواحد منهم عن أجرة العامل الأوربى عشرين مرةً فتَغْمُرُ العالَم بما تنتجه غَمْراً لا يَقِف أمامه أىُّ حاجز ، فمن أجْل هـذا ومن أجْل زوال المسافات ستتساوى قِيَم الموادِّ الأوليـة والموادِّ المصنوعة فى جميع الأسواق كما أن أجور العمال ستتساوى بحكم الضرورة ، فالحقُّ أن المزاحمة تتعذر بين فريقين من البشر يقضى أحدهما كالشرقيين احتياجاتِه بأجرة تَتَرَجَّح بين أربعـة دوانقَ وخمسة دوانق ويقضى الآخر ، كالغربيين ، احتياجاتِه بأجرة تزيد على تلك

(١) تتقدم زراعة القمح فى الهند تقدماً عجيباً بفضل ما أنشئ فيها من الخطوط الحديدية الكثيرة فلا نمثله بغير الأرقام ، فبعد أن كانت الهند تنتج منذ عشر سنين هكتاراً ونصف هكتار من القمح صارت تنتج اثنى عشر مليوناً فى الوقت الحاضر ، وأجرة الزارع فى الهند إذ كانت منخفضة فلا تزيد على أربعة دوانق فى كل يوم فإن قنطار القمح يصل إلى لندن فيباع فيها بسبعة عشر فرنكا .

عشرين مرة ، فلا يكون المَخْرَج من هذا المأزق ، إذ ذاك ، إلا بتنزيل أجور الفريق الثانى إلى مُعَدَّل أجور الفريق الأول .

ولا ريب فى أن تلك التسوية العامة التى سنرى فَجْرها عمّا قليل (وهى التسوية التى سَهُل أمرها ، على الخصوص ، بما ذكرته غير مرة مؤكداً فى كتبى ، وهو أن القيمة العقلية المتوسطة لدى أمم الشرق ليست دون ما يقابلها من طبقات أهل الغرب) لا تمنع أوربة من أن يكون لديها ما ليس فى الشرق من صَفْوَة رجال ، ولكن ماذا تصنع هذه الصَّفْوَة الكثيرة الذكاء ، والقليلة العدد تجاه تلك الجموع الزاخرة التى يتوقف عليها المصير ؟ وهل أنقذت صَفْوَةُ المفكرين والمتفننين والعلماء من الإغريق بلادَ اليونان من الفتح الرومانى ؟

ولا يَتِمّ النصر لأوربة فى ذلك الصِّراع الذى يتوقف عليه مصيرها بسبب حالتها الأدبية ، ومشاعرُ مجتمعات الغرب الهَرِم ، كما كانت عليه رومة فى دور انحطاطها ، تدور حول الظهور والتمتع بأطايب النِّعَم ، ونرى ثقافتنا العقلية نفسها تؤدى إلى ابتعاد ا عن العمل المنسجم وإلى انتخابنا وتقلبنا وعدم ثباتنا وإلى تشككنا العام وإلى اندثار عوامل السير والعزم فينا ، وفى صفات غير هذه تجد سِرّ قيام الدول العظيمة وسرّ بقاء هذه الدُّوَل ، والغربُ يَفْقِد بالتدريج ما لا يزال متيناً لدى الشرقيين من حُبّ الأُسرة واحترام الأجداد ومتانة المعتقدات ، وهذه المشاعر هى أساس التئام الأمم مهما كانت قيمتها الفلسفية ، وهى عواملُ القوة التى استعان بها أولو النفوس العالية فى قيادة العروق إلى النصر ، فإذا ما توارت هذه المشاعر لم تلبث المجتمعات المستندة إليها أن تَنْفَصِم عُرَاها فتنقلبَ إلى زُمَر مختلفة المصالح عاطلة من المشاعر المشتركة ، واليومَ تُبْصِر الأديانَ المُسِنَّة المحافظة على سلطانها فى الشرق ، مع وصفنا إياها بالأوهام ،

والتى شِيدَت باسمها أكبر الدول فتمّ حكمها بهـا ، تخْسَر نفوذها فى الغرب مقداراً فمقداراً، ولم يكتشف العلم بَعْدُ ما يقوم مقام الآلهة الميتـة ، واليوم نعيش بفضل ماض لا نؤمن به مُوَجِّهين وجوهنا إلى مستقبل لا يزال خافياً علينا .

وماذا يكون المَثَل الأعلى الجديد الذى يَصْلُح أساساً لمجتمعات الغرب القادمة ؟ لا يَقْدِر أحد على بيان أمره فى الوقت الحاضر ، ولا تجد مُعْضِلَة أشدّ خطراً وأبعدَ غَوْراً من تلك التى تَشْغَل بال المفـكرين ، ولا غَرْو ، فعليها يتوقف كياننا فى المستقبل، ولن تُعَدّ شعوب الشرق التى أمْعَنّا فى ازدرائها من البرابرة بعد اليوم ، ولا يزال منبع النشاط والفُتُوّة الذى استنفده الغرب فى القيام بجليل المشاريع وفى حقـل الفـكر والعمل راقداً فى أمم الشرق الـكبرى ، ولن تطول غَفْوَة هـذه الأمم الشرقية ، فقد دنا وقت يقظتها ، وحان الوقت الذى تُسْفِر فيه مغازينا وفتوحنا واكتشافاتنا وأفكارنا عن إخراج الشرقيين من طور القرون الوسطى الطويل الذى هم عليـه ، وحينئذ ينتصبون أمامنا (كما انتصب البرابرة أمام الرومان ، والعربُ أمام العالَم الإغريقى اللاتينىّ الهَرِم) بمثـل ما خسرناه من الحماسة والنشاط والآمال والخيالات ، هنالك تَمْلِك العالَمَ ، كما مَلَـكته فى الماضى ، أممٌ ذات مُثُل عالية قوية واحتياجات ضعيفة ، أقول ذلك وأنا أرى أن على أبنائنا أن يقوموا بعمل جِدّىّ إذا أرادوا البقاء قادةَ للعالم زمناً آخر وعدمَ الوقوع بسرعة فى الهُوّة الأزليـة التى يَجُرُّ تطور الأمور النـاسَ والدولَ إليها .



فهرس الصور

والخرائط

تقسم صور هذا الكتاب إلى خمسة أنواع وهى : ١ : المناظر ، ٢ : أمثلة العروق، ٣ : فن البناء ، ٤ : الفنون الجميلة (الرسم والحفر) ، ٥ : الفنون الصناعية .

وأ كثر هذه الأنواع هو ما اشتمل على صور التماثيل والمبانى ، وهو يكفى لتمثل فن العمارة والحفر فى الهند منذ البداءة إلى الوقت الحاضر .

ولا تجد فى أى كتاب سابق صوراً لأ كثر التماثيل والمبانى التى عرضنا رسومها فى هذا السفر ، وقد التقطناها من نحو ٦٠ بقعة ونشرناها على حسب الترتيب المدون فى الفصل « فن البناء » ، وترى هذا الترتيب فى الجدول الخاص بالمبانى .

---

(١) ذكر « رهط من الإيرولا » سهواً في الصفحة ١٦٢ مع أن الصحيح هو « اثنان من الإيرولا » فوجب التنبيه على ذلك .

فهرس الموضوعات

البـــاب الأول
البيئات

الفصل الأول
الأرض والأجواء

الفصل الثانى
وصف مناطق الهند العام

الفصل الرابع

الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين عروق الهند المختلفة

(١) ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة فى الهند من تماثل بين شعوب الهندوس - مابين فريق كبير من شعوب الهندوس من الصفات المشتركة - المؤثرات الجثمانية والعقلية التى أدت إلى هذه الأخلاق المشتركة - نظام الطوائف والنظام السياسى والمعتقدات الدينية الخ - (٢) الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس - الدماثة والصبر والتسليم والمداجاة وعدم النشاط وعدم التبصر وفقدان المبدأ الوطنى - نتائج عدم النشاط فى مصير الهندوس - الصفات الخلقية أفضل من الصفات العقلية فى تقرير مصير الأمم - مستوى الهندوس العقلى - مقابلة بين الهندوس والأوربيين - طبقات الهندوس الوسطى مساوية لطبقات الأوربيين الوسطى - طبقات الهندوس العليا هى دون طبقات الأوربيين العليا - قدرة الهندوس على الإدغام - ضعف رأيهم وبرهانهم - عدم الدقة فى تفكيرهم - الفروق بين العروق العليا وغيرها - تطبيق هذه الفروق على الهندوس - نتائج مزاج الهندوس النفسى - تقصيرهم فى العلوم وفى التاريخ - الخلاصة . (١٨٦ - ٢٠١)

البـــاب الثالث

تاريخ الهند

الفصل الأول

تاريخ الهند قبل المغازى الأوربية

(١) مصادر تاريخ الهند - نقص المصادر التاريخية - ليس للهند تاريخ - اقتصار تلك المصادر على المبانى والكتب الدينية والأساطير وأقاصيص قدماء السياح - أهمية المبانى والتماثيل والنصبات - لا يزيد تاريخ أقدمها على ثلاثة آلاف سنة - الأسس لتقسيم تاريخى - (٢) العصر الويدى - العصر الويدى هو عصر الهند الأساطيرى - المغازى الآرية - كتب الويدا - (٣) العصر البدهى - فقدان الوثائق التاريخية -

الفصل الثانى

صلات الهند القديمة بالغرب
تاريخ الغزوات الأوربية
كيف فتحت الهند

الباب الرابع

تطورُ حضارات الهنـــــد

الفصل الأول

حضـارة العصر الويديّ

وصف المجتمع الهندوسي قبل الميلاد بألف سنة

(١) عناصر بعث حضارات الهند ـ التقسيم إلى أعصر ـ الكتب الدينية ـ الحماسيات ـ الأساطير ـ أحاديث قدماء السياح ـ المباني ـ بطوء التطور في الهند ـ لماذا لم تجاوز شعوب الشرق أطوار القرون الوسطى بعد ـ تأثير التقاليد والمعتقدات ـ من أسباب جمود الشرق اختلاط شرائعه الدينية والاجتماعية على الدوام بدلا من فصل بعضها عن بعض كما في الغرب ـ المعتقدات الدينية في الشرق هي أساس جميع نظمه الاجتماعية ـ عناصر التقسيم لمختلف أطوار الحضارة في الهند ـ التقسيم إلى ستة أعصر ـ (٢) مصادر بعث الحضارة الآرية ـ غموض أصول العصر الآري ـ لم تصل إلينا منه آثار حجرية، وإنما انتهت إلينا منه كتب دينية ـ قيمة كتب الويدا ـ لم تكن هذه الكتب من عمل شعوب فطرية، بل من وضع فريق من الأدباء وعلمـــاء اللاهوت ـ (٣) أصل الآريين ـ مقايسة بين الآريين وقدماء الفرس ـ غموض أصل الآريين ـ الفرضيات الحديثة ـ أدخل الآريون إلى الأمم المقهورة حضارتهم ولغتهم، لادمهم ـ توارى الآريين عن الهند ـ (٤) الأسرة عند الآريين ـ كانت الأسرة والعرق أساس المجتمع الآري ـ ارتباط الفرد الوثيق في أجداده وحفدته ـ كانت الأسرة، لا الفرد، أساس الوحدة ـ لم تكن الديانة غير عبادة العرق والأسرة ـ خلط الآلهة بالأجداد ـ أهمية ما يقرب إلى أرواح الأجداد من القرابين ـ حال المرأة عند الآريين ـ سلطان رب الأسرة المطلق ـ (٥) نظم الآريين السياسية والاجتماعية ـ القرية وليدة الأسرة الكبيرة ـ لا يزال نظام القرية، كوحدة سياسية، باقياً إلى أيامنا في الهند ـ (٦) الحياة عند الآريين ـ فنونهم ـ طرق معايشهم ـ الميسر والملاهي والمآتم الخ. ـ (٧) مبادىء الآريين اللاهوتيـــة والدينية ـ لا آلهة معينة عند الآريين ـ تشتمل كتب الويدا على أكثر المبادىء الدينية

الفصل الثالث

حضـــــارة العصر البُدّهي

(١) الوثائق التي يستعان بها في تمثل المجتمع الهندوسي حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد - دام العصر البدهي في الهند نحو ألف سنة — قلة الوثائق التاريخية وكثرة المباني الحجرية في العصر البدهي — مخطوطات نيبال — رحلات حجيج من الصين — (٢) القصة البدهية — تحول العالم البرهمي القديم في أوائل العصر البدهي — حياة بدهة كما جاءت في لليتا وشتار — ولادة بدهة - يأسه - تأملاته في أسباب الألم — نظرياته في هـدف الحياة و بؤسها — (٣) الديانة البدهية — الأدب الذي نجم عن البدهية — لا تمس البدهية الآلهة القديمة — مذهب الكرما — الأسباب الأدبية والمادية التي انتشرت بها البدهية — تأثير البدهية الواسع في آسية - بماذا تختلف البدهية عن البرهمية — (٤) البدهية كما جاءت في المباني — رأي علماء أوربة في إلحاد البدهية — فساد هذا الرأي — البدهية أكثر الأديان إشراكا — مطابقة ما جاء في الأقاصيص لما في المباني — ما في البدهية من التأملات اللاهوتية يرى في جميع ديانات الهند — نشوء النظريات الفلسفية حول البدهية نشوءاً مؤازياً لها مستقلا عنها - مصدر ما في أوربة من الأغاليط حول البدهية - يجب عد البدهية متطورة عن البرهمية — (٥) توارى البدهية عن الهند — تؤدي دراسة مباني نيبال وسائر بلاد الهند إلى تفسير ذلك الغياب — البدهية في نيبال - الثالوث البدهي — امتزاج البرهمية والبدهية في نيبال — (٦) المذاهب الفلسفية في البدهية — بطلان الأشياء — مختارات من كتاب بدهي حديث — (٧) المجتمع البدهي — روح الاتحاد والاحسان والرحمة — رحلات الحاجين الصينيين فاهيان وهيون ين سانغ في الهند — ما انتهى إلينا منهما عن المجتمع البدهي — الخلاصة . (٣٤٠ — ٣٩٥)

الفصل الرابع

حضارة العصر البرهمي الجديد

وصفُ المجتمع الهندوسيّ حَوَالَى القرن العاشر من الميلاد

(١) العناصر التي يستعان بها في بعث العصر البرهمي الجديد — غموض تاريخ الهند فيما بين القرنين الثامن والثاني عشر - مباني ذلك العصر وكتاباته وأساطيره —

الفصل الخامس

حضارةُ العصر الهنديّ الإسلاميّ

وصفُ المجتمع الإسلامي في الهند حوالَي القرن الخامس عشر

الباب الخامس

آثار حضارات الهند

الفصل الأول

آداب الهند ولغاتها

الفصل الثاني

مباني الهند

الفصل الثالث

العلوم والفنون

الفصل الرابع

الإدارة الإنكليزية

مستقبل الهند

